سيد القمنى



الأعمال ٣

عفاريت التراث ... وتراث العفاريت

الفاشيون والوطن ... رب الزمان ... السؤال الآخر

دار مصر المحروسة

عفاريت التراث
وتراث العفاريت

الكتاب	عفاريت التراث وتراث العفاريت
المؤلف	د.سيد القمنى
الطبعة الأولى :	القاهرة ٢٠٠٦
الناشر	دار مصر المحروسة
المدير العام	خالد زغلول
مدير النشر والتوزيع	يحيى إسماعيل
الغلاف	علاء قابيل
الإخراج الفني	طارق يحيى
رقم الإيداع بدار الكتب	٢١٧٤٩/ ٢٠٠٥

١٢ شارع قولة إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة
تليفون - فاكس : ٣٩٦٠٥٠٠
d_misr _ elmahrosa @ hotmail . com

عفاريت التراث... وتراث العفاريت

سيد القمنى

القاهرة ٢٠٠٦

عفاريت التراث... وتراث العفاريت

١ - رب الـــــزمــــان

٢ - الســــؤال الأخـــر

٣ - الفاشيون والوطن

١ - رب الـزمـان

سيد القمنى

إهداء

صديقي:

أحمد صبرى إبراهيم أغا

كنت متشددا فى أمور الدين، وكثيرا ماكنت تعترض على منهجى فى تجديد قراءة التراث، وتتوقع لما أكتب هزيمة منكرة، لكنت رحلت قبل أن ترى المنهج يصبح مدرسة، ولو كنت حيا لفرحت من قلبك، فأنا أعرف الناس بك، أعرف كيف كنت تحب الله والزهور وأفلام الكارتون، والنبى وسيدى «أبو العباس» والروايات الكلاسيكية، أعرف كيف كنت تحب طين مصر وشم النسيم ورياح الخماسين والحديثة اليابانية، والمتحف المصرى وأم كلثوم وصديقنا التشكيلى «توران» البوذى، كذلك «بيكار».

برحيلك أيها الإنسان رحل صديقى الطفل الرائع، الأبيض الناصع، الذى آمن بالله صدقا فأحب الأرض والناس، وعاش من أجل الناس، طبق الأصل: مصرى حقيقى ممن كنا نعرفهم أيام زمان.

كنت تكره منظر الدماء حتى لوكانت ذبحا حلالا، وتفرح من قلبك عندما ترى عاشقين، وتحزن بعمق لخبر عن كارثة أصابت بشرا على الشاطىء الآخر من بحر الظلمات، ثم كنت تنصب بكل جوارحك لمحدثك رغم أنك كنت تخالفه حتى النخاع، ولم ترد على من لايعلم إساءته، لأنك كنت أعلم بقيمة الإنسان.

أخى ياإنسان: اسمح لى أن أقترب منك بهذا الكتاب كتبت نصفه وأنا بمستشفى القلب بين الموت والحياة وأحاول به التماس الدفء بالتماس مع ذكراك حتى أتيك أنيسا ورفيقا.

مقدمة الطبعة الأولى

قارئى..

أيها الصديق الرائع..

بك امتلىء وأشعر صادقا أنى كثير وقوى.

لقد قدر زماننا أن يفرزنا، فنحن فرز حراك واقع تلك الأيام، لذلك كان حتميا أن نلتقى هذه الحقبة تحديدا، وهو الفرز المطمئن الذى يدفع إلى التفاؤل، رغم الفرز غير المطمئن على الجانب الآخر، لذلك أوكد لك أنك وراء استمرار هذا المشروع، وبك وبأصدقائنا - أنا وأنت - من المهمومين بقضايا الأمة والحاضر والمستقبل، الذين يتابعون معك ومعى خطواتنا الثابتة الواثقة، أقول: بكم جميعا يستمر العمل على دأبه دؤوبا.

أصدقاؤك رفاق تلك السطور، يلتقون بى فى كل موطن، فى الندوة، فى الشارع، فى عواصم عربية متعددة، كثيرا ماتحدثنا، واستمعت بالشغف نفسه لما يطرحونه، لكنهم كانوا جميعا يحملون لى سؤالك: أين كتاب النبى موسى؟ وماذا تم بشأنه؟ بعدما انصرمت سبع سنوات على الإعلان عن بدء البحث فيه، ولما يظهر بعد؟.

نعم أيها الصديق، لقد طالت الشقة، لكنى أصدقك القول: إن العمل لم يتوقف فيه لحظة، إلا عندما سقط الجسد صريعا منهوك القلب، ورغم الظروف الصحية التى تلابسنى دون رحمة، فقد عدت إلى النبى موسى متابعا العمل لأوفيك وعدا تواعدناه، ومع تلك المصارحة، يجب إحاطتك علما أن هناك عددا من المشاكل لم تحل بعد، ويحتاج كشف آلياتها واكتشاف حلولها بعض الوقت، وبعض الصبر من جانبك.

ومن هنا - وكى أحافظ على حرارة التواصل بينى وبينك - فقد ارتأيت أن أواصلك بكتابين، أولهما هو الجزء الثانى من «حروب دولة الرسول»، والكتاب الذى تحمله بين يديك الآن ويحمل عنوان «رب الزمان».

و«رب الزمان» هو عنوان لواحد من الدراسات التى تضمنها دفتا هذا العمل، حيث يحتوى كتابنا هذا على أقسام ثلاثة: القسم الأول منها مجموعة دراسات يمكن أن تحمل جميعا عنوان «إسرائيليات»، لتعاملها مع المنظومة الإسرائيلية وثقافتها وخطابها المعلن، أما القسم الثانى فيضم بعض المعارك الفكرية، أرتأيت أن أجعلها متاحة لك من باب التوثيق ليس إلا، حيث انتهيت أخيرا إلى قرار بعد الدخول فى ذلك النوع من المعارك الذى يثيره أصحاب الألوجة السلفية، مستفيدين فى ذلك مما آذى رفاقا لنا كبار، فاكتمال المشروع أو المحاولة المستمرة فى الإضافة إليه، هدف يجب ألا يضيع فى صراعات قد تقبر الأر كله.

ومادمنا بصدد التوثيق، فقد غامرنا بنشر بعض الدراسات الأولى الابتدائية هنا، وهى من محاولاتنا المبكرة التى لاشك تحمل سمات الحالة الأولية، ونماذج لها دراسة «منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية»، ودراسة «رب الزمان»، وغيرهما.

ثم قسم ثالث يضم مقالات ودراسات تتضفر مع منهجنا وخطواتنا التى ارتسمناها وتوافقنا عليه منذ البدء.

وغنى التونيه، أن بعض ماسنقرأه هنا قد سبق نشره فى دوريات عربية متباينة، وبعضه الآخر لم يسبق نشره، وقد كتبته إبان تواجدى فى جناح القلب بمستشفى الهرم، واعتمد فى معلوماته على ذاكرتى وحدها، لذلك لن تجد أمثل تلك النماذج هوامش أو مراجع مدونة.

أضع هذا الحشد بين يديك أيها الصديق، من أجل مزيد من التلاحم بيننا، راجيا أن أكون قد عوضتك عن انتظارك ـ ظهور كتاب «النبى موسى» ـ بوقت مشحون بالقضايا التى يثيرها هذا الكتاب.

سيد القمنى

معارك فكرية

هل بني الفراعنة الكعبة؟! (*)

تصحيح مغالطات

(*) نشر بالعدد ٨١ من مجلة القاهرة الصادرة في ١٥/ ٣/ ١٩٨٨.

دأب د. سيد كريم على مطالعتنا بمجلة الهلال، بنظريته حول علاقة الديانة المصرية القديمة بديانات البدو الساميين، وبخاصة عقائد أهل جزيرة العرب، وهو رأى بحد ذاته يتسم بكثير من الصحة والوجاهة، وقد ذهبت كثير من المدارس العلمية إلى القول بتأثير مصر القديمة فى عقائد جيرانها، وألف أصحابها فى ذك مؤلفات شتى، ولنا فى ذلك مؤلف خاص حول عقيدة الخلود المصرية، بحسابنها النبع الأصيل لعقيدة الخلود، التى ظهرت بعد ذلك فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، بعنوان «رب الثورة: أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة».

لكن التحفظ الأساسى على كتابات د. كريم يتأسس من البداية، على طريقة المعالجة، ومدى التزامه بشروط البحث العلمى ومنهجه، وعلى مدى صدق مقدماته التى كثير ماأدت إلى نتائج أكثر بطلانا منها. ولما كانت معالجة كل موضوعات السيد الدكتور المنشورة، إطالة لا حاجة إليها، لأنه يدور باستمرار حول فكرة واحدة وهدف واحد، فقد تخيرنا أخطر هذه الموضوعات، وأكثرها شمولا لأفكاره المكررة فى مختلف كتاباته، وهو المعنون بـ «قدماء المصريين وبناء الكعبة»[1].

والغريب إنه رغم خطورة هذا الموضوع فقد مر مرور الكرام، ولم نسمع أو نقرأ عليه تعقيبا، على حد مانعلم، مما أعطى السيد الدكتور الضوء الأخضر للإستمرار والمثابرة.

وواضح من البداية أنى لن أكون مجاملا، وفق حسابات بسطة تماما، أولها أن ميدان البحث العلمى، ميدان لايصح فيه لفارس تجاوز شروط الفروسية، وقواعد اللعبة، لتحقيق قصب السبق، وأعتذر عن استخدام تعبير «اللعبة»، فى حديثى عن العلم وشروطه لأن الموضوع برمته كان عند

(١) د. سيد كريم: قدماء المصريين وبناء الكعبة. مجلة الهلال. فبراير ١٩٨٢.

كريم مجرد لعبة، وثانى هذه الحسابات هو أن القارئ أمانة، والكلمة أمانة، وأو شروط البحث العلمى هى الأمانة، ورغم بساطة الحسابات، فإنها لم تترك لنا بصرامة حقوقها «وهى لوجه الحق، حق، وأحق أن تتبع» أى فرصة للمحاباة أو المجاملة.

موجز الأمر

ويقوم موضوع د. كريم على فكرة أساسية تسلطت عليه، مفادها: أن المصريين القدماء، قد اكتشفوا مبدأ التوحيد فى العقيدة الإلهية، منذ بداية الأسرات الفرعونية الحاكمة، وربما قبلها. ومن ثم قام يبنى على فكرته قصة ملخصها: أنه عندما قامت الثورة الكبرى فى مصر القديمة ضد الملك، وضد الكهنة ورجال الدين، فى نهاية الأسرة السادسة الفرعونية(٢)، هرب كهان مدينة «منف» - ويزعم الكاتب أنهم قوم موحدون - إلى الجزيرة العربية، حيث اكتنوا هناك بالكنية «بنى مناف»، أو أهل منف، بينما أطلق عليهم الفراعنة اسم «جرهم» أى مهاجرى مصر، وأن النبى إبراهيم عندما ترك سريته «هاجر»، مع رضيعها «إسماعيل» فى جزيرة العرب، ووجدت نفسها وسط أعراب لاتعرف لغاهم، لجأت إلى قبائل «جرهم» المصرية، الذين آووها، وأمكنها التفاهم معهم. وكان «بنو مناف أو الجراهمة» قد أقاموا فى هذا المكان بيتا للرب، هو «الكعبة»، على غرار كعبتهم المصرية التى تركوها فى منف وتعرف حاليا بـ «هرم ميدوم»، ثم يلقى القول بذكاء: «وليس هناك من شك فى أن زيارة جميع الأنبياء إلى الكعبة، ابتداء من سيدنا إبراهيم إلى اسماعيل وشعيب وموسى، وقد بدأت جميعها بعد زيارتهم لمصر، وتفهم عقيدة التوحيد وإيمان المصريين بالبعث والحساب والآخرة وخلود الروح»، ثم يزيد فيقول: إن إشارة النبى محمد «ﷺ» أنه خيار من خيار، من خيار قريش، وأن قريشا من كنانة، فإن كنانة لم تكن قبيلة فى جزيرة العرب كما كنا نتصور، إنما هى «مصر الكنانة»، وأن النبى «ﷺ» يشير بذلك إلى أن أسلافه إنما كانوا مصريين.

والعجيب فى أمرى مع د. كريم، أنى التقى تماما معه فى القول بهجرة مصرية إلى جزيرة العرب، كانت سببا فى نشوء اتجاه دينى هناك، وقد

(٢) يفترض د. كريم أن الثورة المصرية الأولي في العصور القديمة قد حدثت إثر إنهيار الدولة القديمة أي بعد سقوط الأسرة السادسة، سيرا مع الافتراضات الشائعة، ولنا في ذلك اجتهاد يعود بزمن الصورة إليي ماقبل ذلك، بل ونعتبر أن هذه الصورة كانت سببا في سقوط الدولة القديمة، وليست نتيجة لها، أرجع إلي كتابنا «أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة» صادر عن دار فكر للنشر، وقد ناقشنا مسألة التوحيد باستفاضة بخاصة في الفصلين الأولين.

عالجت هذا الأمر فى بحث خاص، كنت أود إرفاقه بهذا التعقيب لولا أنه سيضيف مساحة يضيق بها المتاح فى عدد واحد، إلا أن أول مايزعج أى عارف بتاريخ مصر هنا، هو قول د. كريم: أن الثورة المصرية ضد الملك، والكهنة فى نهاية الأسرة السادسة، هى التى أدت إلى هجرة أصحاب «منف» إلى جزيرة العرب، وقوله بصريح العبارة أنهم أصحاب عبادة الإله «رع»، ومصدر الإزعاج هنا هو أن منف كانت مقرا لعبادة الإلة «فتاح» وليس «رع»، وإن الإله «فتاح» قد توارى فى الظل مع مدينته «منف» بعد أن قام كهنة الإله «رع» بانقلاب دينى وسياسى فى الوقت نفسه، واستولوا على الحكم فى نهاية الأسرة الرابعة، وأسسوا الأسرة الخامسة الحاكمة، واستمروا فى الحكم فى الأسرة السادسة، وكانت مدينة الإله «رع» المقدسة، هى مدينة «أون» عين شمس الحالية، وليس مدينة «منف».

وبذلك تكون الثورة الشعبية التى قامت ضد الملوك والكهنة، قامت ضد ملوك وكهنة الإله «رع» فى «أون» وليس فى «منف»، ويكون الإله «رع» إله مدينة «أون» وليس إله مدينة «منف»، ممايشير إلى خلل خطير فيما قدمه السيد الدكتور لقارئه، أما إن أراد صدق المراد، فإن هجرة أهل «منف» تكون قد سبقت الثورة الشعبية بحوالى ثلاثة قرون أو أكثر، عندما حدث الصدام بين «منف» و«أون»، أو بين أتباع «رع»، الذى انتهى باستيلاء «رع» وأتباعه على سدة الحكم.

ومن هنا، فإذا كنا نلتقى مع السيد الدكتور فى أمور، فإنا نخالفه فى أخرى، وهى ليست مخالفة لمجرد المخالفة، إنما سيرا مع صحيح الأمور وتاريخها، أما أشد تحفظاتنا فهى لاتتعلق بمدى التزام الكاتب - أى كاتب - بالحياد والموضوعية وتحرى الحقيقة، بحيث لايميل مع هواه كل الميل، فيفسر النصوص على الرأى الخاص ليؤكد فكرته، ومن هنا، وتأسيسا على ذلك، سنناقش ماكتبه د. كريم بمعيار واحد، هو مدى التزام الصدق العلمى وشروط تحقيقه.

الآلهة المصرية

لقد كان جميلا من د. كريم أن يحاول اكتشاف جديد، يضيفه إلى مجموعة إبداعات وكشوف المصريين القدماء، فقام يختار، «مبدأ التوحيد» ليضعه من بين أول الكشوف التى وصل إليها المصريون فى «منف»، منذ بداية الأسرات وقيام الدولة المركزية، أى منذ حوالى خمسة آلاف عام مضت، وبذلك يؤكد فى موضوعه أنهم كانوا أساتذة عرب الجزيرة فى

ذلك، عبر الأنبياء الذى زاروا مصر وتعلموا فيها التوحيد، ثم عادوا يعلمونه فى جزيرتهم، وعبر الهجرة الكبرى لكهان «منف» بعد الثورة إلى الجزيرة.

والسيد الدكتور لاشك - بمقصده - يريد أن يرفع أكثر من شأن قدامى المصريين وينزع عنهم شبهة التعدد فى العبادة، وهو فى ذلك يبرهن على وفاء لمصر، وحب نادر المثال مشكور، لكن البحث العلمى شىء، ومعانى الحب والكره والوفاء أو عدمه، شىء آخر، لامكان لها فى قاموس البحث العلمى. ولعله لم يغب عن بال السيد الدكتور أن مصر العظيمة بأفضالها على الإنسانية، ويكشوفها فى مجال الفكر والتحضر، ليست بحاجة إلى محاولات جديدة، كأن تكون أصل التوحيد الإبراهيمى. خصوصا أن المصدر الأقدم عن رواية النبى إبراهيم ورحلاته وعبادته «أقصد التوراة، وكانت المصدر الوحيد فى ذلك حتى مجىء الإسلام» ليس فيها مايشير إلى عبادة واحدة، ولاتشير التوراة فى قصتها عن النبى إبراهيم وعهده إلى إله واحد، بل إلى «إلوهيم» أى مجموعة الآلهة، ولم نعرف عن النبى إبراهيم أنه كان موحدا إلا عندما جاء القرآن الكريم، وأوضح أن إبراهيم النبى هو أصل التوحيد الحنفى.

نعم ولاشك أن القول بكشف المصريين لهذا المبدأ الدينى الذى يمركز العبادة فى ذات واحدة، ينسب لهم قصب السبق فى أمر هو من الفتوح المبينة، لكن المشكلة أن ذلك لم يحدث، وإن كان قد حدث فلم يحدث إلا بعد ذلك بقرون فى عهد إخناتون على مايزعم البعض، هذا إضافة إلى أن د. كريم لم يكن موفقا كل التوفييق وهو يحاول ذلك.

ولعل أول مايعترض مقولة د. كريم، القائلة: إن أهل «منف» فى الأسرة القديمة أول الموحدين، هو أن المصريين القدماء، لم يعرفوا التوحيد بالمعنى المطلق الذى عرفناه فى الإسلام، «الذى يقصده د. كريم» طوال تاريخهم الدينى الطويل، فكانت الآلهة تربو على المئات، «آلهة أقاليم، وآلهة مدن، وآلهة عواصم وآلهة للدولة، وآلهة لقوى الطبيعة، وآلهة للملوك، وآلهة للشعب»، تتطبع بوجه عام بالشكل الطوطمى الممثل فى رأس الحيوان على الجسد الأدمى، وكان واضحا أن المصريين قد توقفوا عن تطوير شئون الآلهة، ولم تشكل المسألة بالنسبة لهم قضية شاغلة، بعد أن انصرفوا إلى أمرين: الأول هو البناء السياسى والحضارى وتأمين الحدود عسكريا والتقدم العلمى الدنيوى، والثانى: هو التجهز لعالم آخر مقبل يجازى فيه

الإنسان ماأتاه من أعمال فى دنياه، وكان هذا المبدأ الثانى بدوره مسألة حضارية ملحة، حيث يقوم التعامل الاجتماعى بمقتضاها على أسس خلقية تضمن للمجتمع سلامته وتماسكه، وأمنه، كى ينصرف أكثر إلى شئون الارتقاء بدولته وبحياته الأرضية، هذا إضافة إلى العامل البيئى الذى ارتبط به التعدد وسنناقشه بعد قليل.

ولعل د. كريم لم يقصد بالتوحيد ماعرفه المصريون بإله الدولة، فهو لم يكن بالمرة توحيدا إنما اعتراف بسيادة «إله الدولة» على بقية الآلهة الإقليمية، تدعيما لمركزية الحكم ليس إلا، وحتى هذا الإله السيد كان يتغير مع تغير الدولة الحاكمة، فهو بداية كان «حور»، ثم فى الدولة القديمة «فتاح»، ثم «اتوم رع»، ثم فى الدولة الوسطى الإله آمين أو «آمون» المندمج برع، بل وكان هذا الإله السيد يدخل باستمرار كضلع أكبر فى أسرة ثالثوثية «أب وأم وأبن». وهو أمر طبيعى يتسق وفكر الإنسان فى المراحل الأولى من تطوره، عندما كان يتصور الإله على شبهه ومثاله، ويسلك مثل سلوكه، ويتزوج، وينجب. ثم يدخل هذا التثليث فى تتسيع، حتى كان لكل مدينة تثليثها وتتسيعها الخاص، ولم يكن الإنسان فى باقى أنحاء المعمورة أكثر توفيقا من ذلك. فرغم استفادة اليونان والرومان من علوم الشرق وبخاصة مصر، وكان يفترض فيهم ارتقاء أكثر، سيرا مع سنة التطور، ولما ورثوه من تراث ثقافى عن مصر، فإنهم فعلا تقدموا وكونوا إمبراطوريات عظمى، وأضافوا للإنسانية رصيدا جديدا، ومع ذلك كانت ألهة الأولمب بالمئات إضافة إلى كم هائل من مغامرات الآلهة، كان يتلى هناك بكرة وأصيلا.

لكن يبدو أن د. كريم قد رأى فى التعدد لدى المصريين مثلبة ونقيصة، تعيب بقية علومهم وفنونهم، فأراد أن ينزههم عنها، وغاب عنه أن ذلك كان أمرا طبيعيا سواء كان آلهة بالمئات، أم تثليثا أو تتسيعا، أم تسبيعا كما حدث لدى الرافديين من قدامى الساميين، ولم يكن له أى أثر مباشر فى تخلف اجتماعى أو حضارى بل كانت مصر رائدة فى جميع الميادين العلمية، بينما كان الآخرون فى بداءة بداوتهم ينعمون «من الأنعام» أو على الأصح يتمرغون، أيا كانت ادعاءاتهم، ولعله يعلم أن العالم المتقدم اليوم - سواء فى الغرب الذى يعتقد بالتثليث، أو فى الشرق الذى يدين بالاشتراكية العلمية - يسمى العالم المتقدم، لإنجازاته فى العلوم الدنيوية، ولو قسناه بمنطق د. كريم، لكان أشد العوالم تخلفا، أو يصبح واجبا عليه إثبات أن الأمريكان والسوفيت موحدين!! وهو أمر لاشك عسير.

وكانت فكرة التوحيد فى مصر فكرة طارئة، وحالة واحدة ونادرة، حدثت فيما يزعم بعض الباحثين، إبان حكم الفرعون الشاب «إخناتون»، وانطفأت سريعا ولم يمضى عليه فى الحكم سبعة عشر عاما، وانقضى أمرها وأنتهى، بعد ثورة قضت على حكمه، ولم يعرف مصيره بعدها، ويذهب د. كريم وراء هذا المذهب - وهو فى ذلك معذور - لأن ذهابه كان وراء الرأى السائد والاتجاه الغالب بين الجمهرة، ثم هو يضيف إلى حديثه عن التوحيد «الإخناتونى» لوحة جميلة للفرعون يسجد إماما وخلفه صفوف الساجدين، ولكن الذى لم يلحظه د. كريم وهو يدلل باللوحة على معنى التوحيد، أن السجود معروف فى غالبية الأديان، لدى عباد مظاهر الطبيعة والوثنيين، وليس سمة خاصة بطقس الصلاة لدى الموحدين وحدهم، والعجيب فى أمر إخناتون «وليس بعجيب» أن تفرغه لعقيدته لم يجن على دولته الأمبراطورية سوى الإنهيار، بعد أن انصرف عن شئون دولته الدنيوية، وما تحتاجه من فنون سياسية وعسكرية وإدارية إلى تصوفه وغيابه عن واقع دولته فى غيبوبة غيبية، وبعد أن ترك له أجداده إمبراطورية تمتد من الجندل الرابع جنوبا فى العمق الأفريقى، إلى حدود تركيا وأرمينيا شمالا، فقد حلت بركات الفرعون الشاب بعد أن تفرغ لشئون الدين، وصم أذنيه عن نداءات الاستغاثة التى كانت تصله من الحاميات المصرية فى بقاع الامبراطورية تباعا، والتى حفظتها لنا رسائل تل العمارنة، تجأر بطلب العون، ضد الثورات الإقليمية التى أخذت تنهش جسد الإمبراطورية وتقتطعه جزءا فجزء، وصاحبنا لاه فى دروشته الغيبية عن غرور الدنيا، حتى عادت مصر من بعده تتكمش داخل حدودها الدولية مرة أخرى[٣].

لكن الأعجب من كل هذا هو الإصرار على أن «اخناتون» كان موحدا توحيدا مطلقا، وهو أمر يثير الشك، فمن يذهبون هذا المذهب، من أصحاب الرأى الذين تابعهم د. كريم، لأن التدقيق فى منمنات هذه العقيدة وفسيفسائها، يكشف أن كل أشعار إخناتون وأناشيده، تشير إلى اعتقاده الجازم أنه هو شخصيا ابن الإله «آتون»، وأن فيه قد حلت قدرات هذا الإله

(٣) لايخلو مصدر تناول مصر القديمة إلا وأسهب في الحديث عن دور إخناتون في ضياع الأمبراطورية، ومثالا لذلك مصر الفراعنة لجاردنر، والحضارة المصرية لجون ولسون، وفجر الضمير لبرستد، ومصر والشرق الأدني القديم للدكتور نجيب ميخائيل وغيره كثيرة.

وبركاته[٤]، كما أن هناك شواهد قاطعة على تقديس الثور المنفى فى مدينة اخناتون، التى اطلق عليها اسم «أخت آتون»[٥].

أما الشك فمدعاته عندنا هو أن إخناتون قد تربى فى طفولته خارج بلاده مصر عند أخواله الساميين فى بلاد ميتانى[٦] «كانت أمة سامية، ترجم اسمها عن المصرية تاى»، وأنه عاد إلى مصر عند موت أبيه ليتولى الحكم، ومن هنا كانت جنسيته مصرية، أما ثقافته فسامية، ويبدو أن ذلك هو الدافع الخفى الذى دفع الباحثين للتغاضى عن عبادة الثور فى أخت أتون وتأليه إخناتون لنفسه، وإغفالهم المتعمد لذلك، بحسبانهم الساميين أصحاب الاكتشاف التوحيدى، بينما كل مافعله «إخناتون» فى رأينا هو محاولته تسييد إله سامى بدوى على مصر، اعتاد عبادته فى متيانى هو المعروف باسم «أدونيس»[٧]، أو باللسان المصرى الأرق «أتونيس»، وأصله «آدون» أو «آتون».

---

(٤) من النماذج التي يذهو فيها إخناتون بنبوته للإله آتون «علي سبيل المثال»:

لقد خلقت الناس
ليعيشوا من أجل ابنك
الذي خلق من أطرافك
ذلك الملك الذي يعيش في الحقيقة
أو
طالما أبي آتن يعيش
فإني سأقيم اخت آتن
لأبي اتن
أو
وصف وزير خارجيته له بقوله:
أنت الذي يشكل الإنسانية
ويهب للأجيال حياتها
ثابت ثبات السماء
الذي يعيش فيها آتن

ارجع إلي فليكوفسكي: أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، ٥٨: ٦٠.

(٥) يقول جاردنر: «وهناك إشارة غريبة جاء فيها أن عجل منف في هليوبوليس يجب أن يدفن هو كذلك في أخت آتون، وهي دلالة أخري علي اعتماد الأتونية الجديدة علي واحدة من أقدم العبادات في مصر، وكان وضع خراطيشه بجوار خراطيش آتون تدل علي أنه كان لاينفر إطلاقا ادعا نصيب من الوهية أبيه المقدس»، ارجع إلي سير الن جاردنر في كتابه مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٧، القاهرة، ص ٢٤٨، ٢٥٥.

(٦) عن تربية إخناتون في ميتاني. ارجع إلي فليكوفسكي في المصدر المشار إليه آنفاً.

(٧) عن الإله أدونيس، ارجع إلي موضوعنا «إلهة الجنس والزهرة. آفاق عربية، عدد٩ . ١٩٨٢ بغداد» وإلي موضوعنا «البعد الأسطوري للشيطان في التراث الشرقي» مجلة فكر الدراسات والأبحاث، العدد ١٠. القاهرة.

ويبدو أن المصريين قد رأوا فى ذلك خيانة لآلهة البلاد الوطنية التى عادة ماكانت ترتبط بمعنى المواطنة وبالوطن نفسه، ومن ثم كانت عبادة آتون خيانة عظمى، استوجبت الثورة على البدعة الوافدة، التى لم تكن ثورة من وثنيين مصريين متخلفين، على ديانة راقية بدوية سامية موحدة، كما حاولوا تصوير الأمر، واستحق إخناتون بعد ذلك أن يلقيه مواطنوه «مجرم أخت آتون»، أما تلاميذ المدارس فقد ظلوا زمانا يتدربون على كتابة مواضيع إنشاء عن «الخائن من أخت آتون».[٨]

ولعلى أكون مخطئا، وربما أكون مصيبا، عندما أطرح تصورى لمسألة التوحيد والتعدد فى التاريخ الدينى، مرتبطة بالظرف البيئى، لكنه اجتهاد شخصى يصح قبوله أو رفضه. ويقوم هذا التصور على الفصل والتفريق بين البيئة الزراعية النهرية، والبيئة البدوية الصحراوية، ففى البيئة الزراعية تتعدد أشكال الطبيعة ومظاهر الحياة تعددا ثريا هائلا، «أنهار دافقة، شلالات، أحجار جامدة، شجر، طيور، حيوان نافع، حيوان ضارى، كائن ضخم قوى، حشرة ضعيفة، موسم خصب، موسم جفاف، أصوات وضجيج من كل نوع، سيمفونية نعرفها نحن أهل الوديان الخصبة، تضج بالنقيق والعواء والثغاء والتغريد والهديل والهدير».

وفى المقابل نجد البيئة الصحراوية ضنية بالشكل واللون والصوت، مظاهر الحياة محدودة جدا وتكاد تنعدم، فالصحراء تترامى أطرافها دون طارىء جديد، فهى رتيبة الوقع متشابهة دائما، مشهد واحد باستمرار، ولون واحد باستمرار، أصفر مسترخى يمتطى فى كثبان متلوية، وزمن هادىء التوقيع، نادر المفاجأت، والإيقاع الدائم تثاؤب وقيلولة فى صمت ممتد أبدا، ومن هنا نزعم أن العامل البيئى أدى دائما بالبدو إلى نظرة مصبوغة بالتوحد والوحدانية، مقابل أثر التعدد الهائل للحياة وصخبها فى الحياة النهرية الزراعية، مما دعى إلى اقتراب البدوى من معنى الواحد مقابل المتعدد عند المزارع.

ومع ذلك عندما كانت تتعد المظاهر، كان البدوى يعدد، فهو مرة يعبد ألتيس، ومرة يسجد للصخرة، ومرة يثور البركان فيسجد للبركان مرتعدا، لكنه كان التعدد البسيط السهل، بما لايقارن بمظاهر بيئة المزارع الضجوج الخجوج المتغيرة المتلونة دوما، وماكان أسهل أن يكتشف البدوى قيمة خروفه، وأهمية القمر فى ليل الصحراء الصامت المفزع، فيقرن بين قرنى الخروف وقرنى الهلال، فيسجد عابدا، ويهتف الباحثون: مهللين لقد تم التوحيد، وأصبح الخروف قمرا، فى أقنوم واحدا!!.

(٨) «ظل جيلان بعد اخناتون يشيران إليه: العدو من أخت آتون»، جاردنر، المصدق السابق، ص ٢٦٢.

ويبدو أن د. كريم لم تتقبل نفسه أن تكون هاجر «لأنها مصرية» مجرد جارية، منحها فرعون مصر للنبى إبراهيم ليتسرى بها، على ماجاء فى التوراة، ولانعلم هل كان ذلك ترفعا بها عن ذلك، أم ترفعا بالنبى عن معاشرة الجوارى؟ وكليهما كان واقعا فى العهد الخوالى، فلم يكن هناك حرج على الأنبياء والمؤمنين من إتيان ملك اليمين والتسرى بالجوارى والإماء، لكن د. كريم يعامل الماضى بذوق الحاضر، فيؤكد أن هاجر كانت إحدى أميرات البيت المصرى المالك، فى الأسرة الثانية عشر الفرعونية، حوالى عام ١٨٩٠ ق.م، بالتحديد والتدقيق والتمحيص والتفحيص المبين، ثم لايعطينا أى إفادة بالمرة عن مصدر هذا اليقين، ولامن أى مصدر أثارى أو أركيولوجى استقاه! ونؤكد له، ولقارئنا الذى نحترمه ونحترم وقفته لمطالعتنا، أنه ليس هناك مصدر أثارى واحد يقول ذلك، ولم يعثر حتى الآن على وثيقة مصرية واحدة تشير إلى النبى إبراهيم وإلى زيارته مصر، لامن قريب ولامن بعيد، ولا بالرمز ولا بالإشارة ولا حتى بنص يحتمل التأويل، كما لم تشر النصوص المصرية إلى دخول اليهود مصر زمن النبى يعقوب، مع ولده النبى يوسف ولاحتى لموسى، ولالرحلة الخروج الشهيرة فى التوراة. وهو أمر أثار حيرة الباحثين طويلا حتى اليوم، وكتب فى ذلك مصنفات شتى لعلماء أجلاء، لم يستطع واحد منهم أن يعطى مثل جزم د. كريم الواثق القطعى هذا، ونحن بالطبع لاننكر على المؤمن اعتقاده فيما جاء فى قصص الأنبياء وزيارتهم لمصر قد حدث، لأن ذلك أمر يعد لدينا بدهية تتأسس على احترام راسخ لكل السماوية. لكن ماننكره هو الإدعاء بما لم تكشف عنه آثار مصر حتى الآن، ومانستنكره هو أن يقدم لنا د. كريم ذلك فى صيغة التقرير، فى حين كان يجب عليه تقديمه فى صيغة التقدير، كرأى وتقدير شخصى، وحتى الرأى الشخصى لايلقى على عواهنه دون توثيق أو مبررات كافية.

ثم يجازف الدكتور مجازفة مفزعة حقا، تصيب الباحث بهلع شديد، فيرفق بموضوعه لوحة فرعونية تصور شخصيات توضح سيماهم أنهم من البدو الساميين، وسبق لى أن لاحقت هذه اللوحة فى المصادر، فلم أجد عليها تعليقا أكثر من كونها شخصيات بدوية سامية فيى مصر بزعامة شخص يدعى أبيشا، لكن الأخ الدكتور يعلق بالقول الجهير: «سيدنا إبراهيم عليه السلام، لوحة اكتشفت فى حفريات مدينة منف حيث زار معابدها، وتزوج الأميرة المصرية هاجر عام ١٩٨٠ ق.م» وهكذا، وببساطة يتصورها هيئة، هان معها عقل القارئ، عندما يلقمه الأقصوصة وهو يطالع بحسن

نية وثقة، ليؤكد فكرة، هى لوجه الحق جميلة، لكنها لوجه الحق أيضا قد صيغت بأسلوب أقل مايوصف به أنه نوع من الـ «فهلوة» وغير جميل.

ولايقنع د. كريم بذلك، إنما يتمادى، فيعرض لنا صورة لهزم «ميدوم» الواقع غربى مدينة الواسطى «تبعد عن القاهرة ٩٠ كم جنوبا»، المعروف بالهرم الكاذب لضآلة الكشوف فيه، مقارنا بلوحة للكعبة المكية، مع التعليق على صورة هرم «ميدوم» بالقول: «كعبة منف، هرم ميدوم الكاذب، بناه الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، بنى قبل الهرم الأكبر كرمز لإله التوحيد رع، كان ثالوث معبوداته أليت وعيزت ومنى»، ولاندرى كيف ساغ له أن يتحدث عن توحيد وتثليث فى آن معا بل وتربيع بإضافة كبيرهم «رع»، ثم يضيف معقبا: «عندما وصل بنو مناف أو جرهم إلى أرض مكة، أقاموا بيتا للرب مماثلا لمعبدهم الجنائزى بمنف، الذى يطلق عليه حاليا هرم اللاهون، الذى بناه الملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة ليكون كعبة للتوحيد».

والآن خلط د. كريم الأوراق جميعا: فاصطلاح «المعبد الجنائزى» شىء، و«الهرم» شىء آخر، و«هرم منف» شىء رابع، و«هرم اللاهون» شىء خامس، و«هرم ميدوم» شىء سادس فهرم اللاهون يقع قرب هوارة من أعمال مدينة الفيوم الحالية، وهوم ميدوم علمنا أنه يقع قرب مدينة الواسطى، وكليهما غير هرم منف المعروف بهرم سقارة المدرج الذى بناه الملك «زوسر»، مؤسس الأسرة الثالثة حوالى عام ٢٨٠٠ ق. م(٩).

ومايبدو لنا الآن هو أن د. كريم عمد إلى خلط الأوراق كلها بسرعة خاطفة، وهو عالم بما يفعل تحقيقا لهدف مقصود، هو أن ينقل هرم «ميدوم» إلى منف ليصبح هو الهرم «المنفى» بدلا من هرم سقارة، وذلك عبر ورقة ثالثة هى هرم «اللاهون»، بحيث يصبح هرم اللاهون هو «الجوكر»، الذى يصرف انتباه المشاهد «آسف: أقصد القارئ» عن الورقتين الأخريين فى الثلاث ورقات: «هرم ميدوم بالواسطى وهو المقصود وعليه العين، هرم سقارة وهو هرم منف الحقيقى وهو المطلوب نسيانه، وهرم اللاهون بالفيوم وهو الجوكر المستخدم لإرباك الصيد: أسف: أقصد القارئ» وقبل أن يفيق القارئ بعد أن تحول الأمر إلى «فزورة» محيرة، فينسى سقارة ولايذكر سوى ميدوم، وبقدرة قادر يتنقل هرم ميدوم إلى منف، وينتهى دور هرم اللاهون عند هذا الحد بعد انتفاء الحاجة إليه. ويدور عقل القارئ فى الطريق المرسوم له بعد أن أصابه الدوار «ويقنع بأن الذى عدى البحر ولم يبتل، العجل فى بطن أمه»!!، ويحقق الدكتور مايريده، ومايريده هو ميدوم بدلا من سقارة هرما لمنف، لالشىء إلا لأن صورة هرم ميدوم تشبه الكعبة، وهو

(٩) انظر الموسوعة الأثرية العالمية، الهيئة العامة للكتاب. ص٤٤٩.

شبه لايمكن لمسه فى الواقع، إنما يمكن تمريره عبر صور مطبوعة غير واضحة ملتقطة عن بعدكالتى أرفقها بموضوعه، تزيد من ضبابيتها عوامل الطبع أو الطبخ، ومع الطبخ لايأكل القارئ ملبن إنما يأكل مقلب.

وهرم «ميدوم» مصاطب تهدم أعلاها، إضافة إلى أنه أقرب إلى التكعيب، وكان للعوامل الجوية وللتعرية أثرها فى تآكل الطبقة الملساء من صفائح الجير الأبيض التى تشكل كسوة للأحجار إلى مانزعه العرب افاتحون لبناء قصورهم ومساجدهم، وقد حدث التآكل على شكل شريط عند الثلث الأعلى من الهرم، فبدا لعيون د. كريم شبيها بالشريط الذى يحيط بالثلث الأعلى من الكعبة، وهو عمل فنى حديث جدا قام به المصريون المحدثون المسلمون، عندما كانت مصر ترسل للكعبة كسوتها، وكان الغرض من هذا الشريط غرضا جماليا فنيا بحتا، كتبت عليه آيات من القرآن الكريم ليس أكثر، ولم يكن أصيلا فى بناء الكعبة نفسها. ومن هنا قام د. كريم بمجازفته الهائلة ليقول: إن الكعبة أنشأها أهل منف المهاجرين فى الحجاز على غرار كعبتهم المنفية «هرم ميدوم» الذى ليس أصلا فى منف، إنما فى الواسطى، ولاهو بكعبة، إنما مثوى لجسد الملك «والمصادفة الطريفة هنا أنى من مواطنى مدينة الواسطى أصلا، وحلى لى أن أزور غرفة المدفن الملكى مجددا، عند معالجة الموضوع، وكتبت هذا الجزء وأنا جالس فى إستراحة هرم ميدوم أطالعه عن كثب، أقلب أمره وأتساءل: هل ظلمه د. كريم أم أنصفه؟ لكنى على أية حال لم أجازف بقراءة الفاتحة على روح الملك».

رمسيس يؤمن أخيرا

وطوال موضوعه يقدم د. كريم الفكرة الجميلة، ثم لايلقيها فى صيغة الاحتمال أو الظن، إنما يؤكدها! وحتى يكسب لها ثقة القارئ، يقدم لها الدعم من نصوص آثارية، لكنه للأسف يتدخل فى النصوص، ويردف بها ماليس فيها، ويقولها مالم نقل، ليكتسب لرأيه ثقة القارئ المسلم، وهو مافعله مع الحكيم «آيبوور» ذلك الحكيم المصرى العظيم، الذى بلغت حكمته وشهرته حدا دفع «برستد» إلى وصفه بالنبى (١٠)، وهو إذ يختار رجلا محل ثقة واحترام مثل «آيبوور»، يقول: «ويضيف آيبور كيف هرب أهل منف إلى الصحراء الشرقية وجنوب الوادى»، ثم يردف مستمرا كما لو أن لم يزل لأيبور «وعبروا البحر إلى الجزيرة العربية، حيث أطلق عليهم هناك اسم

(١٠) جيمس هنري برستد: فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، ص٢٠٧.

بنى مناف أو منف؟! وهكذا ورغم جمال فكرته واحتمال صدقها، يدمر الأمر كله بنسبة كلام للرجل الحكيم، هو منه برىء.

وحتى يزيدنا السيد الدكتور تحسرا على جمال أفكار، وإمكان محاولة إثبات بعضها بالأسلوب العلمى، يضيف من عندياته القول: إن فرعون موسى المعروف بأنه رمسيس الثانى «وبالمناسبة هذا فرض مررته الكتابات الصهيونية ولم يتأكد صدقه العلمى»، كانت له زوجة مؤمنة موحدة، فأرسلت مع قائد الجيش المصرى الذى كان بدوره مؤمنا موحدا، كسوة إلى الكعبة، صنعت خصيصا لهذا الغرض، وقد حدث هذا الأمر سرا بالطبع، لأن زوجها رمسيس الثانى كان كافرا أثيما «ولايغيب عن القارئ أنه هو الفرعون الذى ترك لمصر أهم الأعمال المعمارية والفنية العظيمة وصاحب غزوات وفتوحات تحسب لمصر كلها»، وهكذا يكون المصريون قد بدأوا صناعة كسوة الكعبة وإرسال المحمل للحجاز من ألوف السنين، ولامانع أن نتخيل هنا «ليلى مراد» تلبس تاج القطرين، وتغنى على صوت الجنوك والصنوج والقيثار وهى تودع قائد الجند: «يارايحين للنبى الغالى، هنيالكم وعقبالى»؟، وندخل مع د. كريم إلى تمثيلية رمضانية، يتسلط فيها فرعون الجبار، وتلتقى فيها الزوجة الملكية سرا بأخيها فى الإيمان، قائد الجند المغوار، ويتعاهدان عند أستار الكعبة فى حب الله، وحتى تأتى النهاية السعيدة فإن حبكة الدكتور كريم الدراماتيكية استلزمت أن يخالف حتى النص الدينى، ويؤكد أن رمسيس الجبار قد أكرمه الله بالإيمان بعد أن رأى معجزة فلق البحر بالعصا، فنجا من الغرق والحمد لله.

ثم وفى نهاية موضوعه، يقول بذكاء أريب: «.. وبعد، فهذه مجرد أراء تاريخية قد يصح بعضها، ويخطىء بعضه ولكن فى قرائتها فائدة، وبذلك يعتذر مقدما لمن يكتشف أمرا فيؤكد أنها «مجرد آراء»، والرأى يحتمل الصواب والخطأ، لكنه ينثنى للقارئ العادى المستسلم ليكمل عملية الحقن قائلا: أنها مجرد آراء، ولكنها «تاريخية»، حتى يثبت الأمر عنده، ثم يصيب هدفا ثالثا «سيرا عليى ستة الثلاث ورقات» فيحقق لنفسه أهم صفات العالم وهى التواضع، متصورا ذلك يعفيه من المآخذ.

ولوجه الحق فلاشىء خاص بيننا وبين الرجل إلا الحرص على القارئ الذى يتلقى المعلومة بحسن نية وثقة فى الكاتب، والحرص على سيادة المنهج العلمى وشروط البحث العلمى دون الأشخاص، خاصة فى ظروفنا الحالية، ومحاسبة من يتخطاه حتى لو كان الغرض نبيلا وجميلا، فالغاية لايمكن أن تبرر الوسيلة خاصة فى مجال البحث العلمى، ونحن أشد مانكون حاجة إلى الصدق العلمى، فإن ذهب بدوره، فكل إذن إلى ضياع.

عفاريت التراث.. وتراث العفاريت(*)

(*) نشر في ١٤ سبتمبر ١٩٩٤ بصحيفة الأهالي، القاهرة.

في يوم ٦/ ٨/ ٩٤، احتفلت في غرفتي رقم ٤٣٧ بالجناح التاسع بمستشفى الهرم، برفع أهم الممنوعات: القراءة، واستعدت نظارتي العزيزة - بسعادة غامرة، وفتحت صحيفة أهرام ذلك اليوم، بعد انقطاع دام حوالي الشهر عن القراءة، لتستوقفني مرثية الصديق «عزت السعدني» على أيام زمان وحضارة زمان، عندما كنا جوهرة التاريخ ودرة الزمان والمكان، وإمعانا في الاحتفال المقام على شرف النظارة والسماح بالقراءة رأيت مشاكسة الرجل، بمناقشة سريعة لما قال في مقاله «زنوبيا .. امرأة بألف رجل» لكن طبيعة العلم غالبة، فقد انحرف مني المقال من المشاكسة إلى مرثية كاملة على حال الأمة، رفع الله عنها الغمة.

امرأة بألف رجل

لفت نظري العنوان بداية، وأدهشني تخصيص «زنوبيا» بتلك المقارنة أو المفارقة، وهي لاشك تستحق أن توصف بكونها تساوي ألف رجل، لكن صياغة العنوان، التي تبدي الدهشة من أمر «زنوبيا»، جعلتها تبدو كما لو كانت حالة نادرة في التاريخ، وخارجة على القاعدة وعلى المألوف، بينما تاريخنا، بل تاريخ الإنسانية جميعا، يمتلىء بإناث تعدل الواحدة منهن آلاف الرجال، رغم سيادة المنظومة الذكورية، والتفوق السيادي للذكر، بل أنك ستجد اليوم كثيرات تعادل الوحدة منهن آلاف الرجال، عالمات متخصصات، يضفن إلى رصيد البشرية العلمي كل يوم، بينما هناك رجال لايستحق أحدهم أن تضعه في يرتبة بني الإنسان.

ومع ذلك، فإن شهادة واحد من هؤلاء النكرات، تعدل شهادة اثنتين من عالمات الذرة، ومازالت المهندسة أو الطبيبة أو المحامية، تساوي نصف بائع الملوخية أو أحد صبيان بائعي الباطنية «!؟» ولانفهم عن عالمة الانثروبولوجيا أو البيولوجيا، سوى أنها عورة يجب أن تستتر وأنها للسيد

الذكر مجرد متاع، ثم نقف نتساءل لماذا نحن فى ضياع؟ إنه السؤال الزائف زيف الوهم الذكورى، والخيانة الذكورية للمرأة «كأم وكزوجة وكشقيقة وكابنة وكصديقة وككاتبة وكعاملة وكمناضلة وكحبيبة، وكجمال بدونه الأرض الخضراء»، إنه السؤال الملتوى الملتف الهارب من السؤال الحقيقى حول حجم الخيانة الذكورية للتاريخ نفسه، ولاريب أننا بحاجة إلى صدق كاف لنمتلك جرأة طرح السؤال الحقيقى دون خجل.

والمسألة بالأساس مسألة منهج، فالعنوان المندهش يدلل بوضوح على مدى تكريس منهج الثبات المسبق فى عقولنا، الذى كرس فى داخلنا دونية تبخيسية للمرأة، حتى لو أظهرنا التقدمية، إنه منهج الذكورة البدوى.

زنوبيا والجن

يحكى الأستاذ عزت السعدنى، أنه ذهب إلى مدينة زنوبيا «تدمر» فأبهرته عظمة البناء وفنون الهندسة وروعة التخطيط حتى ردد قول أهالى المنطقة «إن الجن من أعوان سيدنا سليمان عليه السلام، هم الذين بنوا وشيدوا تدمر العظيمة، ومعابدها وأسواقها وحماماتها ومسارحها»، وهذه آفة أخرى من آفات منهجنا فى التفكير، أودت بنا إلى مانحن فيه، فيى قاع العالم مع الجن والشياطين، فالحديث نموذج أمثل لمنهج تفكير جماهير أمتنا العريضة الغليظة «والعدد فى الليمون كما تعلمون»، لكن المصيبة أعظم، حيث أن ذلك ليس حديث العامة، بل أصبح حديث الخاصة، والأنكى أنه حديث كتبنا التراثية، التى تملأ أرفف المكتبة العربية، ويوصف أصحابها بأنهم علماء الأمة «!؟»، وستجد فى كل صحفة من تلك المصنفات شتى أنواع العفاريت، ورتبهم، ودياناتهم، وصفاتهم، دورهم فى بناء كل ألوان المعمار العظيم فى الحضارات القديمة، وهو مايحمل دلالات واضحة على تهافت منهج عاجز عن التفسير يلجأ إلى منطق المعجزة، ويكشف عن عدم تصور أى بدائل، وعن مدى كسل ذلك العقل لإيجاد تفسير سليم، فأى نموذج معمارى عظيم الشأن، يستدعى على الفور مقاولين ومهندسين مهرة من السعالى والغيلان وشمهورش وجمهورش وطراطيش «!؟» فالبدوى فى تفرقه القبلى، لم يكن يتصور أبدا إمكان قيام الإنسان بمثل تلك الأعمال الهائلة، وهو ماقيل فى بناء سور الصين العظيم الذى بناه ذو القرنين والجن من أتباع سليمان، كما قيل فى قصور بابل وحدائقها المعلقة، وإن ثبت عدم وصول جن سليمان إلى وادى النيل، فلاشك إذن أن بناة الكرنك والأهرام، كانوا عمالقة الأجسام، حتى يتمكنوا من ذلك الإنشاء الهائل، إنها عقلية الدونية والقزمية والكسل

والاسترخاء، بل والتكاسل عن مجرد تصور بشر يقومون بتلك الأعمال العظييمة فالعظمة ليست للإنسان الغر المفتون إنها دوما لذلك **القابع وراء الطبيعة** وللجن والعفاريت! ثم إن الأمر على المستوى الاجتماعى، يعبر عن فرقة أصيلة، قبلية متجذرة، وعقلية لاتعرف التوحد فى وحدات سياسية كبرى تقوم بالمشاريع الضخمة، وتكاتف البشر فى توحد منتظم متين.

لماذا دائما سليمان؟

أما الملحوظة التى يجب ألا تفوتنا، فهى حديث المقال الموقن بما قال، فالبناء لجن سليمان، وتكسير الإله البابلى مردوك ثم على يد النبى إبراهيم و... الخ، وهو ترديد لحديث مأثورنا التراثى المفرط المبالغ كثيرا لتهاويل، لكن كان لسليمان وجنه دوما الدور الأعظم، سليمان بالتحديد وبالذات.

والمعلوم أن «سليمان» **هو المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل** فى فلسطين، حوالى عام ألف قبل الميلاد، والغريب هو ذلك الإيمان الثابت فى العقل بصدق ماجاء عنه فى المأثور، والأعجب هو استمرار ذلك الإيمان حتى الآن، لينسب للإسرائيليين كل الأمجاد رغم تحولات الزمان، ودخول بلاد الحضارات القديمة إلى الدائرة العروبية لسانا وبعضها دينا، ثم مزيد من التبدلات ومايحدث اليوم بقيام دولة إسرائيل فى فلسطين مرة أخرى، بعد أن دمرها الرومان، فى سالف الأزمان.

إننا لانقرأ التاريخ، بل فقدنا الذاكرة التاريخية، بل والحس الوطنى والقومى، وبقى المأثور وحده يرفع يده بعلامة النصر فوق رؤوسنا «؟!» فلم نر المتغيرات، لأن الثبات هو المبدأ، والمبدأ هو الثبات، الحركة تخيفنا، والتغيير يرعبنا، والسؤال يبهتنا، والجديد بدعة، وكل بدعة ضلالة، إذن فليحيا الثبات على المبدأ، وليكن الإسرائيليين هم بناة حضاراتنا القديمة جميعا كما يزعمون، أقصد كما نزعم نحن، مادمنا نؤمن بعفاريت التراث، ونحمل على أكتافنا تراث العفاريت «؟!» وإذا كان جن سليمان قد قاموا بكل تلك الإنجازات، فهل يهون عليهم شفاء مرضى هذا الزمان؟ ثم نتساءل لماذا تنتشر كتب العفاريت على أرصفة الشوارع وفى المكتبات؟.

ويبدو أن صديقنا أراد تأكيد ماسمعه عن الإنجازات الجنية للعفاريت السليمانية، فأورد ما جاء فى كتاب «روبرت وود» ـ وللحقيقة أنا لاأعلم من هذا الودد ـ حيث قال: «إنه قد جاء فى التوراة مايفيد أن سيدنا سليمان هو الذى بنى تدمر، وأطلق عليها اسم بالميرا»، هذا رغم الفارق الزمنى الكبر بين زمن زنوبيا وزمن سليمان.

بهذا المنطق يجب علينا أن نؤمن إيمان العجائز بفضل الإسرائيليين الذين فضلهم الله على العالمين، وأن نؤمن بهم كتاريخ لنا، وهو الحادث وفق تلك المنظومة المأسورة «آسف أقصد المأثورة»، بحيث تربعوا داخلنا منذ سنين طويلة مضت، منذ حفظنا قصص إسرائيل وبنى إسرائيل المؤمنين، وقصص الكافرين من أجدادنا الفراعين، لننقلب نحن على تاريخنا الحقيقى، ثم نتحدث اليوم بوجل عن الغزو الثقافى الإسرائيلى؟ ألا ييستحق الأمر أن نقول: عجبى!!.

تاريخ العجول

ويقول الأستاذ السعدنى، إنه قد رافقه فى رحلته إلى تدمر، السيد «خالد الأسعد»، الذى وصفه بأنه «حجة فى الآثار التدمرية»، وأن هذا الحجة قد أفاد صديقنا علما نافعا بقوله: إن المعبد هناك كان لعبادة إله باسم «بل»، وكان من الأوفق لو قال له اسمه الحقيقى بالسامية القديمة، فاسمه هو «بعل»، لكن المرافق الحجة قرأه فى كتب الأفرنج، ومعلوم عدم احتواء الأحرف اللاتينية على حرف العين، مما أسقطها من لسان رجل الآثار، ومعلوم أن «بعل» كان إله المطر والخصب والصواعق، ولم يزل الفلاح المصرى يطلق على النبات الذى سقته السماء بمطرها لقب «البعلى» وهو نفس الإله الذى انتقلت عبادته إلى جزيرة العرب، على يد «عمرو بن لحى الخزاعى» فيما تزعم كتب السيرة ليعرف باسم «هبل»، بعد إضافة «هـ» أداة التعريف فى العربية الشمالية القديمة، ومع إضافة الهاء سقط حرف العين بقوانين اللسانيات نتيجة وجود الهاء المفخمة فنطق «هبل» بدلا من «هبعل» بالتخفيف.

أما ماجاء بالموضوع عن عبادة إلهين آخرين فى تدمر هما «يرحبول» و«عجلبول»، وتفسير الأستاذ السعدنى بأنهما إلها الشمس والقمر، فهو مايحتاج إلى تقويم، فكلا الإلهين بعلى، فالمذكور باسم «يرحبول» مركب من ملصقين هما «يرح» و«بعل»، وكان القمر يسمى «يرح وأرح» ومنه أخذ أسم «أريحا» أى القمرية، كما كان ينطق «يرخ وأرخ» ومنه أخذ كلمة «التاريخ» باعتبار القمر رمزا لدورات الزمان، وبعل المرأة ربها وسيدها، وعليه فمعنى «يرحبول» هو السيد أو الإله القمر، وعليه يقاس أيضا «عجبلول»، فهو الإله العجل، ولاعجب، فقد قدس الأقدمون العجل أو الثور، حتى لقب الملوك أنفسهم بلقب «ثور» تشبها بالآلهة القوية، الآلهة الثيران، وقد قرن الثور أو العجل بعبادة القمر، بالمقارنة بين شكل الهلال وشكل قرنى الثور، ومابيينهما من تشابه، فكان الهلال هو ثور السماء الإلهى، ومن ثم فإن

«يرحبول» إنما يرمز للقمر عندما يكون بدرا، أما عجبول فيرمز للقمر عندما يكون هلالا، لقد كانت عبادة قمرية، ذات دلالة بدوية، ولم تزل للهلال قدسيته، فالشهور قمرية، والتاريخ قمرى، والصيام قمرى، والزمن العربى كله قمرى كله يرحبول، له عجلبول، بمنهج الثبات على المبدأ.

حكاية المنهج

ما الذى دفعنى وأنا على سرير المرض إلى كتابة ماكتبت الأن؟ لقد بدأ الأمر بمشاكسة صديق من باب المداعبة التى لاتفسد قضية الود، لكن يبدو أن موضوعه قد نكأ الجراح واستدعى استنفارا داخليا إزاء كل النماذج التى تملأ أرفف المكتبة العربية، وأرفف العقل العربى، وبالطبع صحفنا الغراء، تكرر وتردد بثبات وبيقين، تزيد وتضيف، من نفس الرصيد إلى ذات الرصيد، ولاتضيف إلا مزيدا من المعلومات المتحفية إلى معلومات حجرية، وتتنافس فى ذلك مع التلفاز الميمون، لينافسوا جميعا الرصيد الأصيل فى «دوجمته» وثباته عند الأصول، وإن أرادت المعاصرة والتحدث بحداثة، رددت معلومات مغلوطة، مغلفة بأسلوب حكائى مزوق، دون النظر إلى ماتفعله فى عقول الناس، ثم نسأل أنفسنا: لماذا الأصولية؟ لماذا الإرهاب؟ إنها النتيجة الأخرى لنفس المنهج! أسئلة يكمن وراءها الثبات على المنهج الأوحد، فكل شىء واضح لكنا لانريد أن نرى، فقط هذه هى المسألة!.

لذلك كله انتهزت فرصة ذلك المقال، لأملأ فراغ الوقت لحين استكمال المشوار العلاجى الطويل، لأنه فتح كل الجراح دفعة واحدة، وتحدث فى صميم همومى، وبقدر ماكان «روتين» وزارة الصحة مزعجا بل وبشعا، بقدر ماكان «روتين» التاريخ ثابتا ساكنا مترهلا نائما يرنم تشخيرة واحدة رتيبة، وبقدر ماشعرت بطعن ألم المرض فى قلبى، بقدر مالم يعد بالإمكان تحمل مزيد من الطعن فى رأسى وآمالى وأحلامى فى مستقبل هذا البلد وتلك الأمة.. أنهم يقتلون أحلامنا ياسادة!!.

المنهج ياسادة، «الدوجمة» المسبقة، واليقين القطعى، وغياب العقل النقدى، والتكاسل المخيف عن بذل الجهد، يفرش ظله السحرى على حياتنا ليفسد علينا كل شىء، الرؤية الاستاتيكية للتراث، التى لاتربطه بواقع، ماتعتبره شيئا فضائيا جاء من فراغ، رغم تزلزل كل البنى التحتية التى قام فوقها، حقا نحن أغرب أمة أخرجت للناس، نخلط التراث، بمسلمات ماأنزل الله بها من سلطان، بالحكى الشعبى، بالتاريخ الحقيقى مع تزييف نموذجى ليتلقى بالمأثور الدينى، كما نفعل فى حكاية العلم

والإيمان التليفزيونى لنرضى فى النهاية الإيمان التليفزيونى، ونرضى أنفسنا التى تركن للسكون والترهل، ويرضى المتاجرون بمصير الأمة بما ربحوا.

وأثناء ذلك نسقط دون وعى فى شباك التاريخ الإسرائيلى، لنكتب لهم، نيابة عنهم، أمجد التآريخ، ونسب أسلافنا وبناة حضارتنا الكبرى بأقذع سباب اخترعه الإنسان، وهو النموذج الذى مثله هنا بناء جن سليمان لمدينة تدمر! وهو نموذج بسيط إزاء الكم الهائل المتراكم على أرففنا من زاد لاتنفد خزائنه، وهو التراكم الذى يجعلنا نتخذ من المأثور مرجعية ومقياسا ومعياراً لكل شىء، وننزنقه حشرا فى كل أمر، ومثله ماجاء فى المقال المذكور أن «بعل» هو الإله البابلى «مردوك»، وأن «مردوك» قد تم تكسيره على يد النبى إبراهيم.

هكذا ببساطة نلقى القول، فقط لأن إبراهيم كسر أصناما كما جاء بالقرآن، ولأن بعض المؤرخين قالوا إن ابراهيم عراقى الأصل،ولأن مردوك كان أحد آلهة العراق، فلابد إذن أنه لم يسلم من فأس إبراهيم «!؟» بالله ماذا يمكن أن يفعل مثل هذا الكلام بقلبى المريض؟ إن قولا كهذا كى تثبته أو تنفيه، عليك أن تكرس له من عمرك سنوات، وعندما تكون أى دراسة من دراساتى قد استغرقت من عمرى زمنا، وأعملت المرض فى قلبى، فإن القاء القول هكذا على الناس، وفى ظروفنا، ومع حالتى يصبح قتلا حقيقيا.

مرة أخرى إنه منهج الترديد، وأقول لصديقى الذى لاشك فى نواياه: إن البحث عن المعرفة الصادقة هدف إنسانى وعظيم، والبحث الذى يسعى لتحقيق مطامحنا الوطنية والقومية لاشك أعظم، لكن كى يكون الأمر بحثا، وكى يثمر نتائج لاتدفعنا إلى مزيد مما نحن فيه، فحاجتنا أكبر للتخلص من أوهام المنهج الثابت الأوحد، حتى لانتصور أننا ندافع بإخلاص عن إسلامنا، ونقع فى التعصب القبلى، لنصحو يوما ونكتشف أننا داخل القبيلة الإسرائيلية، وسبط من أسباطها.

الرد اليسير على توراة عسير

(*) نشر بالعدد ١٢٧ من مجلة القاهرة في يونيو ١٩٩٣، القاهرة.

«كمال الصليبى»، أصبح أسما مطروحا فى المنتديات الثقافية، ومتواترا فى هوامش البحوث التى تتناول تاريخ القبائل الإسرائيلية، أو ماتعلق بها من أبحاث فى المجتمع أو الدين أو الاقتصاد أو السياسة، وعلى مستوى الانتشار أخذ اسم «الصليبى» موقعه من غرابة النظرية التى يطرحها فى مؤلفاته، وعلى مستوى البحوث العلمية أخذ مكانه من باب تثمين مضطر للنظرية، سواء بالإتفاق أو الاختلاف، لماقدمه الرجل من جهد وقرائن على نظريته، الأمر الذى يجعل من فساد الرأى التغاضى عنها، عند بحث شأن من شئون الجماعة الإسرائيلية.

ونظرية «الصلييبى» تذهب ـ عموما وبإيجاز ـ إلى احتساب القبائل الإسرائيلية، قبائل عربيية قحة، سبق أن عاشت فى جزيرة العرب فى الأزمنة التوراتية القديمة وبالتحديد فى منطقة عسير غربى الجزيرة، وأن جميع الأحداث التى قدمتها التوراة كمادة تاريخية وثائقية عن بنى إسرائيل من فجر تاريخهم، إنما حدثت جميعا فى بلاد عسير العربية، وكانت أهم براهين الباحث وقرائنه، ومكمن قوة نظريته قد جمعت تقريبا وحشدت فى كتابه الأول Tha Bible come from Arabia، المترجم عن الأصل الألمانى Die Bible kam aus dem lande Asir، وقد ترجمت النسخة الإنجليزية إلى العربية تحت عنوان: «التوراة جاءت من جزيرة العرب».

وقد أتبع الباحث ذلك الكتاب بكتابين آخرين وإن كانا أقل تماسكا وأدنى فى الدرجة وفى قدرة الإقناع عن كتابة الأول، قدمها للتخديم على نظريته الأساس التى ضمنها كتابه الأول، ومن ثم جاءا على قدر واضح من الهزال والضعف والتعسف، أولهما بعنوان «خفايا التوراة» والثانى بعنوان «حروب داود»، لذلك سيكون مناط حديثنا هنا مادته الأساس وملاطة الخرسانى فى كتابه الأول «التوراة جاءت من جزيرة العرب».

والدكتور «كمال الصليبى» يعمل رئيسا لدائرة التاريخ بالجامعة اللبنانية،

فهو قد قام بتدريس مادة التاريخ ـ فيما علمنا ـ لأكثر من ثلاثة عقود متصلة، ويبدو لنا أنه قد ركن إلى قناعة تتضح بها سطور العهد القديم من الكتاب المقدس، عند حديثها عن الرب التوراتى «يهوه»، وهى القناعة التى لاتهتز أمام الصفات التوراتية ليهوه، بأنه لم يكن أكثر من بركان، أو على الأقل أن البركان كان أبرز رمز تجلى فيه، وهو البركان الذى توجه إليه الخارجون من مصر بقيادة موسى النبى، فى جبل باسم «حوريب»، ويذكر مرات بإسم جبل «سيناء»، فإن المتوقع تماما أمام التفاصيل التى تحدثت عن صفات «يهوه»، أن نجد ذلك الجبل البركانى فى شبه جزيرة سيناء، لكن المشكلة التى واجهت الجميع، هى تأكيدات جاءت تؤكد أن سيناء لم تعرف البراكين إطلاقا طوال تاريخها.

وربما كان من الأوفق الرجوع إلى بعض نماذج صفات الرب «يهوه» فى التوراة، والتى كونت القناعة بالرب البركانى لدى «صليبى» ـ دون أن يذكرها ـ ولدى كثير من الباحثين، ولدى كاتب هذه السطور، ومن تلك النماذج:

● وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى **عمود سحاب**.. وليلا فى عمود نار «خروج ١٣/ ٢١».

● وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح، أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل.. وأخرج موسى الشعب لملاقاة الله.. وكان **جبل سيناء كله يدخن**، من أجل أن الرب قد نزل عليه **بالنار**، وصعد دخانه **كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جداً**.. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل «خروج ١٩/ ١٦ ـ ٢٠».

● الرب إلهك هو **نار** آكله «تثنية ٤/ ٢٤».

● على الأرض أراك **ناره العظيمة**، وسمعت كلامه من **وسط النار** «تثنية ٤/ ٣٦».

● يمطر على الأشرار فخاخا، نارا وكبريتا وريح السموم «مزمور ٢٩/ ٧».

● وكان منظر مجد الرب **كنار** آكله على رأس الجبل، أمام عيون بنى إسرائيل «خروج ٢٤/ ١٧».

وها، لن يجد أى مهتم بدراسة التاريخ الإسرائيلى سوى التسليم ببركانية الإله، ثم التسليم أيضا بالمأزق الشديد المحير، إزاء ماأفادنا به الباحثون أن شبه جزيرة سيناء لم تعرف البراكين طوال تاريخها. ويبدو أن المأزق ظل علامة استفهام مؤرقة لصليبى، حتى تصادف وطالع كتبا تفصيلية، لجغرافية شبه جزيرة العرب، أشعلت لديه فكرة جديدة تماما، يمكن أن يكون فيها الخروج من المأزق الذهنى الملحاح، وأسئلته الحائرة المؤرقة. حيث

وجد تطابقا مدهشا بين مواضع أسماء كثيرة بجبال عسير - وهى جبال بركانية عموما - وبين الأسماء التى وردت فى التوراة، للمواضع الجغرافية القديمة فى تاريخ إسرائيل التوراتى، وعندما قام بعملية تدقيق لإحداثيات تلك المواضع، انتهى إلى يقينه الذى وضعه فى شكل **كشف خطير بحق، يؤكد أن كل الأحداث التوراتية إنما جرت فى جبال عسير، وأن الإسرائيليين عرب أقحاح، وأنهم لم يدخلوا إطلاقا مصر الفرعونية، ولم يخرجوا منها قط**، وأن هناك مغالطة تاريخية هائلة، أدت إلى هذا الخطأ التاريخى العظيم فى معارفنا، وأنه مما يدعم وجود تلك المغالطة، **هو غياب أى دليل وثائقى مباشر فى مدونات مصر القديمة، يشير إلى دخول الإسرائيليين إليها أو خروجهم منها**، أو إقامتهم فيها، ومن هنا شمر الدكتور الصليبى عن همته بإعادة النظر فى الجغرافيا التوراتية، محاولا إثبات أن جميع الأحداث التى جرت والمواقع التى حدثت بها تلك الأحداث، لم تقع لافى مصر، ولا فى فلسطين، ولافيما بينهما «سيناء»، بل وقعت جميعا بلا استثناء فى مرتفعات عسير بجزيرة العرب، معتمدا على تحليل لغوى مقارن، طابق فيه بين المواضع الجغرافية التى أوردتها التوراة، وبين مقابلها فى غربى جزيرة العرب..

أساس الكتاب

وكان أهم تبرير قدمه «صليبى» لمذهبه ونظريته، هو ماجاء فى قوله: «ففى حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فإن جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات، والحقيقة الساطعة، هى أن الأراضى الشمالية للشرق الأدنى، قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وأن بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودرست وأرخت، فى حين أنه لم يعثر فى أى مكان كان على أثر يتعلق مباشرة إلى أى حد بالتاريخ التوراتى، وأكثر من ذلك، فإن **التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة من قلة قليلة، تماثلت لغويا مع أسماء أمكنة فى فلسطين**،... وحتى فى الحالات القليلة التى تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فإن الإحداثيات المعطاة فى النصوص التوراتية للأماكن التى تحمل هذه الأسماء، وفى إطار الموقع، أو المسافة المطلقة، أو النسبية، لاتنطبق على المواقع الفلسطينية.. وسجلات مصر والعراق، القديم، قد قرئت على ضوء

النصوص التوراتية، والتى أجبرت على إعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية، تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين»[1] .

ومن هنا أسس الباحث عمله بالركون إلى تلك السلبيات التى طرحها، حول التاريخ التوراتى وتاريخ المنطقة المدون، ميمما وجهه شطر عسير، بادئا بتحديد منهجه ومواد عمله فى مقدمة كتابه بقوله: «وأساس الكتاب هو المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة فى التوراة بالحرف العبرى، وأسماء أماكن تاريخية أو حالية فى جنوب الحجاز وفى بلاد عسير»، ثم يحدثنا عن الصدفة التى جعلته يعثر على **عالم التوراة القديم «المفقود» فى جزيرة العرب** بقوله: «لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، كنت أبحث عن أسماء الأمكنة ذات الأصول غير العربية فى غرب شبه الجزيرة العربية، عندما فوجئت بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك فى منطقة بطول يصل إلى ٦٠٠كم، وبعرض يبلغ حوالى ٢٠٠ كم، تشمل مايسمى اليوم «عسير» والجزء الجنوبى من الحجاز، وكان أول ماتنبهت إليه أن فى هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة فى التوراة، وسرعان ماتبين لى أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة فى ذهنى، أو جلها، مازال موجودا فيها، وقد تبين لى أيضا أن الخريطة التى تستخلص من نصوص التوراة فى أصلها، العبرى، سواء من ناحية أسماء الأماكن، أو من ناحية القرائن أو الأحداثيات، تتطابق تماما مع خريطة هذه الأرض الموصوفة فى التوراة.. وهنا قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه، فاليهودية لم تولد فى فلسطين بل فى غرب شبه الجزيرة العربية وليس فى أى مكان آخر.. ويجب البحث عن الأصول الحقيقية لليهودية، فى ثنايا الاتجاه فى منحى التوحيد فى عسير القديمة»[2].

مشكلة اللغة

وهنا كان على «الصليبى» أن يبدأ - بالطبع - من مشكلة اللغة، ليجد مايشير إلى أن اللغة العبرية القديمة «وهى أيضا اللغة الكنعانية بإقرار الكتاب المقدس» وكذلك اللغة الآرامية، وكلتاهما: العبرية والآرامية، كأتتا لغة إبرام «إبراهيم»، فاللغة الأصلية لآله وأسلافه هى اللغة الآرامية، واللغة التى اكتسبها بهبوط «كنعان» أو أرض التوراة القديمة هى العبرية/ الكنعانية. لقد وجد صليبى - فيما يزعم - كلتا اللغتين، وبالطبع وبالتبعية كلا

(١) كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العملية، ط٢، بيروت، ص٥٠: ٥٢.

(٢) نفسه، ص ٢٧ - ٢٨.

الشعبين، الآرامى والعبرى «وبالضرورة الكنعانى»، فى بلاد عسير العربية، ولأنه قرر أن يعمل على أساس المقابلة اللغوية لأسماء الأماكن، فقد جاء اكتشافه لوجود تلك الشعوب ولغاتها فيما جاء بسفر التكوين ٣١/ ٤٧ ـ ٤٩ عن الميثاق الذى تم بين يعقوب «العبرى»، وخاله لابان «الآرامى»، وهو الميثاق الذى أقيم بموجبه شاهد تمثل فى كوم من الأحجار، أطلق عليه لابان بلسانه الآرامى «يجر سهدوثا»، وأطلق عليه يعقوب بلسانه العبرانى «جلعيد والمصفاة»، وقد وجد صليبى أن تلك الأسماء مازالت تطلق حتى اليوم على ثلاث قرى صغيرة متجاورة، فى منحدرات عسير البحرية، فى منطقة «رجال ألمع» غربى أبها، وهى: قرية الهضبة وهى فى الآرامية «يجر»، وقرية «الجعد» وهى عند الصليبى المقابل، لأسم «جلعيد»، ثم قرية «المضاف» التى هى بقلب الصاد «المصفاة»(٣).

وعليه يذهب إلى نتيجة يؤكدها، وهى أن المملكة الإسرائيلية، قد تأسست فى غرب شبه جزيرة العرب، بين أواخر القرن الحادى عشر، وبين مطلع القرن العاشر الميلادى، قياسا على تاريخ هجرات الفلسطينيين والكنعانيين من عسير إلى فلسطين، بضغط افتراض أنه قد حدث من قبل الإسرائيليين عليهم فى عسير، وهناك أطلق المهاجرون إلى فلسطين أسماء مواطنهم القديمة فى عسير، على مقار استيطانهم الجديد بفلسطين، وهو مايفسر لنا التشابه بين أسماء المواضع الجغرافية الفلسطينية، وبين أسماء المواضع التوراتية، وهى الظاهرة المرتبطة بالهجرة فى كل زمن وفى كل أنحاء العالم، فالمهاجرون يحنون دوما إلى الوطن الأصلى، فيطلقون على مواضع مهجرهم الجديد أسماء البلدان والأقاليم والجبال والأنهار التى تركوها فى مواطنهم الأولى (٤).

وإعمالا لنظريته، يرى الدكتور صليبى، أن جميع الهجرات المصرية التى تم تجريدها على فلسطين، كانت فى حقيقتها موجهة ضد بلاد عسير غربى جزيرة العرب، وبخاصة حملة «شيشانق الأول» الفرعون المصرى ضد مملكة يهوذا، فى أواخر االقرن العاشر قبل الميلاد، كذلك الحملة الثانية التى قادها الفرعون «نخاو الثانى» فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، حيث كان البابليون قد حاولوا السيطرة على عسير، مما أديى إلى صدام حتمى بين المصريين والبابليين فى عسير، ومن ثم فإن وقعة «كركميش» التى وردت فى العهد القديم «أخبار الأيام الثانى ٣٥/ ٢٠، إشعيا ١٠/ ٩،

---

(٣) نفسه: ص٣١.

(٤) نفسه: ص ٢٦ ـ ٢٨.

إرميا ٤٦/ ٢»، لم تجر فى داخل الأراضى التركية، وأن موقع «كركميش» ليس «جرابلس» الحالية جنوبى تركيا على حدود الشام كما ذهب المؤرخون، إنما وقعت المعركة بين جيوش الأمبراطوريتين: المصرية والبابلية قرب مدينة «الطائف» جنوبى الحجاز، حيث الدليل عند الصليبى يقوم على قريتين: الأولى تحمل اسم «القر» والثانية تحمل اسم «قماشة» ويجمعهما فيصبحان «قرقميش».

بل ويذهب السيد الدكتور إلى أن الحملات المصرية الأكبر، التى تعود بتاريخها إلى الألف الثانية قبل الميلاد، والمفترض حسب علم التاريخ أنها كانت موجهة لاحتلال مواضع بعينها فى فلسطين وبلاد الشام، إنما كانت فى حقيقتها موجهة ضد «عسير»(٥)، والدليل الدامغ على ذلك، هو أنه لوكان داود وسليمان وقتذاك هما السيدان الفعليان لدولة كبرى فى فلسطين، تسيطر على الإقليم الاستراتيجى الذى يفصل مصر عن العراق، كما هو الافتراض الشائع، لأشارت إليهما السجلات المصرية والآشورية المتعاصرة، بينما لانجد فى تلك السجلات أيا كانت سياسية أو عسكرية، أية إشارة لهذين الأسمين، بخاصة فى أخبار غزوات مصر وآشور على فلسطين.

ثم يقدم لنا تفسيره لوجود الإسرائيليين، والديانة اليهودية فى فلسطين، بأنه أمر حدث متأخرا عن الأحداث الكبرى فى التاريخ التوراتى القديم، وأن الأمر كان ناتجا عن التدخلات المصرية المستمرة والدائبة فى بلاد عسير، مما أدى إلى انقسام مملكة سليمان الكبرى فى غرب جزيرة العرب، ونشوب الحروب بين شقيها المنفصلين: يهوذا وإسرائيل، وما تبع ذلك من غزوات الآشوريين والبابليين، التى انتهت بتصفية «سرجون الثانى» الأشورى لملكة إسرائيل عام ٧٧١ق، حيث احتل عاصمتها «السامرة» التى هى عند صليبى قرية «شمران» الحالية بعسير، ثم تبعه «نبوخذ نصر» الكلدانى البابلى ليقضى على مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ ق.م، حيث ساق الآلاف منهم إلى بابل أسرى، وعندما قامت مملكة فارس الإخمينية أفرج «قروش» عن الأسرى، فعادوا مع عائلاتهم إلى عسير، لكن ليجدوا أن كل شىء هناك قد أصبح خرابا، فعاد أغلبهم إلى فارس والعراق، وتوجه التيار الرئيسى نحو فلسطين ليقيم هناك بينما **دخلت - فى زحمة الأحداث - الأصول العربية لبنى إسرائيل فى غيابات النسيان**، وساعد على ذلك الغياب التحول الذى طرأ على اللغة الآراميةفى كل مكان، وظهرت اللغة العربية كمنافس

---

(٥) نفسه: ص ٣٦ - ٣٨.

للآرامية، فتغلبت فى النهاية بحلول القرون الأولى من العصر المسيحى[٦]، هذا بينما كان يهود الجزيرة العربية يتحولون نهائيا إلى اللغة العربية، وهى التحولات التى توافقت مع نسيان كامل للأصول العبرية القديمة فى عسير العربية[٧].

نماذج لغوية مقارنة

بطول كتابه لاينى الدكتور صليبى ولاتفتر همته، عن دعم ماذهب إليه بنماذج لأسماء الأماكن التوراتية، وماعثر عليه مقابلا لها فى خريطة عسير العربية وفق تلك النماذج التى وضعها جميعا غربى الجزيرة، وحسب تخريجاته اللغوية المقارنة، يمكن تقديم النماذج الأساس الآتية:

- أرض جاسان التى سكنها بنو إسرائيل بمصر، هى قرية «غثن» بعسير.
- مدينة رعمسيس هى «مصاص».
- فيتوم هى «ال فطيمة»[٨].
- سكوت هى «سيكة» بالطائف[٩].
- مصر ليست مصر الفرعونية، إنما هى «مصر» فى وادى بيشة، أو «المضروم» فى مرتفعات غامد، أو هى «آل مصرى» فى منطقة الطائف، ولو احتججنا بأن مصر التوراتية كان يحكمها فرعون، فإنه يرد بأن كلمة فرعون تلك مأخوذة من أسم قبيلة «فرعا» الموجودة الآن فى وادى بيشة[١٠] «وبالطبع منذ أكثر من ثلاثين قرنا دون أن تتحرك رغم أنها قبيلة بدوية مرتحلة دوما»، ونهر مصر الوارد فى التوراة مصحوبا بأحداث عظيمة حول شأنه ليس سوى واد جاف اسمه «وادى ليه»، وأن التوراة لم تسمه نهر مصر، إلا لأن هناك تقع قرية فى حوضه باسم «المصرمة» [١١]، ثم لم يكن خروج بنى اسرائيل من مصر، وعبورهم البحر المعروف فى التوراة باسم «بحر سوف»، بالعصا المعجزة، ثم عبورهم الأردن بالدوران حول دول آدوم وموآب وعمون، لفتح فلسطين، كل هذا لم يكن سوى عبور جبال السراة بمنطقة الطائف إلى الليث [١٢].
- الدول الكبرى التى وردت فى المدونات المصرية كما وردت فى التوراة

(٦) نفسه: ص ٣٩ ـ ٤٤.
(٧) نفسه: ص ٤٦.
(٨) نفسه: ص ٥٣.
(٩) نفسه: ص ٢٠٢.
(١٠) نفسه: ص ١٤٨.
(١١) نفسه: ص ٢٦٠.
(١٢) نفسه: ص ١٤١.

تقع بدورها فى جبال عسير ، فمعلوم أن مملكة «دمشق» الآرامية كانت الحد الشمالى لدول إسرائيل الفلسطينية، ومن هنا وجب نقلها بدورها إلى عسير، لتصبح قرية «مسقو» فى ناحية العارضة شرقى أبو عريش[13]، و«مجدو» الفلسطينية، أعظم فتوحات تحتمس الثالث الفرعون المظفر، إنما هى قرية «قصوى» فى منطقة القنقذة[14] ، أما بلادلبنان بمدنها وقراها وجبالها وأرزها، لم تكن فى الحقيقة سوى «لبينان» شمال اليمن بجوار نجران[15].

- ودولة «ميتانى»، بجيوشها وملوكها، والتى حدثنا جدول الفرعون «شيشانق» عن هزيمتها وإخضاعها لسلطان مصر، فهى لاتقع فى أقصى شمال الفرات، إنما هى «وادى مثان» بالطائف، وأن كل مامغله شيشانق هو أنه استولى هناك على مجموعة قرى متناثرة بذلك الوادى، ولما كانت النصوص المصرية تشير إلى ميتانى بإسم ثان هو «نهارين»، لوقوعها بين نهرى دجلة والفرات فى أقصى اتساعهما، فقد رأى الدكتور صليبى أن ذلك خطأ فادح، حيث وجد فى وادى مثان بالطائف قرية باسم «النهارين»، بل أن حديث الفرعون «شيشانق» عن هزيمته لجيوش دولة آشور تفسير خاطىء من المؤرخين، لأنه إنما هزم جيوش قرية «يسير» الحالية «!؟» بمنطقة رابغ فى تهامة الحجاز[16]، أما الإشارات التوراتية لنهر «الفرات» فإنها كانت تعنى واديا باسم «أضم» حيث يوجد بجوارته قرية بإسم «الفرت»[17]، أو ربما كان واديا آخر باسم «خارف» بجوار تنوقة شمال أبها[18]، وللقارئ أن يختار مايحلو له.

- وللقارئ أيضا أن يختار أو «يحتار» بين أثنى عشر اسما لاثنى عشر موقعا لقرى تقابل اسم «إسرائيل» الدولة، منها على سبيل المثال: السراة آل يسير، يسير، أبو سرية.. الخ[19].

- كذلك المدن الواردة بالتوراة باعتبارها مدنا فلسطينية، إنما تقع بكاملها فى جبال عسير، فبئر سبع لاتقع جنوبى فلسطين، لأنها هى قرية «الشباعة» قرب خميس مشيط[20]، وكذلك «جرار» لاتقع على الساحل فى

---

(١٣) نفسه: ص ١١٦.
(١٤) نفسه: ص ١١٩.
(١٥) نفسه: ص ١٥١.
(١٦) نفسه: ص ٢١٩.
(١٧) نفسه: ص ٢٦٠.
(١٨) مفسه: ص ٢٧٦.
(١٩) نفسه: ص ١٩٦.
(٢٠) نفسه: ص ١٩٦.
(٢١) نفسه: ص ٩٧.

أقصى جنوب فلسطين، لأنها هى قرية «القرارة»[٢١]، وقادش هى «الكدس»، و«شور» المفترض أن تقع على حدود مصر الشرقية هى «آل أبوتور» فى وادى بيشه[٢٢]، وميناء «يافا» ليس على ساحل المتوسط، لأنه هو «الوافية» قرب خميس مشيط، والزرقاء ليست شرق الأردن، لأنها هى «الزرقة» فى جيزان[٢٣] أما حصن صهيون بأورشليم، فليس سوى قرية «قعوة الصيان» فى مرتفعات رجال ألمع غرابى أبها[٢٤]، كذلك بقية المدن الفلسطينية المشهورة، التى يتم نقلها جميعها إلى عسير، فتصبح «بيت إيل» هى «البطيلة» فى سراة زهران[٢٥] وبيت لحم تصبح «أم لحم» فى منطقة الليث[٢٦]، وحبرون المصطلح على أنها الخليل الحالية جنوبى فلسطين، يتم وضعها فى قرية «الخربان» فى منطقة المجاردة[٢٧].

ـ والمدن الفلسطينية الخمس على الساحل، المشار إليها فى التوراة بالأقطاب الخمسة، تصبح عنده كالتالى:

❖ غزة ـ «عزة» فى وادى أضم[٢٨]، وفى موضع بعيد فى كتابه تصبح «آل عزة» فى بلحمر جنوبى النماص[٢٩]، ثم فى صفحات أخرى أكثر بعدا نجدها منسوبة إلى قبيلة «خزاعة»[٣٠].

❖ أشدود ـ السدود فى رجال ألمع.

❖ عسقلان أو أشقلون ـ شقلة بجوار القنفذة.

❖ جت ـ الغاط فى جيزان.

❖ عقرون ـ عرقين فى وادى عتود بين رجال ألمع وجيزان[٣١].

ـ وسكان فلسطين القديمة، ومنهم العبرانيين، إنما كانوا فى الحقيقة سكان قرية «آل غبرانى» فى ظهران الجنوب[٣٢]، والكنعانيون كانوا سكان قرية «القنعة» القديمة، لكن ربما كانوا من قرية أخرى هى «قناع»[٣٣]، وصيدا ليست على الساحل اللبنانى لأنها هى قرية «آل زيدان» فى مرتفعات

(٢٢) نفسه: ص ٩٨.
(٢٣) نفسه: ص ١٢٠.
(٢٤) نفسه: ص١٧٨.
(٢٥) نفسه: ص ٢٠٠.
(٢٦) نفسه: ص ٢٠٢.
(٢٧) نفسه: ص ٢٠٣.
(٢٨) نفسه: ص٢٥٣.
(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.
(٣٠) نفسه: ص ١١٦.
(٣١) نفسه: ص ٢٥٣.
(٣٢) نفسه: ص ٢٢٨.
(٣٣) نفسه: ص ١٠١.

شهدان فى أراضى جيزان الداخلية[٣٤]، وجبل حوريب المقدس بسيناء، يقع فى الحقيقة قرب قرية «خارب» فى وادى بقرة[٣٥].

ـ وأسماء أسباط بنى إسرائيل جميعا تقع بدورها فى جبال عسير، كالتالى:

❖ رأوبين نسبة لقرية «اعربيان» فى سراة زهران مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ شمعون نسبة لقرية «الشعنون» جنوب جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ يهوذا نسبة لقرية «الوهدة» فى رجال ألمع مع مواقع محتملة نختار من بيينها.

❖ دان نسبة لقرية «الدنانة» مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ نفتالى نسبة لقرية «آل مفتلة» مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ جاد نسبة لقرية «وشر» فى جيزان مع مواقع أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ يساكر نسبة لقبيلة «يشكر» الحالية (!؟) مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ زبولون نسبة لقبيلة «الزيالة» مع قبائل أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ يوسف نسبة لقرية «آل يوسف» فى بلسمر مع قرى أخرى محتملة نختار من بينها.

❖ بنيامين وهو الأسم الذى أطلقه الشعر الجاهلى على أهل اليمن[٣٦].

❖ (وربما كانت القرى والقبائل المذكورة ـ بالعكس ـ نسبة للأسباط).

المنهج والنظرية

هذه بإيجاز نظرة سريعة على أطروحة «كمال الصليبى»، لاتغنى ـ بالقطع عن قراءة الكتاب، كما لاتعبر ـ باليقين ـ عن الجهد المبذول بإخلاص فى هذا العمل الثرى، والذى أبهر مثقفينا إلى الحد الذى لم يلتفتوا فيه إلى مجرد إعادة التصنيف ونموذجا له ماقدمناه، وكان كفيلا وحده بهذا الترتيب

(٣٤) نفسه: ص٩٩.
(٣٥) نفسه: ص ٧٠.
(٣٦) نفسه: ص ٣٠١: ٣٠٤.

وبالقراءة والدراسة المقارنة، أن يبدل أسباب الدهشة، بل وطبييعة الدهشة.

وقد اختار الرجل مع براعة منجهه المخلص بتواضع جم، رغم ماوضح من ممكناته العظيمة فى مجال اللغة تحديدا، وإن ذهب فى مواضع أخرى إلى الاعتداد الشديد، إلا أن المشكلة الحقيقية التى تواجه عمله بالكامل، وباعترافه هو نفسه فى مقدمة كتابه، هى أنه لم يأخذ علم الآثار باعتباره على الإطلاق. وحين تناول بعض المدونات التاريخية القديمة، كان ينزعها من سياقات عدة ترتبط بها، ليدعم بها رؤيته فى شموليتها، محتجا بأن المسح الآثارى لمناطق غربى الجزيرة لم يتم بعد بشكل تام، كما لوكانت نظريته قد ثبتت وانتهى القول بشأنها فعلا، ولم يبق سوى التنقيب وراءه، لنجد هناك تحت الرمال عالم التوراة القديم برمته، وهو التصريح الذى أكده دوما فى أكثر من حديث صحفى، وهو مايمكن أن ينطق بالكثير كما سنرى، لذلك كانت خطورة عمله القاصمة لأساسه، هو أحاديثه التى أهملت تماما جميع النظريات الأخرى حول التاريخ التوراتى، مع إهداره المطلق للجانب التاريخى الوثائقى، حتى الكتاب المقدس نفسه، باعتباره وثيقة تاريخية، وبخاصة المرتبط منه بمصر وفلسطين.

وكان اعتماده على المقارنات اللغوية وحدها، وفى حدود أسماء الأشخاص والمواضع ثم حذفه للحركات والضوابط، التى دخلت على المأثور التوراتى فى القرن السادس الميلادى من قبل أهله، كناتج ملاحظته لبعض الأخطاء فى التصويت والإعراب، وهو ما حور بعض المعانى، ونحن نثق فى قدرته المتبحرة فى هذا الجانب، لكن المأخذ هنا أنه أعاد النص التوراتى الهائل برمته إلى أصله غير المتحرك، لأنه اقتنص خطأ هنا وفلته هناك، فى بضع كلمات أدى تصويتها إلى تبديل معناها - على ذمته - ضمن حوالى نصف مليون كلمة تشكل ذلك المأثور، لكنه استمر على دأبه غير هياب، فقام بتسكين كل الأحرف، ليعيد هو تحريكها بما يوافق حركته بين المواضع التى رآها أهلا للتطابق معها فى بلاد عسير.

ولو ألقينا نظرة سريعة فيما عرضناه هنا، سنجد «الدكتور صليبى» يحل كل المشكلات الهائلة، التى حارت فيها أفهام العلماء لقرون، حلا نهائيا تاما مانعا، بمجرد إيجاد الصلة أو التطابق بين اسم موضع ورد بالتوراة، واسم موضع عثر عليه فى خرائط جزيرة العرب الغربية، مثلما فعل فى تأكيده أن أهل عسير كانوا يتكلمون لغة أخرى هى الآرامية (١٩)، فقط لأن كوم الأحجار الشاهدة على ميثاق يعقوب العبرى، وخاله لابان الأرامى، المسمى بالآرامية «يجر سهدوثا» وبالعبرية «جلعيد والمصفاة»، يتطابق كأسماء مواضع، مع قريتين عثر عليهما على خريطة رجال ألمع باسم «مزرعة آل شهدا» و«الجعد».

ثم أنه لم يلتفت قط إلى أنه من الممكن افتراض العكس، وسيكون هو الافتراض الصحيح علميا وتاريخيا، حول فرضه أن الأسماء التوراتية الموجودة بفلسطين أطلقها هناك المهاجرون من عسير كذكرى لموطنهم القديم، بمعنى أن العكس ممكن أيضا وأكثر علمية، فتصبح الأسماء الواردة بجزيرة العرب مشابهة لأسماء توراتية، ناتجة عن هجرة إسرائيلية من فلسطين إلى جزيرة العرب، وهو مانعلمه نتيجة هجوم «آشور» و«كلديا» على فلسطين، ومن بعدهم هجوم «طيطس» الرومانى عليها وتدمير الهيكل وتشتيت بنى إسرائيل، الذى انحدر أغلبهم جنوبا ليشكلوا فيما بعد يهود شبه الجزيرة العربية الذين تناثروا فى مواضع عدة أشهرها خيبر ويثرب واليمن هذا بالطبع إذا سلمنا له بصدق بعض، وليس كل، مقابلاته اللغوية لمواضع الأمكنة وأسمائها.

أما الأشد غرابة فهو اعتماده أسماء موجودة اليوم بالجزيرة لمواضع وقبائل، يراها هى ذات الأسماء التوراتية، بعد مرور أكثر من ثلاثين قرنا، كانت كافية لتبديل أسماء المواضع التى ذكرها عشرات المرات، ونسيان قديمها وهو أمر معلوم، ومعلوم أيضا أن أسماء المواضع عادة ماتتغير بتغير سكان المنطقة، وهو أمر دائم التكرار فى بلاد البداوة القبلية أكثر من المناطق المستقرة، وذلك للسعى وراء الكلا والتحرك للإغارة أو هربا من الإغارة، هذا ناهيك أنه قال بنسيان العالم كله للأصل العسيرى العربى للإسرائيليين فى عسير، بعد أسر فى بابل لم يدم لأكثر من نصف قرن، فما باله يرى جزئيات وتفاصيل أجدر بالنسيان، خلال قرون طويلة، يراها باقية شاهدة على الأصل العسيرى للتوراة القديمة وأهلها من بلاد العرب.

وفى موضع آخر من كتابه يتلفت إلى نقاط ضعف يحاول تبريرها، فهو يشير إلى النصوص الاسطورية التى وردت فى التوراة، وضرب منها مثلا بقصة «الطوفان»، التى تحتاج غمرا مائيا وبلادا معطرة ونهرية كأرضية للحادثة، وهو مالا يتطابق مع حال جزيرة العرب، ليؤكد لنا أنه لايمكن التأكد أين ولدت مثل تلك الأساطير؟ ومن استعارها؟ ومن أصحابها الأصليين؟ ولكنه لاشك يعلم أصولها المصرية والعراقية والشامية، وسر انتقالها إلى الكتاب المقدس وظروف ذلك! وسبق لنا أن قدمنا فى ذلك بحوثا نشرناها فى كتابنا «الأسطورة والتراث»(٣٧) يمكن للقارئ الرجوع إليها، وهو مالايمكن أن يتطابق بحال، مع ماذهب إليه الدكتور الصليبى.

ثم فى موضع آخر يجد شاهدا أركيولوجيا لايقبل دحضا، يتمثل فى «الحجر المؤابى»، الذى عثر علييه شرقى البحر الميت، بلاد مؤآب القديمة،

---

(٣٧) سيد محمود القمني: الأسطورة والتراث، القاهرة، ١٩٩٢.

ويتحدث فيه «ميشع» الملك المؤابى عن حروبه مع إسرائيل، فيتحايل على الأمر برمته، ويقول إن النصب قد أقامه «ميشع» فى تلك المنطقة التى حددتها التوراة شرقى فلسطين، ولكن بعد أن هاجر من عسير بعد حروبه مع إسرائيل فى عسير (؟!).

ويتمادى فيبالغ ليرى أن حملات المصريين جميعا، على البلاد التى كان مظنونا أنها فلسطين وبلاد الشام وجنوب تركيا، إنما كانت جميعا على شبه الجزيرة العربية، وتحديدا ضد عسير، بما فيها حملتا «شيشانق» و«نخاو» المدونتان فى التوراة وفى النصوص المصرية القديمة. كذلك حملات البابليين والآشوريين اتجهت بدورها جميعا إلى بلاد عسير، وترك العالم الامبراطورى بقاع الثروة والخصب، والموقع الفلسطينى الشامى الاستراتيجى العالمى، ليتصارع جميعه فى بلاد عسير، ولأجل عيون قرى عسير «؟!». وهو أمر نافر تماما ومتكلف، ناهيك عن فقده لأى مصداقية أركيولوجية أو وثائقية، إضافة لمخالفته للمدونات القديمة التى تحدثت عن تلك الحملات الامبراطورية!.

نعم لايكابر أحد أو يجادل فى أن المصريين قد اخترقوا بلاد العرب، وانشأوا هناك مستعمرات متقدمة، لضمان السيطرة على الطريق التجارى البرى الذى ينقل بضائع الهند وأفريقيا الشرقية إلى عالم الشرق الأوسط القديم، وهو أمر سبق أن قدمنا عليه قرائن فى أعمالنا المنشورة «انظر مثلا: النبى إبراهيم والتاريخ المجهول»، لكن أن تكون دولة إسرائيل القديمة قد قامت هناك، وأن كل الصراعات الامبراطورية قد دارت هناك من أجل تلك الدويلة والتى سيقل شأنها أكثر فى حال نقلها من موقعها الاستراتيجى بفلسطين، إلى جبال عسير، فهو الأمر الذى يصعب قبوله تماما.

ومايجعل أمر عسير هنا «عسيرا» بالمرة، هو قول «الصليبى» أن الحملات المصرية جميعا لم تكن متجهة من مصر إلى حوض المتوسط الشرقى «فلسطين، سوريا، تركيا، العراق»، بل دوما إلى عسير، حيث أن هناك مراجعات شاملة قد جرت للروايات القديمة بهذا الشأن، خصوصا المدون المصرى هنا، وهى وإن لم تقطع بأمر موقع أو آخر، فهو أمر طبيعى تماما فى دراسة التاريخ القديم، لكن هناك من الشواهد مايكفى لضمان سلامة تحديد خطوط سير تلك الحملات. فإن نجد - كمثال - نصبا لرمسيس الثانى على مصب نهر «الكلب» بمواجهة البحر المتوسط، بين بيروت وجبيل، يتحدث عن حملته الأولى على بلاد الشام سنة ١٢٩٧ ق.م،

فإنه سيكون دلالة لاتقبل جدلا ودليلا شاهدا يكمل أى نقص فى المعلومات المدونة حول تلك الحملة، وخط سيرها [٢٨].

ومثله عندما تتحدث النصوص عن استيلاء «رمسيس الثانى» على بيروت وجبيل، فنحن نصدقها، بهذا الشاهد الأثرى، ولانذهب مع «صليبى» إلى فيافى الجزيرة العربية البلقع لنبحث هناك عن «لبينان»، بل نصدق تماما أن «رمسيس الثانى» قد غطى بحملته نصف الشاطئ الشرقى للمتوسط بتلك الحملة الصغيرة، ثم لابد أن نصدق مرة أخرى، لوجود عناصر أخرى ترتبط بالحادثة، لأن الحملة كانت إنذارا للملك الحيثى «ماتتيوالى» سنة ١٣٠٦ ـ ١٢٨٢ ق.م، ليكف عن تدخلاته فى سوريا، ودواعى التصديق، هى الحرب التى خاضها «رمسيس الثانى» بعد ذلك مع الملك الحيثى ملك تركيا القديمة، فى موقعة قادش على نهر العاصى السورى، والتى انتهت بتوقيع اتفاق سلام من نسختين، نسخة بالمصرية ونسخة بالحيثية، وقد تم العصور على كلتا النسختين واحدة فى مصر، والثانية فى «بوغازكوى» العاصمة الحيثية القديمة فى داخل تركيا، وهو السلام الذى لجأ إليه الملك الحيثى، سعيا وراء مصالحه للتفرغ لحماية بلاده، أمام جيرانه «الآشوريين» وقوتهم المتصاعدة، فى بلاد الرافدين الشمالية، وليس فى قرية «أبى ثور» فى بلقع عسير.

وشواهد أثرية أخرى

وإذا كانت قرية «النهارين» فى وادى مثان بالطائف، هى «نهارينا» المذكورة فى مدونات مصر، للإشارة إلى دولة الميتانيين، فماذا سنفعل فيى تلك الحال باللوحة التذكارية التى أقامها «تحتمس» فى كركميش «جرابلس الحالية على حدود تركيا الجنوبية»، والتى يحكى فيها عن انتصاراته هناك، وأخذه الأسرى بأعداد غفيرة، وعن احتفال الملك فى رحلة العودة بنجاحه فى المعركة، وكان احتفاله بصيد الأفيال، حيث اصطاد فيلا ضخما فى مستنقعات «نى» قرب «أباميا» السورية. ولوحتى غضضنا الطرف عن اللوحة التذكارية، التى ربما نقلها شخص ما، فى زمان ما، من قمية النهارين فى وادى مثان بالطائف، ليضعها فى نهارينا دولة الميتانى، كما حدث للحجر الموآبى «١٩»، فماذا عسانا نفعل بالفيل الذى اصطاده الملك فى مستنقعات أباميا؟ وهو أمر معتاد فى سوريا القديمة، لكنه لم يكن موجودا إطلاقا فى تلك العصور بجزيرة العرب، ولافى العصور التالية، والفيل

(٢٨) من باب التبسيط نحيل إلي كتاب صغير الدكتور سامي سعيد الأحمد: الرعاسمة الثلاثة الأوائل، دار الشئون الثقافية، بغداد ١٩٨٨، ص ٣٣.

الوحيد اليتيم الذى عرفته جزيرة العرب، جاء بعد ذلك بقرون طوال قادما من بلاد الحبش، فى حملة الفيل المشهورة على مكة.

أما مدونات بلاد الرافدين، فلم تبخل بالتدوين، ولضرب المثل فقط نجد الملك «تجلاتبليزر الأول» الآشورى، يحكى فى مدوناته، أنه غزا سوريا ووصل إلى الساحل الفينيقى، وأخذ الإتاوة من المدن الفينيقية «أرواد، وجبيل، وصيدا»، وقد قتل فى ميتانى عشرة أفيال ضخمة، وبالتحديد فى منطقة حاران، كما اصطاد أفراس البحر من المياه قرب أرواد(٣٩).

وبالطبع ماكان بالإمكان حدوث ذلك فى بوادى العرب عند «آل زيدان التى يقابلها بصيدا» فى أراضى جيزان، وعليه لايمكنا بالطبع التسليم بأن حملة «تحتمس الأول» لتثبيت حدود الدولة المصرية على نهر الفرات، بواسطة نصب تذكارى أقامه على الضفة اليسرى للنهر، بعد ماتجاوزه قرب كركميش على الحدود السورية التركية(٤٠)، لانستطيع أبدا أن نسلم أن تلك الحملة إنما قطعت كثبان جزيرة العرب الرملية، مئات الأميل لضرب قريتى «القر» و«قماشة»، هذا إذا غضضنا الطرف عن النصب التذكارى، أو افتراضنا انتقاله هو الآخر من القر وقماشة إلى الضفة اليسرى لنهر الفرات.

وسيادته، عندما يؤكد لنا أن مصر كانت هى «المضروم»، فى مرتفعات غامد، أو «آل مصرى» فى الطائف، وأن مدينة «رعمسيس» التى عاشوا فيها بمصر حسب نص التوراة، إنما هى قرية «مصاص»، وأن بحر «سوف» الذى عبروه إنما كان مرتفعات «السراة». نجدنا مشدوهين تماما، إزاء النص المصرى الذى جاءنا فى شكل تقرير قدمه «بينيبس» كاتب البلاط الفرعونى، لرئيس قلم الكتاب بالقصر «آمنموبى»، ويحكى فيه عن مدينة «رعمسيس»، ونقتطع منه مايعنى الموضوع هنا، فى قول «بينيبس»:

- إن الكاتب بينيبس يرحب بسيده الكاتب آمنمونى.

فى حياة وفلاح وصحة

لقد وصلت إلى مدينة بيت رعمسيس محبوب آمون

ووجدتها فى غاية الازدهار..

لديها مؤن وذخيرة كل يوم

بركها تزخر بالسمك، وبحيراتها بالطيور، حقولها يانعة بالبقر

---

(٣٩) ايضا للتبسيط لغير المتخصص، نحيل إلي كتاب طه باقر: الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين «وهو ليس وجيزا علي أية حال»، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ١، ص ٤٩٢.

(٤٠) يوسف سامي اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الأهالي، دمشق، ١٩٨٩، ص ٤٠.

وشواطئها محملة بالبلح
ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح
....
وشيحور تنتج الملح..
وسفنها تروح وتجىء بالميناء
....
إن مستنقعات زوف تنبت لها البردى
وشيحور تمدها باليراع..
وشباب عظيمة الانتصارات يلبسون حلل العيد كل يوم...
ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالأزهار.
وبالنبات الأخضر من بيت حتحور(٤١).

والمثال هنا يوضح أن مدينة «رعمسيس» ميناء، ملىء بالخيرات مما يشير إلى الأراضى الخصبة، وأنها قريبة من موضعين بحريين هما «شيحور» و«زوف»، إضافة لمنطقة خصيبة باسم «بيت حتحور»، والتوراة تقول لنا: إن بنى إسرائيل عاشوا بمصر فى مدينة بإسم «رعمسيس»، وأنهم عبروا بحرا بإسم «سوف/ زوف»، وأنهم عبروا البحر فى منطقة باسم «بى حيروت»، وهى «بيت حتحور» أما «شيحور» فهو موضع يتردد فى التوراة كمكان بمدينة رعمسيس، كانوا يشربون منه هم وبهائمهم، فهل نهمل كل ذلك، ونلقيه جانبا، لنذهب إلى عسير مع صليبى؟ وهل لم يطالع أستاذ التاريخ المتخصص مثل تلك النماذج التى نضرب منها مجرد أمثلة سريعة لقارئ غى متخصص لانريد أن نثقل عليه؟.

ولايفوتنا، أنه فى حديثه عن حملة الفرعون «شيشانق» على مملكة «سليمان»، بعد وفاة سليمان بأربع سنوات فقط، والتى حدثتنا عنها التوراة، وذكرت أن «شيشق» قد هاجم أورشليم بفلسطين ونهب كنوز الهيكل، فقد وقف «الصليبى» مع نقطة مهمة، وضعها ضمن رصيده لرفض أن تكون فلسطين هى محل تلك الحملة، لتأكيد أن تلك الحملة كانت على عسير، وتلك النقطة - وهى جديرة بالاعتبار حقا - أنه بمراجعة جداول «شيشانق» الذى ذكر فيها عدد وأسماء المدن التى استولى عليها، مع الدول التى أخضعها للسلطان المصرى، لم يأت على ذكر أورشليم إطلاقا بين تلك

---

(٤١) سليم حسن: الأدب المصري القديم: مطبوعات كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٠، ج١، ص٣٨٤ - ٣٨٩. «نص الرسالة كاملا».

الأسماء التى ذكرها فى جدوله! لكن الدكتور صليبى وهو يمسك تلك الفجوة لينقل الحملة بكاملها إلى عسير، يبدو أنه قد تغافل تماما عن دليل حاسم يؤكد دخول شيشانق أورشليم، وهو النصب التذكارى الذى عثر عليه أخيرا بمجدو فى فلسطين، ويتحدث بوضوح عن هجوم شيشانق على أورشليم(٤٢)، وهو مايملأ ذلك الفراغ الساقط فى جدوله الذى اعتمده «صليبى».

التوحيد العسير

وإذا كان أستاذ التاريخ المتخصص، قد ترك الجانب التاريخى برمته، ليتعامل مع اللغة وحدها لإثبات نظريته، فهو الأمر الغريب، أما الأغرب فهو تأكيده أن التوحيد اليهودى فى العبادة، قد نشأ فى ذلك العصر الموغل فى القدم «حوالى ١٢٠٠ق.م فيما يذهب إليه»، بين تلك القبائل التى قطنت عسير، وهو أمر إضافة لعسر قبوله، فإنه يخالف منطق التطور التاريخى وشروطه المجتمعية والاقتصادية والسياسية، حسبما تعلمنا فى فلسفة التاريخ، وقوانين الحراك الاجتماعى عبر بقية المنظومات على سلم الارتقاء التاريخى.. فنحن نقبل مثلا ما أخبرنا به علم التايخ عن الفرعون «آمنحتب الرابع» أو «إخناتون»، كأول داعية لفكرة توحيد الآلهة فى إله واحد، فى تاريخ الفكر الدينى، «وبالمناسبة فإن صليبى يؤخر اخناتون زمنيا عن موسى»، وقبولنا للتوحيد عند «إخناتون»، ناتج قراءة تفيد بنضوج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية آنذاك، حيث كانت الأوضاع قابلة لظهور ذلك الطارئ وتلك الطفرة، فقد تحولت الدولة المصرية المركزية إلى امبراطورية كبرى تضم تحت جناحيها دول شرقى المتوسط، وغذى نموها الاقتصادى ذلك التراكم الثروى الذى تدفق من بقاع إمبراطورية على مصر، والنضوج التجارى، مما أدى لوضوح طبقى بين المعالم، أما الإتاوات والضرائب والجزى التى تراكمت مع اتساع الامبراطورية، فقد أدت إلى إفراز فوقى ينزع نحو سيادة إله واحد يرعى مصالح الطبقات السائدة ودولتها الامبراطورية.

ولما كانت تلك السيادة تتمثل فى شخص الفرعون وتتماهى فى سيادته، فإنه سيكون مقبولا أن تظهر فى مصر فكرة إله يرعى مصالح الطبقة السائدة، ويعبر عن سيادتها، وسيكون مقبولا أيضا انتشار نفس الفكرة التوحيدية لدى الفئات المطحونة التى تريد إلها لا يفرق فى توزيع الأرزاق، ومن ثم سيكون مقبولا بالتالى أن تتأثر جماعة «موسى» فى مصر بظروف

(٤٢) سامي اليوسف: سبق ذكره، ص ٦٩.

مصر، رغم أن نظامها القبلى شوه الفكرة وقصرها على توحيد إله القبيلة الإسرائيلية، بمعنى الاعتراف بآلهة الشعوب والقبائل الأخرى، لكن مع عدم توقير أى إله آخر سوى إله بنى إسرائيل، أما أن تقفز فكرة التوحيد فجأة دون بنية تحتية تسمح بها فى جزيرة العرب، فى ذلك الزمن العتيق، فى وسط قبلى متشرذم لايسمح، ولاتسمح معه قوانين التاريخ التى لاشك يعلمها الاستاذ الصليبى جيدا، بظهور ذلك التوحيد، حتى لوكان توحيدا ابتدائيا، فهو الأمر الذى يجافى منطق العلم بالكلية.

لكن الأستاذ هنا لايرى الوسط قبليا متشرذما، بل دولة قامت هناك، أقامها شاؤول وداود وسليمان، ويرى فى ذلك دليلة الأقوى، الذى رفض بموجبه تفسير العلماء لسجلات التاريخ التقليدية فى مصر وآشور، باعتبارها تتحدث عن فلسطين، حين قال إنه لوكانت دول الامبراطورية تتعارك فى فلسطين، لدونت أسماء هؤلاء الملوك «شاول، داود، سليمان» وهو مالم يحدث، ونتيجة الحتمية أن هؤلاء الملوك لم يتواجدوا بفلسطين، دون أن يفطن سيادته أن الحجة مردودة عليه، فإذا كانت تلك الحملات الامبراطورية موجهة ضد مملكة إسرائيل اليهودية فى عسير، وكان «صليبى» صادقا فى مذهبه، فإن الطبيعى أن تذكر نصوص مصر والرافدين أسماء هؤلاء الملوك الذين حكموا فى عسير، وهو أيضا مالم يحدث، ويتعادل الموقف، ثم يرجح لصالح فلسطين.

هذا ناهيك عن كوننا لو اعتمدنا أسلوب الأستاذ الباحث فى المطابقة لأسماء المواضع والأماكن والأشخاص، مع نصوص التوراة، أو حتى مع نصوص لدولة ما، لأمكن أن نكتشف ببعض التعسف ولى التفاسير، أن مصر كانت فى فلسطين، وأن فلسطين كانت فى سيناء، وأن الدول الفينيقية كانت فى شمال أفريقيا وأسبانيا، دون مشاكل كثيرة. كما يمكننا ببساطة أن نضع جزيرة العرب فى صعيد مصر حيث حلت هناك القبائل العربية مع الفتح الإسلامى وأعادت التسميات، والأمر كله يعود إلى حركة الهجرات القديمة وإعادة تسمية المواضع وهو الأمر الذى أشار إليه، لبناء مثل تلك النظرية التى طرحها، والتى تتسم بغرابة وخطورة هائلة، لاتتناسب وأدوات البحث المستخدمة فى سبيل إثباتها.

أما الدافع الذى نظنه كان بداية الخيط فى اندفاع الصليبى، هو اسم جبال «عسير» متقاطعا بالميتاتيز «القلب اللغوى» مع جبال «سعير/ بلاد أدوم»، باعتبارها دولة مستقلة عن فلسطين، وعن دولة إسرائيل عموما، ودخلت فى حروب مع دولة إسرائيل مرات، وفى تحالفات مرات أخرى، أى أنها لم تكن نفس دولة إسرائيل، لكن الدكتور «الصليبى» عمد إلى نقل

إسـرائيل الدولة، وفلسطين الأرض بكاملهـا إلى جـبـال «سـعـيـر» فى دولة «أدوم»، ثم نقل جبال «سـعير» إلى بلاد العرب محتسبا إياها جبال «عسير»، وأن الأمـر لايعدو قلبا لسـانيا كما فـى «زوج/ جـوز» وهو المثال الذى ضـربه بكتابه للتدليل على نظريته، بينمـا تم إلغاء دولة «آدوم» التى قامت فى جبال «سـعيـر» علـى حـدود مـصـر، والتى تحـدثت بشـأنها نصـوص مـصـر فى إبان حديثها عن حملات مص التـأديبية للدولة المشاغبة المجاورة، كما أفاضت فى الحديث عنها نصوص التوراة حتى آخر سفر فيها.

هذه لمحات سريعة موجزة مقتضبة، لم نقصد بها النقد المفصل والتوثيق الكامل، فمثل ذلك الرد الناقد يحتاج إلى كتاب قد لايقل حجما عن كتاب الصليبى نفسـه، وهو مـايخـرج الآن عن دائرة همومنا، فقـد رأينا فى ضـوء الحـمـاس الغـريب فى أوسـاط مـثـقـفـينا للصـليـبى، إن هناك واجـبـا علنيـا للتوضيح والتبيان، ليس إلا. ولعل قارئنا قد لاحظ أننا لم نحاول أن نسقط على الرجل أى اتهامات سيـاسـية، لقوله بعروبة الإسـرائيلين أو تكفيـرات دينية لإنكاره عبور البحـر بالعصا المعجزة أو نعوت بالخيانة القومية، كما حدث فى بعض صـحـفنا العـربيـة الغـراء، فـتـصـور وينظر لمطلب جـديد لإسرائيل بالعربية السعودية، وهو نقد يعبر عن خصاء ذهـنى ونفسى وشلل فى القـدرات، وعـدم ثقـة لابالذات ولابـالوطن، إضـافـة إلى أننـا نرفض أى تعامل من منطق الإدانة والتكفير، فـهـو المنطق الأعـرج الذى انتهـى بنا إلى مقلب نفايات الأمم.

حتى لانفسد تاريخنا..(*)
قليل من العقل وبعض من الضمير

(*) نشر في ١٥/ ٣/ ١٩٩٥ بصحيفة الأهالي، القاهرة.

تحت عنوان رئيسى «بلاغ إلى شيخ الأزهر والمفتى وعلماء الإسلام»، وعنوان فرعى «وزارة التعليم تفترى على أمير المؤمنين عثمان بن عفان»، نشرت صحيفة إسلاموية ما أسمته تحقيقا تقول: إنها تكشف فيه بالوثائق افتراءات الوزارة على عثمان، وتبرئتها لليهودى «ابن سبأ» من دم عثمان! وأن الوزارة فى أحد كتبها المدرسية اتهمت الخليفة باللين وتقريب أهله من بنى أمية واختصاصهم برعايته، فكان أن طالبت وفود الأمصار الإسلامية عثمان بعزل ولادته، وانتهى الأمر بمقتله، وهو ماأدى إلى الفتنة والانقسام فى صفوف المسلمين، ثم ترد على ماأسمته افتراءات بما رأته حقيقة تم إغماض العين عنها، والحقيقة هى أنه «فى عهد سيدنا عثمان كانت الشريعة مطبقة والحدود مقامة والإسلام الذى يوجه حياة الأمة.. وصارت الدولة الإسلامية أعظم دول العالم.. وعم الرخاء وكثر المال على عهد عثمان حتى بيعت جارية بوزنها».

إذا كانت الدولة الإسلامية قد أصبحت أعظم دولة فى العالم زمن الخليفة عثمان، وأن الرجل قد طبق الحدود وأقام الشرائع وحكم بالإسلام، ففيم قتل إذن؟ ثم تساؤل أكثر براءة: هل عصمت المؤسسة الإسلامية البلاد من الفتن والتمزق وقتل رأسها وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومع منهج التقديس المفرط، الذى يتحول بالبشر غير المعصومين إلى قدسية العصمة، لايجد دعاته سوى البحث عن سبب خارج إطار الأحداث الموضوعية، فما دامت الشريعة مطبقة، والحدود المقامة، والدولة فى أوج قوتها، وأهل ذلك الزمان هم من الصحابة الأجلاء، فليس هناك إذن من سبب واضح، وأن ضرب تلك القوة التى شرعت أسباب الأمان والتوحد يحتاج إلى شىء أسطورى يملك قدرات خرافية، يتلبس لبوسا شيطانيا، ولابأس هنا أن يتم اختياره من اليهود المبغضين، ليصبح هو المحرك الخفى وراء الأحداث الكبرى فى أنحاء الامبراطورية الإسلامية

بغـرض إجهـاض الإسـلام، حـيث تمكن ذلك الشـيطـان اليـهـودى مـن إقناع الصـحابة بالتـحريض على عثمـان، ثم قتله تلك القتلة المهينة، ثم تحريضـهم بعضـهم على بعض، ليقتلوا بعضـهم بعضـا، ويتقـاذفـوا التهم، ويترامـوا بالكفر والفسـوق، ويصبـح ذلك الهـلامـى الغـامـض الشـيطـانـى الهـائل «ابن سـبـأ» تفـسيـرا سـهـلا يريح نوازعنا التـى تنزع إلى تنزيه الصـحـابة، والتى تدفـعنا لتكوين رأى فى الصحابة هو أحسن من رأى الصحابة فى أنفسهم، ونستبعد ـ كدأ بنا دوما فى كل نكسـاتنا ـ الأسـباب الحقيقية للكوارث التى تحيق بنا، ونبحث دومـا عن مؤامـرات تحـاك هنا وهنـاك يقـودهـا حـزب الشيطان لأمة الإسـلام، خير أمة أخرجت للناس.

ثم لانسـأل أنفسنا: كيف تمـكن شـخص متـفـرد من فـعل كل مـاحل لدولة الإسـلام وهـى فى أوج قوتهـا؟ وهـى تلتـزم جميع الفـروض والسنن مما يعنـى ـ حسب منهجهم ـ أنها تحت رعـاية الله مـباشـرة وحـمايته؟ وأمـر «ابن سـبـأ» بهـذا التـصـور يجـعل الأمـة أمـة هزيلة ضـعـيفـة مـترنحـة، يسـتـمـع أهلهـا للوشايات، كلهم آذان، يسـارعون إلى الفتنة مع أول همسة، وبينمـا «ابن سبـأ» ينشر مايخالف كل مفاهيم الإسـلام، أى أنه بات معلوم الأمر مشـهور الكفر، فإن الصـحابة يسـتجيبون له من فـورهـم، فينقـسمون شـيعـا، ويقتلون بعـضهم بعـضـا «؟!» وهو نفس المنهج الذى لازال يمـارس حتى اليوم، فـلانرى كبـواتنا أسـبـابهـا الحـقـيـقـة، ولانعـتـرف بهـدوء بتلك الأسـبـاب، إنمـا نـبـحث عن سـبب خـارجنـا، وأن تلك الأسـبـاب شـيـاطين عظيـمـة القـدرة والشـأن تبـغى تخلفنا ودمـارنا، غـيـر مـدركين أن انـتـصـار الآخـريـن الدائم ليس إلا نـتـيـجـة لذلك التخلف أصلا.

وعم الرخاء

يقـول بلاغ الصحيفة الإسلامـوية «عم الرخاء وكثـر المال بشكل لم يسـبق له مثيل.. وقال المؤرخ الشـهيـر ابن سيـرين: كثـر المال فـى عهـد عـثمان حتـى بيـعـت جـارية بوزنهـا»، دون أن يلتـفـت صـاحب البـلاغ أبدا إلى الظـروف الاجتمـاعيـة زمن عثمـان والتى أدت إلى نشـوء طبقة ثرية عظيـمة الثـراء من قـريش، ومن البـيـت الأمـوى ـ بيت عـثـمـان ـ تحـديدا، وأن ذلك الثـراء الذى أصـابت حظوظه بعض أصـحـاب الحظـوة والمحـاسـيب، هو مـاقصـده بالرخـاء وكـثـرة المال، وهو الثـراء الذى رافـقـه إسـراف وصـل حـد السـفـه والتـهـتك، فبيعت جـارية بوزنهـا، خـاصة إذا مـاوضـعهـا بالحسبان الوظيفـة التـى ستؤديهـا تلك الجـارية «؟!» فمع كل المغازى والأموال والسبـايا التـى تدفقت على المدينة

مع حركة الفتوح، ظل هناك نفر من الناس فى حالة جشع وتهتك وصل بهم إلى المزايدة على الجارية المليحة لتباع بوزنها ذهبا، وهو الذهب الذى كان متفرقا يوما فى بهيمة لفلاح مصرى بسيط، وفى محصول حنطة لعراقى يعيش فى الأهوار، وفى بعض الشياة لشامى يرعى فى البوادى، ليجمع جميعه ويصب فى كفة ميزان تقف على كفته الأخرى جارية حسناء. كانت زوجة أو شقيقة للمصرى أو العراقى أو الشامى قبل أن تصبح سبيا تباع سوق النخاسة العربية.

وكتب التاريخ الإسلامية والسير والأخبار ثرية بالأمثلة التوضيحية لأصحاب العقول، ومن تلك النماذج ماحدث عندما أطلق عثمان يد أخيه فى الرضاع «ابن أبى سرح» فى البلاد المصرية، وأرسل مما جمع فى مصر إلى عثمان غنائم وأموالا عظيمة، وكان قبله عليها «عمرو بن العاص»، الذى سبق وجبى بدوره من مصر جباية مرهقهة، لكن جباية «ابن أبى سرح» كانت أعظم وأكثر إرضاء للخليفة، مما دعاه أن يأتى بعمرو بن العاص ويسأله معرضا بأمانته: هل تعلم ياعمرو أن تلك اللقاح قد درت بعدك؟ فما كان من عمرو إلا أن أوضح ما آلت إليه أمور مصر بهذا الاستنزاف برده البليغ: «وقد هلكت فصالها!!».

فهل نعجب من كثرة المال فى عاصمة الدولة وهكذا كان الحال؟ أم نعجب ممن ترك إرثا - من الصحابة - يربو على الخمسين مليونا، أو ممن ترك ثروته ذهبا يقطع بالفؤوس، أم نعجب وسط كل تلك الأموال من حال الرعية، خاصة فى البلدان المفتوحة؟! أم من أرقاء الحال من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عاصمة الدولة الثرية، حيث كان «أبو ذر الغفارى» يدور بها يندد بالأثرياء، متحدثا بلسان الفقراء، ثم أخذ يحتج على عثمان ويندد بأعطياته الضخمة لأهله من بيت المال، وبأعطياته لمن أراد تألفه من المعارضين لسياسته، لينتهى أمره بالنفى إلى «الربذة» ليموت فيها غريبا معدما، وأيضا حيث كان «عمار بن ياسر» الذى أعلن احتجاجه على المنح التى يأخذها تجار مكة الطلقاء، ووقف إلى جوار أباذر يدافع عن قضية الفقراء، فأمر عثمان بنفيه بدوره إلى الربذة، فاعترض الإمام على، فأمر بنفيه بدوره، لولا احتجاج الصحابة على عثمان بقولهم: أكلما غضبت على رجل نفيته، ولم يتم نفى عمار. وفى موقف آخر اعترض عمار على أخذ عثمان للجواهر القادمة من الأمصار وتحليته بها لبناته ونسائه، فرد عثمان: لنأخذ حاجاتنا من هذا الفىء وإن رغمت أنوف أقوام، فقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفى أول راغم، فرد عليه عثمان بسب قبيح قائلا: أعلى يا ابن المتكاء تجترئ؟ ثم أمر الجند بضربه حتى غاب عن الوعى، ولم

يهدأ عمار بل حمل كتابا إلى عثمان من بعض الصحابة يلوم عثمان ويعظه، فشتمه عثمان وضربه برجليه وهما فى نعل قاس، فأصاب الصحابى العجوز بالفتق.

بنو أمية وعتمان

ولعله من المعلوم أمر الصراع الذى كان يدور خفية حينا، وعلنا جهارا أحيانا أخرى، بين أبناء العمومة من البيتين الهاشمى والأموى، قبل الإسلام وبعده، وبتولى عثمان الخلافة آثر قريشا دون الأنصار، مما ترك فى مدينته معارضة لايستهان بها فى مدينة الانصار، ثم آثر الأمويين بشكل خاص، وهو الأمر الواضح بكتبنا الأخبارية، ودونه المسلمون الثقات دون انزعاج، لكنه أزعج صاحب البلاغ المذكور إزعاجا شديدا، فهل علم صاحبنا أن عثمان قد رد عمه الحكم بن العاص، وأهله للمدينة، رغم أن جميع المسلمين كانوا يعلمون أن النبى أمر بطرده منها، بعد أن كان يمشى ورآء النبى يسخر منه ويقلد حركاته ويتجسس عليه فى بيته، ترى ماذا يترك تصرف عثمان هذا فى نفوس المسلمين؟ خاصة وهو يرونه يأوى عدو النبى ويسبغ عليه مالا كثيرا، ثم يولى ابنه الحارث سوق المدينة ويسبغ عليه بدوره، ثم يجعل مروان بن الحكم وزيرا ومستشارا، ثم يروه يولى عدوا آخر للنبى هو «ابن ابى سرح» أخى عثمان من الرضاعة وابن خالته أمر مصر، بينما المسلمون يقرأون قرآنا نزل بتكفير ابن أبى سرح وذمه، فكان ابن أبى سرح يقول: **سأنزل مثلما أنزل الله**، ولما اعتصر الرجل مصر أرسلوا وفدا لعثمان يشكون «ابن أبى سرح» فعاقب الشاكين وضرب أحدهم فقتله، ثم يرونه يولى أخاه لأمه «الوليد بن عقبة» ولاية الكوفة، وهم يعلمون كيف غش النبى، وكيف كفر بعد إسلام؟ ويذهب الوليد إلى الكوفة ليصلى بالناس وهو سكران، ثم يقر معاوية بن أبى سفيان الأموى على دمشق والأردن، ثم يضم إليه ولاية فلسطين وحمص ليملك بعدها الشام جميعا، ويوطىء لملكة الأمويين الوراثية العضود من بعده!! أم نعترف بهدوء ولو مرة واحدة بخطأ حساباتنا فى قراءة التاريخ، أم نحن أكثر رؤية من «ابن الأشتر» الذى أرسل من الكوفة لعثمان بعد تولية الوليد ثم سعيد الأمويين يقول: «من مالك بن الحارث إلى **الخليفة المبتلى الخاطىء الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم** القرآن وراء ظهره.. أحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك والسلام».

المحرضون الحقيقيون

بعد تلك الأحداث التى تدافعت على صفحات الزمن العثمانى، بكتب السير والأخبار، وماانتهت إليه من نتائج حتمية صبت الأمر كله بيد البيت الأموى المنتصر، يصر دعاة القداسة لغير المعصومين، على البحث عن أسباب خارج التاريخ، ويهرولون وراء شىء اسمه «ابن سبأ» يمسكون بتلابيبه ليجعلوا منه شخصا فريدا فذا عبقريا، تغلب قدراته حكمة الأمة جميعا، وتدهم الصحابة ولم تزل آثار النبوة باقية بينهم ليظهروا مسلوبى الإرادة والعقول، وهو الأمر الذى يزرى بتلك الأمة إن صدقناه، ويبعدنا عن بحث الأسباب الموضوعية لأحداث تاريخنا، مما يجعل ذلك المنهج فى يالتفكير قائما يفرش ظله السحرى على حياتنا دون أن نلتفت إلى الأسباب الحقيقية لكبواتنا، ونطمئن إلى أوهامنا سادرين فى السمادير ونحن نهوى إلى قاع الأمم، بينما نظرة ناقدة فاحصة لكتب الأخبار تكشف ببساطة أن رواة الأخبار المتقدمين، لا ذكر لابن سبأ عندهم، فلاتجده عند ابن سعد فى طبقاته الكبرى، على كثرة مابها من دقائق السرد وتفاصيل الأحداث والشخصيات، كما لاتجده أيضا معلوما من البلاذرى، وهما أهم المصادر بشأن فتنة عثمان، وكان أول ماذكره الطبرى عن رواية لسيف عمرو «!؟» ويأخذها عنه المؤروخون من بعد، ممن ذهبوا مذهب صاحب البلاغ، لإيجاد تفسير يرضى هواهم فى تنزيه الصحابة وتقديسهم.

وبصدد قصة عثمان أجمع أهل السير والأخبار تقريبا أهم الأسباب الموضوعية التى أدت للفتنة، والتى ذكرنا طرفا منها، وكانوا موضوعيين أكثر من أصحابنا هذه الأيام، ناهيك عن إشارتهم بالتلميح تارة وبالتصريح أطوارا، للمحرضين الحقيقيين، ونماذج لذلك مارأيناه فيما سبق، إضافة إلى كون عثمان قد استدعى ضده نفرا من الناس ذوى التأثير البالغ، فقد استدعى «عمرو بن العاص» عندما غمزه فى ذمته وهو أحد دهاة العرب الكبار، ثم سار هو وولاته سيرة خشنة مع أهل الأمصار، وهو مااستنفرهم كما استنفر حاسة الحق والإنسان داخل الصحابة فى المدينة، ومعلوم أن ثورة المصريين كانت بسبب اشتداد الولاة عليهم، مع عامل آخر، حيث نجد محرضين حقيقيين لاوهميين، مثل محمد بن أبى حذيفة، ومحمد بن أبى بكر الصديق، الذين تركا المدينة وذهبا إلى مصر تحديدا، ليحرضا الناس على الثورة، ثم انضم إليهما بعد ذلك عمار بن ياسر.

ثم جاءت قمة الأحداث عند جمع المصحف وإبقاء صحف وإحراق أخرى، مما أدى إلى معارضة الصحابى حبيب رسول الله «ابن مسعود»،

وتنديده بما يفعل عثمان بآيات الله، حتى أمر عثمان بإخراجه من المسجد وضربه حتى كسرت أضلاعه، ثم حدد إقامته بالمدينة، حتى حصب عثمان مع الحاصبين من ثوار مصر وأهل المدينة وهو على المنبر.

وفى كتبنا الإخبارية لاتبدو المدينة بمعزل عن التمرد والإحتجاج بل نجد المدينة نفسها والصحابة أنفسهم هم أساس المعارضة المنكرين لسياسة عثمان، بل تجد صهر عثمان «عبدالرحمن بن عوف» الذى سبق ورشح عثمان للخلافة، وقد أصبح من كبار المعارضين لعثمان، وكان يحرض على قتله، وهو أحد رجالات الهيئة التى رشحها عمر بن الخطاب للخلافة، وهو بذلك ليس خارجا فبقية رجال تلك الهيئة كانوا على نفس الحال، ولهم مواقف مشابهة، فطلحة ابن عبدالله شارك بنفسه فى حصار عثمان كذلك سعد بن أبى وقاس شارك فى الثورة، أما الزبير بن العوام فقد اكتفى مع منح وأعطيات عثمان الجزيلة بالنصح له، أما على فكان معارضا للخلفاء الثلاثة على سواء، وقاوم عثمان أكثر من مرة خصوصا بشأن الأموال التى كان يأخذها من بيت المال، وسبق وعلمنا رأى أبى ذر وعمار بن ياسر.

فأين ابن سبأ من هذا؟.

ومن المفترى بالله عليكم؟.

محمد الغزالى وسقوط الأقنعة!! (*)

(*) نشر في ٢٢/ ٩/ ١٩٩٣ بصحيفة الأهالي - القاهرة.

الشيخ محمد الغزالى منزعج هذه الأيام بشدة، ممن ناقشوا موضوع «الردة» بعدما افصح عنه الشيخ فى محاكمة القتيل «وليس القاتل»!!، وبعدما ردوه عليه على المستوى الفقهى والتشريعى، خاصة وأن الشيخ كان رمز الهزيمة النكراء فى المناظرة التى جرت أمام الدكتور فرج فودة، وأن الشيخ نفسه هو من جاء الآن ليحكم على ضمير رجل ميت، لإدانة القتيل وتبرئة القاتل، ومايمكن أن يلحق الموقف مما قد تهجس به النفس بين الأمرين، عن صاحب القرار الخفى وراء مقتل الدكتور فرج.

ويبدو أن مزعجا جديدا بدأ يقلق راحة الرجل، حتى دفعة إلى نسيان حذره وتقيته، التى أشاعت عنه حينا شائعة الاعتدال، فخرج عن حذره ليقول فى صحيفة الشعب «عدد ٧ سبتمبر ٩٣»: «إن من يناقشون حد الردة، يطلبون من علماء المسلمين فتوى تبيح الارتداد وتنسى عقوبته، لتقرير حرية الكفر والإيمان والسكر والنهب والسلب، وهم بذلك يصيحون: افتحوا أبواب الحانات ودعونا نلتقى بالنساء كما نشاء، وأن الأية التى يحتجون بها «من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» ليس لها سوى تفسير حقيقى أوحد، هو عرض الإسلام على الناس فإن قبلوه التزموا به ولامكان بعد ذلك لحرية الاعتقاد، ومن يرى للآية تفسيرا آخر **فهو كافر فى دولة مؤمنة، وعليه أن يطوى نفسه على مابها، أو ليرحل إلى مكان آخر، أما أن أصر على التصريح بما يرى، فقد أطلق صيحات كفور تقرب أجله».**

حرية الاعتقاد

والرجل إذ يقول: مطلوب من علماء الدين فتوى تبيح الأرتداد وتنسى عقوبته، يغالط مغالطة فاضحة، فهو يعلم يقينا أنه ليس مطلوبا منهم ذلك

على الإطلاق، أولا: لأنه ليس فى صحيح الإسلام شىء اسمه حد الردة، وثانيا: لأنه يعطى نفسه وجماعته سلطة موهومة، متصورا أن أى أمر يمس مصير الناس يجب أن تصدر عنه فتوى من رجال الدين أولا، وهو الأمر الذى تجاوزه الزمن، اللهم إذا كان الرجل يعيش حلم سيادة مقبلة، يحتكر فيها الرأى الأوحد والتفسير الأوحد، حيث وضح فى خطابه المذكور أنه ليس للآية سوى تفسير أوحد هو ماساقه بشأنها.

وهو الأمر الذى يشير إلى مايمكن أن يترتب على أى خلاف فى التفسير «ناهيك مثلا عن الخلاف المذهبى أو الدينى»، فى دولة يحكمها رجال الدين، فتهمة التكفير مشهرة، ولامجال حتى للخلاف فى الرأى أو الاجتهاد، ولنا أن نتصور حمامات الدم التى ستحدث حينذاك، لخلاف فى مصالح الرجال، وأهوائهم، حول تفسير آية، أو حديث يخدم تلك المصالح أو يتعارض معها.

وهكذا، فالرجل قبل أن يتملك على العباد ويحكم فى الرقاب، يصدر قراراته بتكميم الأفواه أو النفى والتشريد أو القتل، كما لو كنا نعيش فى العزبة التى ورثها عن آل غزالى.

الجموح

والشيخ عندما يرى للآية تفسيرا أوحدا، يعطى نفسه قدرا حاشا للإنسان أن يجمح به طموحه إليه، فهو بذلك إنما يعطى نفسه قدرة الإطلاع على المقصد الإلهى، بل ويفرض تفسيره على ذلك المقصد الرفيع فرضا، فيسوق للآية تخريجا يقول: إنها إنما تعنى عرض الإسلام على الناس دون إكراه، فإن آمنوا وكونوا جماعتهم ودولتهم، التزموا بذلك العقد الإيمانى.

ولوجه الحق، فإن هذا الرأى التفسيرى سليم إلى حد بعيد، لكنة لاينفى آراء أخرى وتفاسير أخرى، وليس هناك شىء اسمه التفسير الوحيد الصحيح، وكان أولى بالشيخ إن أراد صدق المقصد، أن يلجأ إلى حيثيات الناسخ والمنسوخ مرتبطة بواقعها وظرفها الموضوعى، وكيف نسخت آية السيف ماسلفها من آيات حرية الاعتقاد، وأصبح الكفر ملة واحدة، وأصبح الدين عند الله الإسلام، لكنه لم يرد أن يورط نفسه إزاء مايزعمونه عن تمسكهم الإيمانى بحرية الاعتقاد لأصحاب الديانات الأخرى فى ظل دولة دينية يحكمون فيها.

هذا ناهيك عن كون ذلك التفسير للآية يسقط دعواه حول حد الردة، لأن الأية بذلك قد عرضت الإسلام على الجاهلين وغيرهم فى جزيرة

العرب زمن الدعوة، عرضته على أناس غير مسلمين عند تأسيس الجماعة «النواة» الأولى المؤسسة للدولة، وكان الخروج عليها حينذاك يعنى فرط عقدها حيث حلت محل القبيلة، وأصبحت وطنا فى وسط قبلى لايعرف غير القبيلة وطنا. لكن مسلم اليوم، ولد مسلما، ولم يعرض عليه الإسلام وهو راشد بالغ عاقل، ولم يدع إلى عقد أو بيعة يقبل بشروطها أو يرفضها، ومن ثم فإن الظرف يختلف تماما عن وضع من قبلوا الإسلام عند تكوين الجماعة الأولى، ويبقى سؤال لايحتاج إلى إجابة: هل يطبق على مسلم اليوم إن أراد اتخاذ موقف جديد بإرادته الحرة حد الارتداد، الذى هو غير مقرر أصلا؟ وهل نستحق أن نكون بشرا حقا، عندما نهلل لمسيحى يخرج على دينه ليدخل الإسلام، ونقتل مسلما ليس لأنه خرج إلى دين آخر، بل فقط لأنه أراد أن ينتمى إلى بنى الإنسان، فقرر لنفسه حرية الإرادة والتفكير، وناقش أمرا من أمور دينه ليطمئن إلى طوية فؤاده، أو لأنه ناقش أمرا يراه ضد مصلحة البلاد والعباد.

- التهديد بالقتل

وإن مايؤكد الهواجس ويدعمها، أن الرجل ساق حديثه هذه المرة فى هيئة من يملك سلطانا أو يتوقعه، بشكل يشبه بيانات المسئولين وتصريحاتهم، فهو يصدر الأوامر، ويتحدث عن سيطرة الإسلام وسيطرة الدولة، ثم يلقى بما لم يكن متوقعا، فيهدد المخالفين، «المؤمنين بأن الإسلام قرر حرية الاعتقاد»، **بالقتل إن لم يصمتوا**، لكنه فى هذه الفقرة الأخيرة القاتلة تحديدا، تحول خطابه عن الجماعة إلى المفرد، كما لو كان يعنى شخصا بعينه وبالذات، يعلمه ويوجه له رسالته الموجزة: **أصمت أو إرحل، أو تقتل**، ويبدو أن هذا الشخص ممن تصعب مناقشتهم أو اتهامهم بشىء من سيل الاتهامات المعتادة، والرجل بذلك يتصور أن بمقدوره أن يخيف، غير مدرك أن الموت دفاعا عن قضية شريفة هو الخلود الحق، وأن من عرض نفسه على أمانة الكلمة ومصير الناس فى هذا الوطن لايخشى تهديدات الشيخ ولاقنابل صبيته، وإن كانت ثقة الرجل وهو يلقى بهذا الكلام الفلوت تعكس تخطيطا بعينه يوقن بسلامة برمجته حتى النهاية، فمرحبا بموت يرحل بنا عن عالم أقنان تحت عرش عمائم وسيوف مشرعة، فموت صاحب المبدأ بشرف، يختلف تماما عن موت جهول يطمع فى الخمور والحور، فلسنا نحن أيها الشيخ من يطلب الحانات والنساء «؟!» فقط لتتذكر أن من قتل لافوازيه لايعرف أحد اسمه وبقى ذكر لافوازيه خالدا، ولتذكر أن من ذبح الحلاج ذهب إلى سلة مهملات التاريخ

وبقى ذكر الحلاج، ونحن نؤمن تماما أن مانطمع إليه من حياة أفضل للأجيال المقبلة، لن يكون دون تضحيات نحن أهل لها، ولو كانت بقرارات قاتلة أنتم أهل لها.

يا أبا العزائم نظرة!(*)

(*) نشر بالعدد ٣٨ في ١٢/ ٨/ ١٩٩١ بصحيفة مصر الفتاة ـ القاهرة.

بعد عملنا الذى نشرناه بمصر الفتاة «الرد على الأضاليل فى تنظيره بنى إسرائيل» والذى تم نشره على مدى عشرة أسابيع متصلة، كان مفترضا ومتوقعا أن تتم مهاجمتنا بشكل ما، وكان من الفطنة أن نترقب حملة قريبة علينا، ربما تأخذ أبعادا تتسم بالخطورة، وأن نتهيأ لما سيحدث، وبالفعل بدأت البوادر لكن بسرعة وسفور مدهشين!! متمثلة فى هجمة شرسة شنتها علينا مجلة تدعى الإسلام وطن «عدد ٥٢»، وعلى واحد من أعمالنا، وهو كتاب «الحزب الهاشمى» بحيث لبس الهجوم زيا مألوفا ومعتادا فى تأليب الجماهير وخداعها ضد مصالحها، ولاجدال أن ربطنا لهذا الهجوم بأول الموجات ضدنا يجد تبريره فى ذلك التزامن الغريب وفى طبيعة الجهة المهاجمة ومناهجها وهو الأمر الذى كان لابد يحمل ذلك المغزى الذى لايخفى على لبيب.

ويزداد ذلك الترابط تبريرا إذا مانظرنا إلى ذكاء الاختيار، وترتيب الأدوار، وطبيعة الخطاب الموجه ضدنا، واستفزازه للمشاعر الدينية، بأسلوب معلوم، استخدم ضد من سبقونا من باحثين مثلنا، كانوا يؤدون المقدمات لما نؤديه نحن الآن. وقد أدى ذلك الدور أحد كتاب المجلة المذكورة أعلاه، وهو أيضا أحد أصحابها وهو نائب رئيس مجلس إدارتها الذى هو شقيقه، فهو يحمل بوسترا من الألقاب فهو **سماحة صاحب الفضيلة القطب الصوفى العزمى حفيد الإمام المجدد وابن الخليفة الأول، وشقيق الخليفة القائم لمشيخة الطريقة العزمية الشيخ السيد اللواء عصام الدين ماضى أبو العزائم**، وهو فيما تزعم المجلة المذكورة سليل الحسن والحسين أى أنه من آل البيت أى أنه هاشمى فى حساب الأنساب.. ومن هنا حشد الشيخ اللواء ماينوء به من ألقاب ضدنا ليتناول كتاب «الحزب الهاشمى» وصاحبه بالقذف والتشهير والسب والتفكير، لكن كل ذلك فى رأينا.. رغم تجاوزه لآداب الخطاب وقواعد اللياقة لم يشكل سوى زوبعة

كلامية، لم تغنها تجاوزاتها وأغراضها عن أن تكون كالعهن المنفوش «!؟» بحيث كشفت عن سوء فهم متعمد، واسقاط لسوء الغرض على نوايانا وماتخفى صدورنا، وهو الأمر الذى يكشف عن وضع السيد اللواء الطبقى وانتماؤه الوظيفى، وظرفه السيادى، ومنظومته التى يحتل فيها مكانا ومكانة، وعليه فإن كل ماقدمه السيد اللواء ليس فيه رد موضوعى وأحد يستحق المناقشة، بقدر ماهو لون من التحريض الواضح، لذلك رأيناها من جانبنا استفزازا وتهجمنا نعلم خلفياته، ومن هنا فقط وليس من قيمة الموضوع ـ يأتى اهتمامنا بالإستجابة له.

منهج الخطاب

وقد اتبع الشيخ اللواء منهجا معتادا، ليس له غرض، سوى هزيمة الخصم بأى أسلوب ممكن، حتى لو كان تزييفا متعمدا على القارئ لتحقيق الغرض الأساسى وهو التحريض! ومن هنا قام السيد اللواء يقتطع من كلامنا على هواه، وينزع عبارات كتابنا من سياقها على نمط «لا تقربوا الصلاة» بحيث شوه ماكتبنا، وقال غير ماقلناه، غير مدرك إلى أى منزلق ذهب، لكنه لم ينس تخويفنا، فوضع فى صدر لعناته وسبابه صورة لسيادته بزى الشرطة الرسمى، تعمد فيها أن يلقى بكتفه الأيمن أمام عدسة المصور، ليظهر مايحمله كاهله من أثقال، ولبيان صورة النسر والسيفين لكل ذى عينين.

وهكذا يعلم القارئ من الصورة البهية، والألقاب السنية، أننا أمام مهاجم ذى شأن، يجمع بين قدرات العارفين الواصلين، وسلطان أهل السلاطين، إضافة إلى ماأبانه من إحاطة بالقول المأثور، والدر المكنون مثل أقوال «برنارد شو» و«كارلايل» والمؤرخ «ديورانت»، ومدائح السيد «ويلز» ومواجيد المستر «هارت»، فأبان عن علم واضح بالأقوال الابتدائية التى كنا نحفظها من كتاب المطالعة الرشيدة، ليكسب بها ثقة من لايفقهون القول فيتبعون أسوأه، وأول مايسترعى العجب فى هجوم السيد اللواء، أنه لم يضع لموضوعه عنوانا، إنما صدره بلافتة عريضة، تحمل الآية الكريمة: ﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كافرا﴾ وهكذا بدأ الرجل موضوعه بأحسن الكلام، لكن اختياره للآية وانتقائه لها مع ربطها بما نسبه إلينا يكشف أنه بدأ بالغمز الصريح واللمز الواضح «ويل لكل همزة لمزة»، مستغلا كلام القرآن فى غير موضعه، موظفا إياه لغرض السب والقذف! وبحيث تحول ضابط الأمن من

الحفاظ على أمن المواطن والذى يتقاضى عليه راتبه ضرائب من جيوبنا، إلى محرض لشذاذ الآفاق، من تتر هذا الزمان الردىء ليستأصلوا شأفتنا وشأفة ولدنا من أطفال أبرياء، بعد أن ألصق بنا تهمة الكفر والضلال.

فلا تطالع أول كلماته إلا وتجده يقول عن كتابنا، إن به آراء وأفكار ضد الإسلام ونبى الإسلام وضربات خفية وظاهرة للإسلام وكعبة الإسلام!! وأننا فعلنا ذلك بوضع السم فى العسل، وهكذا ورط ذو السيفين نفسه بإصداره الأحكام، بزعمه القدرة على قراءة النوايا بغير بيان، لذلك بات من حقه علينا لوجه الأمانة أن نعلمه بحقيقة موقفه معنا، بقولنا يا ذا السيفين لقد تجاوزت حدود وظيفتك، بل وعكست الأدوار ووظفت قلمك بتسرعك غير المحمود، فأصبحت أهلا لما يمكن أن يقال.

ونتابع مع السيد اللواء القطب الصوفى مسيرته التكفيرية فى تكفيرنا دون بيان، سوى قراءة النوايا ربما فى المندل أو فى الفنجان.. فيقول باجتراء غريب أننا لانؤمن بالرسالة التى أرسلها الله دون أن يشق بأحد سيفيه عن قلبنا ويقرأ مافيه، بل ويذهب إلى حد الزعم أن كلامنا فى الحزب الهاشمى لم ينطق به كافر يعادى الإسلام!! بل ونقف الآن مع أخطر انقاءات السيد اللواء المختلة، حيث يقول: «جاء فى كتاب الحزب الهاشمى أن عبدالمطلب بن هاشم كان من ذوى النظر الثاقب، والفكر المنهجى المخطط، استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة، وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة، هى إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها مكة تحديدا، رغم واقع الجزيرة المتشرذم أنذاك، ويؤيد ذلك بقول عبدالمطلب إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وهو يشير إلى أبنائه وحفدته، «ويقصد الكاتب؟!» أن عبدالمطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاد، وصل إلى حد اتهامنا بالطعن فى الرسالة والقرآن، وأننا قمنا نضرب آيات الكتاب الكريم بعضها ببعض.

ثم ينهال علينا سماحة الشيخ الذى لايتسم بسماحة القول سبابا قائلا: «فإن لم يكن هناك رد لمن يسب الإسلام، فيكفينا رد غير المسلمين عليه وخاصة كارلايل»، وقد أتى بهذا الرد فى نماذج منها «البله، المجانين، السفهاء، نتاج جبل الكفر والجحود والالحاد، دليل خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح» إلى آخر قائمة مافى جعبة القطب العزمى من بديع الألفاظ منسوبة إلى «كارلايل».

اللواء يلوى الكلام

ولأن انتقاءات الشيخ اللواء لكلامنا، حتى وهى مقطوعة من سياقها، لم يكن فيها مايدين أو يشين، فقد كان يردف بعد كل مقطع تعليقا من عنده يقول فيه «ويقصد الكاتب كذا وكذا، ويعنى الكاتب كذا وكذا، وكأن الكاتب يريد كذا وكذا الخ» فيدس أنفه فى عملنا، ويملى على القارئ البرئ الموقف المطلوب منا ويحمل نوايانا مالاتحتمل من نواياه، ونموذج لذلك أمثلة منها: «**ويقصد** الكاتب أن عبدالمطلب كان يسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده - ص٢٠ - **وكأنه يقول** أن الكعبة المشرفة هى من صنع العرب لأنها صنعت كعبات أخرى كثيرة - ص٢١، **وكأنه يريد** أن يضرب الآيات بعضها ببعض ولايحيق المكر السىء إلا بأهله - ص٢٣، **ويعنى الكاتب** بقوله أن النبى «ﷺ» قد توعد القوم بالذبح، ونفذ هذه الرغبة فى غزوة بدر الكبرى - ص٢٣».

ونقول للسيد اللواء، نعم لقد قلنا بالفعل مانصه «عندما غمز أشرف قريش من قناة النبى «ﷺ» وهو يطوف بالكعبة، التفت إليهم هاتفا: أتسمعون يامعشر قريش، أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح»، وكان طبيعيا عندما يقسم نبى أن يبر بقسمه، لذلك عقبنا بالقول: «وقد بر النبى «ﷺ» بقسمه فى بدر الكبرى»، لكن القطب الصوفى يرفض ذلك الخبر برمته كما لو كنا قد افتريناه، أو ليجعل القارئ يعتقد ذلك، بينما الخبر متواتر فى كتب السير والأخبار الإسلامية، فإذا كان فى الأمر ملامة فهى على السيد اللواء لأنه لايقرأ، وإذا كان مصرا فليتوجه بمعركته إلى التاريخ الإسلامى ولانظنه بفارس لهذا الميدان.

ونعم قلنا إنه كان للعرب فى زمن بعيد، عدد من بيوت الآلهة التى كانت تبنى على هيئة المكعب، لذلك سميت كعبات وذكرنا منها بيت اللات وكعبة نجران، وكعبة شدادا الأيادى، وكعبة غطفان، والكعبة اليمانية، وكعبة ذى الشرى وكعبة ذى غابة، وأرفقنا مصادرنا فى الهوامش «الإكيل الهمدانى، وتاج العروس للزبيدى، وأصنام ابن الكلبى، والمفصل لجواد على»، ومع كل معلومات النشر وأرقام الصفحات، فلم نفتر شيئا من عندنا، ثم ماذا فى الأمر من مزعجات يريد بها فتنة للقارئ؟ نعم إنها من صنع العرب، فقد تهدمت وبنيت عدة مرات، وكل مرة كانت تبنى من طين الأرض وحصبائها وخشبها، وكان بناتها هم العرب.

وفى أقوال الشيخ اللواء متفرقات أخرى، مثل قوله: إننا تجرأنا فى تفسير القرآن، كما فى تفسير الزنيم بأنه ابن الزانية فى الآية الكريمة

﴿هماز مشاء بنميم، عتل بعد ذلك زنيم﴾ والمضحك المبكى فى أمر اللواء وهو يلوى الكلام ليحرض علينا، نفيه لذلك المعنى، وإتيانه بالمعانى التى يراها صادقة ومنها «الزنيم هو الذى لاأصل معروف له، وقيل هو الدعى الملحق بقوم وليس منهم»، وهكذا يتوهم سيادته فى القارىء عدم الفطنة، غير مدرك أن القارئ سيلمس بوضوح أن حضرة اللواء لم يأت بجديد، ومعلوم أن مكة قبل الإسلام كانت تغص بصاحبات الرايات الحمر «الزانيات بالأجر» لذلك كان طبيعيا أن يكثر أبناء الزنى والأدعياء.. وفى حادثة نسب لعمرو بن العاص إشارة واضحة لكيفية حل مثل تلك الإشكاليات فى الجاهلية، فهل كان السيد اللواء يعلم، أم كان يلوى الكلام، أم هو بحاجة لأن يعلم؟ على أية حال كلنا دائما بحاجة لأن نعلم ونتعلم، فقد يجب أن نتسم بنزاهة الغرض وعلمية المقصد.

ويأتى الشيخ اللواء بقولنا أن النبى «قام يؤلب العبيد على أسيادهم بندائه اتبعونى أجعلكم أنسابا» ويحتج على قصرنا ذلك النداء على العبيد، ويزعم أنه كان موجها للعرب جميعا، وأننا بذلك لانعلم من التاريخ الإسلامى شيئا! لذلك، وفى حدود علمنا الضعيف نفهم أن ذلك النداء لو كان شاملا للعرب جميعا، لكان معنى ذلك أن جميعهم كانوا بلانسب، حيث كان النسب له أهميته القصوى فى البيئة القبلية، حيث لاشرطة، ولا ألوية لحفظ الأمن، فقد كانت قوة النسب هى الضامن القبلى لحماية الفرد، وحيث لاحماية لمن لانسب له، وعليه لايصح التوجه بالنداء «اتبعونى أجعلكم أنسابا» إلا لفاقد النسب، لذلك منح النبى نسبه لعبده زيد بن حارثة بعد أن أعتقه، وهو المثال الذى ضربناه ولم يعجب السيد اللواء.

الظروف الاجتماعية

ثم يستمر الشيخ اللواء متقبسا من كتابنا قراءة تاريخية، يوهم القارئ أنه على علم مسبق بها، فيقول: «وإذا رجعنا إلى تاريخ العرب، نجدها لاتقبل النظام الملكى وسيطرة الملك على القبائل العربية، لأن ذلك يجعل لعشيرة الملك سيادة على بقية العشائر، وهو ماتأباه أنفة الكبرياء القبلى وتنفر منه، وقد ذكر الكاتب هذا المعنى فى ص١٠ من كتابه، فإذا كانت هذه صفات العرب، فكيف يحلم عبدالمطلب بتأسيس دولة هو ملك لها؟».

ومرة أخرى نقول: نعم ولانتراجع قيد أنملة عما قلنا، فالكلمة أمانة، لكن اللواء رفيع المقامات نزع ماقلناه من سياقه، وأعاد ترتيب الفقرات بحيث تؤدى التأثير المطلوب لتحقيق التحريض ومايليه، لكن ذلك لايعنى

أننا لم نقل، بل وأيم الحق قلنا غير هيابين، فلم نقدم فرية مفتراة، ولاأضعنا العمر ندرس المنهج العلمى، ونطبق أصوله فى بحوثنا، لننسحب مع مثل تلك الزمجرات الأولية. وهنا نجدنا مضطرين إلى إعطاء ذى السيفين درسا فى معنى قراءة الواقع قراءة علمية، والتى طبقناها على جزيرة العرب قبل الإسلام، والتى كانت هدف كتابنا وغرضه، وهو مارأيناه بحاجة إليه، فأردنا به كسب الثواب.

ومن هنا نقول: إن كتابنا كتاب فى التاريخ الاجتماعى وليس كتابا فى الدين ولا أى من علومه، وضع بغرض قراءة وفرز أحداث المرحلة القبل إسلامية، وقد تعمد القطب العزمى عدم الإشارة لتلك القراءة الاجتماعية بالمرة، رغم أنها العماد الأساسى للكتاب، تلك القراءة التى تكشف أنه لم يكن عبدالمطلب وحده هو الذى أدرك تهيؤ الواقع لقبول الوحدة السياسية بل أدركه آخرون، وسعوا إلى تحقيقه، مثل أمية بن عبدالله الذى أراد لنفسه النبوة والملك، ومثل عبدالله ابن أبى سلول، الذى كاد يلبس التاج الملوكى لولا مجىء الدعوة، ومثل زهير الجنابى وغيرهم كثير، لم تعننا أشخاصهم قدر ماعنتنا الأدوار المهمة المؤثرة، أثناء تقديمنا لقراءة الواقع الذى أفرز توجهاتهم.

وهكذا فقد كانت مهمة الكتاب هى الكشف عن أوضاع الجزيرة، الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة مكة، وبهذا الكشف علمنا أن تلك الأوضاع، قد دخلت مرحلة متسارعة من التغيرات الكيفية الناتجة عن تغيرات عديدة متراكمة، ومرتبطة بظروف أدت إليها، مما هيأ مكة للتحول من كونها مجرد استراحة ومنتدى وثنى دينى على الطريق التجارى، للقيام بدور تاريخى حتمته مجموعة من الظروف التطورية فى الواقع العربى والعالمى، وكان ذلك الدور هو توحيد عرب الجزيرة، وفى وحدة سياسية مركزية كبرى.

ومعلوم أن ذلك التطور ترافق معه صراع أولاد وأحفاد «قصى بن كلاب» على ألوية التشريف والسيادة فى مكة، مما انتهى إلى انقسامهم إلى حزبين كبيرين متصارعين هما «الحزب الأموى» نسبة لأمية بن عبد شمس، و«الحزب الهاشمى» نسبة لهاشم بن عبدمناف، بينما كانت الساحة تتهيأ لفرز فكرة الوحدة، عبر سريان العقيدة الحنفية وانتشارها، بحيث ساهمت فى تحطيم العصبية القبلية لسلف كل قبيلة، وأعادت صهر الجميع بإعادتهم معا لسلف واحد مشترك هو إسماعيل بن ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - كما ساهمت فى القضاء على التشرذم القبلى، الذى كان يتأسس على تعصب كل قبيلة لنسبها وسلفها الذى هو ربها دون أرباب

القبائل الأخرى، وذلك بالعودة إلى إله واحد هو سيد الجميع. ومن هنا تهيأت الجزيرة لقبول فكرة الوحدة السياسية، عندما تهيأت لقبول فكرة السلف المشترك والإله الواحد، ومن هنا يكون توحيد الأرباب فى إله واحد قد جاء عند الرواد الحنفيين كناتج طبيعى لهدير الواقع بنفس السبيل، لكنه يسبق الواقع، لأن الفكرة تسبق الحدوث والتحقيق، وعليه فقد كان قبول الأرباب القبلية الانضواء تحت سيادة إله واحد، مقدمة نظرية، تترك الباب مفتوحا للقبيلة التى يمكنها تحقيق الأمل، كما كان يعنى التوطئة المنطقية لقبول ماحدث فى عالم السماء «عالم الفكرة» ليحدث فى عالم الأرض «عالم الواقع» وقد حتمت الظروف وتضافرت الأحداث بحيث صبت الأقدار فى يد قريش، وفى البيت الهاشمى الذى أخذ على عاتقه تحقيق هذا الأمر العظيم، والذى ترافق وتزامن مع تواصل الأرض والسماء وتطابق الفكرة مع حاجة الواقع وضروراته، ومع هبوط الوحى الذى تهيأت له الأسباب فمهدت له أرض الواقع، بحكمة لاتخضع لمؤامرات فى التاريخ، ولا لرغبة قبيلة، ولإرادة عبدالمطلب أو غيره من أفراد، إنما تضافرت له الأسباب التى تراكمت عبر فترة زمنية حتى نضجت لفرز واستقبال الإسلام تحديدا، فهل شرحنا وأوفينا؟ ويا أبا العزائم لابأس إن شددت من عزائمك بمزيد من المثابرة على الإطلاع والتحصيل، ففيهما فضل آخر إضافة لفضل الأذكار والمواجيد وصوانى الثريد، ويا أبا العزائم نظره، ولكن فى الكتب!!.

ما بين «القمنى» وهذا المترجم!(*)

(*) مقال كتبه الأستاذ حازم هاشم بصحيفة الوفد بتاريخ ٧/ ١١/ ٩٥، القاهرة.

يسجل مترجم هذا الكتاب الطبيب د. رفعت السيد واقعة مرة المذاق فى مقدمة ترجمته لكتاب «عصور فى فوضى - من الخروج إلى الملك إخناتون» - لمؤلفه عالم الطبيعة اليهودى الروسى «إيمانويل فلايكوفسكى»! والواقعة نسبها المترجم بما نصه: «ثم التقيت بالدكتور سيد محمود القمنى عام ١٩٩٢ وكنت أكن له من خلال كتاباته كل تقدير نظرا لرؤيته المتميزة لبعض جوانب التراث الشعبى الدينى فى الشرق العربى ومدلولاته التاريخية، وحين طلب استعارة المخطوطة المترجمة للإطلاع علهيا نظرا لما ترامى إلى سمعه عنها وتشوقه لقراءتها لاستخلاص مايمكن استخلاصه منها فى إعداد مادة كتابه الذى كان مشتغلا فيه فى ذلك الوقت وهو كتاب «النبى إبراهيم والتاريخ المجهول»، لم أتوان عن إعارته المخطوطة مع وعد منه بعدم نشر أية أجزاء منها، ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى فوجئت بالفصل الأول منشورا على هيئة مقالات أسبوعية فى جريدة «مصر الفتاة» مع تعليقات وحواش، والمقالات تحمل اسم د. سيد القمنى، وهالنى أن ينكث عالم جليل مثله بوعود كان قد قطعها على نفسه، وبذلت كل جهد ممكن لوقف النشر، ولم أنجح فى ذلك إلا بعد أن كل الفصل الأول قد نشر بأكمله، وغنى عن البيان أنه قد جمع تلك المقالات بعد لك مع بعض الإضافات فى كتاب آخر أصدره باسم: «إسرائيل - التوراة.. التاريخ.. التضليل»!.

والكتاب الذى وردت فيه هذه الواقعة صدر عن دار سينا للنشر هذا العام فى شهوره الأخيرة، ومعنى ماورد أن المترجم يوجه اتهاما صريحا إلى د. سيد القمنى بأنه لم ينكث بوعده له فقط! بل ونشر الفصل الأول من المخطوطة المترجمة مقالات باسمه دون نسبتها إلى المترجم! الذى سعى بالطبع إلى وقف النشر فتم له ماأراد بعد لأى!.

ولولا أن هذا الكلام قد أصبح منشورا ماكنا تعرضنا له هنا بالتعليق،

كما أننا لانملك تأكيد ماورد أو نفيه، والحقيقة فيه عند د. سيد القمنى، لكننا نسعى لجلاء هذا الأمر، لاسيما وأن المسألة تخص باحثا كبيرا وكاتبا ومفكرا مبدعا وصاحب اجتهاد متميز وملحوظ فيما يختص بالدراسات التراثية العربية والإسلامية، والصلة نراها منعقدة بين المترجم ومخطوطته وبين د. سيد القمنى، ليس فما كتبه المترجم فقط، بل وفى كتاب د. سيد القمنى «إسرائيل.. التوراة.. التاريخ.. التضليل» الذى ذكر المترجم أنه يحوى تلك المقالات التى نشرها د. القمنى فى جريدة «مصر الفتاة» محتوى الفصل الأول من مخطوطة المترجم! والكتاب نشرته «دار كنعان» للدراسات والنشر ومقرها دمشق، وطبعت منه ألف نسخه فى طبعته الأولى عام ١٩٩٤، ونلاحظ فى هذا الكتاب أن المترجم صاحب المخطوطة يرد ذكره فى صفحة رقم ٩٧ بعنوان «التأسيس» فى الهامش أسفل الصفحة هكذا «إيمانويل فليكوفسكى: عصور فى فوضى عن ترجمة مخطوطة قام بها الطبيب د. رفعت السيد»، وفى حين أن هذه الصفحة بداية لفصل طويل موضوعه كله مناقشة د. سيد القمنى لوجهات نظر «فليكوفسكى» فى الكتاب الأصلى «عصور فى فوضى» من خلال المخطوطة المترجمة، فإننا لا نجد بعد ذلك أية إشارة إلى المترجم ومخطوطته إلا هذه المرة الوحيدة! حتى فى ثبت المراجع واستشهادات البحث الواردة فى آخر الكتاب لايرد ذكر المترجم ولامخطوطته! مع أن د. القمنى نراه يورد فى هوامش بعض الصفحات المراجع وأصحابها ويعود إلى ذكرها مرة أخرى فى ثبت المراجع واستشهادات البحث آخر الكتاب! وفى نص إهداء «فليكوفسكى» كتابه لأبيه، يلتزم د. القمنى بترجمة د. رفعت السيد بالنص! وفى كثير من المواضع يفعل نفس الشىء! مع إضافات وتعليقات بالطبع، وكان هذا ماطالعناه من أوراق المسألة هنا وهنناك، ونثيره بكل الحرص على ألا يظل اتهام المترجم للدكتور القمنى معلقا فى ثنايا صفحات كتابه الصادر أخيرا ودون جلاء لحقيقة يملكها المترجم ود. القمنى وحدهما فقط!.

رد سيد القمنى على رفعت السيد (*)

(*) نشر علي حلقتين بصحيفة الوفد بتاريخ ١٤/ ١١/ ١٩٩٥ و٢١/ ١١/ ١٩٩٥.

كنا قد آلينا على أنفسنا عدم الاستجابة لأية استفزازات، حتى لاننشغل بمعارك وهمية تصرفنا عن أبحاثنا، خاصة مع إدراكنا لحجم الشراك المنصوبة تلك الأيام، والتى نعلم جيد دقائقها وآلياتها وأهدافها، لكن مانشره الأستاذ «حازم هاشم» فى «الوفد» بتاريخ ٧/ ١١/ ١٩٩٥ تحت عنوان «مابين القمنى وهذا المترجم»، ودعوته الواضحة لنا للرد على الطبيب «رفعت السيد» حول ماكتبه فى مقدمة ترجمته لكتاب «عصور فى فوضى»، لمؤلفه الكاتب «إيمانويل فليكوفسكى»، إضافة إلى العبث غير المحمود الذى ساقه الطبيب المذكور، كل ذلك لم يترك لنا فرصة التمسك بمدئنا، حيث انزلق السيد الطبيب إلى منزلق شديد الوعورة، غير مدرك إلى أى منحدر ذهب، فطعن فى أمانتنا العلمية، وهى الرصيد الوحيد الذى نملك ونتيه به اعتزازا، ومن هنا تأتى استجابتنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم، وهى الاستجابة الكفيلة بإنهاء الأمر، وحتى لايطول أمر الأخذ والرد، لكن ذلك لايعنى حرمان القارئ من متعة المتابعة، فسنعطيه هنا قدرا كافيا من المتعة، وبغرض العودة السريعة إلى مكاننا الحقيقى بعيدا عن السجال، ومن هنا نعتقد أن السيد الطبيب بدوره سيلتزم الصمت الحميد وفى ذلك كفاية وغنى.

وكان السؤال الذى تبادر إلى ذهنى فور قراءتى للوفود، هو: لماذا صمت السيد الطبيب منذ التقانى عام ١٩٩٢ - حسبما قرر هو فى مقدمة الكتاب المذكور - وحتى اليوم، ليخرج الآن عن صمته؟ أما لو كنت مكان أى قارئ آخر لكان السؤال هو: لماذا لم يبادر سيادته من فوره إلى اتخاذ الخطوات القانونية الرادعة فى مثل تلك الأحوال؟ لكن لو حاولت الإجابة على سؤالى أنا، مع الأخذ بحسن الظن، لذهبت إلى احتمال أن الرجل وهو لم يبدأ بعد خطواته فى عالم الكتابة، قد هدته قريحته إلى أن أقرب طريق إلى الشهرة هو التهجم على شخص يتم اختياره بعناية، وإذا كان ذلك كذلك، فقد فعلها

الرجل دون أن يرمش له جفن، بجرأة متفردة ومغامرة يحسد عليها، لكن ذلك الاحتمال تراجع إزاء معطيات أخرى يمكنها أن تفسر لنننا سر تلك النزوة المفاجئة لمغامرة نزقة، فى منطقة خطرة عسرة العبور.

رواية هذا الترجمان

يحكى لنا الطبيب الترجمان فى مقدمته رواية غاية فى الطرافة والظرف، فيقول: إنه قد التقانى عام ١٩٩٢، عندما كانت ترجمته لكتاب فليكوفسكى لم تزل بعد مخطوطة بأدراج مكتبه، لكن تلك الترجمة غير المنشورة - بمعجزة غير مفهومة - طبقت شهرتها الآفاق حتى وصلتنى أخبارها، حيث كنت أقيم بمدينة الوسطى بصعيد مصر... «كذا!؟»، وعندها هرعت إلى السيد الطبيب أسعى، أطلب منه استعارة تلك المخطوطة الأسطورية لأطلع عليها، وحسب قوله أنى قد فعلت ذلك بعد ماترامى إلى سمعى عنها، وتشوقى لقراءتها، وذلك كى أستعين بها فى كتاب كنت أكتبه حينذاك، هو كتاب «النبى ابراهيم والتاريخ المجهول».

وهكذا وجه الرجل لنا اتهامين دفعة واحدة، الأول أننا استعنا بفليكوفسكى فى كتابنا «النبى إبراهيم» دون أن نشير إليه كمرجع لأنه بالفعل غير مدرج كمرجع، أما الثانى فهو أننا قد أخذنا بأفكار كاتب صهيونى فى معالجة مسألة تتعلق بأب الأنبياء خليل الله، والغريب أن الطبيب الملهم لم يكلف نفسه عناء النظر فى تاريخ طباعة ذلك الكتاب الذى صدر عام ١٩٩٠، واستغرق العمل فيه ثلاث سنوات قبل صدوره، وهو مايعنى أن الكتاب قد صدر قبل أن التقى بالترجمان المعجزة بسنتين كاملتين وأنى قد بدأت كتابته قبل أن ألتقيه بخمس سنوات، ومعلوم أن مثل هذه الافتراءات من النوع الذى يعاقب عليه القانون.

ونتابع مع الرجل مندبته المأساوية وهو يجأر بالشكوى قائلا: إنه أعطانى مخطوطته المترجمة لكتاب فليكوفسكى، بعد أن أخذ منى وعدا بعدم نشر أى جزء منها «!؟» أى أنه كان يخشى على مخطوطته سلفا ومع ذلك وثق فى وعدنا الشفاهى «هكذا !؟»، لكن الرجل يكتشف كم كان غرا عندما أعارنا المخطوطة، لأنه لم تكد تمر أسابيع حتى فوجئ بنشر ترجمته فى مقالات أسبوعية بصحيفة «مصر الفتاة»، وبأننا قد وضعنا أسمنا على ترجمته للكتاب، وأننا كى نمرر تلك السرقة اللئيمة لجهد الرجل المسكين، أضفنا إلى تلك الترجمة بعض المقبلات، مع تعليقات هنان، وحواشى هناك، لذر الرماد فى العيون.

ويزعم الطبيب الترجمان أنه بذل جهودا مضنية لإيقاف نشر ترجمته لكتاب فليكوفسكى باسمنا، وتمكن من ذلك فعلا، لكن بعد أن كنا قد نشرنا الفصل الأول كاملا، ولأنى رجل لاأرتدع عن الغى، فقد تماديت وأدرجت مقالات «مصر الفتاة» بكتابى «إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل»، وأضفت إليها بعض التوابل والمشهيات فى عبارة هنا وجملة هناك، لمزيد من الضحك على ذقن القارئ والمترجم، إنها إذن فضيحة بكل معنى الكلمة، وظل الرجل صامتا يمضغ أوجاعه بصمت الكبراء والكاظمين الغيظ، حتى قرر أن يتكلم الأمس فقط، فأى تسامح؟ وأية مروءة؟ وأى ترفع؟ لكن ماذا يفعل الرجل بنفسه وهو يسوق أكاذيبه، عندما يكتشف أنه لم يجهد نفسه فى صياغة الكذب المترتب، حيث أن دراستنا التى أشار إلى نشرها بـ« مصر الفتاة»، والتى نشرناها تحت عنوان «الرد على الأضاليل فى تنظيرة بنى إسرائيل»، وكانت ردا على الصهيونى فليكوفسكى، قد نشرت خلال عام ١٩٩١، أى قبل أن يلقانى سيادته بعام كامل «!؟».

يبدو أن الموضوع سينتهى عند هذا الحد، ولم أف قارئى الوعد بالمتعة المنتظرة، وهو غبن لقارئنا الكريم، وحتى لاتأخذ القارئ بنا ظنون عدم الوفاء، أجد من واجبى توسيع الحكاية حسب الأصول، ومن هنا أقدم للسيد الطبيب مثالا للأمانة لعله يحتذى به فى مستقبل أيامه، فأقر هنا رغم انتهاء الأمر بهذا الشكل، أن الترجمة التى اعتمدنا عليها فى ردنا على كتاب فليكوفسكى الصهيونى «عصور فى فوضى»، كانت بالفعل ترجمة صاحبنا الترجمان، وهذا درس آخر فى جرأة الواثقين المطمئنين، أما كيف حدث ذلك؟ فهى حكاية أخرى.

زيارة الترجمان للصعيد

أكد الطبيب الترجمان أنه قد التقانى عام ١٩٩٢، لكن لأن للشرف رجاله، فإنى أصحح له المعلومة الصالحة، حيث أنه قد تم تجشم مشقة زيارتى لأول مرة فى بيتى بمدينة الوسطى فى شتاء ١٩٩١، كأى زائر من قرائنا الكرام الساعين إلى التواصل مع كاتبهم، لكن زيارة الرجل كانت بغرض آخر، حيث جاء يطلب منا رعايته كمبتدئ هاو، ومساعدته على نشر مخطوطة من ترجمته أحضرها معه لأن المخطوطة تواجه عقبات شديدة فى نشرها، كما طلب - إذا أعجبتنى - أن أكتب لها تقديما يساعد على انتشارها.

ووعدت الرجل خيرا، وبدأت مطالعة ترجمته لكتاب فليكوفسكى «عصور فى فوضى»، ولكن لاكتشف أنى أمام شرك عظيم، وأن عدم تجرؤ دور النشر على نشره له مسوغاته وحيثياته، حيث وجدتنى بإزاء عمل هائل وشديد الخطورة هزنى هزا، حتى لحق الهز بالثوابت، ووجدت أمامى فنا عاليا وعظيما بل ورائعا ومثيرا للإعجاب، فى تزوير حقائق التاريخ والعقائد، لصالح الفكر الصهيونى، كما لاحظت أن العمل قد وقفت وراءه ودعمته جامعات عالمية كبرى، وأساتذة كبار فى شتى صفوف المعرفة، وهنا كان لابد أن يطفر السؤال قافزا: إذا كنت قد حدث لى كل هذا الانبهار، - مع هول الصدمة - إزاء ذلك التكنيك الصهيونى العالى الجودة والامتياز، فماذا سيكون شأن قارئ عادى دون أن يتسلح برد على نفس المستوى من الأصولية العلمية والاقتدار؟ بينما الكتاب يتألق تحت ستار براق من العقلانية والعلمية والصرامة الظاهرة، لينهض نهشا على تاريخ مصر، ليؤسس لإسرائيل مكانها فى التاريخ وفى العلم وفى العقول وفى القلوب، وكانت الدهشة أكثر عندما علمت أن أول طبعة للكتاب بالإنجليزية كانت عام ١٩٥٢، ومع ذلك لم نسمع فى بلادنا ولو رد واحد على ذلك الكتاب، بل اكتشفت أن العكس هو ماقد حدث بالضبط، حيث استعان به كتاب عرب كمصدر غفل من الإشارة مفترض أنهم مهمون أشرت إليهم فى حينه.

هنا وجدت معركة حقيقة، خاصة أنى سأخوضها فى ميدانى الذى أعرف مسالكه ودروبه، وقررت فضح كل هذا الكم من التزييف التاريخى وتزوير الحقائق، لكن اللياقة الريفية اللعينة دعتنى إلى عدم تجاوز الترجمان الطبيب، خاصة وأنه كان السبب فى تعريفنا بذلك الكتاب الخطير، وعليه طلبت من السيد الترجمان الحضور إلى بيتى، وأحطته علما بقرارى الرد الفورى والسريع دون إبطاء على ذلك الزيف المخيف الذى تأخر الرد عليه طويلا.

وبالفعل حضر السيد الترجمان، واستمع إلى جزء طويل من ردودى على فليكوفسكى، بينما وجهه يتلون ويتبدل، ثم انحدر فجأة إلى حالة عصبية دفاعا عن طروحات الكاتب، مما أشعرنى أن وراء الأكمة ماوراءها، ومن ثم كان ردى الفورى هو أنى سألجأ إلى ترجمة النصوص التى سأرد عليها من جانبى ومباشرة، من النسخة الانكليزية التى كان قد أحضرها لى لتدقيق ترجمته، وسافر الرجل ليعمل تفكيره فى قرارى الحاسم والقاطع، لكن لتختفى من على مكتبى النسخة الانجليزية مع مغادرته، لكن فى نفس الليلة اتصل بى السيد الترجمان ليقدم لى اقتراحا يقول: ما المانع أن استثمر ترجمته الموجودة لدى الآن مادمت متعجلا؟ على أن أشير إليه كمترجم

لنص فايكوفسكى بشكل واضح مع نغمة نفعية عالية الصراحة، مفادها أن ذلك سيكون دعاية متميزة لترجمته الموجودة لدى الآن مادمت متعجلا؟، وإزاء تلك النفعية الواضحة، تراجعت ظنونى فى طبيعة علاقة الترجمان بمنظومة الكتاب، وبما جبلنا عليه من مد يد العون ماأمكن، قررنا العمل باقتراحه.

وقمت بالرد على تأسيسات فايكوفسكى التى أوردها بفصله الأول، حيث أن بقية الفصول كانت إعادة لتوزيع المعزوفة التأسيسية حسب نوتات أخرى، وقد قلت ذلك واضحا فى مقالى الأول، وأنجزت ذلك الرد فى عشر مقالات سلمتها كاملة للأستاذ مصطفى بكرى رئيس تحرير مصر الفتاة أنذاك، ونشرت على التوالى كاملة دون توقف، هذا بينما يقول السيد الترجمان أن مانشرناه كان ترجمته هو، وأننا كنا نزمع الاستمرار بنشر الكتاب كاملا لولا تدخله لإيقاف نشر بقية الفصول، ولعل الأستاذ مصطفى بكرى يقرأ معنا الآن ليدلى بشهادته حول هذه الجزئية، أى أن السيد الترجمان لم يتدخل ويوقف نشر بقية ترجمته المسروقة كما زعم، حيث لم يستلم الأستاذ بكرى سوى تلك الحلقات العشر فقط وقد نشرت كاملة.

حقوق الترجمان

وعملا بالأصول العلمية، واتباعا لشروط الأمانة البحثية، قمنا بتصدير الحلقة الأولى بالبنط العريض برأس المقال، بإشارة واضحة فى أن العمل الذى سنرد عليه **هو من ترجمة الطبيب رفعت السيد**، وعدنا إلى تكرار الإشارة **فى الحلقة الثالثة** نظرا لورود نصوص كثيرة من تلك الترجمة فهيا، **وفى ختام المقال العاشر والأخير** طلبت من الأستاذ مصطفى بكرى تليفونيا أن يكتب بنفسه شكر وتقدير لتلك الترجمة، وقد جاء نص ذلك التنويه فى مربع بلون متميز لمزيد من الإيضاح، وكان نصه: **«يتقدم د. سيد القمنى بالشكر إلى الزميل د. رفعت السيد الذى ترجم كتاب عصور فى فوضى، وبذل فيه من الجهد والعرق مايستحق التقدير»**.

وعندما قررنا توسعة الرد على تلك المدرسة، أصدرنا كتابنا «إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل»، وضمنه تلك الردود، وعند ورود الجزء الخاص بعرض أسس نظرية فليكوفسكى التى سنرد عليها وذلك ص ٩٧، أحلنا إلى المترجم بحاشية مستقلة واضحة تقول: « **إيمانويل فليكوفسكى عصور فى فوضى، عن ترجمة مخطوطة قام بها الدكتور رفعت السيد**»، وهو الترتيب العلمى لعناصر معلومات الكتاب حسب الأصول الأكاديمية، أما ملحوظة

الأستاذ حازم هاشم، أن تلك الإشارة لم تتكرر بعد ذلك عند ورود نصوص نرد عليها بالكتاب، فهو الأمر الذى ماكان ممكنا، فالترجمة مخطوطة بلا أى معلومات نشر نحيل إليها، فلا اسم ناشر، ولاطابع، ولا بلد، ولاصفحات أيضا، فكيف نحيل إلى صفحات غير منشورة؟ وللتغلب على تلك العقبة وضعنا تلك الإشارة الواضحة فى مستهل عرض طروحات فليكوفسكى، مع **إبراز الاقتباسات بعلامات التنصيص أحيانا، بالهامش الأوسع أحيانا أخرى**، وهى من الأدوات الأكاديمية المعلومة.

ولو قمنا بجمع النصوص الفليكوفسكية التى أوردناها للرد عليها، فى اتصال سردي، لما تجاوزت العشرين صفحة، فى كتاب يمهد لها، ويناقشها، ويرد عليها، فى مائتى صفحة كاملة، جهدنا عليها زمنا حتى انجزناها، وهى الردود التى أسماها السيد الترجمان «تعليقات وحواشى».

وأذكر أنى بعدما نشرت تلك الردود التى تكشف الكتاب والدوائر التى تقف من ورائه، فاجأنا السيد الطبيب بالعدد «١٣٩» من مجلة القاهرة بمقال يتلبس الزى الوطنى والقومى الغيور ضد فليكوفسكى، وهو ماعاد إلى عزفه فى مقدمة ترجمته التى نشرت بالأمس القريب، لكن ليقدم لنا الآن، والآن بالتحديد، كتابا مليئا بالمتفجرات الموجهة، بالطبع نحن لا نصادر على نشر أى كتاب من أى لون، لكن يبقى ذلك السؤال الأرق الملحاح يهمس: لماذا نشر مثل هذا العمل الآن تحديدا، خاصة وأنه الكتاب الوحيد الذى ترجمه السيد الطبيب، فلماذا هذا الاختيار من بين ملايين الكتب التى تحتاجها مكتبنا العربية فعلا؟.

مرة أخرى - إذا أخذنا بسوء الظن - فسيكون ماأزعج صاحبنا الترجمان ليس موضوع الترجمة، بل ردنا نحن غير المتوقع على فليكوفسكى الذى تصوره من النوع الذى لايقهر، فهل يسعد صاحبنا الطبيب القيام بدور حارس الشرف لهذا الكتاب؟.

أما إذا كانت الإجابة تأخذ بحسن الظن، فإن السيد الطبيب قد كسب رهان المغامرة، عندما اضطرنا للرد عليه، ليشكل ردنا دعاية مجانية لسيادته، وللكتاب، وبالطبع للدار الناشرة التى تجرأت على نشر هذا الكتاب أخيرا، بعد مارفضته كل دور النشر الأخرى.

وبعد، فقد استجبنا لدعوة الأستاذ حازم هاشم بذلك الرد النهائى، الذى يتضمن درسا واضحا لمن هم مثل السيد الترجمان، ونحن واثقون أنهم سيعلمون بالحكمة البليغة: «أنج سعد فقد هاك سعيد».

مقالات ودراسات

حول الحاجة لتحديد المفاهيم (*)

(*) نشر في ٣/ ١١/ ١٩٩٣، بصحيفة الأهالي، القاهرة.

من لحظة زمنية بعينها، تلك التى تواصلت فيها السماء مع الأرض عند نزول الوحى القرآنى، ومن مكان بنفسه يتمركز فى بلاد الحجاز من جزيرة العرب، تحدد «زمكان» التراث لدى أصحاب الاتجاهات الأصولية الإسلامية، بل إنه من جانب آخر نجد نفس التحديد لدى شريحة كبرى من الباحثين المهتمين بالدراسة حول الهوية والآخر وفق تصور عروبى ضرورى جامع يلتقى بالضرورة بالتأسيس الأصولى الإسلامى لمعنى التراث كمرجعية أولى أساس، وهى الرؤى المؤسسة سلفا على مقدمات تحاول إيجاد جامع مشترك، كانتج لعدم تأسيس اصطلاحى ومفهومى واضح، لمفاهيم «الوطن، العروبة، الأمة القومية، التراث».

وذلك بدوره ليس إلا ناتج الالتباس الحادث بين الإسلام كعقيدة جامعة لمجموعة شعوب تدين به، وبين «العروبة» كهوية قومية جامعة لمجموعة الشعوب الناطقة بالعربية، وتتشارك عبر التاريخ فى تفاصيل تؤطر لفكرة توحد أصيل باعتبار أن المفهوم العروبى يتأسس تاريخيا على فتوحات عرب الجزيرة للأقطار المحيطة والتى تحولت إلى العروبية «لغة» لتؤسس دولة عقدها الجامع هو الإسلام، وتحول شعوب الأقطار المفتوحة إلى العقيدة الإسلامية المؤسسة للدولة الأولى «دينا».

ومن ثم تارجحت حالة الالتباس حول الهوية، بين مفهومى «العروبة» و«الإسلام» ليلقى كل منهما بظلاله على مفهوم «المواطنة»، بخاصة إذا أخذنا بالحسبان أن شعوب البلدان المفتوحة وأن تحولت جميعا إلى اللغة العربية «لغة قريش» فإنها لم تتحول جميعا إلى عقيدة الإسلام «دينا»، وعليه فقد ظل داخل تلك المجموعة البشرية عربيا لايدينون بالإسلام وبين تحديد الهوية السارى، الآن بالإسلام، ورد فعل العربى غير المسلم بتحديد هويته بدينه، ضاع الوطن بين الطرفين، وإعمالا لذلك يصبح الإلتباس والتداخل بحاجة ماسة إلى تحديد مفهومى واضح، يرتكز على قراءة علمية تاريخية مجتمعية لرفع الالتباس، والبدء من مرتكزات واضحة.

القطيعة التاريخية والمعرفية

والسؤال الأهم هنا هو: هل شكل الإسلام قطيعة تاريخية ومعرفية مع ماسبق، بحيث يمكن احتسابه وحده مع بداية تواتر الوحى هو كل تراث الأمة؟.

على مستوى الرؤى الأصولية لابد أن تكون هناك قطيعة تاريخية، فيبدأ الإسلام من لا شىء، فهو مفارق سماوى، أزلى الكلمة المقدسة، غير مرتبط بماض أرضى، رغم الواضح فى القرآن ومالحقه من أحاديث نبوية، وماارتبط به من أحداث تجادل معها الكلام المقدس أخذا وردا، فاعلا ومنفعلا مؤثرا ومتأثرا. وماتأسس على كل هذا فيما بعد من اصطراعات مذهبية ورؤى فلسفية استندت إلى جدل المقدس مع حدث الواقع الموضوعى، وهو مايشير بوضوح إلى تناقض تلك الرؤية مع قواعد الإيمان نفسه وتاريخ الدعوة ناهيك عن استحالة القطيعة التاريخية، لأنه لاشىء إطلاقا يبدأ من فضاء دون قواعد مؤسسات ماضوية يقوم عليها، ويتجادل معها، بل ويفرز منها حتى لوكان دينا.

والدارس لآيات الوحى يجدها تنبئه بوضوح أنه لم يكن هناك قطيعة معرفية ـ أبداً ـ مع السابق الأرضى، وإن تشكلت تلك القطعية بالفعل على المستوى الإيمانى البحت كناتج لتأسيس الإسلام لنفسه ولمصداقيته على طرفين: الأول الاتصال بذلك القديم وتقديم معرفة به، ثم على الطرف الثانى تم نفى هذا القديم باعتباره أفكارا باطلة وعقائد أمم كافرة، وهو الأمر الذى ساعد على لون خطير من فقدان الذاكرة التاريخى الجماعى، وأسهم فيه بدور أساسى وتام انقطاع الشعوب المفتوحة عن لغاتها القديمة باعتبارها وعاء ذاكرتها وتاريخها وحضارتها، وحاصل خبراتها وتفاعلها مع واقعها عبر زمن طويل، وماأفرزه ذلك التفاعل من ثقافة احتوتها اللغة المفقودة.

وعليه «على سبيل المثال» فقد انقطع المصرى عن تاريخه، ولم يعد يذكر من ذلك التاريخ سوى ماقدمه له الإسلام من معلوماتية بشأنه، وهى المعلوماتية التى تحدد الموقف المعرفى ليس بكونه تاريخا، وموضوعا للمعرفة، إنما بوقوعه بين طرفى معادلة الإيمان والكفر «١» وبالتالى تم تلخيص ذاكرة مصر بكل تاريخها فى فرعون طغى، وتجبر فكان مصيره الهلاك غرقا مع قومه المجرمين! وهو الأمر الذى يسحب ظلاله على الحاضر الآنى، حيث لايصبح للمصرى تاريخ قبل الفتح، وتنقطع الذاكرة، وتتحول الهوية المفقودة نحو الدين وطنا وتاريخا، ويصبح صدق الإيمان مع الإسرائيليين، الذى خرجوا من مصر الكافرة ليحتلوا فلسطين، احتلالا استيطانيا مشروعا من وجهة نظر الإيمان «٢»! ويصبح المصرى مع موسى، ليبارك غرق التاريخ بالكامل مع العصا المعجزة، وهو الأمر نفسه الذى

يكابده الواقع الفلسطينى حيث لابد للمسلم الفلسطينى آن يكون مع طالوت الإسرائيلى ضد جالوت الفلسطينى، وهو الأمر الذى يصدق أيضا على نمروذ العراق الكافر إزاء أرومة إسرائيل إبراهيم، وعلى كنعان إزاء سام ألخ، وهى الأمثلة التى توضح إلى أى مدى هى إشكالية الوطن والمواطنة والتباساتها إزاء الدينى والقومى.

الإسلام إذن لم يشكل قطيعة معرفية مع ماسلف، إنما تجادل معه وحاوره ثم نفاه ليصبح الوحى هو مصدر ذاكرة الأمة، وهو وحده كل تاريخها ومصدرها المعرفى، وعليه يتأسس الموقف إزاء أى طارىء أو أى معرفة أخرى، وبموجبه تصدر الأحكام والتقييمات بصدد ما تعلق بما سبق ثم باللاحق أيضا.

وعلى مستوى العقائد، لم يشكل الإسلام قطيعة معرفية مع الأديان السابقة عليه، بل اعتبر نفسه امتدادا لبعضها كما فى موقفه من اليهودية والمسيحية، بل إنه أسس نفسه سابقا لها، وأن اعترافه بها لأنها كانت إسلاما بالأساس، ثم نافيا لبعضها الأخر، كما فى نفيه لعقائد أخرى كعبادة الأوثان، باعتبارها عقائد باطلة، لكنه فى تحاوره مع الديانات التى أطلق عليها «الديانات الكتابية» أصدر أحكامه بشأنها، وأبطل مابقى مستمرا منها، إما لأنها انحرفت عن أصلها الإسلامى؟ أو لأنها حرفت الكلم المقدس عن مواضعه، أو لأن الدين فى النهاية قد أصبح عند الله الإسلام فتساوى الكل، وأصبح الكفر ملة واحدة، وعليه فقد أصبح المعرفة المعلوماتية لدى المسلم عن تلك الديانات تستمد أصلا مما قدمه الوحى والتاريخ الإسلامى بشأنها، وهو ما لدى المسلم عن تلك الديانات تستمد أصلا مما قدمه الوحى والتاريخ الإسلامى بشأنها، وهو ماأدى إلى انقطاع داخل شرائح المجتمع العربى، تساعد عليه جميع أجهزته الإعلامية والتربوية، التى تتحدث جميعا طوال الوقت دون كلل أو ملل بتكرار شديد الإملال عن الإسلام وقواعده وتفاصيله وشروحه، مما يعطى للعربى غير المسلم معرفة كافية بالإسلام، بينما يظل المسلم العربى لايعلم من شأن عقيدة المواطن العربى غير المسلم، سوى ماقدمه له الإسلام، وهو ماأدى بالضرورة إلى اغتراب العربى غير المسلم عن معنى المواطنة، واحتمائه بدينه ليصبح دينه وطنا، وهو ماسبقه إليه العربى المسلم عندما فقد ذاكرته وتاريخه.

تاريخية النص

والمطالع للمأثور الإسلامى، ومالحقه من تاريخ وتفاسير وسير وفلسفات وعلوم دين، يكتشف إلى أى مدى توقفت الذاكرة العربية عند لحظة نزول

الوحى، وإلى أى مدى انقطعت عن ماضيها، وهو الأمر الذى استمر يتأكد بفعل الإصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة، وأن تلك الثقافة الثابتة ليست بالأصل أرضية، بل هى مفارقة سماوية، وأنها الأصل فى كل ثقافة أخرى، وأن ثباتها هذا ينفى أى محاولة لبحث تاريخيتها حسب القاعدة الفقهية «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، فقد جاءت جاهزة هكذا من الأزل، ودونت فى لوح أزلى محفوظ، دون ارتباط بأى سبب موضوعى وقت تواتر الوحى «رغم تناقض ذلك مع تقرير الوحى نفسه».

وعليه أصبح بالإمكان اجتزاء أى نص من بين النص القرآنى الكلى، ونزعه من سياقه مع باقى الآيات، وسحبه من لحظته التاريخية التى سببته، لدعم أى موقف آنى نفعى حسب المصلحة المراد تحقيقها حسب القاعدة الفقهية «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، أما الأخطر - برأينا - فى رفض تاريخية النص، هو أن هذا الموقف تحديدا هو السبب الجوهرى والأساس فى تلك الالتباسات المشار إليها، وعدم الوصول إلى تحقيق دقيق بشأنها، كنتيجة لعدم أخذ الأسباب الحقيقية والموضوعية بالاعتبار، والتى أدت بالنبى، وبالوحى إبان تواتره، إلى اتخاذ مواقف بعينها من ذلك المأثور الحضارى القديم، أو من الديانات السابقة وأصحابها، وهو الأمر الذى بات يحتاج إلى تقديم دراسات واضحة جريئة بشأنه، والتعامل فى درسها - مع النص بوصفه معبرا عن واقعة فى حقل موضوعى للأحداث، إبان ثلاثة وعشرين عاما هى زمن تواتر ذلك الوحى.

وهو مايستدعى عملا دؤوبا يربط حقل الأحداث بتصنيف الآيات، المكى منها والمدنى مرتبطا بظرف كلا المدينتين وواقع البشر فيهما مع دراسة وافية لعلاقة النبى وأتباعه بأصحاب الديانات الأخرى، ومامرت به تلك العلاقة من متغيرات فرضها ظرف الواقع وتطور الدعوة، وأدى إليها وأفرزها، وعلاقة كل هذا بالمستوى المعرفى لجزيرة العرب وكم وحدات تذكر العربى البدوى، ومأألقته البداوة من صباغ على تراكمه المعرفى «وهو لاجدال مستوى الخطاب القرآنى الموجه إليهم»، مع تأسيس كل ذلك على قراءة علمية صارمة لواقع الجزيرة ومحيطها، من حيث البنى المجتمعية والأنماط الاقتصادية والأشكال السياسية، وهو الأمر الذى نظنه قد أصبح ضرورة ماسة الآن، وربما ذهبنا إلى أن الأمر بهذا الشكل مطلب مصيرى لا يتناقض إطلاقا مع قداسة الدين، بل نزعم أن هذه المطالب توقف عمليات التزييف والتدليس والتخديم الانتهازى للنص الدينى، مما يحفظ له كيانه وقداسته، وفى نفس الوقت يرفع الالتباسات عن المفاهيم المطلوب تحديدها، ويساعده على استقرارها وتوقفها عن الرجرجة بين باحث وآخر، ورؤية وأخرى، وهو مايمكن أن يؤدى إلى حل كثير من الاشكاليات البحثية الداخلة، فى هومومنا الآنية.

حول مفهوم التراث(*)

(*) نشر في ١٠/ ١١/ ١٩٩٣، بصحيفة الأهالي، القاهرة.

هل يمكن حقا الركون إلى الرؤية الأصولية التى توقف ذاكرة الأمة عند لحظة ابتدائية أولى، هى لحظة تواتر الوحى القرآنى، وتحدد للتراث مفهوما أوحدا هو المفهوم الإسلامى، وتؤطره مكانيا بمهبط الوحى بجزيرة العرب؟ وحينئذ هل يغدو العربى المسلم من غير أبناء الجزيرة بغير تراث وطنى وقومى؟ أم سيلجأ إلى التراث الإسرائيلى فى التوراة «وهو الحادث فعلا»، وهل يبقى كل تاريخ تلك المنظومة من الشعوب العربية مقصورا على التأرجح بين الإيمان والكفر، وبين فرعون، وموسى، وبين طالوت وجالوت، وبين نمروذ وإبراهيم؟.

ووسط هذه الحالة الرجراجة بين الإيمان والكفر، هل يمكن أن يجد الوطن ومفهوم المواطنة مكانا فى تحديد الهوية؟، وهل بالحق يمكن أن يجد الوطن ومفهوم المواطنة مكانا فى تحديد الهوية؟ وهل بالحق يمكن إطلاق مفهوم «أمة» على مجموعة شعوب فقدت ذاكرتها وتماهت فى الدين فأصبح هو الوطن وهو الهوية؟ وهل يصبح ممكنا ـ على الإطلاق ـ الحديث عن صراع حضارى آنى، دون أن نتكهن بمصير آل إليه الهنود الحمر قبلنا؟ وإذا كانت هذه أسئلة أرقة مؤرقة، فهل من سبيل إلى الخروج من دائرة الإيمان والكفر إلى فضاء أوسع، لايظله غير مناخ علمى حر تماما، ويكون همه الأكبر هو مصير البلاد والعباد، إزاء التسارع الهائل الآنى فى تقدم الشعوب المتقدمة أصلا، وتمكنها من أدوات السيطرة، مع فقدنا الأسس والأدوات والمناهج التى قد تساعد ـ مع التفاؤل ـ على بدء خطوات صحيحة، للخروج من دائرة جذب ذلك المغناطيس الرهيب نحو القاع، فالتلاشى، فالزوال فى طوايا القرون الغوابر، مع عاد وثمود وأصحاب الأيكة وهنود أمريكا وشعب الأنكا؟.

وإذا كانت الرؤية العلمية ممكنة دوما، فهل ينبغى أن يظل شبح الرعب

من معادلة الإيمان والكفر، ومايصحبه الآن من أدوات تنفيذية لاتقيم وزنا لأبسط الحقوق الإنسانية، وتنفذ دون مراعاة لحيثيات العدل «!؟»، هل ينبغي أن يظل رعب مصادرة الكلمة والحياة «بأمر الله» عائقا دون المحاولة؟ لو كان ذلك كذلك، فإن من يحاولون تأسيس تلك القراءة العلمية الآن، هم أصحاب الريادة في أشرف ساحات النضال حقا وصدقا.

التاريخ العبء

إن المحاولات العلمية المخلصة في التعامل مع المأثور الإسلامي في ظل واقعنا المهين الراهن يجب إلا تضع باعتبارها إطلاقا - إن كانت مخلصة حقا وعلمية حقا - أي قطيعة معه، ولا أن تضع ضمن أهدافها إصدار أحكام بشأنه، ولارفضه أو نفيه، ولااقتطاع بعضه - بحجة صلاحيته - دون بعضه، ولاإسقاط مفاهيم معاصرة عليه، إنما يجب درسه مرتبطا بواقعه، منضبطا مع حركة هذا الواقع في زمانه، وإيقاع ذلك الواقع وضبط هذه الحركة مع الحدث الذي سبقها والذي عاصرها، وماتنتج عن هذا من إفراز معرفي بعينه، دون محاولات وإدعاءات عقلنة المأثور، أو إلجته، ودون المبالغة في بعض مناطقه، ودون التجاوز عن مناطق أخرى فيه، باختصار أن تتم قراءة قراءة تاريخية لاتجرده من ماضيه ومشكلات زمانه، من حيث كان واقعه في حقل لحدث الواقع المجتمعي، بحيث ترتبط الفكرة بواقعها، ليعود ذلك المأثور إلى حجمه الطبيعي، ويتراجع ظله السحري الذي يفرضه دوما كمثل أوحد لايصح تخطيه، ولايظل لونا من التاريخ العبء، قدر مايتحول إلى تاريخ دافع ومحرك، دينامي لاسكوني.

لكن وسط كل هذا الاهتمام بين من يفرضون المأثور الإسلامي وحده تراثا أوحد لكل الأمة، ومن يحاولون درس هذا المأثور دراسة علمية، تتكشف حقيقة أولى مهمة وخطيرة، وهي أن كليهما - حتى أصحاب الدراسة العلمية - لايتحركون خارج دائرة المأثور الإسلامي وحده، كما لوكان الأمر فعلا ثم رد فعل، محاولة فرض دائمة، ومحاولة رد لتحجيم ذلك المفروض، دون أن يسمح ذلك الاصطراع الفكري الدائب بالحركة التاريخية إلى ماقبل المرحلة الإسلامية، كما لوكان الزمان قد انبت عندها وانقطع، ولايظل في الذاكرة من تراث تلك الأمة وسط الهموم الحاضرة سوى ذلك المأثور وحده، مع تجمد المحاولات العلمية نفسها عند نفس لحظة البدء المحددة سلفا وسلفيا، بزمان بدء تواتر الوحي، ومكانه بجزيرة العرب.

نحو فهم آخر

ومن هنا نلح وننبه إلى خطورة حالة هذا الخدر العلمى الذى استطاب حركة رد الفعل الدائمة، والذى توقف - ربما مضطرا - عند هذا المأثور دارسا محققا مدققا - وربما كان واقع الحال سببا يفرض موضوعات البحث، وأيها جدير بالاهتمام الآن، لكن الاقتصار على المأثور الإسلامى وحده فى ساحة الدرس العلمى، يؤسس لفهم كاد يصبح حقيقة، وهو أنه وحده تراث الأمة بكاملها، وعليه كان همنا فتح النافذة على التراث بمعناه الأكمل والأشمل باستمرار، حتى لايضيع من الذاكرة معنى التراث الحقيقى.

وإن أى عقل سليم يمكن أن يرى بهدوء أن أى تراث لأى مجتمع لايمكن أن يتطور أو يحدث أصلا دون توارث، فالتراث - لغة - إرث موروث عن الإسلاف، تركوا لنا فيه ناتج خبراتهم ومعارفهم، أى أن التراث متطور فاعل منفعل دوما، أى أن الناس هم صناع ذلك التراث، يصوغونه وفق ظروفهم وحاجاتهم، حتى لو كان دينا، فالوحى القرآنى جاء مفرقا ومنجما، ناسخا ومنسوخا، وبدل ومحى وأثبت، تبعا للمتغيرات لمصالح الناس خلال زمن تواتر الوحى، ثم ظل كمأثور دينى حسب فهم الناس له، أو على الأدق فهم كل فرقة أو مذهب أو طبقة اجتماعية.

هذا بالطبع مع اعتبار أن أى نقلة تطورية على سلم التراث، كان لابد أن تسبقها نقلة على الدرجة الأدنى، ويستحيل دونها الوصول إلى الدرجة الأعلى، وهو ماينطبق بدوه على علاقة المأثور الإسلامى بالتراث السابق للمنطقة بكاملها.

وبمعنى آخر، إن أى تطور ثقافى ماكان ممكنا حدوثه إلا على أسس، وأعمدة من ثقافة سابقة، فقط مايجب أخذه بالاعتبار هو: أن التطور عندما يأتى رأسيا صاعدا على عمد تراث قديم، فإنه يقوم إبان ذلك بتوسع أفقى يفجر فيه مع كل نقلة، الأسوار والتحديدات القديمة، من أفكار ومعتقدات لم تعد مناسبة لاحتواء الظرف التطورى الجديد، ولم تعد صالحة كوعاء مناسب للتراكم المعرفى المتزايد، ولم تعد صالحة لمعالجة إشكاليات مستجدة لم تكن معروفة من قبل، ويفرضها التطور الدائم للأشكال الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية، وهو ماينطبق على علاقة المأثور الإسلامى بما سبقه، كما يجب أن ينطبق تماما على ظرف اليوم وعلاقته بمأثور مضى عليه مايزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمان.

ومن ثم فإن القناعة السائدة بانقطاع شعوب المنطقة عن ماضيها القديم هى قناعة إيمانية، أكثر منها حقيقة واقعة، لأن التراث حسبما أسلفنا لايمكن أن يكون حكرا على ثقافة بعينها، ولايمكن أن يكون ذا مبتدا «زمكانى» محدد، وإن ماجاء بمأثورنا الإسلامى عن تراث سابق، لم يأت غريبا من الماضى ليتسلل إلى المأثور الإسلامى.

زمن التدوين، وفى الوقت نفسه فإن المأثور الإسلامى نفسه ليس وافدا من خارج الزمن والمكان، بل كان هو الامتداد الموضوعى للزمن والمكان، وبهذا الطرح يمكن تحقيق معرفة بالتراث تصحح الوعى به، وتزيل عن فهمه أى التباس، وهو الأمر الذى سيسحب عددا من التصويبات تلحق بمفاهيم لم تزل رجراجة حول «الوطن، الأمة، الهوية، القومية.. الخ».

وعليه فلامناص من تحديد مفهوم الثقافة والتراث، باعتبارها ناتج تراكم كمى وكيفى لخبرات طويلة تعود إلى عمق ماقبل بداية التاريخ، مع ارتباط الإنسان بهذه الأرض، واستقراره فيها، وأن هذا التراث ناتج تفاعل جدلى داخل تلك المجتمعات منذ بدايتها الأولى، وبينه وبين بيئته الطبيعية، وبينه وبين المجتمعات الأخرى والثقافات الأخرى المتباينة، عبر خلالها نقلات على سلم التطور الزمنى والمجتمعى والاقتصادى، وشكل فى النهاية منظومة فكرية كبرى، يشكل المأثور الإسلامى فيها **إحدى الحلقات** الكبرى.

«النص» بين الأزلية والتاريخية(*)

(*) نشر في ١٧/ ١١/ ١٩٩٣، بصحيفة الأهالي، القاهرة.

عنوان هذا الموضوع، يلخص - فى رأينا - سر الأزمة التى آثارها الشيخ «عبدالصبور شاهين» إزاء أعمال المفكر «نصر أبو زيد»، حيث انطلق الشيخ «شاهين» من موقف مألوف، يصر على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة.. المتماهية مع النص الإلهى، بحيث يظل ثبات المفهوم القدسى، ضامنا لثبات المواقع السيادية لرجال المنظومة الدينية «!!» بمعنى ثبات النص كوحدة كتلية واحدة من الأزل، وإن هذا الثبات الكتلى غير المتغير - قد جاء كما هو معلوم - نتيجة انتهاء جدل فلسفى قديم حول قدم النص أو حداثته، بانتصار سياسى سيادى لأصحاب فكرة الأزلية والقدم والثبات، بتحالف أسس لأصحاب تلك الرؤية مواطىء قدم ثابتة دائمة فى المنظومة السيادية المتحالفة مع مؤسستها الدينية، وبالتالى مع صاحب النص الذى يمثلونه على الأرض، كمعبرين دائمين عن ثبات كلمته، وثبات العروش القائمة فى الآن نفسه.

ومن ثم كانت أية محاولة لنبش ذلك المفهوم السائد الثابت، حول الثبات الكتلى المتوحد للنص مع نفسه ومع صاحبه ومع الأزل، والذى يؤكد أن النص كان فى الأزل كتلة واحدة متماسكة سماوية مفارقة للأرضى وأحداث الواقع، تعنى هز الأسس السيادية التى تقوم عليها تلك المنظومة، وهو ماكان يوجب بالطبع ردا عنيفا حديا بين قرارى الإيمان والكفر، وهو الرد الطبيعى غير المدهش إطلاقا، وهو الرد نفسه الذى يضرب فى عمق الماضى، الذى استخدمته الطبقات السائدة دوما عبر وسطائها المحترفين من رجال الدين! كما استخدمته منظومة رجال الدين نفسها، لتأمين مصالحها الخاصة، بإبقاء النص معلقا فى الفضاء غير مرتبط بأى واقعة تاريخية كانت سببا له، لأمر مفهوم تماما استمر عبر أربعة عشر قرنا مضت، رزح فيها المسلمون تحت جميع أنواع القهر الطبقى والطغيان السلطوى، الذى عادة ما كانت تتغير مظاهره وتتفاوت بتفاوت أحوال المكان والزمان، وعادة

أيضا ماكان يجد ذلك القهر المتفاوت سنده فى النص الذى يفلسفه رجال الدين، بسحب أى آية قرآنية فى سياقها النصى، وبتر صلتها بسابقها ولاحقها! وهم بذلك يسمحون لأنفسهم وحدهم بفض ذلك التماسك الكتلى الذى يدافعون عنه، وفى الوقت نفسه يقطعون علاقة الآية المطلوبة بواقع الحال الذى سيقت بشأنه فى أوانها.

استخدام نفعى

وهكذا يظل النص دوما رهن الاستخدام النفعى، لتبرير مواقف قد تصل إلى حد التناقض التام مع بعضها، وبالتالى التناقض التام فى الآيات المعبرة عن تلك المواقف المتناقضة والمبررة لها، ولاتحتاج إلى جهد كبير لكشف ماوراءها من مصالح ومواقف هى ضد إنسانية المواطن وكرامته.

وقد كان ذلك الاستخدام الانتهازى الدائم للنص الدينى، مصدرا لعدد من الانتكاسات الفادحة، حتى وصل الأمر أحيانا إلى استخدام النص لتبرير أهواء، ونزوات للحاكمين، هى ضد الوطن وضد المواطن وضد الدين نفسه.

وعليه فإن أية محاولة لإعادة النص إلى سياقه وبنائه الداخلى، ومحاولة تحليله وإدراك علاقاته ببعضه، وعلاقته بواقعه الحدثى وسياقه الخطابى - وهو الأمر الذى يعيد له احترامه ومفهوم قدسيته - كانت مثل تلك المحاولات، فى معناها الأخطر، هى ارتجاج عروش بدأت الأرض تميد من تحتها بالفعل، وآن مغربها، وعليه كان رد الفعل الذى أدهش كثيرين، رغم أنه لم يكن مدهشا على الإطلاق.

ويبدو أن الأمر سيظل كذلك بعض الوقت، وهو ما لن يحسمه إلا أن يضع المفكرون المخلصون بحسبانهم، أن القضية قضية نضالية فى المقام الأول، إضافة لكونها قضية علمية، لاتحتمل تمييع المواقف، أو المصالحة حول مناطق وسطية تصالحية، فالأمر الآن مصير أمة بكاملها، لم يعد بالإمكان إخضاعه لنزوات الرجال وأهوائهم.

وإزاء التسارع فى إتساع المسافة بين أحوالنا وأحوال الأمم المتقدمة، لم يعد هناك وقت لإرجاء حسم كثير من المواقف الفكرية، والتى ترتبط بشدة بمصير البلاد والعباد، ويبدو أن هذا قدرنا، وأن هذا زمنها، فإن ذهب بلا حسم لكثير من القضايا المسلط فوقها سيف التكفير، ومنها القضية عنوان هذا الموضوع، فلن يكون هناك بعد مساحة لمناقشة أمور هذه الأمة، لأنه أن يكون بعد هناك أمة.

سر الأزمة

وأتصور أن من أهم ماأستثار الرجال فى المؤسسة المشيخية فى أعمال «أبو زيد»، ذلك الموقف الذى أبرز فيه التناقض، الناشىء عن القول بأزلية النص وثباته، وهو ماجاء واضحا فى كتابه «مفهوم النص» يقول:

«أن ظاهرة النسخ تثير فى وجه الفكر الدينى السائد المستقر إشكاليتين «يتحاشى مناقشتهما» الإشكالية الأولى: كيف يمكن التوفيق بين هذه الظاهرة بما يترتب علهيا من تعديل النص بالنسخ والإلغاء، وبين الإيمان الذى شاع واستقر بوجود أزلى للنص فى اللوح المحفوظ، والإشكالية الثانية: اشكالية جمع القرآن، ومايورده علماء القرآن من أمثلة توهم أن أجزاء النص قد نسيت من الذاكرة الإنسانية، ولم يناقش العلماء ماتؤدى إليه ظاهرة نسخ التلاوة أو حذف النصوص سواء بقى حكمها أم نسخ أيضا، من قضاء كامل على تصورهم الذى سبقت الإشارة إليه، لأزلية الوجود الكتابى للنص فى اللوح المحفوظ.. إن فهم قضية النسخ عند القدماء، لايؤدى فقط إلى معارضة تصورهم الأسطورى للوجود الأزلى للنص، بل يؤدى أيضا إلى القضاء على مفهوم النص نفسه».

وهكذا بسط الرجل الأمر ببساطة وإنصاف، وعرض الإشكالية بموضوعية ودون استفزاز، فقد أكد أن الثبات الأزلى كمفهوم، يتناقض مع مفهوم النسخ، ولنلاحظ أن مفهوم النسخ بدوره كان معتمدا آخر لكثير من التبريرات للتوجهات القمعية، أو ماهو ضد مصلحة الأمة، وذلك باستخدامه تبادليا عند الحاجة مع مفهوم الأزلية، المهم أن «نصر» هنا إنما ينبه فقط إلى هذا التناقض، بدليل مسألة النسخ كما وردت فى كتب علوم القرآن، دون أى محاولة للتدخل، الرجل أراد - فقط - فتح نافذة للنقاش، لكنها النافذة التى تسحب من رجال الفكر الدينى أهم أدواتهم الانتهازية لسحق الموطن باسم الدين! وهو الأمر الذى يمكن أن يؤول بالوطن فى النهاية إلى مقلب نفايات الأمم، ومن ثم ندفع بالمسألة مسافة أبعد، ونطلب جهدا واضحا يربط إشكاليات النسخ بواقعها، الموضوعى، من حيث كانت الآيات تعبيرا عن وقائع فى حقل أحداث أدت إليها فى زمانها، وهو ماسبق أن قدمنا فيه دراسة منشورة كمدخل ومقدمات[1]، من أجل وقف تزييف وعى المواطن، وتزييف الدين ومعاملته بانتهازية، ووقف الانزلاق التاريخى المهين لهذه الأمة نحو القاع.

---

(١) انظر كتابنا: الأسطورة والتراث، باب: النسخ في الوحي، محاولة فهم.

وأن التناقض يظهر واضحا جليا، عندما نجد أن أى محاولة لمناقشة أزلية النص تتهم فورا بالكفر والإلحاد، وفى الوقت نفسه ودون أن يطرف لهم جفن، يأخذون قضية النسخ من المسلمات، ومن لايؤمن بها كافر بدوره، من ثم لايجدوا مبررا لكلا الموقفين المتناقضين غير الإبقاء على بدائل تظل دوما متاحة، للتخديم على المصالح وقت الحاجة، حتى لوكانت تلك المواقف شديدة التناقض.

وللحق، فإن الإصرار على وقوع النسخ هو موقف حق، لكنه يحتاج فى الجانب الآخر التنازل عن المفهوم السائد حول الأزلية والثبات، ومن النماذج التى تشير إلى التمسك بوقوع النسخ على سبيل المثال، ماجاء عند شيخ علوم القرآن «جلال الدين السيوطى» فى قوله:

«قال الأئمة: لايجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال على رضى الله عنه لقاض: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، قال: هلكت وأهلكت».

كذلك ماورد عن «أبى جعفر النحاس» فى قوله: «ومن المتأخرين من قال: ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولامنسوخ، **وهذا قول عظيم يئول إلى الكفر**».

وهو ماصادق عليه «الدكتور شعبان إسماعيل» وكيل الأزهر بقوله: «وأهمية معرفة النسخ تتضح مما يأتى: أولا: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين جحدوا وقوع النسخ وهو واقع، وثانيا: أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشرية، وثالثا: أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام، والاهتداء إلى صحيح الأحكام، **فالمنكرون لوقوع النسخ فى القرآن الكريم، يخالفون صريح النص القرآنى والسنة النبوية الصحيحة وإجماع المسلمين**».

وتأسيسا على ذلك، يصبح إنكار النسخ لونا من الكفر الصريح، والنسخ إنما يعنى تاريخية النص وتفاعله مع واقعه وارتباطه بظروف ذلك الواقع، وفى الوقت نفسه فإن إنكار عكس ذلك ورفض الأزلية والثبات كفر بدوره وهو مايتبناه الشيخ الغزالى هذه الأيام، وبين الكفرين يضيع المسلم ولايبقى سوى أن يركن لمن يفسرون له الحكمة فى التناقض، بالتعميم على الإشكالية، لاستخدام المتناقضين حسب الحاجة والطلب والمتغيرات، دون احترام مطلوب لذلك النص، الذى تأكدت تاريخيته درسا تربويا للمؤمنين به، تلك التاريخية التى أكدتها نصوص القرآن نفسها بما لايحتمل لبسا أو تأويلا.

كشف الخدع(*)
فيما جاء به الخطاب الديني من بدع

(*) نشر في مايو ١٩٩٣ بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

هل يبدو العنوان مستفزا؟ لاشك أنه كذلك لأول وهلة.. لأننا نخلط بشكل غير واع بين الدين بقداسته التى تمثلها كتبه الموحى بها، وبين الخطاب الدينى الذى يستخدمه كل من هب ودب الدفاع عن قضيته، حتى لو كانت أشد القضايا بطلانا، وهو الخلط الذى انسحب من الدين على الخطاب الدينى، وعلى أصحاب هذا الخطاب أنفسهم، الذى عمدوا إلى تأكيد ذلك المعنى، بالخلط المقصود بين الدين فى نفسه وبين خطابهم المصلحى! حتى أصبحوا ينعمون فى نظر العامة على الأقل بهيبة مستمدة من قداسة الدين، وبخوف خرافى من الزى «اليونيفورم» الذى يرتديه رجل الدين المتكهن عادة، وهو ماساعد أصحاب الخطاب الدينى، دوما على خداع الجماهير ضد مصالحها، وتبرير أفظع المظالم، وتمرير أشد الفظائع إثما، باعتبارها مشروعة دينيا. وهو الأمر الذى تدلل عليه إطلالة سريعة على تاريخ الأنظمة «الثيوقراطية»، سواء فى أوروبا أو فى بلادنا، عندما كان الناس يحكمون بمساندة رجال الدين، أو بهم مباشرة، خاصة عندما يدعون لأنفسهم قميصا سربلهم الله به، أو حقا إلهيا مزعوما، وسواء كان ذلك الدعى بابا أم سلطانا أم خليفة أم امبراطوراً.

ومن نكد الدهر أن نعى هذا الخلط، ونظل فيه سادرين، ومن ثم فإن مانسمع ونقرأ من كلام مرسل، لم يستطع أن يفرق بوضوح بين الدين وبين المشتغلين بأمور الدين، وبين الدين وبين الخطاب الدينى، وبين الدين فى ذاته كمقدس سر تقديسه الوحى الإلهى، وبين المفكر الدينى الذى يشرح أو يفسر أو يضيف أو يؤول أو يستخدم ذلك الوحى لمأربه أو لوجه الله.

والمثال الأوضح هنا، أننا نعلم كمسلمين ولانشك لحظة أن الوحى القرآنى هو كلمة الله الواحدة الثابتة، ومع ذلك فإننا وجدنا عبر متغيرات سياسية واجتماعية، من كان يبرر لنا النظام الاشتراكى بالقرآن والسنة والقواعد الفقهية، ثم جاءنا من يبرر الاقتصاد الحر ويكفر الاشتراكية

والاشتراكيين، وبتغيير الأحوال عبر الأيام، وتداولها بزوال نظام اقتصادى اجتماعى وقيام آخر، كنا نجد لدى الخطاب الدينى مشروعية كاملة لمحاربة دول إسرائيل، بينما نجد فى زمن كامب ديفيد كل المبررين يتقدمون بدلائهم السلمية وآرائهم الشرعية، التى تؤكد أنهم ماداموا قد جنحوا للسلم، فعلينا أن نجنح لها ونتوكل على الله «!؟» وفى حرب الخليج وجد نظام صدام من راجال الدين فى مختلف أنحاء بلاد لاإله إلا إله، العدد الكافى لتبرير مواقفه، وعلى الجانب الآخر وجد المتحالفون ضده «من المسلمين تحديدا لأن الأمريكان لم يفعلوها» من يبرر لهم موقفهم تبريرا شرعيا.

وهكذا مع شديد الأسف، نهدر قيمة الوحى، ونتعامل معه «بفهلوة»، تبرر مانريد، وترفض ماالانحب، وتدافع عن ظلم، وتقرر لمواقف شديدة التنافر مصداقيتها الدينية، وهو الأمر الذى يستهين بالوحى الإلهى، ويجعله مطية لكل الأغراض، ويمتهن كلمة الله الصادقة، دون أن يرف له جفن، وهذا هو بالتحديد مانقصده بما جاء به الخطاب الدينى من بدع، ليست من صحيح الدين، ولا من سلامة الضمير ولا الإيمان.

ومن ثم كان لابد من موقف حاسم إزاء مايحدث، موقف يضع الشروط التى تضمن احترام النص، وتمنع استثماره حسب الهوى والغرض، وربما لخدمة أشد الأمور بعداً عن الحق والإنصاف، ومن بين هؤلاء الذين أخذوا هذه المهمة على عاتقهم، المفكر المتميز «نصر حامد أبو زيد»، الذى حدد أساسا لمشروعه العلمى، يتمثل فى أن الدين يجب أن يكون عنصرا أساسيا فى أى مشروع نهوضى، لكنه توطئة لذلك أعطى من عمره الكثير لإيضاح أن الدين ليس هو الخطاب الدينى، والذى يمارس دوره بشكل أيديولوجى نفعى، إنما الدين هو النص الدينى الموحى به بعد تحليله وفهمه فهما علميا صحيحا يمنع عنه أى لبس، ويقف عقبه إزاء محاولات استثماره، وهو ماسينفى فقط مافيه من قوة دافعة نحو التقدم والعدل والحرية.

وقد انتهى الدكتور نصر أبو زيد فى بحوثه إلى عدم وجود خلافات جوهرية بين خطاب المعتدلين وخطاب المتطرفين، فكلا الجانبين النشيطين يعتمد على نفس الآليات التى توحد فكرهم بالدين لاكتساب قداسته، وتفسير جميع الظواهر بإرجاعها إلى مبدأ أول هو الحاكمية الإلهية، بوصفها نقيضا لحاكمية البشر، إضافة إلى سلطة السلف، وتحويل نصوص المجتهدين إلى نصوص شبه مقدسة أو مقدسة، بحسم قطعى يهدر البعد التاريخى للدين تماما، كما يعتمد الخطابان على نفس المنطلقات الفكرية بمبدأ تحكيم النص، الذى عادة مايصبح تحكيما

لتفسير وفهم فئة بعينها للنص على حساب للعقل رفيق الإسلام وأساسه المتين، ثم يقوم ذلك الخطاب بتحريم ماعدا ذلك عن طريق التغطية الأيديولوجية لتوجهاته الرجعية الخادمة للنظم السياسية الدكتاتورية، عن طريق مبدأ «لا اجتهاد مع النص».

وهى خدعة أيديولوجية، لأن معنى النص هو «النص الواضح القاطع الذى لايحتمل إلا معنى واحدا»، والنص بذلك نادر فى الوحى، وتظل سائر الآيات قابلة للاجتهاد والتأويل.

وبهذه التفرقة بين الخطاب وبين الدين، ينزع عمل الدكتور نصر عن الفكر الدينى وخطابه القداسة، ليصبح اجتهادات بشرية لفهم نصوص الدين، بحيث يظل الوحى الإلهى مصانا باحترام حقيقى، وهو مالايسمح باللعب بالآيات وتفسيرها حسب الهوى والمنافع، وإكساب ذلك التفسير قدسية الدين نفسه.

ومن هنا فإن الدكتور نصر، وغيره من أصحاب نفس الاتجاه والغرض، وإن اختلفت الأدوات بين هؤلاء الكوكبة من الباحثين المبرشين بفجر جديد، قد تعرضوا لهجمة شرسة من أصحاب الخطاب الدينى، ارتكنت جميعا إلى التكفير، لحصار أعمالهم وتنفير المواطن منها، وتشكيل رأى مسبق لديه يمنعه من قراءتها، ولكن المأساة الحقيقية أن يتحول الأمر إلى إرهاب حقيقى، فمن الدعوة الصريحة إلى إخراس تلك الأصوات «وهو ماتعرض له كاتب هذه السطور على صفحات الأهرام والنور وغيرهما» إلى الانتقال للفعل داخل قلعة العلم المفترضة «جامعة القاهرة»، حيث تم رفض الأعمال التى قدمها الدكتور أبو زيد، والتى تصل إلى ثلاثة عشر عملا، ولم تشفع له لنيل درجة الاستاذية، أما الأكثر نكاية وإثارة للفزع حقا، هو أن يكون التبرير المدون لذلك الرفض، هو اتهام الرجل بالكفر، بعد تزوير كلامه وتحريفه عن موضعه وسياقه، إضافة إلى التلفيق فى التأويل المتعسف، دون الرأى العلمى المفترض وحده، وهو مافعله تقرير الشيخ عبدالصبور شاهين، رجل بيوت لهف الأموال المشهور، وبالطبع لم يكن غريبا أن يكون كاتب تقرير بهذا السمت والشكل رجل من المستفيدين المتأجرين بخطابهم الدينى، وهو ماعلمناه عنه يقينا فى علاقته بأكثر من فضيحة لم يداريها ولم يندى لها جبينه، فهو أمر مفترض لدى أصحاب الخطاب الدينى النفعى، ومن الطبيعى تماما أن يصاب مثل كاتب التقرير بهذا الهياج الشديد، لكن غير المقبول وغير المفترض وغير المتوقع إطلاقا، أن يكون رجل واحد هذا رأيه، يتمكن بالإرهاب من فرض رأيه واستبعاد رأى جميع أساتذة كلية الآداب وبخاصة قسم اللغة العربية فيما قدموه من تقارير، وهنا الكارثة حقا.

ويبقى التساؤل: هل أصبحت قبة الجامعة، قبة شيخ من ذوى الكرامات ثوى فى قبر مبروك؟! أم قبة كنيسة؟! أم قبة أحد المساجد؟! أم قبة معهد علمى عريض تعرض فى غفلة أو تغافل مقصود، لتسرب الإرهاب إلى حرمه ليعتدى على أقدس حرماته وهى حرية البحث العلمى، وأمانة القرار العلمى؟ الفضيحة عالمية ياسادة ياكرام، ولم تعد مسألة ترقية «أبو زيد» أو حتى فصله «أنا شخصيا أحبذ القرار الأخير، لأنه سيعطى الرجل تفرغا ليأتى ويجلس بجانبى يؤنس ترهبى، كما سيعنى ضراوة أكثر فى معركة يجب أن تحسم اليوم وليس غدا حسما نهائيا، إما حياة الأمة وتقدمها، أو ننفض أيدينا منها ونتحرم على ذكراها» فالقضية أكبر الآن من ترقية أستاذ، إنها منطق الإرهاب والتكفير، واضطهاد الفكر الآخر، وإذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم، فكيف به لو كان مسيحيا؟ فيا أيها المسيحيون المصريون طوبى لكم حقا وصدقا، والحق أقول لكم: إن مصر تتأسس اليوم، وفى هذا الجيل، لقد افتتحت قضية نصر الملحمة، والله المستعان.

ذبح المفكرين على الطريقة الإسلامية(*)

(*) نشر في ٢٦/ ٦/ ١٩٩٥ بمجلة روز اليوسف ـ القاهرة.

«مفكر من أهم مفكرى التنور فى التاريخ المصرى، وعلامة فارقة فى تاريخ الثقافة العربية جميعا»، هذا بالضبط ماقلته فى إحدى ندواتى بعد أن قرأت للرجل بحثا، واحدا، كان منشورا أيامها فى دورية عربية، وبعدها تابعت البحث عن أعمال الرجل، وعن الرجل نفسه، لأكتشف أنه كان بدوره يبحث عنى، عندما أرسل لى - بمدينة الواسطى حيث كنت أقيم - أحد مريديه، ليطلب اللقاء.

وبقدر ماأدهشتنى كتابات هذا الرجل بقدر ماأدهشنى شخصه، تحسبه لشدة تواضعه وهو يستمع للقول إنه يستمع إليه لأول مرة، ثم تكتشف أنه يعلمه فعلا لكن بشكل أفضل، حكى لى عن مرحلة الصبا بشديدة من البراءة والاعتزاز، كيف بدأ عاملا فنيا باللاسلكى، وكيف حمل أعباء الأسرة بعد رحيل عائلها، وكيف كان يعمل نهارا ويدرس ليلا، لكنك لاتجد مهما بحثت أى أثر لتشوهات كان يمكن أن تتركها تلك الرحلة فى نفس أى رجل، كل ماحدث أنه قرر أن يحمل عبء مصر جميعا.

صريح كل الصراحة إلى حد الصدمة، لايقول إلا مايعنيه فعلا، أما المستوى العلمى الرفيع والرصين فى إصداراته السبع، فتشى بصرامة علمية نادرة، تفصح عما يأخذ الرجل به نفسه من شدة، وقسوة عندما يعمل، فعلى مستوى الكتابة، وعلى المستوى الشخصى، لم يساوم ابدا على مبادئه، ولا على مستقبل هذا الوطن.

ذلكم هو نصر حامد أبو زيد.

والقارئ لأعمال نصر أبو زيد يكتشف هم الرجل فى إزالة ومنع الاستخدام النفعى والانتهازى للدين، بدأبه على ربط النص بسببه الموضوعى وسياقه التاريخى، أما الأسلوب فشديد الرصانة، شديد البراءة أيضا، يفضح ببراءته أولئك المنتفعين على مر العصور، ومن هنا استشعر أولئك الخطر الذى يمثله هذا الإنسان، فشنوا عليه حملتهم التى قادها

مستشار بيوت هبش الأموال المعروف عبدالصبور شاهين، لتدعمه بعد ذلك أسماء كثيرة وردت بكشوف البركة، ليأخذ التحالف الأسود مداه ليصل بالرجل إلى المحاكم، حيث يصدر ضده الحكم بتفريقه عن زوجته، بحجة أنه أراد الاجتهاد فى قواعد المواريث، فانكر بذلك معلوما من الدين بالضرورة، والمعنى الضمنى فى هذا الحكم أن الرجل مرتد عن الإسلام، ويصبح من حق أى مسلم مهووس أن يذبحه وهو مطمئن الفؤاد قرير العين، بالنظر إلى العلاقات الواضحة بين الأقطاب، حيث أفتى الشيخ الغزالى فى محاكمة قتلة فرج فودة، بأى أى مسلم يمكنه تنفيذ حدود الله بيديه، وبالمناسبة منحت حكومتنا المباركة هذا الرجل جائزتها التقديرية؟!.

ولو مددنا الخط على استقامته، منذ مقتل الدكتور فرج فودة، مرورا بمحاولة اغتيال نجيب محفوظ، ثم ربطنا ذلك بتراجع العنف الدينى المسلح بعد الصدامات الدموية مع جهاز الشرطة، ومع خسارة ذلك العنف تأييد الشارع المصرى له، حيث بدأ الناس بالتعاون الفعلى مع الشرطة بعد مارأو من جرائم الإرهاب، فإننا سنلحظ فورا نقلة جديدة، تتمثل فى متغيرات مرحلية وتكتيكية، لكسب الجماهير إلى صف الإسلام السياسى، وذلك برفع عدد من قضايا الحسبة ضد مفكرى مصر، وهنا يتم نقل قضية نصر أبو زيد بعد الحكم، مع تهيئة الجماهير لقبول ذلك الذبح الشرعى بحملة واسعة حدثت فعلا فى مساجد معلومة الشأن، دون أن نتمكن من اتهام الإرهاب الدينى المسلح، وسيف هيبة مؤسسة القضاء مرفوع فوق رؤوسنا، ولأن القتل هنا سيكون بتفويض رسمى من مؤسسة الدولة، ومختوما بخاتمها الرسمى.

كل ذلك يشير إلى جودة عالية فى التكتيك، وتوزيع مبرمج بدقة للأدوار، تمكن من الاستفادة من الوسطية الفجة التى تلعبها مؤسسة الحكم، منذ أن قررت أن تكون الدولة دولة مؤسسات شبه ديمقراطية، ثم قررت فى الوقت نفسه أن الدين الرسمى للدولة هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع، فجمعت بين المبدأ الديمقراطى الذى لايعرف عن المواطنين هويتهم الدينية، ولايضع، فى اعتباره إن كان هذا المواطن مسلما، أم مسيحيا، أو حتى بلا دين محدد، وبين أيديولوجيا دينية شمولية، مع التصور الساذج أنه من غير الممكن استخدام هذه النصوص الدستورية عمليا، حيث كان الأمر تجملا من النظام أمام التيار الدينى، وإثباتا لتدين الدولة والتحائها، لتحقيق عناصر ومناخ مناسب للتحالف الذى حدث آنذاك بين نظام السادات وبين الإسلاميين.

ولاشك لدينا أن السيد القاضى المبجل، الذى أصدر الحكم، كان متسقا

تماما مع القاعدة التشريعية التى سوغت له أن يحكم بما حكم، فتحت يديه باب للجحيم يمكنه أن يفتحه ويستخدمه وقتما شاء، قد وضعته له حكومتنا الغراء، كما أن سيادته كان متسقا تماما مع منظومته الدينية والفكرية، فالرجل كما رنا إلى علمنا من المتشددين فى أمور الدين، لذلك فقد أصدر الحكم الذى ارتاح إليه ضميره وعقيدته، التى هى بهذا المنطق أساس ومقياس كل الأحكام.

لكن هذا كله لايعنى تبرئة السيد القاضى المبجل من الخطأ، فجل من لايخطىء، نقول هذا ونحن نعلم معنى هيبة القضاء ومؤسسته، كما نعلم جيدا ماقد يجره هذا الكلام علينا نحن بالذات، لكن المسألة لم تعد تحتمل ترددا أو وسطية أو تمييعا للمواقف، نعم مؤكد لدينا أن الحكم بقياسة على عقيدة القاضى ونص الدستور صحيح تماما، وهو الأمر الذى يجب أن يحيل الجميع الآن إلى مناقشة القاعدة الدستورية والتشريعية نفسها، التى سوغت له إصدار حكمه، أما الخطأ الذى نقصده فهو قيام الحكم على حيثية اتخذت موقفها من اجتهاد نصر أبو زيد فى مسألة المواريث، وهو ماشرحه الدكتور محمد البرى، لافض فوه، أن اجتهاد نصر هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، والخطير هنا هو أن القاضى المبجل قد **أصدر حكمه بناء على فهمه هو لما كتب نصر** أبو زيد، بينما هناك كثير من مفكرى هذا البلد، قد قرأوا أعمال الرجل، ولم يفهموا منها مافهم السيد القاضى، وهنا جوهر الأمر. حيث يتم تحكيم الدين فى رقاب العباد، بينما النص الدينى نفسه قابل لتعدد الفهم حوله بتعدد القراءات واختلاف الثقافات، كما أن أى نص آخر يحمل نفس المشكلة فى تعدد ألوان الفهم حوله، ومن ثم يصبح الخطأ هنا - خاصة إذا كان الخطأ قاتلا - هو فى فهم ماكتب نصر أبو زيد، يلتبس بخطأ آخر يتأسس على الانحياز لفهم دون فهم آخر لنصوص الدين، وهو بدوره ماينبنى على اعتبار تلك النصوص نصوصا جامدة ثابتة لاتقبل المناقشة، ويلحق بذلك النتائج هى أن أى محاولة لتحديثها أو تأويلها، أو حتى مجرد تحريكها، يعنى الكفران المبين.

وقد أخذ فهم نصوص القرآن الكريم أحد طريقين، ظلا طوال التاريخ الإسلامى فى حالة مد وجزر، أى أنه استغرق من التاريخ زمنا يتجادل مع أحداث الواقع ومستجداته ويتفاعل معها ويجيب على ماتطرحه من إشكاليات دائمة التغير، وخلال ذلك نسخت آيات آيات أخرى، ونسيت آيات، ورفعت آيات واستبدلت ايات بآيات نقيضة، وهو مايعنى أن للوحى عمرا هو جزء من التاريخ، وهو مايعنى تاريخية النص القرآنى التى لايجادل فيما إلا مكابر أو صاحب مصلحة، وكانت هذه التاريخية واضحة تماما فى أذهان المسلمين الأوائل.

وفهم تاريخية النص الدينى، وربط الآيات بأسبابها، لاشك يوقف الاستخدام النفعى والانتهازى والمصلحى والارتزاقى للدين، فحيث أن عملية جمع القرآن زمن الخليفة عثمان، قد جمعت الناسخ إلى جوار المنسوخ، فقد دفع ذلك أكثر الصحابة علما وفقها إلى التنبيه على تلك التاريخية طوال الوقت، وهو مايمثله قول على بن أبى طالب **لأحد القضاة** وهو يحكم بين الناس: «هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟» فقال: لا فقال على: «إذن فقد هلكت وأهلكت».

وفى عصور التخلف، واستخدام الدين لخدمة توجهات أصحاب السلطان، تم وضع قاعدة فقهية تقول: إن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب، وهو مايفتح الباب على مصراعيه أمام الاستخدام الانتهازى الصريح لنصوص الدين، ومن أمثلة ذلك الاستخدامات القريبة مامر فى تاريخنا المعاصر، من تبرير رجال الدين لتوجهات الحكومات على تناقضها التام.

وهكذا وجد القائمون على شئون الدين بناء على تلك القاعدة الفقهية، مكاسب دائمة، تبرر للسلاطين عبر العصور آراءهم واتجاهاتهم بل ونزواتهم، بالدين ونصوصه تأسيسا على إنكار تاريخية الوحى والقول بثباته الأزلى فى لوح محفوظ للعمل بالناسخ وقت الحاجة، وللعمل بالمنسوخ عند تغيير الحاجة، حسب التوجهات المطلوبة والانتهازية.

والقول بأزلية النص إنما يجافى العقل والمنطق والنص نفسه، حيث يحوى النص أحداثا وقعت إبان حياة الرسول لايمكن فهمها إلا فى ضوء تاريخية النص، ولايمكن فهم الآيات المتعلقة بها إلا بربطها بتلك الأحداث الحادثة وليست الأزلية أو القديمة، وهى تتعدد بتعدد آيات القرآن الكريم نفسه، وإلا كيف نفهم نصا أزليا قديما يحدثنا عن واقعة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش ليحل إشكاليتها؟! أو كيف نفهم فى ظل الأزلية النص الذى يحدثنا عن أولئك الذين نادوا النبى من وراء الحجرات، أو كيف نفهم سماع الله لتلك المرأة التى جاءت إلى النبى تجادله.. الخ، والنماذج أكثر من تحصى.

من هنا وتأسيسا على كل ذلك جاءت أعمال كوكبة المفكرين المحدثين فى مصر، لوقف إهدار الوطن وكرامة المواطن طوال الوقت بهذا الاستخدام النفعى للدين، وحتى لانظل على حافة التناقض دوما، وعلى رأس تلك الأعمال كانت كتابات نصر أبو زيد الرائدة، التى اقضت مضجع هؤلاء المنتفعين، ودفعتهم إلى تلك الحملة المسعورة، ضمن تكتيكهم الجديد المرحلى.

وغير خاف على أى مدقق، أن استمرار التعامل مع النصوص باعتبارها كتلة واحدة غير مرتبطة بأحداث ومتغيرات واقع الزمن النبوى، مع تعلقيقها فى فضاء لايرتبط بواقع تلك الأحداث، أدى إلى تناقض شديد إلى درجة «الشيزوفرينيا» فى فكر الإنسان المسلم، كناتج ضرورى للتضارب بين الناسخ والمنسوخ، والإيمان بالعمل بأحكام كليهما، وأبرز مثال عليه ذلك التضارب بين آيات الصفح والصبر الجميل وبين آية السيف التى أجمع الفقهاء على نسخها لآيات الصفح، وهو تناقض شكلى بالطبع وليس موضوعيا، لأن لكل منهما كانت له ظروف واقعية تلتحم به وتبرره، بالتالى، وعملا بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب، انطبع سلوكنا بالنفعية والانتهازية، حيث يمكنك أن تجد مبررا دينيا دائما لما تريد، وبحيث أصبحت الآيات القرآنية والأحاديث حججا دائمة حتى فى خصوماتنا الشخصية أو تعاملاتنا المجتمعية أو الاقتصادية، وكل منا على طرفى الخصومة يجد فيها مؤيدا له.

ومن ثم تناقضنا مع أنفسنا، ومع تاريخنا، ومع الآخر، ومع العالم، ومع مفهومنا عن الوطن، بل عن الدين ذاته، فلم نستطع طوال ذلك التاريخ أن نضع رؤية واضحة متسقة لأنفسنا أمام أنفسنا أو أمام العالم، وهو ماترك بصمته الواضحة لدى الأحزاب الدينية، التى لم تتمكن حتى الآن من وضع برنامج واضح المعالم لها.

ولو حاولنا القياس على المحاكمة التى تمت وانتهت بقرار تفريق نصر أبو زيد عن زوجته، لوجب إجراء محاكمات مثيلة لشخصيات كبرى فى تاريخ الإسلام تصل بعضها إلى درجة القدسية، مع تفاوت تلك الدرجة لدى المذاهب الإسلامية، فلدينا نماذج مثل الخليفة عمر بن الخطاب، الذى ارتكب بهذه المعانى مالم يسبقه إليه أحد، ومالم يلحقه إليه أحد، فقد أوقف العمل بحد السرقة عام الرمادة، ثم نهى عن متعة حلال، فخالف بذلك نص القرآن «ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم» (٨٧/ المائدة)، وذلك عندما وقف على المنبر النبوى وقال: «متعتان كانتا على عهد رسول الله، وأنا أهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء».

لن أناقش هنا مسألة الردة، وهل هى حد من الحدود المقررة فى الإسلام من عدمه، فقد تعرض لها أساتذة أكفاء وفندوها تفنيدا محكما، لكنى أسلك هنا سبيلا آخر أراه سبيل الإنسانية الحرة.

فنحن يمكننا أن نفهم الظروف التى أدت إلى حروب الردة زمن أبى

بكر، ويمكننا أن نتفهم اغتيال المعارضين زمن النبى، وذلك بالنظر إلى ظروف الزمن آنذاك، حيث كانت دولة العرب الإسلامية، فى طور النشأة والتكوين، وكان إسلام الفرد آنذاك تعاقدا بشروط، حيث يعرض عليه الإسلام، وهو رجل بالغ عاقل راشد، ليختار بملء إرادته وحريته، ويدرك مقدما النتائج المترتبة على إخلاله بذلك العقد، كما يمكننا أن نفهم سبب شدة العقاب للمعترض والمرتد آنذاك، حيث كان إنشاء دولة من عدم، ومن قبائل متفرقة متصارعة، مع مايعنيه ارتداد فردا بارتداد قبيلته جميعا، ومايؤدى إليه ذلك من تفكيك عرى الدولة وتوحدها، لذلك تمت التضحية بأرواح كثيرة عند قيام الدولة لأنها كانت تنهض فى وسط معاد لها تماما، لذلك كانت مضطرة، أن تكون دولة عسكرية شديدة المراس طوال الوقت.

نعم يمكننا أن نفهم ذلك ونعيه جيدا، لكننا هنا فى مصر وعلى مشارف القرن الحادى والعشرين، ومصر كانت دولة مركزية وأمة متكاملة قبل أن تعرف الإسلام بألوف االسنين، فما حكم المسلم هنا اليوم حيث يولد مسلما بحكم ميلاده فى أسرة مسلمة؟ فلا هو اختار الإسلام عن دراية وإرادة ودرس واقتناع، ولاهو دخل فى ذلك العقد عن بيئة واضحة نافية للجهالة، أفئن حاول من بعد أن يطمئن إلى طوية فؤاده، أو أن يناقش أمرا من أمور الدين ويجتهد فيه يحكم عليه بأنه مرتد؟ هكذا بكل بساطة؟!.

هل نحن كون بذاته؟ أم نحن أبناء هذا العالم؟ لقد كافحت البشرية وناضلت، وقدمت ملايين الضحايا على مذبح كرامة الإنسان وحقوقه، حتى تمكنت من إرساء تلك القواعد الحقوقية، وأهمها حق حرية الاعتقاد، وحرية التفكير، وحرية القول، وحتى استطاعت أن تقيم الدولة المدنية الديمقراطية، ونحن هنا لانجرؤ على حرية الاعتقاد، فقط ربما حاولنا حرية الاجتهاد، وعندها تصدر ضدنا أحكام القتل، إما من أمير جماعة مأفون، أو من محكمة تابعة للدولة لأن حكومتنا الرشيدة لم تع بعد التعارض الهائل بين مواد الدستور وبعضها، لم تع أن حقوق المواطن فى دولة مدنية دستورية مؤسساتية، تتعارض بل وتتضارب تضاربا صارخا مع البنود الأخرى فى الدستور، وربما كانت قضية أبو زيد الآن هى الضارة النافعة، ومن ثم أرفع صوتى هنا وأطلب من كل شرفاء مصر أن يضموا أصواتهم إلى صوتى، للعمل على إعادة النظر فى القواعد التى يمكن أن تسوغ للبعض إهدار أبسط حقوق الإنسان، حتى لو كانت تلك القواعد لإيجاد توازنات وسطية يتحل بها الحكومة مشاكلها مع المعارضة الدينية، أو لرشوة تيار شعبى غير رشيد، فإما أن نقيم دولة مدنية حقا، أو لتخبرونا بوضوح أنكم مستريحون لوضعنا المزرى هذا خارج التاريخ.

منذ فجر التاريخ والحج فريضة دينية (*)

(*) من أوائل موضوعات الكتاب الاختبارية، نشر بالعدد «١٢، ١٣» من مجلة الكويت، الكويت.

«الدائرة هى أكمل الأشكال».. هذا ما أعلنه «فيثاغورس» فى القرن الرابع قبل الميلاد.. وقبله بحوالى نصف قرن كان الفيلسوف «طاليس» يؤكد أن الأرض مستديرة كالقرص تماما، وتوصل «أنسكمندريس» إلى أنها معلقة فى الفضاء.

ووسع «بارمنيدس» النظرية، فقال أن الكون كله، ليس إلا كرة تامة الاستدارة، ولم يأت عام ٣٥٠ قبل الميلاد، حتى كان «دييمقراطيس، قد عمم النظرية على الكون كله، حين انتهى إلى أن الكون كله، يتركب من جسيمات مادية كروية الشكل متناهية فى الدقة والصغر، هى الذرة[1].

والعلم الحديث يؤكد أن الكون كله من أكبر أجرامه إلى أدناها، يعتمد الكروية فى تشكيله، والأهليجية فى حركته «الأهليجية هى الطواف دائريا على منحنى بيضاوى»، فالأرض مثلها، مثل بقية كواكب المجموعة الشمسية، كرة تطوف مصطحبة معها كواكبها بنفس الطريقة، حول مركز مجرتها «التبانة»، والمجرات بالملايين والنجوم بالبلايين، وكلها كروية فى تشكيلها، ذات طواف أهليجى فى حركتها، وينطبق هذا حتى على أدق الأجسام الكونية، فالذرة مجموعة شمسية مصغر، إذ هى عبارة عن ألكترونات كروية تطوف إهليجيا حول مركز كروى هو نواة الذرة.

والغريب أن الإنسان - منذ فجر التاريخ - عندما كان يريد إثبات خضوعه لناموس الكون، كان يضع نقطة اعتبارية يقدسها ويطوف حولها، كطواف الكواكب حول الشمس أو الالكترونات حول الذرة، كما لو كانت الكروية أو الاستدارة ناموسا قدسيا إلى جانب كونها ناموسا علميا.

ولما كانت المكتشفات الفلكية القديمة «فى الرافدين»، قد توقفت عند سبعة كواكب تدور حول الشمس، فيبدو أن ذلك سوغ للإنسان القديم أن يضع لطوافه حول بيوت الآلهة المقدسة وحدة قياسية مقدسة تتكون من سبعة أشواط، مع الأخذ فى الحسبان أن هذه الكواكب السبعة كانت آلهة فى نظره.

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، ص١٢.

ومنذ بداية التاريخ المصرى القديم، اتخذت مدينة «أبيدوس» مكانة قدسية لاتبارى، فقد اعتقد القوم هناك أن رأس الشهيد «أوزيريس» مدفون فيها، ومع بداية العصر المتوسط الأول، أصبحت زيارة البيت المقدس فى «أبيدوس» والطواف حوله سبعة أشواط، حجا وفريضة اجبارية على كل مؤمن بأوزيريس، فى حين أمست السنة المستحبة هى الدفن بجوار حبيبهم، الشهيد، باعتبار جواره وحماه، أقدس وأطهر مكان على الأرض، بل هو فى اعتقادهم مركز الكون، حتى أطلق الكهان على مدفن أوزيريس «أباتون» أى الحرم، لأن الغناء أو الطبل أو الصيد، أو حتى مجرد الجهر بالصوت كانت محرمة فى «أبيدوس».

وحتى اليوم، لم يزل العامة حول المنطقة ولمسافات بعيدة، يقصدون آبار المياه المقدسة فى أبيدوس للإخصاب والاستشفاء، دون علم بأصل هذه القدسية الحقيقى، فالمسيحيون يقصدونها معتقدين أنها قبر قديس من أباء الكنيسة الأوائل، ويقصدها المسلون واضعين فى حسبانهم أن هذا القبر مقام ولى من الصالحين[٢].

وفى بلاد الرافدين تبنت الدول السامية حضارة سومر، وخلال الحضارات التى توالت هناك من «أكد» إلى «بابل» إلى «آشور» إلى «كلديا»، كان المصطلح السومرى «إيلو» أو «أيل» هو اسم العلم المطلق الدال على الإله المعبود[٣]، فكانت «أيل» تطلق على أى رب من الأرباب[٤] الذين يربو عددهم على ثلاثة آلاف.

لكن اللسان السامى، أبدل الكلمة السومرية (BIT) بمعنى المعبد، بمقابلها السامى بيت[٥] وأضافها إلى «أيل» لتصبح «بيت أيل» أى بيت الله، للتدليل على معبد الإله، الذى كان يأخذ عادة شكل الزاقورة وهى شىء أشبه بالمئذنة، «منارة سجد» يدور حولها سلم صاعد فى شكل دائرى، وعلى قمتها كانوا يضعون شكلا هلاليا، رمزا للإله «سين» إله القمر، وهو نفس الإله الذى عبده عرب الجنوب تحت اسم «ياسين»، كما كان الهلال أيضا رمزا للآلهة «عشتروت» كوكب الزهرة، وكانت بيوت الألهة الرافدية تنتشر بطول البلاد وعرضها، لكن مراكز العبادة الكبرى كانت فى المدن، واعتبرت محجات للمؤمنين، خاصة بالإلهين: «سين» و«عشتروت».

---

(٢) ديانة مصري القديمة، دول أرمان، ص٤٢٠ : ٤٢٢. انظر أيضا: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة أدولف أرمان وهرمانن رانكة، ص٢٩٠.

(٣)«أبيدوس» د. عبدالحميد زايد، ص٢١ «بالإنجليزية».

(٤) الساميون ولغاتهم، د. حسن ظاظا، ص٢٨.

(٥) الديانة عند البابليين، جان بوتيروا، ص٩٤، ١٢٤.

وفى كنعان انتشرت بيوت الآلهة، مثل «بيت شماس» و«بيت إناث» و«بيت لحم» «وبيت يراه»، ويقول رينيه ديسو[٦]: أن هذه البيوت قد اتخذت شكل البناء المكعب، فسمى اللسان الكنعانى بيت المعبود «كعبو»، وأوجب كل معبود على أتباعه الحج إلى بيته والطواف حوله سبعا، ولعل أهم هذه البيوت، ذلك البيت الذى أقامته القبيلة الإبراهيمية بعد هجرتها من مدينة «أور» الرافدية إلى أرض فلسطين، والذى حمل اسم «بيت إيل»، كما يقول الكتاب المقدس.. حيث ظل «إيل» هو المعبود للشعب العبرى منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى ظهور النبى موسى عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد «د. جواد على» أن الطواف حول مركز قدسى كان معروفا لدى قدماء الفرس والهنود والبوذيين والرومان، كذلك نجد فى المزامير بالكتاب اليهودى المقدس «أغسل يدى فى النقاوة فأطوف بمذبحك يارب - الأصحاح ٢٦»، وهو دليل واضح على وجود الطواف عند اليهود، وفى ثنايا حديثه عن الحج، يقول «د. جواد»: أقصد بالحج الذهاب إلى الأماكن المقدسة فى أزمنة موقوتة للتقرب إلى آلهة وإلى صاحب ذلك الموضع المقدس، وتقابل هذه الكلمة العربية كلمة Pilgrimage فى الإنجليزية، والحج بهذا المعنى معروف فى جميع الأديان تقريبا، وهو من الشعائر الدينية عند الساميين، وكلمة حج من الكلمات السامية الأصل الأصيلة العتيقة، من أصل ح ك HG ح ج وهى حك.

وفى العبرانية، وقد وردت فى كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بنى سام، ووقع فى روع الشعوب السامية القديمة أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها.. ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شد الرحال إليها للتبرك بها والتقرب إليها، وذلك فى أوقات تحدد وتثبت، وفى أيام تعين تكون أياما حراما، لكونها أياما دينية ينصرف فيها الإنسان إلى التفكير فى آلهته.. وتكون هذه المواضع التى تستقر فيها الآلهة بيوتا لها، ولذلك قيل فى الأزمنة القديمة «بيوت الآلهة»، وقد بقى هذا الاصطلاح حيا حتى الآن يطلق على المعابد، فالمعبد هو بيت الله فى أغلب لغات العالم المعروفة فى الزمن الحاضر»[٧].

محجات الجاهلين

أشارت النصوص السريانية واليونانية واللاتينية القديمة إلى وجود الحج عند العرب قبل الإسلام، غير أنها لم تشر إلى وجود بيت واحد كان

(٦) العرب في سوريا قبل الإسلام، رينيه ديسو، ص١٢٠.

(٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ج٥، ص٢٢٣، ٢٤١، ٢١٥.

يحج إليه العرب جميعا[٨]، ويقول «الهمدانى» أن العرب كانت لهم محجات متعددة منها بيت اللات وكعبة نجران وكعبة شداد الأيادى وكعبة غطفان[٩]، ويذكر ابن الكلبى بيوتا أخرى كبيت ثقيف[١٠]، ويشير «الزبيدى» إلى بيت ذى الخلصة الذى كان يدعى الكعبة اليمانية[١١]، ويضيف «د. جواد» بيوتا أخرى مثل «كعبة ذى الشرى» وكان حجها يوم ٢٥ كانون الأول من كل عام، و«كعبة ذى غابة» الذى لقبه عباده بـ «قدست» أى «القدس»، كذلك كان لآلهه الصفويين «اللات وديان وصالح ورضا ورحيم» محجاتها، كما كانوا يحجون إلى الكعبة المكية و«بيت اللات» فى الطائف و«بيت العزى» قرب عرفات و«بيت مناة»، وغيرها كثيرا، وكان الحج معتادا فى شهر ذى الحجة، وكان الطواف الجاهلى حول البيت الذى يعظمه سبعة أشواط[١٢].

ويبدو أن تقديس بيوت الآلهة تلك، يرجع إلى اعتقاد الجاهلى فى إله يسكن فوق سطح السماء، وبالتالى فقد يقدس أى جسم فضائى «كالنجوم وبقايا النيازك والشهب المتهاوية إلى الأرض» لتصوره أنه إنما سقط من البيت الإلهى الذى فى السماء، وكذلك كان يعتبر هذا الحج رمزا لآلهة، فيجعله مركزا قدسيا يبنى حوله بيتها يطوف به تبركا، معتقدا أن هذا البيت يقع تماما تحت البيت الإلهى، باعتبار أن حجره المقدس يقع تماما تحت المكان الذى سقط منه، وأضاف الجاهليون إلى الأحجار النيزكية الأحجار البركانية لتكون محل تقديس، لأنهم خالوها ساقطة من السماء[١٣] ربما لسوادها نتيجة انصهارها، مما يجعلها شبيهة بالأحجار النيزكية التى صهرتها حرارة الاحتكاك بالغلاف الغازى قبل سقوطها على الأرض.

ومثال لهذه الأحجار السوداء، معبود النبطيين، وهو حجر أسود يرمز للشمس[١٤]، والآلهة مناة عبدها الهذليون ممثلة فى حجر أسود[١٥]، كذلك كان «ذو الشرى» حجرا أسودا[١٦]، وقد تصور الجاهليون أن حجر الكعبة المكية الأسود ومقام ابراهيم مثل بقية أحجارهم المقدسة، حتى اعتقدوا.

(٨) نفس المرجع، ص٢١٧.
(٩) الإكليل، ج٨، ص٨٤.
(١٠) كتاب الأصنام، ص١٦.
(١١) تاج العروس، ج٢، ص٢٧١.
(١٢)المفصل، ج٥، ص ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.
(١٣) أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، محمد حسني عبدالحميد، ص ٩٨.
(١٤) مضمون الأسطورة في الفكر العربي، د.خليل أحمد، ص٤٢.
(١٥) في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم.
(١٦) نفسه: ص٦٠، ٦١.

كما يقول المسعودى - أن البيت المكى من البيوت التى خططت لعبادة الكواكب السيارة السبعة[١٧] ولكن للبيت المكى وحجره الأسود قصة أخرى، كما سنرى حين نتطرق إلى الحج فى الإسلام، ولكن قبل ذلك ينبغى الوقوف مع البيت المكى فى العصر القرشى، نستقرىء التاريخ اعتقادات الجاهليين حوله.

الكعبة المكية

يتفق الباحثون على أن الجغرافى «بطليموس» يعد أقدم من أشار إلى مكة وأوردها الأسم «مكربا»، ومن سرده يمكن استنتاج أنها كانت بلدة عامرة فى القرن الثانى للميلاد، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها يجب أن تكون موجودة قبل هذا التاريخ بكثير[١٨].

ويعتقد Dr.Snouck Hmrgruje أن نبع «زمزم» فى واد غير ذى زرع، هو السبب فى نشوء هذا المركز المقدس[١٩]، وقد قدم مفتى الديار المصرى «حسنين مخلوف» كتابا للسيد «محمد حسنى عبدالحميد»، عنوانه «أبو الأنبياء» نقل فيه مؤلفه عن «جرجى زيدان» أن الأصل فى اسم «مكة» هو لفظ «بكة» أو «بك» السامية الأصل، مع الأخذ فى الاعتبار تسمية القرآن لمكة بالأسم «بكة: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى **ببكة** مباركا وهدى للعالمين﴾، ومعلوم أن اللغة العربية فيها إبدال الباء ميما والعكس، ويمثل المؤلف لذلك بمعبد «بعلبك» فى لبنان، مشيرا إلى أن الإسم «بعلبك» مركب من مقطعين، «بعل» وهو اسم صنم يمثل معبودا كنعانيا قديما ولايزال قائما فى المعبد إلى اليوم، و«بك» أى بيت، وقد أطلق على المدينة التى فيها بيت البعل «بعل بك - بعلبك» كما هو الواقع بمكة[٢٠]، ويشير «د. خليل أحمد» إلى أن الأسم «بك» ربما كان بابليا أو آشوريا[٢١]، «ولاحظ أن كبير أرباب الكعبة قبل الإسلام كان هبل وهو من أصل كنعانى، إذ تحكى كتب التاريخ الإسلامى أن عمرو بن لحى الخزاعى قد أحضر تمثاله من البلقاء فى الشام، والأسم هبل هو فى الأصل هبعل والهاء أداة تعريف بينما أهملت العين بالتخفيف مع مرور الزمن».

ويذهب بعض الباحثين مذهبا آخرا، واستنادا لرواية «ابن طيفور

---

(١٧) مروج الذهب؛ ج٤، ص٤٧.

(١٨) في طريق الميثولوجيا، ص١٢٥.

(١٩) نفس الموضع.

(٢٠) أبو الأنبياء، ص٩٢، ٩٤.

(٢١) مضمون الأسطورة، ص٦٨.

المصرى» و«القيروانى» القائلة أن أهل حمير كانوا يقلبون القاف كافا، بزعم هؤلاء أن أصل الكلمة «مكة» هو «مقة»، وكان «مقة» اسما للإله السبئى المعروف فى التاريخ العقائدى بأل «مقة» ومن هؤلاء الباحثة اليمنية «ثريا منقوش» التى اهتمت بدرسة الإله اليمنى «مقة» منذ بدء ظهوره حتى تحوله إلى إله قومى، وانتشار عبادته بعد انهيار مركز اليمن التجارى بانهيار سد مأرب وتشتت القبائل اليمنية فى أرض الحجاز، واستقرار أكبرها «خزاعة» فى المنطقة التى أصبحت تعرف بإسم «مكة»[٢٢]، وتزعم الباحثة أن كثيرا من عادات الحج إلى البيت المكى فى الجاهلية، كانت على غرار التقاليد اليمنية القديمة فى تأدية فروض العبادة والحج للإله الـ «مقة»[٢٣].

وتدعم الباحثة وجهة نظرها بقولها: «وقد أدرك الرسول «ﷺ» علاقة مكة بأهل اليمن بما توافر لديه من معلومات تاريخية عن العلاقة بين مكة وأهلها، واليمن وقبائلها وعقائدها، فورد على لسانه وهو بالمدينة: ماهنا يمن وماهنا شام، **فمكة من اليمن**، وقوله «ﷺ»: أتاكم أهل اليمن وهم أرق قلوبا، الفقه يمان **والدين يمان»**، ويأتى موقع مكة من السهل التهامى ليؤكد ارتباطها باليمن، أى أهل تهامة، لأن مكة يمن، وهذا هو أصل قوله: «الإيمان يمان، والحكمة يمانية»[٢٤].

ونضيف إلى هؤلاء الباحثين احتمالات أشد بساطة، مثل أن تكون «مكريا» تعنى رب البيت لو أخذنا بأن «بك» تعنى البيت و«رابا» واضح أنها من «رب» فى اللسان العربى، أو مثل أن تكون «مكريا» من «قربان» وجمعها قرابين، وهى من أصل «قرب» وقد استعملت وخصصت بهذا المعنى لأنها تقرب إلى المعبود، وهى معروفة بهذه التسمية Corban فى الآرامية والعبرانية وتعتبر من الاصطلاحات ذات الأصل السامى الواحد فى القديم، فتكون «مكريا» بهذا المعنى مكان التقرب إلى الله أو «المقربة» إلى الله.

الحج فى الجاهلية

وغنى عن الذكر أن «مكة» بعد أن تحولت إلى أكبر مركز تجارى فى شبه الجزيرة وذلك بعد تحول طرق التجارة من اليمن إليها، استقطب

(٢٢) في طريق الميثولوجيا، ص٤٩.

(٢٣) التوحيد يمان، ص٨٢: ٨٩.

(٢٤) نفس المرجع: ص٨٧.

بيتها المقدس تعظيم غالبية العرب، ورغم أن العرب ـ بدوا وحضرا ـ كانوا يعظمون التماثيل التى وضعوها بفناء الكعبة لتمثل الأرباب، فإنهم كانوا يعتبرون للكعبة إلها أكبر وأعظم من هذه التماثيل، ولعظمته وسموه فقد تصوروا عدم إمكانية الاتصال المباشر بينه وبيين العبد الخاطىء فوضعوا بينهم وبينه وسائط وشفعاء، هى تماثيل لقوم صالحين صنعوها لهم بعد موتهم، ثم صارت تنعت بالأرباب أى السادة.

ويؤكد القرآن الكريم حقيقة إقرار الجاهلين بإله أعظم للكعبة أسموه «الله» فقط، فى حين كان لأربابهم مسميات أعلام أخرى مختلفة مثل «هبل» و«اللات» و«العزى» و«مناة» فيقول: ﴿لئن سألتهم من خلقهم، ليقولن الله...﴾ «الزخرف».

﴿لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم..﴾ «٩ الزخرف».

﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله، قل أفلا تتقون﴾ «٨٦، ٨٧ المؤمنون».

وتحدثنا كتب التاريخ الإسلامى أن الجاهليين اعتقدوا فى قصة تعيد نشأة الكعبة إلى زمن موغل فى القدم، وتقول هذه القصة أن هبوط آدم إلى الأرض كان فى «سرنديب» من أرض الهند، وظل يهيم فى الأرض حتى وافى «حواء» وعرفها فى جبل «عرفات». ثم أخذها إلى أرض مكة وهناك توسل إلى ربه ليأذن له فى بناء بيت يطوف حوله، كما كان يفعل مع الملائكة حول بيت الله الذى فى السماء، فأنزل له الله على أجنحة الملائكة بيتا من النور مثل البيت الإلهى الذى فى السماء تماما، فوضعوه على الأرض تحت موقع بيت السماء مباشرة، وبموت آدم رفع بيت النور، فقام ولده «شيث» بتخطيط مكان النور، ثم أقام عليه بيتا من حجر الأرض وطينها، لكن البيت خرب بطوفان نوح، وامتد الزمان حتى انتهت النبوة إلى إبراهيم، حيث حمل هاجر واسماعيل إلى هذا الموضوع، ثم عاد إليهما بعد بضع سنين، وهناك أخذ ولده اسماعيل فرفعا القواعد من البيت.

ويقول «الشهر ستانى» إن الجاهليين «كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون.. ويطوفون بالبيت سبعا، ويمسحون بالحجر ويسعون بين الصفا والمروة، وكانوا يلبون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته فى قوله: إلا شريك لك، تملكه وما ملك، ويقفون المواقف كلها.. وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ويحرمون الأشهر الحرم، فلا يغزون ولايقاتلون فيها، إلا طي وخثعم وبعض بنى الحارث بن

كعب كانوا لايحجون ولا يعتمرون ولايحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام»(٢٥).

ويقول د. جواد على: «وقد كان الجاهليون يطوفون بالصفا والمروة وعليهما صنمان يمسحونهما.. سبعة أشواط، كما كانوا يقيمون الأضاحى ويقصون شعورهم هناك، ولم يحرم الإسلام الطواف بالموضوعين»، وأن الرجم «كان معروفا عند الجاهلين، وهو معروف عند العبريين، وقد أشير إلى ذلك التوراة، وهو معروف عند بنى أرم وكلمة «ر ج م» من الكلمات السامية القديمة.. ويلحق بالرجم تقديم العتائر: الضحية فى الإسلام، وكانت تذبح عند الأصنام، والعمرة هى بمثابة الحج الأصغر فى الإسلام،وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها فى شهر رجب، ومن الأشهر الحرم فى الجاهلية، وينقل «د. جواد» عن «فلهوزن» ومجموعة مستشرقين، أن الحجر الأسود كان فوق أصنام الكعبة منزلة، وأن قدسية البيت عند الجاهليين لم تكن بسبب الأصنام، بل كانت بسبب هذا الحجر الذى قدس لذاته وجلب القدسية للبيت، وأنه ربما كان شهاب نيزك أو جزءا من معبود مقدس قديم، وأن البيت كان إطار للحجر الأسود أهم معبودات قريش، لكنه لم يكن معبودها الوحيد(٢٦).

مكانه الكعبة فى الجاهلية

وبفيض الشعر بتعظيم البيت وشعائر الحج إليه وبالله صاحب البيت، وثقتهم به، وتبرز هذه الثقة واضحة إبان غزو «أبرهة» وجيش الحبش للكعبة فى عام الفيل، فى شعرعبدالمطلب بن هاشم القائل:

لاهم إن العبد يمـــــ ـــنع حلة فامنع حلالك
لايغلبن صليبهم ومحا لهم غدرا محالـــــك
إن كنت تاركهم وقبـــ لتنا فأمر مابدأ لـــك(٢٧)

وفى رده على أبرهة الحبشى عندما تعجب من طلبه «رد على إبلى» قال: «إن للكعبة رب يحميها».

ويقول ابن هشام عن عام الفيل «.. إن أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام»، ويبدو أن تفشى الحصبة والجدرى بين جنود الحبش لم يكن فى اعتقاد الجاهلى سببا كافيا لتراجعهم، لذلك أرجع السبب الحقيقى إلى رب الكعبة،وهذا إنما يبرز ثقتهم فى إلههم ثقة كاملة،

(٢٥) الملل، ج٢، ص٢٤٧.
(٢٦) المفصل، ج٥، ص٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٢٢.
(٢٧) الملل، ج٢، ص٢٣٩، وسيرة ابن هشام، ج١، ص٤٥.

تلك الثقة التى تجلت فى الاعتقاد بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوى فريد من نوعه، فقد أرسل الله على جيش الجيش طيورا ترميه بالأحجار ليرسل «رؤبة بن الحجاج» رجزه قائلا:

ومسهم مامس أصحاب الفيل ترميهم حجارة من سجيل
ولعبت بهم طير أبابيل فصيروا مثل عصف مأكول

ويشهد «نفيل بن حبيب» على صدق ماحدث بقوله:

حمدت الله إذ أبصرت طيرا وخفت حجارة تلقى علينا

ويفخر «عبدالله بن الزيعرى» بمكة قائلا:

تكنوا عن بطن مكة، إنها كانت قديما لايرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليلى حرمت إذا لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها مارأى ولسوف ينبى الجاهلين عليهما
ستون ألفا لم يثوبوا أرضهم ولم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم والله من فوق العباد يقيمها

وتتجلى العقيدة الجاهلية فى رب البيت بصورة واضحة فى شعر «أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى» القائل:

إن آيات ربنا ثاقبات لايمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
حبش الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور
خلفوه ثم ابتعدوا جميعا كلهم عظم ساقه مكسور

ويرتفع البيت بقدسيته ويتعالى، فى خطاب «عبدالله بن صفوان» لقومه، عندما كانوا يعيدون بناء البيت قبل البعثة بسنوات خمس: «لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا تدخلوا فيها مهر بغى ولابيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس».

ويقسم زهير بن أبى سلمى:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش، وجرهم

بتقديس البيت كانت نصائح الأم لابنها، كما فى وصية «سبيعة بنت الأجب» القائلة:

أبنى لاتظلم بمكة لاالصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنى ولايغرنك الغرور
ابنى من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور
ابنى قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
الله آمن طيرها والعصم تأمن فى ثبير

والفيل أهلك جيشة يرمون فيها بالصخور
فاسمع إذا حدثت وافهم كيف عاقبة الأمور؟

الحج فى الإسلام

يقول «ابن حبيب» فى محبره: باب السنن التى كانت الجاهلية سنتها فأبقى الإسلام بعضها وأسقط بعضها: «وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون بالبيت أسبوعا، ويمسحون بالحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة، وكان على الصفا أساف وعلى المروة نائلة، وهما صنمان، وكانوا يلبون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته.. وكانت العرب تقف بعرفات ويدفعون منها والشمس حية، فيأتون إلى مزدلفة، وكانت قريش لاتخرج من مزدلفة ولا تقف بعرفات، ويقولون لانعظم من الحل مانعظم من الحرم، فبنى قصى المشعر فكان يسرج عليه ليهتدى به أهل عرفات إذا أتو مزدلفة، فأبقاه الله مشعرا، وأمر بالوقوف عنده، وقال العامرى فى وقوفهم فى الجاهلية:

فأقسم بالذى حجت قريش وموقف ذى الحجيج إلى إلال

«إلال جبل بعرفات»، وكانوا يهدون الهدايا، ويرمون الجمار ويعظمون الأشهر الحرم...»[٢٨].

نعم أبقى الإسلام.. كل هذه السنن والشعائر، لكنه طهرها ونقاها من أدرانن الجاهلية وجهالتها، فلم يعد السر فى تقديس الصفا والمروة والسعى بينهما هو صنما «إساف ونائلة» وإنما فى هرولة هاجر أم اسماعيل بينهما بحثا عن الماء فى صحراء مجدبة، ولم يعد الحجر الأسود ومقام ابراهيم أحجارا مقدسة لنفسها، بل لأنهما فى الأصل ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما.. ولو لم يطمس الله نورهما لأضاءا مابين المشرق والمغرب[٢٩]، وعن ابن عباس قال: «ليس فى الأرض شىء من الجنة إلا الركن الأسود والمقام»[٣٠].

أما القصة الإسلامية حول البيت، فهى قصة محوطة بالقدسية والتبجيل، يلخصها لنا كتاب «أبو الأنبياء» فيما يلى:

«... إن الله سبحانه خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفى عام، فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل البيت المعمور،

---

(٢٨) المحبر، ص٣١١، ٣١٩.

(٢٩) تاريخ الخميس، ج١، ص١٠٠.

(٣٠) معجم البلدان، ياقوت، مجلد٢، ٢١٢.

وهو ياقوتة من يواقيت الجنة، له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى، فوضعه على موضع البيت وقال: «ياآدم إنى اهبط لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى، وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى، وأنزل الله عليه الحجر الأسود، وكان أبيضا فأسود من مس الحيض فى الجاهلية، فتوجه آدم من الهند ماشيا إلى مكة، وأرسل الله إليه ملكا ليدله على البيت، فحج آدم البيت وأقام المناسك، فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له: ياآدم لقد حجنا هذا البيت قبلك بألفى عام، قال بن عباس حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه، فكان ذلك إلى أيام الطوفان، فرفعه الله إلى السماء الرابعة، والبيت المعمور يدخله كل يوم ألف ملك ثم لايعودون، وقد بعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق «زمن الطوفان» فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم أن الله تعالى أمر ابراهيم بعد ماولد له إسماعيل واسحق، ببناء بيت يذكر فيه ويعبد، فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت، وهى رياح خجوج لها رأسان تشبه الحية والخجوج من الرياح هى الشديدة السريعة الهبوب، وقيل هى الملتوية فى هبوبها، وأمر ابراهيم ان يبنى حيث تستقر السكينة، فتبعها ابراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه، قال ابن عباس: بعث الله سبحانه وتعال سحابة على قدر الكعبة، فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت، ونودى منها: ياإبراهيم، ابن على قدر ظلها، لاتزد ولاتنقص.. قال ابن عباس: بنى ابراهيم البيت من خمسة أجبل: من طور سيناء وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودى وهو جبل بالجزيرة ومن حراء وهو جبل فى مكة، فلما انتهى ابراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: إئتنى بحجر حسن يكون للناس علما، فأتاه بحجر، فقال: ائتنى بأحسن منه، فمضى اسماعيل ليطلب حجرا أحسن منه، فصاح الجبل أبو قبيس: ياإبراهيم أن لك عندى وديعة فخذها، فقذف بالحجر الأسود، فأخذه فوضعه فى مكانه»(٣١).

ونستكمل القصة من «الأزرقى» حيث يقول: «فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها، الصفا والمروة ومنا ومزدلفة وعرفة، وبعد حصب إبليس وعرفات إبراهيم مناسكه كلها، أمره أن يؤذن فى الناس بالحج، فقال إبراهيم: يارب مايبلغ صوتى، فقال الله تعالى: أذن وعلى البلاغ، فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال أطولها، فجمعت له الأرض سهلها وجبلها وبرها وبحرها وأنسها وجنها حتى أسمعهم جميعا»(٣٢).

---

(٣١) أبو الأنبياء، ص٩١، ٩٢.
٣٢) أخبار مكة، الأزرقي، ص٣٣، ٣٤.

العرب قبل الإسلام:
العقائد.. والتعدد.. والأسلاف

معلوم أن عجز الإنسان وضعفه أمام ظواهر الطبيعة المتقلبة وقواها، مع قصور تجربته ومعرفته، كان هو الدافع لتصور قوى مفارقة «ميتافيزيقية»، هى التى تقف وراء متغييرات الطبيعة وثوراتها وغضبها وسكونها، ولأن تلك الظواهر لم تكن مفهومه، فقد جاءت تلك القوى أيضا غيبية ولذلك ارتبطت عقائد الناس فى أربابها بوسطها البيئى، حيث عبرت عن ذلك الوسط وأظهر مظاهره وأكثرها تكرار وديمومة، ومن هنا قدس العرب أجرام السماء التى تظهر بكل وضوح فى ليلة الصحراويى المنبسط، دون حواجز حتى الأفق بدائرته الكاملة، كما قدس الأحجار بخاصة ذات السمات المتفردة منها، فبيئته رمال وصخور وأحجار، وقد غلب انتشار الصخور البركانية فى جزيرة العرب لانتشار البراكين فيها، وأطلقوا عليها اسم الحرات من الحرارة والانصهار.

لكن اتساع رقعة الجزيرة على خطوط عرض واسعة، أدى إلى تبايين ظروف البيئة والمناخ، مما أدى تعدد مماثل فى الظواهر، وبالتالى تعددية فى العبادات، هذا ناهيك عن وعورة المسالك فى الجزيرة، والتى أدت إلى مايشبه العزلة لمواطن دون مواطن، خاصة تلك التى فى الباطن، مما أدى إلى احتفاظها بالوان من العقائد الموغلة فى قدمها وبدائيتها، نتيجة عدم الاحتكاك بالثقافات الأخرى التى تساعد على تطور الراسب المعرفى ومن ثم العقائدى.

التعدد فى العبادة

وهكذا يمكنك أن تجد إضافة لعبادة اجرام السماء وعبادة الأحجار والصخور، بقايا من ديانات بدائية كالفيتشية والطوطمية، وعبادة الأسلاف.

والفيتشية أكثر ديانات الجزيرة انتشار بين أهلها، وهى تقدس الأشياء المادية كالأحجار، للاعتقاد بوجود قوى سحرية خفية بداخلها، أو لأنها

قادمة من عالم الآلهة فى السماء أو من باطن الأرض حيث عالم الموتى، وقد ظلت تلك العقائد قائمة حتى ظهور الإسلام.

أما الطوطمية، فهى التى تعتقد بوجود صلة لأفراد القبيلة بحيوان مامقدس، فتظهر فى مسميات قبائل العرب، مثل «أسد، فهد، يربوع، ضبة، كلب، ظبيان... الخ»، لذلك يحرمون مس الطوطم أو حتى التلفظ باسمه، لذلك كانوا يكنون، عنه. فالملدوغ يقولون عنه السليم، والنعامة يكنى عنها المجلم، والأسد أبى حارث، والثعلب ابن آوى، والضبع أم عامر، هكذا، هذا إضافة إلى تقديس الأشجار، مثل ذات أنوط التى كانوا يعظمونها، ويأتونها كل سنة فيذبحون عنها ويعلقون عليها أسلحتهم وأرديتهم.

كذلك عبدالعرب كائنات أسموها «الجن» خوفا ورهبة، ودفعا لأذاها، وظنونها تقطن الأماكن الموحشة والمواضع المقفرة والمقابر، وكان العربى إذا دخل إلى مواطن قفر حيا سكانه من الجن بقوله: عموا اظلاما، ويقف قائد الجماعة ينادى: إنا عائذون بسيد هذا الوادى. وتصوروا الجن كحال العرب، فهم قبائل وعشائر تربط بينهم صلات الرحم، يتقاتلونن ويغزو بعضهم بعضا، ولهم سادة وشيوخ وعصبيات، ولهم من صفات العريان كثير. فهم يرعون حرمة الجوار ويحفظون الذمم ويعقدون الأحلاف.. وقد يتقاتلون فيثيرون العواصف، ويصيبون البشر بالأوبئة والجنون. وقد نسبوا إلى الجن الهتف قبل الدعوة مباشرة، حيث كثرت الهواتف أى الأصوات التى تنادى بأمور وتبنىء بأخرى بصوت مسموع وجسم غير مرئى.. وقد اعتمد الكهان على تلك الاعتقادات فزعموا أنهم يتلقون وحيهم عن الجن، وأن الجن بإمكانها الصعود إلى السماء والتنصت على مصائر البشر فى حكايات الملأ الأعلى مع بعضهم عمن فى الأرض، وإن الكاهن بإمكانه معرفة مصائر البشر عبر رفيقه من الجان.

عبادة الأسلاف

أما أشد العبادات انتشارا وأقربها إلى الظرف المكانى والمجتمعى، فهى عبادة الأسلاف الراحلين، ويبدو لنا أن تلك العبادة كانت غاية التطور فى العبادة فى العصر قبل الجاهلى الأخير، حيث كان ظرف القبيلة لايسمح بأى تفكك نظرا لانتقالها الدائم وحركتها الواسعة وراء الراحل الغابر، فأصبح هو الرب المعبود وهو الكافل لها الحماية والتماسك، بوصفها وحدة عسكرية مقاتلة متحركة دوما، فاستبدلت بمفهوم الوطن مفهوم الحمى، والذى يشرف عليه سيدهم وأبوهم القديم وربهم المعبود، حيث تماهى جميع أفراد القبيلة فيه، ومن هنا كان الرب هو سيد القبيلة الراحل القديم، الذى

تمثلوه بطلا مقاتلا أو حكيما لايضارع، ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد القبائل، ونزعت القبائل مع ذلك نحو التوحيد، وهى المعادلة التى تبدو غير مفهومة للوهلة الأولى، لكن بساطة الأمر تكمن فى أن البدوى فى قبليته كان لايعبد عادة ولايجل سوى ربه الذى هو رمز عزته ورابط قبيلته، ولايعترف بأرباب القبائل الأخرى، وهو الأمر الذى نشهد له نموذجا واضحا فى المدون الإسرائيلى المقدس، حيث عاش بنو إسرائيل ظروف قبلية شبيهة، فيقول سفر الخروج: «من مثلك بين الآلهة يارب»، أى أن القبلى كان يعرف أربابا أخرى لقبائل أخرى، لكن ربه هو الأعظم من بينها، لذلك كان البدوى فى قبيلته يأنف أن يحكمه أحد من خارج نسبه، لأن نسبه هو ربه، هو سلفه، هو نفسه، هو كرامته وعزته، لذلك كانت عبادة الأسلاف أحد أهم العوامل فى تفرق العرب القبلى، وعدم توحدهم فى وحدة مركزية تجمعهم.

ولم يأت الاعتراف بآلهة أخى لقبائل أخرى إلا فميا بعد، بعد دخول المصالح التجارية للمنطقة، واستعمال النقد، وظهور مصالح لأفراد فى قبيلة ترتبط بمصالح لأفراد فى قبيلة أخرى، مما أدى لاعتراف متبادل بالأرباب، وهو الأر الذى بدأ يظهر خاصة فى المدن الكبرى بالجزيرة على خط التجارة، فى العصر الجاهلى الأخير، كما حدث فى مكة والطائف ويثرب وغيرها.

المستوى المعرفى

دأب بعض مفكرينا فى شئون الدين - عافاهم الله - على الحط من شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام، وتصويرهم فى صورة منكرة وسار على دربهم أصحاب الفنون الحديثة فى القصة والسيناريو والأعمال الفنية السينمائية، بحيث قدموا ذلك العربى عاريا من أية ثقافة أو حتى فهم أو حتى إنسانية، حتى باتت صورته فيى ذهن شبيبتنا، إن لم تكن فى أذهان بعض المثقفين بل والكتاب أيضا، أقرب إلى الحيوانية منها إلى البشرية، وقد بدا لهؤلاء أن القدح فى شأن عرب قبل الإسلام، وإبرازهم بتلك الصورة، هو فرش أرضية الصورة بالسواد، لابراز نور الدعوة الإسلامية بعد ذلك، وكلما زادوا فى تبشيع عرب الجاهلية، كلما كان الإسلام لإبراز أكثر استضاءة وثقافة وعلما وخلقا وتطورا على كل المستويات، وأن الأمر بهذا الشكل يبعث أولا على الشعور بالفجاجة والسخف، ثم هو يجافى أبسط القواعد المنطقية للإيمان، فالإيمان يستمد قيمته من دعوته، ومن نصه القدسى، وسيرة نبيه، فقيمته فى نفسه، قيمة داخلية، وليست من مقارنته بآخر، أما الأنكى فى الأمر، فهو أن تتم مقارنة الإلهى والإنسانى، فالإلهى لايقارن بغيره، كما أن

مقارنة الإنسان به فداحة فى التجنى على الإنسان بما لايقارن مع الإلهى.

وقد فطن «الدكتور طه حسين» إلى ذلك الأمر وعمد إلى إيضاحه فى كتابه «الأدب الجاهلى» مبينا مدى تهافت الفكرة الشائعة حول جاهلية قبل الإسلام، وكيف أن تلك الفكرة أرادت تصوير العرب كالحيوانات المتوحشة، لإبراز دور الإسلام فى نقله الإعجازى لهؤلاء الأقوام المتوحشين، فجأة ودن مقدمات موضوعية، إلى مشارف الحضارة، فجمعهم فى أمة واحدة، ففتحوا الدنيا وكونوا امبراطورية كبرى، هذا بينما القراءة النزيهة لتاريخ عرب الجزيرة فى المرحلة قبل الإسلامية تشير بوضوح، إلى أن العرب لم يكونوا أدنى من الإسلام فى تطورهم الإنسانى، أما الركون إلى عقائدهم لتسفيههم، فهو الأمر الأشد فجاجة فى الرؤية، فيكفينا أن نلقى نظرة حولنا، على الإنسان وهو فى مشارف قرنه الحادى والعشرين، لنجده لم يزل بعد يعتقد فى أمور هى من أشد الأمور سخفا ومدعاة للضحك.

معارف العصر

والمطالع لأخبار ذلك العصر المنعوت بالجاهلى، فى كتب الأخبار الإسلامية نفسها، سيجد فى الأخلاق مستوى رفيعا هو النبالة نفسها، وسيجد المستوى المعرفى يتساوق تماما مع المستوى المعرفى للامم من حولهم، وأن معارفهم كانت تجمع إلى معارف تلك الأمم معارفهم الخاصة، فقط كان شتتهم القبلى وعدم توحدهم فى دولة مركزية مستقرة، وهو الأمر الذى أخذ فى التطور المتسارع فى العصر الجاهلى الأخير نحو التوحد فى أحلاف كبرى، تهيئة للأمر العظيم الآتى فى توحد مركزى ودولة كبرى.

فعلى مستوى المعارف الكونية، كان لدى العرب تصورات واضحة، تضاهى التصورات فى مراكز الحضارات حولهم، فالأرض كرة مدحاة، والسماء سقف محفوظ تزينه مصابيح هى تلك النجوم، وفيه كواكب سيارة، اطلقوا عليها «الخنس الجوارى الكنس»، فهذا «زيد بن عمرو بن نفيل» يحدثنا عن التصور الكونى المعروف فى بلاد الحضارات، فى قوله:

دحاها فلما رآها استوت   على الماء أرسى عليها الجبالا

بينما نجد «أمية بن عبدالله الثقفى»، يصور لنا مادرج عليه العالم القديم من تصور للسماء سقفا بلا عمد، وأنها طبقات سبع، وأن الشهب فيها حماية ورصدا ومنعا للجن من استراق السمع على الملأ الأعلى، وذلك فى قوله:

بناها وابتنى سبعا شدادا   بلا عمد يرين ولاحبال

سواها وزينتها بنور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأت فى دجاها مراميها أشد من النصال

المعارف الدينية

أما على مستوى المعارف الدينية، وكانت سمة عصرها، وهى المنحولة عن عقائد الرافدين القديمة ومصر القديمة وبلاد الشام وفلسطين، وجاء تفصيلها مجملا فى مدونات التوراة، فهو الأمر الذى كانت تعرفه جزيرة العرب، فهذا «الأفوه الأودى» يأبى إلا أن يسجل أسماء أبناء نوح فى قوله:

ولمايعصمها سام وحام ويافث حيثما حلت ولام

أما طول العمر النوحى فكان مضرب المثل، وهو يؤخذ فى مديح الأعشى لإياس:

جزى الله إياسا خير نعمة كما جزى المرء نوحا بعدما شابا
فى فلكه إذا تبدلها ليصفها وظل يجمع ألواحا وأبوابا

وهو ماجاء أيضا فى ضرب الراجز، رافضا عمرا كعمر نوح:

فعلت لو عمرت سن الحل أو عمر نحو زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل صرت رهينة هرم أو قتل

وكان انتشار قصص التوراة فى معارف الأمم بجد صوابه فى معارف ذلك العصر، فها هو «أمية بن أبى الصلت» يقدم حوارا شعريا بين موسى وهارون وبين فرعون، يقول فيه:

وأنت الذى من فضل ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له: اذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له: أأنت سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له: أأنت رفعت هذه بلاعمد، أرفق إذا بك بانيا

بل وعرف العرب قصة مريم وولدها، وسارت فيهم كقصة معلومة، وهو ماصاغه «أمية» شعراً بدوره، إضافة لما جاءت به المسيحية عن يوم بعث ونشور، مضاف إليه ماسبق إليه المصريون من القول بحساب للموتى أمام موازين العدل فى قاعة الحساب السماوية، فهذا شعر بقى عن «قس بن ساعدة» يقول:

ياناعى الموت والأموات فى جدث عليهم من بقايا برعم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا

حتى يعودوا لحال غير حالهم　　　خلقا جديدا كما من قبله خلقوا
فيهم عراة ومنهم فى ثيابهم　　　منها الجديد ومنها المبهج الخلق

وهو الأمر الذى يوضحه شعر «زيد بن نفيل» وهو يصور أحوال الحساب ونتائجه فى قوله:

ترى الأبرار ديارهم جنان　　　وللكفار حامية السعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا　　　يلاقوا ماتضيق به الصدور

وهو نفس الأمر الذى فصل أمره «أمية الثقفى» فى قوله:

باتتت همومى تسرى طوارقها　　　أكف عينى والدمع سابقها
مما أتانى من اليقين ولم　　　أوت برأة يقصى ناطقها
أم من تلظى عليه واقدة النار　　　محيط بها سرادقها؟
أم أسكن الجنة التى وعد　　　الأبرار مصفوفة نمارقها؟
لاييستوى المنزلان ولا　　　الأعمال تستوى طرائقها
وفرقه منها أدخلت　　　النار فساءت مرافقها

أما «علاف بن شهاب التميمى» فيؤكد:

وعلمت أن الله يجازى عبده　　　يوم الحساب بأحسن الأعمال

كذلك جاء تقرير «زهير بن أبى سلمى» واضحا فى قوله:

فلاتكتمن الله مافى نفوسكم　　　ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فيى كتاب فيدخر　　　ليوم الحساب، أو يعجل فينقم

المعالم الأدبية

ليس جديدا التأكيد على شعرية العربى، حتى قيل إن كل عربى شاعر، وحتى أصبح الشعر ديوان العرب، رواية حالهم وظروفهم وعقائدهم، وسجل لمعارفهم ومستواهم الثقافى الأخلاقى، وسجل لحياتهم العملية وطرق عيشهم بل ورؤاهم الفنية والفلسفية.

وإلى جانب الشعر كان معلم الخطابة بما حواه من نفس المحتويات الشعرية، بنثره المنظوم المسجوع، إضافة إلى سجع الكهان، المرسل منه والمزدوج.

وكان للعرب أسواقهم، التى عادة ماكانت تفتتح افتتاحا ثقافيا، بإلقاء الخطب النثرية، والقصائد الشعرية، وإجراء المسابقات حول افضل القصائد، وهو مابرز فى «المعلقات السبع»، مما يشير إلى ديدن أمة اهتمت بتنمية الثقافة وتشجعيها، رغم تشتتها شيعا فى قبائل لاتجمعها وحدة مركزية.

النثر المسجوع

وكان العربى حريصا على تقديم معارفه وثقافته شعرا، وإن نثرها حرصا على الجرس الموسيقى فيها، مما يشير إلى رهافة فى الحس وارتقاء فى الذوق، ونماذج من ذلك النثر، ما جاء قسما بالمظاهر الكونية عند «الزبراء» وهى تقول: «واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزق الوادق، إن شجر الوادى ليأود ختلا، ويرق أنيابا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثقلا، لاتجدون عنه معلا».

ومن ألوان هذا السجع سجع دينى، جاء فى وصف «ربيعة بن ربيعة» ليوم البعث والنشور، بقوله: «يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون»، وهو نفس الرجل الذى يقسم بصدق قوله: «والشفق والغسق،والفلق إذا اتسق، إن ماأنباتك به لحق»، أما «شق بن صعب» فيصف نفس اليوم بقوله: «يوم تجزى فيه الولايات، يدعى فيه لمن اتقى بالفوز والخيرات».

ويقسم «ابن صعب» لسائله بأنه يقول الحق: «ورب السماء والأرض، ومابينهما من رفع وخفض، إن ماأنبتك به لحق، مافيه أمض»، أما الكاهن الخزاعى الذى احتكم إليه هاشم وامية فى نزاعهما، أصدر قراره سجعا يقول: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، ومابالجو من طائر، وماهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، قد سبق هاشم أمية إلى المفاخر».

أما «قس بن ساعدة الأيادى» فيرسل سجعه مصورا معارف العصر الكونية فى نثره قائلا: «ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا».

المعلم الشعرى

والشعر الجاهلى وثيقة هامة فى يد الباحث العلمى، تأخذ سمت العلم التاريخى، رغم ما أثير حول الشعر الجاهلى من تشكيك فى صحة انتسابه لعصره فعلا، وكان أبرز ماقيل بشأنه قضية النحل التى أثارها «الدكتور طه حسين» فى كتابه الشعر الجاهلى، والمحاكمة المشهورة التى جرت آنذاك بشأن ذلك الكتاب وصاحبه.

لكن مايدعو إلى الاطمئنان فى الغالبية مما وصلنا من ذلك الشعر، مدونا بأقلام المسلمين، هو أن القافية والوزن كانا يضمنان منع حدوث تغيير كبير على يذلك الشعر، كما أن المحتوى البسيط لذلك الشعر، وماجاء

به من أخبار التخاصم على الإبل والمراعى يضمن عدم التصنع، وعلى رأى «د. حسين مروة» أننا لو حكمنا على شعر الأخطل وجرير... بشكله، لتعذر علنيا نسبته إلى مابعد الإسلام.

وكان «ابن سلام» أول من بحث قضية الانتحال، وعزى أسباباها إلى العصبية القبلية، والرواة الوضاعين، مثل حماد الرواية، وخلف الأحمر، وسبق الجميع إلى مسألة الانتحال «المفضل الضبى» الذى نقد خلفا الأحمر، أما «طه حسين» فقد ردد ماسبقه إليه المستشرق «مرجليوث» بشكل مختلف بعض الشيء.. وإن كان أهم حيثيات محاكمته هى إنكاره هبوط إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام جزيرة العرب.

وقد قامت جمهرة السلفيين تؤكد قبولها صحة نسب الشعر الجاهلى دون تحفظ أو تشكك، وقد ظهر ذلك واضحا فى المؤلفات التى وضعت للرد على «طه حسين»، ونموذجا لذلك ماجاء فى كتاب «نقض كتاب فى الشعر الجاهلى» لمحمد أحمد الغمراوى، و«مصادر الشعر الجاهلى» لناصر الدين الأسد، وغيرهم، ونسبة الشعر الجاهلى لعصره، قد اتفق أمرها بين المسلمين السلفيين، وبين كثير من المستشرقين وهو ما يمثله قول المستشرق «ليال» و الواقع أن هذا الشعر الجاهلى قد أفاد المؤرخ الباحث فى تاريخ الجاهلية، فائدة لاتقدر بثمن، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية، على فائدته من الوجهة الأدبية، لأنه حوى أمورا مهمة عن أحداث العرب الجاهلين، لم يكن فى وسعنا الحصول علييها لولا هذا الشعر.

الخطابة

والخطابة كانت من أبرز الأنشطة الفكرية والثقافية للعرب، وكانوا يلجأون فيها إلى كل الوسائل الإبداعية والجمالية والبلاغية لإقناع المستمع بوجاهة محتوى الخطبة، وعند التعامل مع ملوك الدول كان العرب يختارون أكثرهم تفوها، وقد ذكر «ابن عبد ربه» فى عقده الفريد، أن كسرى تنقص من أمر العرب فى حضور «النعمان بن المنذر» لديه، مما استفز «النعمان» لعروبته، فأرسل فى طلب خطباء العرب وأوفدهم إلى كسرى ليعرف مآثر العرب وقدرهم.

وكان الخطباء يخطبون فى وفادتهم على الأمراء، فيقف رئيس الوفد ببين يدى صاحب السلطان ليتحدث بلسان قومه، ومن هذا الخطب ماقيل بين يدى رسول الله عام الوفود وأوردته كتب السير والأخبار، ومن أشهر الخطباء أولئك الذين وردت أسماؤهم فى الرد على كسرى، وهم «أكثم بن

صيفى»، و«حاجب بن زرارة التميمى»، «والحارث بن عباد»، و«قيس بن مسعود»، و«عمرو بن الشريد السلمى»، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى»، ومن خطباء مكة «عتبة بن ربيعة» و«سهيل بن عمرو»، ومن الخطباء أيضا «هرم بن قطبة»، و«عامر بن الظرب العدوانى»، وهى نمازج تشير إلى خطباء كثر لقبائل العرب، أوردتها كتب الأخبار والسير تفصيلا وحصرا.

المستضعفون

لعب جدل الأحداث العالمية دورا أساسيا نشطا فيما جرى من تحولات داخل جزيرة العرب، وكان تحول طرق التجارة العالمية إلى الشريان البرى المار بمكة قادما من اليمن متجها نحو الامبراطوريتين، عاملا مؤسسا لتغير أنماط الانتاج الاقتصادى فى الجزيرة، التى أخذت تنحو نحوا التجارة، كعماد أساسى للاقتصاد، وماتبع ذلك من تغيرات فى البنى الاجتماعية، التى أخذت بدورها فى التحول النوعى عن السكل القبلى القائم على المساواة المطلقة بين أفراد القبيلة، إلى تفكك ذلك الشكل بتراكم الثروة فى يد نفر من أفراد القبيلة دون نفر آخر، الشكل الطبقى الذى بجر الإطار القبلى، لصالح تحالفات مصلحية بين أثرياء القبائل المختلفة، وكان الناتج الطبيعى لتفاوت توزيع الثروة، ظهور شكل مجتمعى جديد على جزيرة العرب، لترصد لنا كتب الأخبار الإسلامية أهم الشرائح المجتمعية الجديدة، على خريطة النظام الطبقى الصالع، مقابل الطبقة المترفة من أثرياء تجارب العرب.

فقراء العرب

وإعمالا لجدل الأحداث أخذ الفارق الطبقى بالاتساع السريع والهائل، ليصبح سواد العرب من الفقراء المستضعفين، يعملون فى رعى الأنعام والفلاحة وتجارات البيع البسيط، يسكنون الخيام والعشش والأكواخ الحقيرة، ويسمعون عن الخبز ولايأكلونه، حيث كان الخبز من علامات الوجاهة والثراء، ولايعرفون عن اللحم سوى الصليب، وهو ودك العظام تجمع وتهشم وتغلى على النار طويلا، ليحصلوا منها على الصليب، وغالبا ماعاشوا على مطاردة ظباء الصحراء وأورالها ويرابيعها، ونقصد بهؤلاء الفقراء، عرب صرحاء، من أبناء قبائل متميزة، دفعتهم إلى الأسفل آلة التغيير الاقتصادى والمجتمعى.

ويلى تلك الطبقة فى التدنى، طبقة الموالى، وهم من أبناء قبائل أخرى تركوها ولجأوا لقبائل مخالفة، أو كانوا أسرى فك أسيادهم أسرهم، أو أعاجم أرقاء أعتقهم سادتهم بمقابل، وقد شكل هؤلاء طبقة بين أبناء القبيلة الخلص الصرحاء، وبين العبيد.

ثم طبقة أخرى ظهرت بدورها نتيجة التفاوت الطبقى الحاد، وتكونت من أفراد تلبستهم روح التمرد على أوضاح المجتمع الجديد، فتصرفوا بتلك الروح فتأضروا بمصالح السادة، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت من أفعالهم بإعلان مكتوب أوفى الأسواق العامة، وهى الطبقة التى عرفت باسم «الخلعاء».

الصعاليك

أما أبرز تلك الطوائف أو الطبقات التى أفرزها المتغير الاقتصادى المجتمعى، فهى «الصعاليك»، وهم فئة لاتملك شيئا من وسائل الإنتاج، تمردت على الأوضاع الطبقية، بل وشنت عليها الحرب، بخروجهم أفرادا عن قبائلهم باختيارهم، وتجمعهم على اختلاف أصولهم فى عصابات مسلحة، وأبرز الأسماء التى وصلتنا منهم: عروة بن الورد، وتأبط شرا، والسليك ابن السلكة، والشنفرى، وقد أطلق عليهم العرب «الذؤبان»، و«العدائين» لسرعتهم.

وقد روى عن هؤلاء أنهم كانوا ذوى سمات متميزة، من الشهامة والمروءة والنبالة، وأخلاق الفروسية، فكانوا لايهاجمون إلا البخلاء من الأغنياء، ويوزعون ماينهبون على الفقراء والمعدمين، بعد أن شكلوا لأنفسهم مجتمعا فوضويا، شريعته القوة، وأدواته الغزو والإغارة، وهدفه الأول السلب والنهب وهدفه الأخير، تعديل الموازين المجتمعية.

وترى لنا كتب السير والأخبار وطبقات الشعراء، أشعارا للصعاليك، ينعكس فيها الإحساس المرير بوقع الفقر عليهم وفى نفوسهم، ويضج بشكوى صارخة من الظلم الاجتماعى، وهوان منزلتهم، فهذا «قيس بن الحدادية» يخبرنا أنه لم يكن يساوى عند قومه عنزة جرباء جذماء، أما الأخبار فتروى عن الشنفرى كيف أسلمه قومه هو أمه وأخوه رهنا لقتيل عن قبيلة أخرى، ولم يفدوهم، وكيف تصعلك الشنفرى ورفع سيف ثورته بعد أن لطمته فتاة سلامية، لأنها ناداها: ياأختى، مستنكرة أن يرتقع إلى مقامها.

ومن مثل تلك الأخبار: نستطيع تكوين فكرة واضحة عن المدى الذى فعله المال داخل القبيلة،مما أدى بالصعاليك إلى فصم علاقتهم بقبائلهم، وتكوين جماعاتهم المسلحة ضد الأغنياء، لينزعوا منهم مقومات الحياة الإنسانية التى أهدرها الواقع، وهو المبدأ الذى يتجلى واضحا فى شعر «عروة بن الورد» وهو يقول:

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح ... عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فالموت خير للفتى من حياته ... فقيرا، ومن موت تدب عقاربه

العبيد

وفى ضوء الحاجة لليد العاملة فى خدمة آلة الاقتصاد الجديد، بدأت بلاد العرب تعرف النظام العبودى، وكان مصدره السبى والنخاسة وعبودية الدين، حتى جاء وقت أصبحت تجارة العبيد بمكة تجارة منتظمة، تأتى بهم من سواحل أفريقيا الشرقية، وهم الطائفة السوداء، ومنهم من كان يشترى من بلاد فارس والروم وهم الطائفة البيضاء، لاستخدامهم فى حراسة القوافل، وأعمال الرى الصناعى والزراعة والحرب وليس أدل على كثرة هؤلاء العبيد، من أن «هندا بنت عتبة» أعتقت فى يوم واحد وأربعين عبدا من عبيدها، كما أعتق أبو حيحة سعيد بن العاص مائة عبد، اشتراهم وأعتقهم.

ومع النظام العبودى انتشرت عادة التسرى بالإماء، فكان للرجل أن يهب أو يبيع أو ينكح أمته أو يجعلها مادة للكسب بتشغيلها فى البغاء، ثم يأخذ ناتجها المولود ليباع بدوره، وعندما جاء الإسلام حرم البغاء، ولكنه أبقى على نظام ملك اليمين ضمن ماأبقى عليه من أنظمة الجاهلية وقواعدها المجتمعية، وإن رغب فى العتق وحض عليه.

الأساطير

مع التطور الرتيب البطىء للقوى المنتجة، نتيجة للتعددية، والتشظى القبلى، تواضع العقل العربى على القاء التفاسير الميتافيزية، لما يجابهه من ظواهر طبيعية، يحاول بها تبرير مايحدث حوله، وهو مااصطلح بعد ذلك على تسمية بالأساطير بين العرب أنفسهم، خاصة بين الطبقة المثقفة من أثرياء تجارهم، وهم مايعلن عدم قناعة مستبطن بتلك التفاسير، التى أدرجت ضمن أخبار السالفين وأنبياء الأمم وقوادهم تحت عنوان واحد يجمعهما هو «الأساطير».

أساطير الماء

ولما كان المطر أهم الظواهر وأخطرها لحياة البدوى، فقد وضعت بشأن انقطاعه أو تواتره سيولا من تفاسير اسطورية بدائية بسيطة بساطة حياة البداوة، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى فعل النجم لو المجموعة النجمية التى توافقت من الظهور مع سقوط المطر، فيقولون: أمطرنا بنوء كذا، وكان لفيض المطر أحيانا ودوره المدمر تفاسير من لون آخر، فيبدو أن الذاكرة العربية احتفظت بأحوال عرب قدماء، دمرت بلادهم بسبب الأمطار العاصفة، فحكوا عنها روايات تفسيرية، تكمن الأسباب فيها بيد الآلهة الغاضبة البطوش على من خالفوا أوامرها أو نواهيها، وهو ماروته

العرب مثيلة عن هلاك عاد وثمود، ويمكن الرجوع بشأنه تفصيلا للفصول الأولى من كتب الأخبار الإسلامية.

كذلك كان لندرة المطر أساطيرها الخاصة، والتى دفعتهم إلى ابتداع الوان من الطقوس، قصدوا بها تحريض الطبيعة على العمل، ويبدو أن ملاحظة سكان السواحل للضباب الصاعد من الماء ليكون سحابا ممطر، أثر فى تصور اصطناع بقصد الاستمطار، ولأن البقر كان رمزا للخصب عند الشعوب القديمة، فقد عقدوا بين النار والبقر فى طقس يجمعون فيه الأبقار، ويصعدون بها المرتفعات، ويربطون فى ذيولها موادا قابلة للاشتعال يودقون فيها النار، فتهرع الأبقار مذعورة تثير الغبار وهى تهبط من الجبل، لتصطنع حالة شبيهة بالعواصف المطرة، وأثناء ذلك يضجون بالدعاء والتضرع، ويرون ذلك سببا للسقيا بعد ذلك، وذلك إعمالا لمبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه.

أساطير السماء

وفى العصر الجاهلى الأخير، ومع النزوع نحو توحد قومى دينى تحت ظل إله واحد، ارتفع العرب بذلك الإله عن المحسوسات، ونظروا إلى إلههم ساكنا السماء فى قصر عظيم تحفة حاشية من الملائكة، لذلك قدسوا السماء وأجرامها، والقسم بها، وبظواهرها، وحفوا بالقدسية كل ماتساقط من السماء بحسابنه قادما من ذلك المكان المقدس حيث العرش، فكان تقديس الأحجار النيزكية أحد نتائج ذلك الاعتقاد.

وقد نسبوا إلى الأفلاك أثرا عظيما فى حياة البشر والأمراض، والأوبئة، وكان تساقط الشهب يعنى وقوع أحداث جلل، كالحروب، أو الكوارث الاقتصادية، أو الطبيعية، أو ولادة رجل عظيم، أو موت آخر.

ويبدو أن تلك القدسية امتدت عند بعض القبائل إلى تأليه نجوم السماء، بينما اتجه البعض الآخر إلى اعتبارها هى نفس الملائكة، وقالوا إنهن بنات الله، أو لهن علاقة بالله على الجملة فى أكثر من شأن، وتعبر عن ذلك الرواية المشهورة بشأن كوكب الزهرة والملكين هارون وماروت والتى سجلها القرآن، وكيف أغوت الزهرة الغانية الملكين الورعين فارتكبا الخطيئة وعصيا الله خالق السماوات والأرض، وكيف تحولت تلك المرأة التى أغوت ملائكة السماء بدورها إلى كائن سماوى يتمثل فى ذلك الكوكب الجميل المعروف بكوكب الزهرة.

كذلك لم يجد العرب فى تميز بعض الأشخاص إلا سمات خارقة، نسبوها إليهم أحيانا انبهارا، وأحيانا تمجيدا، فهذا خالد بن سنان يطفىء النار التى خرجت بجزيرة العرب وكانت بها رؤوس تسيح فتهلك البلدان ويبدو أنها كانت ذكرى بركان مدمر، لكنهم جعلوا للنار البركان رؤوسا آكله حاربها ابن سنان حتى أطفأها وردها إلى مقر فى قعر الأرض.

وهذا الصعلوك القوى النبيل، يشتد الإعجاب به وبقوته حتى يقولوا إنه قتل الغول وأتى يحمل رأسه تحت إبطه، فأسموه «تأبط شر»، وهذا عنترة بن شداد يشد على الأعادى فيكسر رماح الحديد وينزع النخيل من مواضعه ويحارب الغزاة، حتى يتحول مع النزوع القومى فى الجاهلية الأخيرة إلى بطل عربى قومى يحارب أعداء العرب بقواه الجبارة.

وذلك «سيف بن ذى يزن» يدخل الحلم القومى العروبى بعد تحرير بلاده من الأحباش، ليتم تصويره بطلا شعبيا عظيما يقاتل الجيوش ويهزمها بقوته ومهاراته.

وهو مايشير إلى نزوع جديد نحو أساطير البطولة للجاهلية فى عصرها الأخير، لتصنع رمزها القومى العربى، وهى تنحو نحو التوحد الآتى.

أنماط الزواج

فى جزيرة العرب، تعددت أنماط الزواج، كناتج ضرورى لشكل العلاقات المجتمعية، والتوزع القبلى، وتباعد المضارب عبر مساحة تكاد تكون قارية متباينة، تشكل فيها كل قبيلة وحدة قائمة بذاتها، ومن هنا فرضت تلك الأوضاع أنماطا عدة للنكاح، عددتها لنا كتب السير والأخبار الإسلامية.

النكاح لأجل

والنكاح لأجل كان يقع على طريقتين تمثلان نوعين من الزواج، وهو لون من النكاح الصريح الذى لايعنى زواجا بالمعنى المفهوم، والنوع الأول منه هو ماعرف بنكاح «الذواق» الذى يتم دون أى شروط تعاقدية، ويحل برغبة أى من الطرفين متى ماشعر بعدم الرغبة فى الأستمرار وهو نكاح بغرض تذوق مشاهير النكاحين والمنكوحات لبعضهم البعض، وقد اشتهر بهذا النكاح «أم خارجة» التى تناكحت وأربعين رجلا من عشرين قبيلة، فكان يأيتها الرجل متوددا يقول: خطب، نكح، فيأتيها، حتى ضرب بها المثل فقيل: **أسرع من نكاح أم خارجة**، وهو الخبر الذى أورده «الزبيدى» فى تاج العروس والميدانى فى مجمع الأمثال.

أما النوع الثانى فهو «نكاح المتعة»، وقد عرف بعد ذلك فى عهد النبى كمشروع للمسلمين دون حرج، وكان قبل ذلك واسع الانتشار بين عرب الجاهلية، وكانت دوافعه لديهم التنقل والأسفار والحروب، حيث كان الرجل يتزوج على صداق محدد لأجل محدد، وبقضاء المدة ينفسخ التعاقد، وقد كان لأثرياء مكة الدور الأساسى فى إرساء هذا اللون من النكاح، حيث كانوا أصحاب قوافل وسفر، وممكنات مادية تسمح لهم باقتناء الحريم على تلك الطريقة، على محطات سفرهم بالقوافل، ويبدو أنه لون من التقنين الأحدث للطريقة الأولى «الزواج بالذواق».

أنكحة فى عداد الزنى

وعرفت الجاهلية ألوانا أخرى، من النكاح وكرهته رغم عمل البعض به، فكان فى عداد الزنى، وتمثله عدة ألوان، أولها نكاح «الشغار»، وهو أن يزوج الرجل ابنة الرجل على أن يزوجه الآخر ابنته دون إمهار، فكانت كالتبادل البضائعى، لاحق للمرأة فيه ولامهر لها، وقد نهى الإسلام عن هذا اللون من النكاح «لاشغار فى الإسلام»، ورغم ذلك لم يزل معمولا به خاصة بين فقراء المسلمين، كحل غير مكلف لعدم وجود المهر فيه.

وهناك لون آخر عرف بإسم «المضامدة»، تتخذ فيه المرأة خليلا أو أكثر على زوجها، وكانت تفعله نساء القبائل الفقيرة زمن القحط، فتذهب إلى السوق وتعرض نفسها على ثرى يكفلها، ويمنحها المال، ثم تعود بعد ذلك لزوجها بعد أن توسر بالمال الكافى لإعاشة اسرتها، وبدوره كان نكاحا بدفع العامل الاقتصادى أساسا.

ثم ألوان أخرى من النكاح البدل المعروف بتبادل الزوجات، وزواج «المقت»، وكان مكررها من العرب وأسموه المقت كراهة له، وكان يتزوج بموجبه الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثه عند موت ذلك الأب، وقد أبطل الإسلام هذا اللون من الزواج، هذا ناهيك عن نكاح الاستبضاع الذى يطلب فيه الرجل بذرة سيد عظيم فى رحم زوجته عساه يرزق بولد عظيم.

ومن أنكحه الزنى الصريح، نكاح صاحبات، «الرايات الحمر»، وهن بغايا مكة اللائى كن ينشطن فى مواسم التجارة وموسم الحج ترغيبا للتجار وأهل السوق، وقد شجع أثرياء مكة صاحبات الروايا الحمر، لمزيد من الإنعاش الاقتصادى، لكنهم مع ذلك كانوا مع مروءة إن حملت المرأة، حيث يلحق ولدها بما يرى أهل الفراسة والقيافة أو بضرب القداح، فيصبح ابن من تقع عليه الحظوظ.

أنكحة بالعرف

وقد تواضع العرف فى ظل ظروف التشتت ألقبلى، والإغارة والاقتتال بين القبائل وبعضها، على لون بشع من ألوان النكاح، هو لون صريح من الاغتصاب المهين، ينزل بالقبيلة المهزومة ونسائها، حيث كان من حق المنتصر سبى النساء والاستمتاع بهن حيث تصبح ملكة بالسبى، ويصبح من حقه بيعها إن لم يجد من يفتديها منه، ومثله نكاح الإماء بالشراء والامتلاك، وهذا اللون من النكاح كان لايعرف عددا للنساء الحريم على سرير الرجل، وهو شبيه بالزواج غير المحدد لعدد الزوجات الذى كان معرفا بدوره بين الطبقات الثرية، لكنه كان نادرا معدودا، حتى تجده فى خبر أو اثنين، كما جاء عن غيلان الثقفى الذى أسلم وتحته عشر نسوة

مكانة المرأة

حول مكانة المرأة فى جاهلية العرب الأخيرة، اختلف الباحثون إزاء مابأيديهم من معطيات تضارب أشد التضارب، وتتناقض إلى حد عدم الالتقاء أبدا، فذهب الباحثون إلى طريقين على نفس الدرجة من التضارب والتناقض، منهم من رأى للمرأة فى الجاهلية مكانة تتميز بها عن وضع بنى جنسها عند بقية الشعوب، وأنها سمت إلى وضع السمت فى المجتمع، بينما ذهب فريق آخر إلى النقيض وهبط بها إلى أسفل سافلين.

الشكل الأرقى

ومن ذهبوا بمكانة المرأة فى ذلك العصر إلى مكان السمت المتميز، اعتمدوا على ماجاء بديوان العرب من أشعار، تبين كيف كانت المرأة هى الوتر الحساس فى قلب كل عربى، ومبعث كل الهام، حيث التزمت القصائد جميعها تقريبا نهجا يهيم بالمرأة ومجدها، ومايلاحظ على المعلقات أنها لاتخلوا من الإشادة بالمرأة، والتغزل فيها بل والفخر بها.

ويعود الا تجاه نفسه إلى المأثور العربى وماورد من أخبار عرب الجاهلية فى المصادر الإسلامية، ليجد العربى حريصا على كرامة المرأة ويعتبرها موضع شرفه، حتى شنت من أجلها حروب، وأبرزها موقعة «ذى قار» التى انتصرت فيها ثلاث قبائل عربية متحالفة، على الفرس، بسبب رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته للملك الفارسى، كذلك حرب الفجار الثانية التى قامت بين قريش وهوازن تلبية لاستنجاد امرأة بآل عامر للذود عن شرفها، ولاننسى حرب البسوس التى دامت أربعين عاما بسبب انتهاك جوار

امرأة، وماقصة عمرو بن هند وعمرو بن كلثوم إلا أبرز مثل لأنفه العربى وحرصه على كرامة المرأة وعزتها.

وتروى كتب الأخبار وطبقات الشعراء كيف كانت المرأة تستشار فى عظائم الأمور، كما فى حادثة سعدى أم أوس الطائى، ناهيك عن مشاركتها للرجال فى ساحة القتال، تحثهم على المثابرة وشد أزرهم، وتداوى الجرحى وتدعو للأخذ بالثأر، فيستبسل الرجال مخافة سبى نسائهم، وقد كان لواء «الحارثية» فى شعر حسان بن ثابت وراء نصر قريش فى غزوة أحد على المسلمين، فعندما سقط لواء المكيين هرعت إليه «الحارثية» وسط الرماح والسيوف وحملته، فتجمعت حوله فلول المنهزمين، وظلت تهتف بهم حتى عادوا وحملوا على المسلمين حملة شديدة، ودور «هند بنت عتبة» فى ذات المعركة من أهم الأدوار فى تاريخ تلك الحروب، حيث أتت بنساء مكة وقيانها يشحذن الرجال، وينشدن الأناشيد الحماسية لتأجيج الحمية القتالية، وكانت «هند» من شاعرات العرب اللائى يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال، واشتهرت أيضا «كفيلة بنت النضرى»، و«أروى بنت الحباب»، وبنت بدر بن هفان والهيفاء القضاعية ولامراء أن الخنساء ذهبت من بينهن بعمود الشعراء رثاء وفخرا وحماسة وحربا.

ولايغيب على فطن انتساب قبائل العرب إلى امهاتها مثل بجيلة وخندف وطهية ومعاوية ونويرة، ويبدو أن الحرص على مكانة الأم كان وراء حرص العربى على كرم النسب وطهارة الرحم، وقد ذكر كتاب الأغانى فى حديثه عن حرب الفجار أن «مسعود الثقفى» ضرب على زوجته «سبيعة بن عبد شمس» خباء وقال لها: من دخله من قريش فهو آمن، فجعلت توصل فى خبائها ليتسع.

وفى الأشعار تقدير عربى شديد للمرأة، فيخاطبها إذا كانت زوجة بأفضل الألقاب، فهو يقول لها:

يارية البيت قومى غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا

واللقب، وتعبير «غير صاغرة» يشير إلى أى درجة من السمو كانت.

الشكل الآنى

أما أصحاب الاتجاه الآخر، فيستندون إلى ذات المعطيات وذات المادة التاريخية، ليعطونا صورة من أشد الصور بخسا بحق المرأة، فكانت تورث مع المتاع إذا توفى زوجها، ويرث الولد زوجة أبيه ويتصرف فيها حسب

مشيئته، فبإمكانه أن يتزوجها، أو يزوجها لغيره ويأخذ مهرها، أو يعضلها حتى تموت، أى يمنعها من الزواج حتى تدفع فدية عن نفسها، فهى فى منزلة بين الإنسان والأنعام، أو هى مثل متاع البيت متعة لصاحبه، وسميت متاعا بالفعل، مهمتها الاستيلاد والخدمة، وشاع الكثير عن بغض العرب للبنات، حتى سئل أعرابى: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أخبث من بنت.

وهذا «أبو حمزة العينى» يهجر زوجته إلى بيت مجاور بعد أن ولدت بنتا حتى أمست تقول شعرا:

ما لأبى حمزة لايأتينا

غضبان ألا نلد البنينا — يظل فى البيت الذى يلينا

وإنما نأخذ ما أعطينا — تالله ماذلك فى أيدينا

ننبت ماقد زرعوه فينا — ونحن كالأرض لزارعينا

وغنى عن التنبيه إلى تلك الرؤية المتقدمة للرجل كسبب فى جنس الوليد، وأن المرأة مجرد أرض تقبل الجنس المزروع وتنبته.

هذا ناهيك عن ظاهرة الوأد كأبشع الظواهر طراً، وقد ذهب بعضهم إلى قصر الميراث على الولدان الذكور وقالوا، لايرث إلا من يحمل السيف.

التحليل التاريخى

ومثل هذا التناقض فى المعطيات، ثم التناقض بالتبعية فى تقارير الباحثين حول وضع المرأة فى الجاهلية، لايحله إلا رؤية تاريخية موضوعية، فقد عاش العرب فى قبائل متعددة موجودة جنبا إلى جنب فى زمن واحد، ولكن فى مناطق مختلفة، وهى تتداخل معا، ففى مكة جمع شكل المجتمع القبيلة إلى جوار الواقع الحضرى، وطريقة العيش ووسائل الكسب، من رعى وغزو إلى استقرار زراعى، إلى تجارة أثرها الذى يجب أخذه فى الاعتبار عند مناقشة وضع المرأة فى الجاهلية، وهو موضوعنا.

العامل الموضوعى ووضع المرأة

سبق وأشرنا إلى اختلاف آراء الباحثين فى وضع المرأة زمن الجاهلية كما ألمحنا إلى أن ذلك الاختلاف ناتج من تعدد القبائل، والأشكال المجتمعية على التجاور فى زمن واحد، فى مناطق مختلفة، كذلك تنوع الإقليم وطرق الكسب التى تتباين، وماتبع ذلك بالضرورة من اختلاف فى وضع المرأة، ولاريب أن دخول الشكل الطبقى أدى إلى ثراء قبائل ضاربة على طرق

التجارة، مقارنة بقبائل ظلت على فقرها فى باطن الجزيرة، إضافة إلى التفاوت الطبقى داخل القبيلة الواحدة، ومـاارتبط به ذلك التطور الاقتصادى فى تفجير الأطر القبلية فى المناطق التى أصابها ذلك التطور، فتتغيرت بناها المجتمعية وسعت نحو نزوع وحدوى على مستوى الأرض والسماء، مما أدى إلى نشوء وعى قومى وحدوى، استشعرت فيه قبائل العرب بوحدة جنسها، وكان لكل تلك التطورات دورها فى اختلاف وضع المرأة، مما أدى لاختلاف رؤية الباحثين بدورها

ظاهرة الوأد

يقول القرآن الكريم معقبا على ما آل إليه حال المرأة فى العصر الجاهلى، أمرا، ناهيا ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم﴾، وينبه «الدكتور على عبدالواحد وافى» هنا إلى أن الوأد الناتج عن الفقر لم يكن فيه تمييز بين الذكر والأنثى، فكانوا يئدون على الجملة، وهو رأى فيه نظر، حيث لم يثبت وأد الذكور على الإطلاق، حيث كانت البداوة ونمطها بحاجة دائمة إلى ذكور شغيلة محاربين، لكنه يطرح من جانب آخر وجهة نظر بشأن وأد الاناث، فيقول إنهم اعتقدوا أن البنت من خلق الشيطان، أو خلق إله غير إلههم، فوجب التخلص منها.

وفى التفسير الدينى نجد اقرب للمقبول عند الدكتور «على زيعور» حيث يقول: إنه كان لونا من طقوس التقرب لإله القمر «ود» رمز الانوثة فى رأيه، وإنه كان من بقايا القرابين البشرية، التى درجت عليها الشعوب القديمة، قبل استبدالها بذبح الحيوان فداء لإنسان.

لكل مايعنى الأمر هنا هو أن المطالع لكتبنا الإخبارية لن يجد ظاهرة الوأد أمرا متفشيا، كما هو شائع، بل كان على العكس نادر الوقوع، ذكرت حالات بعدد قليل لايرقى بالحالة إلى ظاهرة منتشرة، وقد عابه العرب وانكروه، وأشهر حالتين يتم ذكرهما حالة «قيس بن عاصم» وحالة «عمر بن الخطاب».

ولعل صدق الوحى والتنزيل هو الفيصل بشأن سبب الوأد، فى بعض مواضع وبعض قبائل الجزيرة، حيث أشار للوضع الاقتصادى وأثره فى تلك العادة، فالفقير بحاجة للولد المنتج، وليس بحاجة لأنثى فم يلتهم فى مجتمع ندرة على العموم، ثم حال القبائل المتحاربة يعرض الإناث للسبى والعار، وكان محتما أن تهزم القبيلة الفقيرة وتسبى بناتها، لقلة عتادها وحيلها.

والدليل على عدم تفشى الوأد، وأنه بالفعل كان ناتج الإملاق كما قال القرآن، أن علية القوم ومن تيسر معاشهم فتهذبت نفوسهم، استهجنوا ذلك

بشدة، فكانوا يفتدون البنات من الوأد، واشتهر من بين أجواد العرب «صعصعة بن ناجية» جد «الفرزدق»، الذى أخذ على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها، فسمى محيى الموءودات، وقال الفرزدق فيه:

وجدى الذى منع الوائدات

وأحيا الوئيد فلم يوأد

وتعبر حادثة «أم كحلة الانصارية» عن كون السبب الاقتصادى وراء تعاسة المرأة كفم آكل غير منتج فى وسط فقر وندرة، حيث ذهبت إلى رسول الله تقول: يارسول الله توفى زوجى وتركنى وابنته فلم نورث، فقال عم ابنتها قولة صدق الحال، قال: يارسول الله هى لاتركب فرسا ولاتحمل كلا ولاتنكى عدوا، يكسب عليها ولاتكسب.

وهناك سبب آخر أدى إلى حالة واحدة أخرى من حالات الوأد النادرة، ويتعلق بالظاهرة فى قبيلة تميم، حيث كانت تميم قد امتنعت عن أداء الإتاوة للنعمان ملك الحيرة، فجرد عليهم حملة سبت نساءهم، فكلموا النعمان فى نسائهم، فحكم بترك حرية النساء فى الاختيار لقرار النساء أنفسهن، فاختلفن فى الاختيار مابين البقاء فى حوزة من سباهم وبين العودة لذويهم.

وكانت فيهم بنت «قيس بن عاصم»، وهى الحالة النادرة المشار إليها، فاختارت سابيها على زوجها، **فنذر «قيس» أن يدس كل بنت تولد له فى التراب**، وافتدى به بعض تميم نكاية فى النساء.

الوضع الطبقى

كان نشوء الطبقة عاملا أساسيا فى تحديد وضع المرأة، فكان هناك الإماء، والحرائر، وكانت الحرائر تتمتع بمنزلة سامية، يخترن أزواجهن، ويتركهن إذا أساءوا معاملتهن، ويحمين من يستجير بهن، وكن موضع فخر الأزواج والأبناء، بعكس الإماء إذ كان الأبناء يستحيون من ذكر امهاتهم.

علا شأن المرأة فى الوسط الثرى، خاصة إذا تمتعت هى بالثراء فكانت تختار زوجها كما حدث من السيدة خديجة وكانت إحدى ثريات مكة المعدودات، عندما خطبت لنفسها الرسول، وكان آخرون يفخرون بنسب أنفسهم إلى امهاتهم.

وكما سبق وأشرنا فقد ارتبط ذلك التطور الاجتماعى ونشوء الطبقة بنزوع قومى واضح، كانت المرأة طرفا فى جدله التاريخى، حيث كانت المرأة سببا فى حرب العرب والفرس فى ذى قار، والفرح الاحتفالى الهائل فى

الجزيرة بالنصر العربى، أما النزوع القومى وشعور قبائل العرب بأنهم جنس له نوعيته وخصوصيته، فقد دفعهم عدم تزويج بناتهم من أعاجم مهما بلغ الأعجمى من مراتب الشرف والسؤد والمال.

الحب والزواج

يبدو أنه رغم مانسمع عن قيود وأعراف عربية، وضعها المجتمع على علاقة الشاب بالفتاة، فإننا نسمع أيضا مع نشوء الطبقة الثرية عن مجالس سمر تعقد فى أفنية الدور، ويجتمع فيها الشباب والشابات حيث تضرب الدفوف ويرقص الحداءون ويلقى الشعر، خاصة فى آخر سنوات الجاهلية الأخيرة.

وكان الشاب منذ بلوغه يبدأ التشبيب بالنساء ويلاحقهن، وكان ذلك إحدى علامات الرجولة والفخر، ولأن الشعر كان اغنية العربى وفصاحته، فقد كان كل شاعر يبدأ شعره بالغزل، إلا أن الشعر النسوى كان يخلو تقريبا من ذلك الغزل.

اختيار الزوج

وإذا تأخرت خطبة الفتاة، التى عادة ماكانت تتزوج فى سن مبكرة «حوالى الثانية عشرة»، فإنها كانت تلجأ إلى طلب الرجل، فتنشر شعرها، تكحل واحدة من عينيها، وتسير تحجل فى الشارع ليلا تنادى: يالكاح، أبغى النكاح، قبل الصباح.

وهو أمر يشير إلى أن العرب وإن درجوا على عادة اختيار الفتى لفتاته، فإن العكس كان حادثا، وتشير الأحداث إلى أن المرأة كانت حرة فى اختيار زوجها، بخاصة إذا كانت من علية القوم، فهذه «هند بنت عتبة» تقول لأبيها: أنى امرأة ملكت أمرى، فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على، فقال لها: وذلك لك.

وتقول المصادر إن حق ابن العم فى ابنة عمه كان عرفا مقدما ومسنونا، إلا أن العرب بعد ذلك صارت تدرج على التزواج من خارج القبيلة، ويقول الباحثون إن كان ناتج ملاحظة إنه زواج الأقارب يأتى بالضاوين «الضعفاء والمشوهين»، فصارت لهم فى ذلك أمثال مضروبة، من قبيلها: لاتتزوجوا من القريبة فيأتى الولد ضاويا، والزواج من البعداء انجب للولد وابهى للخلقة وأحفظ لقوة النسل، ولاتتزوجوا فى حيكم فإنه يؤدى إلى قبيح البغض، والنزائع لا القرائب.

زواج الغريب

ويبدو لنا أن الزواج من قبائل أخرى، كان مرحلة متطورة تساوقت مع التطور اللاحق، الذى دفع بأفراد القبائل للخروج عن الحالة القبلية الأولى، ونظام التحالفات الذى كان إرهاصا بالقومية والتوحد، سعيا وراء توفير ممكنات إقامة أحلاف قبلية كبرى قوية، وأبرز الأمثلة على ذلك عندما بلغ الصراع ذروته بين كتلتى هاشم وأمية فى مكة، وبدأ كل من البطنين يعقد تحالفاته الكبرى ضد الآخر، وهى السياسة التى اختطها هاشم بنفسه، وتبعه فيها بنوه من بعده.

لكن ذلك لم يمنع استمرار الزواج من داخل القبيلة بالطبع وكان للطبقة والفقر والغنى دوره فى ذلك، فكانت الفتاة فى الطبقات الأدنى تفضل زواج الأقارب لأنهم أكثر معرفة بشئونها من الغرباء، وأحرص على ستر عيوبها وسلامتها، وفى حكاية «عشمة البجلية» ما يشير إلى هذا المعنى، فقد نصحت شقيقتها «خود» عندما جاءها خطاب أغراب حسان، بقوله لها: تزوجى فى قومك ولاتغرك الأجسام، فشر الغريبة يعلن، وخيرها يدفن، ترى الفتيان كالنخل، ومايدريك ماالدخل؟!.

الطلاق

معلوم أن الطلاق كان بيد الرجل، وكانوا يطلقون ثلاثا على التفرقة فإذا تمت امتنعت العودة، لكن أيضا كان من حق المرأة الثرية - ويشار إليها بالشريفة لمالها - حق الطلاق، وقد أشار أبو الفرج الأصفهانى فى أغانيه إلى ذلك فى حديثه عن نساء فى الجاهلية يطلقن الرجال، وبلغ الأمر حدا لايجبر فيه المرأة على المصارحة بالطلاق، بل كان يكفيها أن تحول باب خيمتها من الشرق إلى الغرب فيفهم الرجل أن امرأته قد طلقته.

«إلى هنا انقطع الموضوع المنشور فى مجلة نزوى وقد أوردناه كما نشرته المجلة لفقدنا الأصل المخطوط بمصادرة المدونة بالطبع فى آخر الموضوع».

رب الزمان (*)

(*) نشر في مارس ١٩٨٩، بمجلة آفاق عربية، بغداد.

منذ مايزيد على خمسة آلاف عام، عندما كان الفكر الإنسانى لم يزل فى بداياته، كان العراق يؤسس إبداعه الحضارى، حين نشأت أول حضارة على ضفاف دجلة والفرات.

وفى جنوب وادى الرافدين، كان هناك الشعب السومرى الذى لاتقل حضارته عن أية حضارة أخرى عاصرته ففى السهل الغرينى الخصب، أبدع الحكماء السومريون أدبا وفكرا يتناسبان مع درجة ارتقاء الإنسان فى تلك الأزمان.

تطلع الفكر هناك حوله مستكشفا ظواهر طبيعية الكون مفسرا وقارئا ومبدعا، فى كيان الوجود المحيط به، فترك عددا غفيرا من الآلهة، تعددت بتعدد الظواهر النافعة والضارة فى الطبيعة ومن تلك الآلهة الإله «آن» إله السماء.

«آن» رب السماء

تعنى كلمة «آن» السماء المنظورة ذاتها فى بدء الأمر، وكانت السماء فى رؤيتهم سقفا محفوظا يعلوهم، ثم تحولت بالتدريج إلى علم ورمز على الألوهية عموما، فعادلت الكلمة «آن» - بمعنى من المعانى - لفظا جلاليا أو اسما للجلالة، تدل على ألوهية أى مسمى إلهى، كما حملت الكلمة «آن» معنى السيادة والرفعة، باعتبار هذا الإله هو سيد الآلهة جميعا.

ويقول آثارى السومريات المعروف «صموئيل كريمر»: إن الأسباب التى أدت إلى سيادة «آن» على مجموعة الآلهة السومرية، لم تزل فصولها أسبابا غير معروفة، لكننا يمكن أن نتصور وببساطة، أن رؤية السومرى للسماء بفسحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأجرام والظواهر فيها، مع ضخامة هذه الظواهر، جسامتها هذه، روحا تحيط الأرض، وتغطيها من جميع الجوانب، كل ذلك كان كفيلا بإجلالها، بما يلائم عظمتها، مقابل

ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التى مهما بلغت مظاهرها هولا وغرابة، فإنها لا ترقى أبدا إلى درجة الظواهر السماوية، مع الأخذ بالحسبان، عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولا دائما، يقع فى نفسه موقع الجليل بما له من رهبة ورغبة وتقديس، فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة طرا، وأبا أولا دائم الاقتدار، بتواصل وديمومة يخصب الأم الكبرى الأرض، وهو يحتضنها باستمرار، ليلقى ماء الحياة فيها.

واستطاع الساميون أن يشيدوا بلاد الرافدين بعد أن أصبحوا سادة البلاد، وأسسوا هناك دولا كبرى نتذكرها عندما نتذكر «الأكاديين، والبابليين، والآشوريين، والكلدانيين»، واعتقدوا أن الإله «آن» لم يقم بإبداع الوجود دفعة واحدة فيكون قد فعل فعلا واحدا شاملا وانتهى الأمر، إنما كان إبداعه زواجا مستمرا من الأم الأرض، عن طريق مطره الدائم ورعايته من عليائه باستمرار لأولاده من الكائنات الأرضية «إنسان ونبات وحيوان وكيانات أخرى»، وبذلك كان فعله مستمرا، وعليه فهو لم يفعل مرة واحدة إنما يفعل باستمرار، ويما هذا الفعل هو فعل «آن» الدائم، فهو «فعل + آن» أو «فعلان»، تلك التفعيلة التى دخلت كل اللغات السامية لتدل على الفعل المستمر والحضور فى جميع الأزمنة، فهو فعل بدأ فى الماضى، لكنه مستمر الحضور والعمل، وباعتبار «آن» اقدم الآلهة طرا، فقد اكتسب صفة الأزلية ولأن السماء منفصلة عن الوقائع الأرضية، التى تتعرض للدمار والفساد باستمرار، فقد بات واضحا لعينى السومرى أن الإله «آن» دائم الحضور دون فساد أو فناء، ومن هنا اكتسب صفة الأبدية، ومن ثم تحول إلى مفهوم، فأصبح هو الديمومة أو الزمان.

ولو توقفنا مع العربية، كفرع من اللغات السامية، وحللنا كلمة «الزمان»، سنكشف عددا لا بأس به من الكشوف، وأول ماسنلاحظه فى كلمة الزمان أنها على وزن التفعيلة «فعلان»، كما أنها تشير إلى جزئيات الزمن المتراصة المتلاحقة المتلاصقة فى كلمة «زمان»، وأعنى أن الزمان هو مجموعة من اللحظات أو من الآنات «آن وآن وآن هكذا ..» أى مجموعة من اللحظات الحالية أو الراهنة أو الأتية «الآن»، مضت منها «آنات، ونحضر منها الآن «آنات»، ومنها آنات لم تأت بعد، فالزمان هو مجموع آنات الوجود، وبضم هذه الآنات إلى بعضها البعض، أو لمها، أوجمعها، أو زمها تصبح هى حزم أو زم الآنات أو «زم آن» أو «زمان» أو الزمان، الذى كان قديما هو الإله «آن» رب السماوات.

«آن» رب المكان

ونعود مرة أخرى للساميين، فنجدهم يستبعدون الكلمة السومرية «إىE» ويستبدلونها بمقابل السامى «بيت Bit»، وبيت بالتحديد تعنى معناها فى عربيتنا «البيت». لكنه كان يطلق فقط على المعابد فاختص بالكلمة «بيت» بيوت الآلهة، أما باقى الأمكنة على الأرض، فحظيت بأسم آخر، تأخذه من فرع آخر باللغات السامية، أقصد الكنعانية، التى أطلقت على بيوت الآلهة الأدنى قليلا من «آن»، هى الكلمة «بك»، وهى موجودة كمثال فى اللفظة الكنعانية «بعلبك»، وهى معبد قديم للإله «بعل» لم يزل قائما للآن فى لبنان، والإله بعل يعنى «السيد» أو «الرب»، وهو رب الأمطار والخضرة، ورب الطبيعة المروية بفعله هو، وليس بمساعدة إنسانية «بالساقية أو الشادوف» وظل «بعل» حيا فى لغاتنا حتى الآن ويحمل المعنى نفسه، وبعل المرأة سيدها وزوجها ورب بيتها، كما لم يزل حيا فى أذواقنا، حين نفضل أكل النبات المروى طبيعيا، النبات البعلى «الفول البعلى مثلا»، ونفضله على «الفول المسقاوى» الذى يدخل فى سقايته الفعل البشرى.

ولما كان الإنسان القديم، يشكل فى التاريخ مرحلة الطفولة البشرية، فإنه كثيرا ماكان لسانه يلكن لكنة أطفال اليوم، وكثيرا ما خلط بين الباء والميم وهكذا لم يكن هناك بأس من أن يصبح بيت الآله «مك» بدلا من «بك»، فجاز نطق المعبد المذكور: بعلبك، ومعلبك، ومعلمك!! ومن هنا استساغ «جورجى زيدان» فى مبحث لغوى، أن يستنتج: أن كلمة مكة من «مك» وتعنى بيت الله فى اللسان القديم، وقد نجد مايؤيده إلى حد ما، باعتبار مانعلمه عن أقرب اللغات السامية إلى الفرع الشمالى العدنانى، هو اللسان الكنعانى، صاحب الكلمة «بك»، مع أخذنا بالحسبان ماجاء فى القرآن عن مكة أنها أيضا بكة، فى قوله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا».

ولما كانت الكلمة: إى، أو بيت، أوبك، أومك، تعنى بالتحديد والدقة مقرا، أو محتوى، أو مسكنا، أو ملكا «من الامتلاك»، فهمنا من ذلك أن أى مكان أرضى هو ملك للإله المحلى له، لكن على المستوى الأعظم الذى يليق بجلال أعظم الألهة وسيد الكون «آن»، فإن كل البيوت أو الأمكنة هى بيت وملك ومحل لسكنى الاله الذى تحيط سماواته كل الأمكنة «آن» سيد الألهة، وعليه فالكلمة «مك» إنما هى التى أصبحت بعد ذلك تفصيلا «ملكا»، بإضافة اللام فى العربية الشمالية، وأصبحت جميع الأماكن هى ملكا للاله «آن»، فالأرض له ومن عليها، وجميع الـ«مك» للاله «آن» أو ملك آن، فالمكان إذن أيضا كله لـ«آن» وملكه الدائم.

وهكذا نكتشف أن المكان بدوره كالزمان، ينسب للإله الأعظم، رب السماوات ورب الزمان ورب المكان «آن».

من «آن» إلى «فعلان»

ولو أخذنا بما جاء عند فلاسفة الابستمولوجي Apstomology «نظرية المعرفة، وبما عند المناطقة الوضعيين Logical Positism، وطبقناه على مابين أيدينا الآن، لاكتشفنا أن التفعيلة كنوع من التصريف للفعل، هى مرحلة أرقى وأكثر تطورا فى الفكر البشرى من الفعل نفسه، فقد جاء الفعل أولا، ثم وبعد مرور سنين طوال اكتشفت التفعيلة، بعد الفعل بالحركة، واكتشاف مفهوم الزمان، مرحلة أكثر رقيا، لأنه يرتبط بدوره بخبرة الإنسان بالحركة، فلو قلنا فيم نستخدم الزمان! فالاجابة هى أنه معيار ومقياس للحركة فالأرض تدور «تتحرك» حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، وحول الشمس مرة كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع، وأنا أتحرك من منزلى إلى عملى، فاستغرق ساعة.. الخ، فالزمان مقياس للحركة، وماكان ممكنا أن ينشأ هذا المفهوم عن الزمان، لولا الخبرة الواقعية الحسية أولا بالحركة، وباعتبار السماء مصدراً لديمومة الحركة، فى نظر الإنسان القديم «مثل حركة الشمس والقمر والكواكب والسحب.. الخ»، فقد ربطها الإنسان دائما بكل مايحدث من حركات، حتى الحركات الإنسانية، بل ربطها بالزمان المستقبلى فقرأ مستقبله وحركاته المقبلة من خلال عملية تفسير لما يريده «آن» بتحريك كواكبه ونجومه، فيما يسمى علم التنجيم، ثم ربط ذلك كله بديمومة وجود السماء وسكون الغطاء السماوى الأزرق، فنتج لديه مفهوم الإله الساكن الأبدى المستمر، بوصفه زمانا لاينقطع، لكنه يؤثر فى جميع الحركات، بل هو المحرك الأول الدائم، عبر تأثير جنوده من النجوم على الحركات الأرضية، ومن ثم اعتبر القدماء أن النجوم هى جنوده للإله، أصبحت مع التطور ملائكة له (من أملاكه)، تقوم نيابة عنه بفعل الحركة بينما يظل هو ساكنا، يحرك ولايتحرك، يغير ولايتغير، لكنه مستمر الفعل أو فعلان.

وفى اللغة العربية، كفرع من اللغات السامية، ترك «آن» أثره كحفرية دائمة الحضور فى التفعيلة «فعلان»، كحفريات كائنات الطبيعة التى نجدها فى الصخور، فيدلنا وجودها بأعتبارها أثرا من الماضى، على هوية هذا الماضى.. ويسمى العلم الذى يهتم بحفريات الطبيعية «جيولوجيا»، بينما العلم الذى يهتم بآثار الإنسان وماتركه من تراث وحضارة يسمى «علم الأركيولوجى»، أما الأسلوب الذى نتبعه الآن فى بحثنا القصير هذا،

فهو مايدخل تحت ما يسمى علم أركيولوجيا اللغة، فى إطار من علم «الميثولوجى» أو دراسة الأساطير.

ولو تناولنا بعض الكلمات فى لغتنا للتعامل معها أركيولوجيا، وفق ماعرفناه، عن «آن»، سنجد عددا من الأمثلة التى لايحصيها الحصر، فحرم الميم «م»، عندما نبحث جذوره اللغوية، نجده يدل على الضم والزم واللم والتلاحق والإحساس الشديد بالشىء، وعادة مايكون مشددا «م» كما فى «ضم»، «هم» أى استعدت أحاسيسه لتحريكه لأمر شديد القرب لدرجة التلاصق، «وشم» دلالة الإحساس الشديد بالشىء، و«جم» للدلالة على الكثرة المتلاصقة المضمونة لبعضها، و«عم» بمعنى اشتمل وغطى.. الخ.

والميم أصلا حرف يعود إلى علاقة قديمة، بعبادة قديمة، هى عبادة الأم الأولى أو الأم الكبرى، المتميزة بالحنو الشديد، وبأنها مصدر للأمن والأمان لعبادها وقد حظيت فى مختلف اللغات السامية بأسماء مثل: ماما ومامى Mami وأما Ama وماه Mah، وهى- كلها معبودات أنثوية قديمة، تشتمل ميم الأمومة فى أسمائها، وفى أسماء المعبودات من أمهات الآلهة فى الأسر الثالوثية المعبودة، نجد «م» الأمومة والضم والحنو أساسا فى تركيب أسماء هذه الإلهات، التى تدخل معها كضلع فى أسرة ثالوثية، تتركب من أب وأم وأبن، «فأفروديت» الرومانية كانت تلقب باللقب «مارى» Mari، وفى سوريا القديمة كانت الأم والزوجة الالهية هى «ميرها» Myrha، وفى اليونان كانت «مايا» Maia، وفى الهند أيضا مايا، وفى المسيحية مريم أو ماريا Maria

الخ، وباعتبار حرف الـ«م»، أصلا صوتيا، يعطى معنى الضم والحنو، والأمومة، لو طبقنا عليه التفعيلة من «أم» يصبح «أمانا» والكلمة «أمان» تتركب من ملصقين: «أم» التى تعنى الأمومة، إضافة إلى «آن» فيصبح الأمان أمرا مستمرا دائما، يعود أصلا إلى أمن الوجود فى دفء حنان الأم، أو الإلهة الأم.

قصة الخلق بين ثقافة الصحراء(*) وثقافة النهر

(*) نشر في ديسمبر ١٩٩٠، بمجلة أدب ونقد، القاهرة.

تأسيس

معلوم.. أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير، تقاسمت الأرض حالتان طبيعتان، الأولى: يمكن تمييزها فى تجمع شرايين المياه فى أنهار، بعد استقرار أوضاع القشرة الأرضية، والثانية: وضحت فى تصحر مطرد أدى إلى خفوت نبض الحياة تدريجيا، بحيث تاثرت الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة، ومع ذلك التصحر المتزايد، وجدت الجماعة المشاعية الأولى - ذات النظام الأمومى - نفسها إزاء متغير طبيعى شحيح بمطالب الحياة والمنافع، ونرى أن ذلك قد أدى بالضرورة إلى تفكيك بنيه ذلك المشاع، تبعا لتفكيك الذى حدث فى الطبيعة، بحيث أنتهى إلى وحدات اجتماعية أصغر، وأكثر قدرة على الاستمرار والديمومة، حيث كان التجمع الكبير يعنى الهلاك جوعا، والصراع على خيرات الطبيعة الضئيلة، وهو الصراع الذى - لاشك - حدث، وأدى إلى ذلك التفكيك، ثم تبعه الانتشار المتباعد للأشكال القبلية الأولى.

وعليه، فقد وجد الإنسان نفسه فى البيئة المتصحرة، أمام خيارين: إما الموت جوعا، أو تدجين الحيوان، ومن هنا حتم الظرف على البدوى الاعتماد على الحيوان ومنتجاته فى معاشه، اعتمادا شبه كامل، فكان يأكل لحمه ويتغذى بلبنه، ويلبس من نسيج صوفه، ومن ذات النسيج كان يبنى خيامه.

ولندرة خيرات الطبيعة الأخرى، فقد أدى ذلك المتغير إلى تغير مماثل فى تطور البناء المجتمعى، فقد أصبحت الجماعة ترتبط برابطة الدم، وبنفس القوة ترتبط بحيواناتها وهى معتمد حياتها، وربما كان ذلك هو جذر الطوطمية، الذى عبر عن قرابة مماثلة - وبالدم أيضا - بين الحيوان والجماعة، كما كانت الجماعة بحاجة ماسة إلى تنظيم يضمن للجماعة بشرا وحيوانات الأمان من النفوق أو الشرود أو التيه، ومع سعى هذه

الجماعة المتجانسة وراء الكلأ، ومايحتاجه من قدرات عضلية لاتتوفر إلا للذكور، آنهار وضع المرأة! وتحولت الجماعة إلى الشكل الذكورى، خصوصا بعد أن امتلك الذكور أساسا انتاجيا متينا تمثل فى القدرة على السيطرة عل الحيوان وترويضه، فى وسط صحراوى يعتمد القوة الغشوم، وساعد على تثبيت مركز الذكور، ذلك الصراع الذى - لابد قد - شب حول مواضع الكلأ بين الجماعات وبعضها، واحتاج قدرات قتالية، وهو صراع طبيعى تماما فى ضوء اعتماد تلك الجماعات على المعطى الطبيعى الشحيح وحده، بينما فقدت المرأة قيمتها الاجتماعية فى مجتمع الندرة، بحيث اقتصرت وظيفتها على إنجاب مزيد من الذكور أما الإناث فكانت أفواها تضيف على الجماعة عبئا، حدثنا التاريخ القريب عن حل اشكاليتها بوأدها، وحتى تضمن الجماعة المتبدية تماسكها، ذاب الفرد فى القبيلة وذابت القبيلة كلها فى الفرد، وأصبح الفرد يمثل القبيلة بكاملها فى كل تصرفاته، وبحيث أصبحت القبيلة كلها مسئولة عن أعماله، كما أصبحت مطالبة جميعها بالالتزام بتصرفه، والثأر له إن أصابه مكروه، وذاب الكل فى واحد، هو طوطم القبيلة وسيدها وسلفها، الذى أصبح محل التبجيل والتقديس، وتحول إلى رمز عزة قومية وجنسية ودينية، وكان كل فرد فى ا لقبيلة يمثل هذا السلف، أو هو دون مبالغة ذلك الطوطم الموحد والموحد.

وفى شكل من الديمقراطية البدائية، التى تضمن بدورها مشاركة الكل وذوبان الكل، كان مجلس القبيلة هو الذى يحدد شيخها وقائدها، بصفات محددة، وترتبط بظروف آنية، فقد يحتاج الظرف للحكمة مرة، وللجسارة والإقدام حينا آخر، بمعنى أن الظرف كان هو الذى يحدد مؤهلات الزعيم المطلوب، وحسب الحاجة، كما يحدد أيضا ظروف عزلة وتعيين البديل الجديد المناسب، لكن من جانب آخر، تدنت مستويات الإنتاج إلى حد كاد يكون اعتمادا شبه كامل على الطبيعة، ولأن علاقة الإنسان بالطبيعة هى علاقة عمل يؤدى إلى إنتاج اجتماعى، فإن الجماعة البدوية ظلت بعيدة عن هذا المعنى الاصطلاحى، وظلت كائنا طبيعيا فى حصولها على الخيرات بالسعى الدائب وراء الكلأ، والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى، أو ماتمثل واضحا فى تطفلها المستديم على منتوج العمل فى المناطق الخصبة، والاستيلاء عليه والفرار فى غزوات لم تنقطع، سجلتها لنا نصوص الحضارات القديمة، التى استقرت على الجانب الآخر من الفرز الطبيعى أقصد وديان الأنهار، التى طورت قاعدة إنتاجية، تبعتها نقلات ضرورية على المستوى الاجتماعى.

وعلى مستوى العقائد، فإن الطبيعة المتصحرة الضنينة بأشكال الحياة

وألوانهـا - تلك الأشكال والألوان التى تتعـدد تعـددا هـائلا فى مناطق الخصب النهرى - جعلت الإنسـان فى بداوته احـادى النظرة، وإحـدى الاعتقـاد والنظام، فهو واحد-فى كل، يتمـازج بنفس الوحدة مع سلفة الواحد، الذى عادة ماتمثله فى أهم حيواناته النافعة، لذلك غالبا ماقدس أنواع الشيـاه، بالذات، لذلك كان ذلك السلف المقدس هو ربه الواحد الأوحد، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن - حيث لاوطن مع الانتقال الرعوى - والملاذ ومصدر العزة وموحد الكيان، ولايوجد رب يمكن أن يدين بالطاعة له سواه، لأنه إنما يمثل مصالح جماعته ووطنها الذى ينتقل معها أينما حلت أو ارتحلت «وهو البعد الذى نجده بعد ذلك فى العقائد الإسرائيلية المبكرة، التى كانت لاتتكر الأرباب الأخرى، لكن لاتراها فى مرتبة رب إسرائيل»، ومن هنا لم يسمح الظرف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة، فظلت فى شتاتها، مع استمرار الإله الوطنى والاعتزاز بالنسب إليه بحسبانه السلف الواحد اللامتعدد، ولايمكن أن يتعدد، لذلك كان هو المعبود الواحد الذى يضمن لقبيلته تماسكها اللزج وانصهارها وأمنها، لكنه من جانب آخر شكل أدلوجه واحد للجميع، لم تسمح - لأزمان طويلة بعد ذلك - بظهور ثنائية طبقية تسمح بمزيد من التطور ودعم ذلك الوضع، الظرف نفسه الذى فرض استمرار الديمقراطية الابتدائية ومجلس القبيلة، والزعيم الظرفى الذى لم تثبت سيادته مدة زمنية تسمح بامتلاكه قدرا من الممتلكات يؤدى إلى ظهور تشكيلة طبقية.

هذا بينما على الجانب الآخر، وفى مناطق الخصب النهرية، كان استقرار الأنهار فى مجاريها بشكل نهائى، قد استغرق زمنا غير قصير، وسمح بوجود بيئة شبيهة بحال ماقبل انحسار الجليد الأخير، من حيث انتشار الأحراش والمستنقعات مما فرض بالتالى استمرار الوضع الابتدائى للمشاع زمنا أطول، ضمن استمرارا موازيا لوضع المرأة المتميز فى النظام الأمومى، بسبب امتلاكها أساسا اقتصاديا دعم ذلك الوضع «سنأتى على شرحه الآن»، واستمر ذلك النظام فترة زمنية توازت مع المرحلة التى تغيرت فيها نظم المجتمع، الذى تحول للبداوة فى مناطق التصحر، وانتهت بالسيادة الذكرية، بينما كانت مناطق الخصب لم تستمع بعد باستقرار الطبيعة النهرية تماما، ولتوضيح ذلك سنحتاج إلى وقفات تفصيلية لابد منها، وهى وقفات تنتج لزوما عن رؤيتها، والتى تمثلت فى اقتراح يحل أو يحاول حل - مسألة أيهما كان أولا : النظام الأمومى أم النظام الأبوى؟ فبينما كان «داروين» قد افترض - بالمقارنة مع عالم الحيوان - أن السيادة

المطلقة كان ذكرية لاشك فيها منذ البداية، أكمل «آتكسون» فقال: إنه حدث أن ثار الأبناء على الأب المتسلط القاسى المتوحش وقتلوه وافترسوه سوية واستكمل «روبرتسون سميث» البحث ليؤكد أنه قد مرت بعد ذلك فترة انتقالية ظهر فيها النظام الأمومى، وانتهى «فرويد» بعد البناء على ماسبق، إلى أن الأوضاع قد عادت إلى سابق عهدها وساد الذكر، بينما كان يقف على الجانب الآخر اقتراح يحمل أدلة ربما كانت أقوى - كما عند «إنجلس» مثلا - يؤكد أن البداية كانت نظاما أموميا لاشك فيه.

وكان اقتراحى هو رفض السؤال: أيهما كان أولا؟ من أساسه، بحسبانه الخطأ الذى أدى إلى تضارب الاجتهادات، وزعمت أنه لم يكن هناك قبل ولابعد، ولاسابق ولا لاحق، حيث قد انتهى الظرف البيئى إلى تميز مجتمعين عن بعضهما رغم تزامنهما، هما مجتمع البداوة ومجتمع النهر، أى أن الاختلاف كان مكانيا وليس زمانيا، وهو الزعم الذى أضحى بحاجة إلى تأييد، وهو تأييد بحاجة إلى بعض التفصيل الوجيز.

سيادة الأنثى

لنقر مبدئيا أنه من غير المنطقى أن يوجد مجتمع كل آلهته إناث، ويسوده بشر ذكور، أو العكس، ولنقرأ بعد ذلك الترتيلة السومرية التى تقول: «عندما تزوجت الإلهات الأم وعندما توزعت الإلهات الأم بين السماء والأرض.. وعندما ولدت الإلهات الأم.. عند ذلك كتب العمل.. الإلهات العظام يراقبن العمل، والأبناء يحملون السلال، «انظر مثلا: فوزى رشيد، خلق الإنسان فى الملاحم السومرية والبابلية، آفاق عربية، إيار ١٩٨١) - ولنحلظ أن البيئة السومرية فى جنوب وادى الرافدين، لم تكن قد تحددت فيها معالم نهرى دجلة والفرات تحديدا واضحا، ولم تزل، وحتى الآن تختلطان فى الدلتا وتنتشر بينهما الأهوار والأحراش والمستنقعات شبه الغابية.

حقيقة أنى أرى فى تلك الترتيلة حفرية رائعة، نقش فيها ماحدث فى حقب الحياة القديمة، فالإلهات هنا هن الإلهات الأم، اللاتى توزعن بعد ذلك بين الأرض والسماء، ومن الجدير بالذكر أن أول تمثل للأم الأولى الكبرى كان فى تربة الأرض الخصبة، ومع نقلات تطورية استغرقت زمنا، تم تمثلها - إلى جوار الأرض - فى كوكب الزهرة المتلالى ذى الحسن والدلال، وهو ماتشير إليه الترتيلة بوضوح، ولك أن تلاحظ أن قدسية الإلهات الأم قد ارتبطت بـ«عندما ولدت» ولنتذكر أهمية «ولدت تلك فسنعود إليها»، بينما أصبحت مهمة الأبناء، وهم جمع الذكور، العمل، لتتفرغ الأم الإلهة لإدارة شئون العشيرة، ومن ثم لم يكن غريبا أن ينادى

السومريون تلك الإلهة بالنداء: ماما Mama ومامى Mami وأماه Ama «انظر حول تلك التسميات جان بوتيرو: الديانة عند البابليين ١٩٧٠، ص.١١».

وتلخص لنا الأنثروبولوجية جيكيتا هوكس jaquetta Hawkes الاتجاهات البحثية بصدد تأليه الأم الانثى الأولى، فتقول: إن أقدم تماثيل شكلها الإنسان للعبادة، تمثل إناثا ضخمت فيهن الأعضاء المثيرة جنسيا، أطلقت عليها هوكس اسم تماثيل إفروديت الولادة، وتبع ذلك عصر اتضحت فيه بعض رسوم تتسم بالذكورة، تلاها عودة كاسحة إلى الإلهات الإناث، وذلك مع اكتشاف الزراعة فى العصر الحجرى الحديث، ويعود تاريخ التماثيل الولادة إلى حوالى خمسة عشر ألف عام «أى فى العصر الحجرى القديم»، ولنا أن نلاحظ هنا أن الجليد قد تراجع قبل ذلك بألاف عشر أخرى، مما يشير إلى التحولات التى أشرنا لحدوثها فى البيئات المتصحرة على المستويين البيئى والمجتمعى، مع بقاء أوضاع المشاع فى البيئات الخصيبة على حالها، إلى مايزيد عن عشرة آلاف عام.

وتؤكد هوكس أمرا منطقيا تماما، هو أن النساء هن مكتشفات الزراعة، إبان جمعهن للثمار فى منطقة مستقرة مع أطفالهن، وملاحظتهن - بالصدفة المتكررة - لنمو الثمار المتساقطة على الأرض مرة تلو الأخرى، فى وقت كان فيه الرجال يخرجون للقنص، وعند عودتهن يكون كل الرجال لكل النساء، فينسب الأطفال للأم دون الأب، وقد شكل اكتشافها الزراعة، وإجادتها لهذا العمل رغم بدائيته النسبية، أساسا اقتصاديا ساعد على تثبيت سيادتها «التى حضرتها لنا الترتيلة السومرية»، ثم تلى ذلك نهاية العصر الحجرى الحديث، أى منذ حوالى خمسة آلاف سنة تقريبا، سيادة الذكور النهائية، ولاحظت هوكس أن ذلك اقترن بنشأة المدن المستقرة الكبيرة «للمزيد من إرجع إلى: History newyork american libery, 1963, P.O. 35 - 357 hawkkes, Pre).

أما نحن فقد أجزنا لأنفسنا - وفق مابيدنا من شواهد - أن نلاحظ أن ذلك الزمن تحديدا، «نهاية العصر الحجرى الحديث» كان بداية هبوط الموجات البدوية على المناطق الخصيبة بالهلال الخصيب، والتى استمرت نوعا من الهجوم الدورى على الحدود لسلب المحصول بعد جنيه، وانتهت باستقرار السيادة البدوية فى المناطق الخصيبة فى شكل غزو استيطانى كامل، وهى الموجبات التى اصطلح على تسميتها بالهجرات السامية، ولعلنا نذكر أن البداوة كانت السلطة المطلقة فيها الذكور.

تدعيم رؤيتنا

تقول ميد Meda مقولة اعتيادية تماما هى: إن النساء بفضل قدرتهن

على الإنجاب، ولأن مسألة الولادة كانت فى عينى الإنسان البدائى مثيرة للدهشة والعجب - وربما الانبهار المؤدى للتقديس - فقد أدى ذلك إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة (انظر: Male and Famale, new york, morrow, 1949, pp, 102 - 103.)

ونضيف إلى ميد : أن الولادة فى مجتمع أمومى، يأتىَ فيه أى ذكر أى انثى، كانت لا تعطى للذكر فرصة لملاحظة أثره ودوره فى عملية الإنجاب، إضافة إلى الفترة الطويلة الفاصلة بين الحمل والولادة، والتى كان يمكن أن تخفى عن عين البدائى غى المدققة، للعلاقة بين الأمرين، كما أن معيشة الأولاد والبنات سوية حينذاك دون عائق قبل المراهقة، ومعرفتهم الجماع الذى لاتنتج عنه ولادة، أدى بدوره لعدم الربط بين الجماع والولادة، وعدم إعطاء الذكر دورا فى عملية الميلاد بل أن هناك من يعتقدون اليوم - فى بعض المجتمعات المتخلفة - أنه يمكن للمرأة أن تحمل دون رجل يأتيها، بل وتدخل تلك الفكرة ضمن معتقدات كبرى، لذلك كان طبيعيا أن يتصور الإنسان فى المبتدأ أن الانثى وحدها هى الكائن المسئول عن منح الحياة، والقادر الوحيد على ذلك، بحيث أصبح إعطاء الوجود حياة جديدة اختصاصا انثويا بحتا، وقد دعم تلك الرؤية اكتشاف الانثى للزراعة، حيث كانت الزراعة إنجابا للحياة وامتلاكا لأسرارها، لذلك لم يكن غريبا أن تكون أول التماثيل المعبودة لإلهات إناث ولادات.

وإعمالا لذلك نرى أنه قد تبع اكتشاف الزراعة، استقرار دائم انتظارا لنضج المحصول «وهو يشابه انتظار نضج الجنين»، وتبعه بالضرورة دعم لوضع المرأة السيادى، لكن ذلك الأساس الانتاجى ذاته استبطن فى داخله الانهيار المقبل لوضع المرأة، والمتغير الآتى الذى فرضه التوسع فى قطع الغابات مع التحقيل وإحلال الزرع محلها، ومايحتاجه مثل ذلك العمل الجبار من قوى عضلية، ومايحتاجه من حيوانات قوية مدجنة لجر الأشجار المقطوعة، وللعمل فى حراثة الحقل وحمل المحصول، وهو ما اقترن بالضرورة بسيادة تدريجية للذكور أدت إلى تبادل المواقع السيادية، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى سجل لنا فيه التاريخ أن الجموع المتبدية ذات النظام الذكرى، قد هبطت بقطعان مواشيها القوية إلى أراضى الخصب، فميا يعرف بالهجرات السامية.

والملحوظة الجديرة بالاهتمام هنا، هى أنه بعد هبوط الهجرات السامية على الهلال الخصيب «وهو نموذجنا هنا»، وماتلا ذلك من قيام الدول المركزية «وهو ماسنأتى على شرحه»، نجد استمرار تواجد الإلهات الإناث فى حضارات الشرق الأدنى القديم، إلى جوار آلهة الدولة الحاكمة

الذكور، ثم أن التماثيل التى تركتها لنا فنون تلك الحضارات تصور لنا الإلهة الأنثى تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف فى حقل حنطة، أو تصور على ثوبها سنابل الحنطة، هذا بالتبادل مع النخلة فى رسوم أخرى وإن كانت أقل انتشارا، وهو مايشير بوضوح إلى ارتباط الإلهة الأنثى بالزرع، وبالحنطة تحديدا «أول الزراعات المدجنة»، ولو أخذنا بالحسبان أنه بمرور الوقت، ومع النظام الاجتماعى الذكرى، ومع الاستقرار، بدأ الذكر يلاحظ دوره فى عملية الانجاب، كما لاحظ التشابه الواضح بين حبة الحنطة المفلوقة وبين فرج الانثى المفلوق، وأن كلا الفرجين ينفلق عن ميلاد وحياة جديدة بعد رى الحبة بالماء ورى الفرج بمنى الذكر، فربط بين المنى والماء واعتبر المنى ماء الحياة المذكر «أوزيريس النيل فى مصر، بعل المطر فى الشام، أبسو وآنكى إلهى الماء فى الرافدين.. الخ».

كما ربط بين الحنطة والمرأة، ناهيك عن رصيدها فى اكتشاف تدجين الحنطة تحديدا، والتى تحمل التشابه مع الفرج الأنثوى، هذا مع حملة التشابه مع نواة التمر الذى انتهى بتقديس التمر بدوره، وبحيث حملت النخلة قدسية المرأة وأصبحت رمزا دالا عليها فى العبادات وفى الحوارات الجنسية، واحتسب التمر دواء شافيا يحمل كثيرا من البركات حتى اليوم، خصوصا إذا خلط باللبن «وهو رمز المنى الذكرى؟!» ولاننسى أن مريم أتاها المخاض عند جذع النخلة والتفاعل معها بهزها.

أما الكلمة «تمر» فالواضح لدينا أنها الأصل والجذر فى الكلمة الدالة على الزرع على وجه التعميم، أقصد كلمة «ثمر»، وتأسيسا على تلك التجربة والملاحظات، بنى الإنسان تصوراته عن التكوين والوجود، فربط التكوين بدم الحيض الشهرى، بعد أن لاحظ غياب الدم مع بدء الحمل المؤدى فى النهاية إلى ظهور الحياة فى المولود، فربط الدم بالحياة، وتصور أن ذلك الدم المحبوس داخل الرحم هو الذى يقوم بتكوين الوليد المقبل، وقد ربط ذلك بملاحظة أخرى هى الموت المحتوم الذى يصيب الإنسان المجروح عندما ينزف دمه، ذلك الدم الذى أصبح على وجه العموم سر التكوين وسر الحياة، وبقى فى الذكرى، حتى فى مجتمع الذكور، بحسبانه منحة الأنثى الإلهة الأولى.

هذا وقد لاحظ بعض الباحثين «مثل فرويد» ارتباط الأنثى بالقمر، والذى كان عادة ينقش إلى جوارها فى حالة الهلال، فاحتسبوا أن الإنسان القديم رمز للأنثى بالقمر، وأن القمر هو الإله المؤنث، لكنا ذهبنا إلى اتجاه معاكس تماما، فقد افترضنا أن هذا الاقتران بين الأنثى والقمر إنما نتج عن تناغم إيقاعات الدورة الشهرية للمرأة مع التبدلات التى تطرأ على

وجه القمر خلال الشهر القمرى، الذى ينضبط إلى حد مدهش مع الإحدى وعشرين يوما للدورة الحيضية، وأن غيابه يترافق مع نزول دم الحيض، وبربط تلك الظاهرة بظاهرة نزول دم البكارة عند أول جماع للفتاة البكر، انتهى بتصور أن القمر هو الزوج الحقيقى أو الغائب للمرأة، بخاصة مع حدوث حالات حمل مع غياب الذكر فترة طويلة للصيد أو فى ظروف طارئة، والقمر قد اقترن من جانب آخر بحيوانات الرعى عموما «الشياه»، لشبه الهلال بقرنى الخروف أو الثور، وهى الحيوانات التى شكلت الأساس الاقتصادى الذى أدى إلى امتلاك الذكور قاعدة انتاجية دعمت وضعهم السيادى، والذين مالوا عموما منذ البداوة إلى الترميز للهلال بالخروف، والذى عادة ما رمز بدوره للسلف الأب الذى فى السماء.

وتأسيسا على ذلك احتسبت أولى نظريات التكوين أن بداية الخلق جميعا من الأنثى الولادة، التى، تمثلت فى قوة أنثوية تلد كل شىء من الزرع إلى البشر، وأدمجت كقوة خلق كبرى فى جميع الإناث بشرا وحيوانات وأرضا ولودا، وتمثلت المادة الأولى للتكوين فى دم الانثى تحديدا.

ومن الطريف أنه بالقرب من موطنى: مدينة «الواسطى» وعلى الطريق إلى «الفيوم»، ظهرت كرامة زراعية رائعة الدلالة، تشير إلى بقاء المأثور القديم فى الوجدان الشعبى بقوة، فمنذ زمن غير بعيد «حوالى ٧ سنوات» انتشرت اسطورة تقول إن رجلا أراد قطع شجرة الجميز القابعة على الطريق الرئيسى، ومع أول ضربة بالفأس «وهو رمز ذكرى دائم لأنه يشق رحم الأرض» صرخت الشجرة ونزفت مكان الضربة دم غزير، وفى تلك اللحظة تحديدا، وكانت فى الثلث الأول من الليل، وعندما سمع أهل القرية جميعا دوى الصرخة الملتاعة، نزفت كل امرأة كانت فى حالة جماع مع زوجها، ومن ثم اختار الأهلون للشجرة اسما لاجدال فى دلالته، وهو «الشيخة خضرة»؟! ووضعوا بجوارها صندوقا كتب عليه: تبرعوا لبناء مسجد الشيخة خضرة؟!، والغريب أنك عندما تقترب من السجرة - التى اخذت المئذنة تتعالى من خلفها - لتطالع المادة الصمغية التى جفت قطراتها على الساق المقطوع، ستجد أهل القرية قد علقوا على الفروع أشرطة من نسيج أخضر، وعلقوا على الجذع قرنى خروف؟!، أما الهلال السيادى فقد تم الاهتمام بوضعه فوق المئذنة، حتى قبل إتمام بقية المسجد.

الأنثى والأرض

ويمكننا أن نرى ارتباط الأنثى الولود بالأرض، متمثلا بروعة أخاذة فى

اسطورة سومرية تحمل اسم «أسطورة الشعير والنعجة»، ولنلحظ بداية الشعير «وهو الحنطة رمز الخصوبة الأرضية، وأول مادجنت المرأة، من زوع، كما أن النعجة هى رمز الأنثى الأشهر»، وتتلخص الأسطورة فى القول: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة الأرض كما يخرج الزرع والحشيش وكل صنوف الحياة.

ويمكنك أن تجد نفس الفهم فى أسطورة سومرية أخرى تحمل عنوان «هبوط إينانا إلى العالم السفلى»، وقد وضعت - فيما يبدو - لتفسير ظاهرة التناوب الفصلى بين الخصب والجدب، كما تلخص المفاهيم الأولى عن الوجود والتكوين، وتقول: إن إلهة كوكب الزهرة إينانا، كانت تهبط إلى باطن الأرض دوريا كل عام حيث عالم الموتى، وبتضحية اختيارية تتم وقت الاعتدال الخريفى، حيث يبدأ فصل الجدب على سطح الأرض ومع عودتها تخصب الأرض وتتفتح الأزاهير، لأن عودتها تعنى بدأ عملية الاخصاب والتوالد، «فيعود الخروف إلى شاته» والثور إلى أنثاه، والزوج الغاضب إلى بيته، أو كما قالت!! لذلك لم يكن غريبا - مع طرحنا - أن يتم تعديل تلك الأسطورة السومرية الزراعية، بعد سيطرة الأكاديين على بلاد سومر وقيام دولتهم المركزية، وهم من أصل رعوى بدوى خيموى، ليتحول اسم إينانا إلى عشتار وعشتروت من العشرة والمعاشرة والتعشير، لكنها لاتصبح السيدة المطلقة المسئولة عن الخصب، إنما يظهر هنا سيد جديد كان فى الأساطير السومرية مجرد ذكر خامل الذكر، ضمن مجموعة عشاقها العديدين، «ترميزا لزمن الأنثى فى المشاع»، ليرتفع ذلك الذكر وتعلو مكانته ويصبح هو المسئول عن الخصب ومنح الحياة واستمرار الحياة، وهو المعروف فى الأساطير السامية الرافدية باسم «تموز راعى الخراف الطيب»، ويصبح هو رمز النبات الذى يموت فى فصل الجدب وينزل إلى العالم السفلى، ويعود مع بداية الربيع، دون أى ارتباط بواقع ماحدث تاريخيا فى بلاد الخصب اللهم إلا الارتباط بمنطق السيادة التى حققها الذكور الأكاديون، منطق نظام اجتماعى يأخذ بالسيادة الأبوية فى نظمه الاجتماعية «وهناك أمثلة عديدة يمكن للقارىء الرجوع إليها فى أعمالنا المنشورة»[1].

ورغم الواضح فى المأثور الحضارى فى المنطقة عن تراجع سيادة الأنثى، فيبدوا أنها ظلت ذات وضع سيادى فى عالم الاعتقاد، ومعلوم أن بقاء المعروف المتمازج من القديم مع جينات الجديد، يظل فترة أطول من تغير الواقع المادى الأسرع فى التغيير، وقد أبقى ذلك لنا ثروة طيبة،

(١) انظر تفصيلات أوسع لهذا الموضوع في كتابنا الأسطورة والتراث.

وجدنا فيها طقسا مثيرا كان يمارس فى المناسبات الدينية الاحتفالية بالإلهات الإناث، فى المراكز الحضارية الكبرى فى الشرق القديم، والطقس عبارة عن احتفالية جنسية عمومية هائلة عددا وعدة، فى أيام محدودة بجوار معبد الإلهة، وكان أشرف الأعمال التى يمكن للأنثى تقديمها فى هذه الاختلافات هى التضحية بالبكارة فى هيكل الإلهة، ولاأجدنى مخطئا إن احتسبت ذلك الطقس أفضل قربان يمكن تقديمه للإلهة المخصبة الولود الشبقة المنجبة مانحة الحياة، تذكرة بالأيام الخوالى أيام كان الرجال للنساء جميعا، والنساء للرجال جميعا، وإذا كان ذلك ممجوجا من قواعدنا الأخلاقية اليوم، فإنه كان حينذاك على العكس تماما، بل كان واجبا دينيا خطيرا تقدمه النساء للإلهة كى يفشو الخير وتأتى السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية للأم الكبرى لتبدأ فعلها فى الطبيعة، تأسيسا على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وليس أدل على شرف ذلك العمل الذى يتم من أجل خير المجتمع كله، من تلك اللوحة التى عثر عليها مؤخرا فى طرالس بليديا، منقوشة على عمود شرف مرمرى يعلن: أن الشريفة أورليا آماليا قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها فى تدينها أصيلة، فقد قدمت أمها وجدته القربان ذاته، وأنه قد تم للهيئة الكهنوتية للتأكد من ذلك!؟ «انظر فريزر، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا ابراهيم، ص٤٥».

ولنلحظ استمرار التواجد الأنثوى فى العبادة حتى الآن فى العقيدة المسيحية، حيث تعتبر مريم أم الإله المسيح من أبيه السماوى، وهذه الأم الإلهية تستوجب الاحتفال والتقديس، لذلك اختصت دون الأقانيم الثلاثة بصيام العذراء ، الذى يصوم فيه المسيحيون عن كل ما هو حيوانى، ويقتصرون فيه على الأكل النباتى لتذكير واضح لالبس فيه، بالمجتمع الذى زعمناه فى بسالف الأزمان، يعيش فى البيئات الخصيبة، ويستغنى عن اللحم فى الغذاء ويعتمد على الوفرة النباتية، وتسوده أم إلهية مقدسة، ولاننسى التبادل بين كلمتى «نبات» و«بنات».

أما اللغة فكانت كعادتها تحمل دلالات أحفورية حملت الخبرة القديمة وماتأسس عليها من مفاهيم، تقولبت فى ألفاظ تحمل دلالات تلك المفاهيم، فالكلمة قديسة هى فى العبرية قديشا، وكانت فى الأكادية القديمة قاديشتو، وكان أبانها اللقب الذى تحوزه العشتارية، أى المصطفاه من جموع النساء الحاشدة ليلة الحفل النزوى خارج معبد عشتار، لتقوم بدور الإلهة داخل هيكل الإلهة مع الكاهن الأكبر الذى عادة ماكان الملك يقوم بدوره «انظر كمثال فاضل عبدالواحد، عشتار ومأساة تموز، بغداد،

ص١٥٨، كذلك بالمرجع السابق ص٧٠»، أما التى كان أهلها من النبلاء يقدمونها طائعة للهيكل، فكانت تحوز لقب الإلهة الأم ذاتها وهو «البتول» وهو فى الكنعانية والأكادية والعبرية «بتول، بتولتا، بتولا» ويعنى فى العقائد القديمة «إشارة للإلهة» الأنثى غير المتزوجة وغير العفيفة فى آن معا.

الخلق فى الفهم الذكرى

لأن الخلق بالميلاد فى النظام الأمومى كان يعتمد مادته الأساسية دم الحيض، فإن سيطرة الذكور التامة بعد الغزو البدوى لمناطق الخصب، وسيادة النظام الذكرى، كان لابد أن تتم إعادة صياغة الأدلوجة بما يتفق والشكل السيادى الجديد، ولأن مفهوم التكوين من الدم بات راسخا، فقد لجأت الأسطورة الذكرية إلى صياغة جديدة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة لأن الذكر لايلد، وأخذت منحى آخر أعطى الذكر الدور الأساسى، فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر، قاموا بذبح إله يدعى، «كنجو»، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان، وهو ماسجلته لنا الملحمة الرافدية «إينوما أيليش» وتعنى «وفى العلى عندما».

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطأ آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى «تيامة» إلهة شريرة، أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة الذكرية «مردوخ» بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبيير واضح عن انتصار النظام الجديد، ثم قام مردوخ بشق تيامة كما تشق الصدفة إلى قسمين، رفع القسم العلوى وجعله سماء، وترك النصف السفلى ليصبح أرضا، وفى تلك التنظيرة نجد اعترافا ضمنيا بضرورة الأنثى للتكوين، فمن جسد الإلهة الكبرى تم تشكيل الكون سماء وأرضا.

ولأن الجديد استبطن القديم، ولم يكن ممكنا التخلص نهائيا من دور الأنثى فى البناء المعرفى، القائم فى على فرز مادى تاريخى عريق، فقد حملت الأنثى فى ظل السيادة الذكرية قيمة ثنائية، فهى فى لغة البداوة السامية «فى العبرية مثلا» حواء، لكن الكلمة حفرت فى تركيبتها ومفهومها جذر الحياة، وفى الوقت نفسه حملت الوجه الآخر الجديد فارتبطت حواء بالحية مصدر الأذى والشر، ولنلحظ الأرتباط الجذرى بيين: حواء، حياة، حية، حيا أى «فرج» والمرجح فى ربطها بالحية ملاحظة البشر للحية تنسلخ من جلودها كل عام، فتصوروا أن الحية خالدة تجدد حياتها بهذا الأسلوب كل عام، فربطوها بالأنثى حواء مصدر الحياة المتجددة، ومع ذلك فإن الحية فى المأثور التوراتى الأشهر، وهو قمة

وتطور وخلاصة المأثور البدوى الذكرى، ترتبط بالمرأة لكن فى صيغة تبخيسية، فهى توعز لحواء بأكل الثمرة المحرمة فى عالم الخلد، فيفقد الرجل الخلود بسببها، وتتحول المرأة عن منح الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد.

أما على مستوى القاعدة الاجتماعية، والشكل السياسى، وارتباطهما بالمنظومة المعرفية، فى ظل السيطرة الذكرية، فقد ارتبط جميعه بخطوات تطورية سريعة تلاحقت بعد الغزو البدوى السامى للرافدين، فإن المشتركات الأولى ظلت تتمتع ببقايا الديمقراطية البدائية البدوية، وبمجلس القبيلة الذى أصبح مجلس المشترك الذى يختار الزعيم، ولكن مع الاستقرار فى البيئة النهرية، والتحول إلى الفلاحة، ومايفرضه النهر من تلاحم القوى البشرية للسيطرة على مجارى المياه الهائلة وتوزيعها، فإن ذلك فرض نوعا من الطوارىء المستمرة، التى أدت إلى استمرار مماثل فى سلطة الزعيم، بحيث انتهى الأمر مع بقائه ببقاء الطوارىء إلى إلى تسليمه كل ألوية وشارت القبائل المتبدية، ليتحول الشكل السياسى إلى المركزية الصارمة، وإلى توارث الزعامة فى بيت الزعيم الملك، بعد دمج المشتركات الأقليمية فى الدولة المركزية، بعد صراع مزمن بين تلك المشتركات، وهو ذات الأمر الذى حدث فى عالم السماء، حيث تقول ملحمة الإينوما أيليش أن مجمع الآلهة الخمسين «ولاشك أنه يقابل مجلس القبيلة الأرضى، أو مجموعة الأقاليم» قد سلم سلطاته للإله مردوك، وأنهم قد اجتمعوا فى السماء ومنحوه قدرة تغيير كل شىء، وخلق أى شىء، بمجرد النطق بالكلمة، تعبيرا عن السلطان المطلق الذى أصبح يتمتع به الملك الأرضى، وبعد أن أصبحت كلمته نافذة لاتقبل الأرجاء، حيث تقول الملحمة: «واجتمع الخمسون، فى أبشوكينو فرحين، وسلموا مردوك شارتهم، وقالوا: من مثلك ملك، مر قطعة القماس الممزقة تلتئم، مرها الثانية تعود سيرتها الأولى».

لكن الواضح فى كل الأساطير الرافدية القديمة، أن تلك القدرة على الخلق بالكلمة كانت بالقوة لابالفعل، فهى قدرة مرجأة حيث كان الخلق يتم دوما بالفعل اليدوى، بل ويظهر فى التوراة التى أقرت الخلق بالكلمة، فى كل مرة كان الرب يصنع مخلوقاته بيديه صنعا، مما يشير إلى أن الأمر قد تمت صياغته فقط لتبرير إطلاقية الكلمة السيادية على الأرض عندما يقول الملك كن، فلابد أن يكون «راجع الاصحاحات الأولى من سفر التكوين التوراتى».

المرأة فى المأثور الدينى والأسطورة

(١) محاضرة ألقاها الباحث بدعوة من اتحاد النساء التقدمي بمقر الحزب التجمع في ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٣، ونشرتها مجلة أدب ونقد.

حريم وحرام

عندما نعتاد الأمر يتحول إلى بدهية، ولانلتفت إلى تناقضه وهشاشة أسسه، وبمرور الوقت يصبح من أشد الأمور اختلافا بين الناس، بين من يدقق ويرفض منطق الاعتياد، وبين من اعتاده حتى اعتقد أنه بدهية.

ومن المعتاد - لكنه بالفعل ليس بدهيا - أن هناك متسلطا وهنا مقهورا، وأن للمستغلين مصالح تستدعى تزييف وعى المضطهدين «بفتح الطاء»، ويشهد التاريخ أن أشد الأدوات مضاء بهذا السبيل هى الأدوات الأيمانية، التى تلعب على الوجدان العاطفى للمتدين، ومن ثم نراهم ينفقون بسخاء وذكاء، على وسطائهم المحترفين من كهنة ورجال دين، ينشرونهم فى كل مكان، يبثون الصبر، وينفثون السلوان، مبشرين بجزاء أيوب، يتتبعون أى تحرك واع ضد تزييف وعى الناس، ينقضون على كل رأى أو سلوك أو حتى كلمة أو فكرة، فربما ثقبت الكلمة الجدار السميك للجهل المنشور، الذى يمنع المضطهد من الوعى بحاله وبوضعه فى المجتمع.

ولأن تطور المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الوضع الإنسانى اللائق بكرامة الإنسان، فإن الظرف الاجتماعى الحالى لازال يسوغ القسمة الطبقية الصارخة بين الناس، طبقات، طوائف، أجناس، دائما هناك الأقوى والأضعف، المفترس والفريسة، القاهر والمقهور.

وربما أبرز نماذج تلك القسمة اللاإنسانية، وتشكل وصمة عار كبرى فى تاريخ البشرية، ذلك الذى حدث منذ استولى الذكر على مقدرات المجتمع البشرى، وأزاح الأنثى من البؤرة إلى الهامش، ليصوغ مجتمعا ذكوريا أسس لأبشع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجنس الواحد، ففرق بين طرفى حياة لاتكتمل الحياة دون التقائهما جنسا وجسدا وروحا وتكاملا إنسانيا.

والتاريخ يؤكد أن الشرق كان هو المؤسس لذلك التقسيم العنصرى الطبقى فى آن معا، ولم يزل، ومن يومها تتعزى المرأة الشرقية بالصبر والسلوان الفقهى، وتبلسم جراحها بخطابات منبرية، تؤكد لها أنها فى مكان

التكريم بين نساء العالمين، تتعزى صبرا فى عالم الأرض، وصبرا فى عالم السماوات، وفى الدنيا وفى الآخرة، وإن أحسنت أيمانها وأحصنت فرجها وأمتعت زوجها وسيدها، دخلت يوم الدينونة ضمن حيرم السيد المؤمن الذكر فى جنة رضوان، ذلك الحريم الذى تبدأ أعداده من السعبين لتصل إلى الملايين فى بعض الأحاديث المنسوبة للنبى.

وإيمانها الذى سيعطيها تلك المنحة الخالدة لايحسن إلا بالطاعة الكاملة للرجل والخضوع له والتسليم الكامل لسيادته الغشوم فى دنيانا الفانية، حتى تضمن لها مكانا كفانية ضمن حريمه فى الآخرة أيضا.

والدارس للمرأة فى منظومة المأثور العربى، يجد ذلك المأثور يميز جنسيا وخلقيا بين الذكر والأنثى، فهو المخلوق الأول، وهى الثانى، بل هى منه قطعة، هو المخلوق لنفسه، وهى المخلوقة له ومن أجله، ويلاحظ ذلك الاختلاف العضوى بين الذكر والأنثى، قد تحول فى مأثورنا من تكامل ضرورى لصنع الحياة، إلى امتياز خاص للرجل، مأثورنا يعيد وضع المرأة إلى زمن حواء الأسطورى، زمن الخطيئة الأولى، ويمركز الشر كله حولها، فهى شيطان غواية لأنها رفيقة إبليس «!» المرأة لاتتحكم بشهواتها، ولاتكون مع رجل إلا وكان الشيطان ثالثهما، ويتأصل سوء الظن بها فى لاوعى الجماعة على أسس الأيمان لأنها هى التى أغوت أدم، حتى قصص الأنبياء تخبرنا أن نساء الأنبياء قد وقعن فى الخطيئة.. امرأة لوط، امرأة نوح، فى التوراة سارة امرأة ابراهيم، هاروت وماروت أغوتهما امرأة! ولدا آدم تقاتلا على امرأة، فالمرأة تخضع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعية ومن الطبيعى أن تخون فهى أحد أربعة لا أمان لها «مع المال والسلطان والدهر» فى الحديث «ولو طالت عشرتها» كل هذا دون أن نلتفت لحظة لفظاعة وضعها المجتمعى، ولا لكم الخيانة الذكورية للمرأة، وللتاريخ كله.

وهكذا يؤسس موروثنا لتبخيس المرأة، فقد خلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الرجل، وليس لها من الطلاق شىء، «ولو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، والكهنة رسل الشيطان والنساء مصايده، شل مستمر لشخصيتها، وإضعاف دائم لفاعليتها، ودفع دائم لها لتكون على الصورة التى يريدها الرجل، ليسقط عليها عدم براءته وشهوانيته ونقائصه، لتصبح مجرد جسد، غير مطلوب منها أن تفكر فهناك من يفكر بالنيابة عنها، مطلوب منها فقط أن تعطيه الراحة والمتعة! أن تكون مجرد متاع! ويترسخ المأثور داخلها هى تؤمن هى نفسها أنها مجرد فرج «!!» وأنها لذلك حرمة حرام، فتفرض المأثور على نفسها فى شكل وسواس قهرى داخلى، يضع بينها وبين عالمها كل التحريمات حتى الصوت الذى هو عورة، لتحصل بذلك على رضا الزوج الذى هو رضا الرب، وتكتسب رضا الجماعة

واحترامها، بحيث تتعايش مع الضغوط وألوان العقاب والاحتقار، المفترض احتراما، وتصبح أكثر أعضاء الأسرة والمجتمع تحملا للاضطهاد، لتعيش فى وسط يترصدها ويعد عليها سكناتها، ومن ثم يصبح وضعها هذا فى المجتمع طبيعيا تماما، معتادا تماما، بدهيا تماما، لانلتفت إليه، ولانفكر فيه، إلا عندما نصادف امرأة وعت الأزمة، فتكسر فى وجوهنا عدم برائتنا بسلوك جديد ورأى جديد ومنطق جديد يخيفنا ويرعبنا، هنا فقط لن نفكر إلا فى هذا الانفلات وكيف نحجمه ونعاقبه، حتى لا تأخذ لحريتها مساحة من حريتنا، حتى نظل السادة، وحتى نجد دوما من نحمله ونعاقبه، حتى لاتأخذ لحريتها أيضا أوزارنا - ودون أن نناقش ذلك الفرض الذى فرضه مأثور، هو الذى فرز لمرحلة تاريخية طال أمدها - دون أن نناقش مدى صدق الفرض ومدى اتساقه مع إنسانيتنا وماندعيه من رقى بشرى، ونظل نطلب المرأة النموذج، التى تظهر الخجل عندما تحادث الرجل التى تكبت ميولها الطبيعية ولاتتذكر سوى كونها عورة، التى تعرف أنها حرم.. حرم فلان فهى حرام بل الحرام ذاته، حرمه، مقدس لايجوز لمسه، وهى أيضا وفى ذات الوقت منجسة لأن طبيعتها النجس والفعل الجنسى معها يؤدى للنجس، لذلك لابد أن يغتسل جسد الرجل، جميعا لرفع أى أثر لتلك الملامسة والممارسة، كذلك دم الحيض يغطيها بالنجس، لذلك ترفع عنها أثناء ذلك كل التكاليف لاتصلى، لاتصوم، كذلك طوال فترة النفاس وهو الأمر الذى له أصوله فى الأسطورة وفى القديم الذى أسس لمعنى الحرام والحريم، وهو ما ينقلنا عن تلك الصورة التى قعدها لها المأثور، إلى محاولة قراءة نماذج سريعة لواقع المجتمع منذ ماقبل التاريخ، وهو يتحول بالمرأة من مركز السيادة إلى الحضيض، طبقيا وجنسيا وإنسانيا.

امرأة: الأصل أسطورى

«امرأة، حواء، أنثى» أسماء ثلاثة مؤسسة أولى لذلك الكائن الذى كلما حاول التملص كلما قيل أنه لغز، وسعيا وراء أصول التسميات تحكى لنا التوراة أن الله خلق آدم الذكر، ووضعه فى الجنة حيث عاش وحيدا لايجد أنيسا يؤنس وحشته، وهنا قرر الرب أن يؤنسه بكائن يسليه، وكان هذا الأنيس هو المرأة، وذلك فى نص يقول فيه آدم عن المرأة المصنوعة من ضلعه: «هذه الآن عظم من عظامى، ولحم من لحمى، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت/ تكوين ٢/٢٣».

وهكذا فالنص يجعل امرأة تأنيث إمرء وليس العكس، ليظل الرجل أولا، فهى تابعة له فى الخلق، وتابعة فى المسمى، لكن بالتوراة نفسها نص آخر يعيد تسميتها لشأن آخر فلأنها مصدر الحياة وفاتحة المواليد، يقول النص: «دعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حى/ تكوين ٣/٢»، وكلا التسميتين

«امرأة» من ضلع امرء، و«حواء» أم كل حى، وفى الأصل العبرى «تلك التى تحيى» يشكلان فى يد الباحث مفاتيح تضىء له ذلك القديم، ليكتشف أصل وضع المرأة فى المجتمع.

عند قراءة الأسطورة بحثا عن الأسم «امرأة» لن نجد أبدا أنها كانت تابعة لـ«امرء»، بل العكس تماما، فالميم للأمومة ولاتجد فى الإلهات الكبرى القديمة اسما يخلو من ميم الأمومة، فأصل الكون البابلى «مى»، والأم الإلهة الكبرى بالأسماء الثلاثة المتواترة حتى الآن «ما» «أماه» «ماما»، وكل إلهات الخصب فى حوض المتوسط يحملن الأسم «ميرها، ميريا، ميريام، مريم، ستلاماريا»، والميرة هى الزاد، هى مناحة الطعام والحياة، وهو مايلقى الضوء عليها كمكتشفة أولى للزراعة، وميرها هى شجرة المر المقدس أيضا التى أنجبت الآلهة الذكور الأبناء.

أما الكلمتان: أنثى وحواء، فتضيؤهما لنا قصص الخلق الأولى فى الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكى عن مكان خاص كانت تعيش فيه الآلهة الخالدة يدعى «دلمون» «البحرين الحالية»، وهو مايناظر «أولمب اليونان»، وهناك جاء إلى الوجود إله بإسم «جى» ممثلا لبداية البشرية على الأرض، رعيلا أو يجمع اللاهوت من الناسوت، أو الألوهية مع الإنسانية، واسمه ملصق من مقطعين يشيران إلى كونه أو لسكان الأرض فهو من «آن - سيد أورب» و«جى - الأرض» وتحكى الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى «مما ممهور ساج» أو «ننهور ساج» هى التى ولدته، وأنها حرمت عليه ثمارا بعينها فى دلمون حرصا على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفى وأكل منها، فأصيب بمرض شديد فى واحد من أضلاعه كاد يقضى عليه.

وهنا أسرعت الأم الإلهة فخلقت له إلهة أنثى مهمتها تمريض ذلك الضلع وعلاج الإنسان الأول «آنجى» وكان الربة الممرضة «آنتى»، والأسم «آن تى» من ملصقين «آن - سيدة أو ربة» + «تى»، و«تى» عندما تكون اسمها تعنى الضلع فيكون المعنى سيدة الضلع، لكن تى عندما تكون فعلا تعنى تحيى، أى تلك السيدة تحيى أى هى أحيت آنجى بعدما أشرف على الموت، وهو مايلقى الضوء على أصل الأسطورة التى حورت أو فهمت خطأ فيما نقله المأثور التوراتى عن الرافدى، لتكون حواء أو «آن تى» هو أصل كلمة أنثى هى «نتايه» ببساطة، والأنثى والنتاية فى الجذر تشترك أيضا مع النتوء والظهور.

الإله من أنثى إلى ذكر

والدارس للأساطير سيجد من الشواهد القرائن الأركيولوجية مايدعم الفرض: أن الأنثى كانت مركز لمجتمع أمومى ابتدائى، وأنها كانت فى مركز يتناسب مع مجتمع كانت آلهته إناثا، ومنطقيا لايمكن أن نجد مجتمعا كل

آلهته إناث ويسوده على الأرض ذكور ومن ثم تكون النتيجة أن الأنثى كانت سيدة ذلك المجتمع.

ويبدو لنا أن السبب فى ذلك حسب قوانين الحراك التاريخى، هو امتلاكها أساسا اقتصاديا، دعم تلك السيادة، وهو مانلمحه فى تصور لشكل ذلك المجتمع الابتدائى، حيث كان المجتمع صياداً، يخرج فيه الذكور للصيد والقنص، بينما كانت رعاية الصغار تستدعى استقرار المرأة بجوارهم، فكانت هى بداية الاستقرار فى المكان، الذى أدى بعد ذلك إلى نشوء المشتركات المستقرة ثم القروية فالمدنية.

وكان استقرارها هذا دافعا لها لاكتشاف الزراعة، وهى تلحظ سقوط الثمار على الأرض، ثم عودتها للإنبات فكان أن حاولت تقليد الطبيعة، فاستنبتت الثمار، فأسست لنفسها بذلك الكشف أو أساس اقتصادى متين لسيادتها، وهو الأمر الذى كان لابد أن يضيف لانبهار الرجل بقدرتها على الولادة ابهارا آخر بأنها تمكنت من جعل الأرض تلد بدورها، مما أضاف لقدراتها السحرية «اقتصادية أصلا» رصيدا آخر، وربما كانت أيضا هى مكتفة الفخار، بالنظر إلى شكل الأوعية التى عثر عليها بجوار الإلهات الإناث القديمة وهى ماكانت تمثل دوما ثديا أو فرجا أو فخذا إذا استطالت، كما كانت مكتشفة الخمر، بتخمر الطعام الزائد فى أوانيها، وهو ما فاجأ الذكور عند العودة من القنص بمزيد من السحر، يضيفونه على المرأة السيدة الإلهة بعد مادارت الرؤس بسحرها الجديد.

وهى أيضا مكتشفة النسيج، بما توفر لها من وقت واستقرار للملاحظة والكشف والتجربة والخطأ والمحاولة، حتى النجاح الذى أضاف لأساسها الانتاجى مزيدا ورصيدا، لكنها وهى بسبيل تأسيس الاستقرار الأول الذى أسس للمدينة فيما بعد، أن استقر الرجال إلى جوار زرع المرأة وغراسها، ومن ثم تم سحب البساط من تحتها لصالح الذكور، ويلاحظ الباحث أنه مع ذلك الاستقرار المدنى وبدء استخدام الحيوانات القوية فى الحرث، يبدأ ظهور الآلهة الذكور بوضوح فى منظومة السماء، وهو أمر فيه تفاصيل كثيرة نحيل فيه الحضور إلى كتبنا للمزيد، ونكتفى بتلك الإشارات السريعة لضيق الوقت المتاح، فقط نلمح ونؤكد على الأساس الانتاجى لسيادة المرأة الذى فقدته، فساد الذكر، وتحولت ربه السماء من أنثى إلى ذكر، فأصبحت الشمس ذكرا بعد أن كانت أنثى، كذلك عشتار نجمة الجمال الزهرة، تحولت مع السيطرة الذكورية إلى الإله الذكر عستر فى خطوط المسند اليمنى جنوبا والخط النبطى شمالا.

أما تصورات ذلك المجتمع لبداية الخلق فكانت بسيطة بساطة المجتمع الأمومى الأول، الحدث سهل، كان على الربة الكبرى أن تلد الكائنات، والتى تم تمثيلها فى الأم الأرض ممتزجة بالأنثى السيدة على المجتمع آنذاك.

ولما كان الرجل قد لاحظ اختفاء دم الحيض مع بدء الحمل، فقد تصور أن ذلك الدم هو الذى يقوم بتشكيل الجنين داخل البطن، ليعطى بعد ذلك تلك الظاهرة المدهشة المذهلة، ظاهرة إعطاء الحياة والمواليد، لكن بعد السيطرة الذكورية وتحول الإله إلى ذكر، كان لابد أن فعل الخلق من الأنثى للرجل ولكن لأن فكرة الخلق بالولادة من دم الحيض المختفى فى بطن الأنثى قد ترسخت تماما، قامت أسطورة الخلق الذكرية على ذات الأساس، فقام الآلهة الذكور بذبح إله صغير مخنث، لاهو ذكر ولاهو انثى ليفصدوا دمه مع طين الأرض ليصنعوا منه الإنسان الأول، ومن ثم تحولت القصة عن فعل الولادة إلى فعل الخلق، وهو مايترافق مع مزيد التفرغ الذى أحدثه الاستقرار والوفرة للبشر على الأرض لمزيد من الكشف والابتكار أو الخلق.

لكن فى نفس الآن كان لابد أن يتم تبخيس الأنثى كرد فعل نفسى إزاء سيادتها القديمة وسحرها الدائم، فتحول الدم الحيضى فى المأثور إلى نجس، لكن يبقى المأثور فى اللاشعور الجمعى مستيقظا، فحين تحيض المرأة ترفع عنها التكاليف فلا صوم للإله الذكر، ولاتصلى للإله الذكر، لأنها فى هذه الأيام الخمسة تستعيد وضعها القديم، إنها لاتعبد أحدا حينئذ، لأنها فى هذه الأيام الخمس حين يتغيب القمر الإله الذكرى عن الحضور، والذى يوافق إيقاعه الحيض، يظهر حيضها وتحضر قدسيتها، لتصبح هذه الأيام الخمس إلهة، وتتقدس الخمسة لتصبح مانعة السحر والحسد كما كانت فى القديم، أما يوم الخميس فيصبح فى المأثور الإسلامى اليوم المفضل لجماع المرأة، أما الخمسة «الدائرة» فهى دلالة واضحة على الفرج.

وللتذكرة فقط، ظل دم الحيض حتى عهد الجاهلية الأخيرة فى جزيرة العرب مقدسا، فقد كانت نسوة العرب ومكة يطفن بالكعبة، ثم يمسسن بدم حيضهن الحجر الأسود، تواصلا مع ذكر السماء، وهو ماعبرت عنه كتبنا التراثية كأبلغ مايكون، وهى تلخص قصة تحول المرأة وتبخيس الدم الخالق، بقولها: إن الحجر الأسود كان أبيضا، فأسود من مس الحيض فى الجاهلية أما الكلمة حواء فتقترن بعد ذلك فى الجذر مع الحية التى تحمل الكيد والدس والخديعة، وتقترن حواء بالحية، والإبليس، الذين اشتركوا معا فى خديعة ادم، ذلك الآدم الذى خدع الجميع وخدع التاريخ، لأنه حقيقة إنما كان ضحية شهوانيته وعدم براءته ومرضه السيادى، لأن خضوعه الداخلى الذى كان يرفضه باستمرار فيبخس المرأة، كان خضوعا لحواء الحياة للحية أم كل حى، ذلك المشترك الذى يضم فى الجذر كلمة «الحيا» أى الفرج الأنثوى سر الحياة ومصدر الميلاد، وأزمة عدم البراءة فى الرجال.

سر الأسماء المقدسة(*)

(*) نشر في صحيفة العربي، الاثنين ٢٨/ ٨/ ١٩٩٥.

فى كتاب المواجهة ضمن سلسلة كتاب الأهالى، كتب الأستاذ الشيخ خليل عبدالكريم «ص ١٤٧» يقول: «الحواريون أو الرسل أو التلاميذ الذين كانوا مع المسيح عليه السلام كانوا ثلاثة عشرة، وعدة أهل بدر الكبرى من المسلمين كانوا ثلاثة عشر وثلاثمائة، فهل هناك صلة من نوع خاص بين الديناتين الساميتين، وبين الرقم ١٣؟ وهل لهذا الرقم مكان ملحوظ الميثولوجيا السامية القديمة؟

هذا ما أدعوا أخى وصديقى د. سيد محمود القمنى عالم الميثولوجيا المرموق أن يجيبنى عنه.

وعندما يطرح مفكر فى قيمة الأستاذ خليل عبدالكريم سؤالا، فإن الحصافة تستدعى الإجابة الفورية للرجل الذى أثرى مكتبتنا العربية بقراءته المستنيرة فى منتوج الفكر الإسلامى، وإعمالا لذلك قمت بكتابة هذه العجالة السريعة، مع وعد بتقديم دراسة مطولة حول الأرقام والأشياء والظواهر المقدسة فى ديانات حوض المتوسط الشرقى، فى المستقبل القريب.

مقدسات البيئة

ورغم اشتراك معظم ديانات شعوب العالم فى معالم أساسية مقدسة، فإن هناك اختلافات جذرية فى كثير من التفاصيل بين تلك الديانات، كنتيجة محتمة لاختلاف الظروف البيئية باعتبار الإنسان ابن بيئته، وأن الدين يتفاعل مع ظروف البيئة والمجتمع، كذلك يسهم اختلاف المكان والزمان والتشكيلات الاجتماعية والأنماط الاقتصادية والمرحلة التطورية التى وصلها المجتمع، وكم التراكم المعرفى لديه وكيف يسهم جميعه فى طبع الدين بسمات تختلف أو تقترب من ديانات الشعوب الأخرى.

وملاحظة الأستاذ خليل حول تشابه ديانات شرقى المتوسط السامية أمر

صحيح تماما، من حيث كون تلك الديانات قد ظهرت فى مجتمعات تتشابه فى ظروفها الاجتماعية والبيئية مع التجاور المكانى، وإن اختلفت زمانيا فدخل على المتأخر منها بعض التطوير والتجريد الذى لم يحظ به السابق.

ولعل أكثر أوجه التشابه تكمن بين الديانتين الساميتين: اليهودية والإسلام، لتشابه الظرف المجتمعى والبيئى، فكلا المجتمعين قد نشأ فى بيئة صحراوية جبلية، وكلاهما كان مجتمعا قبليا تسوده أعراف القبيلة ونظمها ومرحلتها فى التطور التاريخى، ومن ثم تجد ألوانا من التقديس لأرقام بعينها، ولأشياء أخرى عينية هى من أهم معالم البيئة الصحراوية، فكلتا الديانتين ديانة قمرية: الشهور قمرية، مواعيد التضحية قمرية، الاحتفاليات الكرنفالية الكبرى قمرية، الصيام قمرى «والقمر يعلو المآذن الإسلامية»، والمطالع للتوراة سيكتشف أن القمر فى أحيان كثيرة كان يعد أحد تمثلات الإله ذاته.

كذلك قدس البدو الصخور النادرة والأحجار والجبال، فاليهود يقدسون جبل «حوريب ـ كاترين» بسيناء ويطلقون عليه اسم «جبل الله»، وعرب الجاهلية والإسلام يقدسون جبل عرفات يسمونه «عرفات الله»، وكان اليهود يقدسون كل مرتفع من الأرض، يقدمون عنده قرابينهم وأضحياتهم، ويمارسون عليه طقوس الجنس المقدس، وعرب الجزيرة كانوا أيضا يذبحون عند عرفات ويقدسون جبلى الصفا والمروة.

كما كان تقديس الأحجار فى البيئة الصحراوية أمرا واضحا فى ديانات الصحراء، خاصة إذا كان الحجر من النوع النادر، ومن ثم قدس العربان منذ القديم الأحجار النيزكية المنصهرة القادمة من الفضاء، باعتبارها قادمة من حيث عرش الإله، ونتيجة انصهارها اكتست بلون أسود لامع زاد فى روعتها وجلالها ومن ثم قاموا يضعونها فى أبنية البيوت المقدسة والمعابد، وللسبب نفسه قدس اليهود النيزك الكبير الموجود بالقدس، والموجود الآن تحت مايعرف بإسم قبة الصخرة، وأحاطته القدسية الإسلامية بعد حديث الإسراء والمعراج كذلك قدس عرب الجاهلية حجرا أسود وضعوه بالكعبة، ورغم ماجاء به الإسلام من تطور، فإنه جعل للحجر الأسود مكانة قدسية.

الرقم «٧»

ويلحظ الباحثون أن رقم «٧» قد أحيط بهالة كبرى من التقديس فى الديانات السامية الكبرى، فقصة الخلق التوراتية تقول: إن الله خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح من عناء عمله فى اليوم السابع،

لذلك تقدس اليوم السابع الذى اعتبروه يوم السبت، من «شباث» أو الثبات والسكون، لذلك لايعمل اليهودى يوم السبت ويقلل من حركته ماأمكن، واعتقد اليهود بأن المحافظة على قدسية اليوم السابع مجلبة لرضا الإله ولحسن الحظ، وأن انتهاكه نذير شؤم ودمار، ثم انصرف ذلك التقديس إلى مواضيع شتى يشغل فيها الرقم «٧» مكانا بارزا فتحدثوا عن أعمار الإنسان السبعة، وماللقطط من سبعة أرواح.. الخ، ثم جاءت المسيحية لتستمر فى تقديس نفس الرقم، وتحدثنا عن الخطايا السبع المميتة، وسيوف الحزن السبعة فى قلب العذراء، وأبطال المسيحية السبعة، مع تقديس اليوم السابع الذى أصبح يوم الأحد، وكلها لدى المؤمن المسيحى أمور واضحة ومعقولة لمجرد أنها سبعة وكفى بذلك سبيلا.

أم القرآن الكريم فقد قال بقصة الخلق نفسها، لكن الإسلام خالف كل المعتقدين فى يوم الراحة المقدس، وكرس له يوم الجمعة الذى كان يعرف بإسم يوم العروبة، ثم أفسح مجالا فسيحا للرقم «٧» وهو مانجد نماذج له فى الآيات الكريمة:

- ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ «٢٦١/ البقرة».
- ﴿وقال الملك: إنى أرى سبع بقرات﴾ «٤٣/ يوسف».
- ﴿سبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ «٤٣/ يوسف».
- ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ «١٧/ المؤمنون».
- ﴿الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ «١٢/ الطلاق».
- ﴿سخرها عليهم سبع ليال﴾ «٧/ الحاقة».
- ﴿ولقد أتيناك سبعا من المثانى﴾ «٨٧/ الحجر».
- ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ «٤٤/ الحجر».
- ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ «٢٧/ لقمان».

ومع الميل للمبالغة يصل التقديس من السبعة إلى السبعين، كما فى عدد السبعين إسرائيليا الذين اختارهم موسى لمقابلة الإله «يهوه» فى جبل سيناء، كذلك السبعون تابعا للمسيح، وهو مايجد صداه فى الآيات الكريمة من قبيل:

- ﴿فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا﴾ «٣٢/ الحاقة».
- ﴿فاختار موسى من قومه سبعين رجلا لميقاتنا﴾ «١٥٥/ الأعراف».
- ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ «٨٠/ التوبة».

أما الحسنات السبعين فمتكررات فى كثير من الأحاديث النبوية.

أصل الأسبوع

من غير المعلوم يقينا السر فى تقديس رقم «٧» وقد وضع بسبيل ذلك عدة احتمالات، منها أنه عدد تام لايقبل القسمة إلا على نفسه، وقيل إن الجذر «سبع» لغة يعنى الكفاية والتمام والامتلاء، وهو بالعبرية «شبع» أى امتلأ، ثم هو يعنى القسم المغلظ، كما فى حادثة بئر سبع التى أقسم عندها إبراهيم وأهل فلسطين، وتسمى لذلك بئر القسم، كما تعنى أيضا رقم «٧» لأنهم ذبحوا عندها سبع نعاج، أما السبع - الأسد - فهو ملك الحيوانات وأكملها وأجلها شأنا، ولما كانت الباء تتبادل مع الفاء فى اللغات السامية، باعتبار أن كلتيهما من الحروف الشفاتية، فقد تحولت سبع وشبع لتصبح شفع، علامة على الأرباب الشفعاء فى الجاهلية، أما الإسلام فقد ألغى جميع الشفاعات وأبقى على شفاعة واحدة للنبى.

لكن بعد التأمل والتدقيق، يمكن أن يطلعنا على السر وراء كل ماأسبع عل على الرقم سبعة من هالات قدسية، لنكتشف أنه ليس لخاصية فيه، بقدر ماكان ناتجا عن تقديس الساميين القدماء، وبخاصة أهل الرافدين للكواكب السيارة الخمسة المرئين بالعين المجردة مع النيرين الكبيرين الشمس والقمر وعددهم سبعة.

وكان للقمر بالذات فى البداوة وليل الصحراء مكانه المتميز، لذلك كان ألصق بخيال البدوى من الشمس المحرقة خاصة فى ليل الصحراء، مع السحر القمرى المبهر المتمثل فى تحولاته مابين هلال وتربيع وبدر ومحاق.

وقد لاحظ الساميون القدماء أن تحولات القمر تنقسم إلى قسمين متساويين، ومن ولادته إلى تمامه بدرا أربعة عشر يوما، ومن ظهوره بدرا إلى محاقه أربعة عشر يوما، والأربعة عشر يوما ينقسم إلى قسمين متساويين ٧ + ٧، ومن هنا وصلوا إلى تقسيم الزمان بمعرفة معنى الأسبوع، الذى هو ربع الشهر قمرى، وقد قرن البابليون المتفوقون فى دراسة الأفلاك تلك النتيجة بالسيارات الخمس المعروفة آنذاك: المشترى «الإله مردوخ» والزهرة «الإلهة عشتار»، وزحل «الإله نيناب» وعطارد «الإله نابو» والمريخ «الإله نرجال» مع الشمس «الإله شماس» والقمر «الإله سين» «وعددهم جميعا سبعة آلهة»، ليتنهوا إلى وضع الزمن فى أسابيع على عدد الآلهة السماوية السبعة، وكانت أعظم الآلهة فى المعتقدات الرافدية، وغنى عن الذكر أن هياكل بلاد الرافدين كانت هياكل لعبادة تلك الأجرام كما كانت فى الوقت نفسه مراصد فلكية ومحلا لدراسة الأفلاك ومتابعتها.

ولعل القارىء سيلحظ معنا أن السنة تتكون من «٥٢» أسبوعا، ولو جمعنا طرفى الرقم ٢ + ٥ سيعطينا النتيجة «٧».

والخلاصة من كل ذلك أن تقديس الرقم «٧» يعود أصلا إلى تقديس الآلهة الكوكبية السبعة العظمى المعروفة بالآلهة مقررة المصائر، وقد تمت عبادة كل إله من تلك الآلهة فى يوم سمى بإسمه، وقد ترك ذلك التقديس القديم أثره فى أسماء تلك الأيام حتى اليوم فى أسماء الأيام الأفرنجية التى تعود إلى أصول سكسونية قديمة، فيوم الأحد كان يوم عبادة الشمس، وكان فى السكسونية Sund's.day الذى جاء منه أسم يوم الأحد Sunday ويوم الأثنين المكرس لعبادة الإله القمر اسمه اسمه Monday وقد أخذ من الأصل السكسونى Moond's.day أما الثلاثاء الذى كان مكرسا لعبادة إله الحرب، وهو عند السكسون الإله Tiwes فقد جاء منه اسم يوم الثلاثاء Tiwesday كذلك شأن الأربعاء الذى كرس لعبادة الإله ودن Woden ومنه جاء اسم يوم الأربعاء Wednes day، ثم الخميس يوم إله الرعد الصاعقة Ther ومنه جاء اسم الخميس Thurs day، أما الجمعة المنسوب للإله Friga فاشتق منه الاسم الأسم Fri day، لينتهى التقسيم بيوم عبادة الإله زحل Satern الذى اشتق من اسمه اسم يوم السبت Satur day.

الرقم ١٢

وهكذا كانت عبادة الأجرام السماوية هى الأصل والمنشأ لمقدسات ظلت تفرض وجودها فى تاريخ الإنسانية حتى اليوم، وهو الأمر الذى قصدنا بيانه من خلال التوضيح العاجل السالف، لنصل إلى عدد تلامذة المسيح وحوارييه، إلى العدد «١٢»، وهو ماجاء فى سؤال الأستاذ خليل بخطأ من قبيل السهو فقال: إن عددهم ثلاثة عشر.

والرقم «١٢» أحيلت إليه أعداد مقدسة لأشخاص مقدسين، فتلامذة المسيح من غير اليقينى أبداً أنهم كانوا اثنى عشر حواريا، لكن كتاب الأناجيل ضبطوا عدد التلاميذ مع العدد المقدس، وكذلك فعلت التوراة عندما جعلت أبناء يعقوب ـ إسرائيل المعروفين بالأسباط اثنى عشر ولدا هم بنو إسرائيل، وفى الجلجال بفلسطين كان يقوم أثنا عشر عمودا مقدسا من سالف الأزمان، كذلك كان عدد أعضاء مجلس معبد دلفى المشهور فى اليونان، أما يسوع المسيح فقد أظهر تفوقه العقلى وهو يناهز الثانية عشرة، عندما كان يواجه كهنة الهيكل ويفحمهم «انظر مثلا إنجيل لوقا ٢/ ٤٧».

وكما كانت قدسية الرقم سبعة قد فرضت نفسها حتى أصبحت أشواط

الحج سبعة، ليدور المؤمنون حول المركز المقدس، كما تدور الكواكب السيارة حول مركزها الإله الكبير الشمس، فقد جاء كذلك تقديس الرقم «١٢» من ذات المصدر القديم، فالمنازل السماوية للكواكب الإلهية المعروفة بالبروج عددها أثنا عشر برجا، فالعدد «١٢» هو رسم البروج، أى عدد علامات الزودياك، وكما كانت الآلهة السبعة تسكن البروج الاثنى عشر الفلكية البابلية القديمة، فقد تم إسكان أسابيع الزمن فى اثنى عشر شهرا وهى عدة شهور السنة عن الله.

٢ - السؤال الآخر

سيد القمنى

الإهـــــداء

إلي شهداء مجزرة الأقصر

قربان

مقدمة

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات والدراسات التى سبق نشرها، إنشغلت بطرح مجموعة من الأسئلة والاستفسارات الصحوية بمبررات طرحها العملية والعلمية والعقلية، والأهم «الوطنية». وقد تم وصف مثل تلك الطروحات المتسائلة بأنها أسئلة حرجة وصعبة أحيانا وبأنها مقلقة تهز أمورا تصورها الناس من الثوابت أحيانا، أخرى، وأحيانا ثالثة بأنها تخوض فى مناطق شديدة التخصص فى علوم الدين، ولاتصح مناقشتها على الملأ، لأن إشراك العامة فيها مفسدة لهم، بل مثير للفتن والبلبلة فى المجتمع.

وهنا بالتحديد تكمن أهمية السؤال الآخر المقلق الصعب الحرج، إذ نعتقد بشديد البراءة أن أى أمر قابل للطرح وللمناقشة بالحجج العقلية والأدلة الاستنباطية والعلمية، حسبما تحتاج الظروف، وحيثما كانت مصالح العباد والبلاد فثمَّ وجه الله، ولاشك أن إخفاء جوانب فى مأثورنا وإبراز أخرى كان يرتبط طوال تاريخنا بمصالح انتهازية، بغرض التعمية على مناطق فى تاريخ الإسلام المقدس أو فى تاريخ الوطن، كان يمكنها فضح وتعرية شعارات الإعلام الموجه ومعتمدات الإرهاب المسلح معا.

ومن هنا ستجد داخل هذا الكتاب كثيرا من التساؤلات المزعجة، لأننا الآن وقبل غد بحاجة إلى كل إزعاج ممكن، فمن جانبنا ليس لدينا مانخشى خسارته سوى ذلك الوطن الذى يتسرب من بيننا إلى الضياع، وهنا محور التحدى والجرأة الواثقة المطمئنة إزاء جميع النفعيين والانتهازيين، سواء كانوا أشخاصا أم مؤسسات أم أحزابا أم أصحاب مناصب سيادية، والذين هم أشد فتكا بهذا الوطن من الإرهاب المسلح.

وهنا نحن لانفعل أكثر مما كان قاعدة لملايين المصريين الذين ماكان لديهم شىء يخشون عليه الخسارة، فصاغوا إسلاما خاصا مصريا يتضفر مع حاصل تراث وثقافة مصر جميعا، ولم يرهبهم منطق القداسة المتربع بجوار العرش السلطانى، وتركوا تراثا هائلا لم يزل بعد بحاجة إلى

التصنيف والتبويب والاحترام الكامل والعلمى، لنفهم أى عبقرى هذا الشعب؟.

ولأن هذا الشعب كان كذلك، وكان كثير الدهشة ولايخشى ملامة طرح السؤال، فقد كان على لسانه المثل قاعدة أتت بدورها فى صيغة سؤال يقول دهشا مستنكرا: «**هوه السؤال حورروم؟!**» وهو نفس الشعب الذى كان يرفض الأوضاع الخاطئة فى المجتمع، كما يرفض فى نفس الوقت الرشوة المقدسة بالحور والخمور فى عالم الأبدية، فى مثله البسيط السائر «**المحتاج يبيع نصيبه فى الجنة**»، لكن ماحدث هو مجموعة من المتغيرات والأسباب المتعددة كان منها دور مؤسسات التثقيف الرسمية، التى قامت عن عمد وسبق وإصرار بتزييف وعى الجماهير، مما أفرز لدى المواطن المصرى وعيا زائفا لاعلاقة له بالفرز الطبيعى للوطن، لذلك كان طبيعيا أن تخرج علينا جماعات الإرهاب المسلح بعد أن غاب مفهوم الوطن وقيمه لصالح ذوى المصالح، الذين عمدوا إلى إبراز مذهبيات دينية بدوية، برزت معها بالضرورة الدول التى ترعاها.

والسؤال هنا يخوض فى أعوص المناطق وأكثرها وعورة، ويسير فوق كل جحور الأفاعى دفعة واحدة، رغم أنه لم يتعرض لثوابت غيبية، إنما كان يتوجه مباشرة وبوضوح ربما كان صادما نحو المناطق التى تتعلق بمعاشنا وحياتنا، حتى يمكن إضاءة المساحات المخفية والمحجوبة والمسكوت عنها، لأن استمرار السكوت مع الوعى والمعرفة هو لون من ألوان خيانة الوطن بلا جدال، بعد أن جاء المنهج السائد بالاسرائيليين إلى حدود الدلتا عام ١٩٦٧ إلى حدود الدلتا الشرقية، وإنتهى بنا الآن إلى مقلب نفايات الأمم.

وبينما تعلن الدولة تمسكها بكل قيم الحريات والحقوق الإنسانية، فإنها فى واقع الممارسة تفعل شيئا آخر تماما، فهى طوال الوقت تكرس لمنهج يكبح السؤال والإبداع الحر، ويدرب العقل على الطاعة الكاملة، وأنه لاخوف علينا فنحن خير أمة أخرجت الناس، تقف من ورائنا منظومة فكرية متكاملة ثم إنها قدسية، لايدخلها الباطل أبدا، أننا نملك الحقيقة المطلقة وكل علم ممكن، لأن لدينا فى تلك المنظومة كل الكشوف العلمية حتى مالم يكتشف منها «؟!»، ولدينا قوانين تنظيم المجتمع، ولدينا قواعد الحريات السياسية والإنسانية، ولدينا قوانين الاقتصاد الكامل، وقوانين علوم التربية النهائية، وعلاج كل أمر فى كل شأن.

وهكذا، تم تكريس الواحدية الشمولية الدينية، مع تضخم النفس وتورم الأحلام فحصلنا على أجسام الديناصورات بالتكاثر والتناسل الذى نجيده

حقا وصدقا، لكن مع عقول دمرتها الخرافة والمناهج الواحدية، ونفوس تضج فى الصدور بألف علة وتشوه نفسى، أليست تلك جريمة وطنية عظمى بكل المقاييس؟ وعشنا خدر العصور البدائية وتصورنا أننا بكثرتنا العددية «نحن الغالبون»، رغم أن المصرى الخبير سبق وأكد فى مثله السائر: إن «**العدد فى الليمون**»، فأدرك حكمة إنقراض دولة الديناصور من الوجود، ذلك المصرى الذى هضم وامتص الأيديولوجيا الوافدة ليضفرها مع نظراته الفلسفية للكون، المعتمدة على بنية تحتية مخالفة لتلك الأيديولوجيا، وقام يحول الإله أوزيريس رب الزرع إلى «الشيخ زارع» الولى التقى صاحب الموالد، وآمون إلى «أبو الحجاج»، وإيزيس ربة الخضرة إلى الشيخة «خضرة»، وفى العاصمة أصبحت إيزيس ست الديوان السيدة زينب، لكن هذا الفرز الطبيعى لم يعد الآن كذلك نتيجة تدخل الآلة الجهنمية للإعلام الموجه داخل كل بيت.

إضافة إلى أن هناك أسباب فصيحة واضحة معلومة لهذا الارتكاس،فإنى أزعم هنا زعما سيبدو شديد الغرابة أحتسبه أحد أهم أسباب ذلك النكوص، وهو التعليم المجانى **الموجه** الذى اعتمدته ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، ليخترق المنظومة المصرية الأصلية وخط سيولة الوعى، بقطع الشريان الواصل من القلب إلى العقل حيث جهاز الوعى، ووصل مكانه بمضخة التعليم **الموجه مقابل مجانيته**، ودفع الوطن مقابل هذه المجانية عقل أبنائه بل ربما وجوده المستقبلى على صفحة التاريخ، وقام هذا التعليم يضخ إلى الشارع بالألوف من المؤدلجين الجاهزين دوما لتصفية الآخر المخالف للرأى الأحادى المطلق الصدق، وكان إرهاب اليوم هو جنى مازرعت أيدى هؤلاء بالأمس وحتى اليوم.

لقد احتاجت مؤسسة الدولة دوما تبريرات فقهاء السلطة المحترفين من العاملين بشئون التقديس، لمواقفها السياسية وسياساتها الاقتصادية وفلسفتها الشمولية، فكان ماكان.

لقد كانت مجانية التعليم غير مجانية بالمرة وعلى الإطلاق، فقد اشترت بهذه المجانية الأرواح والعقول وكل الشواهد تؤكد ذلك، ولأن التوجه كان عروبيا وحدويا فى منهج شمولى، كان لابد من تكريس اللغة العربية، والتعليم بحاجة إلى وعاء اللغة، لكنها اللغة التى كان يسخر منها الفلاح المصرى ويتساءل مستنكرا رافضا متوجسا: «**انت هاتكلمنى بالنحوى؟!**»، لقد كان «النحوى = العربى الفصيح» يعنى له أن هناك مؤامرة تختفى وراء الألاعيب اللفظية، ستمررها عليه الفصحى بأساليب ملتوية غير مباشرة، ولاشك أنها تحمل خدعة مبيتة، هذا رغم علم هذا الفلاح وإيمانه أن اللغة

العربية لغة مقدسة، خاطب الله بها نبيه، وبها تحدث آدم فى الجنة مع الملائكة، وأنها ستكون لغة الحساب بعد البعث ثم لغة الأبدية.

المأساة تتضح بعد تحول الكثيرين من الأميين إلى متعلمين بل حاصلين على أعلى الشهادات التى لاتعنى الثقافة بمعناها العلمى الدقيق، وحملت إليهم العربية مع أيديولوجيتها الواحدية كل محيطها الذى ارتبط بها وأفرزها، أى المنظومة البدوية بكاملها، فكان أن أختفت كثير من مفردات اللسان المصرى الباقية فيه من راسبه القديم، وكذلك توارت كثير من النظم والعادات والتقاليد الأصلية، ثم انقرضت الكرنفالات المصرية التى أصبحت حراما، رغم أنها كانت مساحة الإبداع الفكرى والفنى المصرى بمذاقه الخاص ونكهته المتفردة، وسر قوته التاريخية، أقصد سيادته التى كانت.

وسادت العربية التى أصبحت تكرر على المسمع فى القرى والنجوع، فى الإعلام والتعليم، دون دراسة كافية عاشقة لمصر وعلمية فى الآن نفسه، لسبل التضفير التى صاغها المصرى عبر تاريخه، لتكون النموذج فى المنهج، لكن ماحدث ككل حياتنا كان عشوائيا، وكرس لملكات الحفظ، والحفظ يعنى التلقين والترديد كما يدرب على الطاعة، ومن هنا انتهى بعض من أفرزهم هذا المنهج إلى أن طاعة الله هى الأبقى، فقام يقتل الجميع حيث ثقفوه(*) لأن الدين عند الله الإسلام، وقد أمر الإسلام بقتل غير المسلم وأيضا المسلم المرتد، وفى الفجوة مابين التسارع فى إيقاع التكنولوجيا وتطورها ومايصحبها من بنية فكرية ونظم اقتصادية واجتماعية، وبين المنهج الثابت الأوحد الذى كرس له نظام تعليمنا وإعلامنا، وجد هؤلاء المبرر فقاموا يكفرون المجتمع كله ويرونه مرتدا يستحق إعلان الجهاد عليه.

وكلامنا ها لايعنى بالطبع استبعاد العربية، أو المقدس، أو الثقافة العربية، أو مجانية التعليم، بل إن كل مايعنيه أن الإعلام والتعليم الموجه قد تم بأسلوب غير علمى، وشابته الأغراض طوال الوقت، والمنهج غير المصرى فى التفكير، لأن المنهج العلمى السليم والمصرى الوطنى هو عدم تغليب الثقافة العربية على المصرية، إنما نسج كلتيهما فى مصهر واحد، وأن هذا ا لمصهر يجب دوما وطول الوقت أن يكون مصريا، وألا يغيب المشترك المصرى عن أى خطة ولالحظة واحدة.

والواضح لكل ذى عينين أن منهج التعليم المجانى قد عنى بتاريخ العرب وتاريخ الإسلام والمسلمين أكثر مما اهتم بتاريخ مصر المتصل، حتى تم إسقاط حقبة كاملة من حقب التاريخ المصرى المعلن لأنها لم تكن عربية ولا إسلامية، فقط لأنها كانت قبطية.

(*) ثقفوهم: وجدوهم

لقد عنى منهج التعليم المجانى وحتى الآن بتكريس أسلوب الحفظ والطاعة مع نفى الآخر المخالف لمنظومتنا الشمولية، بل إن قتل ذلك المخالف شرعه وفريضة دينية تم مزجها بالوطنية، ومن هنا أسس هذا المنهج لكل القواعد المعادية لمفهوم الحريات الإنسانية، فكان أن خسر شبابنا حريتهم وتحولوا إلى الآت تنفيذ مصمتة، تعتدى على حريات الناس وحرماتهم وأفكارهم وعقائدهم.

ومع الضعف والرخاوة اللذين أصابا الدولة بعد حصدها نتائج منهجها، تحول أخطر أجهزة التثقيف «التليفزيون» إلى معرض للفكر الإرهابى، بل تعظيم هذا الفكر وتضخيمه والتسليم له بالطاعة، وشاهدى كمثال هو البرنامج التليفزيونى الذى أذاعه تلفازنا الميمون فى برنامج دينى مسائى ليلة الإسراء والمعراج وذلك بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧.

لم يشغلنى ماقال المنتدون فيه حول عظات وعبر ليلة الإسراء والمعراج، إن ماشغلنى حقا فى البرنامج، حشده لأعاظم الوعاظ، ومع هذا الحشد الرفيع كنت - ومثلى كثيرون - نتوقع أن نسمع جديدا، وجرأة على الجمود والتقليد والثبات بعد حادث الأقصر الرهيب، وقولا فصيحا يطلب إيقاف تدفق سيل منهج المعجزات، الذى أدى بنا إلى الجلوس ننتظر معجزة الخلاص، نطيل اللحى ونحرص على المواقيت، ويحمل بعضنا الرشاشات لتحقيق فريضة الجهاد، حتى يكتمل أداء الفروض فتتدخل السماء لتدمر لنا الآخر المتفوق، فى أمريكا أو إسرائيل لافرق، بدل أن نبذل نحن جهود تأسيس الحريات، التى تسمح لمناخ العلم بالفرز، فنصعد نحن إلى مستواهم، لكن ماسمعناه تلك الليلة كان أكثر إملالا من أفلام التليفزيون التى تكرس مفهوم سعادة الفقراء «وما احلاها عيشة الفلاح».

ولاأظن عاقلا لم يمتلكه الفزع وهو يستمع من أصحاب المعالى على التوالى وبالدور قصائد المديح التى تذوب وجدا فى الشيخ الشعراوى، حتى عندما جاء الدور على رئيس جامعة الأزهر المعروف بصوته الجهورى العالى القوى، جاءت كلماته المادحة خفيضة الصوت هادئة الوقع، أما عبارة «شيخنا، أستاذنا، معلمنا» فكانت المفتتح عن كل فقرة من خطابات تقديم ختم الدولة ممثلة فى مشايخها الرسميين، للخطاب الشعراوى، ذلك الخطاب الذى استمر مايقرب من ثلاث سنوات أو يزيد ينفخ فى نيران الفتنة الطائفية عبر تلفازنا المبروك، ويكفر علنا وداخل كل بيت إخواننا المسيحيين ويسفه عقائدهم، ذلك الخطاب الذى وقف بالمرصاد لما ينفع الناس فأفتى بتحريم زراعة الأعضاء حتى أغلق بنك العيون ضلفه أوكاد، ذلك الخطاب الذى شمت فى أوجاع الوطن وكل حى أو ميت على أرض هذا

الوطن، فقام يصلى صلوات الشكر لما لحق بنا من هزيمة كبرى، ذلك الخطاب الذى أنشغل بالذات وبالنجومية ولم ينشغل بآلام الناس وأمانيهم ولو مرة، لقد حاز صاحب هذا الخطاب نجومية لم يصل إليها أحد قبله فى التاريخ الإسلامى ومع ذلك لم ينشغل بالناس التى صنعت منه هذا الخطاب النجم.

لقد كان بإمكان صاحب الفضيلة - مع هذه الشعبية الكاسحة - أن يكون قيادة لجماهير الأمة لتحقيق مصالح الناس، كان بإمكانه أن يعلن الصيام ومعه كل المسلمين وكل المسيحيين حتى يتوقف الإرهاب الدموى على كل مستوياته، لكنه لم يفعل، كان بإمكانه أن يطلب من كل مصرى بل من كل مؤمن بقدسية الإنسان وحريته فى العالم، أن يجعل من حدث مجزرة الأقصر يوما للحزن العالمى للوقوف ضد الإرهاب، لكنه لم يفعل.

كان بإمكانه رفع مظالم كثيرة لو قرر هو الصيام مفردا حتى ترفع، كان بإمكانه التحريض الشعبى فى كل بلاد المسلمين على عدم التعامل مع إسرائيل أو المصالحة - بغض النظر عن الحكومات - حتى تخضع للمواثيق والعهود، لكنه لم يفعل، وكان بإمكانه أن يكون رمزا عالميا لو طلب من كل شرفاء العالم الوقوف مع قضايانا، بنفس أساليبنا الاحتجاج، وكان يمكنه بذلك أن يقدم عن الإسلام وعن مصر صورة أنظف مما تقدمها جماعات الإرهاب اليوم، هناك الكثير كان بإمكان هذا الشيخ أن يفعله فى فرصة تاريخية حازها وشهرة نالها وتقدير وصل به حد التقديس، فرصة لايجود مثلها الزمان مرتين، لكن الشيخ لم يفعل.

هذا هو المنهج الذى تمارسه مؤسساتنا الإعلامية الكبرى فى دولة تعانى من الإرهاب الدموى المسلح يأكل قلبها ويمتص رحيق الحياة فى كبدها، لذلك لم يكن غريبا أن نسمع من مرشد الإخوان طلبا باستبعاد المسيحين من الجيش ودفعهم الجزية، أو أن نحاكم القول ونصادر الرأى، أو يظل تعاملنا مع المرأة باعتبارها مجرد نصف ذكر، ووسط هذا المناخ لم يزل مطلبنا عودة زمن الفتوحات لنستعمر البلاد ونسبى العباد، بينما نحن ملقون إلقاء مهملا فى قاع تراتب الإنسانية، فأى مرضى نحن؟!.

سيد القمنى

لماذا لانحاكم الإمام الغزالي... إذن؟!

«ومن المقرر لدى فقهاء الشريعة الإسلامية، إن الردة هى الرجوع عن الإسلام، وركنها الصحيح بالكفر، إما بلفظ يقتضيه، أو فعل يتضمنه، ويعتبر كافرا من استخف بالقرآن الكريم أو السنة النبوية أو استهزأ بهما أو جحدهما أو كذبهما، أو أثبت أو نفى خلاف ماجاء بهما مع علمه بذلك عنادا ومكابرة.. **أو تشكك فى شىء من ذلك**».

هذا الذى قرأتم عاليه، ليس تلاوة لقرار من قرارات محاكم التفتيش على المتهم قبل فصل رأسه عن جسده بالمقصلة، إنما هو اقتباس بالنص من حيثيات الحكم فى قضية نصر حامد أبوزيد.

هذه المرة يقف السؤال مع آخر جملة بتلك الحيثيات وهى الجملة التى تصدر قرارا بتكفير أى مسلم يتشكك فى أمر من أمور الدين، وبالتالى فهى تعتبر الشاك مرتدا يستحق الإعدام، وبذلك وضعت فتوى أصبحت ضمن بنود القانون المصرى، حيث يتحول حكم محكمة النقض إلى سابقة قانونية ومادة يعمل بها فى الحالات المشابهة، وهنا لابد من التساؤل عن حجم أنهار الدم التى ستسيل إذا تضاعف تصاعد ذلك المد السلفى.

فمن منا لم يشك؟.

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى وضع كتابا أسماه «المنقذ من الضلال» وضع فيه أصول الشك فى كل أمر من أمور الدين حتى وصل به المدى إلى التشكيك فى وجود الذات الإلهية نفسها، ومن يقرأ هذا الكتاب سيشك حتما حتى لو لم يكن قد شك من قبل أبدا، والإمام الغزالى رحمه الله يأخذ بيدك فى طريق الشك يسكبه بداخل عقلك سكبا حتى آخر صفحة من صفحات الكتاب بعد أن تكون أميل إلى التشتت النفسى وأكثر ماتكون تشككا فى كل الثوابت الإيمانية، ليترك يدك ويقول: أما أنا فقد قذف الله بنور من لدنه فى صدرى فآمنت به، وهكذا حل المشكلة: نورا

يقذفه الله فى الصدر، فإذا أنا قرأت الكتاب وانتظرت هذا القذف النورانى ولم يحدث فماذا يكون موقفى؟.

فهلا حاكمنا الغزالى لأنه فقط لم يشك، بل إنه لم يترك قارئا للكتابة دون شك، إن الرجل بذلك لايستحق أبدا لقبه «حجة الإسلام» ولا لقب «الإمام» الذى كرمه به أسلافنا زمن العقل والانفتاح الحر على علوم الدنيا وقبل إغلاق جميع أبواب الاجتهاد وكل نوافذ العقل.



لكن هناك رواية أشد فصاحة من ضرب المثل بحجة الإسلام، وهى تروى لنا حدثا مهما قد حدث مع عمر بن الخطاب يوم صلح الحديبية، حيث رأى المسلمون نبيهم يقدم للمشركين تنازلات وتراجعات لها أسبابها الدبلوماسية التى لم يعها المسلمون، ولم يدركوا الأهداف البعيدة منها، فأصابهم غمُّ شديداً كلما قدم النبى تنازلا، خاصة أنه كان قد وعد رجاله بدخول مكة عام الحديبية، فيروى ابن هشام أن النبى قام من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها فى منامه أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين، وعقب السهيلى فى شروحه بالقول «كان النبى قد رأى ذلك فى منام، ورؤيا الأنبياءوحى» وصدق المسلمون نبيهم، لكنهم يفاجأون به بدلا من دخول مكة يقف خارجها ويقبل صلحا شروطه لصالح قريش، وفيه تنازلات اعتبرها المسلمون تهاونا شديدا، وهنا تروى لنا كتب السيرة أن عمر بن الخطاب قد لقى من أمر هذا الصلح رهقا شديدا استفزه استفزازا حتى ذهب إلى النبى يقول: «ألم تعدنا أن نأتى البيت ونطوف به؟ قال: نعم»، لكن الإجابة بنعم يخالفها مايحدث فى الواقع، فتأخذ الحيرة بعمر كل مأخذ مع رعدة غاضبة دفعته إلى الإسراع نحو أبى بكر ليدور بينهما الحوار المتوتر التالى:

- عمر: يا أبا بكر أليس برسول الله؟.
- أبو بكر: بلى.
- عمر: أولسنا بالمسلمين؟.
- أبو بكر: بلى.
- عمر: أوليسوا بالمشركين؟.
- أبو بكر: بلى.
- عمر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟.
- أبو بكر: ياعمر إلزم غرزه فإنى أشهد أنه رسول الله.

وهنا يعلن عمر جهارا قوله «**وماشككت منذ أسلمت إلا الساعة**».

وهكذا كان عمر بصحبة النبى يراه ويعاشره ويدركه بحسه وروحه، وعايش نزول الوحى وعاينه، ومع ذلك شك فى الأمر كله نتيجة موقف لم يدرك أهدافه الدبلوماسية البعيدة فى صلح الحديبية.

وهنا يعقب السهيلى على موقف عمر، عمر الذى شك ولم تحوله كتبنا التراثية إلى منافق ولم يتهمه أحد بالإرتداد، يقول «السهيلى»:

«وفى هذا أن المؤمن قد يشك ثم يجدد النظر فى دلائل الحق، فيذهب شكه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: **هو شىء لايسلم منه أحدا**»، وهكذا يستنتج شيخ شراح السير أن المؤمن قد يشك، بل إن ذلك لايسلم منه أحدا على الإطلاق مستندا فى ذلك إلى حديث عن حبر الأمة وراوى الحديث الثقة عبدالله بن عباس.

وفى الحديبية حدث من المسلمين عصيان عام على النبى، وهو مالايدخل فقط فى مفهوم الشك، بل فى عصيان الرسول والله معا، لموقف لم يعجبهم من النبى، فقد أصابهم الكرب لما قدمه الرسول من تنازلات فى هدنة الحديبية، وبعدما استكملت التوقيعات على الصحيفة قام النبى يأمر المسلمين باستكمال شعائر العمرة التى لم تتم قائلا: «قوموا فأنحروا ثم أحلقوا» لكن ليلخص لنا ابن الأثير رد المسلمين على نبيهم، فقد تعصبوا جميعا عليه «وماقام أحد حتى قال ذلك مرارا فلم يقم أحدا منهم» هكذا ظل الرسول يردد أمره **ولا أحد يطيع على الإطلاق**، ومع ذلك لم يصدر ضدهم حكما بالإرتداد ولافرق بينهم وبين زوجاتهم، فقد عقب بالاستحسان على من حلقوا وبالاستهجان على من قصروا.

فقالوا له: يارسول الله فلم ظاهرت بالترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لم يشكوا، فقط ظاهر النبى من لم يشكوا لكنه لم **يطرد كل الذين شكوا من ألوف المسلمين من دين الإسلام، ولم يوقع عليهم أى عقاب**.

وكتب السير والأخبار تكتظ بمثل تلك الأمثلة لعل أبرزها أن المسلمين أصحاب رسول الله رغم الوعد بالنعيم وبجنة الخلد، ورغم مصاحبتهم وملاحقتهم للنبى، ورغم أنهم عاصروا وشاهدوا وعاينوا ذلك الزمن العظيم زمن نزول الوحى، فقد فروا من حول رسول الله فى غزوة أحد، حتى وقف وحيدا فى الميدان ينادى: إلى يافلان، أنا رسول الله فما يعرج إليه أحد والنبل يأتى إليه من كل ناحية» حتى قذف أبو دجانة بنفسه فوقه ليحميه.

ولحظة الهزيمة بعض الصحابة من قريش يقولون: «إن رسول الله قد قتل فارجعوا إلى قومكم فيؤمنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم» أليس مثل هذا

القول **شكا فى الأمر برمته من الألف إلى الياء؟** «برواية البيهقى»، وقول آخر قرر فيه بعض المسلمين اللجوء لرأس المنافقين عبدالله بن أبىٍّ ليستأمن لهم من أبى سفيان وهو مارواه ابن كثير فى قوله: «فقال بعض أصحاب الصخرة - أى الذين احتموا فوق صخرة أثناء القتال - ليت لنا رسولا إلى عبدالله بن أبى فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان، ياقوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم»، أما البعض الآخر من المسلمين لما رأى الهزيمة فقد فر وعلى رأسهم عثمان ابن عفان، حتى ابتعدوا عن المدينة بحوالى ثلاثين ميلا «فرار من الميدان، ومن حول رسول الله بنفسه»، ومع ذلك جميعه لم تصدر ضدهم أحكام تكفير وارتداد وتفريق، وكانوا صحابة رسول الله المقربين.



والسؤال الآن: ألم تقرأ هيئة المحكمة الموقرة ذلك ومثله كثير فى صحيح السير والأخبار الإسلامية قبل أن تصدر حكمها أن من يشك قد كفر؟ وخاصة أن المتشدد إلى هذا الحد فى أمور الدين يجب أن يكون على علم بتفاصيله ودقائقه حتى لايهلك الناس بأحكامه ويهلك معهم بقصور علمه، ناهيك عما ينتظرنا إزاء مثل ذلك الحكم أمام موازين العدل الإلهية يوم الدين.

ولله در الإمام الغزالى وهو يقول فى كتابه إحياء علوم الدين «من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى متاهات العمى والضلال»، طوبى للإمام حجة الإسلام زعيم الشكاك فى مرقده، وليغفر الله لمن لايعلم فيتبختر فى متاهات العمى والضلال فخورا بأنه أبدا لم يشك، وليغفر لنا إذا لم نشك، وليهدنا إن شككنا، فالأمر كله معلق بإرادته الكلية الشاملة وليس لنا مع أمر الله أمر.

السؤال الآخر في قضية نصر أبو زيد

«يعتبر كافرا .. من عبد أحدا غير الله أو أشرك معه غيره، أو أنكر وجود الله، أو أى من خلقه مما أخبر عنه الله فى القرآن الكريم، بأن أنكر الجنة أو االنار أو الجن والشياطين أو العرش أو الكرسى».

القول المذكور عاليه، نص مقتبس من حيثيات حكم الاستئناف والوارد فى صحائف محكمة النقض فى حكمها التاريخى بتفريق «نصر حامد أبو زيد» عن زوجته، لأنه كتب فى أعماله المنشورة كلاما أعتبرته المحكمة موجبا لإصدارها قرارا بارتداد الرجل عن دين الإسلام.

وتعريف الكافر فى حيثيات هيئة المحكمة الموقرة يشرح لنا كيف يعد المسلم كافرا، بتعديد لمجمل معلومات دينية أخبر بها القرآن إن أنكر المسلم واحدة منها عد كافرا، لأنه ينكر بذلك معلوما من الدين بالضرورة.

ولم يفت هيئة المحكمة الموقرة أن تضع ضمن ذلك المعلوم أبعده عن قناعات العقل ومنطق المحسوسات وأقربه إلى المسلمات الغيبية، وذلك مثل: الملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى، وهى أمور ليست ضمن مايندرج تحت قناعات العقل، فكيف يعقل مالا يدرك؟ أليست هذه بقاعدة العلم الأولى؟.

ثم تضيف حيثيات الحكم أن «نصر أبو زيد» قد قال فى أعماله قولا خطرا هو «أن هناك معركة تقودها قوى الخرافة والأسطورة بإسم الدين والمعانى الحرفية للنصوص الدينية، وتحاول قوى التقدم والعقلانية أن تنازل الخرافة أحيانا على أرضها» وتعقب المحكمة بقولها: «وهذا من الكفر الصريح والأساطير معناها الأباطيل.. وهو مانعت به الطاعن (أى نصر أبو زيد) الدين والنصوص الدينية، زاعما أنهما ينطويان على أساطير».

هكذا ودفعة واحد فسرت هيئة المحكمة كلام نصر على كيفها «أى والله العظيم على كيفها»، ثم أخذت معنى واحدا من معانى كلمة «أسطورة»

لتدعم رأيها المنفرد لإدانة الرجل، فالرجل أبدا لم يقل باحتواء الدين على أساطير، أو لوجه الحق هو لم يفصح بذلك، وكان هذا كافيا فالمحكمة لاتحاكم الضمير لأن الحكم عليه لله وحده، الرجل قال إن من يفعل ذلك قوى الأسطورة التى تستخدم الدين ولم يقل الدين، لكن لأن حكم النقض كان آخر السلسلة الطويلة للوصول إلى الهدف، كان لابد من إدانة «نصر» وتكفيره، أما الأمر الثانى فهو أنها اقتصرت على معنى واحد لكلمة أسطورة، رغم أن لها من المعانى الكثير، فيقول ابن منظور علامة اللغة العربية فى لسان العرب وهو مرجعنا اللغوى جميعا، تحت مادة «سطر».

«سطر: السطر هو الصف من الكتاب.. والجمع من كل ذلك أسطر وأساطير وسطور والسطر هو الخط والكتابة.. وقال الزجاج فى قوله تعالى: وقالوا أساطير الأولين.. معناه سطره الأولون.. وسطر يسطر إذا كتب، قال الله تعالى: ﴿ن والقلم ومايسطرون﴾، أى ما تكتب الملائكة.. والأساطير الأباطيل، أحاديث لانظام لها».

هذا ماكان من فهم المحكمة الأوحد، وتفسيرها الأوحد، لأمر عدد من التفاسير كان يجب أن تؤول لصالح المتهم حسب القاعدة الشرعية والفقهية القانونية، لكن المحكمة رأت ماقررت أن ترى.

لكن ذلك يفتح بابا واسعا لطرح أسئلة حيرى، مادامت المحكمة قد فتحته بقرارها التاريخى، وأصبح من الواجب مناقشة مسألة الأساطير حسب الأصول.



هنا نعترف أن الاستعمال الدارج، قد درج على استعمال كلمة أساطير فيما بعد وبمرور الوقت، لوصف الأحاديث التى لاتخضع لقوانين العقل والمنطق، أو الأحداث التى تكسر قوانين الطبيعة وقواعدها الثابتة، لذلك أصبح المؤمنون بدين معين يفضلون وصف تلك الأحاديث والأحداث بكلمة «معجزة» لكنهم فى نفس الوقت يصفون شبيهها عند الأديان الأخرى المخالفة أو العقائد التى ينظرون إليها باعتبارها باطلة، يصفونه بأنه «أسطورة»..

ومثال لتوضيح ذلك، نحن نؤمن باعتبارنا مسلمين، بقصة الإسراء والمعراج، كما أخبرنا بها القرآن، كما نؤمن بوجود كائن غريب الشأن يدعى البراق، فهو دابة تعقل وتفهم، شكلها مابين البغل والحمار، أشبه بالحصان، له جناحان، حمل سيد الخلق من مكة إلى القدس فى المعراج، كما جاء فى حديث النبى، وبعدها اختفى ذكره من الإسلام إلى الأبد.

وفى أقاصيص الديانة اليونانية، كان للإله زيوس دابة للركوب، هى حصان ذو أجنحة يسمى «بيجاسوس»، هنا يرى المسلمون أن قصة البراق معجزة حدثت بالفعل، أما بيجاسوس اليونانى فهو أسطورة، وهكذا أخذ معنى الأسطورة تحديده قياسا على المعجزة.

لكن مالايفوت لبيب هنا، هو أن الاختلاف هنا اختلاف اصطلاحى لفظى فقط، وليس خلافا حول معنى المضمون، فكلتا القصتين تتحدث عن كائن يخرج فى تكوينه على القوانين الطبيعية الصارمة، كما يخرج على مألوف العقل وقواعده، لكن المؤمن هنا يميل إلى تصديق مأثوره وتكذيب مأثور الآخرين، وتسمى قناعته هنا إيمانا، أى تسليما وتصديقا قلبيا، لكنها لاتسمى معقولا، لأن الأمر لايخضع لنواميس الكون ولالقوانين العقل، بل يتم هنا التغاضى عن أبسط قوانين العقل وهو قانون الهوية أى يلتزم العقل ذات الشروط فى ذات المواقف فلا يناقض نفسه، وهذا القانون هو ألف باء العقل، أى أنه إذا صدق قصة البراق فلابد حسب قانون الهوية البسيط أن يصدق قصة بيجاسوس، وإن لم يقبل قصة بيجاسوس فعلية بالتالى ألا يقبل فكرة البراق، المقصود من هذا المثل توضيح أن الخلاف بين المعجزة والأسطورة خلاف شكلى فقط، لايبغى الهجوم على الدين، ولاوصف بعض ماورد بأنه أباطيل، فقط هى مما لايخضع لقوانين العقل ولا لقوانين الطبيعة، هى موضوع تصديق وإيمان، ولامحل هنا لتكفير إنسان على اختلاف تسمية اصطلاحية، مادام المتفق على المضمون خروجه عن المألوف وكسره لقوانين الطبيعة ومادرج عليه العقل من قواعد، فهل يمكن لأحد أن يختلف حول معناها هذا؟!



لقد وردت فى كتاب الله وفى أحاديث عن الرسول كثير من النصوص التى تحوى مضامين وسورا لاتخضع لنواميس الطبيعة ولا ا لعقل، لذلك هى محل اعتقاد وتعتمد على أمر لايمكن لبشر الحكم عليه، تعتمد على الضمير الداخلى الذى يقبلها أو يرفضها، وإذا كان اصطلاح أساطير يحمل فى معناه ماخرج على قوانين الكون والعقل، فإن استخدامه لامثلبة عليه، فأساطير الأولين فى ابن منظور هى ماسطره الأولون، إن «ن والقلم ومايسطرون» معنى ماتكتب أطهر المخلوقات وهى الملائكة.

لذلك ولأننا مسلمون، فنحن نؤمن تماما إيمانا قاطعا أن الملك سليمان كان يسمع حديث النملة الذكية، وأنه كان يحاور هدهدا لبقا، وأنه كان يركب بساط الريح، كما نؤمن أن صخرة قد حبلت وتمخضت فولدت ناقة

الله، ونؤمن بالحصان المجنح الذى حمل رسول الله من مكة إلى القدس، ونؤمن بالملكين هاروت وماروت وقصتهما مع الغانية رسول الغواية المعروفة بالحمراء أنثى كوكب الزهرة.

كما نؤمن أن الله قد أرسل على جيش أبرهة قوات جوية تمثلت فى طير أبابيل تحمل حجارة جهنمية لتلقيها على جيش الفيل، فكانت أول قاذفات جوية فى التاريخ، كما نؤمن أن نمرود العراقى كان أول رائد فضاء فى التاريخ، عندما ركب صندوقا تحمله النسور يريد بجهله وطغيانه أن يصل إلى رب السماء ليقتله، كما نؤمن أن النار لم تحرق إبراهيم الخليل، وأن معدة الحوت لم تهضم يونسا رغم سكونه فيها ثلاثة أيام، ولانعلم إلى أى حد تطلب هيئة المحكمة منا الإيمان حتى لانكون من الكافرين، فهناك أمورا أشد استعصاء على العقل، وردت بكتب السير والأخبار، فهل يجب أن نؤمن بها بدورها أم لا، يعنى هل يجب أن نؤمن أيضا بأن النبى كان يبصق على جرح مسلم يحتضر فيقوم لتوه سليما معافى، أو أن تشرب أم أيمن بوله فلا تمرض بعدها، ومثل ذلك كثير، أن مانريد أن نقوله إن تلك جميعا نماذج لاتدخل ضمن بنود العقل ولاتخضع لنواميس الطبيعة، فالصخرة حسب القوانين لايمكن أن تلد، والريح لايحمل بساطا، والهدهد لايتحدث، والحصان لايطير، والنار لابد أن تحرق، لكن هذا جميعه محل تصديق وإيمان لأننا مسلمون، لهذا نحن نؤمن بها عن يقين، لكن يجب أيضا أن نعترف بهدوء أن الإيمان بها شىء، وأن قوانين العقل وفيزياء الكون شىء آخر، لذلك فالعقل لاينتظر امكانية حدوثها إلا إذا كان به خلل، وإلا خلطنا الحابل بالنابل، ودمرنا أنفسنا بأيدينا، وهو مايحدث الآن فعلا نتيجة الخلط بين مايفرضه الإيمان من تصديق، وبينما هو ممكن الحدوث، حتى أصبح بالإمكان حدوث مثل تلك الأحداث الخارقة فى أى وقت إذا ماخلصت الضمائر، وساعتها سيتدخل الله فورا بمعجزات جديدة، لتخليص عباد المؤمنين، مما أصابهم، ومثل ذلك ماقد حدث بعد مجموعة الهزائم التى أصابتنا فرفعنا شعار ﴿إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم﴾، وانصب هذا التغيير على الجانب الطقوسى فى أداء الشعائر، وعلى الجانب الأخلاقى، «وإن كان فى مستواه النظرى والقولى دون العملى»، وتصور الناس أنهم بأتباع الفروض والسنن والنوافل وسيرة السلف، سيحوزون رضا الله فيتدخل فورا لانقاذهم بمعجزات، لأن الفرق بيننا وبين العدو قد أصبح لاتحله إلا معجزات، فكان أن هبطنا إلى مستوى لم نصل إليه من قبل، من كسل عن تحصيل المعارف العلمية اللازمة للارتقاء والتقدم، وجلسنا ننتظر فى بلاهة بليدة ذلك التدخل الإلهى

الإعجازى، دون أن نتصور أن الممكن الحدوث فقط هو الأخذ بأسباب العلم والكد والعنت فى سبيله الذى هو سبيل ارتقاء الأمم، وساعة نفعل ذلك يمكن أن نقول أن ذلك قد حدث بفضل من الله وإحسانه.



مرة ثالثة ورابعة وخامسة، نؤكد إيماننا الذى لايهتز بكل ماأخبرنا به القرآن، لكن مادمنا قد تطرقنا فى الأمر إلى هذا الحد، فيجب الاستطراد بالقول: إن الإيمان أمر، وشروط العقل، والعلم أمر آخر، ويجب ببساطة أن نعترف أن بينهما تنافرا عظيما، لاتحله أبدا تلفزة مصطفى محمود التفسيرية، وربما تقف النفس حيرى بين شروط العقل والعلم، وبين الإيمان ومطالبه، تطرح السؤال الآخر، تطلب الاتساق بين ماوقر فى القلب، ومايجب أن يصدقه العقل، لكنها أبدا لاتبغى من وراء ذلك شكا ولامروقا ولاكفرا، فقط تريد الإطمئنان لطوية فؤادها حتى لاتصاب بالشيزوفرينيا، ذلك الفصام المخيف الذى أصاب جماهيرنا العريضة الغليظة، حتى أمست بلادنا مستشفى أمراض عقلية كبيرا، يكتظ بالمرضى، ويخلو من الأطباء.

وهذه المشكلة واجهها المفكرون المسلمون الأوائل وأرقتهم فتحدثوا فيها وتجادلوا، وحاولوا حلها تحت عنوان «التوفيق بين العقل والنقل» والنقل هو الوحى، فاعترفوا ببساطة ودون خوف أن هناك تناقضا وتنافرا يحتاج إلى توفيق، وحاولوا ولم تصدر ضدهم أحكام تفريق، ولهم أجر المحاولة.



لكن الدنيا منذ تلك الأيام تغيرت تغيرا سريعا، وحقق العلم منجزات لم تخطر على قلب بشر، وأصبح بالإمكان للإنسان أن يعلم ما فى الأرحام، وأن ينزل الغيث كيف شاء وحيث شاء وبالقدر الذى يشاء، وأمكن التدخل فى جينات الوراثة بهندستها، والقادم طوفان من المعرفة أعظم، ونحن نقف هنا نتفرج على مايحدث باعتباره فيلم سينمائى لادخل لنا به، بل ربما لانفهم مايحدث، نبسمل ونحوقل «وفى اللحظة الحاسمة فى تاريخنا، ربما ذهبنا بعدها إلى مقلب نفايات الأمم» نصر على إغلاق أبواب الاجتهاد، ونرفع سيوف التكفير، ومن يحاول الاجتهاد مخلصا لوجه الوطن والناس والدين تدينه محاكمنا الوقورة بالردة.

أترون إلى أين يمكن أن يصل بناحكم المحكمة؟

أيها السادة: لم يعد هناك وقت، فالدنيا فى تسارع هائل، وربما فات أوان اللحاق بها إن لم نلهث لهاثا صادقا، لكن الكارثة أن الواقع يفوح بغير ذلك فنحن لم نزل ندفع مكافأة لمن حفظ القرآن من الصبية، أكثر مما

ندفع كتقدير لعلماء مصر الأفذاذ، نحن لم نزل فى وادى الأفاعى والمصباح السحرى وعفاريت سليمان.

أيها السادة: إما أن نفتح نافذة السؤال دون حرج أو تحريم أمام العقل، أو أن نتكفن ونلتحد أشرف لنا، وقبل أن نذهب فى طوايا القرون الغوابر غير مأسوف علينا.

أيها السادة: فقط افتحوا النوافذ أمام السؤال، واحلموا بقدر الممكنات وتوقفوا عن التنادى بالمغازى والحديث عن الغنائم والسبايا، ألا ترون أنكم ذهبتم بنا إلى المغانم لكن كنا نحن المغانم؟ اغمدوا سيوفكم العنترية التى تكسرت أمام الأعادى جميعا ولاتشهروا علينا مابقى بها من نصال صدئة، هناك الآن حرب آخرى أدواتها العلم وما يحتاجه من جهد وعنت ومشقة إن كنتم فاعلين، حاولوا أيها السادة أن تحاربوا معركة الحضارة ولو مرة إن كنتم تعقلون.

قتل أمة بسيف التكفير

ضريبة الحرية شرط التقدم:

بهدوء شديد يجب أن نعترف أننا نعانى من أزمة حضارية طاحنة وصلت آخر مراحلها وأصبحت تهدد وجودنا على سجل التاريخ الآتى، فى مرحلة فاصلة من تحولات هائلة آنية تحدث على كل المستويات فى كوكبنا الأرضى، وأن نقر ببساطة أننا فى القاع نتنفس الخرافة ونستحلب الأسطورة ونستطيب الهيام فيس العوالم السحرية، وإذا لم نلق الآن فى الماء الراكد بكل حجر تطوله أيدينا وبسرعة وبقوة، ودون وجل أو خوف من سادة المنهج السائد وسدنته والمنتفعين ببقائه جاثماً فوق صدورنا ومضببا لعقولنا، فربما لانكون بعدها أبدا، وإذا لم نفتح الآن كل النوافذ لتجديد هوائنا الآسن دون وجل من تحريمات ورعب من سيف التكفير المسلط على رؤوسنا، فعلينا أن نكتب آخر الحلقات فى يومياتنا قبل أن نذهب فى طوايا القرون الغوابر، ويتلو التاريخ على الدنيا آياتنا عبرة مع عاد وثمود والهنود الحمر.

وإجمالا يمكن القول إن التاريخ العربى بعد ظهور الإسلام قد مر بمرحلتين متناقضتين، تحولنا فى الثانية عن الأولى، عن الثقافة المتحركة المفتوحة المتجددة إلى الثقافة الثابتة المغلقة الواحدة، ومن الطبيعى أن ترتبط كل ثقافة منهما بالمرحلة التاريخية التى أفرزتها ارتباطا منطقيا واضحا ومتسقا، فعندما كانت الدولة الإسلامية امبراطورية قوية عزيزة مقتدرة، لم تخش على نفسها من الآخر وثقافته، فانفتحت على كل علوم الدنيا وفلسفتها ودياناتها، وقامت حركة ترجمة واسعة نشطة لمعارف الدنيا وفلسفتها، ومنها كفر صريح من وجهة نظر دينية إسلامية، بل نجد بين كوكبة المفكرين الكبار والذين نحتفى اليوم بذكرى إبداعاتهم ونرفع راياتهم فى وجه من يتهمنا بالتخلف على إطلاقه من كان يعلن كفره وصريح إلحاده، لقد كانت الدولة قوية والذات القومية متحققة، لأن التجربة حينها أوضحت

بجـلاء أن العلم لايتـرعـرع إلا فى بيئـة حـرة، تخلو من كل ألوان التـحـريم، لذلك قبلوا ضـريبـة الحـرية من أجل التحقق والتقدم، وقد وضـعت لديهم ضـرورة تلك الضـريبـة لأنهـا أسـهـمت بدور عـظيم فى إثراء السـجـال الذى حدث آنذاك، ثم تلت ذلك مـرحلة التـحـريمـات الكبـرى بـانتهـاء زمن المأمون آخـر الحكام المستنيـرين، ومن يومهـا ونحن فى انزلاقنا الكارثى نحو القاع، فإذا وعينا هذه الحـقيـقـة البـسيطة بدأنـا أول كشوفنا، وهو **أن السبب فى توقف بلادنا عن إنتـاج مفكرين وعلمـاء كبـار، هو غيـاب مناخ الحرية، فـالعلم لايتنفس مع القيود وأغلال التحريمات.**

ولاشك أننـا نفـصـح بجـلاء أن منهج قـراءة الدين كـان وراء تغـيـيب مناخ الحـرية فى بلادنا، وقد تم استـخدامـه انتهازيا علـى ثلاثة مستويات انتهت بنا إلى مانحن فيه الآن.

المسـتـوى الأول: يتـعلق بمنهج البـحث فى الدين نفـسـه، بـاعـتـبـار بعض مناطقه من المناطق الممنوعـة من البـحث، وانتهى إلى إسـدال ستار كامل من التحريمات على كل مناطقه، وتم أثناء ذلك استبعاد كل ماوصل إليه البحث فى المقـدس وشئـونه إبان القـرون الإسـلامـيـة الأولى، وتحـويله إلـى تاريخ موقوف وغير فاعل، يتم درس أغلبه من وجهة نظر تخالفه وتكفره، بل ويتم أحيانا إفقاد الذاكرة المتعمدة فى المناهـج التربوية وعبر وسائل تسمى وسائل التثقيف العام، بينما لم تعرف عصور الازدهار أى لون من التـحريم المحرض وانتشرت علوم الكلام ومدارسه التى اجترأت على كل أمر وأخضعته للبحث والتدقيق العقلى، وعلوم التصوف التى اصطنعت أردية ظاهرة الإسـلامية لتتخـفى وراءها ثقـافـات وديانات البـلاد المفـتوحـة، وعلوم الفلسـفـة التى لم تجد حرجا فى مزج نظريات - تعد من الوثنيات - بأصـول إسلامية لافروع، كما نجـد نظريات الفـيض عند الفـارابى وابن سـينا، وعلوم إلحـاد ناقشت بالحجة مارأته ليس من العقل فى نصوص الدين وماقد تدحضه، كما نجد عند الطبيب أبو بكر الرازى وعند المعرى وعند الحجة الكبير فى هذا الأمر ابن الراوندى صـاحب مخاريق الأنبيـاء، ومن أجل ذلك وضـعت ثلاث قواعد تأسيسية لعصور التخلف والتردى هى: رفض وتكفيـر ونفى واستبعاد وربما تصفيـة كل بحث ينتهى إلى إنكار معلوم من الدين بالضرورة، وأنه لااجتهاد على الإطلاق مـع نص، وأن العبـرة بعـموم اللفظ لابخصـوص السـبب، هذا رغم أن التاريخ يشهد أن تلك القواعد الثلاثة قد تم كسرها لصالح البلاد والعبـاد بيد صحابة رسـول الله أنفسـهم إن قصـدا مبـيتا مع سبق إصـرار وترصد وإن سلوكا عفـويا إنسـانى، فقد اجتهـد ابن الخطاب إبان خلافته، ولما يمض على رحيل الرسول سنوات تعد على الأصابع، وكان اجتهاده مع

نصوص واضحة، بل وأوامر قدسية، كما حدث فى إلغائه سهم المؤلفة قلوبهم، ومن قبله كان نفس الاجتهاد عندما ألغى أبوبكر سهم آل البيت وأخذ ابن الخطاب بخصوص السبب لابلفظ النص عندما فعل ذلك، وفى مواقف أخرى، كما فى إيقافه حد السرقة عام الرمادة، بل وأوقف حلالا كان معمولا به زمن النبوة عندما وقف على المنبر وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، متعة الحج ومتعة النساء.

هذا ماكان عن **إنكار السلف للقواعد الثلاثة** التى تأخذ بخناق البحث فى شئون المقدس عن قصد وعرض، وكان هناك إنكار آخر بالسلوك الإنسانى العفوى وصل إلى حد إنكار الدين كله، وكما حدث فى واقعة أحد، فرغم الوعد بالنعمة وبجنة الخلد عند الاستشهاد فى سبيل الله، ورغم أن رسول الله بينهم، ورغم أنهم عاينوا الأمر وعايشوه، فقد فر أجلة الصحابة من حول رسول الله بينما يناديهم «إلى عباد الله أنا رسول الله» ولايغيثه أحد حتى أوقعه القرشيون فى حفرة وأصابوه إصابات بالغة وضربه ابن قمئة ضربة شديدة ظل يشكو منها شهرا، وفر عثمان بن عفان مع رفقة له حتى أبعد عن المدينة **حوالى خمسة وعشرين كيلو مترا**، ووقف آخرون يحتمون بصخرة يقولون إن رسول الله قد قتل، وأن عليهم العودة إلى أهلهم، وأن يرسلوا لهم عبدالله بن أبى بن سلوب ليستأمن لهم قريشا: أليس فى ذلك إنكار للأمر كله؟ ومع ذلك لم يتعرض هؤلاء للتكفير ومحاكمات التفريق وكانوا صحابة رسول الله المقربين.

ولكن بمجىء القمع الفكرى والسياسى وتضافره مع القمع التحريمى والتكفيرى تم تقعيد القواعد الثلاث لعصور الانحطاط، وهو الأمر الذى هوى بنا إلى ذلك السقوط الأمثولة، وأضر فى الوقت نفسه بالمقدس ضررا بليغا، بحيث تمكن ذو النفوذ ووسطاء الدين المحترفين من التعامل مع نصوص الدين بانتهازية قبيحة لتسخيره للمآرب والمنافع وتبرير أشنع المظالم لذوى السلطان، وبالأمس كان صدام حسين يغزو جارا عربيا بعد أن رفع لاءات الله أكبر على أعلامه، واستدعى رجال الدين مشهود لهم، بالكفاءة يقتطعون الآيات التى تبرر بل وتسوغ بل وتدفع إلى احترام نموذجه، وفى الآن نفسه اجتمع رجال دين آخرون لايقلون شأنا بالعربية السعودية لتبرير على النقيض تماما، وبالأمس القريب غنينا للاشتراكية بآيات قرآنية، ومع التحول إلى الاقتصاد المفتوح على السوق، وجدنا أننا كنا خاطئين لأن الله قد فضل بعضنا على بعض فى الرزق، والمدهش أن تجد **بعض هؤلاء المحترفين هُم هُم بأشخاصهم فى كلتا الحالتين**، يستثمرون «العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب» من أجل دمار البلاد والعباد والإضرار البليغ بالمقدس نفسه.

هذا ماكان على المستوى الأول لمنهج الهبوط العربى، أما المستوى الثانى فهو يرتبط بالأول ارتباطا وثيقا ويعبر بوضوح عن أسباب هذا السقوط المخيف، حيث تم تحريم أبحاث لاعلاقة لها البتة بالدين فيما يتعلق بالتكوين الكونى والكائنى، وقد اتخذ هذا المستوى سبيله على خط آخر يحاول التوفيق بين المنجز العلمى وبين النص المقدس، ليس من أجل العقل والعلم ولكن من أجل تسفية العقل والعلم، بالقول إن كل ثقافة ممكنة قد توافرت داخل مقدسنا وليس بنا حاجة إلى إعمال العقل أو البحث العلمى الذى قد يؤدى إلى نتائج مضللة وكافرة، وحتى الآن يمنع فى بعض مدارسنا العربية تدريس نظريات النشوء والارتقاء والتكيف البيئى، وهى الأساس الأول لعلوم الطب وكل فروعه، بل إن هناك فتوى صريحة صدرت بالأمس االقريب بتكفير من يقول بكروية الأرض، وهكذا كان المستوى الثانى الذى اضطر شقه الثانى للتعامل مع المنتج العلمى الذى أصبح ذا أثر بمصير الأمة بالتعامل معه بعقلية قاطع الطريق، ليقولوا أننا قد اكتشفنا ذلك جميعه قبل أن يكتشفه العقل الإنسانى القاصر، عبر ربنا فى مقدسنا التليد.

وعلى المستوى الثالث تمكن الإنسان خلال قرون طويلة من النضال والكفاح والصراع الدموى مع القهر والعسف والجور أن ينتزع لنفسه مزيدا من الحريات لم تكن قد تأكدت زمن الدعوة الإسلامية، فتم إلغاء وصمة العار الكبرى فى جبين الإنسانية المتمثلة فى استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان، نعم قدم الإسلام فى زمن الدعوة مساحات من الحريات تعد تقدما قياسا على زمنه كالتحبيب والترغيب فى العتق، لكنه أبدا لم يلغ الرق أو يجرمه، ولم تزل تتلى آيات العبيد وملك اليمين دون أن نحاول اجتهادا يعوض فارق القرون الطوال منذ عمر ابن الخطاب الذى خالف ومنع وحرم وأنكر ولما يمض على سكون الوحى بضع سنوات.

وضمن هذا المستوى تندرج حالات هى الكارثة بعينها، فنحن أبدا لم نحاول بل حاربنا وكفرنا أى محاولات لتحريك الثابت من أجل مصالح البلاد والعباد، كالموقف النصوصى من المرأة التى لم تزل حتى الآن نصف رجل جاهل بليد لاحاجة إليه وحتى لو كانت عالمة ذرة أو طبيبة أو مهندسة.

أصبح منهج الانحطاط والتردى لايملك الحجة الكافية، ولم يعد لديه سوى منطق القتل والتجريم، إنه منهج الهبوط العربى.

الكوارث الإلهية

الكوارث الإلهية

قارئى مهلا، فأنا أعلم أن العنوان شديد الاستفزاز، لكنى قصدته قصدا، لعلمى أن الحس الإنسانى لديك يفزع من الكوارث، ويستنكر أن يكون سببها مصالح أفراد أو جماعات، ويصاب بالهلع إن نسبناها إلى الله، لكن ما العمل؟ وهو المنهج الذى ران على تاريخنا المسترخى المتثائب طوال االقرون السوالف، ولم يزل كذلك.

لاشك أن أى واحد منا ستتأذى نفسه من عمليات التطهير العرقى التى تمارسها عنصرية الصرب، ولاجدال أن نفس المشاعر تنتابنا كلما تذكرنا الجريمة الكبرى فى حق الإنسانية فى هيروشيما ونجازاكى، أو كلما ورد على خاطرنا هتلر وماجلبته الدكتاتورية على البشرية من دمار، ولاجدال أن قلوبنا تقطر ألما كلما تذكرنا ضرب بغداد أو قانا، أو حتى لو مر طائف الهولوكست بخيالنا، فنحن بشر وإنسانيتنا هى رقينا، وهو الرقى الذى يجعل أحاسيسنا تقشعر، وأنفسنا تجزع، عندما نعلم أن بشرا، أو حتى مجرد كائنات قد تعرضت لمذابح أو لفناء، بسبب أطماع أو مصالح أو تعصب، فى أى مكان على كوكبنا الأرضى.

فما بالنا لو أن هناك كوارث كبرى، تحمل دمارا رهيبا، ونيرانا تأكل الأجساد، أو صخورا تسحق العظام، وأن هذه الكوارث تحدث برغبة إلهية، ثم بفعل إلهى، هنا تقف النفس حيرى لأنها تؤمن بالله وتحبه، وتراه الكمال نفسه، والنقمة والأحقاد وإفناء الناس ليست من الكمال، فالله خير كله، لايتسلى بتقتيل الناس، ولاتطيب نفسه لصراخ العجائز وهلع الأطفال، ولايسعد بشقاء العباد ودمار البلاد، فنحن نحبه لأنه رحمة، وليس لأنه نقمة، لكن كل تلك المعانى الرفيعة تغيب عن بعض مشايخنا، الذى لايخرجون أبدا عن منهجهم، يسيرون عليه بالنعل حذو النعل، ولايفتحون نافذة واحدة على العقل، ونموذجا لهؤلاء ماخرج علينا به الشيخ أحمد عمر

هاشم ، وهو شيخ عظيم السمت، جهورى الصوت، يشخط وينطر فى عباد الله الغلابة، عبر شاشة تلفازنا الميمون، ليقرعنا على ماأصاب بلادنا من زلزال عظيم، فنحن السبب، ومن هنا يبطل العجب، فقد استثرنا علينا غضب الله، فقام يدمر ويهدم ويسحق ويبيد ويهلك، يخلط اللحم بالحجر، والأسفلت بالدم، ويكتم صرخات الألم تحت الأنقاض، بل وأوضح فضيلته أن ذلك الزلزال كان مجرد بروفة تمهيدية إن لم نرتدع عن غينا، واستعراضا لقدرات الله علينا نحن الفقراء إليه، لقد كان الزلزال إنذارا وبيانا عمليا لما يمكن أن يفعله الله إذا غضب.

أبدا لم يشغل فضيلة الشيخ باله - وهو فى عيشة الهنىء وطعامه المرىء - ودابته الميكانيكية الفاخرة، إلا بدعاء الركوب ودعاء دخول الغائط، لم ينشغل بقلوبنا وهى ترتجف هلعا على بلادنا وإشفاقها عليها، لم ينشغل بوطن سادته العشوائية وسوء التخطيط والفساد، حتى بات على شفا ضياع دون حاجة إلى زلازل، فمصر فيها مايكفيها، ترجف لها قلوبنا وتئن أكبادنا إشفاقا من أى جلل يحيق بها مع ظرفها الخاص وسدها العالى الذى يدفعنا إلى وضع الأيادى على القلوب هلعا، كلما حدث طارئ، لأن زلزالا عقابيا مما يتوقعه شيخنا سيذهب بالحرث والنسل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليه، وساعتها لن يجد الشيخ دابته الميكانيكية، ولاحتى بغلا يركبه وزينة، بل سيذهب هو نفسه مع الغابرين، بعد استعراض القوة العظمى التى يحذرنا من غضبها، كما لوكنا ناقصين قوى عظمى تستعرض علينا نحن بالذات، للمزيد من الهوان والإذلال.

لكن الشيخ وهو يؤنبنا على خطايانا ولانعلم إن كان بإمكانه بدوره أن يرمينا بحجر، إنما يسير على نفس المنهج الذى ران على عقولنا عبر القرون، منذ أيام التنين والعنقاء وعفريت المصباح السحرى والحوت الحنون والنملة الذكية والهدهد اللبق، منذ قررت الأسطورة فى خطو العقل الابتدائى أن كل أمر مقدور لافكاك منه، وهو ماتجاوزته البشرية فى خطوها التطورى لتفسير مايحيق بها من أزمات، وتفسير مايلحق بالناس من كوارث لها أسباب واضحة معلومة، فى قوانين بات يعرفها أطفال المدارس الابتدائية، لكن الشيخ لايعلمها، لأنه حاصل على الدكتوراه، فهناك فرق.

وأحد العناصر التأسيسية فى هذا المنهج العريق، الذى لم يعد موجودا إلا فى كهوفنا، قانون من أشد القوانين تخلفنا وظلما فى تاريخ الإنسانية، هو قانون: الحسنة تخص والسيئة تعم، قانون الثواب الخاص والعقاب الجماعى، حتى بات قانونا للسلوك على كل المستويات من المعلم فى مدرسته إلى الضباط فى كتيبته إلى الأب فى بيته.

وبهذا المنهج ينسب الشيخ المفضال كارثة الزلزال إلى الله ويستخرج منها العظات أسفارا وملاحم أمواجا تتكسر على أمواج، دون أن يلقى نظرة واحدة على الإحصاءات التى تناولت الخسائر. ليعلم أن أشد آثار الزلزال قد أصابت أكثر المناطق فقرأ فى بر مصر المحروسة، لأنهم لايملكون ممكنات المعمار القوى الذى يتحمل تلك الهزات، ثم لم يسأل نفسه عن مدى استحقاق هؤلاء الفقراء للعقاب زيادة على فقرهم؟ ثم لايحاول أن يقرأ أعمار القتلى والمصابين. وحتى دون أن يقرأ فالعقل السليم لابد أن يستنتج أن النسبة الكبرى من الإصابات كانت فى أبعد الناس عن الخطيئة التى تستوجب العقاب، فالكوارث الجماعية تأخذ أول ماتأخذ الأطفال الذين لايملكون لأنفسهم شيئا، ولايستطيعون الفرار، ثم الشيوخ الذين كلت حواسهم عن إتيان المعاصى، ويتطهرون استعدادا للقاء ربهم، ثم النساء لحرصهن الأمومى على نجدة أطفالهن، أما الناجى الحقيقى فهو الذى كان يستوجب العقاب، إنه القادر على إتيان المعاصى، والقادر على النجاة بنفسه، وعلى مستوى آخر، فإن فكرة العقاب الجماعى تتنافى مع قدرات الله الكلية، ثم تتناقض مع صفاته تناقضا صارخا لأن الله لايمكن أن يكون فاقدا لقدرة التمييز، أو عاجزا عن معاقبة المسىء وحده وبمفرده بإساءته دون إنزال الدمار بالجميع صالحا وطالحا، ومن جهة أخرى تتناقض فكرة العقاب الجماعى مع صفة العدل فى الله، تلك الصفة التى نطمئن إليها، وهى وراء إيماننا الصادق به، ثم إنها سر هدوء نفوس كثيرة مقهورة، وفقراء يطمحون إلى تدخله لإصلاح أوضاع دنيوية فاسدة أو على الأقل للحصول على نصيب مناسب فى جنته، يتناسب مع اختلال الأوضاع فى الحياة الدنيا.

لكن لو قلنا هذا لقامت الدنيا ولم تقعد إلا على مشانق ودماء ترضى النفوس المتعطشة إليها، بعد سيل تكفير وتسفيه وربما قالوا: إن فى ذلك إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وربما رأوا فى إعمال العقل مفسدة لعيشهم اللين ورغدهم الطرى، ومن ثم ينطلقون بالسخائم على رأس المتسائل يصبونها عليه صبا، لأن النصوص الدينية، قد أكدت من وجهة نظرهم التى كلت لعدم استخدام النظر، إن الله كان يمارس العقاب الجماعى بالفعل، وإلا فماذا كان طوفان نوح؟ وأصحاب هود من عاد إرم ذات العماد التى حقت عليها اللعنة فبادت بشرا وحضارة وحيوانا ونباتا بغضب إلهى ماحق، أو أصحاب الناقة التى ولدتها صخرة فعقروها فدمدم عليهم ثم ماذا عن قوم لوط، ومأأدراك ماقوم لوط، وغير ذلك من الأمثلة كثير، ورغم ذلك، فإن العقل له شروط، وله مطالب كى يكون عقلا بالأصل،

وهو منحة الله للإنسان، بل إن وظيفة التفكير فى ذلك العقل هى بضعة(❖) متناهية من القدرة الإلهية وعلمها اللامتناهى، وهذا العقل لايرضى بمجرد سرد الأمثلة، فيقف معاندا لايتزحزح كى يطمئن الفؤاد إلى طوية الإيمان، لكنه لايجد من مفسرينا إجابة شافية، ولاتفسيرا مرضيا، لذلك يمسك بالعدل الإلهى، ويرفض مادون ذلك، قانعا أن هناك لاشك تفسيرا جديدا يرفع عن مأثورنا التناقض، ويحفظ للنفس ثقتها فى الله وحبها له لكنه التفسير الذى لم يطل زمانه بعد، فهلا حاولنا فتح نافذة عليه، وهلا أمكن الاجتهاد طمعا فى ثواب الأجرين، ولن نخرج بحسرة إذا حصلنا على ثواب الأجر الواحدة وتكفينا المحاولة.

ألا يمكن أن تكون تلك الأقاصيص من حكايا الأولين مجرد ضرب مثل، وعاه مؤرخوناورجالاتنا الأوائل، فنحتوا له اصطلاحا نعلمه هو «الترغيب والترهيب».. ربما.. ربما كان ذلك ضربا من المثل الرمزى لعقول غير عقولنا فى زمن غير زماننا له مفاهيم غير مفاهيمنا ومستوى معرفى غير مستوانا.. ربما.

إن الإصرار على المنهج العتيق فى فهم لغة المقدس بقدر مايضر بحياتنا بالتأكيد فإنه يضر بالمقدس ذاته، ذلك المقدس الذى نريد أن نحافظ عليه وعلى احترامه، لأنه جزء من تاريخنا الذى يشكل هويتنا.

(❖) بضعة: جزء صغير

أى علم وأى إيمان؟

عندما بلغت الدولة الإسلامية أوج قوتها الامبراطورية، كان طبيعيا أن تتحول عن خوفها الأول من الكتب والمؤلفات لشعوب المنطقة، وعلوم الحضارات القديمة في مصر وبابل وفينيقيا، بعد أن صلب عودها واشتد كيانها، ولم تعد تخشي علي نفسها من الآخر المخالف أو من ثقافته، لذلك انفتحت علي كل ثقافات دنيا ذلك الزمان، علي علوم مصر وفارس والهند، وعلي مختلف الديانات والعقائد الكتابية، منها وغير الكتابية، وعلي فلسفة اليونان ورياضياتها، واتسمت الحياة الثقافية بقدر عال من التحرر، مع حركة ترجمة نشطة نقلت كل هذا إلي اللغة العربية، في مناخ يتسم بروح إنسانية رفيعة من عدم التعصب، إلي الحد الذي تجاوز فيه المسلمون معني التسامح مع ثقافة الآخر وعقيدته إلي معني التواصل «كما عند المعري»، وإلي معني الاحترام المتبادل «كما عند ابن عربي مثلا»، حتي وصل الأمر إلي حرية اعتقاد مقبولة من المجتمع ومن الدولة، وكان طبيعيا أن يفرز ذلك المناخ كل الاتجاهات الفكرية والعلمية، ووجد العلم مناخه المناسب فتنامي حتي قدمنا للعالم كوكبة عظمي من المفكرين، ووسط كل هذا الزخم العظيم لعلوم الدنيا والدين، نسمع عن الطبيب المعجزة «أبو بكر الرازي» وهو نفس الرجل الذي كان يعلن إلحاده دون ترميز أو مواربة، ثم نسمع بين مدارس الاجتهاد، وحركة تدوين التاريخ، وعلماء الرياضيات، عن وجه آخر لحقيقة الحرية الثقافية، يمثله الداهية الكبير «ابن الراوندي»، الذي كرس عمره الذي وصل إلي قرن من الزمان، لدحض ما أسماه: مخاريق الأنبياء، وكتب فيما علمنا ماينوف علي تسعين مصنفا، أسماها بمسميات الأحجار الكريمة، فهذا كتاب اللؤلؤة، وذاك كتاب المرجانة، وثالث كتاب الزمردة.. الخ، وعاش الرجل عمره الطويل يناقش بالعقل مارآه ليس من العقل في تاريخ النبوات والكتب المقدسة، ويكرس ما يدحض فكرها وينعي عليها منهجها، ولم يطلب أحد محاكمته، ولم تصادر كتبه، ولاأنقض عليه نجار

مسلح جهول بمطواة قرن غزال. لكنا علي كل حال فقدنا كل هذا، ولم نعد نسمع مقولات ابن الراوندي إلا من المقتطفات التي كتبها المتأخرون من مشايخ الأمة، بعد أن زال مجدها وحلت بها الغمة، لتسفيه أفكاره وتكفير ضميره، مع انهيار قوة الدولة وإغلاق نوافذ العقل، مع بداية عصر الخليفة المتوكل، الذي أغلق باب الاجتهاد وألغي دور العقل وحرم الكتب المخالفة، ومن بعده وحتي اليوم نتحرك بسرعة الصاروخ، ولكن إلي الخلف.

لكن قبل أن تدخل الأمة في التردي، وإبان حركة العلم والترجمة النشطة، تعالت فلسفات الفيوض الغنوصية التي استمدت أسسها الفكرية من عقائد مصر القديمة وديانات فارس القديمة، وصبتها في قالب الإسلام، بحيث قامت فلسفات جديدة تكاد تكون عقائد جديدة بكل معني الكلمة، تسمي عقائد الفيض، وأشهر الأسماء في تلك الفلسفات الفيلسوف «أبو نصر الفارابي»، ثم «ابن سينا» الطبيب الفيلسوف.



أما في علوم التصوف فحدث ولاحرج، عن عقائد قديمة من عقائد مصر وفارس والمسيحيين واليهود، تستخفي وراء عباءة إسلامية، حيث قامت الشعوب المفتوحة للغزو العربي الإسلامي، تحافظ علي قديمها الوطني تحت مظلة إســلامــيــة، ثم أبدا لاننسي علم الكلام، ذلك العلم الشديد الجرأة والاجتراء، والذي كان نموذجا لديموقراطية الرأي وحرية القول وعلمنة المساحة الفكرية، واحترام الرأي الآخر مهما كان مخالفا، وقام يعلم الناس عدم الخشية من مناقشة أي أمر، فليس هناك كبير علي العقل، وليس في علم الكلام محرمات عقلية، فناقش الناس أيامها أمورا لوناقشناها اليوم لرجمنا بألف حجر، وبرزت بين مدارسه مدرسة المعتزلة التي أسسها «واصل بن عطاء» والتي جعلت العقل مرجعا لكل أمر، حتي لواختلف الوحي مع العقل، فقد رجح المعتزلة اللجوء لحكم العقل.

ولو قدر لهؤلاء جميعا أن يعيشوا زماننا الأغبر لجلس الفارابي علي خازوق في ميدان التحرير، ولصلب ابن سينا إلي جوار منه في ميدان طلعت حرب، ولتطوع سباك من أمراء هذا الزمان بذبح واصل بن عطاء بباب المسجد الأزهر، ولمات ابن سينا بطلقات رصاص من أحد الصنايعية الذي تثقفوا بثقافة العفاريت السليمانية.

نحن هنا لانمزح قدر مانأسف وننزف وجعا علي الأمر، ولانستهين بقدر دين أو فكر أو اعتقاد، إذ أصبحت هموم جماهيرنا الغفيرة العريضة الغليظة «في الوقت الذي تنشيء إسرائيل مفاعلها النووي الأكبر الجديد

علي حـدودنا» هو كيـف نوفق خطـانا مع السلف؟ هل يرفع المسلم أصـبـعـا واحدا أثناء التشهد أم إصبعين؟ المسبحة الثلاث وثلاثون حبة أكثر شرعية أم التسع وتسعـون؟، هل أكل الجبن الرومي حـلال؟ أصبح كل شيء يدور حول لاشيء، وله مرجع واحد هو حياة السلف الصالح في أدق تفاصيلها مع ملاحظة شديدة البساطة أن كل تلك الهموم في فكر أمتنا قد تواكبت مع انحطاطها في قاع مزبلة الأمم.

هذا عن كيف يفكر رجل الشارع وغير المتعلم وأنصاف المتعلمين في بلاد المسلمين، فماذا عن الطبقة المتعلمة؟ «نقول المتعلمة وليس المثقفة فهناك فرق، كالفرق بين رواد حقل البرسيم ورواد حقل الياسمين»، إن تلك الطبقة تنحو منحي آخر أسسه رجل همام تقلب من نفس الشمال إلي نفس اليمين، ومـاأدراك مـااليـمين ومـافـيـه من رغـد ونعـيم مـقـيم، ومع ذلك المنحي والانعطاف التاريخي لفكر شبابنا مع اللافتة المعنونة بـ «العلم والإيمان»، نقف نحاول أن نفسهم، كيف نتمسك بالعلم؟ وكيف نحترم الإيمان؟.

نحن مثل كل فرد في الأمة، نعرف معني الإيمان، ونشهد لإله أوحد ليس له كفوا أحد وليس له شريك، ونؤمن بمنظومة متكاملة لها كتابها الذي يحدد شـروط ذلك الإيمان، ويضع للسلوك والنظم الاجتمـاعـيـة قـواعـد محـددة، لكنا أيضا نوقن تماما أن ذلك الكتاب ليس كتابا في الفيزياء أو الكيمياء أو الهيدروليكا أو هندسة الوراثة، لسبب شديد البساطة، وهو أن القرآن كلمة الله الثابتة الواحدة التي لاتقبل التغير أو التقلب أو اللعب بها، هو موضوع إيمان في المقام الأول، أما العلم فطبيعته متغيره متبدلة، لأنه بذلك يصحح نفسه باستمرار ويتقدم علي هذا الأساس، فهذا منهج، وذاك منهج آخر مخالف تماما، هذا إنتاج عقل بشري متغير، وذاك من مصدر إلهي قدسي لايقبل الانتهازية والاستخدام النفعي، كما لايقبل التبدل والتغير.

ولكن لأننا قد استقرينا المقام في قاع مقلب نفايات الأمم، ولأن الأمم الأخري قد تقدمت تقدما علميا هائلا علي كل المستويات فقوي شأنها وعظم أمرها، ولأننا بجوارها في حال ضعف وهوان، ولأن العلم لاينمو إلا في مناخ حر، حرية مطلقة بلاحدود، يسمح بالرأي الآخر، ليس فيه تكفير ومحاكمات تفريق، فإن تربة بلادنا لم تعد صالحة لإنتاج العلم، لذلك اكتفيننا باستهلاك منتجات العلم التي جهد عليها علماء الدول المتقدمة وأفنوا فيها أعمارهم، وهنا طيب خاطرنا شيخ المفسرين التلفازي، الذي «تولي» علينا «متوليا» عافاه الله وأبقاه للأمة الإسلامية ذخرا ولمصر فخرا، فرأي أن عزائنا في كون غير المسلمين يكدون ويتعبون ويشقون كالأنعام

للوصول إلي كشوفهم العلمية، بينما نحن بأموالنا وبترولنا الذي منحه الله لنا، نأخذ نتاج هذا العلم ونستهلكه علي الجاهز، فالدول المتقدمة مستعدة دوما لتوصيل الطلبات إلي المنازل فحمدا لله أنه قد سخر لنا أخيرا بني الروم، فهل بعد ذلك نصر؟ وهل بعد ذلك فهم للعلم والإيمان؟



أما الدكتور الحجة، الموج المتلاطم من العلم المتراكم، مفتاح العلم وخزانته، الشيخ الطبيب بحر العلوم، صاحب البرنامج التلفازي المعلوم، فقد أخذ مبكرا، منذ أن سار مع عقارب الساعة، بحل آخر، يحل به مشكلة الأمة ليرفع عنها الغمة، بحل أساسي لعلاقتها بالعلم.

رأي الشيخ الطبيب «رأيا» أو «رؤيا» لانعلم، ثم قام يقولها في سلسال طويل عبر شاشات التلفاز الميمون، ثم قال لافض فوه نفس الأقوال في سلسال آخر من الكتب، التي أصبحت تملأ أرفف أدمغة شبابنا، وكان الرأي والقول يؤكدان، أن حل مشكلة أمتنا يمكن في إثبات أننا أصحاب كل الكشوف العلمية قبل زمانها بزمان، وحتي التي لم تكتشف بعدمنها.

لكن كيف السبيل إلي ذلك؟ لو كان الرجل موضوعيا لقال إننا قد شاركنا الإنسانية في تطورها العلمي، عبر ماقدمت كوكبة علمائنا في العصور الخوالي، وبذلك لايكون العلم حكرا علي أحد، إنما نتاج مشاركة كل البشرية فيه، منذ عصر اكتشاف النار وحتي الأن، لكنه لم ير ذلك، لقد أراد لنا الفضل كله بالتمام والكمال لايخس مقدار جناح بعوضه، ويكون له هو الفضل كله في ذلك الكشف العظيم.

كان الحل هو القول: إن القرآن يحوي كل علوم الأولين والآخرين، وهنا قام يفتش في أفلام كد عليها العلماء، ينتقي منها مايلتقي مع تفسيره هو للآيات، ليقص لها النظرية العلمية ويفصلها علي قدها ومقاسها، نعم قد تأتي مرة فضفاضة، ومرة شديدة الضيق، لكنه وهو يفعل ذلك يرتكب جرما كبيرا ثم يقع في إثم عظيم.

أما الجرم فهو في حق إثنين لانتنازل عنهما أبدا، الأول في حق العلم نفسه، فهو يقدمه مجزوءا، منقوصا، مشوها، يهدر مابذل فيه من عناء وجهد بالعقل البشري، خاصة مع تعقيباته وابتسامته الساخرة المعهودة، من ذلك العقل الغر المفتون، الذي يحاول اكتشاف علوم عرفناها نحن قبله بقرون، عبر معرفة ربنا لها، أما المجني عليه الثاني في هذا الجرم، فهو زهرة شباب بلادنا، الذين عليهم المعتمد والأمل، فالعلم عناء وكد وتعب عظيم، يمكن بمنهج الطبيب التلفازي الاستغناء عنه والاكتفاء بالقرآن،

فيدمر الطبيب المعجزة عقل الأمة ممثلا في شبابها، ليتحولوا إلي صناع قنابل محترفين، وقتلة متمرسين.

بقي الأن الإثم العظيم وهو الأخطر، فالرجل أولا يريد إثبات صدق الله بمعارف الإنسان، هذه واحدة، أما الثانية فهو أنه يعرض لنا الأفلام العلمية ويتطفل عليها، ثم يبدأ في السخرية من العقل البشري القاصر الذي أنتج علومها المصورة، أترون أين الإهانة الخفية؟ إنه يثبت صدق الله بنتاج عقل إنساني أبله، أليس ذلك مايفعله الطبيب المعجزة؟.

ثم إن الإثم مركب، فالعلم متغير، والقرآن كلمة الله الثابتة، فهل إذا ربط السيد الطبيب نظرية علمية اليوم بآية قرآنية، ثم ثبت بعد ذلك فساد النظرية أفلا ينسحب ذلك علي الآية القرآنية؟

وهكذا، ولأن الغرب دوما عدو، ولأن العلم منتج غربي فهو عدو «؟!»، لكن لأن العلم يساعد علي تقدم الأمم، تم سحب شرف العلم منهم وتحييده وجعله خادما مطيعا لمنظومتنا، ولكن في الوهم، وهكذا نصبح أعلم علماء العالم، فالعلم في كتابنا وهنا الوجه الكارثي، فالقرآن كلام الله، ونحن نفخر به علي أولئك الذين يظنون أنفسهم متقدمين وهو واهمون، وهذا يعني أن رب القرآن الكريم رب خاص بنا وحدنا نتباهي به علي الآخرين، رغم أن الله رب العالمين، ونحن نؤمن بذلك عن يقين.

ثم ألا يعني ذلك الشعور بالدونية والقزمية، وإننا مجرد قبيلة لاتعرف شيئا وتتخبط في الجهالات، لكن شيخها يعرف كل شيء، وعلي جميع أفرادها الإطمئنان إليه، وأنه سيتدخل لإنقاذها في الوقت المناسب، ألا يعني ذلك تحول النفس الإلهية الرفيعة العظمي إلي مجرد سيد لجماعة؟ وبالمناسبة أليس ذلك هو فهم يهود لمعني الألوهية؟.

وطبعا من حق الرجل أن يفخر، بعد أن سار وراءه العريان «ذرافات» أو «زرافات» لافرق، وانتابهم هوس العلم والإيمان، ليصيبهم ذلك الهوس بحمي العلوم الإسلامية التي انعقدت لها المؤتمرات العالمية، التي علمنا أخيرا من التقارير المنشورة أنها قد مولت من قبل المخابرات المركزية الأمريكية.

فإن كان هناك مثلا طب إسلامي، فلاشك أن هناك طبا بوذيا وطبا يهوديا، أما نحن إذا كنا مخلصين لطبنا فعلينا إغلاق كليات الطب في بلادنا، مع سحب شهادة الطب من السيد الطبيب التلفازي ومنحه شهادة تفوق في الطب الإسلامي مثلا، كتعبير عن العرفان لما قدمه لأمة العريان.

والأن جاء موعدنا مع السؤال الدوري «السؤال الآخر»:

بفرض أن كل مافعله السيد الطبيب صحيح، وبفرض أننا لم نفهم

المرامي البعيدة لخطته السديدة، فما هو الممكن تحقيقه من تلك الخطة لصالح البلاد والعباد، والخروج من القاع؟ بماذا أفادنا كل مافعل ويفعل بفرض صدقه؟

يعني هل يمكن للسيد الطبيب باعتباره الرائد في هذا الطريق أن يقدم لنا حلا لتخلفنا؟ أو هل بإمكانه أن يكتشف لنا من المقدس أسلحة كالليزر ونسميه الليزر الإسلامي مثلا؟.

نحن نتظر تلك الجدية في السيد الطبيب بكل أمل، نعم ربما يطول انتظارنا حتي نموت فنبعث لنحاسب علي ماقدمت أيدينا خاصة في حق أمتنا، لكنا علي أية حال نطلب لأنفسنا وله المغفرة إن نسينا أو أخطأنا.

مرض المنهج: محاولة للتشخيص المبسط

من وجهة نظرى أعتقد أن المشكلة أبعد وأعمق من الاستفسار عن مستوى المد السلفى أو جذوره وانحساره، فالأمر يكمن فى منهج تفكير سائد مستمد من المقدس ويعتمد عليه ويقوم به، ولأن للمقدس عدة وجوه وعدة قراءات قد تصل إلى حد التنافر المذهبى، فإن المسألة تتخذ شكلا أكثر تعقيدا، حيث يتحول تعدد الفهم وتعدد التفاسير إلى تعدد فى المناهج التى تطبع سلوك أتباع المذاهب بطابعها، ويسلكون فى الواقع العملى بوحى من توجيهها، ويضبطون عليها حركاتهم وسكناتهم ورؤيتهم للماضى وللحاضر وللمستقبل، ويحددون بها موقفهم من المنتج الثقافى الإنسانى، ومن الآخر المخالف، بل وبه يحددون خياراتهم السياسية وهنا الوجه الكارثى.

وقد يبدو هذا التعدد فى ظاهرة رحمة، لكنه العذاب بعينه، فهو من جانب يؤدى إلى تصلب مذهبى شديد، ومن جانب آخر يضع التعامل العلمى معه من الخارج فى حالة استحالة، حيث ستختلف أساليب الجدل بين مذهب وآخر، وحول مايراه هذا المذهب أو ذاك من صحيح التفاسير أو الأحاديث، ومن جانب ثالث فإنه رغم التعددية فإن الرؤى جميعا تستند إلى فكرة تأسيسية ترى أن مايملكه العقل المتمحور حول المقدس هو الرؤية المنهجية الواحدة الصحيحة صحة مطلقة لايدخلها الباطل من بين أيديها أو من خلفها.

بل تجتمع المذاهب جميعا عند حقيقة تأسيسية مرجعية هى نصوص الكتاب والسنة التى انقضى على زمنها وظروفها التى أفرزتها مايزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان.

وينبنى على ذلك شعور حاد بامتلاك الحقيقة النهائية والمطلقة لكل أمر فى كل علم ممكن، وهذا بحد ذاته هو المصيبة بعينها، لأنه يؤدى أو أدى بالفعل إلى استشراء وباء نفسى حاد، عندما يصطدم صاحب هذه الحقيقة المطلقة - بما يحمله من زهو نفسى يؤدى به إلى الاستعلاء والنرجسية -

بواقع الأحوال وتقدم الآخر المخالف وتفوقه الحضارى فيزداد تمحورا حول النفس فى محاولة يائسة للتمسك بهويته وإثبات ذاته، ليتداخل ذلك كله مع الانبهار الضرورى بحضارة الآخر المتقدم - فى تعقيدات آخرى - تنتهى إلى استشراء حالة فصامية جماعية ظاهرة الوضوح، تظهر أعراضها على كل المستويات حتى على المستويات القيادية، وماتتخذه من قرارات وتخبطات انتهت بنا إلى حيث نقبع الآن.

وإذا كنا لانغفل عن العوامل الأخرى التى أدت إلى الحال الراهن - وخاصة الجوانب الاقتصادية ومدى نضوج الأوضاع الاجتماعية المتفاوتة بتفاوت خصوصيات الأوطان العربية وعدم تبلور طبقاته بشكل محدد واضح، مع الانحرافات العنيفة التى أصابت الأشكال السياسية العالمية فى مفاجأت السنوات الأخيرة - فإننا سنحاول تقديم مطالعة بسيطة فى دور النصوص ووسطاء الدين المحترفين فى تأسيس هذا المنهج وترسيخه.

النص بين الثبات والحركة

معلوم أن النص القرآنى لم يأت به صاحب الدعوة فى شكل كتلى، إنما جاءنا مفرقا منجما بالتبرير القرآنى ﴿ليقرأه على الناس على مُكث﴾، تغيرت أحواله وتبدلت بتبدل أحوال الواقع والمتغيرات زمن الدعوة، فتجادل مع أحداث الواقع وفعل فيها وانفعل بها واستجاب لضرورات المتغير الموضوعية، عبر ثلاث وعشرين عاما هى العمر الذى توترات خلاله النصوص القرآنية، وعبر هذا العمر تغيرت ايات وتبدلت آخرى، ومُحيت ايات ونسخت أخرى ورفعت آيات وأنسيت أخرى، وهو الأمر الذى وجد صداه فى الآيات القرآنية التى تردد أمورا معلومة فى أبواب علوم القرآن، كما فى الآيات التى قيلت بمناسبة حيث الغرانيق: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾ «٧٣، ٧٤/ الإسراء».

كذلك الأية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ «٥٢ الحج».

وبشأن محو آيات تقول الآية: ﴿يمحو الله مايشاء ويثبت﴾ «٣٩ الرعد».

وعن التبديل تقول الآية: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مُفتر بل أكثرهم لايعلمون﴾ «١٠١ النحل».

وبشأن الإنساء والنسخ تقرر الآية: ﴿ماننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ «١٠٦ البقرة»، وغير ذلك كثير واضح الدلالة والمعنى.

وإعمالا لذلك لابد من فهم أن هذا النص القدسى لم يأت كتلة واحدة متماسكة جامدة كألواح موسى، لكنه مر بمراحل تطورية ارتبطت بواقع الحجاز زمن الدعوة وبتطور المتغيرات فيه ارتباطا وثيقا، لكن بموت صاحب الدعوة وانقطاع تدفق الآيات توقف هذا التفاعل وتحول النص على يد أتباعه إلى مقدس لايقبل تبديلا ولاتحويلا، وثبتوا به، ومعه، عند تلك اللحظة الزمنية التاريخية بكل مالها وماعليها، ومع حراك الواقع الحراك الضرورى بمتغيراته المتلاحقة ظل المنهج واحدا ثابتا لايتزحزح ولايتحرك، وأصبح الإصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة سمة المنهج العربى المسلم، فى التفكير وفى السلوك، مما أدى فى النهاية إلى تخلف ثقافى هائل، قياسا على الحراك الضرورى الذى انتهى بالإنسان العربى اليوم إلى استخدام كل كافة المنتج الحضارى التقنى للعالم المتقدم من جهة، مع الإصرار على ثباته المنهجى والثقافى بمنظومته الواحدية فى الجانب الآخر.

وعبر القرون الخوالى السوالف تمكن الإنسان فى بقاع المعمورة عبر نضالات طويلة وتضحيات عظيمة أن يرسى مبادىء إنسانيته الحرة، مما أدى إلى تبدل عظيم وتغير هائل فى المفاهيم خاصة حول قضايا الحريات، بينما على الجانب الآخر ظل منهجا هو المحافظة والثبات عند ظاهر ألفاظ النصوص التى أحيطت بكل التحريمات لعدم الاقتراب أو المساس أو حتى محاولة فهم صحيح يواكب المتسجدات.

وحتى الأن يردد المسلم ايات ملك اليمين دون أى محاولات من جانب فقهاء المؤسسات الدينية الإعلان الواضح عن وقف العمل بأحكام هذه الآيات، باعتبار استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان كان وصمة عار فى جبين الإنسانية على مر التاريخ.

نعم حض الإسلام على العتق وحبب فيه فى مراحل الدعوة الأولى، لكنه أبدا لم يحرم الرق كما حرم مثلا لحم الخنزير، ولم يجرمه، ومات الرسول والصحابة ولديهم الأعداد المعدودة من العبيد، ونعم كان الإسلام بالتحبيب فى العتق والترغيب فيه نقلة تقدمية قياسا على زمنه، لكن الأمر اليوم قد اختلف اختلافا تاما، ومع ذلك لم تزل أدعية ميكروفونات المساجد الكبرى فى بلادنا المحروسة تنادى المسلمين بالتهيؤ لنفل أموال غير المسلمين وسبى نساءهم، الأمر الذى يطفح بالمراقب ويضعنا سخرية للعالمين مابين واقعنا فى قاع الأمم وبين مطالبنا التى نرفعها إلى ربنا.

وضمن قضايا الحريات والتى تحتاج إلى كسر جرىء، وعميق فى جدار

الثبات والسلفية قضية المرأة، التى لم تزل حتى الآن نصف رجل جاهل بليد لالزوم له، رغم أنتها قد تكون حاصلة على أعلى الدرجات العلمية وتعدل فى موازين العقل مئات الرجال، وعندما حاول نصر أبو زيد - كمثال - الحوض فى هذا الأمر قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تكفير وتفريق وشوق إلى الدماء، وهو الأمر الذى يدفع إلى التساؤل عن مدى جدوى التعامل من على ذات الأرض، لمنهج يستسهل دماء المخالف فى الرأى، بل يراه أمرا جميلا وعظيما وسبيلا إلى ملكوت الله.

وهنا يطيب لى أن أشرك القارئ فى طرفة مادمنا فى ميدان القراءة المبسطة، حيث كنت أخيرا على الستالايت من القاهرة مع الشيخ يوسف البدرى بالدوحة على قناة الخليج الفضائية، وأذكر أنى قلت ساعتها أنى رجل قد لوثته الحضارة، يكره رؤية الدماء تسفك والأيدى تقطع والأجساد تجلد، فكان رده العجيب: وماذا عن سفك دماء المسلمين فى البوسنة؟ ويبدو أن منهج الرجل، هو منهجهم عموما يرى أن الغرب - وهو النموذج المبهر وغير المعلن فى بواطنهم - يمارس الذبح والقتل فلماذا لانمارسه؟ وأنه مادام الغرب المتحضر يمارسه فليس علينا ملامة، الكارثة أنه يريد أن يمارسه معنا أيضا.. ولاتعليق.

وهكذا يكون أى خلاف فى الرأى حول تفسير آيات، أو محاولة الخروج من أسر الثبات، مدعاة لإهدار الدم بكل بساطة بل أحيانا بولع شديد، وهو الموقف أيضا من قضايا الديمقراطية، ناهيك عما هو أبعد مايكون مجرد السماح بمناقشته بينما قد أصبح مبدأ إنسانيا راسخا: هو مبدأ حرية الاعتقاد، فدون مناقشته خرط القتاد وإسالة الدماء أنهارا.

العلم والمعجزة

ولأن النص القدسى هو الثقافة الوحيدة الصحيحة والممكنة وفق هذا المنهج، فقد أصبح النص هو المرجع العمدة والأم لكل القضايا حتى لتجد أساتذة أكاديميين يشرفون على تخريج أجيالنا يتساءلون مع كل جديد: هل جاء ذكره فى القرآن؟!!.

ولأن النص كان يعمد فى أحيان كثيرة إلى ضرب الأمثلة لأهل زمنه ترغيبا وترهيبا، للإيعاز بأن ضعف صاحب الدعوة والمسلمين الأوائل لايعول عليه، فوراءهم تقف قوة الله والملائكة ظهيرا، وتأتى ضمن تلك المرحلة أحاديث النصوص مشحونة بالمعجز والملغز الذى يكسر قوانين الطبيعة والعقل معا، فنجد قصة الحصان المجنح «البراق»، وحديث الصخرة التى تمخضت فولدت ناقة الله، وحديث الملائكة المحاربين يركبون الخيول

ويحملون السيوف، وحديث الجن والعفاريت وبساط الريح السليمانى، وكل هذا لطيف وموعظة حسنة وإنذار للكافرين من أهل الحجاز زمن الدعوة، لكن اليوم ومع المفترض فى الإيمان إذا خلصت الضمائر وصفت النوايا بالإخلاص كلية لكل تفاصيل المنهج الطقوسية، فبالإمكان بل بالضرورة عدم بذل أى جهد علمى حقيقى، ويتحول الشعور بالعجز والدونية إلى ارتكاس نحو زمن السلف الصالح تهيئة للواقع الأرضى لمجىء نصر الله والفتح، ولا يصبح هناك مجال سوى لإنشاء دولة دينية وساعتها سيتدخل الله بنفسه لإنقاذ حزبه والخروج بخير أمة أخرجت للناس من القاع بقدرته وحده.

والوجه الكارثى فى أصحاب المنهج أنهم يتعاملون مع المنتج العلمى الإنسانى بتعال وترفع، ولأن العلم قد ساعد على تطور الأمم الأخرى فقد أصبح محل نقيضين، محلا للحب والكره، نستعمل منتجه التقنى لكن نختصر العلم فى نفسه، هو الشيطان الأعظم الذى ساعد الآخر المتفوق، ويتم تكريس هذه المعانى عبر وسائل التثقيف العامة كالإذاعة والتلفاز بل ودور التعليم على تنوعها، ومع الانبهار بهذا العلم وبالعقل المتفوق لايملك الموفقون والانتهازيون وأصحاب المصالح والمتاجرون بمصير الأمة سوى ادعاء توفيقه رخيصة ومبتذلة بين العلم وبين نصوص الدين، تنتهى إلى تكريس العلم كله لله وحده وتحقير شأن العقل الإنسانى القاصر، وإبان ذلك يتم التعامل مع المنتج العلمى بعقلية قاطع الطريق، وبنفسية المريض بالذهان وبالشيزوفرينيا معا، فيتم التأكيد على أننا أصحاب كل تلك الكشوف قبل أن يكتشفها الغرب الكافر بعقله القاصر، وأننا نعلمها سلفا عبر علم ربنا بها، كما لو كان اللله بهذا التصور التجزيئى والقبلى شيخا لقبيلتنا وحدها ويكفينا أن يعلم هو نيابة عنا، فهو المتصرف، وهو العالم، وماعلينا سوى طاعة أوامره ونواهيه وانتظار تدخله فى الوقت المناسب الذى لايعلمه إلا هو، وهكذا، ورغم أننا شركاء مثل كل البشرية فى صياغة العلم الإنسانى عبر مراحل متعددة من تاريخنا، ننفى هذا العلم ونحيله إلى عدو شيطانى نحبه ونخافه ونكرهه ونتمنى امتلاكه ونحتقره فى آن واحد، ثم تحول أنفسنا إلى مجرد كائنات بلهاء تعتمد على علم ربها فقط وهو العلم المخفى، وتستخدم كافة المنتج التقنى للعلم البشرى أفلا يسىء ذلك إلى مفهوم الكمال الألوهى نفسه؟!.

قوانين التخلف الثلاثة

رغم أن المسلمين الأوائل الذين عاينوا الدعوة وعاشوا زمنها، قد وعوا درس تجادل النص القدسى مع الواقع، فمدوا الخط على استقامته واستفادوا من حواره مع المتغيرات، ثم جاءت الأمبراطورية الإسلامية فى

عصر الثقة والقوة لتفتح كل الأبواب والنوافذ على حضارات الدنيا وعلوم العالمين آنذاك.

وبمجيء الخليفة المتوكل وتضعضع قوة الدولة وماصاحب الأحوال بعدها من الدخول فى عصور الانحطاط والتردى، انتهى الأمر بتقعيد القواعد المكبلة للحريات الفكرية عبر تحريمات وضعت فى التعامل مع النصوص الدينية، تكبح أى محاولة للإنطلاق بالمفاهيم من أسر الثبات لتواكب حركة التطور والمتغيرات.

وقد تمثلت تلك القواعد فى ثلاثة قوانين تأسيسية: أولها: تكفير من ينكر معلوما من الدين بالضرورة، ورغم أن هذا المعلوم من الدين بالضرورة لايملك أحد تحديده وضبطه، لأن معنى ذلك هو الإطلاع على المقصد الإلهى منه بدقة وتواصل نبوى، فإن هذه القاعدة كثيرا مااستخدمت لإخراس ألسنة المعارضة السياسية المرتدية للزى الإسلامى، كما حدث منذ سنوات قليلة فى مقتل فرج فودة فى مصر ثم محاولة اغتيال نجيب محفوظ، وأخيرا ماحدث مع نصر أبو زيد.

وكانت القاعدة الثانية هى «لااجتهاد مع نص»، والمقصود بالنص ذلك الواضح الدلالة القطعى الذى لايختلف عليه اثنان وحوله لاتنتطح عنزتان، رغم مانعلمه أن ذلك التوصيف بوضوح الدلالة والقطعية وعدم الاختلاف حوله قد تبدل وتغير ونسخ وتفاعل مع الواقع، ثم جاء رجال كبار فى تاريخ الإسلام فاجتهدوا مع نصوص من هذا القبيل بما يتعارض وما استقرت عليه الدلالة، حتى أنهم أكسبوه دلالات أخرى وحتى وضعت بهذا الاجتهاد تحريمات وألغيت محللات، عندما مدوا الخط على استقامته ووعوا الدرس النبوى والقدسى فى تجادل النص مع الواقع، واستفادوا من حواره مع المتغيرات وجدله معها زمن الدعوة، حتى أن الخليفة عمر أوقف العمل بحدود كما حدث فى عام الرمادة وحرم حلالا كمتعة النساء، بل وأوقف العمل بفريضة كمتعة الحج، بل وأوقف العمل بنصوص واضحة كآية المؤلفة قلوبهم، كذلك فهم الخليفة «على» نفس الأمر وأعلنه واضحا فى قوله: «إن القرآن لاينطق بلسان بل ينطق به الرجال»، مطلقا بذلك حرية تعدد الأفهام حوله.

أما القاعدة الثالثة فكانت قاعدة شديدة الانتهازية وترتبط بمصالح ذوى السلطان ووسطائهم المحترفين من رجال الدين بوضوح وجلاء لايقبل جدلا أو مكابرة، ووضعت لتبرير مظالم بغيضة لأصحاب السلطان، ضد مصالح الناس والوطن والدين نفسه، وبهذه القاعدة كان - ولم يزل - يتم نزع الأيات

من سياقها الداخلى لتمرير أشفع المظالم، ولابأس من اللجوء فى ظرف آخر إلى نقيض تلك الآيات لتبرير أمور هى على العكس تماما، نتيجة مااحتواه المصحف العثمانى من تجاور للآيات الناسخة بجوار المنسوخة ومايصح العمل بحكمه إلى جوار ماتوقف العمل بحكمه، والتغطية الكاملة على هذا الأمر والتعمية عليه حتى يمكن استثماره وقت الحاجة.

وإبان ذلك يتم إلغاء دور الإنسان وفاعليته تماما فى صياغة أى مأثور، وتحال الثقافة جميعا إلى عالم غيبى مفارق، ويدرب المسلم على الإفراط فى تقديس كل قديم بكل رموزه الممتدة فى الحاضر فيصاب برهاب اليورنيفورم المشيخى والعمامة، ويسلم له القيادة، مع تقديس لكل لحظة تاريخية ترتبط بأمر دينى، حتى اللغة نفسها أصبحت مقدسة وتم تثبيتها عند زمن تتواتر النص، ومنعت من الحراك، وكبلت عن التطور.

وأصبح النص القدسى مصدر كل معرفة ممكنة، حتى المعرفة بالذات وبالهوية وبالتاريخ الذى انقطعنا عنه بانقطاعنا عن لغته القديمة وهى وعاؤه الحافظ، ففقدنا الذاكرة التاريخية، ومع فقدها توارى مفهوم الوطن والمواطنة خجلا أمام مفهوم أصولى يؤكد دوما أن الإسلام هو الوطن.

وتمحورت الأحكام على الفكرة أو على السلوك، أو على الرأى، أو على الموقف السياسى، حول الحلال والحرام والإيمان والكفر، وليس بحساب مصالح البلاد والعباد وليس حول الحكم بالصواب والخطأ العقلى والعلمى والعملى، وتحول المأثور إلى وسيلة للمعرفة بدلا من أن يكون مادة للمعرفة والدرس تنقله من مستوى الرأى المختلف حوله، إلى مستوى العلم الذى لاخلاف حوله.

خاتم الأنبياء وبزوغ عصر العقل

أبدا لم تأت سور القرآن الكريم وآياته دفعة واحدة فى كتلة متماسكة مثل ألواح موسى عليه السلام، بل تتابعت مفرقة ومنجمة ليقرأه النبى على الناس على مكث وعلى مهل حسبما قررت آيات القرآن نفسها، وقد استمر تواتر ايات القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاما هى عمر ذلك الوحى بالمقاييس الزمنية البشرية.

ولأن تلك الآيات قد انضبطت حركتها الزمنية بشروط الزمن الإنسانى وتكوين الإنسان نفسه، فانتهت بموت الوسيط البشرى «النبى» وتوقفت بتوقف زمانه على الأرض وشروطه الجسدية فى علاقتها بالحياة وبالموت، وإبان تواتر آيات القرآن تواصلت تلك الآيات مع الواقع الإنسانى الأرضى أخذا وعطاء فى جدل ينفعل بالواقع ويفعل فيه يتأثر بمتغيراته ويعود ليغير فيه، وهو مايعنى أن هذا النص لم يهمل الواقع وحراكه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، بل عمد عمدا إلى إبراز وإظهار تفاعله معه وتبدله بتبدل الظروف الإنسانية والموضوعية البحت، بكل ما للإنسان وبكل ماعليه بغرض تأكيد دور الإنسان الفاعل فى صياغة الواقع وصناعته، بل إن الجانب الإلهى المقدس عندما كان يفعل، فإنه فعل بواسطة البشر أنفسهم، وبذلك كان مشاركا للإنسان والإنسان مشارك معه من صياغة الواقع ودفع الحراك التاريخى.

ومن هنا جائنا الناسخ والمنسوخ والحديث القرآنى عن آيات رفعت وأخرى بدلت، وثالثة محيت ورابعة أنسيت... إلخ، وهى أبواب معلومة فى علوم القرآن، قامت على شهادة المقدس ذاته بما كان يحدث، لكن مثل ذلك الحديث سيبدو غريبا لغير المتابع ولمن لايقرأون فى علوم دينهم وقرآنهم ويكتفون بتلقيها شفاهة، وعادة مايكون مثل هؤلاء هم أشد الناس دموية ولاإنسانية وأعظمهم تعصبا لأنهم أشد الناس جهلا بمقدسهم.

ثم إن هذا المقدس نفسه قد قرر على الناس مناهج مقدسة، وهى فى

حقيقتها مناهج إنسانية ورأى بشرى ثبت صوابه فأقره الوحى، وكم من حالة أقر فيها الوحى آراء الصحابة مثل أبى بكر وعمر بوجه خاص، لذلك تجد مساحة الإنسانى فى القرآن الكريم هى المساحة الكبرى والفاعلية العليا، خاصة إذا لم تنس أن هذا المقدس لم يأت من أجل الله، فهو مع الإيمان يجب أن يكون أجل من الاحتياج لأى أمر كان، لكنه جاء من أجل الناس وصلاح معاشهم، ومن هنا جاء الجانب الإنسانى ليغطى المساحة الأوسع من الآيات والأعظم، بينما كانت الإلهيات والغيبيات فيه والتى محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو كفر، قبول أو رفض إما أن تؤمن بها أو لاتؤمن، فهى قليلة محدودة حتى أمكن صياغتها فى جملة واحدة يمثلها قانون الإيمان الإسلامى «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خير وشره».

لكن عندما اجتهد مفكر مصرى وقال إن النص القرآنى بمفارقته لمصدر الإلهى قد تأنسن وأصبح ملكا للبشر قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تنفير وتكفير وطبول حرب دينية ومحاكم ومحاكمات وأحكام تفريق وردة، كما هو معلوم رغم أن آيات القرآن تتم قراءتها بلسان إنسانى حنجرة وشفتين، وترى بعين بشرية، وتتداولها الحواس بآلات إنسانية فيزيائية بحت، بل وتختلف من شخص إلى آخر باختلاف الثقافات ودرجتها بين الناس.

كان هذا هو درس الوحى الأول والأخطر والأكثر تمييزا للدين الإسلامى عن بقية الأديان، أنه مع التحرر ضد التسلط، ومع التغير والحركة ضد الثبات والجمود، ومع الإنسان وقوانين الواقع وشروط العقل ضد كل المستغلقات والأساطير والألغاز والأحاجى والخوارق، وعندما كان يرد حديث الخوارق والمعجزات كان يأتى من باب ضرب المثل للترغيب والترهيب لقوم هكذا ثقافتهم، وهكذا كان منهجهم فى التفكير، وهكذا مستواهم المعرفى.

أما التشريعات والأحكام فكانت هى ذلك المتغير الضرورى الذى أثبت سمته المتغيرة والمتحولة زمن النبى نفسه مرات ومرات، كما فى أحكام المواريث وزواج المتعة والموقف من الرق والموقف من الخمر.. الخ، ليعطى الدرس للمؤمنين به ألا يثبتوا عند منطقة زمكانية بعينها، فيتم تقديسها وتصبح مصدرا لثقافة واحدة ثابتة لاتتغير، ليعطى الدرس أن تلك اللحظة الزمكانية وزمانها زمن الدعوة منذ مايزيد على أربعة عشر قرنا، ومكانها الحجاز وحده، لحظة بدء وانطلاق وليست لحظة بدء وانطلاق وليست لحظة ثبات وجمود، أعطى الدرس بأنه جاء يفجر كل قيود المكان، فكان ملكا للبشرية جمعاء، ويفجر كل قيود الزمان بدرس تغير الوحى مع

متغيرات الواقع الأرضى، أعطى الدرس أنه مع المدنية عندما أصبح اسم يثرب هو **المدينة** المنورة وعندما هاجم كل نزعات الارتداد عن المدنية بهجومه الكاسح والمتكرر على الأعراب، وقد وعى المسلمون الأوائل ذلك الدرس، وكان الصحابة من الخلفاء الراشدين نموذجا أول وعى هذه الحقيقة فاعتبر مصالح الناس والبلاد وحدها هى سبيل الرشاد للأحكام والقرارات، حتى لو خالفت تلك الأحكام والقرارات العقلية الإنسانية نصوصا إلهية، وهو ماتكرر بعد الخلفاء الراشدين فى مواقف فريق المعتزلة المعلومة بين العقل والنقل.

وهكذا كان دفع النص القرآنى الحثيث للمؤمنين به نحو التغير والتكيف مع مقتضيات الأحوال الأرضية، والأخذ بالعوامل الموضوعية والابتعاد بالناس عن منهج الخرافة والتواكل وانتظار الخلاص السماوى، وقد صحب ذلك الدرس النظرى دروس عملية فى أكثر من موقف حاسم إبان زمن الدعوة نفسه، بل كانت تلك الدروس العملية تحمل قدرا شديدا من القسوة والردع لنزعة الثبات والتواكل لتأكيد منطقها الإنسانى والموضوعى والعقلانى، فجاءت غزوة بدر الكبرى لتعطى درسا أمثل للمؤمنين، فعندما راعوا الظروف الموضوعية للمعركة، ودرسوا مواطنها واختاروا مواقعهم وأرسلوا الجواسيس والعيون لأخذ الأخبار عن عدوهم «دون انتظار للملاك جبريل»، وتهيأوا عسكريا وتدربوا تدريبا كافيا انتهى الأمر بنصرهم نصرا عزيزا، وعندما ركنوا إلى التدخل السماوى بالملائكة فى غزوة أحد، وأهملوا شروط الواقع الموضوعية أصيبوا بهزيمة شديدة المرارة كادت تفصل فى مصير الدعوة الإسلامية سلبا، وهكذا صحب الدرس النظرى التطبيق العملى فى درس واضح البلاغ والبيان والإفصاح المبلغ المبين.

أما الأشد إفصاحا وأنصع جلاء فهو القرار بأن النبى محمد هو آخر حلقة من حلقات تدخل السماء فى حياة الناس على الأرض، فوصف النبى بصفة اصطلاحية تحمل كل تلك المعانى، فهو النبى الختم والنبى الخاتم.

والختم هو ضمانة توثيق العهد ونهايته بعد أن استوفى جميع شروطه وبنوده، وبذلك يكون الختم هو خاتم العهد واستيفاؤه شروط الصدق وبنوده، ويصبح نبى الإسلام هو ختم العهد السماوى مع الأرض بكونه كان آخر رسالة تواصل للسماء مع الأرض، بعد تواصلها مع الإنسان عبر زمن وتاريخ طويلين قامت خلالهما بتوجيه وتصحيح السبل والمناهج الإنسانية وليست السماوية، حتى جاء النبى الخاتم كآخر حلقة فى تلك السلسلة من التدخلات السماوية فى عالم الإنسانية، لقد بلغت الإنسانية سن الرشد وعليها من تلك اللحظة التاريخية الزمكانية أن تعتمد على نفسها ولاتنتظر

تدخلا سماويا آخر، جاءت لتعلن انتهاء التدخل الإعجازى السماوى وبداية عصر العقل الإنسانى على الأرض، والعقل هو بضعة من العالم الإلهى والروح القانونى الكونى، وهو رمز الله فى الإنسان هو سر الإبداع والإنتاج والتوافق مع النواميس الكونية المتحركة التى لاتعرف الثبات، وبهذا العقل أو الأمانة التى حملها الإنسان استحق الخلافة على الأرض كنموذج للإبداع الإلهى فيها رمزا عليه وعلى اقتداره واتساقه بنفسه مع القوانين التى وضعها بنفسه، وضمن تلك القوانين: الاتساق وعدم التناقض، والله لايتناقض مع قوانين هو واضعها، وتلك القوانين هى التغير الأبدى، لذلك جاءت دروسه للإنسان كى يعى قوانين التغير فى الكون، من هنا كانت دروس الإسلام النظرية والعملية التى جاءت تؤكد بدء عصر العقل والإنسان على الأرض، وأنه قد بلغ سن الرشد، وآن أوان اعتماده على نفسه وعقله ومناهجه وتجربته الإنسانية بعد أن اختتمت السماء شروط عقدها مع خليفتها على الأرض بمجىء آخر تواصل للسماء مع الأرض النبى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وانتهاء عصر المعجزات.

الثقافة الصالحة لكل زمان ومكان
حكمة تحتاج إلي مراجعة

الإيمان هو التسليم والقبول والتصديق بموضوعات لاتخضع للدرس والنظر العقلى أو التجريبى، فهو تسليم بغيب أخبر عنه صاحب الدعوة، وهذا التصديق يعد مقياسا للالتزام بالديانة من عدمه، وصلاح الإيمان من فساده، ونموذج ذلك فى الإسلام ماأخبر عنه القرآن، أو ماورد فى شكل أحاديث منسوبة للنبى محمد مثل التسليم والإيمان بوجود إله كامل مفارق للمادة خالد أزلى أبدى، وبرسالات سبقت دعوة نبى الإسلام، وبآيات إعجازية كبرى حملها الأنبياء والرسل كدلالة صدق تكسر قوانين الطبيعة لأنها لاتخضع لنواميس العقل ومنظومته وقواعده، ومثل التسليم بوجود كائنات مجنحة نورانية تسكن السماء وتحف بعرش الإله ويحمل ثمانية منها ذلك العرش، كل تلك وغيرها كثير من الغيبيات هى من شروط الإيمان، هى موضوعات لاتقبل البحث والبرهنة عليها، ومناقشتها من الأمور غير الممكنة، لذلك هى محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو رفض فإن صدقتها دخلت فى زمرة المسلمين لتسليمك بها إيمانا بصدق المبلغ بها والداعى إليها، وإن رفضتها لا تدخل فى زمرة هؤلاء، هى موضوعات محلها القلب والوجدان والضمير الداخلى، هى محل قبول أو رفض، يصلح دوما عرضها على الناس الأمس واليوم وغدا، وتصح الدعوة إليها فى أى مكان، لأنها لاتطلب سوى التصديق القلبى والإيجاب والتسليم والانقياد. بإيجاز هى قابلة للعرض على الناس فى كل مكان وزمان.

ومثل تلك الغيبيات موضوع الإيمان يمكنك أن تجدها فى أى كتاب مقدس فى أى دين، لذلك سمى دينا، ومثل هذا المقدس فى أى عقيدة، أمر يعتقد أتباعه ومن آمنوا به أنه صالح دوما وأبدا لكل مكان ولكل زمان، ومثل هؤلاء جميعا يعتقد المسلمون أن القرآن صالح لكل مكان وكل زمان، باعتباره كلمة الخالق الأزلى المبدع التى لاتقبل تبديلا، لكن ذلك لم يمنع المدارس العلمية من مناقشة الكتب المقدسة والتعاطى معها بالعقل وقوانينه وبمنهج

العلم وشروطه، حتى أصبحت مدارس نقد الكتب المقدسة مرجعا لاغنى عنه اليوم فى جامعات العالم - خاصة المتقدم - للباحثين فى شتى التخصصات، سواء على مستوى درس البعد التاريخى للنصوص أو أصولها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية.

ورغم أن القاعدة تفترض صلاحية النصوص المقدسة لكل مكان وزمان بنفسها وبمحتواها وقوتها الذاتية، فإن التقدم العلمى الهائل والمتسارع إضافة إلى التطور الاجتماعى والسياسى الذى شهدته المجتمعات الإنسانية، أوجد مساحة ضخمة بين ثقافة ثابتة وتصلح رغم ثباتها لكل المتغيرات، وبين مايحدث فى واقع الحال فعلا تباعد واضح من جانب منهج التفكير العلمى عن تلك الثقافة الثابتة، بل أصبحت فكرة الثقافة الثابتة الصالحة دوما فكرة خارجة عن مفاهيم العلم وشروطه وعن قوانين العقل ومنظومته.

من هنا قام المفكرون المنتمون لهذا الدين أو ذاك بمحاولات التقريب بين النصوص المقدسة، وبين ماأفرزه ذلك الحراك الإنسانى المستمر والمتسارع من قواعد ومفاهيم ومعارف جديدة تماما لم تكن معروفة زمن تدوين ذلك المقدس، وهو بالتحديد ماحدث مع الكتابين المقدسين التوراة والأناجيل تحت عنوان مدرسى هو: مدارس نقد الكتاب المقدس BIBEL. والواضح لدى الجميع أن الاتجاه الكهنوتى المصر على الثبات قد سجل مجموعة عظيمة من التراجعات أمام التقدم العلمى الهائل، كما لوحظ تحول هؤلاء عن العنف إلى التراجع السلمى، بعدما رسخت مفاهيم الحريات خاصة مبدأ حرية الاعتقاد، بل وبدأت هذه التراجعات، بمبادرات من رجال الكهنوت أنفسهم، بعدما بدأ الأمر فى فجر العلم التجريبى صراعا دمويا عظيما أدى إلى سفك دماء البشر مع أول بادرة نقد أو خلاف كانت تظهر.

الإسلام دين الحراك

لكن الحال مع الدين الإسلامى يختلف اختلافا بينا، حيث بدأت محاولات التوفيق بين العقل والنقل مبكرة جدا فى مدارس العرب، وأدت إلى نشوء فرق فلسفية تم تصنيفها جميعا تحت عنوان مدرسى واحد لعلم جديد هو «علم الكلام»، ونادرا ماأهدرت دماء مسلم لاختلاف حول أمر من شئون المقدس، فقد أرست مدارس علم الكلام أقدامها بثبات منذ فجر الدولة الإسلامية، مما فتح أبواب الاجتهاد على مصراعيها، حتى انتهت مدرسة المعتزلة إلى ترجيح حكم العقل إذا تعارض أو اختلف مع نص، وكانت تلك المدارس - والمناخ السائد الذى أدى إلى طمأنينة وسلام أفرزها -

رحمة بالمسلمين، إذ تم إرساء حق الاختلاف حول أمور الدين مبكرا، بحسبان الإسلام تحديدا ملك جميع المسلمين وليس فيه أية سلطة كهنوتية تفرض رأيا بعينه فى فهم النص دون فهم آخر، ومن ثم فقد أمسى راسخا لكل مسلم واع واجب الاعتراف بحق تعدد الأفهام حول النصوص، وأصبح هذا الحق متاحا للجميع على اختلاف مذاهبهم ومعارفهم.

وإذا كان ضمن عناصر المقدس موضوعات لاتقبل المناقشة هى الغيبيات فإنه يحتوى مايتعلق بمعاش الناس ومصالحهم فى شرائعة، وهو الجانب الذى نصر على أن نطرح بشأنه الأسئلة الأخرى، رغم أن مناقشة الغيبيات نفسها ليست ممنوعة ولاهى مناطق محرمة، ولم يتوقف الباحثون المسلمون الأوائل عند الجانب المتغير بتغير الزمان والمكان وهو الجانب الحقوقى فى الشرائع، بل تجاوزوا ذلك إلى بحث موضوعات الإيمان الغيبية، بل وتم بحث ودرس ومناقشة وجدل واختلاف عظيم حول أمور بحثية هى من الغيب المطلق مثل ذات الله وصفاته، وهل هى حقيقية أم مجازية؟ وهل القرآن مخلوق محدث أم قديم أزلى؟ لكن ذلك كان زمن القوة والاقتدار، زمن العزة والوثوق بالنفس، عندما كانت الأمة عفية صبية قوية لاتخشى على نفسها من حرية البحث بل وحرية الاعتقاد، لكننا نسمع اليوم كلاما غير الكلام، ودعوة للعودة إلى سلف دون سلف، وإلى موقف منتقى دون آخر، كما لو كان أسلافنا من باحثين عقلانيين ليسوا ضمن هؤلاء الأسلاف، رغم أنهم كانوا دوما مصدر اعتزازنا وفخارنا، ونرى مواقف آنية تشير إلى حالة مستعصية من الخصاء الذهنى المشتبك مع ذهان عقلى واضح، تسفك بموجبها دماء بريئة باسم الدين والقرآن ويحاكم الناس على رأى أو قول، بل ويحاكمون فى الأغلب على ضميرهم ونواياهم، ويصدر الأمر بالتنفيذ!.

ولعل السبب الواضح هو حالة الانحطاط والتردى التى وصلنا إليها بين أمم العالمين، فكان رد الفعل هو التمسك الشديد بالنفس، وبعدما فقد الإنسان علاقة الأمان مع الوطن تحولت الهوية من الوطن إلى الدين، من باب تجميع أكبر حشد من الأنصار والمؤيدين خارج إطار حدود الوطن، وتحولت تلك الهوية الدينية نحو المفهوم القبلى، وحيث نتحدث عن بشر دون الحديث عن حدود وطنية، فنحن نتحدث عن منظومة قبلية، فالقبلية وحدها هى التى تتحرك باستمرار ولاتعرف أية حدود وبالتالى ليس لها وطن بعينه، لذلك استبدلت من فجرها مفهوم الوطن بمفهوم الحمى الذى يتحرك معها أينما تحركت، مفهوما معنويا وليس ماديا، يرمز له سلف القبيلة البعيد وسيدها القديم الذى عادة مايكون هو ربها الضامن عزتها

وتماسكها اللزج الضرورى إزاء تحركها الدائب وغير المستقر، لذلك كان استبعاد الوطن كهوية والإبقاء على الدين وحده يحيل بالضرورة إلى الشكل القبلى والفهم القبلى لتجميع الأمة متعددة الأوطان فى قبيلة واحدة، يكون الخروج عليها إضعافا لها، وبقوانين القبيلة العتيدة القديمة يكون هذا الخروج جريمة تستوجب التصفية والاستبعاد من دنيا الأحياء. والمشكلة تكمن فى تكييف شكل هذا الخروج، ولأنه عادة مايتم تكييفه قانونيا فإنه يكون عرضه للتطرف فى الفهم والحكم ويصبح أى قول أو مناقشة مدعاة لنعته بالخروج، وبالتالى للحكم والتنفيذ.

الشخصية الثقافية الثابتة

وقد اتخذ التمسك بالهوية خشية الذوبان فى الآخر المتفوق وثقافته شكل الشخصية الثقافية القديمة الثابتة المقدسة، لنكون شعبا مقدسا يتحد بالله القوى، ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟ وبذلك يمكن مواجهة الآخر القوى وثقافته المتغيرة دوما بثقافة لاتتغير أبدا.

ولأن العلم المتقدم بكل منتجاته وكشوفه واختراعاته المبهرة قد ساعد الدول التى تم تصنيفها معادية، بل معادية للإسلام تحديدا، فقد تحول هذا العلم فى نظر أصحاب الرؤية الثابتة إلى شيطان مريد مقتدر يساعد الآخر على التفوق كراهية فى الإسلام، ومن هنا كان المزيد من التمسك بالشخصية الثابتة والهوية الدينية لإقامة حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان الذى هو حلف العلم والغرب حلف العلم، ولأن الواضح والظاهر أن حزب الشيطان هو المتفوق حتى الآن، فإن النبوءة هى أن حزب الله هو الغالب بالتأكيد، مع محاولة استيهامية مريضة تؤكد دوما أنه حتى هذا العلم قد تمت معرفته لدينا قبلهم عبر معرفة ربنا بكل تلك العلوم قبل أن يكتشفها العالم الغربى، وأنها محفوظة فى كتاب الله من الأزل.

وإعمالا لذلك قررنا الوقوف عند لحظة زمكانية، زمنها هو لحظة تواصل السماء مع الأرض منذ مايزيد على أربعة عشر قرنا، ومكانها بلاد الحجاز من جزيرة العرب، وتم تثبيت كل الزمن الماضى والزمن الحالى والزمن الآتى عند تلك اللحظة، لنتجاوز التخلف الحالى بتفوق قديم تمثل فى ذلك الدين القويم الذى أقام للعرب دينا ودولة ودنيا وامبراطورية سامقة، غير مدركين أن الدنيا بعد تلك اللحظة قد تحركت تحركا هائلا وعظيما، ودون أن ندرك أن ذلك التفوق القديم كان قياسا على زمنه وعصره، وأن الوقوف عند كل تفاصيله الدقيقة وتثبيتها ثقافة لليوم، هو التخلف نفسه، ولانرى أن موقفنا اليوم من التغير والحركة مع المتغيرات هو

نفس موقف من عارضوا الدعوة الإسلامية فى فجرها وقالوا: هذا ماوجدنا عليه أباءنا، وغير مكترثين بالتناقض الصارخ بين القول بثقافة ثابتة وبين الموقف الواجب اتخاذه لصلاح حالنا الراهن، كما تتناقض مع رغبة دفينة فى التغير وملاحقة الزمن، نبغى تطويع الكون المتغير لثقافتنا الثابتة بتأكيد أن أى تغيير يطرأ يوافق بتمامه وكماله مانعلمه من موقعنا الثابت وثقافتنا التى وضعت من الأزل فى لوح محفوظ لتوافق كل تغير ممكن حتى نهاية العالم.

ومن ثم لم نعد نفهم درس التغير الذى كان هو درس الإسلام الأول، ولم نعد نعى ما وعاه المسلمون الأوائل، بل لم نعد نقرأ ثقافتنا قراءة واعية، ناهيك عن الثقافة العالمية، وحولنا ثقافتنا من ثقافة إلى تمائم وتعاويذ سحرية ندعو بها على الأعداء كما ندعو بها المطر إلى السقوط، ويمكن ببعض الأداء الطقوسى الرمزى استدعاء ملائكتها ومعجزاتها وكل كائناتها الغيبية لتحارب لنا معركتنا وتفعل فعلها فى الواقع، دون أن نبذل من جهد أكثر من مسواك ومسبحة وسجادة وترتيل وتنفيذ الأوامر فى السلوكيات، وبهذا يمكن لقوى السماء أن تدمر لنا الآخر المتفوق وكفى المؤمنين القتال، وهو غاية المراد من رب العباد.

إلا أن الواضح الظاهر الجلى أنه لاهذا ولاذاك يحدث، وكل مايحدث هو تفوق المتفوق، ومزيد من الهبوط والانحطاط والتردى على جانبنا، مع استهتار بالمقدس ذاته بتثبيته عند تلك اللحظة التاريخية وتجميده، فى قوالب ثابتة ومفاهيم محددة لدى السلف، كما لو كنا لانملك عقولا كما كانوا يملكون، ناهيك عما وصلنا إليه من انهيار شبه تام أصاب حياتنا ومعاشنا بالشلل الرعاش، وفق تصور أننا نملك الحقيقة الكاملة والمطلقة والثابتة.

حول ماهو أهم من تصريحات (الأب الروحي) المشهور!!

عراب مافيا الإسلام السياسى الأستاذ «مصطفى مشهور» ألقى القفاز فى وجه الدولة المدنية، وقذف بالكرة إلى ملعب دنيا المتورين فأقام الدنيا ولم يقعدها، رغم أن الرجل كان صريحا واضحا بسيطا صادقا مع نفسه ومع مايعتقد ومع أهداف جماعته المعلنة،ومع الأيديولوجيا الشمولية التى ينتمى إلييها، فلم يكذب ولم يدل بحديث يتجمل ولم يلتو فيما قال بل ألقى ما ألقى سافرا فاضحا، حيث قال - فض فوه - فى حوار صحفى: إن جماعته تطلب تحصيل الجزية من أقباط مصر مع استبعادهم من الجيش تحسبا لخيانتهم للوطن، الرجل لفق على المسيحيين نعم، لكنه لم يلفق فيما يعتقد ولم يقف فى مناطق الوسطية الانتهازية النفعية المائعة وقال كلمته بشجاعة جسور.

والغريب فى الأمر جميعه أن الهجوم تعامل مع الرجل، كما لو كان قد قال فرية أو جديدا لانعلمه، كل مافعل الرجل المؤمن أنه نفخ الرماد الهش الذى يخفى تحته الجمار الملتهب، ونحن نأنس للرماد لأنه يساعد على إخفاء الحقائق والتناسى، ونسيان يلقيه من يزعمون التقدمية والتنوير على لهب لايجرؤن على الاقتراب منه لأنهم يحذرون المناطق الملغومة، بل ويرتعبون من مجرد مساندة من يقتربون منها حقا ويحترقون بها صدقا، بمنهج علمى واع رصين وبروح وطنية فدائية لاتعرف تعدد الألوان حسب المصالح والهوى ، إن هؤلاء البعض الذين هاجوا وماجوا وأرغوا وأزبدوا هم أكثر زيفا من كل إفك وتلفيق، فهم يريدون الأمور على هواهم، ولايريدون ريحا مفاجئة تطفىء شموع طرقهم السرية فى تحالفات مصلحية مقيتة.

نعم ربما صفق هؤلاء المستنيرون لباحث عاشق حقيقى لوطنه تئن كبده وتنزف روحه ولها عليه، بمنطق التصفيق للفدائى أو الجندى المجهول، لكنهم فى الوقت نفسه يصمتون صمت القبور ويمكنون كمون البوم إزاء أبحاث صادقة حقيقة رفيعة علمية هادئة لاتبغى نفعا سوى وجه هذا الوطن، تخوض عش الثعابين وتصارع بروح قتالية عالية وفدائية نادرة، تؤمن بهذا الوطن وتحب هذا الوطن وتتعشقه حتى الموت فرحا باختلاط

دمائها بثراه، ويكتفى المستيرون الكبار بإعلان الإعجاب بهذه الأبحاث العلمية فى ندوات ديوانية جانبية وجلسات ثقافية بيتية، وعادة مايكون الإعجاب أقرب إلى الهمس لأن الصوت المسموع يضر بالمصالح والتوازنات وألعاب السياسة البهلوانية، ولأنه قد يودى بالحياة وهم يحبون الحياة حبا جما، وإذا اضطروا لإبداء الرأى إزاء هؤلاء الباحثين المهمشين عمدا، المعتم على أعمالهم قصدا، فإنهم عادة مايسلكون سلوك العاقل الرصين المتزن الثقيل، فيقولون أقوالا مرسلة لاهى مع ولاهى ضد، أما بعضهم من أنصار تحالف المستيرين مع عقلاء الفكر الدينى فإنهم عادة مايشجبون، وربما باعوا تلك القلة النادرة والفذة من مفكرى مصر المخلصين مع أول صفقة سلطانية ليذبحوا وتهدر دماؤهم أو ينفوا من بلادهم، ولابأس أثناء ذلك من بعض التمثيليات المبتذلة التى تشجب وتدين الإرهاب الفكرى، ويعود الجميع بماغنموا من عزاء واجب ومادايم إلى وجه الله.

وهؤلاء نفسهم من شرعوا كل سيوفهم العنترية وتنابذوا بالأقلام عندما أعلن مشهور مايعلمونه جميعا يقينا ويغمضون عنه العيون وتتبلد أفهامهم إزاءه بجبن رخيص، وتتم المتاجرة بالوطن هنا وبالله هناك، ناهيك عن السماسرة المقتدرين من رجال شئون التقديس المحترفين على الجانبين الإسلامى والمسيحى، الذين يميعون كل المواقف بلثم لحى بعضهم بعضا فى تظاهرات إعلامية رخيصة ومقيتة، و«يدفنوه سوا» وسرا وهو أشد فتكا بالوطن من النفايات النووية، تحت غبار هش لايصمد مع أول نفخة، وهو ماتكرم «مشهور» بعمله ببساطة، ويكل بساطة ودون أن يرتكب إثما دينيا، بل وحتى وطنيا، ألا ينص دستورنا التليد الخليط بكل أنواع السلطة إسلامية على اشتراكية على ليبرالية على سمك على لبن على تمر هندى، عملا بالشعار الرفيع والأسمى: كله عند العرب صابون؟ ألا ينص الدستور أن لدولتنا المدنية دينا رسميا «!؟» هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، فأين أخطأ الرجل؟.

لقد بح صوتنا حول هذا الأمر لكن لاحياة لمن تنادى، ولأن هذا الكلام ليس أوانه، ولأنه خوض فى محظور خطر، رغم أنهم يعلمون يقينا أنه إذا فات أوان اليوم، ونحن على هذه الحال فلن يكون لنا بعد ذلك أوان.

وعصبة الإخوان أقوياء بضعف موقف هؤلاء السادة وحذرهم الشديد أمام التابوهات، وجميع فصائل الإسلام السياسى تعلنها صريحة أن مايفعلونه ليس ناتج فكرة أو آرائهم الشخصية، إنما هو تنفيذ لأوامر إلهية صريحة واتباعا لسنة فعلية وقولية صريحة، حتى القتلة الإرهابيين منهم يستندون إلى نصوص لاتقبل لبسا، ومع ذلك لايجد مشايخ السلطة أى بأس

من الكذب والتدليس فى تلفازنا المبارك أسكت الله له حسا، فيلجأون إلى منهج انتقائى باطل من النصوص للرد على نصوص الإرهابيين، رغم أنهم يعلمون بحسب علوم القرآن، ومن أبواب النسخ أن آية السيف قد نسخت كل آيات حرية الاعتقاد، والناس جميعا تعرف ذلك. ومع كل هذا يجلس مشايخ السلطنة يلفقون رغم أن الكل يعرفون، وتستمر التمثيليات العبثية دون قلم جرىء مجتهد واحد يطلب مثلا إعادة النظر فى مفاهيم النصوص نفسها بما يتفق وظرفنا وزماننا، حتى إننا لم نقترب حتى اليوم من نصوص الرق والسبايا والعبودية إطلاقا، ولاحتى طالبنا مجمعا دينيا بإصدار مايفيد بإيقاف العمل بأحكامها، قياسا على اجتهادات جريئة أخرى مماثلة سبقتنا زمن الدعوة وزمن السلف الصالح، فأى كارثة نعيش أيها السادة؟.

وفى الحوار الذى سبب أزمة مع عراب الإخوان يقول الصحفى المحاور «خالد داود» أن «مشهور» لم يكف عن ترديد أنه لايقول قول جماعة ولايرفع مجرد شعار ورأى خاص ولا قول مشهور، إنما هو يتحدث عن نصوص صريحة فى القرآن وفى السنة وفى الشريعة، وأن الجزية جزء أصيل فى شريعة الإسلام. لكن حول هذا الجزء الأصيل لم يتكلم أحد من عناترنا، بل كأنهم لم يسمعوه أو يقرأوه ولم ينطق أحد، وتغابت عنه جميع الأفهام ووجهوا نحو الرجل دون الأصل كل إداناتهم، فأثبت المهاجمون للرجل أنفسهم دونه شجاعة وأكثر مداورة وأشد التفافا حول الحقائق، وقد عبر الصحفى «خالد داود» عن ذلك بقوله: «**إن هذا قول كاف لزرع الخوف والرعب فى قلب أى محاور لأنه ببساطة يوجه الحديث إلى مناقشة أمور عقيدية**»، والمطلوب بنفس البساطة التغافل عن ذلك والتعامى عنه وعدم المناقشة.

وهذا طبعا لايعنى صدقا حقيقيا فى المواقف المعلومة للأب الروحى وعصابته المشهورة، فهو فى نفس الوقت الذى طلب فيه تطهير الجيش من المسيحين، أكد بكل كذب مفضوح وتلفيق أشر أن المسيحيين يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية... هكذا «!؟»، وبغض النظر عن هذه الصورة الكاريكاتورية، فإنه حتى هذا الكذب له مسوغاته من زمن الرعيل الإسلامى الأول وزمن الصحابة وأيام تدوين الأحاديث، فهو الكذب المستحب، بالضبط كالأحاديث النبوية المكذوبة لكنها المستحبة... وأنها رغم كذبها، فهى فى سبيل الله، وأن مثل هذا الكذب الشرعى ليس جديدا، فقد أسس له أبوديانات المنطقة وأبو أنبيائها سلفا عن خلف، عندما كذب ثلاث كذبات توصف بأنها جميعا «فى الله»، وذلك عندما ادعى السقم وعندما قال فعلها كبيرهم هذا، وعندما قال لملك مصر عن سارة زوجته «هى أختى»، فحتى الكذب عند السيد مشهور ولو كان مضحكا فهو كذب شرعى مشهور، لم يناقض الرجل فيه نفسه ولاتاريخ منظومته.

أما المستنيرون الأعلام المنتشرون فكانوا هم أهل المداورة والألتفاف والكذب البواح الصراح، يمسكون كل شىء من منتصف ليميلوا مع ثقل أحد الطرفين حسب المستجدات من ظروف ومتغيرات، لذلك لم يقترب أحد ممن حدثونا من جوهر وسر الداء الدفين، ومناقشة الأصول دون الفروع، كل الكلام كان عن زمان وكان ياماكان من حب ولهيب مشتعل من الغرام بين المسلمين والأقباط، ولطالما عانق الهلال الصليب، وكلنا حلوين وكلنا طعمين، رغم مايغص به تاريخ مصر من ألوان اضطهاد رسمى وشعبى على مر التاريخ وحتى الآن، بل لقد تم إسقاط مايقرب من ألف عام من تاريخ مصر، لأن شقها الأول كان ثورة قبطية ضد الرومان لاتشغلنا كما لو كان الأقباط غير مصريين، وهو منطق بشع يؤصل دوما لفكرة غزو عربى طويل الأمد، أما الشق الآخر من تلك المدة الطويلة المنسية، فقد كان ثورة مصرية ضد الغزو العربى مسحت أيضا مسحا من تاريخنا لأنها قبطية كما لوكنا لسنا بدورنا أقباطا، أعنى مصريين؟!.

هؤلاء السادة لم نسمع لهم صوتا حول هذا الأمر - مثلا أيضا مجرد مثل - ولم يملكوا شجاعة العراب المشهور على مواجهة الحقيقة من أجل حسم كثير من الأمور التى تقف عثرة كبرى ومصدر خطر عظيم، لنعطى مالله لله ومااللوطن للوطن، وهو الأمر الذى نلح عليه ونقدم فيه جهودا معلومة ولن نتنازل عنه، مهما ظل هؤلاء يشيحون عن المطلب الأساسى برعب غير خاف من الأقتراب من مواطن التحريمات والتكفيرات، حيث هناك الفزع الأكبر.

علينا أن نفتح كل نوافذ البحث الرصين على مأثورنا، ونعترف بمافيه ببساطة دون تأويلات مخلة لاتخدم الحاضر، وقد تضر بالدين نفسه، ولاباالانتقاء منه حسب المناسبات أحيانا وحسب هوى السلاطين أحيانا أخرى، والنموذج هنا من ذلك المأثور أن النبى عندما قيل ليه فى غزوة أحد عن استعداد حلفاء المسلمين من يهود يثرب للقتال فى صفه قال: نحن لانستعين بأهل الشرك على أهل الكفر، ورفض العرض، مشهور لم يخرج بذلك إذن على مايعتقد، لكن المطلوب بعد الاعتراف إعادة نظر شاملة فى فهم النصوص المقدسة، وفى أحكامها وفيما يجب اليوم العمل بحكمة بقانون مصلحة العباد الذى شرعته علوم الفقه ولم تجرمه، بل حضت عليه وحرضت، وماسبقنا إليه السابقون من مستنيرين، منذ أزمان حين قال أبو الفضل الأندلسى والزمن يردد صداه:

قل لمن لايرى المعاصر شيئا — إن هذا القديم كان جديدا
ويرى للأوائل التقديما — وسيغدو هذا الجديد قديما

تعقيب علي لقاء نتانياهو
بالمثقفين المصريين

ولاأقصد هنا التعقيب على الحوار أو على كل ماقال السيد نتانياهو، لكن فقط على فقرة واحدة قالها في هذا اللقاء، وأوردها الأستاذ عبدالستار الطويلة في عدد ١٠/ ٣ من روز اليوسف.

يقول الأستاذ عبدالستار: «وهو - أي نتانياهو - لايعدم حجة يقلب فيها حقائق التاريخ، فهو يقول في براءة شديدة وهو يبرر احتلال يهودا والسامرة، كما أصر على تسمية الضفة الغربية بشكل مستمر طوال اللقاء: نحن لسنا الأمريكيين أو الفرنسيين الذين ذهبوا لاحتلال فيتنام والجزائر، هؤلاء غرباء عن الأرض والشعوب هناك ولاحق لهم في ذلك، أما نحن فهذه الأرض هي أرضنا، والذي حدث أننا طردنا منها ونريد استردادها».

وكنا نظن أننا قد تجاوزنا هذا المنطق من حقبة الستينيات لكن السيد نتانياهو بالتزامه العقدي الواضح والمعلن قد أعادنا مرة أخرى إلى تلك المنطقة من التاريخ بمنطق يدعي الحقوق المؤسسة على التاريخ.

لن أكرر هنا القول المأثور إن كان ذلك كذلك، وكان لابد من إعادة الأراضي المسلوبة عبر التاريخ إلى أصحابها، فعلى العالم المتقدم الذي يأخذ بهذا المبدأ أن يعيد القارة الأمريكية إلى الهنود الحمر.

ولن أكرر هنا أن الحقوق الدينية لاتعطي حقوقا في الأرض، وإلا كان للمسلم الأفغاني والصيني والأندونيسي حقوقا في أراضي الحجاز، وهو مالم يدعه مسلم عاقل أو رشيد.

ولن أكرر ماسبق وقلته في أعمالي المنشورة عن كون إسرائيلي اليوم أمرا يختلف تماما عن بني إسرائيل التوراتيين، وإلا كان على السيد نتانياهو أن يقدم لنا أهم وثيقة تؤكد تلك الحقوق، وأنه وفق منطقة هو عليه أن يقدم لنا شهادة إثبات نسب تعود به رأسا للنبي يعقوب المعروف بإسرائيل.

نعم نحن نعلم أن في الأزمنة الخوالي كانت هناك العقود المكتوبة بين

أفراد مجتمعات الأمم المتحضرة لتؤكد الحقوق، أما القانون كما فى مصر القديمة فقد كان للدنيا مثلا، ولكنا نعلم من توراة السيد نتانياهو أن أولئك الذين ينتسب إليهم لم يكونوا ممن يفكون الخط، لذلك عمل يعقوب مع خاله «لابان» الأرامى رجمة حجارة لتكون علامة شاهدة على عقدهما أسماها «يجر سهدوثا»، وأعطى إبراهيم سبع نعاج لأبيمالك ملك جرار الفلسطينى وزرع شجرة أثل عند بئر سبع «لذلك سميت كذلك» كى تكون شاهدة على عقده مع أبيمالك حول ملكية أحد الآبار - وليس شيئا كالنيل مثلا - أو بالنص التوراتى «وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها، فقال أبيمالك لإبراهيم ماهى السبع نعاج التى أقمتها وحدها، فقال أنك سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذا البئر، لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع لأنهما حلفا كلاهما هنا، فقطعا ميثاقا بئر سبع.. وغرس إبراهيم أثلا فى بئر سبع/ سفر التكوين ٢١/ ٢٨ - ٣١»..

وهو نفس الأمر الذى تكرر مرة أخرى مع أبيمالك الفلسطينى لكن البطل هذه المرة لم يكن إبراهيم بل إبنه إسحق، وكان النزاع حول البئر التى سميت بئر سبع أى بئر القسم/ القسم الذى أقسموه على عهد غير مكتوب فهى تعنى الرقم سبعة كما تعنى القسم أو الحلف «انظر سفر التكوين ٢٦/ ٢٢ - ٢٣».

مجرد بئر كانت البداية، وحولها تناقضت رواية التوراة مما يشير إلى بطلان القصة بكاملها من أول سرد لها بكتاب ينعت بالمقدس.

نعم نحن نعلم أنهم لم يكونوا من بين الشعوب التى تعرف الكتابة حينذاك، حتى أن العهد الأعظم وهو المزعوم قد حدث على ذمة التوراة بين إبراهيم وبين الله ليأخذ أرض فلسطين من الله، كان بموجب عقد موثق مختوم بخاتم واضح، وكان أى ختم؟ وأى توثيق؟ كما تقول التوراة: «وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم، هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن منكم كل ذكر فى لحم غرلتكم «أى فى القضيب الذكرى» فيكون علامة عهدى بينى وبينكم/ التكوين ١٧/ ٩ - ١١».

وبالطبع ليست تلك هى الوثيقة التى نطلبها من السيد نتانياهو لتؤكد الحقوق التاريخية التى يدعيها، فلا هو يستطيع إبراز تلك الوثيقة للإعلام العالمى، ولا أى محكمة يمكنها أن تأخذ بهذه الوثيقة المعتمدة بختم الطهارة «بالطبع هى غير الطهارة الثورية»، ناهيك عن أنه إذا كان هذا الختم وتلك الوثيقة إعلانا عن امتلاك بئر سبع «البئر فقط وليس المدينة» فلاشك أن

المطالبين بحق الملكية ومايملكون من صكوك إثبات لن تكفيهم ابار الدنيا «لعلماء النفس رأى فى تلك القصة وهى عندهم تعبير عن الفعل الجنسى، فالقضيب معروف والبئر رمز الفرج».

والغريب فى أمر نتانياهو أنه يؤكد حقوقه اليوم فى فلسطين اعتمادا على حقوق الآباء الأولين وإقامتهم فى فلسطين، رغم أن توراة السيد نتانياهو تؤكد وتعيد وتزيد أن أرومة العبريين إبراهيم نفسه كان غريبا غرابتهم على فلسطين، وهو الأمر الذى ظل يكرره أخلافه من بعده، مما يجعل كلام السيد نتانياهو غريبا غرابتهم على فلسطين، انظر معى توراة السيد نتنياهو إذ تقول بلسان إبراهيم وأخلافه:

١ـ فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان تكوين ١١/ ٣١.

أى أن القبيلة الإبراهيمية جاءت إلى فلسطين وافدة من أرض أخرى وبلاد أخرى، وقد أثبتنا فى كتابنا «النبى إبراهيم والتاريخ المجهول أن أود الكلدانيين هذه تقع فى بلاد أرمينيا الحالية ولاعلاقة لها بالمنطقة».

٢ـ وقال الرب لإبراهيم أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك، تكوين ١٢/ ١.

٣ـ أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها، تكوين ١٥/ ٧.

٤ـ لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان، تكوين ١٧ ـ ٧، ٨.

ولعل القارئ لاحظ ـ كما لاشك يعلم السيد نتانياهو يقينا ـ أن التأكيد على غربة تلك القبيلة عن أرض كنعان تكاد تتكرر فى كل إصحاح، نكتفى منها بتلك الأمثلة لأن احصائها يحتاج صفحات طويلة من الملل.

وهكذا جاء السيد نتانياهوا بافتراء واضح على التاريخ بل على توراته نفسها التى يعض عليها بالنواجذ، لقد وصل أسلافه قادمين من بلاد بعيدة غرباء على أرض كنعان، الرجل ذكى ومذاكر توراة كويس، سيرد علينا نعم كان أهل الأرض كنعانيين وهم شعب سامى لايمكن لأحدنا أن يدعيه لنفسه دون الآخر، لأن كلينا سامى لكن لديك أيها السيد فى توراتك نفسها مايشير بوضوح إلى أن الفلسطينيين قد سكنوا تلك الأرض قبل مجئ أجدادك إليها من أرمينيا أو من حيث ألقت، ولم يكن فقط سكانها الكنعانيون، لقد وصل إبراهيم وكانت تلك البلاد لاتسمى بلاد الكنعانيين رغم سكن الكنعانيين فيها، لكنها كانت تسمى أرض الفلسطينين.. هكذا

بوضوح فصيح تسميها التوراة أيها السيد المؤمن وقد ورد ذلك فى قصة طريفة لاتستحى التوراة من ذكرها فلاحياء فى الدين، والتوراة كما تعلمون أيها السيد لاتعرف الحياء.

كان إبراهيم جدك البعيد حسبما تزعم، وإن كنا فى شك عظيم فى ذلك لو ناقشناك، لكنا على يقين فى عدم نسبتك إليه دون أن نناقشك، كان جدك هذا قد نزل مصر يستجدى القوت بعد مجاعة حلت ببلاد فلسطين، ونستمع معا إلى تراتيل التوراة إذ تقول: «وحدث جوع فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديدا، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته: إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر فيكون إذ رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك، قولى أنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك/ تكوين ١٢/ ١٠ ـ ١٣».

ثم نفهم من بقية الرواية أن إدعاء سارة الأخوان لإبراهيم لم يكن إتقاء إبراهيم للقتل، إنما لسبب آخر ترويه التوراة تذكر للعالمين إذ تقول: «فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنا حسنة جدا ورآها رؤساء فرعون ومدوحها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خى بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة إبرام، فدعا فرعون إبرام وقال: ماهذا الذى صنعت بى لماذا لم تخبرنى أنها أمرأتك؟ لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى، والآن هو ذا أمرأتك خذها وأذهب، فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وأمرأته وكل ماكان له/ تكوين ـ ١٢/ ١٠ ـ ٢٠».

سنفهم الآن المراد والمقصود عندما نعلم أن نفس الأمر قد تم تدبيره للملك أبيمالك، فنقرأ: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار وقال إبراهيم عن سارة أمرأته هى أختى، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة/ تكوين ٢٠/ ١، ٢» وكانت النتيجة «فأخذ أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته وقال أبيمالك هوذا أرضى قدامك أسكن فى ماحسن فى عينيك وقال لسارة: إنى قد أعطيت أخيك ألفا من الفضة/ تكوين ٢٠/ ١٤ ـ ١٦»، وتكررت القصة نفسها مع ولده إسحق بحذافيرها لكن لنسمع هنا القول: «فذهب إسحق إلى أبيمالك بأنه ملك الفلسطينيين، لقد كان الفلسطينيون قد استقروا فى الأرض وأقاموا فيها ممالك بأنه ملك الفلسطينيين، لقد كان الفلسطينيون قد استقروا فى الأرض وأقاموا فيا ممالك أدت بالنبى

صفنيا إلى مناداتها فى سفره «ياكنعان ياأرض الفلسطينيين/ صفنيا ٢/ ٥»، حيث هناك نظرية سائده فى جامعات العالم تقول: إن الفلسطينين - أو كما ذكرهم التاريخ «البلست» - قد قدموا من كريت إلى فلسطين، فحتى لو كان ذلك هو الحادث تاريخيا فإن التوراة تقول بمجىء أرومة العبريين إلى بلاد كنعان وقد عرفت بأسم أرض الفلسطينيين، لقد كان البلست قد أقاموا فى فلسطين زمنا كافيا قبل ذلك ليمنحها اسم الفلسطينيين.

ومع منظومة أخلاقية كتلك المنظومة التى حدثتنا عنها التوراة لايكون هناك مجال للقول بنقاء الجنس الإسرائيلى مع هذه البداية التى لاتبشر بخير، ناهيك عن كون هذا النقاء الجنسى ظلما لطبيعة الإنسان فمن المستحيل أنن تقنعنا بنقاء هذا السلسال خلال ألوف السنين وأن البذرة الإسرائيلية ظلت تتناقل فى أرحام الطاهرات حتى وصلت يهود اليوم، لأنه من جانب آخر هناك مغالطة تتم بموجبها المطابقة بين مفهوم الدين اليهودى وبين العنصر أو الجنس الإسرائيلى، بحيث يبدو وفق تلك المغالطة أن يهودى الفلاشا الزنجى ويهودى روسيا الأحمر ويهودى المنطقة السامى ويهوديى أمريكا المهجن، هم جميعا يعودون بالنسب إلى جدهم يعقوب إسرائيل.

فنحن كبشر لانستطيع التسليم بلون خارق من العفاف الجنسى المنقطع النظير عند بنات يهود، حتى تحمل البذرة الإسرائيلية خالصة، ولن نضرب هنا أمثلة ضربناها كثيرا فى أعمالنا المنشورة عما يموج به، الكتاب المقدس من صخب جنسى وصهيل شبقى لبنات صهيون على الشباب الفتى لأمم غير إسرائيلية، «انظر مثلا سفر إرميا ٣٠، ٥٠، ١٣ وحزقيال ١٦.. آلخ»، ولهذا السبب تحديدا وضعت دولة إسرائيل قانونا لايعتبر الفرد بموجبه يهوديا إلا إذا كانت أمة يهودية.

لكن المشكلة أننا إذا طبقنا هذا المبدأ على مؤسس دولة إسرائيل الملك داود، ثم على أشهر ملوكهم الملك سليمان، فسنجد الأول حفيد راعوث، ولم تكن لا إسرائيلية جنسا ولايهودية دينا وإنما كانت موآبية، أما سليمان فقد رزق به أبوه داود من امرأة حيثية لايهودية ولا إسرائيلية، وطبقا للقانون وإعمالا لبنوده فإن كليهما لم يكن يهوديا ولا إسرائيليا وإنما من شعوب أرض فلسطين على المشاع.

يبدو هكذا أنه لم تصبح لدى السيد نتانياهو أية وثيقة تعطيه حقوقا فى الأرض حتى أساطيره لاتسعفه، وبالطبع لن نقبل منه الوثيقة التأسيسية فلدينا منها الأقوى والأكبر والأكثر عددا ونفيرا.

قصة الخلق نموذجا

● إسطورية الدم ●
قراءة للوضع المجتمعى للمرأة فى عقائد الشرق الأوسط

توطئة:

لأن تطور المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الوضع الإنسانى المرجو، اللائق بكرامة الإنسان بحسبانه الكائن الأرقى فى الكون جميعا، فإن الظرف الاجتماعى لم يزل حتى الآن يسوغ القسمة العنصرية بين الناس، وأبرز نماذج تلك القسمة التى تشكل وصمة عار كبرى فى جبين الإنسانية، ذلك الذى حدث عندما استولى الذكور على مقدرات المجتمع، وتمت إزاحة الأنثى من البؤرة إلى الهامش، وتأسس المجتمع الذكورى الأمثل الذى أسس لأبشع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجسد الواحد، فقسمته نوعين رجلا وامرأة، وفرقت بين طرفى حياة لاتكتمل دون التقائهما إنسانيا قبل التقائهما جسديا.

وفى مجتمعات الشرق الأوسط حيث نشأت ثقافات وتطورت أخرى وتلاقحت ثالثة حتى وقفت عند الثقافة الإسلامية، تتعزى المرأة كل يوم بالصبر والسلوان الفقهى، وتبلسم جراحها بخطب منبرية تؤكد لها أنها فى مكان الصدارة والتكريم بين نساء العالمين، تتعزى صبرا فى عالم الأرض وصبرا فى عالم السماء، فى الدنيا الفانية وفى الآخرة الباقية.

وإن أحسنت المرأة المسلمة إيمانها وأحصنت فرجها وأمتعت سيدها الذكر وأطاعته، دخلت يوم الدينونة إلى عالم الخلد خالدة أبدا، لكن فى خدمة السيد الذكر مرة أخرى ومن أجل متعته، وضمن حريمه فى جنة رضوان اللائى يصل عددهن إلى المئات وربما الألوف فى أحاديث منسوبة لنبى الإسلام.

وإن تلك المنحة الخالدة لاتتم إلا بإيمان، رأسه وقمته طاعة الرجل الكاملة والخضوع له والتسليم لسيادته فى الدنيا الفانية، لتضمن لنفسها بذلك مكانا بين حريم الجنة فى الآخرة الباقية.

وحتى نصل إلى هذه المرحلة علينا العودة نحو المبتدأ، إلى المجتمع البشرى وهو يصوغ أو تشكيلاته الابتدائية، نحاول أن نمارس قراءة معدولة لثقافة مقلوبة، قراءة غير معتادة لأوضاع معتادة بل ومقدسة وثابتة ولاتقبل تبديلا فيما يرى سدنتها المنتفعون ببقائها.

١ـ التجمعات الصحراوية والتجمعات النهرية:

فى فنون العصر الحجرى القديم يمكنك أن تلاحظ أن تماثيل النساء وبقية النقوش التى تحمل دلالات أنثوية أكثر بما لايقاس بالنسبة إلى الفنون التى تحمل دلالات ذكرية، أما قبل ذلك، وفى فجر حقب البلايستوسين الأول فلن تجد مهما بحثت سوى تماثيل للإناث ولاوجود تقريبا لأية فنون ذات دلالة ذكورية.

وحول تلك الحقبة الزمنية نقرأ الأنثروبولوجية الأمريكية «جيكيتاهوكس» وهى تؤكد أن أقدام التماثيل التى شكلها الإنسان للتعبد أمامها، تلك التى تمثل إناثا من البشر ضخمت فيهن الأعضاء المثيرة جنسيا، كالأثداء والأرداف والفروج، وأطلقت «هوكس» على تلك التماثيل اصطلاح «فينوس الولادة»، أى «التى تلد» ـ وصفتها الأولى هى «الولادة»، وترى «هوكس» أنه قد تلى هذا العصر مرحلة متوسطة قصيرة الأمد بدأت تظهر فيها رسوم تتسم بالذكورة فى تناثر لم يخل بالانتشار الهائل للتماثيل الانثوية، وبعد تلك المرحلة المتوسطة تمت العودة الكاسحة مرة أخرى إلى تفرد تماثيل الربات الولادات بالمساحة كلها، وهو الزمن الذى ترافق مع اكتشاف الزراع فى العصر الحجرى الحديث، هذا مع العلم أن أقدم تماثيل الإلهات الولادات التى عثرنا عليها يعود إلى ماقبل خمسة عشر ألف عام من الآن، وتم افتراض أنها أول تمثيل تخيلى للألوهة بحسبان الدلالات التى كانت تحيط بتلك التماثيل كالزهور والثمار اليابسة والمحروقة أحيانا التى تشير إلى قرابين نباتية كانت تقدم لتلك الإلهات على محاريبها.

وعلينا أن نلاحظ أن زمن أقدم تلك التماثيل «خمسة عشر ألف عام» قد جاء بعد تراجع عصر الجليد بعشرة آلاف عام أخرى، وخلال تلك الخمسة وعشرين ألف عام حدثت تحولات كبرى فى البيئة الطبيعية ألقت بظلال متغيراتها على المجتمع الإنسانى وهو يتشكل، وهى المرحلة التى نلاحظ خلالها نتائج الجدل الذى حدث بين متغيرات الطبيعة والإنسان، وأثر ذلك فى تشكيل نماذجه الاجتماعية الأولى وتطورها مع تلك المتغيرات.

والمعلوم أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير تقاسمت الأرض حالتان طبيعيتان: الأولى يمكن تمييزها فى تجمع شرايين الماء فى أنهار بعد

استقرار أوضاع القشرة الأرضية، والثانية وضحت فى تصحر مطرد فى مناطق أخرى أدى إلى خفوت صوت الحياة ونبضها تدريجيا، مع تناثر بقايا تلك الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة، ومع التصحر المتزايد وجدت الجماعة المشاعية الأولى - نفس النظام الأموى - نفسها بإزاء متغير طبيعى قاس شحيح بمطالب الحياة، وهو الأمر الذى أدى بالتجمعات البشرية إلى وحدات اجتماعية أصغر وأكثر قدرة على الأستمرار والديمومة، لأن التجمع الكبير كان يعنى الهلاك جوعا، أو الهلاك قتلا بافتراض أنه لابد قد صاحب شح الطبيعة صراع عظيم على بقاياها الهزيلة، وهو الصراع الذى أكمل إغلاق الدائرة بمزيد من التفكيك والانتشار المتباعد للتجمعات البشرية فى أشكال قبلية أولى.

وإعمالا لهذه الرؤية التأملية وجد الإنسان نفسه فى بيئته المتصحرة أمام أحد خيارين: إما الموت جوعا، أو تدجين الحيوانات التى عاشت بدورها بجواره، بجوار الماء، ومن هنا حتمت البيئة على البدوى اعتمادا شبه كامل على الحيوان ومنتجاته لمعاشه، فكان يأكل لحمه ويتغذى بلبنه ويلبس صوفه ومن نفس الصوف يحيك خيامه وعليه يحمل أسفاره عند الانتقال من موضع ناضب إلى موضع أكثر فيئا.

وتتابعت سلسلة النتائج المترتبة على المقدمات، حين وجدت الجماعة المتبدية نفسها وهى تتحرك بحاجة إلى مايحفظ لها تماسكها وقوتها وقدرتها على الاستمرار، فارتبطت بروابط الدم وبالحيوان المدجن المعتمد لحياتها، وبدأت الطواطم تعبر عن تلك الرابطة كحاجة ضرورية لتنظيم يضمن للقبيلة الأمان من الشرود أو النفوق أو الموت، وكانت المصلحة مشتركة، لأن الحيوان وجد أمانه فى الالتحام بالقبيلة لتأمين حياته من الضوارى ومن الجوع، وأصبح الحيوان الطوطم رمزا للعلاقة المتينة بين أعضاء القبيلة فأصبح أبا للجميع بمعنى السلف الرمزى، فى زمن لم يكن يعرف دور الرجال فى عملية الولادة.

وفى مجتمع قاس بليد تكون الحاجة أشد إلى القوة العضلية التى توافرت للرجال، وكان ظرف المرأة والحمل والولادة لايضعها فى موضع الحاجة العضلية والمجهود الشاق الذى قام به الرجال، ومن هنا كان ضروريا أن يتحول المجتمع الذى عاش زمنا حياة المشاع قبل انحسار الجليد، من مجتمع أمومى النظام إلى مجتمع ذكورى، وساعد على هذا التطور الجديد امتلاك الذكور للأساس الاقتصادى المتمثل فى ترويض الحيوان أو مصارعته، فى مجتمع لايعرف سوى منطق القوة الغشوم، وهى مفتاح ومفصل المسافة بين الحياة والموت، كما أن الصراع الذى نشب لاشك بين

القبائل البشرية حول مواطن الحياة فى الصحارى، قد ساعد على تثبيت مركز الذكور السيادى بما يملكونه من مهارات عضلية، وانهار وضع المرأة الابتدائى وفقدت قيمتها الاجتماعية فى مجتمع الندرة الصحراوى واقتصرت وظيفتها على إنجاب المزيد من الذكور، وأصبح إنجاب الاناث عبئا يضاف لكاهل الجماعة فهى تحتاج للحماية والطعام، وحدثنا التاريخ القريب عن حل هذه المشكلة عشية الإسلام بوأد البنات أحياء.

وتدنت فى المجتمع البدوى مستويات الإنتاج إلى حد كاد فيه المجتمع البدوى يعتمد اعتمادا شبه كامل على الطبيعة، بالسعى الدائب وراء الكلأ وآبار المياه والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى، أو تطفله الدائم، أو تطفله الدائم على منتوج العمل عند الطرف الآخر فى المناطق الخصيبة النهرية، التى اتخذت خط تطور آخر وأشكالا اجتماعية أخرى.

وعلى مستوى العقائد فإن الطبيعة المتصحرة الشحيحة الضنينة بأشكال الحياة، جعلت البدوى أحادى النظرة وأحادى الاعتقاد والنظام، فقبيلته كل واحد يتماهى مع الطوطم الأب السلف الأول، وعادة ماتمثل الطوطم فى الحيوانات النافعة، لذلك غالبا ماقدس البدوى مختلف أنواع الشياه والسوائم ذات القرون، لذلك كان السلف المقدس ذا قرنين دوما وهو رب القبيلة الأوحد، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن لأنه مع الانتقال الرعوى لايوجد وطن، لذلك يتحدث البدوى عن الحمى وليس عن الوطن، ذلك السور الوهمى الاعتقادى الذى يحيط بالقبيلة ويتحرك معها أينما تحركت أو حلت أو ارتحلت.

ومن هنا لم تسمح الظروف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة فظلت على شتاتها وتشرذمها، مع تعبد كل قبيلة لإله خاص هو الوطن وهو النسب وهو الجد البعيد وهو الحمى، وهو واحد فقط وليس أكثر ولايمكن أن يتعدد، لأنه الضامن الوحيد لتماسك القبيلة اللزج ومصدر أمنها بانصهارها فيه، وكان طبيعيا أن يكون هذا السيد الرب ذكرا، لتعبر الفكرة عن قمة سيادة ذكورية أحادية، لكن الناظر من بعيد سيرى عددا هائلا من الأرباب تتعدد بتعدد أسلاف وطواطم مختلف القبائل.

هذا بينما على الطرف الآخر من انزياح عصر الجليد الأخير، فى مناطق الخصب النهرية، كان استقرار الأنهار فى مجاريها بشكل نهائى قد استغرق زمنا غير قصير، وسمح بوجود بيئة شبيهة بحال ماقبل انحسار الجليد، الأخير، فامتد الشكل المجتمعى القديم، «من النظام الأمومى» مدة أطول فى المجتمعات النهرية، فقد استمر انتشار الأحراش والبرك

والمستنقعات والغابات مما أطال عمر المشاع الأول عن رفيقه على الجانب الصحراوى، وكان استمرار الأوضاع الطبيعية دون تغيير كبير ضمانا لاستمرار مواز لوضع المرأة المتميز الذى أكدته تماثيل الإلهات الولادة، حيث من الصعب تصور جماعة بشرية كل آلهتها نساء، وسادة الجماعة فيها من الذكور، ويرتبط بما نقول هنا السؤال الذى طرحه «داروين»: أيهما كان أولا: النظام الذكورى أم النظام الأمومى؟ وأجاب داروين عبر المقارنة مع عالم الحيوان، فقال إن السيادة المطلقة كانت للذكر منذ البدء.. وأكمل «آتكسون» الإجابة فقال أنه قد حدثت ثورة من الأبناء على الأب القاسى المتوحش المتسلط، فقتلوا الأب وافترسوه سويا، ويتابع «روبرتسون سميث» رسم سيناريو الأحداث لإضاءة المشهد التاريخى فيؤكد أن النظام الأمومى ظهر إبان تلك الحقبة تحديدا، لينهى «فرويد» استكمال المشهد بناء على ماسبق فيقول وعادت الأوضاع إلى ماكانت عليه أولا، وساد الذكر مرة أخرى، هذا بينما كان هناك اقتراح آخر قوى الأسانيد يرى أن النظام الاجتماعى الأول كان أموميا بلا أدنى شك، كما نرى مثلا عند «إنجلس».

وكان موقف كاتب هذه الورقة هو رفض السؤال نفسه: «أيهما كان أولا النظام الأمومى أم الأبوى؟» بحسبان الخطأ فى السؤال نفسه ومن هنا كانت التوطئة بالحديث عن شكلى المجتمع الذى تركته انسحابات عصر الجليد الأخير: شكل بدوى وشكل خصبى، فانتهى الحدث الطبيعى إلى تمييز بيئتين، وبالتالى تمييز شكلين للتجمع البشرى عن بعضهما رغم تزامنها فى الظاهر كناتج انحسار الجليد، **أى أن الاختلاف كان مكانيا وليس زمانيا**، وهو الزعم الذى يحتاج إلى تأييده بقرائن، ستأتى على متن شرح موضوع الورقة المعلن فى عنوانها.

٢ـ الزمن الأمومى الأول:

إذن انتهى عصر الجليد ليترك مجتمعا بدويا يسرع بالانتقال من العصر الأمومى الأول إلى الأبوى الذكرى، بينما استمر وضع شبيه بالوضع المشاعى فى وديان الأنهار الخصيبة.

وعندما لم تكن هناك قوانين مكتوبة أو حتى متفق عليها، كان المجتمع الابتدائى الأول يعيش ببساطة الطبيعية، يتناغم معها ويضبط إيقاعه مع حركتها، فعاش حالة المشاع الأولى إبان مرحلة جمع الثمار والصيد، دون حاجة إلى تنظيم اجتماعى صارم، وانحصرت حاجاته فى تأمين القوت والأمان من غوائل الطبيعة وضواريها.

وكان الذكور بحكم التكوين الفسيولوجى هم فى الأغلب القادرون على

ممارسة مخاطر الحصول على الطعام البروتينى زمن الصيد، بمطاردة الحيوانات الملائمة واصطيادها إضافة إلى جمع الثمار، بينما كانت المرأة التى تنجب مبكرا جدا مضطرة إلى الاستقرار بجوار أطفالها تحميهم وترعاهم، وعندما يعود الرجال من الصيد يكون كل الرجال لكل النساء.

ومن هنا وبقوانين البساطة الطبيعية أمكن للمرأة أن تحقق وضعا اجتماعيا متفوقا لأسباب معلومة، وقد أهلها لهذا الامتياز قدرتها على الولادة والإنجاب، ومنح حياة جديدة، تلك الظاهرة التى لاشك أبهرت الرجل وجعلته يشعر أن هذا الكائن الذى يبدو أضعف منه بدنيا، يملك إمكانات سحرية عالية، لقد كانت ظاهرة الحمل والولادة مع التناغم الكامل للبشر مع الطبيعة مدعاة لفكرة أولى بسيطة، وهى أن المرأة جزء من ظاهرة الخصب الكونية الولادة، كالأرض التى تبنت المحاصيل والثمار والأنهار، بل إنها الظاهرة الأكثر وضوحا وقوة لحظة دفع الوليد من البطن إلى الدنيا.

وهكذا تأسست علاقة المرأة بالقوى الطبيعية الخارقة المعطاءة، فحازت أول فروض التقديس والرهبة والاحترام، وحققت وضعا اجتماعيا أكثر تميزا من الرجل، أهلها له تناغم تكوينها وظروفها البيولوجية مع الحاجات الطبيعية للبشر آنذاك، والذين كانوا بحاجة إلى تكاثر أعلى لتحقيق كثرة مجتمعية قادرة على مواجهة غوائل الطبيعة المفاجئة ووحوشها الضارية وفوضاها الدائمة.

وبالتدريج تمكنت المرأة من دعم هذا الوضع المتميز وتنميته، حيث كان بإمكانها وهى مستقرة مع أطفالها أن تلاحظ سقوط الثمار على الأرض ثم عودتها للصحو والإنبات والإثمار مرة أخرى، فأعادت المرأة التجربة فنجحت فى اكتشاف الزراعة، تلك الخطوة الأولى التأسيسية نحو قيام مجتمعات إنسانية حقيقية مستقرة.

وعندما عاد الرجال من غيبتهم فى صيد الطرائد فاجأتهم المرأة بهذه القدرة الجديدة، وبذلك لم تعد فقط جزءا من الخصب الكونى القدسى، بل يبدو أنها قادرة على ترويض الطبيعة وجعلها تلد بإرادتها كما تلد هى، ومن هنا أخذت تتحول إلى إلهة كبرى ليس ككل الإلهات والآلهة، لأنها أصبحت ربة الخير والخصب والعطاء والولادة والنور.

وفى ذلك الزمان لم يكن بإمكان الذكر إدراك دور فى عملية الحمل والميلاد، فتصور تلك قدرة أنثوية بحتة، فما كان لعينه وهو على مدارج بدائيته يحبو، أن يربط بين الفعل الجنسى وبين فعل الولادة، لأنه أولا كان الجميع يمارسون الجنس مع الجميع، وهو مايجعل المرأة يتناوبها أكثر من

رجل، وبالتالى ماكان بالإمكان لأحدهم أن يدرك علاقته بالمولود، هذا إضافة إلى المدة الطويلة التى يستغرقها الحمل مابين فعل الجنس وفعل الولادة، التى لاريب ساهمت فى عدم إدراك الذكر لدوره، كما كان الأطفال يمارسون فى تلك الحقب الفعل الجنسى بشكل اعتيادى، ولم يكن ينتج عنه حمل ولا ولادة، وهى جميعا الأمور الذى أدت بالذكور إلى اليقين أن فعل الولادة اختصاص أنثوى بحت ليس للذكر دور فيه.

وقد عزز هذا الرصيد للأنثى ملاحظة الإنسان لدم الحيض وهو ينزل شهريا فى مواقيت محددة، ثم يختفى مع الحمل ولايعود إلا مع الولادة، فوضع تصورا أوليا وهو أن الدم مادة الحياة الأولى، وأنه يختفى داخل البطن، لأن منه يتشكل الوليد الآتى، بفعل خاص من المرأة وحدها، ودعم الفكرة ملاحظته أن الجروح النازفة عادة ماتؤدى إلى الموت فى بيئة كان فيها الجرح هو ذلك المتكرر الدائم، وكان الموت بالنزف يعنى لديه خروج سائل الحياة «الدم» من الجسد مما يؤدى إلى خموده وفنائه.

وأدت محاولات حفظ الطعام بالمرأة إلى تطوير الأشياء من حولها، وتأملها والتدخل فيها لتؤدى وظائف جديدة فى عمليات إبداع وخلق.. أليست الهة، كانت بداية الحفظ فى وسائل الطبيعة الجاهزة مثل شق ثمرة جوز الهند لتصبح وعاءين، لكن أولى أوانى عثر عليها الباحثون تأخذ شكل الاختراع، كانت تتسم بالطابع الأنثوى الواضح، لأنها جميعا كانت متكورة كالثدى أو البطن، ومعنى ذلك أن المرأة كانت أول مخترع، بعمل الأوانى الفخارية، وعندما تعرض الطعام المحفوظ للتخمر «وعادة كانت حنطة»، وعاد الرجال من ارتحالات صيدهم ليتناولوا حنطة مخمرة تدوربها الرؤوس، لتتحنى إجلالا لهذا السحر الذى أدى للتأثير المباشر فى الأجساد بمزيد من النشوة الانثوية.

وإذا كانت «ميد Mead» قد استنتجت نفس الاستنتاجات وانتهت إلى أن مسألة الولادة تحديدا قد أدت إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة، فإنها وضعت يدها على اللحظة المفصلية لبدء انحدار وضع المرأة المجتمعى وصعود الرجل، وهى لحظة اكتشاف الزراعة، التى أدت إلى الأستقرار الذكور بجوار النساء انتظارا لنضوج المحصول، ومع هذا الاستقرار كانت بداية الانزلاق السريع لوضع المرأة.

كان الانتظار والاستقرار ظرف المرأة الملازم لها انتظارا للحمل حتى نهايته، ومع اكتشاف الزرع واستقرار الذكر ينتظر بدوره، أدى إلى تدريب الذكر على الملاحظة، وقد لاحظت «هوكس» أن سيادة الذكور النهائية قد

اقترنت بقيام القرى الأولى المستقرة، منذ حوالى خمسة آلاف عام من الآن.

وهكذا استبطن الأساس الاقتصادى لوضع المرأة المتميز اجتماعيا بذور سقوطها عن عرش سيادتها، ومتضمنا فى ذورة اكتشافها لدورة بذور النبات، فكان استقرار الذكور الذى تواكب مع قطع الغابات والتحقيل وماحتاجه ذلك العمل الجبار من قوى عضلية طورت الكشف التأملى للمرأة، كذلك ماحتاجته الأعمال الجديدة من تدجين لأنواع قوية من حيوانات يمكنها جر الأشجار المقطوعة وحراثة مساحات واسعة وحمل المحصول إلى مخازنه، وهو جميعه ماحتاج دوما للعضلات فصعد نجم الذكر، الأمر الذى انتهى بتبادل المواضع السيادية، وقد عجل بهذا التبادل هبوط الموجات البدوية المهاجرة المعروفة بالهجرات السامية على الهلال الخصيب، فى ذات الزمن الذى حددته «هوكس» لقيام القرى المستقرى الكبيرة فقد بدأت تلك الهجرات قبل حوالى ثلاثة آلاف عام من الميلاد.

٣ـ فلسفة الدم «وضع المرأة فى المجتمع الذكورى الأول»:

الملحوظة الجديرة بالاهتمام بصدد الهجرات السامية، إنه بعد هبوطها على الهلال الخصيب «وهو نموذجنا هنا» تلى ذلك توحيد المدن الدول فى أقاليم كبرى ثم فى دولة مركزية واحدة، كان أول مؤسسيها «سرجون الأول الأكادى»، دولة ذكورية كاملة ونموذجية، استمرت الإلهات الإناث فى عالم العقائد بكثافة، لكن بعد دخول عالم الآلهة آلهة الذكور أهمها إله الدولة الحاكمة.

والنقوش التى تركتها لنا فنون الهلال الخصيب تصور الإلهة الأنثى عادة تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف فى حقل حنطة أو تصور الحنطة كنقش على ثوبها، ولنلحظ أن الحنطة هى أول نبات تم تدجينه وافتتح به عصر الزراعة، مما يفسر لنا تاك النقوش، فالمرأة كانت أول من دجن الحنطة، وأحيانا كان يتم استبدال الحنطة بعرجون البلح والنخلة، ونظن أن كلمة تمر «ثمار النخلة» بدورها تشكل أحفورة لغوية تشير للبدايات الأولى، فالكلمة تمر ـ فيما نظن كانت الأصل اللغوى الذى تم تعميمه على جميع الثمار من بعد.

وحتى اليوم يعد البلح من الثمار المباركة التى تعالج كثيرا من الأوجاع فى تقارير منظومة المنطقة القدسية، فهذا الثمر كذلك فى الإسلام، وفى رؤية الإسلام للمسيحية، فقد أولد الإسلام مريم تحت جذع النخلة، ولايخفى ﴿وهزى إليك بجذع النخلة﴾ مافى فعل «الهز» من رمزية واضحة، ترتبط بالثمرة الأولى المقدسة.

ومع الاستقرار لاحظ الرجل دوره فى عملية الحمل والميلاد، واكتشف

دوره الذى لايقل أهمية عن دور الأنهار أو الأمطار للأرض كى تلد، واكتشف أن منيه الدكورى هو ماء الحياة وبدونه لايمكن الميلاد، فشعر بدوره المتعاظم وكان لابد أن يرقى سلم الألوهية بدوره، ومن هناك قام يسلب الإلهات الإناث أدوراهن تدريجيا حتى يسود مملكة السماء أيضا.

والتساؤل عن مزيد من تبرير سر قدسية حبة الحنطة والتمر وارتباطه بالأنثى، نحيله إلى شكل حبة الحنطة ونواة التمر، إنها فرج صغير يكاد يطابق فرج الأنثى من حيث الشكل، وأنه كما يروى فرج المرأة بماء الذكر تروى حبة الحنطة ونواة التمر بالماء فتتفلق عن حياة جديدة.

اذن لاحظ الذكر وهو يتأمل أهمية الدم الحيضى حتى اعتبره المادة الخام للحياة وسرها، فتعبد إلى إفروديت الولادة وتعبد إلى تماثيل فى هيئة قضبان ذكرية وفروج أنثوية، عثر عليها أيضا فى تلك الحقب، كذلك كان لابد أن يقدس ويعظم ويبجل مادة الحياة الأولى والأكثر طهارة من كل ا لمواد «دم الحيض» تحديدا.

ونتذكر أن أول قصة خلق كانت بسيطة بساطة البدايات الأولى، لقد ولدت الإلهة الأم الكبرى كل الكائنات الحية جميعا كما تلد الأنثى البشرية مواليدها، وقد بقى عن تلك القصة ذكريات تمثلها أسطورة «الشعير والنعجة» السومرية، وتقول الأسطورة: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة الأرض كما يخرج الزرع والدود وبقية صنوف الحياة «ولاتفوت عين مدققة دلالات عنوان الأسطورة، فالنعجة هى رمز أنثى الإنسان الأشهر/ مثلا قصة داود والتسع وتسعين نعجة/ أما الشعير فهو حنطة الأنثى واكتشافها الأول».

لكن بعد الهجرات السامية الكبرى، وقيام دول ذات حكومات تسارعت خطى التحول نحو سيادة الذكر نهائيا فى عالم السماء كما فى عالم الأرض، ونموذجا لذلك أسطورة من بلاد الرافدين تمت صياغتها مرتين، المرة الأولى زمن الحضارة السومرية القريبة من أيام سيادة الأنثى، لذلك اتسمت بملامح سيادية نسوية واضحة، أما الصياغة الثانية لنفس الأسطورة فقد تمت مع قيام أول مملكة كبرى فى الرافدين **السامى** هى مملكة الأكاديين، ومع الصياغة الجديدة اختفى دور المرأة من عملية الخلق تماما.

تقول الأسطورة فى صياغتها السومرية أن الإلهة «إينانا» واسمها يعنى «E أى بيت + An لفظ سيادة= **سيدة البيت**» كانت تهبط إلى عالم الموتى فى باطن الأرض بشكل دورى كل عام، بتضحية اختيارية تتم وقت الاعتدال

الخريفى، حيث يبدأ فصل الجدب بغيابها، وهى فى الأسطورة الإلهة الأم الولادة مانحة الحياة، ثم تعود الإلهة إلى سطح الأرض مع الاعتدال الربيعى «فيعود الخروف إلى شاته والثور إلى بقرته والزوج الغاضب إلى بيته»، فعودتها كانت عودة الخصب وتفتح الأزاهير، عودة عملية الإخصاب والتوليد والخلق.

ومع دخول البدو الأكاديين وقيام دولة كبرى، تم إدخال تعديلات جوهرية على الأسطورة، فاستبدل اسم «إينانا» باسم «عشتار» من العشرة والمعاشرة والتعشير «أى الجماع»، لكنها لاتصبح السيدة المسئولة عن الخصب حيث يظهر سيد جديد ذكر كان فى الأسطورة السومرية مجرد ذكر خامل الذكر ضمن عديد من عشاق «إينانا» تذكرة بالزمن الأمومى الأول، وتعلو مكانة هذا الذكر «تموز»، ويصبح هو المسئول عن الخصب والحياة، ويحوز لقب «تموز **راعى الخراف** الطيب»، ويصبح هو رمز النبات االذى يموت فى فصل الجدب ويهبط إلى عالم الموتى عند المنقلب الخريفى، ويعود حيا عند المنقلب الربيعى فتعود بعودته الحياة الأولى للأرض، بل وتبدأ الأنثى تتسم بالشرية لأن الأسطورة الأكدية جعلتها «المرأة أو عشتار» هى التى تسلمه لزبانية الجحيم فيهبطون بالراعى الطيب إلى عالم الأموات، لقد بدأت من هذه اللحظة سلسلة التبخيسات التى لحقت بالمرأة.

لكن المرأة ظلت تتشبث بعالم السماء ولم تتخل عنه بسهولة، عملا بقاعدة استمرار بقاء واستمرار المأثور التقليدى مدة أطول من مدة التغير فى الحضارة المادية، بقيت المرأة تتشبث بعالم الألوهية حتى زمن «مريم» فى المسيحية، لكن الملاحظ دوما هو تواريها التدريجى خلف البطل الذكرى، فأصبح الدور الأول فى الأساطير المصرية للإله الذكر «أوزيريس» رب المياه، خاصة أنه قد أصبح أيضا ربا للزرع والخضرة وهما اختصاص الإلهة «إيزيس»، التى كانت صاحبة الصدارة فى الأصل الأول لأسطورة الزرع المصرية، وفى كنعان أيضا توارت الإلهة «عنات»، وأخذ دورها فى الهبوط إلى عالم الموتى والعودة ذكرها وسيدها «بعل» الذى أصبح ربا للخصب بدلا من «عنات».

وضمن مابقى من تأثيرات الزمن الأمومى ووصلنا عبر آثار الممالك فى المنطقة، طقس توعز قراءته أنه يعود إلى زمن أمومى خالص، وظل يمارس حتى زمن قيام الدول الكبرى، كان هذا الطقس احتفالية جنسية عمومية هائلة ينسى فيها الجميع أى قرابات بينهم، فى حفل نزوى عظيم يلتقى فيه جميع الرجال بجميع نساء بشكل عشوائى، وكان يمارس فى أيام محددة حول معبد الإلهة عشتار، وكان أشرف الأعمال فى سومر القديمة هو

التضحية بالبكارة فى هيكل الربة الأم الولود المخصبة الشبقة مانحة الحياة، تذكرة بتلك الأيام الخوالى، أيام كان كل الرجال لكل النساء فى مجتمع أمومى خالص.

وإذا بدأ ذلك الحفل العربيد ممجوجا وفق أذواقنا الأخلاقية اليوم، فإنه لم يكن كذلك فى تلك الأزمنة، بل كان واجبا دينيا وفريضة تقدمها المرأة للربة كى يفشو الخير وتأتى السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية فى الطبيعة تأسيسا على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه، وليس أدل على جلال هذا الطقس وشرحه من تلك اللوحة التى عثر عليها فى طرالس بليديا، منقوشة على عمود مرمرى يعلن أن الشريفة «أورليا آماليا» قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها فى تدينها أصيلة، ومافعلته كان شرفا معلوما فى أسرتها خلفا عن سلف، فقدمت أمها وجدتها القربان نفسه، وأنه تم للهيئة الكهنوتية التأكد من ذلك.

ولنلحظ استمرار التواجد الأنثوى فى العبادة حتى الآن فى العقيدة المسيحية، لأن «مريم» تعتبر أم المسيح الإله الابن من الإله الأب رب السماء، وتستوجب احتفالية خاصة بها تقدسها، لذلك اختصت دون الأقانيم الثلاثة بصوم العذراء، الذى يصوم فيه المسيحى عن كل ماهو حيوانى ويقتصر فى طعامه على النبات وحده، تذكرة لالبس فيها بالمجتمع الأمومى الأول فى البيئة النهرية عندما كان يستغنى عن اللحم معتمدا على الوفرة النباتية، فى منظومة قدسية تسودها أم إلهية مخصبة، ولاننسى التبادل بين الكلمات نبات وبنات. «نبت وبنت/ بنى: فى العربية فعل يعنى: يمارس الفعل الجنسى».

واللغة عادة تحمل دلالات إحفورية تحمل الخبرة القديمة وماتركته من مفاهيم، فالكلمة قديسة، وتوصف بها السيدة «مريم»، هى فى اللغة العبرية «قديشا» وفى الأكادية حول معبد «عشتار»، ليلة الحفل النزوى العظيم، لتقوم بدور الإلهة داخل المعبد فى هيكل عشتار، ويقوم الكاهن الأكبر وعادة يقوم الملك بدور الإله الذكر، ويبدأ الحفل النزوى بإشارة هى بدء المضاجعة بين الملك والمرأة المصطفاه.

أما بعض سعيدات الحظ فكان أهلوهن يقدمهن طائعات للمعبد الممارسة النزو القدسى عند الاحتفال الكبير، فإذا أنجبت نسب الوليد إلى الإله، وتأخذ هى لقب «بتول» فى الاحتفالات الكنعانية، و«بتولتا» فى الحفل النزوى الأكادى، و«بتولا» فى العبرية وتعنى الأنثى غير المتزوجة، لكنها الخصيبة الولود فى آن معا، وغنى عن الذكر أن «مريم» كانت من المنذورات للمعبد اليهودى.

ولأن الخلق بالميلاد فى النظام الأمومى كان يعتمد مادته الأساسية «دم

الحيض»، فإن سيطرة الذكور التامة بعد الغزو البدوى لمناطق الخصب وسيادة النظام الأبوى، كان لابد أن تعيد إنتاج القصة بما يتفق والشكل السيادى الجديد، ولأن مفهوم الدم بات راسخا، فقد لجأت الأسطورة الذكورية إلى صياغة جديدة، وحيلة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة لأن الذكر لايلد، وأخذت منحى آخر أعطى الذكر الدور الأساسى، فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر احتاجوا إلى مادة الحياة «الدم» فقاموا بذبح إله يدعى «كنجو»، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان الأول، وهو ماسجلته لنا الملحمة الرافدية «إينوما إيليش» أو «فى العلى عندما».

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطأً آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى «تيامه» إلهة شريرة، أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة «مردوخ» بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبير واضح عن انتصار النظام الجديد، ثم قام «مردوخ» بشق «تيامه» كما تشق الصدفة إلى قسمين، رفع القسم الأول العلوى وجعله سماء وترك النصف السفلى ليصبح أرضا.

٤ـ وضع المرأة فى قصة الخلق التوراتية:

الكتاب المقدس/ العهد القديم منه تحديدا والمصطلح على تسميته باسم التوراة رغم أن التوراة تطلق فقد على الأسفار الخمسة الأولى معه، كتاب تشكل فى ظل نظام ذكورى تماما، فهو لايذكر أو يتعرض للنساء إلا لماما، ويستحسن فى الغالب عدم ذكرهن، حتى أن التعداد الرسمى لبنى إسرائيل فى أكثر من موضع كان لايضع النساء ضمن التعداد، ومع ذلك فقد بقيت فى المأثور التوراتى مجموعة إشارات تعود إلى ذكريات عن الأصول الأمومية الأولى.

لاحظنا فى التوراة مثلا أن المعرفة الكشفية ترتبط بالمرأة ارتباطا وثيقا، مما يؤكد اعتراف الذكور الابتدائى بالقدرة التأملية والمعرفية الكشفية للمرأة، قياسا على القدرة العضلية للرجل، والتوراة تربط بين المعرفة وبين الفعل الجنسى مع امرأة، فهذا الفعل يدعى لغة «معرفة» فالقول إن فلانا قد عرف فلانة يعنى أنه قد مارس معها الفعل الجنسى الكامل المؤدى إلى الولادة ومجىء حياة جديدة، والمصطلح واضح كما فى النصوص:

وعرف قايين امرأته **فحبلت وولدت** حنوك «تكوين ٤/ ١٧»

وعرف آدم امرأته أيضا **فولدت** ابنا ودعت اسمه شيثا «تكوين ٤/ ٢٥»

وعرف آدم حواء امرأته **فحبلت وولدت** قايين «تكوين ٤/ ١»

وكانت معرفة آدم الأولى فى الجنة ناتج عصيانه الأمر الإلهى بعدم أكل ثمرة بعينها، لكن الحية أوعزت لحواء بأكل الثمرة المحرمة، وأوعزت حواء بدورها لزوجها آدم، فأكلاها، أو بالنص:

فأخذت من ثرها وأكلت وأعطت رجلها معها

فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاط

أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر «تكوين ٣/ ٦ ـ ٧»

وهذه الشجرة تسميها التوراة «شجرة المعرفة» والثمرة رمز المضاجعة التى تثمر بالولادة، وهو الفعل الذى أدى إلى معرفة آدم أنه عريان ولم يكن يعرف كذلك من قبل، فالقصة ترميز واضح للفعل الجنسى مع حواء ومعها عرف آدم وتعلم، والحية كما هو معلوم فى الأساطير ذات قيمة مزدوجة، فهى من جهة رمز القضيب الذكرى الذى أغوى حواء إبان حالة العرى الأولى، وهى من جانب آخر رمز الخلود، فقد رآها الإنسان الأول تنسلخ من جلودها كل عام فتصور أن ذلك موت ثم حياة جديدة، فهى خالدة بمعنى أنها تولد من جديد كل عام.

وكانت ملاحظة تشنجات جسد الحية وهى تنسلخ من جلدها القديم ولازالت تشبه تماما تشنجات الفرج الأنثوى إبان انسلاخ الوليد منه لحظة الولادة، لذلك حملت الأنثى بالتشابه فى ظل السيادة الذكرية تلك القيمة الثنائية، فهى فى العبرية حواء، لكن الكلمة حواء حملت فى مفهومها جذر الحياة، ومن جانب آخر ارتبطت بالحية مصدر الأذى والشر، ولنلحظ الأرتباط الجذرى بين حواء وحياة وحية و«حيا: أى فرج الأنثى»، لكن ليتم بعد ذلك إعادة تفسير ذلك المأثور لتبخيس المرأة وليس التذكير بوضعها المتميز، فتصبح هى التى أوعزت لآدم بأكل الثمرة المحرمة فى عالم الخلد، ففقد الرجال بسببها الخلود، وبحيث تتحول المرأة عن منهج الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد، ولنعد إلى نصوص التوراة نقرأ ماحدث.

تحكى التوراة أن الله قد خلق ذكرا أسماه آدم، ووضعه فى الجنة حيث عاش وحيدا لا يجد أنيسا يؤنس وحشته، وهنا قرر الرب تسلية آدم والترويح عنه بخلق كائن يقوم بهذه المهمة، الترويح عن الرجل فقط هذا كان سبب وجود المرأة «؟!!» وكان هذا الأنيس هو المرأة التى خلقها الله من أحد أضلاع آدم:

هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى، هذه تدعى امرأة لأنها من آمرء أخذت. «تكوين ٢/ ٢٣».

النص هنا يجعل امرأة تأنيث من امرء وليس العكس، ليظل الرجل أولا، رغم أن قوانين اللغة السليمة لاتقول كذلك، وتتبع المرأة الرجل فى الخلق فهى جزء من جسده، وتتبعه فى المسمى اللغوى، لكن بالتوراة نفسها جينات موروثة تشير لأضواء باهتة لزمن قديم، فتعين لتلك المرأة اسما آخر تعرف سببه وتفسره فتقول:

ودعا آدم اسم امرأته **حواء لأنها أم كل حى.** «تكوين ٣/ ٢»

وتفسر لنا العبرية تعبير «أم كل حى» بأنه «تلك السيدة التى تحيى»: «١٩».

إن قراءة الأساطير القديمة بحثا عن اسم، «امرأة» لانجدها تابعة لامرء بل العكس تماما، فالميم للأمومة، ولاتجد إلهة قديمة كبرى يخلو لقبها من ميم الأمومة، فأصل الكون البابلى **«مى»** والأم والإلهة تحمل أحد الألقاب **«ما، أماه، ماما، مامى»**، وكل إلهات الخصب فى حوض المتوسط الشرقى حملت الألقاب **«ميرها، ميريا، ميريام، ستيلاماريا، مريم» والميرة** هى الزاد، كمكتشفة أولى للزراعة، لأن الميرة عادة تطلق على مخزون الحنطة والبلح تحديدا، أما **ميرها** فهى شجرة المر المقدسة التى أنجبت الآلهة الذكور.

أما الكلمتان: أنثى وحواء فتضيؤها لنا قصة الخلق الأولى فى الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكى عن مكان كانت تعيش فيه الآلهة خالدة اسمه «ديلمون» ويعادل أوليمب اليونان، وهناك جاء إلى الوجود إله «آن ـ جى» بداية للبشرية على الأرض، رعيلا أولا يجمع اللاهوت مع الناسوت أو الألوهية مع البشرية، واسمه ملصق من مقطعين يشير إلى أنه أول من سكن الأرض فهو «آن = سيد+ جى= الأرض- سيد الأرض».

وتحكى الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى الكونية «ماما هورساج» هى التى ولدته، وأنها حرمت عليه ثمارا بعينها فى ديلمون حرصا على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفى فأكل تلك الثمار، فأصيب بمرض شديد فى أحد أضلاعه كاد يقضى عليه.

وهنا أسرعت «ماما هورساج» بخلق إلهة أنثى مهمتها تمريض ذلك الضلع والعمل على شفائه، وكان اسم هذه الإلهة هو «آن ـ تى»، وهو اسم مركب من مقطعين «آن» وتعنى السيدة، و«آن» عندما تأتى بحسبانها اسمها فهى تعنى السيدة، و«تى» عندما تأتى بحسبانها اسما فهى تعنى الضلع «آن تى= سيدة الضلع»، لكن «تى» عندما تأتى بحسبانها فعلا فإنها تعنى «أحيا» أى يصبح المعنى «السيدة التى تحيى»، أو كما فى التوراة «أم كل حى»، ثم يلقى الأسم «أنتى» فى الأسطورة الرافدية الضوء على أصل الأسطورة التى

حورت فيها نقله المأثور التوراتى عن الأصل الرافدى، لتكون حواء أو «أنتى» مخلوقة من ضلع آدم، أما «أنتى» فواضح تماما أنها أصل المصطلح «أنثى».

٥ـ آخر ملاحم التبخيس المقدس للمرأة:

عندما ظهر المسيح فى وسط يهودى مائة بالمائة لم يزعم أنه قد جاء بجديد، بل أكد أنه ماجاء لينقض الناموس بل جاء ليكمل، ومن هنا سلم بكل التوراة وضمنها قصة الخلق ووضع المرأة فى منظومتها، لكن مقاطعة الجليل التى ظهر فيها المسيح دون بقية المقاطعات الفلسطينية كانت تموج زمن ظهور بعقائد واردة من مصر وفارس تتحدث جميعا عن آلهة فدائية جاءت وعاشت وماتت وقامت من بعد الموت فى عيد القيامة مجيد، آلهة أشهرها بعل وأوزويريس وتموز وأدونيس وميتهرا، كلها تعرضت للموت وقامت كما يقوم الزرع من الموت، لذلك فإن المسيح قدم نفسه من خلال تلك الصيغة الزراعية لكن على أرضية كاملة البداوة عبرية تماما، ومن هنا حاول المسيح من البدء تأسيس مبادىء خصبية، لكن لم يمض على اختفائه عدد من العقود حتى تحولت المسيحية لتفترش خلفيتها البدوية الكاملة مرة أخرى.

لقد كانت الأصول الزراعية أساسا متينا لوجود مريم على رأس العقيدة المسيحية، مريم الحكيمة البتول التى تصب منها النعم، نموذجا واضحا لبقايا السيادة الأنثوية العارفة المؤلهة، وحتى زمن القديس يوحنا فم الذهب كانت العلاقة بالمرأة مصدرا للمعرفة، وأسطورته تحكى أنه كان طفلا متخلفا فى دراسته فذهب ووقف يصلى أمام تمثال العذراء لتساعده فدبت الحياة فى التمثال وخاطبته العذراء: «يوحنا تعال وقبل شفتى وسوف تحل عليك المعرفة، لاتخف»، وبعدها أصبح يوحنا أحكم أهل زمانه حتى لقب بفم الذهب.

ورغم أن اليهودية كانت قد حظرت على النساء الصلاة داخل المعبد أو المشاركة فى أعمال الكهنوت، لأنها اقترفت الخطيئة الأولى وأخرجت الذكر من الجنة، ولأنها أصبحت مسئولة عن الشقاء وعن الموت، فإن المسيح قد حرص على إبراز مخالفته، لذلك كان يحرص على الحديث مع النساء باعتبارهن كائنات بشرية كاملة، بل وأشركهن فى نشاطه التبشيرى «على إثر ذلك كان يسير فى كل مدينة وقرية يكرز يبشر بملكوت الله معه الإثنى اعشر وبعض النساء.. **مريم** التى تدعى المجدلية.. **ويوانا** امرأة حوزى وكيل هيرودتس **وسوسنة**، **وآخر كثيرات** كن يخدمنه من أموالهن/ لوقا ٨/ ١ ـ ٤».

لكن ماكان ممكنا العودة الكاملة للمرأة بعد كل هذا السلطان الذكورى الكامل، فتراجعت فكرة المساواة التى نادى بها الإنجيل، وتحول الأصل فى

الحريات الجنسية وفق المنظومة الخصبية إلى نقيضه تماما، وذلك بفضل «بولس الرسول» الذى شرع تغطية المرأة المسيحية لرأسها أثناء الصلاة، مع إعادة تأكيد موقف التوراة فى قوله لأهل كورنتوس: «ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل/ كورنتوس ١١/ ٩».

وبالغ بولس فى التعديل على سيده المسيح، رغبة فى مزيد من تبخيس المرأة قدسيا فقام ينادى:

أيها النساء: **تخضعن لرجالكم كما للرب** لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن فى كل شىء. «رسالة بولس إلى أفسس ٥/ ٢٢ ـ ٢٤».

أما على مستوى المعرفة فقد جاء الأمر من رجل الأمر من رجل أصبح كلامه مقدسا فى قولة شهيرة تعلن أمرا إلزاميا:

لست آذن للمرأة أن تعلم «!!؟»

ولاتتسلط على الرجل، بل تكون فى سكوت «رسالة بولس لتيموثاوس ٢/ ١١».

ويأتى القديس ترتوليان ليعقب على موقف بولس من تجهيل المرأة لأنها بعملها كانت تتسلط على الرجل، ويوجه الخطاب للمرأة المؤمنة فى زمنه يناديها مفسرا أسباب هذا الانقلاب التاريخى:

«لايجوز لك أن تخلعى عن جسمك ثياب الحداد، بل عليك أن ترتدى الأسمال وتغرقى فى الحزن والندم كى تكفرى عن خطيئتك فى دفع الجنس البشرى إلى الهلاك.. إنك ياأمرأة باب الشيطان، فأنت من لمس شجرة الشيطان ومن انتهك فى الأول الناموس الإلهى».

وهكذا، وعلى أصول مغلوظة توراتية، لأصول سومرية أسطورية، صدر الحكم التاريخى ضد المرأة، وتتابع القديسون المصابون برهاب المرأة أو بالقصور عن التواصل معها، فيبالغ القديس «بيرونيموس» فى رفض العلاقة الجنسية إلى حد اعتبار الزواج هو عطية الخطيئة، وانتهى زمن المشاع واحتفالات الخصب النزوية إلى نقيض صارخ يمجد العذرية وعدم الزواج باعتبارها ذات المكان الأعلى فى الجنة المسيحية، ويصدر «جراسيانوس» مرسوما فى ١١٤٠م يقول:

إن صورة الله ماثلة فى الرجل الذى خلق أوحدا، وجعل أصلا للكائنات البشرية قاطبة وقد أعطى من الله السلطة لأن يحكم بوصفه نائبة لأنه صورة الإله الأوحد، ولهذا السبب لم تخلق المرأة على صورة الرب.

ولوجود مشكلة فقهية داخل مؤسسة الفكر الدينى المسيحى أدت إلى انقسامه حول طبيعة «مريم» وهل هى إلهة من الأصل حتى يمكن لبطنها المحدود أن يسع فى رحمه الله اللامحدود؟ أم هى إنسانة ومجرد وعاء، البعض تمذهب راعيا وأله مريم، أما الآخرون فقد خلعوها من على كرسى الألوهية، حتى يمكنهم القول لنساء الأرض أن الرجل هو الذى يلعب الدور الكامل وحده فى المواليد، أما المرأة فمجرد وعاء أو إناء مؤقت، لأن الله كان صاحب الدور الكامل فى ميلاد يسوع المسيح، ولاوجود إلا لجنس واحد كامل هو الذكر، أما المرأة فلوحتى كرمناها لقلنا أنها ذكر ناقص، إضافة إلى كونها قد سقطت فى امتحان الجنة.

وطوال العصر الوسيط كانت الشروح على مرسوم «جراسيانوس» تستشهد بأفلاطون الذى رفض عقاب المرأة لأنها ليست كائنا يعقل كالإنسان ، فالإنسان هو فقط الرجل بل هى أقرب إلى البهائم. وبالتاريخ الطبيعى لبلينى حيث يقول: «الحيض يمنع الانتعاش ويقتل النبات ويصدأ الحديد ويصيب الكلاب بالسعار»، وتحولت المادة الأطهر (الحيض) إلى أكثر المواد نجاسة وسببا فى تبخيس المرأة، واقترن تمجيد العذراء بتجيس جنسها جميعه، حتى أن الكلمة «Femina/ امرأة» مركبة من مقطعين «Fele Minus.» أى «إيمان أقل»

وعندما جاء الإسلام كان الموقف من المرأة قد تأسس قدسيا، فالذكر هو المخلوق الأول وهو الثانى، وهى قطعة منه خلقت من أجله، وتمت إعادة حواء إلى زمن الخطيئة الأولى الأسطورى ليمركز الشر كله حولها، فهى شيطان غواية لأنها رفيقة إبليس، وهى لاتتحكم بشهواتها، ولاتكون مع رجل إلا وكان الشيطان ثالثهما، حتى قصص الأنبياء تخبرنا أن نساءهن قد وقعن فى الخطيئة مثل امرأة لوط وامرأة نوح، وهاروت وماروت أغوتهما امرأة، وكان ملائكة مكرمين، وولدا آدم تقاتلا على امرأة، فالمرأة تخضع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعة ومن الطبيعى أن تخون، فهى أحد أربعة خوانين، فى مأثور يقول: «أربعة لا أمان لها: المال ولو كثر، الحاكم ولو قرب منك، الدهر ولو صفا، المرأة ولو طالت عشرتها»، خلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الرجل، «ولو كنت آمرا أحد أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» حديث نبوى، و«الكهنة رسل الشيطان والنساء مصايده» حديث نبوى، هى مجر جسد ومتاع للمتعة كأى متاع، أصبح غير مطلوب منها أن تفكر فهناك من يفكر بالنيابة عنها، هى مجرد فرج لذلك هى حرمة وحرام، صوتها عورة، ورضا زوجها عنها رضا من الرب والناس، والمرأة النموذج هى

التى لاتعرف عن نفسها سوى كونها عورة وحرم لايجوز لمسه إلا لصاحبه المالك الأوحد، الأب ثم الزوج، وهى ناقصة دين لأنها نجسة وطبيعتها النجس والفعل الجنسى معها يؤدى إلى النجس كالموت، وكل منهما يستوجب الاغتسال الكامل مع بعض الدعوات المنجيات والآيات المطهرات، ودم الحيض يغطيها بالدنس، لذلك ترفع عنها أثناء فترة الحيض أو النفاس بعد الولادة كل التكاليف التعبدية، لاتصلى، لاتصوم. وبينما يحتسب ذلك بسبب نجاسة الدم، نظن من جانبنا أن ذلك إنما هو بقايا زمن قديم كان فيه الدم سر سيادة الأنثى وألوهيتها فلا تسجد لغيرها.

وتبقى أيام الحيض الخمسة الشهرية رصيدا لذكرى قدسية المرأة وشأنها فى التاريخ، كذلك يتقدس رقم خمسة ويصبح مانعا للسحر والمرض والحسد، ويصبح يوم الخميس اليوم المفضل لجماع أمثل، والخمسة تظل علامة رمزية على الفرج.

وفى عهد الجاهلية الأخير، عشية الإسلام، كان الدم الحيضى لم يزل مقدسا، وكان نسوة العرب يطفن بالكعبة ويمسسن بدم الحيض حجرها الأسود تقديسا له، وتواصلا مع الذكر السماوى، لكن كتبنا التراثية تسجل لحظة التبخيس فتقول: «إن الحجر الأسود كان أبيضا فأسود من مس الحيض فى الجاهلية».

فهكذا كانت فى فجر الإنسانية وهكذا كانت فى ضحاها، ولم تزل درجات السلم التطورى نحو رقى حقيقى وراء سجف زمان لم يأت بعد.

المصادر

١. Jaqaetta Hawkes, Pre History New York, American Libeny, 1963, p35,,
357.

٢. سيجمود فرويد: موسى والتوحيد، ترجمة جوروج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ص ١٨٠، ١٨١.

٣. نقصد «أصل العائلة» كتابه الأشهر.

٤. إن الجمع على النسبة إلى ماهو أمى وليس أميا، لكنا جرينا على الخطأ الدارج حتى لاتتصرف الدلالة إلى مقصود مخالف.

٥. Mead, Male and Famale, New York, Morrow, 1949, pp 102-103.

٦. جيمس فريزر: أدونيس أو نموز ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢، ص٣٥.

٧. فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ط١، ص٢٤٦.

٨. يعقوب السيد بكر: هوامشه عل يترجمته لكتاب موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، القاهرة ١٩٥٧، ص ٢٤٧.

٩. أنيس فريحة: ملاحم واساطير من الأدب السامى، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٠٩.

١٠. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، جـ٦، ص٣٩٤.

١١. جان بوتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص١١٠.

١٢. نفسه ص٢٨.

صموئيل كريمر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧١، ص٢٤٣ - ٢٤٤.

١٤. ولدرير: الجينوفوبيا أو الخوف من النساء، باريس، ١٩٧٠، ص٩٤.

١٥. ترتوليان: الأعمال الكاملة، المجلد الإول، ص ٢٤٣.

١٦. منشورات فريد فرج: المجلد الأول، ص١٢٥٤ - ١٢٥٦.

١٧. محمد حسنى عبدالحميد: أبو الأنبياء، دار سعد، القاهرة، ص٩٢.

معارك فكرية

في صحيفة أخبار الأدب نشرنا فصلا واحدا من كتابنا النبي موسي وآخر أيام تل العمارنة فكانت معركة فكرية منها النماذج التالية:

تصحيح للمعلومات الواردة فى مقالات الدكتور سيد القمنى

د. عبدالمنعم عبدالحليم سيد
أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية
بكلية الأداب جامعة الاسكندرية

تابعت المقالات المنشورة فى أخبار الأدب فى الأعداد الصادرة أيام ١/ ١٢، ١٢/٨، ١٥/ ١٢، ٢٢/ ١٢ وأولها بعنوان «رحلة النبى موسى» بلاد بونت ليست الصومال وثالثها بعنوان «الموقع الصحيح لبلاب بونت» وفى هذه المقالات كثير من الأخطاء التاريخية نتيجة اعتماد الكاتب على التشابه اللفظى وحده بين الأسماء التاريخية والجغرافية دون أن يرجع إلى الوقائق التاريخية والأثرية.

ورغم أن الكاتب رجع إلى أحد بحوثى فى موضوع تحديد موقع بونت «هامش رقم ٩ من عدد يوم ١/ ١٢» ألا أنه لم ينتبه إلى ماوضحته من اختلاف المدلول الجغرافى لهذه الكلمات «بونت» باختلاف عصور التاريخ الفرعونى، كما أنه لم يطلع على أهم مانشرته فى هذا الموضوع وهو التقرير الخاص بنتائج الحقائق التى أجريتها على ساحل البحر الأحمر خلال عامى ١٩٧٦، ١٩٧٧ والتى تمكنت خلالها من الكشف عن موقع الميناء، الذى كان المصريون يبحرون منه إلى بلاد بونت هذه، وقد قامت جامعة الإسكندرية بنشر هذا التقرير «مرفق نسخة» إن الباحث فى موضوع تحديد بونت يجب أن يميزيين ثلاثة مسميات أطلقها المصريون القدماء على هذه البلاد وهى:

١ـ مصطلح عام هو «بونت» وكانوا يطلقون على المناطق التى يحصلون منها على البخور.

٢ـ مصطلح خاص هو «بيا ـ بونت» بمعنى منجم بونت وكانوا يطلقونه على المناطق التى يحصلون منها على الذهاب إلى جانب البخور.

٣. مصطلح خاص آخر هو «ختيو ـ عنتيو ـ نو ـ بونت» ومعناه «منطقة مدرجات البخور فى بونت» وقد أطلقوه على المنطقة التى حصلوا منها على أشجار البخور لاستزرعها فى مصر.

والمصطلح الأول أطلق فى البداية على المناطق الواقعة على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر الغربية من جنوب مصر ثم امتد مدلوله على طوال الساحل الأفريقى للبحر الأحمر حتى شمال شرق الصومال، وسبب هذا الامتداد يرجع إلى حصول المصريين التوغل جنوبا على طوال الساحل الأفريقى للبحر الأحمر للاقتراب قدر الإمكان من مناطق نمو أشجار البخور فى شمال الصومال لتقليل الوسطاء، وبالتالى ثمن السلعة «كما دلت على ذلك نصوص هيروغليفية من عصر الملكة حتشبسوت».

والمصطلح الثانى «بيا ـ بونت ـ أو منجم بونت» أطلقه المصريون القدماء على الجزء الجنوبى من صحراء العتباى الممتدة فى شرق السودان، حيث توجد مناجم الذهب وقد أثبت ذلك فى تقرير الحفائر التى أجريتها على ساحل البحر الأحمر «ص ٥٦ ـ ٦٦ ـ من التقرير المرفق».

أما المصطلح الثالث وهو منطقة مدرجات البخور فى بونت فقد استخدمه المصريون لأول مرة فى عصر الملكة حتشبسوت فى النقوش التى تسجل بعثتها إلى بونت لجلب أشجار البخور لاستزراعها فى حديقة معبد هذه الملكة الدير البحرى بقرب القصر، وقد أثبت فى البحث الذى أشار إليه الدكتور القمنى «محاولة لتحديد موقع بونت» إن هذه المنطقة تقع فى شمال شرق الصومال وقد استخدمت فى ذلك الوثائق الهيروغليفية والأدلة الجغرافية والنباتية والحيوانية بالإضافة إلى رواية الكتاب اليونان والرومان.

وهكذا امتد المدلول الجغرافى للمصطلح «بونت» على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر من ساحل السودان فى عصر الدولتين القديمة والوسطى حتى ساحل الصومال فى عصر الدولة الحديثة، وهذا ماتعارف عليه علماء الآثار المصرية ودلت عليه الآثار والنقوش التى أكتشفها فى موقع الميناء «التقرير المرفق».

من هذا يتضح أن كل المناطق التى أطلقت عليها التسمية بونت ومشتقاتها فى النصوص المصرية يقع فى مناطق افريقية وليست آسيوية وعلى ذلك فإن مادفعت إليه الدكتور القمنى بأن بونت تقع فى بلاد الأنباط فى شمال خليج العقبة يخالف هذه الوثائق التاريخية الأثرية.

وهناك وثيقة هيروغليفية ذات أهمية كبرى فى هذا الموضوع يبدو أن

انلدكتور القمنى لايعلم عنها شيئا وهى لوحة سجل عليها مايفيد أن سقوط المطر على جبال بونت يؤدى إلى حدوث فيضان النيل، مما يدل على أن بونت تقع إلى الجنوب من مصر أى فى منطقة افريقية وبطبيعة الحال لايمكن حدوث فيضان النيل إذا سقطت الأمطار على شمال خليج العقبة التى يحدد الدكتور القمنى موقع بونت فى نطاقه.

وبالإضافة إلى هذه المخالفة للحقائق التاريخية والأثرية عن موقع بونت.

فقد وقع الدكتور القمنى فى أخطاء أخرى نجملها فيما يلى.

١ـ فى عدد يوم ١/ ١٢ ص٨ العمود الأول ص٢٩ يقول إن «التبراء» كان اسم العاصمة زمن الأبناط وهو غير صحيح لأن الأسم النبطى البتراء هو «قمو» ومعناها «البتراء» وقد أطلق الأنباط هذه التسمية على عاصمتهم بسبب تعدد ألوان صخورها وهو الاسم الذى تحور إلى «الرقيم» الوارد فى سورة الكهف، أما كلمة البتراء فهى من التسمية اليونانية Petra ومعناها الصخرية أو الحجرية.

٢ـ فى عدد يوم ١/ ١٢ ص٨ العمود الثالث يقول الدكتور القمنى أن كلمة «بونت» لم ترد بها العلامة الأجنبية وهو خطأ أيضا إذا العكس هوبيا ـ بونت ومنطقة مدرجات البخور فى بونت كانت تلازمها هذه العلامة التى على شكل ثلاثة جبال «راجع التقرير المرفق شكل ٢٩».

٣ـ فى نفس العمود المذكور فى «٢» يقول إن الملك البونتى الذى دون اسمه «بارح» فى نقوش حتشبسوت يحمل لقب «عظيم عظماء إرم» وهو غير صحيح لأن هذه العبارة مدونة فى رسوم حتشبسوت فى الصف الذى يعلو صف عظماء بونت وتخص شعبا آخر أطلق عليه المصريون الإسم «أرم».

٤ـ فى عدد ١/ ٢ ص٨ العمود الأول يقول إن الفرعون أمنمحات الأول من ملوك الأسرة ١٢ أرسل ثلاث آلاف جندى برئاسة القائد «حنو» وهو غير صحيح أيضا لأن الفرعون المقصود هو المسمى منتوحب ـ سعنخ كارع أحد ملوك الأسرة ١١.

٥ـ فى نفس العمود المذكور فى رقم «٤» يقول إن لوحة النصر للملك أمنمحات الثانى جاء فيها أن الملك قام بتوطيد سلطانة فى أرض الإله وهو خطأ لأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثانى.

٦ـ فى عدد ٢/ ١٢ ص٩ العمود الثانى يقول إن تقرير مسئول حكومى اسمه «خنوم ـ حتب» عاش خلال الأسرة السادسة الفرعونية جاءنا على حجر بلرمو موجزا يقول «إنه زار بلوس وبونت» وهو غير صحيح لأن هذا

النص وارد فى مقبرة رجل يدعى خوى فى أسوان وليس على حجر بلرمو لأن هذا الحجر مدونة رسمية خاصة بالسلوك لابالأفراد هذه بعض الأخطاء التى اكتفى بها حتى تتسع مساحة أخبار الأدب لنشرها مؤجلا التصحيحات الأخرى إلى الأعداد القادمة.

فى الأسبوع الماضى، رد الدكتور عبدالمنعم عبد الحليم أستاذ التاريخ بجامعة الأسكندرية على الدكتور سيد القمنى بمقال عنوانه تصحيح للمعلومات الواردة فى مقالات الدكتور سيد القمنى، والخاصة بتحديد موقع بلاد بونت، وننشر المقال التالى للدكتور سيد القمنى ردا على الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم.

بلوغ الأرب
فى زصول اللياقة والأدب

بعدما ينوف على العشر سنوات من الجهد الكثف والمضنى ـ مع التفرغ الكامل ـ أوشكت على الانتهاء من تدبيج كتابى المعنون «النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة»، وقد أضطرنى هذا العمل إلى سفرات شتى سعيت خلالها أدقق وأنقب وراء كل مايتصل بموضوعى، وكان أشدها قسوة سفرى فى ظروف صحية صعبة إلى بوادى سيناء ثم بوادى الشام ثم أقصى شمالى العراق ثم الأردن، حتى تمكنت من إنجاز أكثر من ثلاثين فصلا.

نشرنا منها فقط فصلا واحد صغيرا بأخبار الأدب استغرق نشره ست حلقات اشتملت كل حلقة على صفحتين من تلك الصحيفة، وهو فصل من الجزء الثانى لكتاب يكون من ثلاثة أجزاء، وهكذا يرى قارئى أن تلك الصفحات المنشورة لاتعبر إطلاقا عن كتاب بهذا الحجم، يضيف كل فصل فيه قرائن وشواهد وأدلة تدعم أركانه التأسيسية.

وبين هذه الأركان جاء فرضا أن بلاد بونت المذكورة بالوثائق المصرية القديمة تقع على امتداد وادى عربة وجبال سراة سعير بين خليج العقبة جنوبيا والبحر الميت شمالا، وعندما وصلنا إلى الفروض التأسيسية لعملنا، وجمعنا لها المادة الوثائقية اللازمة والقرائن والشواهد الهائلة كما وكيفا وضمنها فرض بلاد بونت، بدأنا الكتابة ونحن نعلم حجم ردود الفعل التى سيلقاها عملنا هذا، وهو أمر اعتدنا عليه لأننا نخوض دوما فى مناطق ملغومة وخلافية، وقد توقعنا مع عملنا هذا تحديدا أننا سنتعرض لهجمات شرسة سواء من أصحاب العقائد الثابتة الجامدة، أو من أصحاب الأيديولجيات عموما، ثم من رجال التاريخ التقليديين خصوصا، هذا ناهيك عن كون أى بحث فى فلسفة التاريخ أو فى علوم التاريخ الاجتماعى أو التاريخ الدينى عادة ما تستفز ثائرة المؤرخ التقليدى الذى يرى هؤلاء ـ رغم

رسوخ أقدامهم ـ دخلاء على ميدانه، وهو الأمر الذى تعرض له فى بلادنا أكثر من باحث مثل كمال الصليبى وفراس السواح ومحمد البهبيتى، أوما تعرض له فى غير بلادنا سيجموند فرويد وجيمس فريزر وفليكوفسكى وغيرهم كثير، لكن لوحاذر هؤلاء مثل تلك المواقف السلفية المتوقعة لما حظينا بالثراء الذى أضافوه إلى ثروتنا المعرفية والمنهجية.

وأن مثل تلك العلوم التى تعمل معتمدة على المادة التاريخية ليست أبدا تأريخا بالمعنى الدقيق للكلمة، فالباحث فيها تختلف مهمته ومنهجه، اختلافا بينا عن المؤرخ، حيث يعتمد على الوثائق التى يقدمها له المؤرخ والمادة العلمية الضرورية، التى يعمل فيها مناهجه ـ وأدواته للوصول إلى مايبغيه من إعادة ترتيب تلك المادة أو تحليلها ثم إعادة تركيبها أو الاستنتاج منها أو الأستفادة بها فى كشوف جديدة.

لكن ماأن نشرنا هذا الفصل منزوعا من سياقه، والذى لاتعبر مادته وقرائنه عن مجموع ما حشد فى فصوله من دلائل وقرائن وبراهين سوى بنسبة واحد إلى ثلاثين أو أقل من ذلك، طالعنا الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم بالرد على أطروحتنا جميعها وبرمتها عبر هذا الفصل دون أن يتمهل حتى يقرأ العمل كاملا، ويبدو أنه لم يلتفت إلى الإشارات المتكررة بالصحيفة إلى أن ماينشر نماذج من الكتاب، وجاء ذلك الرد فى عدد أخبار الأدب بتاريخ ١٢/ ١/ ٩٧.

ورغم عتابنا على تسرع الدكتور فإنه قد ساق رده بنبرة هادئة ليبلغ أربه بلباقة ورصانة، وهو الأر الذى يحتاج فى التعامل معه إلى قدر من اللياقة والأدب لنبلغ بدورنا الأرب.

والطريف أنى توقعت رد الدكتور عبدالحليم بوجه خاص لأنى أعلم أنى قد خضت فى منطقة عزيزة عليه، وأنه صاحب نظرية فيها قد أعلنت خلافى معها، وأنه قد كرس لها من وقته وعلمه، كما كرسنا وبحثنا فجاء عشقنا واحدا، ولأنى كنت أعلم أن ذلك سيزعجه فقد توقعت رده كأول رد وهو ماحدث بالفعل، لكنه حدث مبكرا ومبكرا أكثر من اللازم.

نحن نعلم بعد قراءتنا له فى بحثه عن بلاد بونت أنه قد سافر كما سفرنا، وكما اجتزنا فيافى وقفار ندقق الخط الذى رأيناه صوابا، سافر هوايا ليدقق خطأ آخر رآه هو الصواب، لكنه وإن أصر على التمسك برأيه كحقيقة نهائية فإننا من جانبنا نؤكد «للسيد الدكتور ولقارئنا الذى نحترمه ونترم وقفته لمطالعنا أننا قدمنا فروضا جمعنا لها الوثائق التاريخية التى أنكرها علينا وقصر جهدنا عند البحث اللغوى»، إننا أبدا لانقطع بصدق كل

فروضنا المطلق، ففى علوم البحث فى التاريخ ليس هناك مجال للقطع واليقين، بل إن مثل ذلك القطع يخرجنا فورا من دائرة العلم إلى دائرة من يعتقدون أنهم يمتلكون الحقيقة النهائية والمطلقة.

لقد قرأت مادقدمه الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم بشأن بلاد بونت، كما قرأت ماقدم آخرون، حتى كدت أحفظ التعابير والأساليب، وأعرف تفاصيلها كما أعرف كف يدى، وقد اختلف هؤلاء اختلافا هائلا ومتباعدا بل ومتنافرا وكلهم أصحاب أسماء ذات سمت عظيم فى علم التاريخ، ولاأظن أحدهم قد قطع فى قوله أو أظن أنه قد وضع القول النهائى والفصل فى هذا الأمر، فهو ماأعتقدنا رجل علم رصين نترفع به عن مثل ذلك، وحاشانا أن نعتقد به ذلك.

وتأكيدا على أن هناك لم يأخذ نظريته مأخذ النظرية القانون والنهائية،إنه بالأمس فقد ١٢/ ١/ ٩٧ وصلتنى مكالمة تليفونية من صديق مهتم بسلطنة عمان يلفت نظرى إلى أستاذ بجامعة السلطان قابوس هو الدكتور عاطف عوض وهو فيما علمنا رجل علم متمكن ورصين، وأنه قد وضع فرضا مخالفا تماما لكلينا لموضع بلاد بونت، حيث افترض أنها بلاد الساحل العمانى، حتى أن السلطنة قد رأت فى كشفه أمرا يستحق الاحتفاء به، فتم تحديد زمن افتراضى لوصول سفن الفرعونة حتشبسوت، وأقيم بهذه المناسبة احتفال شعبى كرنفالى تمثيلى يمثل وصول البعثة المصرية إلى بلاد عمان التى افترض الدكتور عوض أنها بلاد بونت، وهكذا يرى الدكتور عبدالحليم أن المساحة لازالت وستظل مفتوحة لكل من يمكنه أن يدلى فيها بفروضه وأسانيده، بغض النظر عما قدم الدكتور عبدالحليم، أو ماقدم شخصى المتواضع، وأنه سيتكبد مشقة عظيمة إذا قرر أن يقضى عمره فى تخطىء كل من يقول بشأن بونت قولا مخالفا لنظريته، ومن جانبنا نعود فنؤكد أننا سنخطىء كل من يقول بشأن بونت قولا مخالفا لنظريته، ومن جانبنا نعود فنؤكد أننا سنخطىء هنا أو هناك وسط هذا الرتل الهائل من المادة العملية المتناقضة، وعلى يقين أننا سنرتكب زلة صغيرة هنا أو كبيرة هناك، وأنه طالما استمر دأبنا مناوشة المناطق الصعبة فسنظل نخطىء وجل من لايخطىء ياسيدى الدكتور.

ثم نقف الآن مع الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم وهو يعدد لنا مازعم أنه أخطاء تاريخية وقعنا فيها، لنتسائل قبل ذلك: متى يمكن وصف معلومة يسوقها كاتب بأنها خاطئة؟ أظن ذلك يمكن فى أحد ثلاث حالات: الأولى أن يكون الكاتب قد فهم المعلومة خطأ وقد فهمه وليس المعلومة باعتباره الصواب، وهو مالم يحدث معنا، والثانية أن يكون هذا الخطأ من ابتداعه

الشخصى وهو أيضا مالم يحدث معنا، والثالثة أن يكون الكاتب قد افتأت على الحقيقة ولوى عنق المعلومة لصالح رؤيته ولتوافق هواه، وهو أيضا مالم يحدث معنا، فماذا حدث معنا؟.

إن كل ماأشار إليه الدكتور عبدالحليم ووصفه بالخطأ، موثق لدينا ويعتمد على مصادر أصلية تمت بالإشارة إليها فى مواضعها، بنصها هو هو كما جاء فى مظانه المصدرية، وهو مصادر دبجت بأقلام علماء أجلاء هم مصادرنا جميعا التى نتواضع أمامها احتراما، وفى الفصل المنشور كانت مراجعنا تعود لأسماء جليلة القدر هى : جاردنر، مارييت، كيتشن، وليم لانجر وفريقه البحثى، كرال كاسيدوفسكى، زيته، طه باقر، جارستانج، هاريس زاليج، سليم حسن، أحمد بدوى.. فإذا لم نلجأ فى استقاء المعلومة الصحيحة إلى أصحاب تلك الأسماء فمن نلجأ؟ وإذا كان هؤلاء يقدمون لنا معلومات تاريخية خاطئة فماذا يبقى لدينا من حقائق فى علم االتاريخ القديم؟.

والآن نقف تفصيلا مع ماقدمه السيد الدكتور من أخطاء معلوماتية رآها فى ذلك الفصل المنشور، فهو ينعى علينا عدم الإشارة إلى نص يتعلق ببلاد بونت يقول إنه عندما تسقط عليها الأمطار تفيض مياه النيل، أولا فى هذه الحالة لن تكون بونت هى الساحل الصومالى حسب نظريته إذا أخذنا النص بظاهره، وثانيا لم يكن المصرى القديم على علم بمنابع النيل وكيف يفيض ووضعت فى ذلك تصورات أسطورية عديدة لامجال هنا لسردها، فهو مرة دموع أحد الآلهة، ومرة نهرا ينبع من جبال السماء أو تحت الأرض، وقد ظلت تلك التصورات الأسطورية حتى عهد قريب حديث منسوب لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم «إن أهم أنهار المنطقة وضمنها النيل تنبع من السماء من تحت عرش الرحمن» حيث لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد، وإذا كانت تلك حجة تتضع بونت جنوبا فكيف يفسر السيد الدكتور تكرار المصرى القديم أن بونت تقع فى الشرق حيث تطلع الشمس؟.

ثم يبدأ سيادته بالترقيم تعديدا للأخطاء المعلوماتية من وجهة نظره، فيقول إننا قلنا إن الاسم النبطى لعاصمة الأنباط هو البتراء وصححه بأنه «قمو» الذى تحور فى العربية إلى «الرقيم» وورد فى سورة الكهف، والصحيح أننا أبدا لم نقل أن البتراء هو الاسم النبطى إنما قلنا إنه الإسم الذى عرف به الرومان تلك المدينة زمن الأنباط بمعنى الصخرة أو الصخرية، ثم إننا نعلم ياسدى أن اسمها كان «الرقيم» لكنا أجلناه لموضعه من البحث حيث سيؤدى فى مكانه دورا فى تأكيد مذهبنا، ولابأس إن ذكرنا لك هنا طرفا منه حتى تعلم أننا نعلم.

نقول فى الفصل الثالث والعشرين «حسب الترتيب الحالى» وفى ص٦ من مخطوط الفصل: «ويظهر لنا عند العرب اسم غريب هو الرقيم ظهر قبلهم عند المؤرخ يوسفيوس اليهودى، وقد رجح الباحثون أنه التسمية لمدينة البتراء أو مدينة الحجر أو لكليهما ـ تقع منطقة الحجر شمال غربى السعودى الآن ـ وقد أورد إحسان عباس رأيا يقول:

إن الرقيم هى المدينة التى وردت فى المصادر الصينية باسم «لى ـ قن» من «رى ـ قم».. كذلك ورد اسم الرقيم فى رسالة سريانية تحدثت عن زلزال قد دمر البتراء عام ٣٦٣ ميلادية.. «إلى آخره، وهكذا تعلم ياسيدى أن فى جعبتنا الكثير الذى عن الرقيم وغير الرقيم مما قام بدوره فى مكانه من بحثنا، فقط هى العجالة والتسرع ياأخى الكريم.

ثم يقول الأستاذ الدكتور إن كلمة «بيا ـ بونت» قد لازمتها العلامة الهيروغليفية الدالة على البلاد الأجنبية، وهو عكس ماقلنا، فما قلناه إن كلمة بونت وليس «بيا ـ بونت» قد وردت بدون تلك العلامة، ولم نقل منجم بونت حتى لانريك القارىء وسط رتل المعلومات الهائل.

ثم يقدم الدكتور الخطأ الثالث فى قولنا أن الملك ألبونتى كان يحمل لقب عظيم عظماء إرم، وهنا نحيله إلى واحد من مصادرنا بهذا الشأن كمثال واحد وهو سليم حسن فى الجزء الرابع من كتابه الموسوعى مصر القديمة طبعة هيئة الكتاب ص٣٢١ حيث يقول:

«.. السياحة إلى الوطن والوصول بسلام:

إن السياحة إلى طيبة قد قام بقلب فرح جنوب رب الأرضين ورؤساء هذه الأرض بونت وخلفهم، وقد أحضروا معهم أشياء لم يحضرها أى ملك من قبل، ويلى هذا مشاهدة رئيس إم وإلم رئيسى تيمو وهما قبيلتان غير معروفتين لنا من بلاد بونت يتبعهما رجالهما، وكلهم ركعوا أمام حتشبسوت مقدمين الهدايا».

ثم يقول الدكتور عبدالحليم أننا أخطأنا بشأن تزمين حملة القائد «حنو» حيث قلنا إنها حدثت زمن الفرعون أمنمحات الأول، بينما هى قد حدثت زمن الفرعون سعنخ كارع، وقد ورد ذلك سهوا حيث يأتى ترتيب أمنمحات الأول فى قوائم الملوك مباشرة بعد سعنخ كارع، ويمكن للعين أن تقرأ سطرا أعلى أو أسفل، لكنه على أية حال خطأ يجب استدراكه، لكن ألا يرى السيد الدكتور أن ذلك لاعلاقة له على الإطلاق بموضوعنا ولايشغله ولايؤثر فيه ولاعلى استنتاجتنا ولاعلى الأقيسة ولاعلى المنهج ولا على مادته الفعالة ولاتترتب عليه أية نتائج إطلاقا، وهل سعى السيد الدكتور لتصيد زلات

لاتؤثر من قريب أو من بعيد على الموضوع، للتأثير على قارئ غير متخص تشكيكا فى كاتبه؟.

ثم يخطئنا للمرة الخامسة فى قولنا بلوحة نصر تخض الملك «أمنمس الثانى/ أمنمحات» جاء فيها أنه قام بتوطيد سلطانه فى بلاد بونت أرض الإله ويصححنا بأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثانى، فهلا رجع السد الدكتور إلى العلامة جاردنر فى كتابه مصر الفراعنة، الذى ترجمه رجلا لايقل جلالا هو الدكتور نجيب ميخائيل وطبعته هيئة الكتاب ص١٥٨ ـ ١٥٩ ليقرأ معنا جاردنر إذ يقول: «وصلت إلينا لوحة ترجع إلى ترجع إلى العام الثامن والعشرين من حكم أمنمس الثانى تسجل قيام هذه البعثة.. ومعها الكلمات يوطد آثاره ـ أى الملك ـ فى أرض الإله».

ثم يخطئنا للمرة السادسة فى معلومة مصادرها لاتقل جلالا فهى تعود إلى العلامة زيتة والعلامة برستد حول الموظف المصرى الذى سافر إلى بيبلوس وبونت، والمقصود هنا اقتران الموضعين ببعضهما لإثبات أن بونت تشقع شرقالاجنوبا، وأن المعلومة ياسيدى سواء كانت من مقبرة خوى أو أى مقبرة أخرى أو حجر باليرمو أو أى حجر كان لاعلاقة لها بالعمل وسياقه وأهدافه، فهل جلس الأستاذ الدكتور يتصيد فقط لمجد التشكيك؟

نحن ياسيدى حتى الآن لم نخطىء، فموضوعنا كما ترى موثق، أما الحقائق والمادة التاريخية فليست من شأننا ولها أربابها وعنهم ننقل وبهم نقرأ وعليهم المعتمد.. ومهمتنا أبدا ليست تدقيق معلومة يعطيها لنا علماء مثل جاردنر أو زيتة أو مارييت أو سليم حسن مهمتنا هى البحث وإعادة التصنيف ثم المقارنة فالتحليل والتركيب، ثم فرض الفروض واختبارها وجمع الأدلة عليها ثم الاستنتاج، أما المعلومات سواء كانت خطأ أم صوابا فهى ذلك المعطى الجاهز لنا من أهل التاريخ وأنت أحدهم ياصديقى.

وختاما أقول للسيد الدكتور أنى أحترم وقفته معى لمراجعتى ولاأظنه قد فعل ذلك تعصبا لنظريته وتشكيكا فيما ذهبت أنا إليه فأنا أربأ به عن ذلك كما أعلم أن فرضه لبلاد بونت بالصومال عزيز عليه فهو محل اهتمامه فى رسالة الماجستير ومجمل أبحاثه بعد ذلك، لقد قال رأيه ونظريته وأدلته على وقوع بونت على الساحل الصومالى، كذلك قلنا رأينا وأدلتنا على وقوعها عند العقبة، وللقارئ فى النهاية موقفه الخاص الذى سيختاره، لكنى أعلم أنك قد أضفت إلى قرائى رصيدا من قرائك الذين سيثرون مساحتى، لأنهم ـ لاشك ـ قد تعلموا منك المنهج العلمى، وعرفوا منك كيف يختلفون وكيف يتحاورون.

وبعـدمـا ثبت الآن يـاأخى خطؤك فـى تخطىءنان نقـول لك.. هـذا بعض هادىء من فـيض، ورذاذ لطيفـ من غـيث، وقـطر كظيـم من سيل، فإن عـدتم عدنا وسـاعتها لانعـدك أبدا بالإصرار على فضيلة بلوغ الأرب، وتمهل ياأخى فإن العـجلة النـدامـة، وتأنى ففى التـأنى حفـاظ على هيبـة المنصب الرفيع، واخـفـض من صـوتك وتـواضـع فى قـولك، وراجع مـصـادرنا قـبل أن نقـول، ولاتسـتـفـز ثائرتنـا يرحـمكم الله فـأنت البـادى.. اللهم إنـى قـد بلغت اللهم فاشهد.

معارك فكرية

د. سيد القمنى والنبى موسى

رد على رد
البحث يعتمد الوثائق وليس البلاغة والإنشاء!

د. عبدالمنعم عبدالحليم
أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية
بكلية الأداب جامعة الاسكندرية

فى العدد يوم ١٢/ ١/ ١٩٩٧ ص٦ من أخبار الأدب نشرت الجزء الأول من هذه التصحيحات وقد نشر الدكتور سيد القمنى ردا على ماورد فيه فى العدد الصادر يوم ١٩/ ١/ ١٩٩٧ ص١٤ - ١٥، وأننى أهنىء الدكتور سيد القمنى على أسلوبه الأدبى الإنشائى الرفيع فى رده على تصحيحاتى لأخطاء مقالاته عن بونت ولكن المجال فى هذه المعلومات لايعتمد على البلاغة والإنشاء بقدر مايعتمد على الوثائق والأسانيد التاريخية والأثرية.

ولكن قبل أن أبدأ فى هذا الجزء الثانى من التصحيح، أعتب على الدكتور سيد القمنى قوله أنه توقع التعرض لهجمات شرسة من رجال التاريخ التقليديين خصوصا أن أى بحث فى فلسفة التاريخ أو علوم التاريخ الاجتماعى «حسب قوله» عادة مايستفز ثائرة المؤرخ التقليدى ويستشهد الدكتور سيبد القمنى على ذلك بكتاب كمال الصليبى الذى تعرض لهذه الهجمات الشرسة «حسب قوله».

وإننى أقول للدكتور سيد القمنى، هناك فرق كبير بين أن يقدم أى باحث مجدد رأيا جديدا يعتمد على الوثائق التاريخية والأثرية فهذا لاشك مما يرحب به كل مؤرخ سواء كان تقليديا أم مجددا، وبين طالب الشهرة بالزائفة يلجأ إلى تحريف المسميات والمعلومات لتوافق هواه متجاهلا الوثائق والأسانيد التاريخية والأثرية، وهذا مافعله كمال الصليبى عندما حرف أسماء كل من المواقع الفلسطينية المذكورة فى العهد القديم والأسماء

الحالية للمدن والقبائل والقرى فى مطنقة عسير بالمملكة العربية السعودية لكى توافق هواه فى إثبات أن أرض الميعاد عند بنى إسرائيل ليست فلسطين كما هو معروف بل منطقة عسير فى المملكة السعربية السعودية، وأصدر فى ذلك كتابين باللغتين العربية والإنجليزية عنوان النسخة العربية هو «التوراة جاءت من جزيرة العرب» وقد سبق أن نشرت نقدا لهذا الكتاب نشر فى إحدى الدوريات العربية وأعدت نشره فى كتابى «البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة» ص٤٨٥ ومابعدها أوضحت فيه مدى إسراف كمال الصليبى فى هذا التحريف إلى درجة قلب المعلومات الثابتة التاريخية والأثرية رأسا على عقب وإعطائها مضمونا يخالف تماما ماتتضمنه هذه الوثائق.

أبدأ الآن فى الجزء الثانى من التصحيح لمقالات الدكتور سيد القمنى بالإشارة إلى الاتجاه العام للدكتور القمنى فى مقالاته كلها وهو أنه جعل من منطقة أدوم «التى يسميها «آدم») الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من خليج العقبة والتى قامت فيها دولة الأنباط بعاصمتها البتراء، جعل منها موطنا لشعوب ودول ثبت بالوثائق التاريخية والأثرية منذ نشأة علوم الآثار المصرية والعراقية فى القرنن الماضى وترجحه آلاف النصوص الهيروغليفية والسماوية، إنها كانت تعيش فى مناطق بعيدة كل البعد عن منطقة أدوم هذه وفيها دولة «ميتانى» التى قامت فى شمال سوريا والعراق وشعب الحوريين الذى كان يسكن شمال العراق أيضا فضلا عن منطقة بونت التى كانت منطقة أفريقية.

وهكذا سحب الدكتور القمنى هذه الدول والشعوب من أقصى الشمال ومن أقصى الجنوب ليجمعها كلها فى منطقة واحدة هى منطقة أدوم موطن دولة الأقباط.

وفى سبيل إثبات رأيه هذا لجأ الدكتور القمنى إلى وسيلة الاعتماد على التشابه اللفظى بين المسميات الجغرافية والتاريخية دون أى اعتبار للوثائق التاريخية والأثرية، وأسوق مثلا صارخا لذلك، فلكى يثبت الدكتور القمنى أن بونت هى منطقة البتراء وماحولها «بلاد أدوم» اعتبر التسمية «قصر البنت» (التى حورها إلى قصر «بنت») والتى يطلقها عرب المنطقة الحاليون على أحد المبانى الضخمة فى البتراء، أعتبر هذه التسمية بقية من الإسم القديم «بونت» (عدد يوم ١٥/ ١٢/ ٩٦ ص ٢٩ عمود ٢) رغم أن هذه التسمية عربية مائة فى المائة لما هو ظاهر وأصلها «قصر بنت فرعون» وقد أطلقها عرب المنطقة على هذا البناء الضخم «وهو معبد نبطى خلافا لما يقوله الدكتور القمنى عنه بأنه كان مركزا للحكم والإدارة» شأن كل عرب

الجزيرة العربية عندما يشاهدون بناء ضخما فينسبونه إلى الفراعنة، ومثال ذلك معبد آخر مجاور لمعبد قصر بنت فرعون هذا به عمود ضخم قائم أطلق عليه عرب المنطقة «عمود فرعون»، وهكذا انزلق الدكتور القمنى فى غمار حماسه لرأيه إلى الوقوع فى المحظور، إذا لاعلاقة بطبيعة الحل بين الكلمة العربية «بنت»، (بمعنى أبنة فى عبارة قصر البنت وبين الكلمة المصرية القديمة «بونت»)، ومن هذه الأمثلة الصارخة أيضا أنه حرف التسمية «ميتانى» التى كانت تطلق فى النصوص االهيروغليفية والنصوص المسمارية على الدولة التى قامت فى شمال سوريا والعراق كما ذكرنا، حرفها إلى «مديان» و«مدين» (عدد يوم ٢٩/ ١٢ س٢٨ العمود الأول) قائلا إن بلاد ميتانى هذه تمركزت فى بلاد سعير ووادى عربة وسميت بالصخرة من طبيعتها الصخرية وأنها بلاد بونت فإن بونت تعنى الصخرة «نفس الوضع من نفس العدد من المجلة» أما أن ميتانى هى نفسها «مدين» فرأى فيه الكثير من الشطط لأن ميتانى هذه تردد اسمها فى نصوص الملك تحتمس الثالث وخلفائه باسم «متن» فى سياق حروبه شمال الشام ودخل ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى مصاهرات مع ملوكها وورد اسمها كثيرا فى الصور المسمارية بما لايدع مجالاً للشك بأن موقعها كان فى شمال سوريا والعراق.

أما أن اسم بونت يعنى «الصخرة» فلاأعرف من أى مصدر استقى الدكتور سيد القمنى هذا التفسير فلاتوجد كلمة فى اللغة المصرية القديمة بالنطق «بونت» أو مايشبهه تعنى الصخرة أو الحجر والحقيقة أن هناك تفسيرين لأصل كلمة «بونت» أولهما: أنها تعنى «القاع المحصنة» وقد أوضحت سبب هذه التسمية فى كتابى عن البحر الأحمر وثانيهما: أن كلمة بونت ليست مصرية بل إفريقية استعارها المصريون واستخدموها للدلالة على بلاد البخور ومازالت توجد حتى اليوم كلمة تشبهها فى اللغة السواحلية «لغة سكان سواحل الصومال وتنزانيا» هى كلمة «بوانى» Pwani، وعنى السواحل الأفريقية للحصول على البخور يسمعون هذه الكلمة من سكان هذه السواحل فاستخدموها بعد تحويلها إلى النطق المصرى كعلم على بلاد البخور.

وقد تقلص مدلول هذه الكلمة الأفريقية على مر العصور نتيجة انتشار اللغات الأخرى كااللغة العربية فى المناطق السودانية والأريترية حتى انحصر فى اللغة السواحلية، ومازالت توجد حتى اليوم على ساحل الصومال الشرقى أسماء تشبه كلمة «بوانى» هذه مثل كلمة «بنة» فى التسمية «رأس بنه» التى تقع إلى الجنوب من رأس جرد نوى، وكان الكاتب اليونان والرمان يسمونها Panon «بانون».

نأتى إلى تحريف لفظى آخر «غير بونت» للدكتور القمنى هو تحريف كلمة «مجدو»، فقد نقل الدكتور القمنى موقع هذه المدينة من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم «عدد يوم ٢٢/ ١٢ ص٢٨ العمود الأول» بنفس طريقته فى تركيز المسيات القديمة فى هذه المنطقة، والمعروف أن مجدو هم الأسم العبرانى للكلمة المصرية القديمة «مكتى»، وكانت هذه المدينة هدفا لحملة حربية للفرعون تحتمس الثالث وقد استولى عليها بحيلة حربية بأن سلك زقصر وأضيق الطرق إليها ففاجأ العدو وانتصر عليه وقد نقل الدكتور القمنى هذا الطريق أيضا إلى الطريق المسمى «السيق» الذى يؤدى إلى البتراء واعتبره الطريق الذى سار فيه تحتمس الثالث، ومن المدن التى استولى عليها تحتمس الثالث والتى كانت تقع فى الطريق إلى مجدو مدينة أطلقت عليها النصوص المصرية الإسم «عارونا» فاعتبر اللدكتور القمنى أن «عارونا» هذه هى جبل هارون «فى محيط البتراء»، كل هذا التخريج أقدم عليه الدكتور القمنى متجاهلا تماما الوثائق المصرية القديمة التى من عهد الملك تحتمس الثالث وخلفائه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة والتى يشير إلى تسلسل المدن من الجنوب إلى الشمال فى سجلات هذا الملك، بما لايدع مجال للشك أن مجدو كانت تقع فى شمال فلسطين «فى مكان مدينة تل المتسلم الحالية» بل إن موقع هذه المدينة فى شمال فلسطين ثابت أيضا من تسلسل المدن التى دون أسماءها الملك شيشنق الأول «بعد عصر تحتمس الثالث بحوالى خمسمائة سنة» على جدران معبد آمون بالكرنك ضمن أخبار حملته على فلسطين والتى درس تسلسلها بالتفصيل علماء الآثار المصرية وآخرهم العالم «كينيث كتشن Kitchen»

الذى نشر الخرائط التوضيحية لها ولغيرها من المدن التى غزاها شيشنق، ومن الواضح أن الدكتور القمنى لم يطلع على هذا الكتاب.. وهناك دليل حاسم على أن «مجدو» التى كانت مجالا لنشاط شيشنق الأول الحربى تقع فى تلم المتسلم بشمال فلسطين هو العثور فيها على بقايا لوحة من الحجر عليها اسم الملك شيشنق الأول بالإضافة إلى نقل موقع مدينة مجدو من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم فإن اسم هذه المدينة لم يسلم من تحريفه، فقد اعتبر الدكتور القمنى نطق الكلمة التى أطلق عليها «موقيده» والتى وردت فى نصوص الملك رمسيس الثالث، ينطبق على نطق كلمة مجدو «عدد يوم ٢٢/ ١٢ ص٢٩ العمود الثانى» رغم أن «موقيده» (وصحة الكلمة مو - قدى» هذه معناها «المياه المعكوسة» وقد أطلقها المصريون فى أول الأمر على نهر الفرات لأنه يجرى من الشمال إلى الجنوب عكس إتجاه مياه النيل ثم أطلقوها على كل مسطح مائى تجرى تياراته من الشمال إلى الجنوب،

ومن هنا أطلقوه على البحر الأحمر فى نصوص الملك رمسيس الثالث التى تسجل عودة إحدى بعثاته من بلاد بونت لأن مياهه تتجه تياراتها من الرياح السائدة من الشمال إلى الجنوب عكس إتجاه مياه النيل، رغم أن النصوص التى تسجل عودة بعثة الملك رمسيس الثالث من بونت واضح فيها تماما أن سفن هذه البعثة رست على ساحل الصحراء الشرقية «التى جاءت بها هذه البعثة نقلت بالبر من ساحل البحر الأحمر إلى النيل عند قفط إلا أن الدكتور القمنى يأخذ هذه البعثة أيضا إلى خليج العقبة ويجعلها ترسو بسفنها على ساحل هذا الخليج حيث بلاد أدوم التى جعلها مقر لكل المسميات لما ذكرنا.

ومن المؤسف أن الدكتور القمنى يستشهد فى تحريفه لكلمة «مجدو» ؤلى «موقيدة» بتحريف كمال الصليبى للإسم «مجدو» إلى «مقدى» وقد لجأ مال الصليبى إلى ذلك التحريف لكى ينطبق على اسم بلدة فى منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية تدعى المقدة تمشيا مع اتجاهه فى كتابه المسمى «التوراة جاءت من جزيرة العرب» بالإدعاء بأن أرض الميعاد عند اليهود ليست فلسطين بل منطقة عسير فى المملكة السعودية كما سبق أن ذكرنا.

وحتى مصر، لم تسلم من مشروعات الدكتور القمنى فى نقل الدول والشعوب القديمة إلى منطقة «أدوم» فقد نقل الدكتور القمنى حدودها الشرقية إلى هذه المنطقة «والحمد لله إنه لم ينقل مصر كلها» ففى تفسيره لكلمة «موصرى» الأسوزية «عدد يوم ٢٩/ ١٢ ص٢٩ عمود ٢» تقول إن كلمة مصر محورة من الكلمة المصرية، السور العظيم ماهو إلا سلسلة الجبال المتبعة «فى منطقة أدوم» قبل إطلاقها على مصر نفسها فهو خطأ أيضا لأن هذه التسمية وهى بالضبط «مصرى» وردت بالخط المسمارى كاسم هو كما يسمى خطابات تل العمارنة التى ترجع لعصر الملك أمنتحتب الثالث وابنه إخناتون «القرن الرابع عشر قبل الميلاد» وذلك قبل دورها فى سجلات الملك تجلات بلسر الثالث «وقد ذكره الدكتور القمنى خطأ «تجلات بلسر الأول» (عمود ٢٩/ ١٢ ص٢٩ عمود ٢) كما يقول الدكتور القمنى بحوالى ستمائة عام وقد كتبها الأشوريون «مصرى» وكتبها البابليون «مصرو» وانتقلت إلى العرب بالنطق «مصر».

كذلك قلب الدكتور القمنى تسلسل المعلومات فى تسمية إيجبت وقبط فالثابت أن كلمة «قبط» العربية حورها العرب من الكلمة اليونانية Aegyptus (التى منها كلمة إيجيبت التى كتبها الدكتور القمنى» وليس العكس كما يقول الدكتور القمنى وهذا أمر بديهى لأن اليونان أسبق من العرب فى الاتصال

بمصر وبالمثل لاعلاقة لكلمة «قبط» (كعلم على الشعب القبطى) باسم مدينة «قفط» فهذه الكلمة الأخيرة مصرية الأصل وردت فى النصوص الهيروغليفية بالنطق «جبتو» و«جبت» تحورت فى اللغة القبطية إلى Keft «كفت» ثم نطقها العرب «قفط».

وإننى أكتفى بهذا القدر من تصحيح أخطاء الدكتور القمنى حتى تتسع مساحة أخبار الأدب لنشرها مؤجلا التصحيحات الأخرى للعدد القادم.

الهوامش:

١. Gauthier, H.Dictionnaire des noms Geogra phiques Contnus dans Les Textes hierogiypues (1975) 3p. 318.

٢. Prichard t, Amcient mear Eesterm Texts (1969) P3. 188.

٣. عبدالمنعم عبدالحليم سيد، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة «١٩٩٣» ص١٩.

٤. Perrot D.swahili - English dictonary (1973) 4p.62.

٥ـ Bveasted, Ancient records tl 409 6. K. the third intermediate peyiod in Egypt, (1986) p.296 - 299.

٦. وانظر ايضا، عبدالمنعم عبدالحليم، البحر الأحمر ص٥١٠.

٧. عبدالمنعم عبدالحليم نفس المصدر شكل «٥» ص٥٠٧.

٨. نفنس المصدر السابق ص٢٢٠.

٩. المصدر السابق ص٥٠٩.

معارك فكرية

د. سيد القمنى

فصل المقال فيما بين العقبة والصومال

بالأمس ٢٣/ ١/ ١٩٩٧ أحاطتنى هيئة تحرير أخبار الأدب تليفونيا علما بوصول تعقيب جديد من الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم على الفصل الذى نشرناه من كتابنا «النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة» من بين ستة وثلاثين فصلا من مجموع ماتم إنجازه حتى الآن فى ثلاثة أجزاء، ولما يكتمل العمل بعد، وقد سبق ونبهنا الدكتور عبدالمنعم إلى الخطأ العلمى الذى يرتكبه بإصدار الأحكام على العمل من خلال فصل واحد لم يرصد سوى قرائن تعادل نسبة واحد إلى ثلاثين أو يزيد وجهة نظرنا، لكن السيد الدكتور أصر على الاستمرار فى هجومه غير الموفق بتهور غير محمود وافتعال معركة لاتليق برجل علم، ومن ثم عاد يزعجنا بطبوله الصومالية ويثير الغبار والضوضاء، ومن هنا رأيتنى بغير حاجة إلى الإطلاع على هذا التعقيب الجديد، ورأيت من الأوفق التركيز على مفصل النزاع دون التهويم فى التجريحات والطواف حول الفروع دون الأصول.

وقد سبق ونبهت فى تعقيبى فى ردى الذى نشرته بأخبار الأدب فى ١٩/ ١/ ٩٧ إلى خطأ التعامل مع فصل منزوع من سياقه، كما نصحته وماكان يشغلنا قبل ذلك فى كثير أو قليل بالتريث، ثم ألمحت بصرامة أننا هذه المرة سنقول ماتكتمنا عليه وغضضنا عنه الطرف، لأننا بقدر حساسية موقفه أمام طلبته بالذات، وأوعزنا إليه بعدم ركوب مغامرة غير محسوبة، لكن ليشهد قارئى أنه هو الذى دفعنا دفعا إلى قول ماسنقول ونحن فى غاية الأسف لنشره على ملأ، وإعمالا لذلك سنركز على الخلاف التأسيسى حيث ذهب السيد الدكتور إلى أن بلاد بونت المذكورة فى الوثائق المصرية القديمة، تقع على الساحل الصومالى، بينما ذهبنا نحن إلى أنها تقع عند رأس خليج العقبة مع امتداده بطول وادى عربة شرقى سيناء.

ويبقى بأيدينا عملنا فى كتابنا وعمله هو فى رسالتيه للماجستير والدكتوراه لنعمل فيها القول الفصل، تحسبا لهدر مزيد من الوقت بلا طائل، وسنكتفى بقولنا هنا ونترك بعد ذلك الحكم للقارئ مع وعد بالتوقف عن الرد مرة أخرى مهما قال السيد الدكتور الفاضل، وسنعمد هنان إلى مراجعة مذهب الدكتور فى رسالتيه عبر الملخص الذى نشره اختصارا للوقت وحسما للأمر، مع ترقيم الصفحات التى سنستشهد بها من ذلك الملخص.

وأو مايلفت نظر الباحث المتمرس أن صديقنا قد بدأ عمله وهو يضع نصب عينيه هدفا يريد إثباته، وهو أن بلاد بونت تقع تحديدا على الساحل الصومالى، ومعلوم أن ذلك يتجاوز أول شروط البحث العلمى وهو الموضوعية والحياد والنزاهة ويتضح ذلك من اعتماده على تفسير محدد لكلمة «عنتى» التى تشير إلى مواد التبخير التى جاءت بها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت، فأخذ برأى واحد يتيم فى تفسير الكلمة وردِ عند «لوكاس» عرضا فى كتاب إعمومى لايتحدث عن بونت تخصيصا، وعنوانه: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكى اسكندر ومحمد غنيم، وبالتحديد على إشارة عابرة بأسطر شاردة فى صفحة ١٥١، يرجح فيها لوكاس أن يكون هذا العنتى هو البخور الأبيض أو الكندر المعروف باللبان الذكر.. وقد اعتمد الدكتور عبدالحليم هذا الرأى وحده تحديدا دون غيره لأن اللبان الذكر.. ينمو على ساحل الصومال تحديدا وهو بغيته وهدفه.

ولمزيد من الدقة نسوق كلام الأستاذ الدكتور بنصه إذ يقول فى صفحات ٥٠ ، ٥١ مانصه: «إن أشجار البخور التى يجب البحث عنها على سواحل البحر الأحمر هى أشجار ذلك البخور الذى كان يعرف عند المصريين باسم عنتى..

ويقول لوكاس إنه البخور الأبيض المعروف حاليا باسم الكندر، وهو مايطلق عليه فيى اللغة.. الدارجة اللبان الذكر».

ومعلوم أن اللجوء إلى إستقاء معلومة شديدة التخصيص من كتاب فضفاض شديد التعميم، لايركز حديثه حول موضوع المادة المنتخبة للإدلاء بالشهادة، يوصف فى اللغة الأكاديمية بأنه مرجع غير محكم، وعلى هذه العبارة الشاردة فى مرجع غير محكم أقام السيدة الدكتور عمله برمته، وأسس هرما مقلوبا على رأس إبرة، فقرر بداية أن العنتى لابد أن يكون هو اللبان الذكر، ولأن اللبان الذكر هو الذى يتواجد على ساحل الصومال فلابد أن تكون الصومال هى بلاد بونت.

وعلى هذا الأساس الهش أقام الأستاذ الدكتور عمله جميعا رغم مخالفة ذلك لنتائج وتفاسير أخرى وصل إليها علماء أجلاء ركزوا عملهم على مقطع الأمر نفسه، وانتهوا إلى تعدد القول بشأن العنتى، فهو المر أو ربما كان هو الميعة أو ربما كان هو الصمغ العربى، فهو على الجملة مادة للتبخير غير محددة باللبان الدكر وحده، وهو مايتعرض له العالم الجليل جيمس هنرى برستد فى الجزء الثانى من كتابه التسجيلات المصرية القديمة وآخرون لايقلون شأنا لم يقفوا عند اللبان الدكر ينفخون فى ذواتهم، بل إن المصادر الأقرب تاريخيا من أصحاب المشاهدات العينية من مؤرخى العصر الكلاسيكى وذلك مثل بلينى فى تاريخه الطبيعى، وكذلك استرابون فى جغرافيته قد تحدثا عن ألوان متعددة فى مواد التبخير، لكن لأن الأستاذ الفاضل يريد ساحل الصومال سلفا وبالتحديد موطنا لبلاد بونت، فقد قرر الوقوف عند الكندر، وهو الأمر الذى أدى إلى متتالية من الأخطاء اضطرته فى مرات عديدة إلى الألتفاف غير الحميد على حقائق ضد مذهبه، وهو ماسندلل عليه الآن وفورا، بعد أن نصحناه فلم يصغ وقام يشهر أسلحته الرديئة فى وجهنا يريدها معركة، فله إذن ماأراد.

المنهج التلفيقى:

مع إصرار الدكتور عبدالحليم على أن العنتى هو الكندر تحديدا كان لابد أن ينتهى إلى نتيجة منطقية ضرورية تتأسس على هذه المقدمة، وهى أن الشجار الإحدى وثلاثين التبخيرية التى أحضرتها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت، وزرعتها أمام معبدها بالدير البحرى، هى بالتحديد أشجار الكندر وهو ماانتهى إلى القول به فى صفحة ٤٧ من موجز رسالتيه.

أما نحن فقد قلنا فى فصلنا المنشورة، وفى بقية كتابنا الذى جمعنا له مادة هائلة كما وكيفا عبر السنوات العشر الماضية، إن تلك الأشجار لابد أن تكون هى أشجار بيرسيا التى تنمو عند العقبة ووادى عربة، بقرائن وأدلة حاشدة، وهى الشجرة التى عرفها معجم أوكسفورد بأنها «سجرة بيرسيا المقدسة».

ولأن مثل تلك الخلافات تظل فى منطقة رجراجة على صورتها تلك مابين تأييد هذا الرأى أو ذاك، فإن الوسيلة الوحيدة للحسم لاتكون إلا بأثار أركيولوجى واضح بقطع فى الأمر، وهنا نستدعى شاهدا موثوقا هو نافيل مدعوما من الأركيولوجيست عالم المصريات الأشهر سليم حسن، ليدلى بشهادته فى الجزء الرابع من عمله الموسوعى مصر القديمة، طبعة هيئة الكتاب صفحة ٣٣٣ وصفحته ٣٣٤ لنسمعه يكتب تقريرا واضح المعالم

لايحتمل لبسا يقول فيه: «وتدل الكشوف الحديثة على أن الأشجار العطرية التى أتى بها من بلاد بونت قد غرست فعلا فى حفر نقرت فى الصخر أمام المعبد وملئت بالطين الخصيب، وقد عثر على هذه الحفر الحفارون المحدثون فى الردهة التى أمام المعبد وقد وجدوا أن بعضها لايزال محفوظا فيه جذوع الأشجار الجافة، غير أن هذه الأشجار ظهر أنها أشجار بيرسيا». فهل لم يزل هناك شك أو خلاف؟ وهل سيستمر السيد الدكتور عند ساحل الصومال يدق طبول الحرب علينا؟.

البونتى والفينيقى:

كان من بين أهم القرائن قدمناها للتدليل على وقوع بونت العقبة ووادى عربة بعاصمته المعروفة الآن بالبتراء، هو ماجمعناه من مادة تاريخية تؤكد أن بلاد بونت كانت تشتمل على عدد من العناصر البشرية المتحالفة، وأن تلك العناصر المتحالفة كانت تضم عنصرا جزيريا قادما من جنوب جزيرة العرب بصحبة عنصر زنجى قادم بمنتجاته التجارية من أفريقيا الشرقية، مع عنصر هنداورى قادم من تركيا وشمال العراق وبلاد الشام وهو العنصر الذى اشتمل على الأراميين والفينيقيين، ورأينا أن العنصر الأخير هو من وردت الإشارات التاريخية إليه بوصفه «الجنس الأحمر»، وأن أصحابه هم من أعطى البحر الأحمر اسمه من صفتهم فهو الأريترى أى الأحمر، وأن هؤلاء كانوا سادة تلك المملكة التجارية المتحالفة والذين حملوا اسم البونتيين على وجه التخصيص.

وقلنا إن المصريين قد أطلقوا على الطائر الخرافى الذى زعموا أنه يأتى مصر قادما من بلاد العرب عند وادى عربة هو «بنو» وهو الذى عرفه اليونان باسم «فوينكس»، وقد استخدم المصريون اسم هذا الطائر «بنو» للرشارة إلى الجماعات التى تأتى إلى مصر من الشرق عبر سيناء فهم البونتونيون أو الفينيقيون، وكان ذلك أحد أدلتنا ضمن أدلة أخرى عديدة على تخصيص تلك المنطقة العربية بأنها بلاد بونت.

وقد لاحظ السيد الدكتور تلك المشابهات، ولكنها لم تذهب به إلى العقبة، فليس كل من ركب الفرس خيال وليس القصد من ذلك المقارنة لأنه لامجال للمقارنة أصلا إنما القصد أن هو بيان لجوئه إلى التلفيق والمداورة الشديدة الهشاشة رغم تأكده من علاقة البونتيين بالفينيقيين، فاستمر فى إصراره على ساحل الصومال رغم أن الفينيقيين شرقى مصر فى آسيا وليسوا فى جنوبى مصر بالصومال، ومن هناك اختلط الأمر عليه فقام يقول: «وقد لاحظ الباحث (أى الدكتور عبدالمنعم) نفسه أن الاسم بنو هو

الأسم المصرى للطائر الخرافى المسمى فى الإغريقية فوينكس يطلق على المقاطعات المصرية الواقعة شرقى النيل، وبمقارنة هذا الاسم بالكلمة المصرية وبين معنى يشرق، رجح الباحث أن المصريين ربما أطلقوا الاسم «بنو» أو اسما مشتقا منه على الجماعات التى كانت تفد إلى مصر من المناطق الشرقية ومن بينهم البونتيون. «لاحظ كلامه الذى يؤكد كلامى».

وأنهم ربما أطلقوا هذا الاسم على سائر المناطق الواقعة إلى الشرق من مصر ومن بينها بلاد العرب.. وبالنسبة للتشابه الملفت للنظر بين نشاط البونتيين ونشاط الفينيقيين فى البحر الأحمر، والآراء التى تعتبر الفينيقيين أحفادا أو خلفاء للبونتيين دفعتهم حاستهم التجارية إلى الاستفادة من ذلك التشابه فنسبوا أنفسهم إلى البحر الأريترى.. حتى يكتسبوا حقوقا فى استغلال تجارته الرائجة إزاء الشعوب الأخرى التى كانت تنافسهم». صفحة ٣١ ـ ٣٢.

فهل بعد هذا التفسير تلفيق منهجى.

من العراق إلى مصر عبر الصومال

قلنا فى كتابنا أن المؤثرات العراقية القديمة فى بعض العبادات المصرية وفى بعض الأشكال الفنية المبكرة مثل صلاية نعرمر، لاتفسرها إلا نظريتنا فى أن ضمن أحلاف المملكة التجارية شرقى سيناء كان العنصر العراقى القديم، ولما كانت هذه الآلهة ترتبط تحديدا فى المدونات المصرية ببلاد بونت فقد كان ذلك دليلا على مذهبنا فى موقعة بننت عند العقبة شرقا وليس الصومال جنوبا، خاصة مع تقرير المصرى المتواتر: «عندما أولى وجهى نحو مشرق الشمس فإنى أوليه إلى أرض الإله بونت»»، وقد قلنا أن هؤلاء التجار هم من نقلوا تلك المؤثرات العراقية المبكرة إلى مصر.

ولكن لأن عزائم الزميل كانت على قدر عزمه فقد قام يثابر على منهجه ويقول بكل اجتراء أن تلك المؤثرات قد وصلت بالفعل مع التجار البونتيين من انلعراق شمالا إلى مصر لكن عبر الصومال جنوبا «؟!!» يقول سيادته: «يبدو أن عملية نقل المؤثرات الميزوبوتامية من العراق إلى مصر كانت ذات صلة بمركز الآلهة المصرية التى أرتبطت ببونت، وأن انتقال هذا المؤثرات إل يمصر تم بواسطة شعب أو جماعات كنت تسكن مناطق متوسطة بين مصر والعراق، وتقوم بدور الوسيط فى الاتصالات بين الطرفين وربما كان هذا الشعب أو الجماعات نوعا من الوسطاء التجاريين.. وربما كان الوسطاء من سكان الساحل الأفريقى بونت «يقصد الصومال» هم من نقلوها مباشرة إلى مصر» صفحة ٢٥ !!! ولاتعليق؟ فالوسطاء التجاريون فى الموقع المتوسط بين العراق ومصرهم الصوماليون؟!.

سادة بلاد بونت:

أبدا لم نعتبر العنصر الزنجى فى لوحات حتشبسوت دالا على أفريقية بلاد بونت، فما أكثر الزنوج فى لوحات مصر التى لاتتحدث عن بلاد بونت، ثم إن السادة فى تلك اللوحات قد رسمتهم ريشة الفنان المصر فى هيئة المصريين تماما سواء فى اللحية التقليدية أو فى السحنة التى لاتمت للزنوج بصلة، أو فى اللون الذى صبغت به بشرتهم وهو الأحمر الفاتح المفضل فى رسوم المصريين الزنجى فى اللوحات فكان رأينا فريقا تابعا ضمن عناصر الحلف التجارى القادم ببضائعه من جنوبى البحر الأحمر.

ورغم أن الدكتور عبدالحليم قد أصر على أن بلاد بونت تقع على الساحل الصومالى، فإنه لم يستطع أن ينكر أبدا تلك الحقائق حيث يقول فى صفحة ١٧ عن سكان بلاد بونت حسب لوحات حتشبسوت: «سكانها خليط من عدة سلالات: أ - السلالة التى تنتمى إلى الطبقة الحاكمة أى البونتيين ويشبهون المصريين.

ب - السلالة الزنجية.

جـ - سلالة ثالثة لعلها المسماة أرم وهى قريبة الشبه بالبونتيين، ثم يقول فى صفحة ٣٩ «كان رجال بونت يرسمون على الآثر المصرية على هيئة المصريين وبلحى تقليدية كالتى يلبسها آلهة المصريين».

وفى بحثنا قلنا أن اسم العاصمة البونتية كما ورد فى الوثائق المصرية «أو سالعت» يؤكد مذهبنا حيث كانت البتراء عاصمة وادى عربة تسمى فى الزمن القديم «سالع» وجاء اسمها هكذا فى التوراة، لكن السيد الدكتور فضل لها «زيلع» على ساحل الصومال، ولانعلم كيف أمكن وجود أسماء مصرية على الساحل الصومالى، بينما تختفى تلك الأسماء تماما على الساحل اليمنى المقابل الذى يفصله عن الصومال خانق باب المندب الضيق، وهو الأمر الذى اعترف به هو نفسه فى صفحة ٣٧.

ثم يضع الدكتور عبدالحليم الميناء الذى وصلت إليه سفن حتشبسوت عند منصب نهر النيل بالساحل الصومالى ويعتبره اكتشافه المذهل حيث وقف يهلل ويكبر ويدق طبوله الصومالية، بينما كان ذلك الميناء لدينا أحد القرائن البسيطة والهينة حيث يتطابق أسمه «جرجسوى واج ور» مع الميناء القديم المشهور على خليج العقبة المذكور فى التوراة باسم «عصيون جابر» ولك أن تدرك مدى التطابق الفونيطيقى المدهش كدلالة واضحة.

وفى لوحات حتشبسوت دلالة مهمة تساعد الباحث على تحديد موقع بلاد بونت وهو قيام البيوت التى تشبه أعشاش النحل على أعمدة، وهو

ماوجدناه إبان زيارتنا للبتراء قائما حتى اليوم على ذات الفكرة المعمارية القديمة، ومنه البالغ القدم كما فى أم البيارة ومنطقة الدير، ومنه الأحداث الذى احتفظ بفكرته القديمة حتى زمن الرومان كما فى خزنة فرعون والقصر الذى لم يزل يحمل حتى اليوم اسم «بنت» ولم يزل هذا الأسلوب متبعا حتى الآن على السواحل الغربية لخليج العقبة بسيناء فى محيط نويبع والترابين، ويمكن للزميل زيارتها ومعاينتها بنفسه بأسلوبها البدائى القديم، لكن لأن زميلنا الفاضل لم يجد ذلك على ساحل الصومال فقد عقب قائلا فى صفحة ٦١ «والحقيقة أن الأكواخ ذات الأعمدة لاتوجد اليوم فعلا فى الصومال.. ومسألة وجود الأعمدة لاتصلح أساسا يعتمد عليه لأنها ليست من المعالم الدائمة أو الثابتة». أليس ذلك لونا من التخلص الواضح والعجز الفاضح؟ هذه نمازج قليلة من كثير يمكن قوله، لكننا اختصرنا حتى لانجور على المساحة المتاحة لنا بالصحيفة، وكنا نتمنى ألا نقول لكن الزميل هو من دفعنا إلى التصريح بما كنا نصمت عنه، أقول ذلك وأنا شديد الأسف لأنه وضعنى فى هذا الموضع الصعب واضطررنا لهذا اللون من الخطاب الذى كنا نعلو عنه دوما بقامة العلم لابالغوغائية، وليسامحنا الله جميعا ولابأس على الزميل أن اعترف بالخطأ وأعاد النظر وفى ساحة العلم متسع لكل من يملك أدواته شريطة أن يملك أدواته حقا.

«١٦» أزمة الأقباط

(١) تقديم قدمه المؤلف لكتاب الدكتور سليم نجيب رئيس محكمة مونتريال بكندا، وهو رسالة دكتوراه بعنوان «حقوق الإنسان فى مصر - حالة الأقباط» قدمت إلى جامعة «بانثيون - أساس - باريس رقم٢» وذلك فى ١١ يونيو ١٩٩٢.

هذا الكتاب جرس إنذار عالى الصوت يردد صدى ودويا، هو صوت مصرى مسيحى واضح صريح، متحرر من كل المخاوف والمحاذير بل وحتى الكياسة والحصافة، لأنه كان بالأصل رسالة دكتوراة قدمت بفرنسا ببلاد غير البلاد، وفى ظل قوانين ونظم غير نظمنا وقوانيننا ومناهجنا فى التفكير، ناهيك عن كون صاحبه يعيش الآن فى مهجرة، بكندا فكتب بصراحة وبوضوح لايخشى معهما الملامة، لذلك يعد هذا الكتاب إفصاحا عن مكنون، ورؤية مصرى مسيحى لوضع طائفته الدينية فى المجتمع المصرى، عبر فيها عن أحزانه ومأساته وآماله وأحلامه الوطنية بشكل شديد الوضوح إلى حد الصدمة.

ولسنا بحاجة إلى التذكير أن هناك الآن حوالى ٢ مليون مصر مسيحى يعيشون فى المهجر بأنحاء متعددة من العالم، وشكلوا تجمعات قوية ومؤثرة وذات صوت عال، ومن مهجرهم أخذوا يخاطبون ضمير العالم، بل ويؤثريون فى اتخاذ القرارت العليا فى مواطنهم الجديدة، لكنا فى مصر لم نزل نعيش الأوضاع كما هى، ندفن رؤوسنا داخل شرانقنا، نحب الثبات والسكون ولانحب الرؤية الواضحة لأنها تبهتنا، نصر على نفس المنهج ونستريح لذات الأوضاع فالحركة ترعبنا والتغيير يرهبنا، وإذا كان قد تم إغتيال أحد الأصوات المسيحية المعارضة فى الخارج، فهل يمكن التخلص من ٢ مليون مصرى مسيحى يعيشون فى بلاد حرة ليبرالية تحمى صاحب كل رأى أو عقيدة؟.

إن هذا الكتاب يعرض كيف يفكر المسيحى المصرى، ويضع الحقائق ناصعة لنسمى الأشياء بأسمائها، إن كنا نريد لوطننا تماسكا ووحدة تكفل استمرار تناميه وحراكه نحو المدنية التى هى الدرع الحقيقى لوحدته واستمراره فى الوجود.

ولااستبعد عند صدور هذا الكتاب أن نسمع صيحات التفكير والتنفيذ

والاتهامات الرخيصة المبتذلة، وربما المطالبة بمصادرة الكتاب كالعادة فى بلادنا فى مثل تلك الأحوال، رغم أن أرصفة تغص بالكتب التى تبخس العقيدة المسيحية وتسفه أصحابها، ولم يصادر كتاب واحد منها.

نحن لانحب المخالف لأننا لانملك حجة المناقشة والرد الموضوعى الهادىء ولأننا أيضا نخاف الحقائق بعد أن اعتدنا أوضاعا مختلة أصبحنا نظنها الصح الأبدى، ولأننا اعتدنا تمرير الكذب إلى تاريخنا وصدقناه، ولأننا تحدثنا عن الهزيمة النكراء باعتبارها نكسة، وعن الغزو العربى بحسبانه فتحا، ولأننا نتأذى من وجود إسرائيل على تراب فلسطين، ونتباكى فى الوقت نفسه على الأندلس دون الشعور بأى خلل، ولأننا أسقطنا أبسط مبادىء العقل، قانون الهوية وعدم التناقض فأصبحنا نرى الحصان اليونانى المجنح «بيجاسوس» أسطورة، ونرى البراق حقيقة لاريب فيها، ولأننا نقطع ذاكرتنا التاريخية وندافع عن الثقافة العربية الغازية، متصورين أننا بذلك ندافع عن الوطن، وأبدا لانضع تلك الثقافة فى مكانها الطبيعى بحسبانها قد أصبحت جزءا من ثقافتنا وليست هى كل ثقافتنا، فنلقى بكل تاريخنا مع أجدادنا الذين وصفوا بالمجرمين وغرقوا مع الفرعون فى البحر المفلوق بالعصا السحرية، ولأننا نقف مع إسرائيلية موسى ضد مصرية الفرعون، بل نحذف عن عمد وقصد كل تاريخ الحقبة القبطية من تاريخ مصر كما لو لم تكن جزءا من تاريخها، فحذفناها بكل ثرائها الثورى والفنى والأدبى، فأسقطنا بذلك من تاريخنا لايقل عن نصف ألفية من الزمان، بينما نجد شعوبا تبحث عن تاريخ كامل لها يعادل ذلك الذى نحذفه فلا تجد، لقد أسقطنا هذا التاريخ لأنه كان تاريخ المقاومة المصرية للاحتلال الرومانى، ولأن المصريين فى هذه المقاومة ضد الرومان كانو مسيحيين!؟ ولأن النصف الثانى من هذه الفترة كان فترة ثورة لمسيحيين مصريين، ضد الاحتلال العربى، وهكذا لاتجد شعبا فى العالم قرر تكفير ثقافته وتدميرها ونسيان تاريخه عن سبق إصرار لصالح الثقافة الغازية سوى الشعب المصرى!؟ ولك يامصر العزاء.

والأكثر إدهاشا ألاتعرف تلك السنوات العبقرية الفذة فى تاريخ مصر طريقها الواضح والكامل إلى كتب وزارة التعليم المصرية حتى اليوم، وهو منطق يعنى أننا مع العروبة أكثر مما نحن مع مصر، ومع الإسلام أكثر مما نحن مع مصر ، حتى أسقطنا حقبة النضال الثورى القبطى ضد الروم والعرب لأنها كانت مصرية مسيحية ولم تكن عربية ولا إسلامية!! ولذلك ضحينا بمصر إبان هذه الحقبة كما لوكانت غير موجودة فى التاريخ، فقط لأنها كانت مسيحية!؟ لذلك أهدرنا هذا التاريخ وألغينا مصر من الوجود،

ألا يعنى ذلك أيضا أننا نقصر تاريخ الوطن أو نتعامل مع مصر كما لوكانت قد بدأت وجودها منذ الفتح العربى أو الغزو إن شئنا الدقة، ومن ثم قمنا نكفر تاريخها الأقدم أيضا لاستبعاده بدوره نهائيا، أفلا يفصح هذا اللون مع المفكر المتوارى المضمر، عن عقلية الغاصب المحتل المستوطن الذى يريد استبعاد كل مايجعل للمواطنين جذورا قديمة فى تاريخ وطنهم، ومحو تاريخهم محوا؟ ثم ألا يعنى ذلك اعترافا من المسلم بالفكرة القائلة أن المصريين الأقباط هم ورثة الفراعنة الشرعيين، وأن المسلمين احتلال عربى استيطانى طال أمده عما ينبغى؟.

وبالمناسبة هذه هى الفكرة التى ستعبر عنها صفحات هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن.

إن منهج التفكير، والسلوك عند المسيحيين والمسلمين المصريين، يترك مساحة هائلة للجانب الدينى عند الحديث عن الوطن، مما يؤدى إلى خلل دائم فى الرؤية، وهو ما يشكل خطرا جاثما طوال الوقت نحمد الله أنه لم يفجر إلى مقاطعات إقليمية كما هو حادث فى بلدان أخرى من العالم، وإذا كان هناك صاحب فضل فى ذلك فإنهم أقباط مصر الذين يعتقدون أنهم أصحاب البلاد التاريخيين، وأنهم الأمتداد الطبيعى لسلسال الفراعين، وأنهم يملكون مقومات ذلك سواء من حيث التاريخ أو العنصر أو المواطنة بالجنسية أو اللغة القبطية المتطورة عن الديموطيقية المتطورة بدورها عن الهيروغليفية، لذلك تحمل المسيحيون المصريون كثيرا من المعاناة لزمن طويل، قبلوا أثناءه أوضاعا شديدة الظلم فى وطنهم حتى لاينقسم وطنهم ويتشظى.

لكن المصيبة الأعظم أن مسيحيى مصر يفكرون بمنطق أشد تعصبا من المسلمين السلفيين، فكلاهما يعتبر الدين هو الهوية وهو الوطن، وهنا الفجيعة المروعة، فالقبطى لايطلب مجتمعا علمانيا مدنيا، يحفظ ويصون ويضمن جميع الحقوق لجميع الأفراد على التساوى، بغض النظر عن كون المواطن مسلما أم مسيحيا أم ملحدا، لكنه يطلب مجتمعا مصريا مسيحيا كما لوكانت المسيحية قد أصبحت شريط المصرية، وعند الإسلام السياسى نجد نفس المنهج، حيث الإيمان بالإسلام ومبادئه شرط صدق المواطنة!!.

انظر قارئى معى إلى الغاية النهائية التى كانت تريدها جماعة الأمة القبطية، التى أسسها إبراهيم حلمى هلال سنة ١٩٥٢ وتم حلها بقرار أمنى عام ١٩٥٤، ويلخصها لنا صاحب هذا الكتاب فيقول ص٢١١ - ٢١٢.

استرداد مصر كلها، أرضنا التى سلبت منا بواسطة العرب المسلمين

منذ أربعة عشر قرنا، إن أرضنا هى مصر، وديانتنا هى المسيحية، وسيكون دستورنا هو الإنجيل، وتكون لغتنا الرسمية هى اللغة القبطية.

أورد المؤلف تلك الفقرة دون أن يعقب عليها وتركها تنطق بدلالاتها ضمن السياق، وهو مايعنى الموافقة الضمنية على ماورد فيها، ومعنى ذلك أننا سنخرج من حكم ربما يستعين بالدين أحيانا، إلى حكم ثيوقراطى شمولى دينى من رأسه إلى أخمص قدميه. وناهيك عن إستحالة المطلب، فطرد أو إفناء خمسين مليون مصرى، أو تنصيرهم، فكرة لاتضع صاحبها فى خانة العقلاء على الإطلاق، والمفارقة أن أصحاب مثل تلك الفكرة الجامحة يرون لإسرائيل حق الحياة فى المنطقة، لأنهم استعمار استيطانى فما ذنب الأحفاد الذين ولدوا هناك وأصبحوا مواطنين حقيقيين، لكنهم لايرون نفس الحق للمصرى المسلم فى المواطنة بعد أربعة عشر قرنا، وهذا يتطلب دستورا قرآنيا، وذلك يطلب دستورا إنجيليا، وتضيع مصر.

ومن هنا فإن أهمية هذا الكتاب تكمن فى كونه يضع صورة غاية فى الوضوح لكيف يفكر أقباط مصر اليوم، فى عالم أصبحت فيه الليبرالية سيدة الأنظمة، قوى تنتهز مثل تلك الفرص للتداخل فى الشئون الداخلية، وفر شروط السياسة والقرارات السيادية، بضغط يستثمر لاءات الحريات والكرامة الإنسانية، ومن ثم أصبح واجبنا علينا إصلاح البيت من الداخل، دفعا لأى ضغط أو تأثير خارجى على كرامة بلادنا، وهو إصلاح ممكن وسهل لوخلصت الضمائر لمعانى الدولة المدنية الديمقراطية الليبرالية المعلمنة، بل إن صاحب كتابنا هذا لم يجد أى حرج فى القول ص٢٥٤: «إن العقوبات الاقتصادية هى الوسيلة الطبيعية لتنفيذ تلك السياسة، وعلى الدول الديموقراطية اللجوء إلى تلك العقوبات ضد الدول التى يثبت ارتكابها جرائم انتهاك فاضحة ومستمرة لحقوق الإنسان»، والتلميح واضح، وهنا ينتظر منا حسب المنهج السائد أن نهدد الكاتب بالويل والثبور وعظائم الأمور، مع نعوت يحبذ أن تبدأ بالعمالة وتنتهى بالخيانة.

لكنى أقول بصوت عال نرجو أن يرجع لنا صداه وأثره، إن هذا المصرى، ماوصل به الحال إلى ذلك إلا إذا كان قد طفح به الكيل، وأن متغيرات العالم والسريعة منحته الفرصة لأول مرة لشرح قضيته أمام العالم، بل إن بعض هذا العالم وأنا أكتب هذه الصفحات يفكر الآ فى قطع المعونة عن مصر لهذا السبب تحديدا.

بالطبع لاشك إطلاقا أن مثل تلك الدعوة رغم كل مساوئها ومخاطرها عل يمصر التى يعيش فيها مسيحيون ومسلمون، تعبر بوضوح عن فشل كامل لكل المساعى التى تقدم بها الأقباط فى مطالب واضحة وتم إهمالها

تماما، كما توضح صفحات هذا الكتاب، ودون حتى مناقشة تلك المطالب علنا.

لكن ونحن نتعاطف مع مطالب المسيحيين المصريين، بل نتوحد بهم ونتباهى معهم بأننا أعرق حضارات الأرض، لايسعنا إلا أن نفكر بعد ممارستهم الضغوط فى الخارج من أجل قضيتهم ماذا يطلبون؟ وماذا يعرضون؟.

أو المصائب مطالب من النموذج الذى سقناه منذ قليل «دولة مسيحية دستورها الإنجيل ولغتها القبطية»، فإذا كنت - ومثلى كثيون - نرفض بل ونقاوم قيام دولة إسلامية، فالنتيجة البسيطة لمثل هذا التفكير أننا سنقاوم وبشكل أشد مثل ذلك الخيال المستحيل بفرض إمكان حدوثه، وهكذا تخسر القضية القبطية أهم القوى التى تساند مطالبهم، وهى قوى المستنيرين من مفكرين علمانيين ذوى شأن وقدر، وقدرة أيضا على التأثير الجماهيرى الواسع، بل وربما يكون رأيهم فى حالات كثيرة له تأثير على اتخاذ القرار السيادى، ومثل تلك الخسارة ستكون هى الخسارة الحقيقية ليس للأقباط فقط لكن لمصر جميعا، لأن معنى ذلك أننا سنقدم على هاوية مظلمة لايعلم أحد منتهاها، إن الطرح السالف يشير بوضوح إلى أن العقلية القبطية فى التفكير قد أصبحت مسيحية غير مصرية، طائفية دينية غير وطنية، لأن الدين المسيحى ليس مصريا ورغم أن المسلمين أقباط أيضا، وأكثريتهم يعودون بالجنس - وليس بالدين - إلى أصول مصرية عريقة، ونحن تعنينا مصر كما يشغلنا أن يعيش المواطن فى مصر عزيزا يتمتع بكل الحريات، حتى يمكنه أن ينتج ويبدع لأن العلم لاينمو إلا فى مناخ حر تماما وهو سبيل تقدم الأمم لكن ماهو موقف صاحب الكتاب وكيف يفكر؟ نحمد الله أنه يفكر بنفس المنطق ونفس التفكير السائد بين الأقباط، حتى أنه قدم لنا نموذجا للمسألة القبطية فى أذهان الأقباط وضميرهم بكل حماس، ولذلك لم يشغله التدقيق العلمى فى أكثر من موضع، وخاض فى مناطق شديدة الحساسية والوعورة دون أن يكون مسلما بالأدوات العلمية اللازمة، كما فى حديثه مثلا ص «٢٥٢» عن ذواج القبطى من المسلمة وهو الممكن فى دولة معلنة، ويحبذ العلمنة، لهذا السبب، ويدلى برأيه التحبيذى فى أمر يحتاج إطلاعا واسعا على الشريعة الإسلامية وعلومها، أو مل ذلك الكلام الصحفى من قبيل: إن المسيحى عندما يطلب عملا فى مصر، «فإنهم يخاطبونه بهذه اللهجة: إذهب فليست هناك وظيفة لك» ص٢٠٤، وهذا كلام إن جاز فى الأحاديث الصحفية المثيرة، لايجوز فى رسالة علمية، لأن العلم تدقيق فحدث كهذا:

متى حدث؟ ومن السائل؟ ومن المجيب؟ وفى أية مناسبة؟ وتاريخ المناسبة؟ ومدى صدق هذا التوثيق؟ ثم ماقيمة هذه الحادثة كلها؟.. إلخ ثم هناك مستوى آخر أكثر علمية هو إجراء البحوث المدعمة بالبيانات والإحصائات المقارنة للنسب العددية بالوظائف فى مصر، هكذا العلم، أمر غير ذلك فصحافة، أو كما يلقى القول إلقاء فى عبارات منها «إن الإسلام يظهر عداء لحرية الدين وبصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بترك الإسلام»، هكذا دون أن يقدم تعريفا بأن هذا الأمر مختلف عليه بين الفرق الإسلامية، وفى هذه الحال كان لابد من توضيح واضح كاف لتأييد وجهة نظره واختيارها دون وجهات النظر الأخرى، وهذه المؤيدات لابد أن تكون من أمهات كتب المكتبة العربية. لكن لو قال «المسلمين» فى مصر بدلا من «الإسلام» إذن لجاز قبول القول ومناقشته، إذن صاحب الكتاب ينعى على المسلمين المصريين والدولة المصرية لأنها لاتأخذ بالعلمنة، لكن هل يوحى لنا هذا الكتاب ينعى على المسلمين المصريين والدولة المصرية لأنها لاتأخذ بالعلمنة، لكن هل يوحى لنا هذا الكتاب بأن صاحبه يؤمن بالعلمنة حقا؟ لقد ضربنا أمثلة لعدم الحرص على الدقة والصرامة العلمية، لنقول إن صاحب الكتاب كان مشغولا معينا بأمر آخر غير العلم سنرى الآن أنه لايختلف إطلاقا عن مطالب الإسلام السياسى، ويالضيعتك يامصر بين أبنائك.

كنت مستعدا أن أفهم إذا لم يحدثنا الصوت القبطى عن دولة دستورها الإنجيل وأنا أرفض دولة دستورها القرآن!! وكنت بالتأكيد سأقف معه قلبا بقلب ويدا بيد وهو يرفض تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر، لما لذلك من مخاطر مؤكدة على وحدة الوطن وسلامته، لكنى أبدا لاأفهم ماذا ستفعل بمايزيد على خمسين مليون مسلم مصرى؟ نعم أقف معك ضد تطبيق الشريعة الإسلامية لأننا كيف سنحاكم المسيحى؟ هل نحاكمه بالقانون المدنى؟ فنقطع يد حسن عندما يسرق، ونحبس جرجس ثلاثة شهور عندما يفعل نفس الفعل؟! فيخرج من سجنه إلى الكنيسة ليقدم للعذراء شموع العرفان والشكر، لأن يده لم تقطع مثل حسن كنت أفهم أن يقف المسيحى ضد العقوبات حسب الشريعة الإسلامية لأنها ستؤذى مجتمع إخوانهم المسلمين، وربما تساءل المجتمع جميعه عندما يكتشف براءة حسن، عن كيفية إرجاع يده المقطوعة إليه، وربما كنت أتصور أن أخى القبطى وأنا سنقف معا ضد تطبيقها لأن الإنسانية قد تجاوزت مرحلة العقوبات البدنية إلى غير رجعة، وأن هذا هو سبيل الرقى البشرى، وأن أحكام تلك الشريعة إن لم تتكيف مع المتغيرات باجتهاد واضح فإنها

ستؤول وحدها إلى الظل ثم إلى التعطل كما تعطلت أحكام ايات قرآنية أخرى تصل إلى حوالى ثلاثة وعشرين آية، تتعلق بالرق والسبايا وملك اليمين، بعد أن ارتقى البشر عن تلك الوصمة التى لطخت جبين البشرية طويلا، لكن أن نستبدل القرآن بالإنجيل، فتلك والله قاصمة للظهر، ومنطق لاعلاقة له بالإخلاص للوطن.

والكتاب الذى بين يديك بطول صفحاته جميعا يكرس لاتخاذ المسيحية وطنا وهوية، ويضع ذلك فى إطار التمسك بمصر الوطن، غير مدرك أى تناقض فصيح يكمن فى منهج تفكيره الذى يعبر عن منهج جميع مسيحيى مصر تقريبا، لأن الحالات التى أقبلها وتؤمن حقا بمجتمع مصرى معلمن من بين المسيحيين، تعد على أصابع اليد الواحدة، وأنا من الشخصيات العامة فى مصر ذات العلاقات الواسعة، وشهادتى تقوم على قياس دقيق للعينات، إن المسيحيين يملأون بقاع الأرض فهل من حق كل واحد منهم قطعة فى مصر مادامت مصر تعادل المسيحية.

إن الحل الذى لم يره هذا الكتاب ليس فى تمصير المسألة بالمسيحية أو بالمرحلة القبطية وحدها لكن بالمصرية، والمصرية تجمع ثقافة مصر القديمة وثقافة الحقبة القبطية وثقافة الحقبة العربية جميعا، فى تضافر طنطق به السلوك والعادات والتقاليد والكرنفالات الاحتفالية المشتركة، وهو موروث قديم من الثقافات الثلاث، متغيشيات فى بعضها بعض.

والمصرية تعنى عدم تغليب ثقافة من تلك الثقافات على الأخرى لأننا لو أردنا مصر مسيحية لأنها كانت كذلك قبل الفتح العربى، وأن المسألة مسألة عراقة وتواجد أسبق، فالأولى أن نعود إلى الإله آمون، لأنه بهذا القياس الأعرج سيكون أعرق من إله المسيحية وأعرق من إله الإسلام، ولأنه عاش مقدسا بين الناس عمرا يعادل عمر الإلهين مجتمعين، وظل يعبد طوال تلك الحقبة الطويلة كرب رسمى لإمبراطورية عظمى عزيزة مقتدرة، بل كانت فى أحيان كثيرة الدولة العظمى الوحيدة فى العالم دون منازع، وإذا كان المقياس بمدى بركات الرب على شعبه، فكرامات آمون واضحة، فقط هو ينوء بفضيحة آل إليها أولاده من بعده بين الأمم، وإذا كان لابد من صبغ المواطنة الدين فلدينا أديان مصرية قديمة من فرز واقعنا الوطنى الجغرافى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى، فرز يتفق وأذواقنا ومنطق فهمنا الزراعى للحياة، أديان للنيل وللوادى وللمواسم وللزرع وللزهر وللحب وللعدالة والوداعة ولتنفى الأديان البدوية الواردة، إن خطابا كهذا يستدعى خطابا كذاك، وكل منهما لايمكن تصنيفه ضمن الخطاب العلمى إطلاقا، بل ولاهو خطاب وطنى بالمرة.

وسيلاحظ القارىء أن صاحب كتابنا يبدأ تاريخ مصر من الحقبة القبطية، وهو فى ذلك مثل المسلم المتطرف الذى يبدأ تاريخ مصر من لحظة دخول عمرو بن العاص إليها.

إنظر معى الكاتب ص١٠ ومابعدها كيف يبخس وينفى الآخر من مذاهب مسيحية مخالفة لاعتقاد المؤلف ومذهبه، مستخدما للنفى مفردات لاهوتيه كنسية ولايسوق مناقشة علمية، فقد مبرر نفيها إنها كانت آراء وثنية أو مذاهب هرطقية؟ أى أن الصحيح هو الإيمان المسيحى الذى استقر فقط؟ أليس ذلك إفصاحا عن عدم احترام داخلى للمبادىء، التى ينادى بها صاحب الكتاب؟ إنه يتخذ موقفه من تقييم المواقف المخالفة من أرضية اعتقادية بحتة، وأنن الأنا هو الصح والآخر هو المخالف المارق الزنديق المهرطق الوثنى؟ وكان النفى كما سنقرأ لأسباب دينية وليست وطنية، سالت فيها الدماء الزكية أنهارا حتى استقرت المذاهب المنتصرة القائمة للآن، وهى قائمة ليس لأنها الأصوب إيمانا بالضرورة لكن لأنها التى اننتصرت، ومن على مقعد المنتصر يحدثنا مؤلف الكتاب.

انظر مثلا موقفه مع حرمان الآريوسبين مع عدم تطرقه ولو بالإشارة إلى الإضطهاد المخيف الذى وقع عليهم ومدى عنفه، أو وقوفه مع المذهب المنتصر بالعنف ضد ماأسماه «هرطقة نسطور» التى تم اضطهاد أصحابها بدورهم والتنكيل بهم، دون مبرر علمى واحد يبرر له اتخاذ هذا الموقف المنحاز سلفا، اللهم اعتقاده أنه هو وطائفته على العقيدة الصحيحة وحده، وهذا فى حد ذاته نفس التفكير الإسلامى المتعصب الذى لايرى أحدا يملك الحقيقة النهائية والمطلقة سواه.

صاحب هذه الحقيقة المطلقة يتبع كنيسة ذات تراتب وظائفى وكهنوتى شديد التعقيد، ويهتم بدوره بهذا الزر الذى لايشغل أحدا صفحات طويلة، لكن الدرس الذى تخرج به بعد هذا الملل شديد الأهمية، لأنه يوضح أى منهج عتيق وبال ومعقد وبلا معنى يصر عليه القبطى المصرى، فالمؤلف حسب عنوان كتابه عن حقوق الإنسان وحول ٦٦ يخدثنا عن حقوق النساء ودورهن فيها مثلا: «الشماسات والمكرسات يقمن بحفظ النظام بين النساء أثناء أداء الطقوس ولاسيما فى القرى، أما دور الشماسات خلال تنصير «تعميد» النساء، فيقتصر على قيامهن بالشرح للنساء عما ينبغى عليهن عمله، ولكنهن لايساعدن الكاهن فى التنصير أو عمله فى سر الميرون، حيث إن ذلك يقتصر أداؤه على الكاهن»، انظر معى الكارثة العالمية التى ستترتب على ذلك:

«وهذا يعنى أن الشماسات لايستطعن حمل القربان المقدس الذى

يُتناول فى الكنيسة إلى منازل النساء المريضات لأن ذلك من وظيفة الكهنة دون غيرهم».

ماعلينا من هذه الهموم الغريبة التى تشغل بال إخواننا الأقباط، لكنا فقط نرتعب لو تصورنا أنفسنا محكومين بالإنجيل بطقوس ورتب كهنوتية كتلك المعروضة أمامنا، وتمر آلاف السنين حتى يسمح للمرأة بدور غير كامل، فما بالنا لو كان ذلك فى مجتمع يحكمه كهنة الكنيسة؟.

وهكذا بطول كتابه يسلم الكاتب المقولات الكنسية، ويقف مع مفردات غاية فى الصغر بجوار القضية الكبرى التى يتناولها، ويدعم وجهة نظره بتبريرات لاهوتية لاعلاقة لها بحقوق الإنسان، أنظره يقول ص٦٨: «إن مسألة الطابع المذكر للكاهن الذى يقوم بأسرار الكنيسة تدخل فى البحث بصورة بارزة فى التوازن القائم فى الكنيسة بين دراسة المسيح «الكيروستلوجيا» ودراسة الظواهر الروحية «النيوماتولوجيا» وهناك من الأمثلة مايدعم هذا النظر، فى أن المسيح لم يختر أبدا بين حوارييه امرأة، كما أن العذراء مريم أم الكلمة المتجسدة لم تقم أبدأ بأية وظيفة كهنوتية فى الكنيسة، ولو كان مسموحا للمرأة بأن تمارس أية خدمة كهنوتية لكان واجبا أن تشغل وظيفة الكهنوت أولا، ولكن التقليد الرسولى لم يتضمن مطلقا سيامة المرأة كاهنة».

وهنا يتقدم كاتبنا يطلب حق المرأة فى الكنيسة لكنه يتواضع فى طلبه فيقول ص٦٩: «إن إتاحة وصول النساء إلى مراتب السيامة الأدنى مثل مساعدة الشماس والقارئة والمرتلة والمعلمة وغيرها من مراتب السيامة هى مألة تستحق الدراسة لإبراز كرامة المرأة ومكانتها على نحو محدد، وللاعتراف الصريح بمشاركتها فى العمل الكنسى».

فإذا كانن هذا نموذج القضايا الخاصة بالحقوق الإنسانية وكانت تلك طرق علاجها عبر مؤسسة عجوز قديمة معقدة، فكيف يمكن الحديث عن حقوق أقباط أمام أغلبية مسلمة؟ إن كارثة مصر أن كل من فيها مسلم أم مسيحى لايرى أخاه المخالف فى الملة إطلاقا: وكل منهم يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة، والكارثة العظمى أن كلامنهما يمزج مصر الوطن بعقيدته.

انظر كيف يتعامل صاحب هذه الرسالة العلمية مع التاريخ وبأى منطق، عندما كان يحكى عن حسم الصراع المذهبى فى أثيوبيا لصالح المذهب الأرثوذكسى المصرى.

وبدلا من يحدثنا الكاتب عن هذا النصر المصرى فى بلاد الأحباش بحسبانه نصرا وطنيا يضع دولة أخرى فى تبعية ثقافية لواحدة من

الثقافات المصرية هى الثقافة القبطية، فإنه يفجعنا بالقول «ويعتبر انتصار الإنجيل فى أثيوبيا واحدا من أهم الأحداث العظيمة» هكذا يند عن الرجل مجموعة من الاعترافات الضمنية المذهلة، لعل أوضحها أنه مشغول بانتصار الكنيسة أكثر مما هو مشغول، بمصر، وأن انتصار الكنيسة المصرية يعنى انتصار الإنجيل ولم يقل انتصار مصر، رغم أن الذين هزموا وتراجعوا بالحبشة كانوا أتباع الإنجيل أيضا، كل مافى الأمر أنهم كانوا يخالفون المذهب المصرى الأرثوذكسى، لكن الرجل لايرى الآخرين المخالفين مذهبيا اتباعا للإنجيل لأنه هو الذى يعرف الانجيل الصحيح، وهو الإنجيل الذى انتصر فى أثيوبيا.

لأى حق نلوم المتطرفين المسلمين إذن؟

وينشغل كاتبنا أيا انشغال بكل شىء عدا مصر التى قبعت فى سطور منزوية برسالته، فهو مثلا مشغول بالدفاع عن أمر عجب فى ص٧٨، إذ قام يشرح ويبرر أن انفصال كنيسة الإسكندرية عن روما ليس قطيعة تامة، بل يوجد تقارب بين الكنيستين يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى الوحدة المسيحية؟!!.

وبالطبع ستكون كنيسة روما هى ذات اليد العليا فى تلك الوحدة المسيحية المنتظرة، لكن كاتبنا لايتكلم بنفس الحماس عن وحدة وطنية فى مصريين عنصريها، تشغله الوحدة المسيحية أكثر، فلماذا إذن ينزعج أقباط مصر وهذا منهجهم من الوحدة الإسلامية؟! وهل فى سبيل الوحدة المسيخية المنتظرة يمكن التضحية باستقلال الكنيسة المصرية الذى نعده جميعا مصدر فخر للمسلم والمسيحى، لأنها مصدر فخر مصرى وطنى، هل يمكن أن نضحى بالاستقلال من أجل وحدة طائفية عالمية؟ لماذا إذن ننزعج من مطالب دعاة الوحدة العربية التى هى أقرب رلى المقبول على كل المستويات فى حالة المقارنة.

والأنكى والأمر أنه يطالب فى ص٩٧ بحرية الوالدين فى تنشئة أطفالهم دينيا لأنها من أساس حقوق الإنسان وهو «حق الوالدين فى تنشئة أطفالهم على الديانة التى يختارونها»، وكنت أظنه سيقول بعدم التدخل إطلاقا فى فرض أية وصايا على عقل الطفل وروحه حتى يختار بكل حرية أى دين أو لا يختار أى دين، إذن لكان الكلام موحيا بمدى الاحترام والفهم لحقوق الإنسان.

وهكذا كنا فى منتهى الصدق عندما قلنان أن هذا الكتاب يدق جرس إنذار لأمر عظيم، رغم أنه لم يخرج عن نفس المنهج الأصولى فى رؤية الأمور، المنهج ألذى يحكم الشارعين المسيحى والإسلامى فى مصر،

ولاخـلاص من هذا كله إلا بسـعى حـقيـقى دائب لايفتـر ولايكل من أجل إقامة دولة مدنية مؤسساتية حقا وصدقا، وقبل ذلك مدينة العقل المصرى وعلمته وتعليمه معانى الحريات وتدريبه عليها فى ممارسات ديمقراطية سليمة، أو لنا أنن نختار غير ذلك، فهناك طريق آخر جاهز لدينا، وهو طريق امتلاك الأساطير وأوهام الحقيقة المطلقة، وهو الطريق المعلوم فى التاريخ، وسبق أن سارت فيه عمورة وسدوم أو عاد وثمود والهنود الحمر.

فتلك سكة السلامة وهذه سكة الندامة، فإن أصررنا على مناهجنا السلفية العتيقة الواحدية الدموية الأسطورية، فلن يخسر العالم شيئا باختفائنا من على صفحة التاريخ، بل ربما خرج كاسبا بعد انقراض أفواه تأكل ولاتنتج، بل تشيع فى الأرض العدوانية والوحشية، وتعيش عالة على الدنيا، وترى أنها شعوب مختارة وهى فى أدنى درجات سلم التطور الإنسانى، وساعتها لن يندم أحد، وربما كانت لنا فائدة واحدة فى تلك الحالة، وهى أننا سنكون فى مقتبل الأيام درسا وعظة عند الذكرى، وماعدا ذلك فهو تاريخ نوع من القردة العليا توقف عن التطور والتكيف مع المتغيرات، فأنقرض وآل أمره إلى المتاحف وعلماء الآثار.

الهرم فى ٣٠ أكتوبر ١٩٩٧

٣- الفاشيون والوطن

سيد القمنى

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب هو مجموعة من مقالات ودراسات تم نشرها تباعا بالدوريات القاهرية، لكن ما يميزها هنا عما تم نشره بتلك الدوريات، أنها هنا كما كانت فى الأصل قبل أن تتدخل فيها يد العاملين بهذه الدوريات، حيث أبدلوا كلمة هنا، وحذفوا كلمة هناك، مراعاة لتوازنات بعينها لم نكن ضدها، فللنشر بالدوريات ظروفه وسياقاته وشروطه، لكن الكتاب هو مساحة حرية الكاتب كى يقول ما يريد بكل دقة ووضوح ودون شروط مسبقة ولا رقابة سوى ضميره وعقله وحدهما.

وبهذا الكتاب **يفتتح المركز المصرى لبحوث الحضارة** سلسلة من الأعمال التى تهدف إلى **(نقد المنهج)**، نقد مناهجنا فى التفكير والسلوك على كل المستويات بصدق مع الذات، من أجل فهم أفصح لواقعنا لتجاوزه نحو واقع أفضل، فى ظرف عالمى ومحلى لم يعد يحتمل تأجيلا، وقبل أن يخرجنا العناتر الفاشيون من ساحة التاريخ.

تأسيس

نقد المنهج (*)

(*) تم نشره فى رزو اليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/٨/٣١ العدد ٣٦٦٤ .

منذ فجره، ظل المنهج العربى السائد فى التفكير على كل المستويات يدور فى فلك التراكم وحده. ورغم المرور بحقبة انفتاحية واضحة أدت إلى بروز كوكبة متميزة من العلماء والمفكرين، إلا إن تلك الحقبة وما صاحبها من اصطراع فكرى ثرى، انتهت بقرارات سيادية مع نهاية القرن الرابع الهجرى، ولم تبق فى الساحة سوى وجهة نظر واحدة سائدة تمثل النصوصية المغلقة بالكامل. وهو ما أفرز فكرة الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة التى لا تقبل تحولا ولا تبدلا، بعد أن تجاوزنا خير العصور إلى الذى يليه ثم الذى يليه. وبعد أن وضعت الأصول لرفض كل جديد بحسبانه بدعة والبدعة ضلالة، ولأن شر الأمور محدثاتها. وبقيت بيدنا نصوص مغلقة وثوابت هى المعيار الذى نزن به كل أمر فى كل شأن ممكن.

وبعدها اقتصرت الثقافة العربية على الإجترار، يتعدد فيها التوزيع ويتلون، لكن وفق نوتة واحدة لا غير. ومن ثمَّ انهمك العقل العربى فى المتاح فقط. وإبان ذلك تم زرع غابات من الموانع والتحريمات عبر مرور الزمن، لاعتبارات كهانية أو طقوسية، أما أخطرها فكان ما يفرزه التحالف الكهانى السياسى السيادى.

كان المتاح هو إعادة توزيع النوتة كلما طرأ طارئ فامتلأت المكتبة العربية بكتب تكرر وتردد فى التفاسير، وتفاسير التفاسير، وشروح المتن وشروح الحواشى، وشروح الشروح، وتبرير كثير من المظالم للحاكمين، فحققنا تراكما كميا هائلا لم ينتقل أبداً إلى مرحلة التحول الكيفى. وانتهت ثقافتنا إلى معلبات وصلتنا جاهزة لا دور لنا فيها ولا فى إنتاجها، نستهلكها على الجاهز دون أن نعمل فيها حاسة الذوق.

ثم كانت صدمة الحضارة والحداثة مع الحملة الفرنسية، التى فتحت عيون العرب على مدى التخلف الكارثى الذى آلوا إليه. ومع الصدمة جاء رد الفعل فى ظهور تيارات تطلب إعادة النظر فى ثوابتنا الفكرية. وهى

التيارات التى طرحت تساؤلات جديدة فتحت النوافذ لحركة النهضة، لكنها الحركة التى أصرت على الاحتفاظ بوحدانية الشخصية وثباتها مع ضرورة الأخذ بمنجزات العلم فى الدول المتقدمة، من أجل اللحاق بها.

وعلى المستوى الفكرى بدأت محاولات التغيير، لكنه التغيير الأعرج الذى طلب الفرز العلمى الغربى معزولا عن بنيته التحتية التى أفرزته فى بلاده. وقد بدأت تلك المهمة فى بواكيرها بتقديم التبريرات الشرعية لقبول المنتجات التقنية للعلم الحديث.

وارتقت عمليات التبرير خطوة إلى عمليات تأويل للنصوص لموافقة المتغيرات، وتحركت تصاعديا لتؤسس لبدايات حركة ليبرالية على المستوى الإجتماعى والسياسى، توقف تناميها مع حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢. ومع توقف التصاعد الليبرالى تحول التنامى الفكرى إلى منهج تلفيقى، فأخذنا نكتشف أيامها أن الإشتراكية هى بنت الإسلام الشرعية، وأن العلم المتقدم الذى باغتنا فى كهوفنا فأبهرنا، إنما خرج من عباءتنا، وأنه كان موجودا فى ثقافتنا سلفا ونحن عنه غافلون.

وتعالت حركات التلفيق لتقرن بين ما لا يمكن أن يلتقى، فرفعت يوليو كل لاءات الحرية، وارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الإستبداد، لكن فى ظل دولة مباحث ديكتاتورية صارمة لا تقبل خلافا ولا رأيا، ففرضت الصمت الكامل حيث كان لا صوت يعلو فوق صوت المعركة. وتم مزج الاشتراكية بالقومية دون الشعور بأى خلل بمزج مبدأ تحالف المقهورين فى العالم مع مبدأ القومية العنصرى.

وتراكم الخلل وتفاقم واتسعت خروقه حتى نفذ منها الإسرائيليون إلى حدود الدلتا الشرقية فى ١٩٦٧، وهو ما لم يكن هزيمة عسكرية أو كارثة اقتصادية فقط، لأن التوابع أوضحت أن الهزيمة الأعمق والأكبر كانت للإرادة وللذات وللشخصية الوطنية، بعد اكتشاف العجز الكامل إلى حد الشلل، فكان الانتكاس فى ردةٍ كاملة نحو الأسلاف نبحث عندهم عن تعويض ودفء وملاذ.

ولأن ثقافتنا الواحدية الشمولية الكاملة التى لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، تفترض أننا أمة مكتملة لأنها خير أمة أخرجت للناس، فلم نلتفت لحظة إلى عوامل التخلف والضعف فى داخلنا، وأخذنا نبحث طوال الوقت عن شياطين تقبع فى الخارج تحوك لنا المؤامرات وتتربص بنا الدوائر، هى التى تقف وراء هزائمنا وتخلفنا.

ولم نلحظ أننا نطلب من العالم الجديد بعلمه الحديث أن يكون تغيره لصالحنا ونحن نجلس نبسمل ونحوقل، وأننا ننزعج من كون الآخر يسعى

لصالحه ولا يوافق شخصيتنا الثقافية الواحدية، فكنا كأهل الكهف الذين صحوا من نومهم على دنيا جديدة وفى أيديهم نقود صُكت منذ قرون، نطالب الناس فى الدنيا الجديدة أن يقبلوا التعامل معنا بها بل وأن يقدموا اعترافا كاملا برصيدها، بحسبانه رصيدا ممتدا لا تنفذ خزائنه، يصلح لكل مكان وزمان.

نعم يجد منهجنا أصوله فى النصوص التأسيسية، لكن أول من وضع له أسسه الفلسفية هو الإمام أبو حامد الغزالى (١٠٥٩ ـ ١١١١م) حيث رأى أن ارتباط أى سبب بنتيجته ما هو إلا ارتباط ظاهرى موهوم، لأن كمال الإيمان يكون فى الرؤية التسليمية بالقلب وليس الحسية بالعقل. وضرب لذلك مثلا مشهورا فقال: إنك إن رميت قطعة من القطن فى النار فستراها بحواسك تحترق. ولأن الحواس كثيرا ما تخدعنا فهى غير موثوق بها كمصدر لمعرفة صادقة، لذلك فإن ما تراه من تلازم بين النار والقطن وظاهرة الاحتراق إنما هو تلازم رؤية حسية وليس تلازما حقيقيا. والدليل الشرعى على ذلك أن خليل الله إبراهيم لم يحترق فى النار عندما ألقى فيها، فما يغيب عن الحواس والعقل ومبدأ السببية، هو الإرادة الإلهية التى لا تغيب عن مؤمن. لذلك أصبح من صدق الإيمان عدم الربط الموضوعى بين الأسباب والنتائج لأنه يعنى نقصا فى الإيمان وعدم اعتراف بالإرادة الإلهية.

وعلى طريقة المتتالية العددية أفرز هذا المبدأ كثيرا من المفاهيم بالتوالد الذاتى، وهى مجموعة المفاهيم التى أسست لنا منهجنا فى رؤية العالم وسُبل التعامل معه، ومثالا لذلك الربط الذى حدث بين هذا المبدأ الغزالى وبين القرار السابق ذكره أننا خير أمة أخرجت للناس، وأننا فى رعاية الله لأننا حزب الله وغيرنا هو حزب الشيطان.

ثم تأتى الحدثان(*) بما لم نحلم به من نكسات وهزائم وتخلف مروع، فلا نبحث أبدا عن الأسباب الموضوعية وراء ما يحدث اتباعا للفلسفة الغزالية، ويتبقى فقط البحث عن أسباب توافق منهجنا وهى بذلك لا تخرج عن أمرين: الأول هو كيد حزب الشيطان الذى يقف وراء مآسينا بمؤامراته الصليبية الاستعمارية الصهيونية الماسونية الاستشراقية. وأن العالم غير منشغل سوى بعالمنا المتخلف المتردى الذى لا يستطيع لنفسه دفاعا أو ردا.

وضمن ذلك تتولد نتائج أخرى فيصبح العلم البشرى بكل منتجه الهائل حليفا لحزب الشيطان، فنجمع فى سلة واحدة بين منتجه الهائل حليفا

(*) الحدثان: الليل والنهار ـ المعجم الوجيز

لحزب الشيطان، فنجمع فى سلة واحدة بين داروين وماركس وفرويد دون أن نعانى لحظة قراءتهم لنعرف ماذا قالوا، لكن لأننا حزب الله فلا شك أن حزب الله هم الغالبون. وهنا يطرح السؤال نفسه: إذن لماذا يحدث لنا ما يحدث؟ وهل تخلى الله عن أمته التى اختارها لتكون خير الأمم وقيادة العالمين؟ هنا كان لابد من تبرئة الإله فنكتشف أننا نحن الذين تخلينا عن عهدنا مع الله بالتباعد عن أصول الدين والعودة إلى حياة الجاهية الأولى، بنحت التماثيل وإباحة الفنون وإبداع الموسيقى والرواية والشعر، ثم ارتكبنا أكبر الأثافى فسمحنا للمرأة بالخروج إلى العمل، وأنحرفنا عن شريعتنا إلى قوانين مدنية ما أنزل الله بها من سلطان. وأقمنا اقتصادا على أسس غير حلالية تدخله أموال السياحة والربا، دون أن نلتفت إلى أن مجتمع السلف الذهبى كان بدوره مجتمعا من البشر بكل سلبياتهم وإيجابياتهم، ولم يكونوا مجتمعاً من الملائكة.

ولأن الربط بين النتائج والأسباب ليس ديدن حزب الله، فإن الوقائع تفاجئنا لأننا لا نرى مقدماتها فتبهتنا وتفزعنا، وتنقض علينا الهزيمة من المجهول بشكل إعجازى، ولا علاقة لنا بها لأنها مؤامرة نسج خيوطها أناس غيرنا. وما انتصار حزب الشيطان وفى قمته دولة إسرائيل إلا لأنهم أخلصوا العبادة لربهم ولم نخلص نحن للعهد مع ربنا (كما لو كان هناك رب لكل شعب). ومن هنا بات الحل الناجح هو استحضار القوى السماوية إلى جانبنا لنفتح البلاد ونسبى العباد وبخاصة النساء. وهو الأمر الذى لن يتحقق إلا بالعودة إلى مجتمع السلف الصالح الأول، والالتزام بجميع الطقوس والشرائع والمعارف، بارتكاس واضح نحو المرحلة السحرية القديمة لاستحضار القوى الغائبة بتعاويذ وتمائم تم استبدالها بكتب الأدعية المتنوعة، الممزوجة بآيات من هنا وهناك.

ولما كانت الانتصارات الأولى قد حققت وجودها وأقامت دولتها بل وامبراطوريتها على أنقاض أعظم امبراطوريتين حينذاك هما الفرس والروم، فلابد أن تقوم نهضتنا على دمار الآخر القوى المتفوق المستعلى وغيابه بالكلية. ولأن المنهج التأسيسى لا يرى فى الربط بين الأسباب والنتائج سبيلا إيمانيا قويما، فقد سجلنا فى كتبنا التاريخية انتصاراتنا وسقوط الامبراطوريتين مصحوبة بأكبر حشد من المعجزات والنبوءات والمفاجآت القادمة من عالم مفارق، فنصرهم الله وهم أذلة وأعز جنده دون أى اعتبار للواقع الموضوعى، وأن الإمبراطوريتين الرومية والكسروية كانتا بالفعل فى طريقهما إلى زوال، وأن الفراغ فى المنطقة قد ظهر واضحا ينتظر من بملأه.

وإعمالا لذات المنطق والمنهج تتالت النبوءات تترى مع ما سمى بالصحوة الإسلامية، تتبئ بأن عالم الغرب المتفوق إلى زوال بأسرار ربانية وفعل غيبى خارق. ودعم لهذه الرؤية موقفها سقوط المنظومة السوفيتية وتفككها، وبقيت أوروبا وأمريكا، لكن قبل ذلك كان يجب تهيئة الأوضاع فى بلادنا واستلام التيارات الإسلامية المتشددة لمقاليد السلطة فيها، تهيئة لاستلام قيادة العالم، وهذا بدوره إنما هو عامل أساسى لاستحضار القوى السماوية لأنه إزالة للطواغيت التى تمنعها من الحضور. وعند هذه النقطة بدأ نهر الدم فى التدفق.

لكن على الوجه الآخر بالرؤية العلمية وحدها يتضح أننا قد وصلنا إلى مفترق الطرق الكبرى وإلى منطقة الأزمة، فمع إصرارنا على الثبات وعدم التغير، وفقد القدرة على التكيف مع المستجدات، تراكمت هزائمنا وتفاقم هواننا، وتلازم مستوى سرعتنا فى الهبوط مع تسارع هائل فى التقدم العلمى والتقنى والحضارى فى جانب حزب الشيطان. ومنطقة الأزمة لابد أن تدفع بالضرورة إلى طرح تساؤلات جديدة لم نعتد سماعها، وأن تركز تلك التساؤلات على النقد الذاتى لكشف الخلل حيث النقد هو مفتاح الحضارة ورسول التقدم، ولأنه لا يمكن إقامة بناء سليم على أسس معطوبة. إننا بحاجة الآن وبإلحاح إلى (نقد المنهج).

فلسفة الهكسوس (*)

(*) تم نشره فى جريدة الأهالى بتاريخ ١٩٩٨/٣/٤ العدد رقم ٨٥٩ .

قد يختلف كل الناس حول حقب بكاملها فى التاريخ، لكن أحدا لا يختلف فى أية بقعة فى الدنيا، وعلى أى مستوى، أن مصر قدمت للدنيا أول حضارة سامقة متكاملة، فاستحقت عن جدارة لقب (أمة) حقا وصدقا وعلما. وأبدا لم تتحقق لأى من دول المنطقة ناهيك عن دول العالم، حتى العصور الحديثة، الشروط العلمية الضرورية اللازمة لمفهوم الأمة إلا مصر، منذ حققت وحدتها التاريخية الكبرى قبل قرون طويلة من معرفة الإنسان الأوروبى للمدن المستقرة.

ورغم الترديد الببغائى ـ وأظنه المقصود ـ لأفكار مغلوطة عن مصر وتاريخها، وكونها كانت دوما الابنة الشرعية للدكتاتورية المطلقة، وأنها كانت وستظل فى حالة قدرية مفروضة ومحكومة بنموذج نمط الإنتاج الزراعى الآسيوى، ومنظومة الأستبداد الشرقى، فقد أقامت هذه الرؤية نظريتها على فكرة السيطرة على نزوات النهر العظيم المفاجئة الدورية، بين فيضانات عالية وشح يصل إلى حد الجفاف، اضطرت المجتمع إلى تكاتف قوى العمل تحت قيادة واحدة آمرة ناهية لا تقبل الاعتراض أو الإرجاء. لأن الطوارئ المفاجئة طورت الديمقراطية البدائية فى المجامع والمشتركات المدينية والمعبدية نحو توحد وطنى قومى، فى دولة مركزية ديكتاتورية بالضرورة، يمكنها اتخاذ القرارات الحاسمة لمواجهة الطوارئ المفاجئة. فابتعدت عن الشكل الديمقراطى الأول للمشتركات، التى كانت تتعدد فيها الآراء بتعدد المصالح ووجهات النظر، دون قرار حاسم إزاء نهر جبار وحاسم.

إن هذا الترديد كان ومازال ـ عندى ـ أبعد ما يكون عن العلمية وشروطها وقوانينها، فما كان ممكنا على الإطلاق فى ظل الديكتاتورية أن يبدع المصريون كل ما أبدعوه من علوم متقدمة وإبداعات لم تزل فخر الإنسانية على الكواكب الأرضى وفنون على كل الألوان والأنواع؛ من

هندسة الرى والمعمار إلى المسرح الملحمى فى أول مسرحية ملحمية ميلودرامية فى التاريخ، كما فى مسرحية آلام (أوزيريس) وقيامته، إلى الشعر الغنائى والشعر الثورى كما فى القصائد التسع للفلاح الفصيح والحكيم (نفرر حو)، إلى الشعر الإلحادى الذى كان يلقى دون ملامة فى حضرة الفرعون والمجمع الكهنوتى الرسمى وأمام الجماهير، وهو ما تمثله "أغنية العازف على الهارب"، إلى النقد اللاذع الناضج سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فى قصائد الحكيم (أبى أور) الذى وصفه الأركيولوجى عالم البصريات الأشهر (برستد) بأنه أول الأنبياء وأكثرهم علما وحكمة، إلى ألوان الرقص الإيقاعى والرمزى والترفيهى والأكروباتى والشعبى والرسمى، مزجوا فيها الروح بالجسد واحترموا كليهما دون انفصال، فأبدعوا الرقص شبه العارى ليقرأوا الروح فى لغة الجسد المبدع، فى مواسم احتفالية كرنفالية كثيرة متلاحقة، لو تابعتها لاندهشت متى كان هؤلاء الناس يبدعون، بينما هم كانوا يبدعون لهذا السبب تحديدا بعد الترويح الضرورى للعقل المنتج، إلى مواسم العمل الكبرى التى يتحول فيها كل الوطن إلى رجل واحد وساعد واحد، إلى اختراعات وكشوف تقنية هائلة التنوع كما وكيفا. ثم كان عشقهم العظيم للحياة وولههم وفرحهم بها دافعا لاختراع عالم آخر من بعد الموت، فهم لم يقتنعوا أبدا وهم فى مرحهم السعيد بواديهم الخصيب بسنوات العمر المعدودة، لذلك اتخذوا قرارهم بأن يعيشوا إلى الأبد، فى عالم آخر من بعد الموت هو نسخة أخرى من مصر والحياة فى وادى النيل. فعالم الخلد فى بدايات الفكرة كان اختراعا مصريا وبمواصفات مصرية، فكى يكون جنات خالدة لابد أن يكون مصريا، حتى أعتى الشعوب عداوة لمصر لم ير الجنة إلا كما رآها المصريون، فتصف التوراة فى سفر التكوين الجنة بأنها "**جنة الرب، كأرض مصر - تكوين ١٣/١٠**".

لقد وقفت الأغلبية مع معادلة تبدو - فى الظاهر - سليمة تماما، هى أنه كى تقوم دولة مركزية قوية فى تلك الأزمان، فلابد أن تكون مصحوبة بقرارات سريعة قاطعة حاسمة، وأنها لابد - بسبب ظرف مثل ظرف مصر الطبيعى - أن تحكم بالديكتاتورية المطلقة.

لكن الرؤية العلمية السليمة لا ترى بإمكان هذه النظرية تفسير كم الإبداعات الفردية العبقرية البعيدة عن منظومة الحكم، بل وأحيانا من داخلها. وهى الإبداعات التى ما كان يمكن للمجتمع أن يفرزها ويحققها إلا فى دولة مؤسسات مدنية، تسمح بعلمنة ومدنية وحرية مساحة الفكر والإبداع. وكانت عبقرية مصر أنها تمكنت من التوازن بين طرفى المعادلة

الصعبة، فحيثما كانت مساحة الفكر والإبداع، كانت هناك مساحة الحريات الكاملة.

فرغم المركزية الصارمة على مستوى الإدارة، والتى استدعت وجود رب أكبر للدولة يمثل منظومة الحكم فى السماء "فتاح، ثم رع، ثم آمون للدول الحاكمة الثلاث"، فقد أدرك المصريون مبكرا أن ما حققوه من درجات تحضر فارقة فى تاريخ العالمين، كان نابعا من حرية المشتركات الأولى التأسيسية. لذلك ـ أبدا ـ لم يتم إدماج كل آلهة الوادى فى رب واحد، ولا تم إجبار مواطن على اعتناق عقيدة الدولة، بل لم يعرف المواطن العادى فى أبعاد الوادى المترامية الأطراف رب الدولة المتعالى البعيد. لأن الآلهة كانت بالمئات وكان فى الإمكان ألا تعتقد فى أى إله ولا تحرم من مظلة المواطنة. بل كان ممكنا فى ظل النضوج الأمثل للدولة، الأمة ـ أن يتم توجيه ألوان النقد والتجريح حتى يصل إلى شخص الفرعون، بل إلى الآلهة ذاتها، دون أى تحرج.

لقد كانت المساحة الفكرية ـ بمصطلحات اليوم ـ مساحة ملعمنة حرة تماما، سمحت بكل هذه الإبداعات. ولتنظر معى ـ مثلا ـ احتجاجات فلاح إهناسيا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أو نصائح الفرعون (آخى توى) لولده (مرى كا رع)، وهو يضع أسس الحكم المؤسسى المدنى.

كانت هذه مصر، فماذا جدث لمصر؟ اليوم أصبحنا نحاكم الفكر وندين الإبداع، لأن هناك فكرا واحدا ساد وأصبح سيد المناهج، يرى نفسه هو فقط الصحيح المطلق، وغيره باطل الأباطيل والخطأ المطلق. أصبحنا هكذا بعد ضياع التعددية، وأصبح النموذج الأمثل فى ظل الرأى الأوحد الصحيح هو التوقف عن أى إبداع. وبدلا من العطاء الفكرى والثقافى والفنى أصبحنا نسمع عن رحلة المفكرين من الضلال إلى الإيمان بالرأى الأوحد، وعن توبة الفنانين والفنانات وتأسلم الشيوعيين، وفساد يستشرى علنا فصيحا جهيرا تحت سمع القانون وبصر الدولة، ومحاكمات للمفكرين لأنهم يفكرون، ويقتلون بيد من يكتبون من أجلهم، وإدانات للفنانين والفنانات وفضائح وتشهير. مع عجلة متسارعة واضحة تميل إلى الإدانة الفورية كلما كان الشخص ممن يمارسون العمل الأبداعى. والمصيبة الكارثية أنه حتى فى المؤسسات المفترض أن مهمتها الدفاع عن المبدعين تحولت لتصبح أدوات إدانة وتشهير، لأن هذه المؤسسات لم تنشأ نشأة سوية من بين أصحاب المصالح فى قيامها، لكنها جاءت فوقية، لذلك سهل على التأسلم السياسى السيطرة عليها من فوق، ولم تفهم مؤسسة الحكم المصرى حتى الآن، وترفض أن تفهم. أما الكرنفالات فقد انتهت من حياتنا نهائيا.

ويمتد الدرس بطول حقب التاريخ المصرى، فالمتابع لتاريخ مصر القديم، سيجد هذا التاريخ الممتد من العبقرية يتوقف فجأة، فلا إبداع ولا كرنفالات، لا علوم، بل ولا حتى كتابة أو تدوين، كما لو أن ستارا كثيفا من الظلمة قد هبط فجأة على التاريخ المصرى. وكان ذلك إبان حكم الاحتلال الهكسوسى الاستيطانى البدوى لمصر.

والمفارقة المدهشة أن مصر الزراعية المركزية كان يفترض فيها عدم الإبداع لخضوعها لمنظومة الإدارة الدكتاتورية، لكنها أعطت وأبدعت للسبب الذى أعود فأؤكده: هو مساحة الحريات على المستوى الفكرى، لأن تعدد ألوان الحياة فى وادى النيل، أدى إلى تعدد مماثل فى الرؤى، وتعدد مماثل فى ألوان الولاء، فكان لكل كائن أو ظاهرة طبيعية إله، يمكنك أن تتبع مؤسسته الكهانية، أو تتبعه هو وحده أو تتبع غيره أو لا تتبع أحدا أصلا، لأن التماسك الطبيعى الذى حققه النهر، مع الحدود الواضحة الفاصلة الكبرى الآمنة، بامتداد سيناء الصحراوى القاسى شرقا، والبحر العميق شمالا ومجاهل أفريقيا جنوربا، والصحراء الكبرى غربا، عوامل شكلت أمنا من لون خاص، وتماسكا مجتمعيا غير قابل للتفكك، رغم التعددية الهائلة على مستويات مختلفة، أهمها المساحة الفكرية، مساحة الرأى والاعتقاد، ومساحة الإبداع.

بينما على الجانب الآخر البدوى، كانت القبيلة قد انتهت إلى نظام الواحدية الأولى، لأنها كانت لا تعرف معنى المواطنة ولا الوطن المستقر لتحركها الدائب وراء الماء والكلأ، أو للهجوم على حدود البلدان الزراعية المستقرة لسلبها عرق العام إبان موسم جمع المحصول.

لقد قامت فلسفة القبيلة على التماسك الكامل على كل المستويات، خشية الضياع، فكان كل الأفراد فى واحد. كانت القبيلة مستعدة للفناء جميعا من أجل الثأر أو الدفاع عن أحد أفرادها. ذابت جميعها فى جدها البعيد وسلفها الذى أصبح ربا لها يضمن لها وطنا متحركا هو بدوره معها أينما حلت أو ارتحلت. هو رمزها وضامن وحدتها وبقائها. ويتمثل ذلك واضحا فى القبيلة الإسرائيلية التى كانت تحمل ربها فى تابوت معها فى حلها وترحالها، وكانت تعترف بأن للقبائل الأخرى أربابها، لكن الرب الوحيد الجدير بالولاء هو ربها هى.

ورغم ذلك كانت القبيلة - ولم تزل - تتمتع بنظام حكم شبه ديمقراطى له شيخ منتخب حسب الظروف التى تحتاج مهارات بعينها، تتوافر فى شخص بذاته يتم انتخابه ليحكم بمساعدة مجلس القبيلة الاستشارى. لكن على المساحة الفكرية كانت الديكتاتورية كاملة والرأى أوحداً، لا رب ولا

فلسفة ولا رأى إلا الولاء لمنطق القبيلة وحده وربها وحدها، لأنه هو ذاتها وقوام استمرارها.

ألا ترون معى أننا بحاجة إلى إعادة النظر فى كثير من قواعد قراءة التاريخ التى نظنها علمية؟

المهم.. هكذا كان الهكسوس، حتى بعد أن وحدت قبائلهم ظروف المتغيرات الطبيعية فطردتهم من مساحات جغرافية واسعة، وجمعتهم فى سعيهم وراء أوطان جاهزة مفروشة.

لهذا أظلم الزمن المصرى إبان حكم الهكسوس، وتوقف مصر عن العطاء والإبداع، بعد أن توحد الجميع فى واحد على المستوى الفكرى، وساد الرأى الأوحد الصحيح على الإطلاق. وفجأة يرفع الستار مع طرد الهكسوس من مصر. لنرى أعظم الإبداعات بدولة فى العالم أجمع مع الدولة الثالثة (الحديثة) المعروفة بدولة الإمبراطورية.

ومرت مصر بألوان متعددة من الاحتلال، لكن البدوى منها كان يعيد إغلاق ستار الهكسوس على الإبداع والعلم والفن.

احتلها قمبيز فدمرها، ثم احتلها اليونان بالفتح السكندرى فازدادت عطاء وعلما ومعرفة بمزج فلسفة اليونان بعلوم المصريين، واحتلها الرومان فتخضبت بالجديد فأعطت المزيد، حتى غزاها العرب، ولا أحد يمارى فى أنه كان غزوا فالإسلام يسمى حروبه غزوات، وأصبحت مصر عربية اللسان عربية الفكر، لكنها قامت تمصر غزاتها ليصبحوا جزءا من نسيجها، واستخدمت مفردات ولغة خاصة ضفرتها من لغتها القديمة ومن اللغة العربية لكن وفق قواعد وقوانين المصرية القديمة، وفى كل الحالات التى كانت تستعيد فيها مصر استقلالها عن الدولة الأم ويتوقف نزح خيراتها مؤقتا إلى مركز الخلافة، كانت تبدأ فى استعادة عافيتها ويعلو صوتها الإبداعى مرى أخرى.

واليوم فى ظل الهجمة البدوية القبلية النفطية العاتية على المساحة الفكرية فى مصر، أمكن عودة مناخ الهكسوس بكل ضراوة، فغاب النقد الفاعل المغير، وانتشر الفساد والرشوة، وأصبح للقانون حدود مطاطية، ولأساليب الضبط أخلاقيات ومقاييس زئبقية، وسادت الهستريا نتيجة توسيع مساحة التحريمات على الفكر لصالح السلطان والعمائم وكبار الأفاقين الأماثل. ومن ثم لم تبق سوى مساحة صغيرة لا تتسع لكم غضب هائل لدى من امتلك وعيا مزيفا مع قلم فاقد للمنهج العلمى والوطنى. ومن هنا قام الغاضبون يأكلون بعضهم بعضا فى تلك المساحة المسموح بها فى النقد والصراع.

بفلسفة الهكسوس تلك حاكمنا نصر أبو زيد وصادرنا العشماوى وخليل عبدالكريم، وبها كفرنا إبداعات عبدالوهاب ونجيب محفوظ، وبأمرها حولنا كليات الفنون إلى كليات الفنون إلى كليات نظرية بعد تحريم الموديلات الطبيعية، ووسط هذا الصخب الهستيرى ضاعت الرؤية، وقبع الإرهاب، وكمن وراء كل باب يطل على أية مساحة للحريات والإبداع. ومع الفرصة تقوم قوى المصالح تستثمر الواقع وأدواته لشغل الرأى العام عن القضايا المصيرية الكبرى للوطن.

مرحبا جارودى (•)

(•) أرسل فى حينه إلى روز اليوسف ولم تنشر.

مثل هذا الهوس بجارودى له سابقة أخرى أيام الملاكم الأمريكى محمد على كلاى. هوس يشير إلى مرض نفسى ينتشر انتشارا وبائيا حادا بين أمة العربان، يمكن تعريفه بأنه "هستريا النرجسية الجماعية المخصية".

● والنرجسية كما تعلمون هى مرض حب الذات حد المبالغة والتضخم والورم غير الحميد، فيعتقد المريض أنه إنما وجد لتدور الأكوان من حوله، وأنه "خير أمة أخرجت للناس"، بينما الواقع يجهر بتكذيب هذا التميز الواهم وينفيه. وهو ما يؤدى إلى سوء حالة المريض فتتعدد حالاته وتشتبك عقده، لذلك نعانى من عقدة الإضطهاد، وأن العالمين جميعا يتربصون بنا لأننا مسلمون فقط. وأن هبوطنا إلى مستوى دول من الدرجات الدنيا ليس إلا ناتج مؤامرة كونية تاريخية يقودها حزب الشيطان منذ عبد الله بن سبأ والفتنة الكبرى، مرورا بالصليبيين ثم الاستعمار الأوروبى. وانتهاء بالكشف فى تفاصيل المؤامرة عن تحالف العلم والمنهج العلمى مع المجتمعات الأوروبية، مما أدى إلى تقدمها وتخلفنا على كل المستويات. وأن علماء العالم وفلاسفته ما صاغوا علومهم وفلسفاتهم إلا كراهة فى الإسلام وأهله وحربا عليه من ماركس إلى داروين إلى فرويد. حتى تجسد الشيطان الأكبر أخيرا بنفسه فى الأمريكان والإسرائيليين. لكن حزب الله إن شاء الله هم الغالبون، والسبيل إلى ذلك ليس بمتابعة العلم ومنهجه العلمى والمساهمة فى الكشف والأبداع العالمى إنما بالعودة إلى السلف الصالح وكيف سلكوا فنصرهم الله، وهم أذلة. ومن ثم قمنا بتقصير الجلابيب وإطلاق اللحى وكفرنا المفكرين ودعرنا الفنانين، بحسبان تلك هى الخطوات الضرورية لمجيئ الملأ السماوى بقيادة الملاك جبريل على فرسه حيزوم، لينصر أمته بعد أن هبطت إلى قاع تراتب الأمم، وهان شأنها على العالمين. هذا دون أن نلقى نظرة واحدة إلى داخلنا وكيف نعيش وكيف نسلك وكيف نفكر. نحن لا نرى خروقنا وجهلنا ومنهجنا

الواحدى الثابت المتخلف، لأننا نعتقد فى كوننا أمة مقدسة لا تخطئ. ولا شك أن ما يحدث لنا ليس لأننا نستحق ما وصلنا إليه، ولكن بسبب المؤامرة الكونية التاريخية!! وهذا المنهج الملتبس بوباء النرجسية يدفع إلى الهروب من الواقع بالنفخ فى الذات والعيش فى حلم مدينة الإسلام الفاضلة المقبلة، التى ستحرر بلاد المسلمين من هوانها وتخلفها ومن الاحتلال، لتحتل هى بلاد الدنيا وتنفل خيراتها وتسبى نساءها(؟!!).

وبين الحلم العنصرى فى السيادة واحتلال البلاد والسبى مع تسييد ثقافتنا المحنطة، وبين الواقع بكل مراراته نستعيد أمجاد العصور الخوالى، ونتنفس الخرافة ونمضغ الأسطورة، ونجتر العلامات اليتيمة للحريات والعدل الاجتماعى، فى عبارات طنانة من قبيل: أصابت امرأة وأخطأ عمر، ولو عثرت دابة بالعراق.. الخ، وهى عبارات تعد على أصابع اليد الواحدة عبر تاريخ يمتد أكثر من أربعة عشر قرنا ولم تجد طريقها إلى إصلاح الواقع حتى فى زمانها.

وينكشف خصاء نرجيستنا أمام الدنيا ونحن نستقبل جارودى استقبال الفاتحين، فهو من سيرد عن أمته الأسلامية(؟!) الكيد الفكرى الصهيونى الشيطانى بعلمه. لأننا فى ظن أصحاب الاحتفالية لا نملك الإمكانات ولا القدرات العلمية والمنهجية الضرورية. وهكذا انفتح أمل العجزة بضم غير العجزة إلى حظيرة الإسلام.

ومع هذا النصر المؤزر والآيات الباهرات بإسلام جارودى، قرر الحمزة دعبس أن يدعو ـ بالمرة ـ الرئيس الأمريكى كلينتون إلى الإسلام.

لقد وصل المرض قمته وأصبحت بلادنا مستشفى (طالبانى) كبير للأمراض النفسية المستعصية، فما الذى دعى دعبس إلى ذلك؟ الإجابة أن بلاد المسلمين بلاد تقبع فى وراء مؤخرة الزمان، وأن كلينتون رئيس أقوى دولة فى العالم، وأن كلينتون وأمريكا ينتصران لإسرائيل ويتعاملان مع المسلمين بكل غطرسة واستعلاء واقتدار. ولا حل إذن إلا على طريقة العثمانيين، أن يسلم كلينتون ونستسلم نحن لسيادته وسيادة بلاده، يعنى يمكننا القبول باستعمار كامل الأوصاف شرط أن يكون السادة مسلمين. لقد تدهور بنا الحال إلى موضع أدنى من موضعنا زمن الحملة الفرنسية عندما رفض مشايخ الأزهر وجماهير الوطن الاستعمار الفرنسى رغم إعلان قادته إسلامهم. إن الوجه الآخر لدعوة دعبس كلينتون للإسلام هو اندماجنا الإرادى فى أمة عالمية سيدها مسلم يكون ونكون نحن ذيلها ومحل تجاربها العلمية.

لقد تحولنا إلى بشر كفوا عن التكيف مع المتغيرات فلم يتطوروا وأصبحوا حقبة ساكنة حفرية بين الإنسان الواقف على قدمين، وبين الإنسان المتحضر. لذلك نطلب اللحاق بالسادة شرط أن يكونوا مسلمين. وهى دعوة لم يدع بها إخوتنا الأقباط شركاءهم فى المسيحية فى البلاد القوية المقتدرة، رغم ما يعانون منذ أيام الأنبا بنيامين والعرب الفاتحين حتى اليوم، أبدا لم يفعلها الأقباط ويفعلها دعاة الإسلام الآن؟!

ولأن جارودى يجهد نفسه فى العلم وأصوله، ولأن فضيل رجال الدين المحترفين منهم والهواة، لا يملك من زاد هذا العلم شيئا ولو يسيرا. ولم يقدموا ما قدم جارودى من تفنيد علمى رصين للادعاءات الصهيونية والأساطير الإسرائيلية، فقد تساهل أهل شئون التقديس مع جارودى فى انتهازية ومطاطية لا تليق فى أمور الدين. ولم يستمعوا إلى الشهيد (فرج فوده) وهو يجأر لهم بالنداء (اختبروه بالختان)، لتمحيص إسلام الرجل، لأن الختان شعيرة حنفية فارقة لأهل القبلة. وقد يبدو تساهل وعاظنا مع قضية ختان جارودى موقفا تقدميا متساهلا، لولا أنهم ذاتهم من أدانوا تاريخيا بولس الرسول تلميذ المسيح لأنه أباح عدم الختان للراغبين فى دخول المسيحية.

ومن المناسب التذكير هنا أن جارودى لم يلتفت إلى هذا التنازل الكريم والرشوة الفصيحة، وظن أن عمله سيغنيه. فتصرف برعونة العلماء وغرور المفكرين. فقام يهاجم جمود الإسلام والمسلمين ومشايخهم العناتر وعنصريتهم وأساطيرهم. متصورا سامحه الله وعفا عنه أن بإمكانه تحت راية الإسلام أن يفكر بحرية وأن يبدع دون قيود وتحريمات، كما هو معتاد فى بلاد الإفرنج الفرنسيس، غير مدرك أن ما يفعله بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار. وأن عليه أن يخلع كل أثوابه القديمة بما فيها عقله ورأيه وأفكاره الملوثة بالديمقراطية والليبرالية والعلمنة وحقوق الإنسان وما إلى ذلك من بدع الغرب الكافر.

ولم يزل الصدى يردد أصوات مشايخ الإسلام بتكفير جارودى بالأمس القريب واتهامه بالردة عن الإسلام. لكن مع الضعف والهوان أمام الدولة الإسرائيلية، ومع ظهور كتاب جارودى الأخير عن الأساطير الصهيونية، تم الصفح عن جارودى وإعادته مرة أخرى إلى حظيرة المسلمين، وقامت هيئات الدولة الثقافية المصرية نفسها باستضافته فى احتفالية رسمية، يقودها مفكرو الدولة ورجالها المسئولين عن التثقيف العام.

نحن نفهم حفاوة الوعاظ بجارودى، نظرا لضعفهم الكامل عن أى مواجهة فكرية مع الصهاينة، لكن غير المفهوم أن يحتفى به معرض الكتاب

الدولى وهيئة قصور الثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب، وصحفنا القومية، والمعارضة على السواء؟! ولو كانت هذه الحفاوة التكريمية بالرجل لأنه يتعرض للاضطهاد بسبب رأيه وفكره وعقيدته، فهو ذلك سر الاحتفاليات المقامة على مشارف جارودى حقا؟

إذا كان هذا الفرض صحيحا، فأين كانت كل تلك الأجهزة التثقيفية المباركة عندما تم اضطهاد سيد القمنى دون احتفالية تأييد واحدة؟ وأين كانت أصواتهم المحتجة عندما تم اغتيال الشهيد فرج فودة؟ وأين كانت مؤتمراتهم فى أزمة نصر حامد أبوزيد؟ وفى أى جحور كانوا يختفون عندما اضطهد حسن حنفى، وأين هم الآن من مصادرة كتاب (فترة التكوين) لخليل عبدالكريم؟

الكارثة أنهم ليس فقط لم يكترثوا لهؤلاء، بل شارك بعضهم من مثقفى الدولة فى مذبحة الرأى ضدهم، وعليه فإن افتراض سبب الاحتفالية باضطهاد جارودى لرأيه لا يفسر الاحتفاليات الكبرى به، لأنهم لو كانوا يحتفون به دفاعا عن حقه فى إعلان رأيه وما يعتقد، لكانوا فعلوها مع أبناء الوطن وهم الأولى بالتضامن "منهم من صودرت كتبه ومنهم من حوكم ومنهم من سجن ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر".

إذن السبب أن جاردوى ينتقد أساطير الصهاينة نقدا علميا بينما يقعدهم المنهج الحجرى الثابت عن إتيان مثله؟

إن هذا الفرض يسقط بدوره فورا، لأن لدينا مفكرين كبارا لا يقلون شأنا فى تناول الشئون الإسرائيلية بالنقد والتحليل وهم والحمد لله كثيرون. ومع ذلك لم يحتف بهم أحد، بل إن الأكثرية الساحقة لم تسمع بواحد منهم كما سمعت بجارودى. بل إن الفضيحة فى أن من يقفون اليوم إلى جانب جارودى الذى فضح أساطير الصهاينة، هم أنفسهم من طالبوا بمحاكمة كاتب هذه السطور فى كتاب كان مشغولا بفضح أساطير الصهاينة بدوره، "السبب هو التباس الأساطير الصهيونية بمأثورات إسلامية تعد مناطقها من المحرمات". أى أنهم حاكموا كاتب هذه السطور لذات الأسباب التى وقفوا بموجبها إلى جوار جارودى، فهل هناك فصام أفصح من ذلك؟

إذن هذا الفرض لتفسير الاحتفاليات الجارودية بدوره، لنتساءل باحثين عن فرض آخر: هل السبب أن الرجل خواجة؟ وللخواجة فى تاريخنا عقدة ودلالات ومغزى وقيمة لأنه رمز التفوق. ذلك الذى نحترمه فى دواخلنا عندما نستخدم كل منتجه التقنى، ونحتقره فى العلن بحجة أنه حضارة مادية أهملت الروح، لذلك نكرهه أيضا. وجارودى فرز التفوق الغربى،

نكره تفوقه عندما ينقد مناهجنا الحفرية وعقليتنا الأسطورية، لكنا نحبه ونحترمه عندما يفعل ذات الفعل مع الصهاينة الخواجات مثله!!! لكن هذا الفرض يسقط بدوره ولا تكفى عقدة الخواجة لتفسير الاحتفاليات الكبرى، والسبب أننا لم نحتف بخواجة آخر كان أشد اقتدار من جارودى على المستوى النضالى والحركى. وقد قدم بدل العمل الواحد عشرات الأعمال فى نقد الصهيونية وتفنيد مزاعمها ومن بعض عناوين تلك الأعمال (الصهيونية فى النظرية والتطبيق، الفاشية فى ظل النجمة السداسية، التخريب الفكرى الصهيونى، الفلسطينيون شعب لا يقهر، فلسطين فى شراك الصهيونية... الخ).

كان هذا هو الفليسوف الروسى (يفجينى يفسييف) الذى اضُطهد بسبب آرائه ونكل به حتى لم يبق سوى تصفيته جسديا. وهو ما قامت به سيارة سوداء فى منتصف الليل أمام بيته، فعجنت لحمه بعظمه عدة مرات. وفى ١٩٩٠/٢/٢٠ شيع جثمانه عشرات الألوف وتحولت جنازته إلى مهرجات سياسى يندد بالصهاينة، فهل سمع المحتفون من مثقفى الدولة الأماثل عن (يفجينى يفسييف)؟ لقد كان خواجة أيضا لكنه لم يكن مسلما، لقد كان شيوعيا؟!!! لذلك لا يعرفه أحد فى بلادنا.

وعليه لم يبق سوى سبب واحد يفسر احتفالات منابر التثقيف الرسمى بروحيه جارودى وهو أن جارودى كان من أتباع الصليب ثم أصبح من أتباع المصحف والسيف.

لهذا فقط يحتفى بك العريان يا جارودى، ولا نظنك ترضى بالنزول إلى هذا الدرك. نعم مرحبا بك ضيفا عزيزا. ومعك فكرنا وضمائرنا وأقلامنا دفاعا عن حقك فى إبداء ما تعتقد، لكنا أبدا لسنا معك لمجرد أنك مسلم، فهذا درك لا نرضاه لأنفسنا، لأنه العنصرية ذاتها.

منهج التكفير (•)

(•) تم نشره فى مجلة روز اليوسف بتاريخ ١٩٩٨/٩/٧ العدد ٣٦٦٥ .

منطق القوة الغشوم هو بالضرورة منطق الكائنات التى منحتها الطبيعة البدنية وسلبتها ملكة العقل والتفكير، وفى مملكة الأحياء يسير الارتقاء تطورا نحو مزيد من العقل والمنطق يصاحبه انخفاض فى مستوى القوى الجسدية. وذات الأمر ينطبق على النوع الواحد فكلما قويت حجة الإنسان ورجح منطقه استغنى عن القوة فى الصراع، كما أن ذات المنطق يؤكد أن الإنسان قد ارتقى من بين الكائنات جميعا وحقق سيادته على كوكبه نتيجة لاستخدامه منطق العقل. فقط يلجأ إلى القوة والتدمير عندما تعجزه الحجة العقلية والبرهان فى الصراع.

وفى السنوات الأخيرة شهدنا قليلا من المعارك الفكرية الراقية انسحبت بسرعة لتفسح المجال للون آخر عن عجز بعض الأطراف عن خوض المعارك بأسلحة نبيلة وشريفة فيلجأون إلى الأسلحة الرديئة وعادة ما تكون فاسدة ترتد فى وجوههم دون حاجة الخصم لأى تعليق. وتتعدد سبل وأدوات العجز عن المواجهة الشريفة، فيلجأون إلى كيل الاتهامات والتخوين والتكفير والشتائم والبذاءات والمؤامرات دون الوقوف العقلانى مع ما يطرح أمامهم من منطق.

وغنى عن البيان أن التكفير والتخوين قد أصبح هو القاسم المشترك اليوم فى لغة المشتغلين بشئون التقديس، سواء كان منهم المستترون تحت لافتات من قبيل (الكاتب أو المفكر الإسلامى)، ولا نفهم ماذا تعنى؟ اللهم إلا إذا كان الآخرون غير مسلمين، وهؤلاء تكون لغة التكفير لديهم ضمنية لكنها لا تصمد للفحص والفضح، أو سواء كان منهم المتطرفون الذين يعلنونها صريحة واضحة دون لف أو دوران أو موارية.

ورغم الزعم أن هذا المنطق جديد ووارد وليس من شيم الأمة لإلقاء اللوم طوال الوقت على العدو الموهوم خارجنا، فالمعلوم للقاصى والدانى أن الأمر قد بدأ منذ معركة الجمل فى ٣٥هـ، وربما قبلها فى سقفية بنى

ساعدة، ومن بعدها فى صفين ثم فى النهروان ثم كانت قمة المأساة فى كربلاء، وكان الشاهد الواضح على أن ارتباط الدين بالسياسة وبالصراع على السلطة والنفوذ وصل إلى امتهان الدين نفسه بل ومزق الأمة، وانطلقت السيوف حتى استأصلت حفدة صاحب الدعوة أنفسهم، وإلى سيلان دماء المسلمين فى مجازر كان ضحاياها أكثر من ضحايا صراع المسلمين مع غير المسلمين.

وكان ظاهرا للعيان أنهم جميعا على تناقضاتهم الصارخة واختلاف سيوفهم على رقاب بعضهم البعض من الصحابة الأكارم.

ويعلمنا درس التاريخ القريب أن الأنظمة الفاشية تعمد إلى تبرير مسلكها بعدد من الأدوات كان أبرزها وأكثرها جودة وكفاءة (الدين). ولأن الدين عادة ما يكون عنصرا محايدا يحمل أكثر من وجه، فإن الدولة فى الأنظمة الفاشية، وأيضا الضعيفة التى لا تجد حلا ناجزا لمشاكلها، تلجأ إلى وسطاء الدين المحترفين ليقوموا بالانتقاء من بين النصوص ما يوافق هوى الحكومات، أو إعادة القراءة، أو تأويل النصوص بما يبرر المسلك والخيار المطلوب.

وهنا يجد العاملون بشئون التقديس فرصتهم التاريخية لدعم مصالحهم والعودة بقوة إلى الصفوف الأمامية السيادية، وهو الأمر المتكرر عبر التاريخ فى أكثر من موطن، لكنه كان واضحا كل الوضوح فى تاريخ البلاد العربية بشكل خاص.

ومع تبدل الأنظمة الحاكمة وتوجهاتها تتبدل القراءات والتأويلات للنصوص، لسبب بسيط أوضحه الإمام على بن أبى طالب عندما أبان أنها لا تنطق بلسان لكن ينطق بها الرجال، وهو قول حق وقصد حق. لأن أى مفسر أو مؤول لا يمكنه الزعم أن رأيه هو الصح المطلق، وإلا كان كمن يزعم الاطلاع على المقصد الإلهى الرفيع.

وهنا تكمن جريمة مزدوجة، جريمة فى حق الدين وفى حق العباد، فيتم التفسير والتأويل ويقدم بحسبانه الصواب النهائى. ويتم تطبيقه على عباد الله دون اعتبار للمظالم التى تقع وترتكب باسمه، والمقصد الإلهى برىء منها. وهو الأمر الذى شهدنا بشاعاته فى تاريخ أوروبا الذى بلغ قمته إبان زمن محاكم التفتيش، كما شهدناه فى تاريخ الدولة الإسلامية الإمبراطورية على تبدل الحاكم فى دولتها وفى دولها ما بين أموى وعباسى وما بين سنى وشيعى وفاطمى. وكان كل نظام يجد لمؤسسته أسانيدها الشرعية والنصية، مع عدد غفير من فقهاء كبار يبررون للنظام وجهة نظره ومنهجه السياسى، ومظالمه وقمعه للعباد.

ولأن مصر المحروسة هى شاغلنا وهمنا الأمس واليوم وغدا، فلا مفر من تسجيل حقيقة واضحة بشأنها، فالدولة بمؤسساتها الدينية تقدم كل إمكاناتها لإثبات حرصها على صحيح الدين من وجهة نظرها، بينما يقدم تيار الإسلام السياسى وجهة نظر أخرى هى النقيض تماما، وكل منهما ينطلق من ذات النصوص، وكل منهما يعلم يقينا أن هناك وجوها أغفلها المقدس وسكت عنها وعتم عليها عن قصد لأنها لا توافق خياراته السياسية.

وهنا بالتحديد يحدد لنا الدكتور فؤاد زكريا نقطة الضعف الأساسية فى خلط المقدس الدينى بما له من احترام واجب بأوراق السياسة وألاعيبها. لكن ذلك الضعف يشكل فى مستوى اخر خطورة شديدة لأن خلط أوراق السياسة بنصوص الدين سيؤدى إلى خسائر على المستويين، فالسياسة لها دسائسها ومؤمراتها وتكتيكاتها واستراتيجيتها وتقلباتها التى لا تراعى سوى المصالح الدنيوية المباشرة، وتعمل بإخلاص وفق مبدأ الغاية تبرر أى وسيلة، فإذا خلطنا الدين بالسياسة أسأنا إلى الدين وعاملناه بانتهازية واستثمرناه فى مراحل ثم أعدنا استثماره فى مراحل أخرى هى على النقيض من الأولى، وهبطنا به من قدسه إلى منطقة ومنطق لا يليق بقداسته. ولو تعاملنا فى السياسة بأخلاقيات الدين وروحانيته وزهده وورعه وتقواه فستكون الخسائر محققة وماحقة وسط عالم يتعامل فى ميدان السياسة بمنطق أبعد ما يكون عن منطق الدين.

وبالإضافة إلى الضعف والخطر فى هذا المنهج، هناك أيضا تقع الجريمة فى حق الدين وفى حق الناس وفى حق الوطن، لأن الذين يخلطون الدين بالسياسة هم الذين نسمع منهم صيحات التكفير والمصادرات والتخوين، وهم يعمدون بدهاء إلى مزج الدين وأصوله بآرائهم، ويقدمونه من خلال طرائقهم فى التفكير، بهدف لا يخفى على لبيب، فالهدف النهائى أن يؤول إليهم العمل نيابة عن الله باستبعاد وتكفير كل المخالفين، وبهدف أبعد يطبقون فيه النصوص بما يوافق أهدافهم، ومثل تلك الانتهازية للدين التى يقدمونها للبسطاء من المتدينين الطيبين حقا وصدقا هى جريمة بكل معنى الكلمة، تتحول بالوطن إلى فاشية كاملة، سبق وعانينا منها طوال العصور السوالف.

ومادمنا بصدد نقد المنهج فإن هذا النقد يصطدم بأصحاب منهج التكفير المتمسكين بحرفية الأصول لتطبيق النصوص على الواقع الراهن برؤية شمولية لا تراعى مستجدات العالم المعاصر بعد مرور ما يزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمان. وإخضاع الحاضر لمرجعية ليست نصية حقا

لكن لمرجعية قراءتهم هم للنصوص وفهمهم لها التى يقدمونها للناس بوصفها الحق المطلق.

ومن هنا فهم يتنادون بدولة يصبح فيها جهاز السلطة السياسى هو الدين من وجهة نظرهم. وأن يقوموا هم على شئونه وكلاء عن رب العباد، ومن هنا تصبح قراراتهم مقدسة، ويصبح مجرد المخالفة ولو شكلية مخالفة واعتراضا على الدين وعلى الله. وإذا كان حكم البشر يمكن النضال ضده لتغييره فإن مثل ذلك النضال ضد حكم من يحكمون باسم الدين سيكون نضالا ضد الله، ويتحول الصراع بين الناس إلى صراع بين الناس والله، ولنا هنا أن نتخيل حجم أنهار الدم التى ستجرى فى ديارنا، فى زمن لم يعد فيه وقت للتجارب على الوطن وعباد الله، بعد أن خضنا ذات التجارب وعانينا منها طوال القرون الغوابر.

أما الرؤية العلمية والعقلانية فإنها تظهر هؤلاء بمظهر العجز الواضح والفصيح، فهم عجزة عن الأخذ بأسباب التقدم لأن التقدم يعنى العلم والعنت والجهد والمشقة، كما يعنى الحريات الكاملة للفرد، وهو الكفر الفصيح من وجهة نظرهم. والمعلوم أن العلم لا ينمو ولا يزهر فى مناخ القهر والاستبداد بقدر ما نمو فى مناخ الحريات، بل إن هذا العجز لا يحتاج لإثباته، بدليل لجوئهم للأسلاف لحل مشاكل لم توجد زمنهم، بحسبانهم عكاكيز يتوكئون عليها نتيجة الشلل الذى أصابنا، الذى نتج بدوره عن هذا المنهج ذاته الذى ران على تاريخنا الطويل المتثائب.

والرؤية السلفية التكفيرية تقدم اقتناعها التام والكامل بتفوق عنصرى لا لسبب إلا للتميز بدينها على العاملين، رغم أنه ليس لمجتمع بعينه أية خصوصية تميزه بسبب دينه، لأن لكل الأمم أديانها بدورها، وإنك لا ترى على خريطة العالم من يقدم مثل تلك الرؤيا إلا بين الدول القابعة فى قاع التراتب الحضارى.

والغريب أن منهج التكفير لا يلحظ وهو يلقى بتهم التبعية على كاهل المخالفين، لا يرى أنه هو المنهج التابع العاجز عن الاستقلال عن الأسلاف، ولا يرى أنه فى تبعية كاملة لأجيال انقرضت فى زمان غير الزمان وبلاد غير البلاد. أما الأغرب فإن هؤلاء المكفرين يخالفون ما اصطلح عليه فقهاء السنة وأهل القبلة أنفسهم، ويمكنك أن تجده عند ابن نجيم فى (البحر الرائق فى شرح كنز الرقائق) وعند الملا على القارئ الحنفى فى (شرح الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان)، وعند ابن حجر المكى الهيثمى فى (الإعلام بقواطع الإسلام)، وعند حافظ الدين بن شهاب فى (الفتاوى البزازية)، التى جمعها ولخصها الشيخ خليل عبدالكريم،

وكلها كما هو واضح مصادر ذات ثقل ووزن وتحوز اعترافا واعتمادا واحتراما، وتجد فيها أن حكم التكفير لا يتم بدون فتوى، وليس لآحاد الناس إصدار تلك الفتوى ولو كان قاضيا، فصحيح الفتوى يلزمه إجماع الفقهاء وعلماء الدين، ولأن تحقيق ذلك أمر شبه مستحيل فقد أجمع أهل السنة على تخطئ المسلم لا تكفيره، ويعد ذلك من ممادح أهل السنة ومحمودهم الطيب، بل وضعوا حدودا قصوى لا يتم بموجبها تكفير من يصل به الشطط إلى حدودها، فهم لم يكفروا مثلا من قال إن الله جسدا كالأجساد المخلوقة، ولا من تمنى مناكحة الإخوة لأخواتهم، ولا من شك فى أن النبى مدفون بمسجده بالمدينة، ولا من يؤمن بالحج لكنه لا يرى الكعبة المكية هى بيت الله المقصود، ولا من تمنى عدم تحريم الخمر، ولا من قذف جميع نساء النبى عدا عائشة لأن السماء برأتها فى حديث الإفك، ولا من أنكر صحابة جميع الصحابة عدا أبى بكر. إلى هذا الحد لا يكفر من قال به.

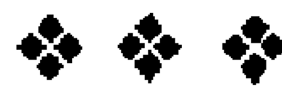
ويلاحظ هنا (مسألة التمنى) وأنها لا تكفر مسلما، ولا شك أنه ضمن هؤلاء الذين يتمنون من ينشدون دولة مدنية كاملة تأتى فى شكل أمانى ومشروعات واسئلة. وضمن ذلك أيضا يأتى نقد المنهج الذى يمكنه التشكيك فى ثوابت جرى عليها التقديس بفعل الزمان لا لكونها كانت كذلك حقا، حيث نقد المنهج يبغى الخروج بالوطن من منطقة الأزمة سليما معافى قويا مقتدرا دون اعتبار أو حسبان لأهل التكفير والتنفير، بعدما علمنا مدى المساحة المتاحة للقول والرأى فى الفقه الإسلامى، وبعدما رأينا مدى تناقض المكفرين وخطورة ما يطرحون على الأمة وعلى الدين وعلى الوطن. ودون ذلك هناك طريق آخر على مفترق الطرق الكبرى، وهو طريق سبقتنا إليه أمم خرجت من التاريخ وآلت إلى علماء الحفائر والآثار، عندما قررت الثبات وعدم التغير والحفاظ على الشخصية الثقافية الجامدة الواحدة.

منهج الطائفية وجائزة التسامح (*)

(*) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/٩/١٤ العدد ٣٦٦٦ (عند النشر اقتطعت المجلة أجزاء من الموضوع ولم تنشرها).

فى عُرس دولى راق تسلمت السيدة سوزان مبارك جائزة التسامح، لما بذلته من جهود معلومة على مستويات عديدة، لعل أهمها المستوى الثقافى وهو ساحة تشكيل وعى المواطن، لإيمانها بالتنوير كسبيل باتجاه سيادة مفاهيم التسامح، التى لا يمكن استقرارها وتفعيلها إلا فى هياكل دولة مدنية. بهدف أن تدخل مصر عصرا تأخرت عنه طويلا، على مستوى الحكومة والدولة والمجتمع، لتسهم بدور يليق برصيدها التاريخى من الحضارة، فى الدفع من أجل مزيد من الارتقاء الإنسانى على الكوكب الأرضى.

وفى كلمتها المتوازنة الدقيقة المفصحة عن وجه حضارى حقيقى، والأكثر رقيا وحسا إنسانيا من كثير مما نسمع فى عالمنا الثالث، أكدت هذه السيدة أن جائزة التسامح هى لمصر جميعا، وهو ترميز واضحة لأصحاب العقول يشير إلى طريق الخروج من منطقة الأزمة عبر المعانى التى تحملها الجائزة. ورغم ذلك فإن المطالع لجهود هذه السيدة مقارنا ببقية واقعنا ونغماته السائدة، لن يجد بُداً من نقد الواقع قياسا على رموز جائزة التسامح ومعانيها نقدا واضحا حتى لا تظل وحدها إضافة إلى نفر يعد على الأصابع من دعاة الدولة المدنية ينادون فى بيداء ويصرخون فى برية.



ولا شك أن الاستعمار بكل ألوانه، والسيطرة على الآخر والتدخل فى شئونه الداخلية، وفرض إرادة القوى على الضعيف سمة من سمات التدنى الحضارى التى لم تتخلص منها الإنسانية بعد. ونحن بالطبع ألد أعداء الاستعمار، وضد كل ألوانه وأشكاله، لأننا كنا الجانب الأضعف منذ أغلقنا النوافذ على عقولنا تقوقعنا داخل الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة، بينما ننعيها كل يوم على بنى صهيون.

وهنا يأتى التساؤل المفترض عن مدى صدقنا مع أنفسنا فى الموقف من المبدأ الاستعمارى، وهل هو موقف مبدئى أخلاقى يتسم بديمومة المبادئ واستمرارها؟ الواضح أننا نلوم القوى لأنه قوى ولا نلوم أنفسنا لضعفنا، ولا نبحث عن أسباب أسباب هذا الضعف لتجاوزه لنعيش دنيا الأقوياء. ونروح تبريرا لهذا الضعف أن الاستعمار يكمن لنا بمؤامراته فى طريق، بينما الحقيقة التى نتغافل عنها هى أن ضعفنا كان السبب فى استعمارنا وتوارى إرادتنا وتراخيها.

إننا من موقع الضعف نعلن دوما تمسكنا بالمبادئ الرفيعة مثل رفضنا لتدخل الدول القوية فى شئون الدول الأضعف، ولكننا أبدا لم نجد بأسا فى التدخل فى شئون أفغانستان إبان ما سمى بالجهاد ضد الشيوعية، كما لا نجد أى مانع من التدخل فى البوسنة.

نعم نحن ضد الاستعمار لكننا نرسل الدمع ثرا فى بكائيات مكلومة كلما جاء ذكر الأندلس التى تحررت من استعمارنا. وفى الوقت ذاته نؤمن عن يقين أننا رُسل السماء لاحتلال العالم ونشر كلمة الله فيه، ولم يزل خطباء المساجد والزوايا فى كفورنا ونجوعنا يدعون الله أن يساعدنا فى احتلال بلاد الغير ونفل أموالها وسبى ذراريها ونسائها.

وفى مصنفات سيد قطب نجد دعوة واضحة صريحة للتدخل فى شئون الشعوب والأمم الأخرى وفرض الإسلام عليها بالقوة، لأن منهج الإسلام هو إزالة الطواغيت من الأرض جميعا وتحطيم الأنظمة السياسية القائمة فيها، أو أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون. أما الشيخ يوسف البدرى فيرى أنه من واجب المسلمين إعلان الحرب على بلغاريا وأسبانيا باعتبارها ديارا للإسلام.

فهل تفصح هذه اللوحة عن إيمان بمبدأ إنسانى رفيع نتمسك به؟ أم أن الأمر لدينا كما لدى الجميع، حيث كان فعلنا القوى زمن القوة فأقمنا إمبراطورية كبرى باحتلال بلدان المتوسط جميعه، وهو الأمر الذى يسقط حجة تميزنا الثقافى الذى ندعيه ونترفع به على العالم، فقانون القوة والضعف يسرى على الجميع دون تميز لشخصية قومية على أخرى.

وهناك مشترك واضح بين أحوال الأمس وظروف اليوم يقف وراء استمرار دعوة القوة زمن الضعف، وهو المشترك الذى لا يجعلنا نلتفت إلى أمراضنا الذاتية لعلاجها، وهذا المشترك هو منهج الطائفية العنصرى، الذى يكاد يلغى الوطن ومفاهيمه من خريطة همومنا. فقط نحن نكرر ونكرس طوال الوقت مفهوما عنصريا مفاده أننا خير الأمم بدينها والأفضل بين العالمين لأننا حزب الله وكل آخر هو فى الدرك الأسفل لأنه حزب الشيطان.

وإعمالا لهذا المنهج دعا الأستاذ الحمزة دعبس الرئيس الأمريكى كلينتون للإسلام، وهى الدعوة التى سبق ووجهها لسلفه بوش. وأبدا لم يتساءل الأستاذ دعبس عما يمكن أن يغرى بوش أو كلينتون بالإسلام وهو يرى أحوال المسلمين فى أدنى درجات الأمم. ويبدو أنه قد تصور أن مجرد إسلام كلينتون يعنى دخول الأمريكان فى دين الله أفواجا، كما لو كان شيخا لقبيلة تتبع سيدها، غير مدرك للفارق بين طرائق الأمريكان وطرائقنا فى التفكير وفى الأنظمة القانونية والاجتماعية والسياسية. ثم لا بد أن نتساءل عن موقفنا لو فكر كلينتون بنفس المنهج وطالبنا بدخول دينه أو الحرب أو الجزية؟

إن الطائفية كرؤية عنصرية ربما لا تشكل الآن على الآمل خطرا على الآخر المخالف مع وضعنا المزرى خارج الحضارة، لكن خطرها الماحق على الوطن والناس فى هذا الوطن. ولأن أصحاب المنهج الطائفى ينزعجون من قوى الاستكبار فيبدو أن الأستاذ دعبس رأى أن الحل هو الاستسلام لقوى الاستكبار شريطة أن يكونوا مسلمين، ولا بأس حكم الديلم والمماليك والعثمانلية وغيرهم من سقط متاع الشعوب ومن سبقوهم على أكتافنا دورا فدورا، لا لشىء إلا لكونهم مسلمين، مما أدى إلى توارى مفهوم الوطن وكاد يلغيه بالكامل.

والمنهج الطائفى لا يتوقف عند تلك الأسماء، إنما يتعداه إلى هيمنة للمنهج العنصرى سياسيا وإجتماعيا وثقافيا للدولة والمجتمع ومجموع القيم والسلوك للأفراد والمؤسسات. بينما الشرط الأول للكرامة الوطنية هو تماسك الوطن فى مراحل التحول والمنحنيات الخطرة، وهو ما يغفله المنهج الطائفى ولا يستطيع حتى التفكير فيه.

وهنا نستأنس بفقرة للأستاذ نجيب محفوظ أوردها فى كتاب أصدرته الهيئة العامة للكتاب ضمن سلسلة كتب مواجهة الأرهاب يقول فيها: "هناك ملاحظات على تعامل الدولة مع المواطنين وما يشوبه من **تحيز وتفرقة.. والإعلام كثيرا ما يذيع على أوسع نطاق ما يعد استهانة أو تحقيرا أو إنكارا لعقائد الآخرين**، دون مراعاة لما قد يسببه ذلك من هزات فى تماسك المجتمع".

وهذا يعنى أننا نفتقد لعنصر التماسك الوطنى ليس بسبب غيرنا لكن بسبب منهجنا، رغم أن لدينا دستورا ينص على قواعد المدنية، وإن إعمال هذه النصوص لتحقيق الحريات المدنية هو الكفيل بالوحدة الوطنية التى هى أساس هوية الوطن، فهوية المسلم المصرى مصرية لا أفغانية ولا حجازية، وهوية المسيحى المصرى مصرية لا أمريكية ولا فرنسية، وعدم

إعمال تلك النصوص بوضوح وبسرعة يعنى تشرذم الولاءات حيث ينتمى المسلم المصرى إلى الأفغانى والحجازى، وينتمى المسيحى المصرى إلى الأمريكى والفرنسى.

وقد سبق وقلنا وزدنا أن لمصر ثلاث ثقافات لا ينبغى أن تعلو واحدة منها فوق الأخريات، وتلك الثقافات هى الثقافة المصرية القديمة الأصلية، ثم الثقافة القبطية وهى ثقافة مصرية مكتوبة بالحروف اليونانية، ثم الثقافة العربية الإسلامية الوافدة. وإن تسييد الثقافة العربية وحدها فوق الثقافات الوطنية الأخرى يطعن فى صدق مبدأ المواطنة المصرية. لأن من يبغى سيادة الثقافة العربية وحدها لا يرى فى ثقافات مصر السابقة ثقافة له، مما يعنى أنه لا يفكر كمصرى، بل كمستوطن عربى غاز، لهذا نكرر أن منطق الطائفة يستتبعه بالضرورة إلغاء مفهوم الوطن بل وتمزيق هذا الوطن.

والملاحظ أن أدعياء الثقافة العربية وحدها يتجاهلون دور المسيحيين المصريين والعرب فى صياغة المنظومة الثقافية المصرية والعربية مما يؤدى إلى قلقهم على مصيرهم وشعورهم بالغربة فى وطنهم لحصرهم فى خانة الطائفة وليس فى مفهوم الوطن الأرحب. والكلام عن تسامح المسلم مع المسيحى لا يغير واقعا لأنه فى مفهوم المواطنة لا يفترض تسود طائفة وتتسامح أو لا تتسامح، بل يفترض مبدأ المساواة لا مبدأ التسامح مع أهل الذمة. وقد أقر الدستور المصرى مبدأ المساواة بصرف النظر عن العقيدة، كما وقعت مصر على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى يقول فى مادته الثانية: "لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان دون تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى شىء آخر"، ودرس السودان ماثل أمامنا منذ فجرته الطائفية.

وتكون الكارثة أعمق عندما تعتقد الطائفة السائدة أنها تمثل الخير كله بحسبانها حزب الله. لأن هذا يعنى أن من يخالفها مخالف للحق لذلك لابد من تدمير المخالف وإزالته. وهنا تفرخ الممارسات الإرهابية وتبيض، ومن هنا نلح على أن علاج ظاهرة الإرهاب ليس فقط بالمواجهات الأمنية، إنما بتفعيل المنهج المدنى على كل المستويات. والمعلوم أن من يرفض المنهج المدنى على كل المستويات. صاحب مصلحة طائفية ومن يطلبه صاحب مبدأ وطنى، فأغلبية باكستان المسلمة ترفض تطبيق المنهج المدنى بينما تلح فى طلبه الأقلية المسلمة فى الهند. فالمنطق المدنى ينحاز للإنسان وليس إلى طائفته أو طبقته ويقوم على الحرية ولا يجبر أحدا على اعتناق

مبادئه بالرصاص والرشاشات. أما المنهج الطائفى فهو الذى دفع بالدكتور أحمد شلبى فى سلسلة المواجهة ذاتها التى أسلفنا قول الأستاذ نجيب محفوظ فيها، ليقول: "أعداؤنا فى الخارج اهتزوا لسقوط واحد أو أكثر من الأقباط بيد المسلمين **ولكنهم لا يعيرون أى التفات لسقوط الآلاف من المسلمين بيد المسيحيين فى البوسنة والهرسك**".

وبغض النظر عن قوله بسقوط واحد أو أكثر لما فيه من تزييف، فلنا أن نلاحظ إلى أى حد وإلى هذه الدرجة يغطى منهج الطائفة مساحة الرؤية، ويصبح الأقرب للمسلم المصرى المسلم البوسنى وليس القبطى المصرى، الذى تصبح دماءه حلالا، وعليه أن يدفع ثمن ما يحدث فى البوسنة والهرسك.

ألا ترون أننا بحاجة إلى تغيير عظيم وجهد أعظم حتى نستحق كرم السيدة سوزان مبارك بإهدائنا جائزتها، جائزة التسامح؟!

الواحدية والتعددية(*)

(*) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/٩/٢١ العدد ٣٦٦٧ .

هناك نغمة سائدة يرددها الإسلام السياسى عبر مجلاته وصحفه المتعددة، وعبر مقاره التى تتعدد بتعدد المساجد والزوايا التى تعد بمئات الألوف، وهى النغمة التى ترسل نواحها وعويلها وهوانها تندب توارى الفكر الإسلامى فى أجهزة التثقيف والإعلام الرسمى للدولة، وأن تلك الأجهزة قد فتحت أبوابها للفكر العلمانى على مصراعيه. وتصحب تلك الشكوى أمثلة على ذلك بالمسرحيات الهزلية والأفلام الخلاعية والإعلانات المبتذلة والرقص وما إلى ذلك، كما لو كانت هذه هى العلمانية.

والمدهش أن تجد تلك النغمة المزورة أذانا صاغية دون الوقوف وهلة للتأكد (فيما ينبهنا الدكتور فؤاد زكريا) من صحة ذلك الاحتجاج، ودون مقارنة بين عدد الصحف والمجلات والكتب الحزبية والرسمية التى تكرس وجهة نظر الفكر الإسلامى والسياسى منه خاصة، ولا تجد على الوجه الآخر مقارنة لنقول (مقارنة بين كذا وكذا) لأنه لا توجد مجلة ولا صحيفة واحدة مخصصة لمفكرى التيار العلمانى على غرار اللواء والدعوة والشعب والنور وعقيدتى وخيبتى.. الخ. بل إن أى مفكر علمانى يحاول أن يجد أى منفذ يصل إلى وعى الناس، ويتحايل فيما يكتب ويلتف ويحاذر لكى يقول كلمته، هذا إذا وجد المنفذ. ثم هل سمعنا برنامجا واحدا على أى من قنواتنا التلفزيونية أو الإذاعية يخلو من لغة ومفردات واصطلاحات الفكر الإسلامى وحده. حتى فى البرامج العلمية المفترض أنها علمانية يتم السطو عليها لصالح الفكر الدينى الأحادى السائد، لتفريغها من محتواها ومضمونها العلمى لصالح ما هو أبعد ما يكون عن العلم، ثم هل سمعنا برنامجا واحدا ولو مرة فى الشهر، بل ولو مرة فى السنة يخصص للفكر العلمانى؟ أو هل سمحت تلك الأجهزة لمفكر علمانى ليدافع عن نفسه إزاء الحملات الضارية ومحاكمات التفريق والتكفير والتنفير؟

إن دولة المؤسسات المدنية التى نزعمها للعالم لا تبرز فيها سوى

تجليات الفكر الإسلامى وحده على كل المستويات، وهو ما يعنى أن أصحاب هذه النغمة يريدون المزيد، ولم يبق من مزيد سوى السلطة نفسها. وهكذا سجلت مؤسسات الدولة (فيما لاحظ الدكتور غالى شكرى) تراجعات إثر تراجعات أمام التيار المتشدد حتى تحول الإعلام إلى أدلجة لوعى المواطن وتهيئته لقبول ما يطرحه الإسلام السياسى، والظهور بمظهر التناقض أمام رجل الشارع، ما بين شعارات اقتصاد السوق والاستثمار والسياحة وبين التدين الذى هو على النقيض من هذه الشعارات. وكان لجوئها إلى إعادة إنتاج الأيديولوجيا الدينية بانتقاءات تخدم شعاراتها مدعاة إلى ازدواجية فى الإعلام والتعليم والقوانين (خاصة الأحوال الشخصية)، وهو ما يفتح فى وعى المواطنين الثغرة على كامل اتساعها للإسلام السياسى ليقوم بدوره بانتقاءات أخرى هى على النقيض، فترد الدولة بمزيد من البرامج والتشريعات والمقررات. بينما حقيقة ما يحدث هو أن السلطة تسلم وتقر بما تفعله فى إعلامها وتعليمها بصحة ما يطرحه الإسلام السياسى، ويصبح وعى المواطن مع أحقية الجماعات فى استلام السلطة لتنفيذ ما أكدت السلطة صدقه، **ولأن تلك الجماعات تصبح هى الأولى بتنفيذه.**

وترتب على تراكم أخطاء الإعلام والتعليم سيادة فكر واحد أحادى مغلق على مستوى المجتمع والرأى العام والقيم السائدة دون الالتفات لحظة إلى أسباب الكوارث وإلى خطأ المنهج، الذى لابد أن ينتهى بالضرورة بحسابات التنبؤ العلمى إلى سقوط مروع سيبدأ على المستوى الاقتصادى حتما، إذا لم يتم الإسراع بالربط بيين سياسة الانفتاح الاقتصادى ونظام السوق وبين ليبرالية كاملة تطبق مشروعها المدنى فى الواقع، بما يسمح بتعددية ثقافية وسياسية ودينية ومذهبية، وأن يعترف هذا شروع باختلاف الأصول والمصالح والأعراق والعقائد والعبادات والرؤى والفلسفات، بحيث تصبح المرجعية التأسيسية هى مصالح المنتجين ومصالح المجتمع المدنى، لفتح النوافذ على العقل بتأسيس حريات الفرد الكاملة، ليجد العقل مناخه الحر، وهو المناخ الطبيعى لفرز الكشوف والاختراعات والإبداع التقنى والفنى والأدبى. وهو ما سيؤدى بالضرورة إلى استقلالية الاقتصاد المصرى واستقلالية الإرادة واستقلالية القرار. حيث سيتميز الاقتصاد الوطنى والسياسة الوطنية بخصوصية المنجزات والكشوف والمعلومات فيقف إزاء الآخر قادرا على المنافسة وندا وليس عالة على ماكينة الكشف التكنولوجى المستوردة.



ولأننا قطعنا ذاكرتنا التاريخية وتوقفنا عند زمن السلف الصالح وحده وأسقطنا ما قبله لأنه حضارات كافرة، وأسقطنا ما بعده لأنه تلى خير العصور وانحدر إلى البدع والمحدثات، ففقدنا تلك الذاكرة ولم نعد نعى دروس التاريخ حتى تاريخنا الإسلامى تاريخ الدولة العربية الإمبراطورية، لنعرف على الأقل السر الحقيقى الموضوعى وليس الأسطورى الوهمى وراء عزتها واقتدارها وعافيتها إبان ذلك. ولم نحاول أن نراها وهى تفتح نوافذها لكل ألوان التعددية فى الثقافات فنهلت من معارف البلاد المفتوحة وحضاراتها القديمة، من فارس إلى مصر ومن اليونان إلى الرومان. عندما قامت حركة ترجمة نشطة كبرى قام عليها مسلمون ويهود ومسيحيون. ومع الانفتاح الثقافى تحولت الحركة إلى الكشف والإبداع فظهر الخوارزمى وابن النفيس وابن الهيثم وابن سينا وابن رشد. وعلى مستوى الفكر الدينى الإسلامى كانت هناك تعددية هائلة ومدارس متناقضة متعاصرة متتالية، من حشوية إلى مرجئة إلى معطلة إلى سنة إلى شيعة إلى معتزلة إلى أشعرية.

وعلى مستوى الفقه الإسلامى نفسه تعددت الآراء واختلفت داخل الزمن الواحد فتعاصر الفقهاء المختلفون حول قضايا الدين، فعاش أبو حنيفة النعمان (٨٠ ـ ١٥٠هـ) زمن مالك (٩٣ ـ ١٧٩هـ)، وعاصر الشافعى (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) أحمد بن حنبل (١٧٤ ـ ٢٤١هـ). وأسس كل منهم مذهبا غير الآخر، بل وظهرت تيارات إلحادية كانت ضريبة الحرية والتقدم والقوة، فكان هناك المعرى وابن الراوندى والرازى. واختلف المسلمون حول التفاسير، بالمأثور أم بالعقل أم بالرؤى الصوفية، واختلفوا حول مدى اعتبار أسباب النزول، وعلى ظاهر النصوص وتأويلها. وفى علوم الحديث اختلفوا حول صحيحها وعدد هذا الصحيح، واختلفوا حول حجية السنة وحجية الإجماع، وحول معنى الصحابة وهل كانوا جميع من عاشوا زمن الدعوة أم المقربين فقط، ولم يتم تكفير أحدهم ولم يرفع أحد عليهم سلاحا ولا طلب محاكمتهم، بل كان الواحد من كبار الفقهاء يقول: ربما كان رأيى هو الخطأ ورأى غيرى هو الصواب.

لقد فتحت الأمة نوافذها فتجدد هواءها وارتفع شأنها وعندما بدأ عصر الانتكاس والتقوقع وسيادة منظومة الشخصية الثقافية الواحدة المتحالفة مع السلطان بدأ التكفير والتبديع. وصودر المعتزلة واختفت كتب بن الراوندى التسعون وحُرقت مصنفات ابن رشد ونفى إلى بلاد الفرنجة، لندخل نحن العصور المظلمة نصنف كل شئون الحياة بين الكفر والإيمان وبين الحلال والحرام، بينما بدأت أوروبا تنويرها بعصر مدرسى عُرف

اصطلاحا بعصر الرشدية اللاتينية نسبة لابن رشد، لتنطلق بعد أن أخذت بتصنيف آخر ما بين مدى النفع والضرر على الناس والأمم، وبين الصواب والخطأ العقلى والعلمى والعملى بما تقتضيه مصالح المجتمع والمنتجين.

وتوقف زخم أمة العرب مع سيادة السلفية الواحدية التى لا تقبل الآخر ولا ترضى بغير شخصيتها الثابتة وترفض أى تغيير أو تبديل. وكان هو درس التاريخ بل درس تاريخنا على نحن وليس تاريخ آخر. فالحضارة تزدهر وتتفتح عندما تنفتح على الآخر وتسمح بالتعددية، وتسقط عندما تسقط فى الواحدية والمطلقات اليقينية والذات النرجسية المتضخمة. وهو ذات الدرس الذى حدث بالأمس القريب عندما تحول الاتحاد السوفيتى من دولة عظمى إلى دولة مغلقة على نصوص ماركسية مقدسة تكفر المخالف، فكان السقوط مروعا.

وهنا ينبه الدكتور غالى شكرى إلى أن أوروبا قد وعت الدرس وهى تصحو من عصور ظلامها الواحدى فانفتحت على التعددية، وقررت أن تكون وارثة لكل الحضارات القديمة والثقافات على تعددها، ومن تراث اليونان إلى الرومان إلى الفراعنة إلى الرافدين إلى الهند إلى الصين إلى فارس، ومن أوزيريس إلى جلجامش إلى أوديب، دون عقد نفسية أو دينية، ولأنهم كانوا القادرين على تلك الوارثة وأمكنهم اكتساب قدرة التغير والتكيف، أصبحوا بالفعل هم الورثة الشرعيون لمأثور الإنسانية، ولم يكونوا مثل أولئك الذين يدعون البنوة لتراث بعينه من باب سرقة التركة. وانطلق الورثة الشرعيون دون تعصب لتراث الغرب وحده، ودون أن يحتسبوا أخذهم عن تراث غيرهم غزوا ثقافيا. بينما نقبع نحن نؤكد دوما أن الغرب قد أخذ عنا، لكنا لا نقبل أبدا الأخذ عنه وإلا كان غزوا ثقافيا، لا لسبب إلا لأننا الأمة الكاملة المختارة التى تملك كل المعارف اليقينية فى كل شأن ممكن منذ الخليقة وحتى نهاية الأزمان.

اليولياويون والإسلاميون (•)

(•) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٩٩٨/٩/٢٨ العدد ٣٦٦٨ .

إن علاقة حركة ضباط الجيش اليولياويون بتيار الإسلام السياسى علاقة تاريخية مركبة فيها الكثير من وشائج الاتصال لقيامهما على أيديولوجيا تتفق فى تفاصيلها الدقيقة، وتختلف وتتناقض فقط عند منطقة السلطة والسيادة. وهو الأمر الذى يحتاج إلى بعض الفحص لفك الاشتباك بين الخيوط المعقدة فى تاريخ تلك العلاقة، وإلقاء الضوء على القواسم المشتركة وعلى مناطق المغايرة والانفصال.

والمعلوم أن حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢، والتى لبست عباءة التيار العروبى القومى الشامى لتوسيع مساحة الزعامة، قد بدأت تواصلها مع تيار الإسلام السياسى قبل يوليو ٥٢ بحوالى عشرين عاما، عندما كانت جماعة الضباط الأحرار تحت قيادة عزيز المصرى، الذى عين عبد المنعم عبدالرؤوف ضابطا للاتصال بين الإخوان المسلمين والضباط الأحرار باعتباره عضوا فى كلتا الجماعتين.

ومعلوم أن أنور السادات قد التقى بحسن البنا أكثر من مرة سنة ٤٢ للتنسيق بين الحركتين تأييدا للفاشية الألمانية.

وبعد هزيمة ١٩٤٨ اتهم جمال عبدالناصر بتدريب الإخوان على حمل السلاح والاشتراك فى جرائم اغتيال ولم تثبت عليه التهمة، فى الوقت الذى كان فيه صالح أبو رقيق الزعيم الإخوانى ينقل بمساعدة عبدالناصر الأسلحة المهربة من المعسكرات إلى عزبة القيادى الإخوانى حسن العشماوى بالشرقية، ومن المعلوم أيضا أن الفريق الوحيد فى مصر الذى تمت إحاطته بموعد قيام الحركة بالإستيلاء على السلطة كان الفريق الإخوانى، وتم ذلك فى مقابلة بين كمال الدين حسين وجمال عبدالناصر وبيين صالح أبو رقيق.

وأصدر مجلس قيادة الثورة مع استيلاء اليولياويين على السلطة فى مصر قراراته بحل جميع الأحزاب، لكنه استثنى من ذلك جماعة الإخوان

المسلمين، بل وأشركت حكومة يوليو بزعامة محمد نجيب، ثلاثة من الإخوان فى وزارتها.

وبدأت بوادر الطلاق بين الفريقين مع اشتراط حكومة الثورة عدم اشتغال الإخوان بالسياسة، فكان رد مكتب الإرشاد صلفا يطلب من الحكومة عرض أى قرار لها على مكتب الإرشاد للموافقة عليه قبل تنفيذه، وهو الأمر الذى أدى إلى مجموعة من التداعيات تحول فيها الحلفاء إلى أعداء ألداء، فصدرت الأوامر بحل الجماعة والقبض على قياداتها فى ٥٤، فقرر الإخوان التخلص من عبدالناصر إبان خطابه فى المنشية بالإسكندرية فى نفس العام، وهو ما أعطى الفرصة لليولياويين للتخلص من الإخوان بعنف انتهى باعتقال الآلاف وإعدام ست من القيادات.

وبانتهاء مدة العقوبة خرج الإخوان عام ٦٤ من السجون لكنهم عادوا إليها خلال عام واحد بعد أن أعادوا تنظيم أنفسهم تحت مظلة أفكار سيد قطب بهدف تدمير المنشآت واغتيال القادة اليولياويين والاستيلاء على السلطة، لكنها كانت المرة الأخيرة لهم فى الزمن الناصرى إذ انتهت بإعدام رؤسائهم وإلقاء بقيتهم فى المعتقلات مع تجريم نشاطهم وطنيا ودينيا وتحريمه بالكلية، إلى أن أعادهم أنور السادات فى صراعه مع التراث الناصرى ورجاله، لكن لينتهى الأمر كما هو معلوم باغتيال السادات على أيدى الإسلام السياسى فى تراجيديا علنية تاريخية تشهد بمدى التركيب والتعقيد فى العلاقة بين التيارين، لكن ذكرى التعذيب والمعتقلات والإعدامات ظلت الهاجس الثأرى الدائم لدى تيار الإسلام السياسى إزاء الناصرية، والدعوة القومية فى عمومها.

وشائج الاتصال بين التيارين تقوم على بنية تأسيسية مشتركة فى عصب الأيدولوجيا ذاته، فالتعصب سواء للعنصر القومى العروبى عند اليولياويين أو للطائفة الدينية عند الإسلاميين سمة واضحة أفصحت فى حكومة الجيش عن عبادة البطل الفرد المنقذ، وهو الأمر الذين لم يحاول تيار الإسلام السياسى إخفاءه عندما وجه رسالة مفتوحة فى صحيفة الأخبار بتوقيع سيد قطب لرئيس الحكومة حينذاك اللواء محمد نجيب يطالبه بإقامة ديكتاتورية عادلة ونظيفة، وأفصحت السنوات الأولى لسلطة يوليو عن منهج ديكتاتورى واضح فأقصت الدستور وحلت الأحزاب وألغت البرلمان ووضعت أقصى الاجراءات الاستثنائية، فكان الوجه الفاشى أول العلامات المشتركة بين الفصيلين.

وطبقت يوليو مبادئ الفاشيست بإخلاص، فالفاشية تختلق الأعداء وتخترع المظالم التاريخية لتضمن ولاء الجماهير وأنضوائها تحت قيادتها

إزاء الأخطار ولمواجهة الأعداء، والفاشية تحول مناهج الإعلام والتعليم إلى تغن دائم بالقدرات الخارقة للبطل الملهم، والفاشية لاتترك أى مساحة للرأى فيصبح الرأى واحدا والحزب أوحدا، أما المعتقلات والمشانق فهى السلاح الأمثل بيدها لحسم أى خلاف، ولو حدث عكس ماحدث واستولى الإسلاميون على السلطة لفتكوا بحلفائهم ربما بشكل أكثر صرامة وبشاعة.

كذلك يتفق الفصيلان فى مشترك معلن يعلى مفهوم الجماعة والأمة على حساب الفرد وحرياته وحقوقه الإنسانية، فالهدف الأعظم هو الأمة والجماعة أمام الأعداء، وتتماهى الأمة فى شخص الزعيم فيصبحا رمزا واحدا، وبسبيل ذلك لابأس من إهدار كرامة الوطن والخوض فى بحار الدم، لأن الفرد لايوجد ولايريد ولايفكر ولايرى إلا من خلال الجماعة وبموافقتها، وعلى الجميع اعتناق عقيدة الأمة المتميزة بلسانها ودينها ورسالتها الخالدة، بغض النظر عن وجود مواطنين أصلاء فى الوطن لايدينون بالإسلام ولا يرون قدسية فى لغته.

ولأن الأمة المقدسة هى الصح الأوحد المكتفى بذاته فى المطلق، فلا وجود للفرد أو للرأى أو العقيدة المخالفة حتى لو كانت دينية، وحتى لو كان ذلك ضد مفهوم المواطنة السياسى الذى يضم المواطنين جميعا بغض النظر عن ألوانهم وعقائدهم وعروقهم.

وعقيدة الأمة الجماعة مسكونة دوما فى المنطقة العربية بهاجس الفتنة والتفرق، لأن الدولة العربية الأولى قامت على احتلال دول المحيط وتعريبها ثقافة ولغة ودينا ما أمكن، وهى على علم يقينى أن لهذه البلاد حضارات ولتلك الحضارات أصحاب وعقائد مخالفة، لذلك كان منطق الأمة فوق العقائد وفوق الأفراد وفوق المذاهب وضد أى تعددية، قد تفتح الباب إلى نزاعات استقلالية تم تجريمها قوميا ونعتت بالشعوبية الملعونة من العروبيين ومن المتأسلمين على حد سواء.

إذن هناك أرضية أيديولوجية واحدة تجمع الطرفين، لكن هناك أيضا تناقضات حادة لايمكن إغفالها، ويعلمها يقينا التيار القومى الناصرى يتغافل عنها، تناقضات يغذيها اختلاف جذرى واستراتيجى عميق حيث يتناقض المشروع الإسلامى التاريخى مع الفكرة العربية القومية بل ويناهضها، ويغذى العداء لها ذكريات الإعدامات والمعتقلات والروح الثأرية المتربصة للقصاص الذى فيه حياة لأولى الألباب، ناهيك عن التناقض التأسيسى بين المفهوم العروبى الذى يقصر القومية على العنصر العربى وبين المفهوم الإسلامى الطائفى الجامع لكل المسلمين بغض النظر عن غير المسلمين من عرب مواطنين.

وبات واضحا أن معادلة النهضة التى أقامتها دولة محمد على قد انتهت بكارثة الهزيمة الكبرى للناصرية فى ٦٧، قبل أن يتمكن النظام العسكرى من تحقيق الفكرة القومية وإقامة الإمبراطورية على غرار دولة الخلافة الغابرة، فاكتفى بإقامة أقواس نصر وهمية فوق ردم من جثث الشهداء والمعتقلين وكرامة الإنسان والاقتصاد المنهار، ليتكرر درس التاريخ الدائم: إن غياب الحريات يؤدى إلى غياب مفهوم الوطن، وأن التميز العرقى والطائفى تصحبه بالضرورة قوة القهر السياسى والمذهبى فلا يفرز فى النهاية سوى النكبات والهزائم، ومع الهزيمة ثم غياب الزعيم الملهم سقطت مراكز القوى السيادية التى كانت تعشش فى أرجاء البلاد، لكن لتفسح المكان للفصيل الإسلامى ليستعيد نشاطه ويطرح مشروعه البديل تحت ذات اللاءات الفاشية.

وبالهزيمة وغياب الزعيم وسقوط المشروع شعر المثقفون الناصريون بعد انحسار نفوذهم باليتم والضياع فى العراء، فقاموا يبحثون عن ملجأ وملاذ يضعهم مرة أخرى فى مساحة السلطة عند المشروع البديل المنتظر، كان الملجأ وأقرب المشاريع لذات المنهج وذات الفكر وذات الأيديولوجيا هو مشروع الإسلام السياسى، فبدأ الغزل فالحوار فالتحالفات، لكنها أفصحت عن وجه ردىء، أبان عما آل إليه حال المثقفين اليولياويين، فى صحف حزبية قامت تتكسب بنفحات بترودولارية لمجرد الاستمرار فى الوجود، مقابل صفحات دينية موسعة تردد أبشع المقولات الفاشية وتضرب كل مساحات الحرية، معتمدة على حجة معلنة وهى أن عداء الإسلام السياسى للغرب كاف وحده كمعيار لصدق التوجهات ومبرر للتحالفات، مع إغماض العين تماما عن دور هذا الغرب فى دعم وإقامة عمد تيار الإسلام السياسى، وأن أشد أنصار هذا الغرب فى دعم وإقامة هذا الغرب فى المنطقة هو المركز القدسى للإسلام السياسى، ومصدر التمويل الدائم للحركات الإرهابية الفاشية فى الوقت نفسه.

وفى مواجهة الإرهاب أصدرت الهيئة العامة للكتاب سلسلة «المواجهة» المفترض أنها كرست لتأسيس وعى وطنى ديمقراطى فى مواجهة الإرهاب الفاشى، لكن للمفارقة أن تجد هذه السلسلة تؤسس للحلف بين الفصائل الباقية من تيار يوليو وبين الإسلام السياسى، فنقرأ فلسفة هذا التحالف فى كتاب «جذور الإرهاب» حيث يقول الدكتور محمد الفيومى صفحة ٩ موضحا قاطعا: «إنه لامستقبل للأمة العربية إلا بهما، **فلا عروبة من غير إسلام ولا إسلام من غير عروبة**، وهما معا من ركائز الأمة التاريخية والحضارية، ومنها تستمد أصولها الإيمانية والعقائدية، والتشكيك فيهما

يؤدى إلى زعزعة الثقة فى نفوس الشباب ويصبح لديه كل شىء مباح، مادام الإسلام قد أصبح قضية ثقافية يجوز حولها النقاش والجدل».

الرجل يضع شروط التحالف واضحة، فهو لايرضى مبدئيا بأى خلاف أو جدل خاصة حول الإسلام فذلك فى رأيه سبب الإرهاب، هذا رغم اختلاف المسلمين فرقا ومذاهب وفقها زمن الامبراطورية، ورغم الحس الشعبى الذى رأى أن فى «اختلافهم رحمة»، حيث يسمح الاختلاف بالتعددية فى الرأى وعدم تسلط رأى أوحد لايرحم، وعليه فلا يرى الدكتور الفيومى مستقبلا للأمة العربية بدون إسلام **متغافلا تماما عن ملايين المسيحيين العرب**، ولم يقل لنا هل نؤسلمهم جميعا، وهل هذا ممكن فى عالم اليوم؟ أم نفعل معهم مافعله النظام الناصرى مع اليهود المصريين عندما طردهم من وطنهم ليعطيهم ذخيرة لدولة إسرائيل؟.

هنا ننصت إلى صوت آخر، صوت مسيحى عربى هو صوت أنطوان عويس يرد على هذا التحالف فى مؤتمر العلمنة والهوية العربية بلبنان فيقول: «**إذا كانت العروبة مرتبطة بالإسلام فإنى لاأقبلها**، وأنا أتكلم كمسيحى مارونى من كسروان، وأظن أن ٩٩٪ من المسيحيين لايقبلون بها، أما إذا قالوا إن هذه العروبة هى فى الوقت نفسه ديمقراطية علمانية، فالمؤكد أن ٩٩٪ من المسيحيين يقبلون بها».

هل يجوز هنا تكفير الرجل وطنيا وتخوينه قوميا على العادة الفاشية؟ وهل يختلف أحد سوى الفاشيست على أن الوحدة الوطنية هى القاسم المشترك الأعظم فى الهوية التى توحد المواطن بالوطن؟ وهل الدعوة لتحالف القومى والإسلام تقيم حلفا وطنيا أو قوميا فى مواجهة الآخر، أم أنها تفتت الجبهة الوطنية وتنشر الفرقة فى الصف الوطنى؟ وهل نتج هبوطنا حيث نبقع الأن إلا عن تفعيل شعارات الصراع الدينى العنصرى مع إسرائيل؟ فأعطينا إسرائيل مشروعية وجودها العنصرى الطائفى فى المقابل؟ وأسسنا العداء العنصرى الطائفى فى وجدان الجماهير حتى دفع المسيحيون المصريون ثمنه على يد الإرهاب لأنهم ليسو مسلمين، فهم ليسوا مواطنين، بعد أن غاب مفهوم الوطن وحلت محله الطائفة والأمة الجامعة.

هذه مجمل الاتفاقات والفروق والتداخلات، لكن الفارق الجوهرى بين المفهوم القومى العروبى وبين الإسلامى، هو أن الإسلام دين فهو قيمة روحية وليس وطنا، أما العروبة فهى قيمة حضارية تاريخية مادية، بدليل أن حضارة المسلم العربى ليست هى إطلاقا حضارة المسلم الأفغانى والصينى وأن حضارة المسيحى العربى غير حضارة المسيحى الأمريكى أو الفرنسى.

الفـروق والتناقضـات شـديدة الوضـوح لكن الأرضـيـة الجـامـعـة الأوضـح التى تجمع التيارين دوما بشكل سافر أن كليهما فاشيست.

الأبواق الفاشية(•)

(•) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٧٢

لأسباب وجيهة نعيد التذكير بالعلامة الكبرى بين المسلمات الرئيسية للمنهج الفاشى فى التفكير، ألا وهى زعم امتلاك الحقيقة الكاملة والحلول النهائية لكل المشاكل، مع تشخيص الفكرة فى شخص صاحبها الذى يصبح الزعيم الملهم البطل المنقذ. وهى السمات التى ينبنى عليها رفض أى مخالفة أو اعتراض أو نقد، حيث تتوحد الفكرة بشخص الزعيم وبالوطن معا، وتصبح مجرد مناقشة الفكرة أو نقد الأيديولوجيا أو مراجعة النفس للكشف عن الأسباب التى آلت إليها أحوال الأمة، أو الاعتراض على بعض ممارسات الزعيم أو ذيوله، تصبح خيانة للوطن بعد توحيد الأيديولوجيا والزعيم بالوطن «الذى هو أكبر من أى زعيم»، ويتحول النقد الذاتى إلى بيع لدماء الشهداء وسقوط فى حبائل الإغواء الصهيونى الصليبى الاستشراقى وهلم جرا.

وليس أدل على صدق هذا الطرح مما حدث عندما اقترينا من مناقشة المنهج اليولياوى ومناطق اتصاله وانفصاله مع تيار الإسلام السياسى بحقائق لم نؤلفها ولم نخترعها أو نفتريها، فقد ثارت ثائرة ذيول الفاشية فى صحيفة العربى الناصرى، وأبدا لم تقف الصحيفة وقفة رصينة محترمة لتناقش أو لتقول: أخطأت ياصاح أو افتريت كذبا أو استنتجت خطأ، أبدا لم تفند الحقيقة ولا الرأى بالرأى ولا الدليل بالدليل أو بالتكذيب الموثق. إنما فتحت **معجم أدبيات** الفكر الناصرى، وفعلت ماأكدناه وقلناه أن كليهما فاشيست، فعمدت إلى بذاءات تقليدية معلومة فى قاموسهم الخطابى تعبر عن مدى العجز الذى انتهوا إليه، مع جملة من الاتهامات الرخيصة بالعمالة والتآمر على الوطن، كما لو كانوا هم أو الزعيم هم الوطن، بالضبط ودون فارق يذكر كما تفعل فرق الإسلام السياسى التى تزعم لنفسها الحق مطلقا وغيرها باطل الأباطيل، ولأنهم كل الحق ولأنهم الوطن فقد رأت الصحيفة أنه لايوجد مفكر فى مصر

المحروسة جميعها، فتطاولت على أعمدة الفكر الديمقراطى الوطنى ماداموا لم يخرجوا من عباءة الناصرية، فإما أن تكون نفرا تابعا أو تكون خائنا، **رغم أننا لانعلم لهم مفكرين حسب المصطلح الدقيق للكلمة**. هذا إضافة إلى كون المفكر الوطنى الحقيقى هو المفكر المستقل تماما عن أى سلطة وعن أى حزب وعن أى جماعة، ولا يكتب إلا بوحى ما يمليه عليه ضميره الوطنى ودون أى غرض أيديولوجى، وإزاء المفكر المستقل لايجدون فى جعبتهم سوى العادة الرخيصة فيكيلون الاتهامات دون أن يقدموا صحيفة اتهامات واضحة بالأدلة الثبوتية، ويطلبون من الخصم أن يثبت غير ذلك «؟!» نفس المنهج المباحثى فى دولة المخابرات الغابرة: أنت متهم إلى أن يمكنك تقديم أدلة براءتك «؟!!»، فإذا كان هذا حالهم حتى بعد زوال عروشهم الفاشية وفى ظل مساحة سماح ديمقراطى لم يصنعوه ولايفهموه، يمارسون من خلاله ذات المنهج ويكررون نفس الأساليب. فماذا ننتظر منهم إذا نجح حلفهم مع الإسلام السياسى فى الوصول إلى السلطة؟ سوى تكميم الأفواه وإقامة المشانق، واستحضار عدو البلاد هذه المرة ليس إلى مدن القناة لكن ربما إلى عمق الصعيد.

إن ماكتبته الصحيفة الحزبية اليتيمة قد أكد دون حاجة إلى شرح أو إيضاح ماسبق وقررناه: إن الفاشيست قضية واحدة وأرض واحدة وفكر واحد ومنهج واحد يقوم على تكفير المخالف دينيا ووطنيا لأنه تجرأ على المراجعة والنقد، الأقنعة متعددة والقسمات واحدة.

فقط رأينا ضمن سلسلة نقد المنهج التى نكتبها لروز اليوسف والتى تملكها حكومة مصر وليس الصهاينة كما قالت الصحيفة المذكورة، مراجعة سريعة لكل المناهج التى آلت بنا إلى حيث نقبع الآن، فكان الرد الوحيد الممكن لديهم هو التكفير والتخوين الوطنى والسباب والقذف، وكل ما أردناه ليس بغرض أوحد هو النيل من التجربة الناصرية فهى تجربة لها إيجابياتها، وإنما جاء ذلك عرضا فى طريق نقد المنهج، ولبيان أن المنهج الفاشى الذى يعمد للتكفير والتخوين لايقتصر على المتأسلمين وحدهم، لكنه سمة عامة لدى أى منهج عنصرى أو طائفى، حيث تعلو فيه العقيدة والأيديولوجيا والزعيم فوق مصالح البلاد والعباد، هذا رغم أن مصر أمر وهؤلاء جميعا أمر آخر، فالإسلام قيمة روحية وليس هو مصر، كذلك التجربة الناصرية كانت مجرد تجربة فى تاريخ مصر العريض بما لهذه التجربة وما عليها لكنها أبداً ليست الوطن بحال.

وإذا كان تقييم التجارب يتم بمدى ماقدمت التجربة للوطن من نجاحات أو نكبات، فهناك معياران واضحان لتقييم أى نظام: الأول هو

معيار الداخل ومدى ما حققته التجربة داخل الوطن من إطلاق للحريات والمساواة بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم ورؤاهم، وتحقيق سيادة القانون على الجميع بلا استثناء، والإرتفاع بمستوى معيشة المواطن والحفاظ على إنسانيته وكرامته، بحيث يعدل المواطن الواحد الدولة جميعا فى ميزان الكرامة. والمعيار الثانى هو معيار الخارج ومدى ماحققت التجربة من مكاسب وما أضافت للوطن، ناهيك عن مبدأ المبادىء جميعا ودونه كل أمر آخر وهو الحفاظ على الحدود الوطنية للوطن وهو أدنى المطاليب إزاء أى نظام حاكم.

والشاهد الذى لانخترعه للصدق مع النفس والوقوف مع الأخطاء لتجاوزها نهائيا هو ماقرره واقع التجربة، فعلى مستوى الداخل لامجال للحديث عن الحريات وكرامة المواطن، بعد إلغاء الدستور وحل الأحزاب ووضع أقصى الاجراءات الاستثنائية، وتعيين صغار الضباط فى جميع مواقع السيطرة السيادية، مع تطهير البلاد من دعاة الديمقراطية بحبس رؤساء تحرير الصحف وإغلاق حوالى خمسين مجلة وصحيفة. هذا على مستوى الإعلام أما على مستوى التعليم فقد تم فصل ٤٥٠ أستاذا جامعيا دفعة واحدة، وتعيين الصاغ كمال الدين حسين الذى يحمل درجة علمية أدنى من مستوى الثانوية العامة، وزيرا للتعليم فى المكان الذى كان يشغله عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين قبل ثلاث سنوات، وغنى عن التذكير أن الصاغ كمال الدين حسين كان عضوا بجماعة الإخوان المسلمين.

ومع إنشاء إدارات الحكم المحلى حكم الضباط كل المحافظات ومجالس المدن والشركات والمصانع «وبالطبع الوزارات» واحتل غفر يوليو ٧٥٪ من مناصب وزارة الخارجية وسفاراتنا بالخارج.

وعلى مستوى القضاء تم التنكيل البدنى بحجة القانون المدنى الدكتور السنهورى، ثم بعد سنوات كانت مذبحة القضاء المعلومة بعد أن أصبح الزعيم وكيل عموم الديار المصرية.

وعلى مستوى الوحدة الوطنية اللازمة لتماسك الجبهة الداخلية إزاء صيحات الحرب، فقد تم وضع يد وزارة الأوقاف الإسلامية على الأوقاف المسيحية، للصرف منها على الأزهر الذى أصبح مسئولا بقرارات رئاسية عن كل تراث الأمة ورقيبا على فكرها وحليفا لزعيمها، مع تحويله إلى جامعة للعلوم الوضعية، لكنها الجامعة التى كرست الطائفية بقرار المادة «١١١» من الباب الخامس الذى يقصر دخولها على المسلمين وحدهم، هذا ناهيك عن كون تنظيم الضباط الأحرار نفسه لم يضم مسيحيا واحدا، بينما كان معظم كوادره أعضاء فى تنظيم الإخوان وجهازهم السرى.

مع هذا كله «مع إيجاز شديد» لامجال للحديث عن حريات، وبالتبعية عن مستوى معيشة واقتصاد آل إلى دمار شامل، ويبقى معيار الخارج، معيار حماية حدود الوطن الذى هو مهمة العسكر الأولى والمهمة الوطنية التأسيسية لأى نظام فى الدنيا وعبر التاريخ، مع ملاحظة أن العسكر لم يكن لديهم أى حجة بعد أن سيطروا على شئون البلاد جميعا، يكفى هنا أن نطالع على خريطة فلسطين الشريط الضيق الساحلى للدولة الإسرائيلية قبل يوليو ٥٢، لنقارنه بمباحنا المرتاح الذى أدت إليه سياسات الفاشية فضمت الأرض حتى مدن القناة وابتلعت كامل سيناء وهى تملك مساحة حدودية تعادل نصف حدود القطر المصرى جميعه، ووصلت حدود إسرائيل إلى القدس شرقا والجولان شمالا.

إن أى كلام محترم أو وطنى صادق لايمكن أن يقبل أى تبرير أيا كان إزاء ضياع الأرض واحتلالها، خاصة وأن العسكر كانوا كل شىء ويملكون كل شىء، وكرسوا كل مصر من أقصاها إلى أقصاها عبر زمن أهدرت فيه كل ممكنات الوطن وكرامة المواطن، من أجل توسيع رقعة تلك الحدود وليس إهدار نصفها فى فضيحة عالمية مروعة ليس لها نظير فى التاريخ.

تلك أيها السادة هى المعايير التى تقاس بها التجارب، لكن بقايا ذيول الثقافة الفاشية يرون أن ذكر هذه الحقائق خيانة للوطن وبيع للقضية وخروج عن الصف الوطنى واختراق للإرادة العربية وتفريط بالحقوق التاريخية، وإنهم لازالوا يتصورون أن بإمكانهم أن يخيفوا أحدا، أو أن يفرضوا وصايتهم على أحد، دون مسح عرق الخجل لما قدمت أيديهم فى حق الوطن والمواطنين.

إن من حق هذا الجيل الذى أورثته الناصرية التكبات أن يعلم بما حدث دون تزويق، بل إن من حقه أن يطالب بمحاكمة علنية تفتح فيها جميع الملفات لكل من شارك فى الكارثة سواء منهم الأحياء أم الأموات، لأنها الكارثة الأعظم فى تاريخ مصر منذ توحيد القطرين(*) لكشف الأخطاء والانحرافات وتقديم اعتذار واضح لائق لكل من طاله القهر من مواطنين، واعتذار أوضح للوطن وتاريخه، ولهذا الجيل الذى يجنى مازرعت أيدى هؤلاء بالأمس القريب.

أما التباكى على فلسطين فقد أصبح كذبا رخيصا ومللا مقيتا بعد أن تاجروا طويلا بقضية الحرب «التى خسروها فى ساعات خمس أو بالأحرى وللدقة فى ربع ساعة» للقضاء على قضية الحريات فى الداخل،

* إن هذا القول من قبيل المجاز الصادق فقد احتلت مصر امبراطوريات كالروم والفرس، لكن الهزيمة الأعظم هي تلك التي تكون من دويلة لم تتجاوز العام العشرين من عمرها حينذاك، وبعدد سكان لايزيد عن المليونين.

وإن حجرا يلقيه صبى فى الانتفاضة اليوم لهو الأكثر شرعية والأكثر شرفا من كل الشعارات التى أضاعت فلسطين واخرجتنا من التاريخ، لقد كشف أطفال الحجارة كم زيفنا وكم تاجرنا، وكم ضللنا حتى أوصلناهم إلى الحجارة سلاحا.

ولم تزل ذيول الفاشية تعزف نغمات الحرب أو التخوين إزاء عدو كانت مناهجنا خير عون لقوته واقتداره، بعنصرية أعطته مبررات وجوده العنصرى، عنصرية مارسناها إزاء أشقائنا فى الوطن وليس إزاء عدو خارجى، ولم نزل، عنصرية مارسناها إزاء ثقافتنا المصرية الأصلية القبل عربية وليس إزاء ثقافة الأعداء، عنصرية دفعتنا لطرد مصريين تاريخيا لمجرد أنهم يهود يخالفوننا العقيدة بدعوى تأمين الجبهة الداخلية، وأعطيناهم لإسرائيل تحاربنا بهم، فإن قلنا: أفيقوا ياقوم، قالوا: أهدروا دم الزنديق الخائن «؟!!».

إن دق طبول الحرب الآن هو الانتحار بعينه، وبيع كامل ومجانى للوطن، فلا نحن نملك منهجا علميا حرا فى مناخ حر يسمح بالفرز العلمى لإقامة تصنيع تسليحى قادر مستقل، ولانحن بتركة الفاشية التى تثقل كاهلنا اليوم بقادرين اقتصاديا على استيراد هذا التسليح، ولا العالم سيسمح لنا بامتلاك هذا التسليح من أجل هذا الغرض، وحتى لو تحققت المعجزة وامتلكنا السلاح الكامل واللازم مع نفس مناهجنا السائدة حتى الآن، فسنتركه مرة أخرى للصهاينة كما فعلنا عندما امتلكناه من قبل، فالقدرة والنصر فى العقل وليس فى السلاح، وفى المنهج قبل الأداة.

وهذا إنما يعنى أن مشروع الحرب قد تأجل إلى أجل غير مسمى، فما هو البديل سادتى الأبواق عالية الصوت؟ وهل ثمة حل آخر سوى تركيز كل الممكنات فى التنمية والبناء الداخلى، والنضال الشرعى الرصين من أجل الوصول إلى مناخ حريات كامل لا يعرف التكفير والتخوين والتحريم، حتى نهيئ العقل للفرز العلمى اللازم للتقدم، وللتحول نحو نظام مدنى كامل يوحد أبناء الوطن فى بوتقة ومصهر واحد وبمساواة كاملة تخرج بنا من منطقة الأزمة؟ لنخرج من مساحة الضعف إلى دنيا التحضر والقوة بمنطق الزمن ومعاييره، وساعتها يكون لكل مقام مقال إن شئتم حربا أو دمارا تقدرون عليه، أما أن تكون مشلولا قعيدا وتتنادى بالمغازى والمغانم قبل أن يتحرر عقلك من أسباب هزائمك، فتلك والله مسألة لايحلها إلا أطباء المستشفيات النفسية والعصبية والعقلية.

وهم الحقيقة المطلقة زعم يدمر الأمة(●)

(●) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٥/ ١٠/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٦٩.

بيقين الإيمان وحده نؤمن ونسلم بأن هناك حقائق ومعارف وقيم قدسية مطلقة، لكنا نؤمن أيضا أن هذه المعارف والقيم القدسية لا سبيل لبشر إلى الإطلاع على غيوبها ومعرفتها معرفة كاملة مطلقة، لسبب بسيط وبدهى، هو أنها من خصوصيات الله تعالى وحده دون غيره، وأن غاية مايمكن القول بشأنها أننا نعلم منها الظاهر فقط. لذلك تختلف معرفة هذا الظاهر باختلاف عقولنا وقدراتنا وظروفنا ومعارفنا وزماننا وأغراضنا، فالظاهر هو النسبى الممكن الذى يسمح باختلاف حوله، أما الباطن فهو الغيبى المطلق الكامل الذى يليق بعلم الله وجلال كماله، ولايزعم زاعم أن بإمكانه الإطلاع على المعرفة الكاملة، وأنه الأوحد المطلع على الحقيقة النهائية المطلقة ليفرض هذا الزعم على كل العقول وعلى كل العباد، لأنه فى هذه الحال كمن يزعم أن الله قد اختاره وحده من بين الناس وخصه بهذا العلم، وأنه الوحيد دون الناس الذى اطلع على المقصد الإلهى السامى الذى يليق فقط بالذات الإلهية العلية.

ومن هنا ساغ وباح للمسلمين الاختلاف فى التفسير والتأويل حيث الاختلاف بشرى وطبيعته من طبائع الأشياء، لكن الجرم يقع حين يزعم أحد المختلفين أن رأيه هو الصواب اليقينى الموافق للغرض الإلهى وأن ماخالفه هو الخطأ والانحراف، وهو مايؤدى فى النتيجة النهائية إلى أن ينسب الأول لنفسه كل الصلاح التقوى ويكفر الآخر المختلف وينفيه من جماعة المؤمنين.

والتساؤل هنا يطرح نفسه مستفسرا: هل كان اختلاف الصحابة فى الفتنة الكبر زمن عثمان بن عفان خلافا حول حقائق دينية إلهية، وأن أحد الطرفين فى الصراع كان يملك الحقيقة المطلقة الإيمانية الصادقة، وأن الآخر كان غير ذلك؟ فمعنى ذلك تكفير فريق من الصحابة!! وهو أمر مرفوض يطعن فى مؤسسة الإسلام الأولى وينال منها. وذات التساؤل

يمكن طرحه حول الخلاف الذى أدى إلى مذابح كبرى بين فريق الإمام على بن أبى طالب وفريق السيدة عائشة بنت أبى بكر وزوج النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة الجمل وكان أعضاء الفريقين يعلنان أنهما يحاربان بالحق، ودمغ الآخر بالباطل وهو ما قد أدى إلى تمزق صفوف الأمة فى فرق مذهبية كبرى تردد صداها منذ كربلاء وحتى اليوم، حين الخطر كان فى إدعاء المختلفين أن كلا منهم على الحق والصراط المستقيم وحدهم، وأن الآخرين على غير هدى وكتاب منير، وأنهم الأخسرون.

بينما النظرة الموضوعية التى تحترم الدين وتترفع به عن صراعات السياسية والقوة والنفوذ، تعترف بهدوء أن الخلاف كان حول شئون أرضية دنيوية وأطماع بشرية، حتى لو ادعى الطرفان وزعم المختلفان واحتجوا بالأحاديث المختلفة، ورفعوا راية الإيمان فى وجوه بعضهم البعض.

وهكذا ظل مبدأ امتلاك الحقيقة المطلقة مسلطا فوق رؤوس المخالفين، خاصة إذا اعتصم أصحابه - وهى العادة - بمراكز السلطة والنفوذ التى تملك قدرة القهر والعقاب، وهو الأمر الذى استخدم فى تاريخ الدولة الإسلامية على تواترها ضد الفكر والمفكرين، رغم أن الفكر لايستخدم السيف بل القلم، ولايذبح المخالف بل يحاوره، فترك هذا المنهج سجلا مشينا وكارثيا فى تاريخنا، عندما استغلقت الأفهام على أحادية الرأى وصدق الواحد السائد وتكفير التعددية والخلاف، فساغ للخليفة هشام بن عبدالمالك قتل المفكر المعتزلى الحجة غيلان بن مروان، ولم يجد الوليد بن عبدالمالك جريمة فى أمره بضرب العالم الناسك نجيب بن عبدالله بن الزبير بالسوط حتى الموت. وصار الأمر سنة متبعة نضرب منها الأمثلة وليس على سبيل الحصر، فتم قتل العالم المؤدب الجليل صالح بن عبد القدوس بتهمة الزندقة، ولحق به الشاعر بشار بن برد بأمر الخليفة المهدى، وكان للمهدى لذة خاصة فى اضطهاد المفكرين وذبحهم حتى أنشأ لهم حبسا عرف بحبس الزنادقة، ومن بعده أمر المعتصم فاتح عمورية بجلد المجتهد النابغة الجليل أحمد بن حنبل وحبسه حتى غاب عقله، وأمر الواثق بقتل سيد علماء عصره أحمد بن نصر ثم صلبه، ومات أبو يعقوب البويطى خليفة الإمام الشافعى فى حبسه، وتم قتل بن حيان السبتى العالم لأنه كان يقرأ فى علوم الرياضية، ولحق به المتصوف الزاهد الحسين بن الحلاج، وفى الأندلس تآمر وسطاء الدين المحترفون على ابن حزم وابن رشد فحرقت مؤلفاتهم، وأمر المنصور ملك الأندلس بنفى ابن رشد وأبى جعفر الذهبى وأبى عبدالله قاضى بجاية دفعة واحدة، وقتل ابن حبيب لاشتغاله بالفلسفة، أما المفسر المؤرخ الكبير الطبرى فقد تم

قتله بعد اتهامه بالإلحاد ولحق به الإمام القشيرى علم الأشعرية الأشهر، وغيرهم كثير.

ورغم التبديع والتكفير فإن الواضح أنه كان على خلافات دنيوية، تم فيها استخدام الدين لامتطاء الجماهير نحو أغراض ومطامع بشرية بحتة، فدرس التاريخ يؤكد «فيما كشف عنه الاستاذ على حرب» أن اختلاف المسلمين إلى فرق ومذاهب كان يقف على أرضية دنيوية، وأى علم انشأته فرقة من الفرق هو علم مبتدع، وكل قول جديد قال به فقيه هو محدث، وأن كل فرقة فقهية على اختلاف الفرق قد تعرضت للخطأ والنسيان والتوهم مهما بلغت درجة الفقهاء، فقد كانوا بشرا لا آلهة.

وإعمالا لذلك يمكن فهم اختلاف المذاهب على تنافرها الشديد واختلافها البعيد، ولايمكن فهم تعدد المدارس الفقهية رغم تعاصرها وتزامنها، ولايمكن فهم اختلافات المدارس الفلسفية الإسلامية والمدارس الكلامية وتباينها وتعارضها، إلا بالاعتراف بدنيوية الأغراض وبشرية المفاهيم وتاريخية الأحداث، وأن عدم الاعتراف بذلك كان وراء المذابح والمظالم، حيث رأت كل فرقة أنها فقط المؤمنة وغيرها على ضلال.

وأن تاريخ السلطة والحكم عبر تاريخ الدولة الإسلامية منذ قيامها، يشهد أنها لم تتشكل ولامرة واحدة إلا بقوة العصبيات والمصالح وقدرة فريق على إخضاع الآخر، ولم تحسم الخلافة لفريق دون آخر إلابالشروط الدنيوية وحدها، بالإنسان، بأهوائه ونزاعاته وطموحاته، بالبشرية غير المعصومة وبكل ضعفها، ومن يزعم الأمس أو اليوم أنه وحده الإيمان السليم وغيره ليس كذلك، أو أنه المطلع وحده على الحقيقة الإلهية الكاملة وغيره على ضلال، كمن يزعم أن القرآن الكريم ملكية خاصة وأن الله قد عينه وحده وكيلا عنه وأعطاه وحده تفويضا للفهم الصادق والتفسير الأوحد، هو كمن يغلق النص القرآنى وهو نص لايقبل الإغلاق ولايمكن استنفاذ ممكناته وتفسيراته لأنه نص ملك البشرية جميعا ومن حق البشرية جميعا، هو نص مفتوح دوما لكل العقول فى أى مكان وفى أى زمان.

والمثال المعاصر أن الأزهر قد اختلف مع دار الإفتاء حول أمور كثيرة منها مسألة ختان الإناث ومنها فوائد البنوك، لكنه الخلاف الذى لايضع أحدهما فى دائرة الإيمان والآخر فى خانة الضلال، وإلا مزقنا الأمة شر ممزق.

إن زعم امتلاك الحقيقة المطلقة أدى إلى الانغلاق على الذات ونفى المختلف وعدم الاعتراف للآخر بحقه الدينى والانسانى فى الاختلاف، بل

وأصبح ينظر للمختلف بحسبانه تابعا لمؤامرات عالمية وأنه ضد الهوية ومن هنا تجوز تصفيته بعد تكفيره، ويتصور هؤلاء لأنفسهم كل الفضائل والحق والوطنية، ولا يستطيعون رؤية المختلف كعنصر مكمل أو مماثل أو محاور فى ساحة لايملكها أحد، يرون أنفسهم الحق مطلقا وغيرهم يتكلم عن هوى وضلال، ناقص العقل، قليل الدين، ضعيف الخلق، تشوبه النوازع الإنسانية المتحللة الخاسرة، ولاعلاج له إلا القتل!!.

وهؤلاء أنفسهم من يزعمون أنهم يريدون إقامة دولة إسلامية قوية، وقبل أن يقيموها يروعون العباد بالتكفير والتفريق والتنفير والذبح، حتى إذا مانجحوا فى إقامة دولتهم أسالوا الدماء أنهارا على اختلاف فى تأويل نص أو رأى فقهى، بل إن فرقهم تكفر بعضها بعضا قبل أن يملكوا أعناق العباد.

وتكمن المهزلة فى استعلائهم الشديد بحقيقتهم الكاملة وشعورهم المريض بالتميز المفرط، بينما حقيقة الأمر أنهم يستخدمون فكرا لايكلفهم مشقة، فقط يحفظون ويقرأون ويتلون، ويرون أمة المسلمين هى الهادية للعالم وقيادة العالمين المقبلة مما يجعلنا أضحوكة للعالمين، إذ يتساءل الآخر المتفوق كيف جاز لنا هذا الزعم بهداية البشرية ونحن أمة لاتصنع ولاتنتج ولاتكتشف ولاتبتكر ولا تخترع ولاتفكر، فقط تحفظ وتجتر ماحفظت، ويقتل أهلها بعضهم بعضا لخلاف فى الرأى والفكرة.

لقد ساد أصحاب هذا المنهج، وجعلوا لمنهجهم السيادة على كل مؤسساتنا وعقول مواطنينا، حتى تجاهلنا الواقع وحركة التاريخ المتغير فى الدنيا، فكان عقابنا أن تجاهلنا هذا الواقع وتركنا فى موقعنا بالقاع المهمل، وفى هذا القاع لم تعد لدينا أى معرفة ممكنة سوى معرفة المقدس والتعرف عليه حتى أصبح هو العلم الوحيد والمعرفة الوحيدة الممكنة. وبامتلاك الحقيقة المطلقة انصرفنا عن تحصيل العلم لأننا نؤمن حسب هذا المنهج بالمفاجأة والمعجزة، فيكتفى التزام الحقيقة المطلقة لتأتى المعجزة وتنهض الأمة، وهو المنهج الذى لخصه الدكتور «حامد محمود اسماعيل» فى الجزء الثانى من كتاب «المثقفون والإرهاب» الذى أصدرته الهيئة العامة للكتاب لمواجهة الإرهاب «١١٩» حيث قال لافض فوه: «مع التزام الجميع بنهج الاسلام الصحيح تختفى كل السلبيات وتزول عن كاهل هذا البلد الأمين كل الظواهر التى تؤرقه وتقلقه»، أما ماهو الإسلام الصحيح فهو مااختلفت حوله المذاهب والفرق وزعمته كل منها منهاجا لها فكان هذا حالنا وهذا مكاننا بين الأمم.

المرأة العربية
مرة أخرى وأخرى حتى تتحقق المطاليب(•)

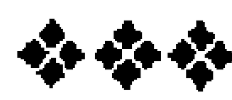
(•) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٢/ ١٠/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٧٠.

مرة آخرى نخوض فى المحظور وندخل منطقة الخطر، فالحديث عن المرأة فى مجتمع يراها مجرد حرمة، عورة، متاع للسيد الذكر، ولايرى لها وظيفة خلقت من أجلها سوى إمتاع سيدها وراحة بعلها، ومنحه العديد من البنين الذين هم زينة الحياة الدنيا، هو حديث سبق وجرنا إلى دروب المحاكم ووضعنا فى مواقف الاتهام فى العقيدة وأمام القانون «؟!!»، وكان ذلك فرصة اقتنصها السادة الذكور الأماثل للتكفير والتحريض وإهدار الدم عبر صحف تبحث عن قارئ بضجيج الفتن، وكتب تم تكريسها لفتاوى مشايخ آخر الزمان، وليس للرد المنطقى الهادىء حول القضايا المطروحة ومدى منطقية الطرح وصلاحه لشئون البلاد والعباد، وحيث نرى القضية جزءا لايتجزأ من قضايا الحريات، والتقدم، من أجل أجيال أكثر علما ومعرفة وعطاء وإبداعا، ومن أجل وطن يعيش الزمان ويتفاعل معه ويتسنم موقعه بين الأمم، والذى يليق بتاريخه الحضارى العريق، أرى أن القضية قضية حريتى كذكر وأنها يجب أن تمر عبر حرية الأنثى فى المجتمع لأنها نصف الأداء والإداع الممكن فى الوطن.

وكانت الغرابة والدهشة أن ينص دستور البلاد على أن جميع المواطنين يتساوون فى الحقوق والواجبات بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو العقيدة، ثم تحاكمنا محاكم الدولة لأننا نخلص للدستور ونحترمه ونطالب بتفعيل مواده، ولايخفى على أحد أن السر وراء هذا التناقض فى موقف الدولة لايخرج عن احتمالين: فإما أن هذه المادة الدستورية قد وضعت تجملا أمام الدنيا دون إيمان حقيقى بمحتواها، أو أن الدولة قد انساقت فى المزايدة على دعاة الإسلام السياسى إلى حد رأيناه فى إدخال مواد على الدستور لم تكن فى بنيته التأسيسية وتتضارب مع بقية نصوصه، كما فيى نص احتساب الشريعة الإسلامية المرجعية الرئيسية للتشريع، وهو بالطبع الافتراض الأرجح وجميعنا يعلم هذا بوضوح.

وإيمانا بالمواد المدنية بالدستور - لأن الدستور بطبيعته مدنى - واحتراما لتلك المواد المدنية، وإيمانا منا أننا لانخرج على عقيدتنا الحنيفية بل نقول إسلاما فى إسلام، نؤكد مبدئيا أننا نرى المرأة كائنا كاملا عاقلا راشدا، لاتقل شأنا عن أى ذكر، وأنها أبدا ليست مجرد متاع، وأنها أبدا ليست مجرد نصف ذكر، فهى قد تكون طبيبة أو محامية أو عالمة متخصصة منتجة مبدعة، وأن الذكر قد يكون رجلا خامل الشأن، مجرد كائن عالة على الوطن ولايستحق أحيانا القوت الذى يمنحه له هذا الوطن.

لقد سبق وحوكم مفكرون وحوكمنا معهم لالذنب حقيقى، فقط لأننا أعلّنا أمانينا الوطنية فى تفعيل المواد المدنية للدستور، بأن تأخذ المرأة المصرية مكانها فى المجتمع حتى يمكنها أن تؤدى دورها فى العطاء، وأن توضع فى مكانها الإنسانى اللائق، وقد سبق وقلنا أن أهل القبلة لايكفرون مسلما يتمنى أو يتساءل، وهنا سنطرح مبررات التمنى مع التساؤلات عسانا نظفر بمجتهد من رجال الدين ذوى المكانة، نفتح أمامه أبواب التاريخ ليدون على مداخلها أسمه بين من أعطوا للوطن وبذلوا من أجله. نطرح مانطرح عسانا نظفر بشيخ جليل يود أن يسجل أسمه إلى جوار السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ الجليل محمد عبده، لأننا لانقول أننا نقدم اجتهادا بقدر مانقدم تساؤلات وأمانى ومبررات هذه الأمانى المشروعة والمنطقية، ففى ظل مناخ كاليوم لايجرؤ المسلم على اتخاذ خطوة أبعد من التمنى.



على مستوى مسألة التوريث يعلم كل مسلم أنها قد تغيرت بتغير الواقع ومستجداته خلال حياة الرسول نفسه ثلاث مرات، لأن القرآن لم يأت دفعة واحدة مثل ألواح موسى، بل جاء مفرقا منجما تغيرت أحكامه وتبدلت بتغير الواقع وتحركه، فتفاعل مع الواقع وانفعل به وفعل فيه، وأول الآيات حول الميراث جعلته لذوى الأرحام دون تحديد أنصبه، ولمن كان له عقد موالاة، حيث كان بعض الناس قبل الدعوة يتحابون لدرجة أن يتعاقدوا عقدا يجعل كلا وليا للآخر يرثه عند موته، وقد أقرت الآيات هذه العقود فقالت: «ولكل جعلنا موالى مماترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم/ ٣٣/ النساء».

وبعد ذلك تم نسخ هذه الأية بآية جديدة هى آية الوصية «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين/ ١٨٠/ البقرة»، ولم يلبث الأمر على حاله فالواقع سريع الحركة، فتحرك الوحى مغيرا ناسخا ما سلف بالآية «يوصيكم الله فى

أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين/ ١١/ النساء»، وكانت تلك آخر آية بخصوص الإرث تواصلت بها السماء مع الأرض، حيث توقف الوحى بموت النبى، وعندها توقف المسلمون وحتى اليوم رغم مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة حدثت فيها متغيرات كبرى وهائلة.

ومن جانبنا ربما نفهم من تتالى آيات بأحكام ثلاثة أنه كان درسا للمؤمنين، فلو أراد الله حكما صارما قاطعا واحدا لكان قادرا على تباينه مرة واحدة دون تغيير أو تبديل، وإذا كان للتغير والتبديل حكمة فلا شك أن الحكمة تحتمل أكثر من فهم، والفهم المتعدد يحتمل القول أن ذلك كان درسا للمؤمنين للاعتبار، وأن الإسلام ليس متجمدا ثابتا، بل إن للمسلمين دورا متحركا فاعلا فيه ماداموا هم المؤمنون به، وأن المعنى هو أن يتغيروا بتغير المتسجدات فى الأحكام التى تتعلق بحياتهم ومعاشهم ولاتمس جوهر العقيدة والغيبيات المطلقة.

وبهذا المعنى أفلا يكون تغير الحكم ثلاث مرات خلال حياة الرسول وثباته بعدها مدعاة للقول بجمود الأمة خلال أكثر من ألف وأربعمائة عام بعدها جمودا صارخا حرصا على مبدأ الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة؟.

ربما يجد قارئنا فيما نقول هنا مجرد افتراض يمثل اندفاعا غير حميد فى الفهم، لهذا سنضع هنا - قدر المساحة المتاحة - أهم مبررات هذا التمنى والتساؤل منطقيا وشرعيا.

لقد وعى الفقه الشيعى الدرس فجعل البنت كالولد تحجب الميراث عن بقية الأقارب، لكن الفقه السنى رفض أن تحجب البنات الميراث حتى ولو كن عشرات، لكن هل يجرؤ مجترىء على تكفير الفقه الشيعى لهذا السبب سوى من يظنون أنهم المطلعون على المقاصد الإلهية مباشرة؟، وهل توقفت الأمة عن ولادة فقهاء كبار يملكون الجرأة الكافية لقول يتمثلون به وأسوة باجتهاد الخليفة الراشد المجتهد عمر بن الخطاب؟، الذى لم يجتهد فى حكم بل وصل به الأمر إلى إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم رغم نص الأية الكريمة على أن هذا السهم «فريضة من الله/ ٦٠/ التوبة»، بقول صريح فصيح ونص لايحتمل لبسا ولا تأويلا؟ **لقد ألغى الخليفة عمر فريضة إسلامية صريحة** بعد أن تغيرت الأحوال وقوى شأن الإسلام ولم يعد بحاجة إلى شراء إيمان الناس، لقد غير عمر وأمضى اجتهاده ونفذ قراره وفرضه **وتم العمل به حتى اليوم**، بينما لم يكن قد مضى على وفاة النبى سنوات تعد على أصابع اليدين، ونحن لانريد تغييرا ولاتبديلا بعد مضى القرون الطوال السوالف؟!!.

سيرد علينا من يقول: لكن هذا هو الصحابى الجليل والخليفة الراشد وأحد المبشرين بالجنة وصهر الرسول، وليس مثلنا نفراً مسلما يعيش فى بواكير القرن الحادى والعشرين؟! وهنا نرد بأن تلك حجة عليكم لا علينا، فكل تلك الصفات فى ابن الخطاب ميزات له فى عالم الخلد، لكنها أبداً لاتعطيه قدسية، فهى له وليست علينا، فلم يكن يأتيه وحى حتى نرضى باجتهاده بعد أن رفعت الأقلام وجفت الصحف، وما الرضى به إلا لمعقوليته وليس لقدسية صاحبه.

وإن الشائع بين الناس عن قدسية لحقت بالصحابة، معلوم أن سببها علماء الحديث الذين أعطوا الصحابة وضعا فوق بشرى، وذلك بغرض المساواة فى الحديث بين عمر بن الخطاب وبين آخرين من الرواة مثل أبى هريرة وابن عباس، حتى لتجد أبا هريرة فى علم الحديث أهم من الصحابة الخلفاء الراشدين مجتمعين، وحتى ضرب علماء الحديث بشهادة ابن الخطاب كل الحوائط، لأنهم لو أخذوا بها لحذفوا مئات الأحاديث المنسوبة إلى أبى هريرة، ومثله أيضا عبدالله بن عباس الذى كان له من العمر سنوات عشر عندما توفى الرسول.

ولا بأس علينا ولاحرام ولاجرم نرتكبه إن ذكرنا وتذكرنا أن علم أصول الفقه، قد تم وضعه بعد عمر بن الخطاب بعشرات السنين، فلم يعلمه الخليفه وعلمناه نحن، فأعطى من يريد الاجتهاد ميزة إضافية اليوم، ناهيك عن العلم الحديث بكشوفه ومنجزاته ووسائله التى تساعد مجتهد اليوم، ولم تكن فى طائلة عمر بن الخطاب.

ثم إن القاعدة الفقهية تقول: «إن العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما»، والعلة فى جعل المرأة نصف ذكر هو أن الذكر يدفع مهرها ويعولها هى وأولادها، لكن ذلك كان فى الأزمنة الغوابر فالمرأة اليوم دخلت كل ميدان بعد تغير أوضاع الدنيا، وأصبحت تعمل وتربح وتعول البيت بدورها، بل وتضيف إلى عملها فى الدواوين عملها فى البيت تفضلا منها ومكرمة، وهكذا زالت العلة فما الحكمة فى بقاء الحكم المعلول؟.

سيرد علينا أهل التعصب الذكورى بأن المرأة تظل رغم ذلك ناقصة، لأنها تحمل وتلد وتحيض وهو مايمنعها من أداء الفرائض فى مواقيتها، ويبقى الرد: هل انتقص ذلك من إنسانيتها أو من إسلامها فأصبحت من غير المسلمين؟ خاصة أن عدم أدائها الفرائض لأسباب فسيولوجية جاء بأوامر دينية وليس عن إرادة ورغبة منها.

وتظل الدهشة تزعجنا وتشككنا فى ذلك الموقف شديد التعنت من قضية المرأة بالتحديد وبالذات، والتركيز على المرأة وميراثها وحيضها

ولباسها وفتنتها، حتى تأخذها الشكوك كل مأخذ فى الحالة النفسية والهموم الجنسية لهؤلاء المتعصبين، وفى مدى حقيقة ما يعلنون وصدق مايبطنون. لأن هناك ماهو أجدى بهديرهم وصراخهم وفيه للأمة النفع العظيم، إذ لم نسمع منهم صوتا جهيرا لتنفيذ أحكام الذين فيما يتعلق بزكاة الركاز على المعادن وأهمها البترول بالطبع، والتى لو تم تطبيقها لرفعت الفقر عن كل البلاد المسلمين، فأين صوتهم **أم أن المركز القدسى البترودولارى له أثر آخر، فيؤمنون ببعض الكتاب ويغضون الطرف عن بعضه؟ وهل لذلك علاقة بعيشهم الهنىء وطعامهم المرئ؟** مجرد تساؤلات بريئة إزاء تشددهم فيى قضية المرأة، وإزاء قضية فقر بلاد المسلمين رغم أنها محلولة بزكاة الركاز، وهى القضية الأجدى بالصراخ من قضية الميراث والحجاب والطمث، والأهم هنا أن تبريرهم لنقص المرأة بعيوب خلقية فسيولوجية مردود عليهم بالقرآن نفسه، فنقرأ الآيات الكريمة وهى تتابع «فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلث ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبوية لكل واحد منها السدس مما ترك/ ١١/ النساء».

هنا أيها السادة حالة مساواة واضحة لم تضع باعتبارها الحيض والنفاس كعاملات نقص، فمن مات وكان له أخ أو أخت أو والدين أب وأم تساويا فى الميراث، الأمر إذن ليس لعيب جسدى يعوق المرأة عن أن تكون إنسانا كامل الأهلية وإلا ماتساوت الأخت مع الأخ والأم مع الأب.

والكلمة الأخيرة: أسمعونا صوت عراككم من أجل رفع الفقر عن كاهل المسلمين، طالبوا أيها السادة بزكاة الركاز لعلكم ترحمون، وارحموا نساءنا فهن أخت ووالدة وابنة، كما تميزن بالحيض، تميزن أيضا بحنو ورحمة لايعرفها الذكور، وهنا الخلاف الفسيولوجى، وهنا أثره الحقيقى ونتيجته، الحنان الانثوى الذى يجعل الحياة تخضر أمامنا مقابل القسوة الذكورية الغشوم التى تصيب حياتنا بالجفاف والتصحر.

المرأة والتراث(•)

(•) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٩/ ١٠/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٧١.

نتحدث كثيرا عن الحريات وعن كرامة المواطن والوطن، وهو حديث حق طبيعى غير منكور، ونجأر بالشكوى من احتلال الغير للأراضى العربية بالقوة القاهرة، وهو أمر لايختلف عليه اثنان، ونندد بقوى الاستكبار التى تكيل بمكيالين، وهو الأسلوب الواضح لدول ذات مصالح فى المنطقة والتنديد بها مطلوب وهو أضعف الإيمان، ونرفع شعارات التحرر من التسلط السياسى والفقر والجهل والمرض وهو مطلب كل الشعوب فى جميع الأمم. لكن البعض المتشدد فى إعلان تلك المبادىء الرفيعة هم ذاتهم من يقفون بكل صمود وراء منظومة عقدية قانونية هى على النقيض الكامل من تلك المبادىء الرفيعة، حتى أصبحت طرائقهم مناهج تحكم مجموع القيم والسلوك والعادات للفرد والمجتمع والدولة، والأهم مؤسسات التثقيف الرسمية العامة إعلاما وتعليما. مناهج تكرس وجهة نظر واحدة إطلاقية لاتعترف بالتنوع والتعددية، مما يعنى عدم إيمان حقيقى بالمطاليب المرفوعة بقدر ماتفصح عن حق إطلاق أيديهم وحدهم ونفى كل مخالف، وهى رؤى لاتحتاج جهدا لاكتشاف وقوفها ضد كل ألوان الحريات التأسيسية الأبتدائية التى توافقت عليها الإنسانية، بعد رحلة صراع طويل ونضال دفعت فيه البشرية الكثير من الدماء والشهداء، من أجل إقرار تلك الحريات ضد أصحاب الرأى الواحد عبر التاريخ، حتى تم إعلانها فى نصوص دولية ومواثيق وتعهدات ودساتير معلنة، وأهم هذه البنود هو المساواة التامة والكاملة بين المواطنين أمام القانون وفى المجتمع بكل مستوياته، بغض النظر عن أى اختلاف أو فروق فى اللون أو الجنس أو العقيدة.

والنظرة السريعة على تفاصيل المنهج السائد فى بلادنا سواء على مستوى الفكر أو السلوك الفردى أو الجماعى أو حتى القانونى، تكتشف على الفور عن عدم إيمان حقيقى بهذه المبادىء، فلازلنا نحاكم الرأى

ونجرم التفكير ونقتل من حالفنا الرأى ونصادر المؤلفات، ونتعامل مع المواطن الذى يخالفنا العقيدة بطائفية عنصرية بغيضة، علما بأن طلبنا المشروع بتحرير الأرض لابد أن يسبقه أولا تحرير الإنسان، وتحرير العقل من مخلفات الماضى المتجذرة فيه، والأهم ويقع ضمن تحرير الإنسان وتحرير العقل تحرير نصف المجتمع «المرأة».

وبصدد المرأة ومكانتها وحقوقها وحرياتها نسمع تغنيا بالحقوق التى نالتها المرأة المسلمة بمنحة تاريخية أسستها لها ثقافتنا قبل أن يتعرف العالم على تلك الحقوق الإنثوية، وهنا بالذات مكمن التساؤل عن مدى الصدق فى هذا الإعلان عن حقوق المرأة وحريتها فى ثقافتنا؟.

يكفينا هنا الإطلاع السريع على قوانين الأحوال الشخصية حتى نكتشف على الفور مدى زيف هذا الإدعاء وبطلانه بالكلية، ويكفينا أن نكتشف مدى مزايدة ذكور الشرق التليد على المبدأ الإسلامى الرفيع، الذى لايقر الزواج إلا بين طرفين مؤهلين له ذكراً وأنثى بالتراضى الكامل ودون قهر أو ضغط أو إكراه، وهو من المبادىء الرفيعة حقا فى مأثورنا بلا منازع ينازعنا، لكن هل يقع مبدأ «بيت الطاعة» ضمن هذا المبدأ الرفيع؟ وهل بيت الطاعة سوى قهر زوجة ترفض الاجتماع برجل وإجبارها على الامتثال له سريريا، فى عملية اغتصاب علنية تتم تحت سمع وبصر الجميع وبحكم القانون وموافقة المجتمع؟.

إن الحديث فى شئون قوانين الأحوال الشخصية ذو شجون تطول إلى ألف ليلة وليلة، ويعلمها الجميع بلا خفاء، لكن يبقى موقف أولئك الذين يعلنون حراسة العقيدة وموقفهم الذى يعلن حماية مأثور أسس للمرأة حقوقها وحرياتها. ولابأس هنا إن ضربنا أمثلة سريعة لبيان مواقف هؤلاء، بعضها من المضحكات. وبعضها من المبكيات، لنضع دعوى حرية المرأة العربية التاريخية على محك مصداقية الفعل فى الواقع، ونحن على مدخل القرن الحادى والعشرين، وكيف يرى ذكور المنهج المحترفون وضع المرأة فى واقع الفعل وليس فى النظرية والشعارات، ولنبدأ بالمضحكات، فنقرأ كيف تقطع صلاة المصلى المسلم **إذا مر أمامه أثناء الصلاة كلب أو حمار أو امرأة** «!؟؟» هكذا، المرأة كالكلب وكالحمار، والحكمة فى الكلب لنجاسة شائعة لانعلم مدى صدقها فى صحيح الدين، أما الحمار فربما لذكرى الشيطان الذى أمسك بذيله فى سفينة نوح حسب روايتنا الإخبارية «انظر قصص الأنبياء فى أى مصدر كبير كالطبرى أو ابن كثير أو مافى مستواهما»، فما هى حكمة قطع المرأة للصلاة؟ هل لأنها حسب الأقوال المأثورة رفيقة إبليس، ورابع أربعة لاأمان لها، ولاتوجد مع ذكر إلا وكان

الشيطان ثالثهما؟ لقد ساغ لنا مساواة المرأة بالكلب والحمار والفرس لأن عقلنا لايراها إلا مجرد شىء، أداة للمتعة، كالحمار والفرس **لنركبها وزينة،** حيث تم الإفتاء فى دولة عربية بجواز طلاق امرأة لم ترتكب اثما، ولايكون زوجها آثما فى طلاقها، فقط لأنها كانت شؤما على زوجها، فقد أفلس زوجها بعد أن تزوجها، وذلك استنادا إلى غريب الحديث القائل: «الشؤم فى ثلاثة: المرأة والفرس والدار»؟!!.

ثم هى حورمة، حرام، جنس محض، شهوة تسير على قدمين، فتنة للإنسان بل وللحيوان، فحسب تلك الفتاوى يجوز للفتاة أن تخلع حجابها بغرفة نومها ومعها كلب أنثى، لكن ذلك غير جائز شرعا لو كان الكلب ذكرا؟!! هكذا؟!! أما إذا كانت طالبة بكلية الطب فلايجوز لها تشريح رجل ميت، وإن كانت طالبة بكلية الطب فلايجوز لها تشريح رجل ميت، وإن كانت هناك ضرورة فيجب استخدام الوسائل الكفيلة التى تحول دون رؤيتها لأعضائه التناسلية، كإطفاء النور أثناء عملية التشريح مثلا؟! «انظر أعداد مجلة نون الموسوعة الفقهية الكويتية/ جمعها الدكتور حسن حنفى فى: قضية نون».

هذا ماكان عن المضحكات فى مناهجنا، وتوضح كيف ينظر بعضنا للمرأة التى هى نصف المجتمع، ثم يمتشقون سيوف العنترية الخطابية من أجل تحرير الأرض من الطاغوت، دون الشعور بأى خلل أو تناقض.

فماذا عن المبكيات؟

هنا نضطر إلى دخول مساحة الخطر ودائرة المحظور، حيث الدخول محفوف بسيوف حراس العقيدة ورشاشاتهم وقضايا التفريق والتكفير فى المحاكم، لكن ما الحيلة وصمت مفكرينا من فضة وسكوتهم من ذهب فى مناطق الخطر، صمت غير جميل، وسكوت غير حميد إزاء مناطق هى انعدام العدل الكامل فى مناهجنا إزاء المرأة والمغالاة فى ظلمها، لقيام المنهج دوما على رؤيتها ككائن طفيلى مهمته إمتاع السيد الذكر، فإن انتهى دورها تم إلقاءها فى أقرب كومة مهملات، لأنها مجرد أداة، مجرد شىء.

إن المغالاة لدى الفقهاء والمفسرين فى الحالة التى بين أيدينا، تجعلنا نعتقد أنه كان بالإمكان إيجاد تفسير أكثر رشادا وعدلا وجمالا من التفسير السائد، لآيات لانشك أبدا أن لها تفسيرا آخر غير المطروح، وأن لأسباب نزولها قراءة أخرى تليق بعدل الله وكلمته الحق، وقد رنا إلى علمنا أن الباحث المغربى الدكتور محمد عابد الجابرى قد حاول وضع اجتهاد جديد لها، لكنه للأسف لم يصلنا، لذلك نطرح القضية وننتظر من يقول فيها جديدا يليق بالعدل الإلهى.

تقول الآيات الكريمة: «وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله غفورا رحيما، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما/ ١٢٨: ١٣٠/ النساء».

تتفق كل روايات المفسرين على نزول هذه الآيات فى سودة بنت زمعة إحدى نساء النبى عندما كبر سنها فخافت أن يطلقها النبى، فوهبت ليلتها للسيدة عائشة وتنازلت للنبى عن جزء من حقوقها فى نفقتها، وفى تفسير بن كثير عن عمر بن الخطاب قوله: «هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا سنها فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها، فما اصطلحا عليه من شئ فهو جائز»، وأورد أيضا عن على بن أبى طالب قوله: «يكون الرجل عند المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها أو كبرها، **فإن وضعت له من مهرها شيئا حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج**»، (انظر تفسير ابن كثير طبعة دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص٥٦٣).

وإعمالا لهذه التفاسير ذهب المفسرون إلى وجوب تنازل المرأة عن بعض حقوقها فى مقابل أن تظل تحظى ببيت الزوجية إتقاء للطلاق، وهو مايعنى أن كبر سنها قد أفقدها بعض حقوقها التى سبق الاتفاق عليها والتعاقد بشأنها، وهو أيضا مايعنى أنها بعد أن شقيت وتعبت وأعطت عمرها لزوجها وبيتها فى شبابها، قد اصبحت بعد ذلك مقصرة فى حقه لكبرها فى السن، بعد أن أنهكها عطاؤها لزوجها عن استمرار هذا العطاء، ومقابل هذا التقصير حق عليها العقاب بفقد بعض حقوقها (١١).

إن العدل يقول بغير ذلك تماما، لأن المسئولية تقع على الزوج حيث أن الأعراض جاء منه وليس من زوجته، إن العدل يقول بالعكس تماما، يقول بوجوب مكافأة هذه الزوجة بزيادة نفقتها تكريما لها وتعويضا لها عن شقائها، ورعاية لها فى كبر سنها ومرضها عرفانا بجميلها، ومن الجور أن تقيم امرأة مخلصة لبعلها وعندما تكبر فى السن يأخذون نصيبها ليعطوه لزوجة أخرى، شابة عفية قوية صبية يمكنها الامتاع ومنح الولد. ليس من العدل أن يكون البديل هو تخليها عن حقها الجسدى لأن زوجها لم يعد يجد فيه المتعة، إن هذا التفسير المطروح فى مأثورنا يجعل المرأة مجرد وسيلة وأداة ويسلبها إنسانيتها، حتى يصبح عليها أن تدفع وتتنازل مقابل عدم طردها إلى العراء عجوزا ضعيفة بلا حول ولاقوة، أو يكون البديل هو الطلاق.

إن متغير الزمان لم يعد يسمح بهذا الموقف الدونى إزاء المرأة، فلا شك أن هناك تفسيرات أكرم للآيات الكريمة، لذلك نصر طوال الوقت على وجوب التسليم بوجوب أوجه كثيرة للتفسير والرأى احتراما للنص تحريكا لأحكامه بتحرك الواقع، لهذا نصر طوال الوقت أن القرآن الكريم نص لايقبل الإغلاق على تفسير أوحد يضر بالدين والدنيا، بالبلاد وبالعباد، وأنه نص مفتوح يحتاج إلى جرأة على الجمود والتقليد حتى يبقى فاعلا فى حياتنا، بما يرقى بهذه الحياة وبما يتلاءم مع متغيراتها، ولاشك أن هناك فقهاء راشدين سنسمع منهم بهذا الشأن قولا حكيما كريما يليق بهم، ولاشك أننا سنسمع من جانب آخر صيحات التكفير والتنفير وهو أمر أصبح معادا مكررا حتى الإملال، لكن حديثنا للراشدين منا.

المرأة والرق والاجتهاد (*)

(*) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٢/ ١١/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٧٣.

هناك أمورا لايختلف حولها أحد من المخلصين من أبناء هذا الوطن، فأمن مصر يرتبط بالضرورة بأمن المحيط، وهو مايعنى أن هناك ارتباطا مصلحيا مصيريا بين مصر وبين محيطها العربى، لكن هذا لايعنى تفعيل ذات الشعارات القديمة التى أودت بنا إلى مكاننا الحالى، لكن غاية مايعنيه هو الحرص على ا لتفاعل وتأكيد التعاون الذى يحمى هذه المصالح ويدعمها ويقويها فى إطار يجمع التعدد ويثريه التنوع.

والأمر الثانى أن هناك أرضا عربية محتلة لن تحررها الشعارات بقدر ماتحررها القدرات وممكنات التحضر والتفوق.

أما الأمر الثالث فهو أن القدرات العربية قد انتهت إلى ضعف يشير إلى خلل كبير فى المنهج وفى الأداء، مقابل تقدم وقوة واضحين فى جانب المحتل، وهو مايعنى وجوب البحث عن أسباب هذا الضعف لتلافيه وتجاوزه.

والرابع أن هناك عالماً كاملاً يأخذ بمبادىء واضحة أدت إلى تقدمه، وأن هذا التقدم لايعنى بالضرورة أنه عدو، ومواقفه تقوم على مبدأ الصراع المصلحى، وعلينا أن نعى مبادىء هذا الصراع وأن نمتلك أدواته، مع الأخذ بالحسبان أن الغرب قد تمكن من التفوق بمناهج وأدوات، ومن ثم علينا اللحاق بهذا المتفوق والاستفادة من منجزاته بعيدا عن منطق العداء العنصرى أو الطائفى الدينى، فهى أمور لم تعد تشغل الدنيا بل إن غاية مايشغلها هو مصالحها، ومن مصلحتنا تلافى اخطاءنا والاستفادة من خبرة الآخر التى أدت إلى تفوقه، فالحرب الآن هى حرب الحضارة التى تبدأ بسلامة منهج التفكيير وتحرير الإنسان فى الداخل من كل مايعوق حريته فى التفكير والإبداع والكشف، لأن العلم اللازم للتقدم لاينمو إلا فى مناخ حر تماما.

وضمن مبدأ الحريات كان لابد أن نتحدث عن وضع المرأة تأسيسا على

أنه من اللغو أن نتحدث عن تحرير البلاد دون أن نحرر العباد، فنصف المجتمع شبه مشلول، لا لشيء إلا لرفض مجرد إعمال العقل والرهبة من الجديد، ومن هنا استندنا إلى اجتهاد شخص فى قيمة الخليفة عمر بن الخطاب بما له من ثقل فى التاريخ الإسلامى، وتمنينا على الأفاضل من رجال الدين المعاصرين اجتهادا يقرب من اجتهاداته، خاصة وأن هذا الاجتهاد العمرى سابقة عظيمة الشأن تشير إلى تفتح الأمة آنذاك وثقتها بنفسها، فقد اجتهد الخليفة وأمضى اجتهاده وأنفذه بحكم مالديه من سلطة آنذاك، حيث كان هو رأس الدولة وخليفة رسول الله فى المسلمين، وكان المسلمون جميعا يعلمون أنه اجتهاد ورأى لإنسان مثلهم لم يكن يأتيه وحى بعد أن رفعت الأقلام وجفت الصحف بموت الرسول إلى الرفيق الأعلى، وقد علمنا أن هذا الاجتهاد قد وصل حد إلغاء فريضة قررتها الآيات بشأن سهم المؤلفة قلوبهم.

وقد سبق فى أكثر من دراسة ومنتدى أن ربطنا بين قضية المرأة وقضية الرق فى الإسلام، حيث تتقاطع القضيتان فى نقطتين تشغلان الأمة: الأولى هى موقعنا الحالى فى العالم ووجوب إعمال مفاهيم الحريات والتكيف مع المتغيرات كى نلحق بالأمم المقدمة، تأسيسا على أن القرآن نص مفتوح لايقبل الإغلاق على تفسير أوحد، والنقطة الثانية هى أنه علينا إبان هذا العمل على تأسيس مناخ الحريات أن نراعى الحفاظ الواجب على احترام النص المقدس، بما يليق بمكانة فى تراث الأمة التاريخى العريض.

والمعلوم أن الإسلام لم يشرع الرق ويبتدعه لأنه كان شرعا سائدا فى أقطار الدنيا عند مجىء الدعوة الإسلامية، ومن هنا كان موقف الإسلام متوافقا مع عصره، لكنه ارتقى بالموقف من الرق خطوة تأسيسا على مفهوم الأخوة الإسلامية فى العقيدة فحبب فى العتق وحض عليه، إلا أنه لم يحرمه ولم يجرمه، وترك ذلك للمؤمنين به وبدروس القرآن الكريم فى التدرج بشأن الأحكام التى تتعلق بالحياة ومعاشها.

واستمر الرق زمنا طويلا فى العالم، وكبقية العالم سايرت الشريعة الإسلامية قواعد زمنها، فعرفت رق الغزوات والسرايا والفتوحات، كما عرفت رق البيع والشراء، وتراكمت بها الأبواب الطوال التى استغرقت مساحات كبيرة فى موسوعات الفقه الإسلامى التى تناولت بالتفصيل الدقيق كل شاردة وواردة تتعلق بشئون الرقيق.

والمعلوم أنه كان للنبى عبيده، كذلك للخلفاء الراشدين، والعشرة المبشرين بالجنة وأئمة المسلمين وعامتهم، وأنقسم المجتمع الإسلامى عبر

قرون طويلة إلى طبقات: طبقة من الرجال وطبقة من النساء، ثم طبقه الأحرار وطبقه الأرقاء ولم تكن هناك مساواة فى الحقوق بين هذه الطبقات خلال هذا التاريخ، وكان الأرقاء فى عداد الأموال والحيوانات، يشترون ويباعون ويورثون دون حقوق البشر الأحرار، كذلك كانت الإماء للمتعة الجنسية دون حقوق الزوجات الحرائر.

وخاضت البشرية نضالا طويلا حتى تمكنت من إلغاء الرق، بل وتجريمه عالميا وإنسانيا وحضاريا بقوانين مدنية وضعية يحلو للبعض تسميتها بالقوانين العلمانية.

لقد بدأ الإسلام بالتحبيب فى العتق والتحريض عليه، وضرب أمثلة فيى تدرج أحكامه كما فى أحكام الخمر، ليعطى الدرس حتى يتغير المؤمنون به عند تغير الظروف، لكن الأمة جمدت ولم تع الدرس حتى سبقها الآخرون إلى إلغاء الرق، وهكذا لم يعد بالإمكان تفعيل أحكام الآيات القرآنية بشأن العبيد وملك اليمين فى هذا الزمن، ففرض الواقع بتغيره إيقاف العمل بأحكام هذه الآيات بعد أن ارتقت البشرية عن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

وهنا تقاطعت لدينا قضية المرأة مع قضية الرق، فقمنا نطالب أهل الاختصاص باجتهاد مماثل لاجتهاد الفاروق عمر، اجتهاد يضع المرأة فى موضعها اللائق إذا أردنا منهجا نواجه به الأقوياء، وذلك قبل أن يفرض الواقع متغيراته مع حركته السريعة ونظل لا نعى الدرس، وتفاجئنا الدنيا بما نرفضه، وحتى لايحدث مع أحكام الآيات التى تتعلق بالمرأة ماسبق وحدث مع آيات الرق وملك اليمن، فهل هذه الأمانى والمطاليب إلا من أجل حريات تضعنا على طريق الحريات، ومن أجل الحفاظ على مقدسنا من تعطيل أحاكمه بالفرض القسرى، حيث يكون الأكرم هو التقدم باجتهاد من علماء الأمة بشأن وضع المرأة يتوافق ووضعها الحالى.

الكارثة أن العالم ألغى الرق وجرمه ولم يتقدم علماؤنا بإعلان وقف العمل بأحكام الرق، بل يتم تدريس تلك الأحكام فى مدارسنا كما سنرى الأن، وعندما طلبنا منهم إعلان وقف العمل بأحكام آيات الرق وفقهه قامت الدنيا ولم تقعد لأشهر وليس لأيام، فى صحف تبحث عن قارئ ولو بإشعال الحرائق فى الوطن، وقد انقسم المهاجمون إلى نوعين، نوع من الباحثين لصحفهم عن قارئ وسوق، وهؤلاء أفصحت كتاباتهم عن جهل مركب «وهو يختلف عن الجهل البسيط» بأبسط معالم الإسلام وقواعده الفقهية، أما الفريق الثانى فكان يعلم جيدا خطورة الأمر وجديته، ومع ذلك أبى الطبع الجامد إلا الجمود.

النمـوذج الأول لايعـرف الفـرق بين الدعـوة إلى إلغـاء آيات «حـاشـا لله وحـاشـانا أن نطلب ذلك»، وبين التمنى بإيقـاف العـمل بالحكم «القـاعدة»، وإيقـاف العمل بأحكام آيات للضرورة والمتغيرات أو النسخ حسب مصالح البـلاد وتغيـر الزمـان والمكان أحد المعـالم الفقهيـة الكبرى المحـمودة للفقـه الإسـلامى، وهى من بسـائطه المعلومـة وتم العمل بها مرات خـلال التـاريخ الإسـلامى زمن صاحب الدعوة والخلفاء الراشدين وتأسست لها القواعد فى علوم الفقه، واتسعت مساحتها وضاقت باختـلاف الفقهاء وأزمنتهم وأمـاكنهم، ومن ثم فـالقـول بذلك ليس جـريمـة تستـدعى التكفـيـر إلا ممن وضعتهم الصدفة فى ساحـة الكتابة، ومن ثم فـلا مجـال هنا لترديد مـاقال هذا الفـريق لسطحـيتـه وسـذاجـتـه الشـديدة رغم خطورة مـايكتب فى صحفه.

أمـا الفـريق الثـانى فـهو مـايشـغلنا لأنهم الأزاهـرة العـارفون الدارسـون المحترفون، وهم من يجب أن نسمع لهم جيدا، ونبدأ بالدكتور عبدالصبور مرزوق الذى ظل ردحا طويلا من الزمن على رأس رابطة العالم الإسلامى، ونسمعه يخاطبنا ساخرا من مطلبنا: «هكذا يطلب أخونا إلى رجال الدين أن يعلنوا عدم العمل بآيات الرق فى القرآن الكريم كده خبطة واحدة؟؟ لماذا يارجل؟ أنسيت أن موضوع الرق والإسترقاق كان أبرز أهم تعاملات الإنسان فى القديم؟ وأنه بهذا معلم تاريخى فى سلوك الإنسان له خطره المدمـر ومن ثم لايصح تجـاوزه»، الشـيخ يرى أن مـوضـوع الرق يجب استـمراره لأنه كان سـائدا عند الإنسـان القـديم من باب تحنيط التـاريخ فقط!! وأبدأ لم يتطرق للفرق بين الحكم والآية، وتقريبـا لم يقل شيئـا له أى قيمة ولامعنى رغم كل التعالى والترفع.

لنر إذن موقفا آخر من القضية، وهو موقف واضح صريح فصيح لم يلتف ولم يداور وإنما قالها سافرة، فيقول الدكتور صلاح غانم: «لابد من وجود الرق مادامت هناك حرب وإلا سوف يستمر القتل، ويصبح كل من كان أسيرا ولم يقدم فداء نفسه وجب عليه القتل.. وبتالى لايمكن تحريم الرق لاوقت رسول الله ولابعد رسول الله ولا إلى قيام الساعة»، فهذا رجل لايشغله أن يصل صوته إلى المحافل الدولية ونحسده على جرأته.

أما الدكتور عبد المعطى البيومى فقد وجد التبرير المعاصر لاستمرار العمل بأحكام آيات الرق فقال لافض فوه: «وبقاء الآيات القرآنية فى الرق مثل غيرها من الآيات كضمان لتغيير موقف القوى العالمية، ونحن نرى أن أكبر القوى العالمية الآن تتنكر للمواثيق الدولية فى كل يوم، فماذا لو تنكرت لميثاق تحرير العبيد؟ إن موقف القرآن يمثل ضمانة للحرية، فنحن مع

إلغاء الرق طالما احترمه الغير (لاحظ الدكتور بذلك وافقنا على إيقاف العمل بأحكام الأيات) فإذا لم يحترم الغير ميثاق الحرية فكتابنا جاهز باق ليفصل لنا كيف تكون معاملة من يتنكرون للمواثيق الدولية».

الرجل الطيب مع إلغاء الرق لكنه مع استمرار العمل بأحكامه في فقهنا، فربما عادت القوى العالمية الكبيرة للعمل بنظام الرق، وهكذا تكون لدينا أحكام الرق عندما نتمكن من هزيمة تلك القوى العالمية الكبرى ونسبي رجالها ونساءها «؟!»، وهو مايذكرنا بالملحة الفكهة المصرية الواعية التي تقول: إن دولة صغيرة فقيرة أصابتها مجاعة شديدة فاجتمع حكماؤها للبحث عن حل، فقال حكيم: الحل أن نعلن الحرب على أمريكا، وطبعا أمريكا ستهزمنا وتحتلنا، وفي هذه الحال ستكون مضطرة لتوفير الطعام لنا، فرد عليه حكيم آخر له حكمة الدكتور البيومي متسائلا: وأفرض أننا هزمنا أمريكا فمن أين سنوفر لها الطعام؟!.

أما الدكتور محمد رأفت عثمان الأستاذ بجامعة الأزهر فوقف يعلن احتجاجه لقولنا أن الفقه الإسلامي يضع الرقيق في صف الحيوان ليعقب: «وقوله أن نفقة الرقيق تتساوى مع نفقة البهائم لا صلة له بالإسلام»[1]، هذا رغم أن ذلك يتم تدريسه في أحكام النفقة للصف الثالث الإعدادي «أزهري» فتتساوى المرأة «أم الولد» مع الرقيق مع البهائم، أو بالنص: «ونفقة الرقيق والبهائم واجبة فمن ملك رقيقا أو عبدا أو أم ولد أو بهيمة وجب عليه نفقته»، وفي شروط القصاص نجد النص يشترط، «ألا يكون أنقص من القاتل بكفر أو برق فلا يقتل مسلم بكافر حربيا كان أم ذميا أم معاهدا ولايقتل حر برقيق»، وفي أحكام الدنيا نقرأ النص «ودية الذكر من اليهود والنصارى والمستأمن والمعاهد ثلث دية المسلم، ودية المرأة الحرة والخنثى نصف دية الرجل الحر الموافق لها في الدين»، النص هنا علا بشأن المرأة درجة عن الرقيق، فلا يقتل حر برقيق لكنه يساويها بالخنثى وهي حرة فيعطيها نصف دية الذكر الحر، ثم إن ديتها أعلى من دية الذكر المسيحي «؟!»، وفي شأن معاملة الأسرى يقول الدرس الذي يدرسه طلابنا في هذا الزمن «إن إسلام الكافر لايعصم زوجته عن استرقاقها ولو كانت حاملا»، (جمعة الأستاذ رضا البهات من كتاب تقريب فتح القريب).

هذه اعتراضات رجال الأزهر على أماني ومطاليب تخرج بنا من العصور الوسطى، وهذا مايدرسه رجال الأزهر لأولادنا وبناتنا، ثم نتساءل من أين أتى الأرهاب؟ ويبحث الدكتور **مصطفى محمود** عن مصدر

(١) وردت كل هذه الأقوال في عدد صحيفة العربي الناصري الفاشستي الصادرة في ١٦/ ٣/ ١٩٩٨ وفي عدد صحيفة صوت الأمة الصادرة في ١٩/ ٤/ ١٩٩٨.

الإرهاب فلا يجد سوى مؤامرة الأعادى الحاقدين على الأمة فيقول: «وما تلك الأصولية التى تدفع بالمسلم ضد المسلم **إلا فتنة رسمها الأعداء بعناية وأنفقوا عليها بسخاء**»، لكن هل هؤلاء الأعداء هنا بالدخل أم بالخارج؟! هذا بينما يستمر الكتاب الأزهرى يعلم أولادنا وبناتنا قائلا: «للجهاد حالان أحدهما أن يكون الكفار فى بلادهم فالجهاد فرض كفاية»، وسبق وقال: «ولايقتل مسلم بكافر حربيا كان أم ذميا»، **فالكفرة نوعان منهم الذمى فى بلادنا**، ثم نندهش لموقف الأرهاب من المسيحيين؟.

لقد قدم الإسلام العظيم دروسه، وأكد تدرجه فى أحكامه وتركها بين أيدى أهله المؤمنين به فهل تشير تلك اللوحة إلى أن أهل الإسلام قد وعوا الدرس؟.

«رنا إلى علمنا أنه بعد المعركة التى أثارها حديثنا بشأن أحكام الرقيق، أصدر الشيخ الدكتور سيد طنطاوى شيخ الجامع الأزهر توجيهاته برفع المواد المقررة بالمعاهد الأزهرية بشأن الرق من المناهج».

دروس الوحى (*)

(*) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٩/ ١١/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٧٤.

عندما يختلف الناس حول قضية من قضايا الثقافة أو الإبداع الفكرى أو الفنى أو حول أمور علمية بحتة أو حول رؤى بحثية، نجد كلا منهم يحاول أن يقدم مالديه من شواهد وقرائن وأدلة واستنباطات وبراهين وتجارب لتأييد موقفه ووجهة نظره، وقد يختلفون اختلافا كبيرا، لكنهم لايصادرون رأى بعضهم البعض، بل يسلمون فى النهاية بالرأى الصواب الذى حاز البرهان والحجة المقبولة من الجميع، لأن مثل هذه القضايا تخضع لمنهج واحد يتفق عليه الجميع هو منهج البحث العلمى، بل قد يلجأ المختلفون إلى الاستعانة بأراء بعضهم البعض دون غضاضة، ولايرون الآخر المختلف عدوا نقيضا بقدر ماهو مكمل ومضيف ومتمم، من أجل الوصول إلى الحقيقة المرجوة.

لكن فى بلادنا لاتعرف الاختلافات هذه الأصول وتلك القوانين والآداب، لأن الأغلبية لايقرون بأصول المنهج العلمى فى البحث والاختلاف، وهى الأصول التى تؤدى إلى اتفاق الجهود باتجاه الغرض، والوصول إلى نتائج يتفق عليها الجميع.

وعندما يمس الاختلاف شأنا من شئون التقديس الأيديولوجى أو الدينى أو السياسى أو الاسطورى، نبقى فى مساحة الرأى المختلف حوله وليس مساحة قواعد المنهج العلمى التى لايختلف حولها، علما أن الرأى يرتبط عادة بالهوى والمزاجية والمصلحة الخاصة والعاطفة أكثر مما يرتبط بالعقل والعلم والمصالح العامة، وربما يكون صاحب الرأى صادق النوايا لكننه عندما يعمل المزاج والهوى والمصلحة الخاصة يخرج من ساحة العلم إلى ساحة الخلاف غير المنتج، ويؤدى منهج الرأى إلى عدم اتفاق أبدى وخلاف لايلتقى، تصحبه عادة الرغبة فى إلغاء الرأى المخالف بل ومحوه محوا.

ومع الرأى والهوى والعواطف يتم مزج الرأى المخالف بصاحبه مما يحمل على البعد عن الموضوعات المختلف بشأنها إلى الأشخاص، ينتهى

الأمر بالتكفير والتنفير الوطنى والدينى والطعن فى الشرف والنزاهة وطهارة اليد إلى آخر هذه القائمة من مصطلحات.

والخلاف الناشب اليوم يمكن تصنيفه بين طرفين بينهما درجات متفاوتة، الطرف الأول محافظ تقليدى مردد بحجة الأصالة والحفاظ على الذات من الذوبان فى الآخر المخالف المعادى بالحفاظ على المأثور كما هو وكما كان، والطرف الآخر يحاول الانتقال بالفكر والسلوك والوعى إلى مستوى التفاعل مع المتغيرات الجديدة والتكيف معها، دون أن يكون بالضرورة ضد الهوية أو ضد الحفاظ على المأثور، حيث نجد كثيرا من المعتدلين المجددين يسعون إلى الجديد عبر القديم، وبالاستناد إليه والتمسك به، ويؤكدون أن ذلك التجديد من باب الحفاظ على القديم والحرص عليه من الجمود والانغلاق فالضياع، إذ تؤكد دروس التاريخ أنك عندما تهمل حركة الواقع ترتكب خطيئة يكون عقابها أن يتجاهلك هذا الواقع، وهذه قوانين الكون ونواميس الطبيعة والوقوف ضدها يعنى الخروج من التاريخ بل ومن الوجود، وإن بقى بعضها فإنه يصبح علامات على حقب تطور ماضية رفضت التكيف وقاومته لعلل وأمراض ذاتية، فانتهت إلى حفريات حية تردد: «هذا ماوجدنا عليه آباءنا» فآل أصحاب القول إلى تاريخ مضى ينعته المؤروخون المسلمون بالجاهلية.

وإعمالا لهذه المعانى نعود فنؤكد أن الإسلام دين متحرك حى، وأن نصه المقدس نص مفتوح، يقبل تعدد الأفهام حوله وتغيرها بحركة الزمن المتغير وانتقالها عبر المكان، وبهذا المعنى وحده يصح القول بصلاحية النص المقدس لكل مكان وزمان، وليس بتثبيته عند معان بذاتها وتفاسير بعينها عند الأسلاف، مرت عليها أزمان وتغيرات أحوال، كما لو كان حق التفكير قاصرا فقط على الأموات.

إن الصلاحية للزمن والمكان ليست بتحويل النص المقدس إلى كتلة جامدة، نستخدمها تعاويذ وتمائم نستمطر بها اللعنات على من تفوقوا من أعادى، لأننا جمدنا نصوصنا وتفكيرنا ولم نتحرك مثلهم، ولم يعد بيدنا سوى العودة إلى الزمن السحرى عندما كانت الكلمات تحرك الجبال وتشفى الأمراض، فقمنا ندعو عليهم رب السموات لإفنائهم، وهو النموذج المضحك المبكى الذى قدمه الدكتور حسن الترابى فى السودان، بعد ضرب الأمريكان لمصنع الشفاء، فدعا الشعب السودانى عبر أجهزة الإعلام لتكريس أسبوع كامل للدعاء على الأمريكان تحت شعار أسبوع (دعاء القنوت) «؟!».

والمصيبة أن من جمد النصوص وأدى إلى تكلس جماعى فى عقل الأمة

هم أهلها وليس أعداؤها، رغم الدروس الواضحة التى قدمها القرآن، وقدمتها أحداث زمن النبوة لأتباع الدعوة وأهلها، وأهم تلك الدروس الواضحة الناصعة الكاشفة التى لا يختلف حولها عاقل، أن القرآن لم يأت دفعة واحدة وكتلة واحدة متكاملة مصمتة، وكان الله قادرا على إنزاله لنبيه دفعة واحدة أو تسليمه إياه مكتوبا وينتهى الأمر، كما حدث فى ألواح موسى وصحف إبراهيم، لكنه لم يفعل إعمالا للحكمة الإلهية فى الكون وفى التاريخ، لأن محمدا خاتم الأنبياء والمرسلين وليس هناك نبى أو رسول بعده، وهو مايعنى ختام تواصل السماء مع الأرض بالرسالات، وهو أيضا مايعنى ختام الأنبياء والمرسلين وليس هناك نبى أو رسول بعده، وهو مايعنى ختام تواصل السماء مع الأرض بالرسالات، وهو أيضا مايعنى وجوب إيضاح الدرس الأخير للبشرية، درسا علميا نهائيا واضحا، تمثل فى مجيىء آيات القرآن الكريم مفرقة على مدى زمن طويل هو عمر الدعوة «حوالى ثلاثة وعشرين عاما كاملة»، ثم أن الوحى جاء متفاعلا مع واقع الزمن حينذاك فجادل الناس وتغيرت أحكامه بتغير أحداث هذا الواقع حين كان يلزم التغير، وتبدلت عندما تحرك الواقع فلزم التبديل والتغيير، وحتى يعمل أتباعه ومن آمنوا به وحملوا أمانته من بعد، ليغيروا فهمهم عندما تتغير الأحوال، ويبدلوا أحكامهم ليتكيفوا مع ظروف الزمن، فيظلوا متجددين بفكر متجدد.

إن أول من لم يع هذا الدرس الكونى، ولم يفهمه هم الجاهليون، فعمدوا إلى السخرية منه وتندروا من هذا المنطق التطورى التاريخى الذى يوافق نواميس الكون وقوانين الخلق والطبيعة، فقالوا: «ألا ترون إلى محمد يأتى أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه؟ ويقول اليوم قولا يرجع عنه غدا؟»، فكان رد الآيات الشارح البليغ: «وإذا بدلنا آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون/ ١٠١/ النحل».

الوحى هنا يؤكد أن الله هو الذى يعلم بما ينزل، لأنه هو من خلق الكون، وهو من وضع له قوانينه، والله لايخالف قوانين هو واضعها لأنه الأعلم بها، ومن لايفهمون هذه السنن والقوانين وصفتهم الآيات بالجهل فأكثرهم لايعلمون. ومن هنا جاز للوحى أن يطور أحكامه بشأن قضايا عديدة مثل قضية الخمر وقضية الميراث وموقفه من أصحاب الديانات الكتابية. لكن كان طبيعيا أيضا أن يقف بأحكامه عند ظروف زمن الدعوة وواقعها ليتوافق مع الواقع، كما وقف بأحكام الرق ووضع المرأة عند مفاهيم ذلك الزمن، وترك الدرس لأتباعه من بعد ليتحركوا ويتغيروا ويتفاعلوا مع الواقع عندما يتغيير ويتبدل.

واستمرت الآيات تتغير وتتبدل فالله صاحبها وصاحب الكون وقوانينه ويعلم مايفعل «أعلم بما ينزل»، فرفعت آيات وأنسيت آيات ونسخت آيات «ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها/ ١٠٦/ البقرة»، بل ومحيت آيات «يمحو الله مايشاء ويثبت/ ٣٩/ الرعد»، وهو مايعنى أن روح القرآن فى موافقته لنواميس الكون، وأن الدرس بمتابعة هذه الروح والتطور مع المستجدات لصالح البلاد والعباد.

وقد وعى المفكرون المسلمون الأوائل هذه الحقيقة وأدركوا حكمة النسخ والتبديل، وخشوا أن يأتى قوم ينكرون هذه الحقيقة، فقال ابن عباس فى قوله تعالى: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» قال: «الحكمة هى المعرفة بالقرآن ناسخة ومنسوخة»، وأورد أبو جعفر النحاس القول: «فمن المتأخرين من قال: ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولامنسوخ.. وهذا القول عظيم جدا **ويؤول إلى الكفر**».

ولأن النسخ والتبديل يتعلق بمعاش الناس، ولأن هذا المعاش متغير، ولأن منصب القضاء يجب أن يراعى ذلك التغير، قال الإمام على لقاض: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت».

وكان من نفاذ البصيرة أن يدرك أوائل المسلمين حقيقة ارتباط حكمة النسخ بالتغير حسب مصالح البلاد والعباد، ونموذجا لذلك ما أكده الإمام الألوسى فى قوله إن الناسخ «لابد أن يكون مشتملا على مصلحة، وتبدلها منوط بتبديلها حسب الأوقات فيكون الناسخ خيرا منه فى النفع، سواء كان خيرا منه فى الثواب أو مثلا له أو لا ثواب فيه أصلا».

كذلك أدركوا أن درس نزول الوحى مفرقا متفاعلا مع الواقع، يعنى وجوب التغيير كلما جد جديد، وهو مايدل عليه قول الإمام الزمخشرى: «والله تعالى ينسخ الشرائع **لأنها مصالح**، وماكان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصالح، وكانوا يقولون: إن محمدا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا.. والتبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة فى خروجه عن الحكمة».

﴿انظر: السيوطى: الإتقان فى علوم القرآن، المكتبة الثقافية، ص٢٠، وأبو جعفر النحاس: الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم، ص١ ـ ٣، والزمخشرى: الكشاف، ٢/ ٤٢٨، والألوسى: روح المعانى ١٢/ ٣٥٣﴾.

لكن رجال الاحتراف الدينى وحلفهم غير المقدس مع المنظومة السياسية وسلاطينها عبر تاريخ وظروف ومصالح ومنافع خاصة ضد مصالح البلاد والعباد، جمدوا العقل وفهم النص المتحرك، ولازال رجالهم

اليوم على الحال نفسه لايقبلون للأحكام المتعلقة بمعيشة الناس تغيرا فى الفهم بتقلب الأحوال وتغير الأوقات متسكين بالمنطق الذى قال فيه الله: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة/ ٣٢/ الفرقان».

لكن المفروض عقلا أن الله لايخالف نواميسه، وإرادته أن يتعلم خليفته فى الأرض مراعاة تلك النواميس، لذلك أكد للمؤمنين بهذا الدرس أن الحكمة الكبرى كانت فى عدم نزول القرآن دفعة واحدة، حتى لايثبت الناس عند حرفية نصوصه، فقال: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلا/ ١٠٦/ الإسراء».

نقد منهج الدولة(•)

(•) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٢٣/ ١١/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٧٦.

لازلنا نحاول العثور على مناطق الضعف فى مناهجنا، التى أدت بنا إلى تراجع حضارى كامل، وتخلف فارق بيننا وبين دول العالم المتقدم، وانتهت بنا إلى متتالية كبرى من الهزائم والتراجعات، مع استمرار احتلال أراض عربية من عدو جاءها شتاتا من أنحاء العالمين، فانتهى قوة كبرى تخطب دول العالم وده، وذلك بفضل مناهجنا فى التفكير على كل المستويات.

ومرة أخرى نقوم بتبيان خريطة تصورنا لموقفنا الذهنى المنهجى إزاء الأحداث التى جرت فى منطقتنا، للتنقيب وراء أسباب الضعف لتجاوزها إذا أردنا مكانا بين الأمم، حيث تم تكييف ما نقدمه هنا من نقد ذاتى لمناهجنا بحسبانه تهجما على الأمة وثوابتها، وتم توصيفه بأنه يصب فى النهاية فى خانة العداء لها، وهو التفسير الذى يؤكد كل ماقلناه فنحن قوم لانقبل نقدا ويضيق صدرنا بالحق، ونحب مدح الذات حبا جما إلى حد المبالغة بل والنرجسية المرضية، وتركبنا عصبية العنتريات إذا كشف لنا أحد عن عيوبنا وخروقنا، وتصبح محاولات الإصلاح فى نظر بعضنا تحالفا مع أعداء الأمة الذين يتربصون بها الدوائر، غير مدركين أن مواجهة الاحتلال الاسرائيلى للأرض، لايمكن أن ينجح بالمواجهة العسكرية وحدها، إنما أولا بالعلم والثقافة والتحضر.

إن الخطوة الأولى فى علاج السقم والعلل أن يعترف المريض أنه مريض وأنه بحاجة للعلاج، يجب أن نعترف بأننا شعوب مهزومة ومتخلفة تستشرى فيها الأمية المعممة والأمية الثقافية، ويجب أن يأتى هذا الاعتراف عن قناعة وببساطة، ولاندفن رؤسنا فى أوهام تضخم ذات المرضى، حتى نجدد لعللنا علاجا ولحالنا صلاحا، وبذات الهدوء والبساطة، يجب أن نعترف أننا نعانى من تخلف حضارى كامل، حتى بات نصيبنا صفرا كبيرا فيما تقدمه شعوب العالم يوميا من ألوف الاكتشافات

والاختراعات التى تعمق الهوة بيننا وبين المتقدمين كل ليلة، بل كل ساعة دون مجاز أو مبالغة، لأن التقدم لن يكون بغير العلم الذى يصوغه العقل البشرى ويبدعه الإنسان بالمنهج العلمى وحده.

والعلم يحتاج إلى تربة يبذر فيها ويروى لينمو بتدريب العقل على المنهج العلمى فى التفكير، وليس منهج الانتظار البليد لحدوث المعجزات وعودة الأساطير الحفرية، وبذرة العلم هى منهجه، أما تربته التى ينمو فيها فهى مناخ الحريات الكامل، الذى لايعرف الوقوف فى أحكامه بين الحلال والحرام وبين الإيمان والكفر، قدر مايقف بين الصواب والخطأ العقلى على مستوى التفكير والمنهج العلمى، وبين المصالح والمنافع المرجوة على مستوى الفعل والسلوك، حيث أصبح من غير الممكن اليوم لعقل جاهل ومتخلف وعدوانى أن يعارك معارك هذا الزمن، بعد أن انتهى عهد السيف والخيل بل والدبابة والمدرعة والمدفع والكثرة العددية، وأصبحت الحرب تدار الأن من داخل الغرف مكيفة الهواء، كما لايمكن لإنسان قد انتقصت حريته ومواطنته أن يحرر أرضا أو يبنى وطنا.

والحريات الكاملة تعنى ديمقراطية كاملة غير منقوصة، لتغييب المناهج الفاشية فى التفكير، التى لن تغيب إلا بالاعتراف بالتعددية المؤدية إلى التكامل، وهو التكامل الذى لاينفى التعارض بقدر مايعنى أن الرؤى المتعارضة لاتنفى بعضها، أو أن أحدها صحيح مطلقا والآخر باطل، لأنها جميعا فى النهاية عملا حرا إراديا طوعيا، تفرزه قناعة الناس وليس الإكراه أو غسيل الأمخاخ المبرمج.

وهذا يعنى عدم وقوف مؤسسات الدولة إلى جوار عقيدة دون آخرى، فعلى كل عقيدة أن تبرز بقواها الذاتية، دون عون الدولة التى تفسد المساواة بينهما إذا ساعدت إحداهما على الأخرى، وفى الوقت نفسه، وحتى تكون هناك ديمقراطية حقيقية، يجب على مؤسسات الدولة أن تقف ضد كل الألوان الشمولية التى تزعم الطهارة المطلقة والوطنية المطلقة والحق المطلق، حيث الديمقراطية نصاب سياسى يقوم على مبدأ المواطنة لا الأيديولوجيا ولا العنصر ولا الجنس ولا الدين، والمواطنة مبدأ لا يقبل التجزئة أو الإنتقاص أو الحصر، لأنها ملك الجميع حيث الوطن وطن الجميع.

وهنا لايمكن الحديث عن ديمقراطية فى ظل سيادة منهج طائفى واضح كامل على مستوى الإعلام والتعليم، حتى أنه أحيانا يقف وراء اتخاذ القرارات السياسية، والملاحظ أن الخطاب السائد خطاب طائفى متعصب يضع المسلم خارج التاريخ فلا يعيش عالمه ولايتصالح معه أو يتكيف مع

جديده، بل هو يريد تغيير العالم كله ليتفق مع وجهة نظره، وهو المستحيل الذى أدى بنا إلى حيث نحن الآن، بعد أن ظللنا زمنا نطلب من العالم موافقته على مانطلب نحن إزاء قضايا كبرى مصيرية، وتوهمنا امتلاك قدرات القوة القامعة لإقناعه بمطالبنا، وعاندنا العالم بعنتيريات خطابية انتهت إلى كوارث كبرى، دون أن نعمل حسابنا بين الممكن والمستحيل.

وإذا كنا نطلب من العقل الجمعى الاعتراف بنواقصه وأخطائه، فيجب من جانبنا أن نعترف بخلل يعتور مطالبنا بالحريات الكاملة، والديمقراطيات غير المنقوصة، ففى ظل مناخ التجهيل العام السائد، ومع مطلب تطبيق الديمقراطية السياسية الفورى، فهو مايعنى أن من سيصلون إلى السلطة بالانتخاب الحر هم ألد أعداء الحريات وأشد أنصار الرجعية وأكبر أنصار الفاشية، الذين يستخدمون شعارات الحرية والديمقراطية لا عن قناعة حقيقية لكن كوسيلة فقط إلى غاية هى السلطة، وساعتها يكون لكل مقام مقال ولكل وقت أذان.

فمجتمعنا لم يزل قبليا عشائريا طائفيا يذهب فيه صوت المواطن الجاهل بالحريات وبالمواطنة ناهيك عن الأمى إلى حليفه فى القبلية أو الطائفيه الدينية أو الأيديولوجيا، ولايذهب إلى من يمكنه الحفاظ على الديمقراطية ومصالح الناس والوطن، هذا رغم أن ذات الجماهير فى ذات الوطن كانت قد بدأت تجربتها الليبرالية بنجاح واضح عبر ثلاثين عاما انتهت بحلف العسكر والعمائم فى يوليو ١٩٥٢، مما وأد التجربة الوليدة بعد تكريس الإعلام والتعليم الموجه للوحدانية الفاشية الشمولية العنصرية الطائفية، حتى عاد الشارع المصرى إلى زمن التفكير أيام المماليك.

ومن هنا لانجد بأيدينا لتحقيق الأمل كى يعيش أولادنا كراما فى وطن كريم سوى القنوات الشرعية، وتوجيه الخطاب لسلطات الدولة ومؤسساتها كلما كان ذلك ممكنا، لبيان الأخطاء فى مناهجها، لأننا لانستطيع أن نكون ضمن قافلة مداحى الدولة المنتفعين، ولأننا لاننتمى إلى حزب أو جماعة أو مؤسسة، حفاظا على حق أن أقول دون حسابات لأحد، سوى وجه الوطن، لهذا نوصل للدولة ومؤسساتها رسالة واضحة تؤكد أن الشارع لن يحترم قانونا لا يشارك فى صياغته حقا، ولن يحترم قانونا يكسره المتسلطون والمتنفذون، ولن يتحالف مع الأمن ضد الخارجين عليه طالما ظل حضره الضابط متسلطا مترفعا فاشيا قاسيا لايرحم.

فمطلبنا نضال بالكلمة وبالحجة تحت مظلة الشرعية، وهو ما يؤدى فى النهاية إلى احترام الدولة ذاتها وسلطاتها، لأن الواضح «فى ظل السماح الديمقراطى»، أن جهاز السلطة لم يعمل إطلاقا حتى الأن على

ترسيخ مفاهيم الحريات الليبرالية فى الواقع، حتى تكون الجماهير درعا لدولتها صونا للحريات، وإنما حدث العكس فزايدت مؤسسات الدولة عليى الإسلام السياسى، والطائفية مما أفرز فى النهاية إرهابا طائفيا مسلحا يضرب مصالح الوطن الاقتصادية وينتقص من هيبة الدولة أمام مواطنيها وأمام العالم.

ومع تفاقم مشكلة الإرهاب ركزت أجهزة السلطة مواجهتها على المستوى الأمنى وحده، مما أدى إلى تفاقم متتالى يخبو مرة ويطل برأسه مرة فى مجازر مفاجئة أحيانا، بينما يستمر منهج مؤسسات السلطة فى إفراز المزيد من الفاشيست المعصبين عبر أجهزة تثقيفها العامة، هذا رغم تطوع كثير من المفكرين غير الرسميين طوال زمن المواجهات الأمنية بإسداء النصح وتأكيد أن المعركة مع الفاشية هى معركة ثقافية فى المقام الأول وليست فقط مواجهات أمنية، حيث مسئولية وزارة الداخلية هى حفظ الأمن ومنع الجريمة والحفاظ على النظام العام، أما مواجهة الفاشية فهى مسئولية الفكر المدنى الذى غيبته ساحة الإعلام والتعليم من ساحتها تماما، وسمحت للفكر الأحادى بالمساحة كاملة.

فعلى مستوى الإعلام أصدر مجلس أمناء إتحاد الإذاعة والتليفزيون قرارا يفرز الفن الكافر من الفن المؤمن فى قوله: «أن تراعى البرامج والدراما أن مفهوم الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى يجب ألا ينظر إليه فقط من منظور فلسفى واعتقادى لكن يتعين ترجمته إلى سلوك يشمل كل مجالات الحياة، وأن الإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه رسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره».

وإعمالا لذلك فتحت ساحات الإعلام أبوابها لمجموعة من المشايخ يفتون فى كل أمر، ويتحدثون حتى فى العلوم المتخصصة بكثير من الجهل المضحك، وهو ما أدى لتلميع مشايخ التطرف وأساتذة الخرافة، وفى وقت كانت ماكينة التطرف الدموى والفتنة الطائفية تطحن قلب الوطن، كان التليفزيون يسمح للمرحوم الشيخ الشعراوى كى يجلس سنوات داخل كل بيت يكفر ويسفه عقيدة نصف الأمة، حتى انتهى الأمر بإحكام السلفية قبضتها على كل تجليات السلطة والقوانون ومناهج الناس والرأى العام والقيم، وهو مايعنى فى رأينا أن المنهج الذى مارسته وسائل الإعلام كان أحد المنتجين الكبار للإرهاب فى مصر، والعامل الأعظم فى تفشى الأمية الثقافية المعممة، وتلاشى الفكر الليبرالى وانزوائه فى صالونات المثقفين الديمقراطيين.

وبين أحاديث المشايخ المحترفين، والحوارات، والفتاوى، والتفاسير،

والعلم والإيمان، والحيض والنفاس وطاعة الزوجات للأزواج لم نطالع مرة واحدة قس مسيحى يعظ أبناء طائفته عبر شاشة تلفازنا المبارك، كما لو لم يكن فى مصر غير المسلمين، ولوضع حصوة فى عين المعترض أو المحتج تتم إذاعة قداس الأحد من محطة إذاعة جانبية غير مسموعة، مع إذاعة الاحتفاليات السنوية التى يتم إلغاء إذاعتها إذا توافق موعدها مع احتفالية إسلامية، هذا رغم أن التمويل الضرائبى لهذه الأجهزة يأتى من جيوب المسلمين والمسيحيين على السواء.

وفى المقابل نجد فى بلاد الغرب التى يحلو لبعضنا نعتها بالبلاد الكافرة مثل سويسرا التى تطبق المبادىء المدنية كمظهر للرقى الحضارى الذى يحترم جميع العقائد دون تمييز، تتم إذاعة صلاة الجمعة على قناتين من قنوات التليفزيون السويسرى احتراما لبضعة ألوف من المسلمين الوافدين وأغلبهم من غير المواطنين ويشكلون عمالة متواضعة طبقيا.

أما على مستوى التعليم فالمصيبة أعظم، نضرب منها فقط الأمثلة، فالطالب المسيحى يدرس فى نصوص اللغة العربية والمحفوظات نصوصا قرآنية وأحاديث نبوية ويؤدى فيها امتحان نجاح أو رسوب مع أخيه المسلم، بينما التلميذ المسلم لايعلم شيئا عن عقيدة أخيه المسيحى وشريكه فى الوطن والجوار والمعركة والرخاء والجوع والسراء والضراء.

وكى يتم تدريس التربية المسيحية لأهلها تم تخصيص فصل فى معظم المدارس الحكومية للمسيحين فقط، مما أدى إلى انفصال مخيف بين أبناء الوطن منذ نعومة أظافرهم، مع نفور وكراهية متبادلة كان طبيعيا أن تفرز إرهابا وفتنا دموية.

هذا ناهيك عن كون المواد الدراسية نفسها تكرس للإرهاب والفتنة بل وتحرض ضد الدولة والقانون، فنقرأ مثلا ماجمعه الدكتور كمال مغيث من هذه المواد، كما فى قول كتاب التربية الدينية للصف الأول الإعدادى: «إن الناس الذين يعييشون فى مجتمعات يتولى فيها البشر التشريع، ويعيشون بمناهج غير منهج الله، يقعون فى عبودية العباد وهذا منتهى الذل والإذلال»، ولايقف الأمر عند هذا الحد، بل يمتد إلى تكريس العداء والفتنة الطائفية ضد إخوتنا فى الوطن فيقول كتاب الدين للصف الثانى الإعدادى: «إن أصحاب الديانات السابقة قد حرفوا رسالات الأنبياء ونسبوا إلى الله مالم يقله وأضاعوا خاصية التوحيد وأصبح التصور الإسلامى هو التصور الوحيد الذى بقى قائما على التوحيد الخالص».

وفى كتاب الصف الثالث الإعدادى للتربية الدينية نقرأ قراره بأنه لادين يقبله الله سوى الإسلام، ومن لايؤمنون به يعلمون الحقيقة لكنهم

لايؤمنون عنادا ومكابرة وضـلالا، لذلك على التـلاميـذ تغـيـيـر هذا المنكر بأيديهم عنفا كما كسر إبراهيم أصنام قومه وكما **نسف** موسى عجل بنى إسرائيل «انظر ص١٤ و ٢٦).

ورغم قـرار وزير التـربيـة والتـعليم رقم ٦٠٣ لسنة ٩٣ بشـأن التـعليم الخاص الذى نص على عدم جواز تضمن اسم المدرسة ما يوحى بأنها لفئة أو طائفـة بعـينهـا، فـإن تلك المدارس تكسـر هـذا القـرار عـيـانـا بيـانا بل وتحـصل على تراخـيص من نفس الوزارة لأسـمـاء منهـا: مـدرسـة آل بيت النبى، مدرسـة عمـرو الفـاتح، مدرسـة فـجـر الصبـاح الإسـلامية، مدرسـة الشبـان المسلمـين، مـدرسـة الدعـوة الإسـلامـيـة.. الخ.. «وهـو مـايذكـرنا بقـرارات سـابقـة لوزير الداخلية بـرفـع الشعـارات والملصقات الطائفـيـة من على السيارات، واليوم نجد سيارات الحكومة بل والنقل العام هى مايكتظ بهـذه الشـعـارات؟!!». وتقـوم تلك المدارس الخـاصـة بتـدريب أرواح البـراعم الصغيرة على كراهية أشـقـائهم فـى الوطن فيـشير كـتـاب مناهـج المسلم الصغير إلى «الضـالين» فى سورة الفـاتحـة بأنهم النصـارى، وتعلمهم كتبها الأحرف وفق الطائفة فحرف اللام «لحية» وحرف الحاء «حجاب» وهكذا.

إن مـايحـدث لايفـصـح أبدا عن مـوقف صـادق من قـضـايا الحـريات والليبرالية، ناهيك عن استثمار الدول الكبرى اليوم لمبادىء حقوق الإنسان وخـاصـة حـريات الـرأى والاعـتـقـاد والمسـاواة من أجل التـدخل فى شـئـون الدول الآخـرى، وعلى مـائدة الـكونجـرس هـذه الأيام مـشـروع قـد يسـمـح بالتدخل المباشر فى الدول الأخرى التى تخالف تلك المبادىء، فهلا حرصنا على وطننا ومـواطنينا وقمنا بتـرتيب بيتنا من الداخل حبا فيه وليس خوفا من آخـر، من أجل وطن مـتـمـاسك وقـوى وحـر قـبل أن يأتى عـمـرو زمـننا (الفاتح) ليصلحه لنا؟.

كيف تتحقق الأساطير (•)

(•) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ١٩٩٨ العدد ٢٦٨١.

الأصوليون اليهود يعتقدون يقينا أن مايحدث للعراق الآن هو عقاب مؤجل منذ قرون، فحصار العراق، وضربها، هو التحقيق العملى للنبوءات التوراتية القديمة بشأن حضارة بابل وآشور فى العراق القديم، بعد أن قام العاهل الآشورى «شمال العراق» بالهجوم على دولة إسرائيل «شمالى فلسطين» ونهب ثرواتها وسبى عشرة أسباط «قبائل» من بنى إسرائيل إلى بلاده، حيث ضاعت تلك الأسباط العشرة هناك وذابت، واختفت من يومها من صفحة التاريخ والجغرافيا. ولما يمض من الزمن سوى سنوات حتى حذا نبوخذ نصر العاهل البابلى «جنوب العراق» حذو رفيقه الآشورى فهاجم دولة يهوذا التى كانت تقوم جنوبى فلسطين ونهب المعبد والبلاد، وسبى السبطين الباقيين إلى بلاد بابل.

فى تلك الأيام الغابرة السوالف كان اليهود يعيشون أساطير التوراة ومعجزاتها، وينتظرون تدخل الرب التوراتى «يهوه» فى كل شأن، وكان الدين ورجال الدين هم المرجع فى كل أمر كبر شأنه أو صغر، ودارت حياتهم بين الحلال الدينى وحرامه، فضعف شأنهم وهان أمرهم بين الأمم المحيطة بهم، التى كانت تعيش مناخا آخر تبدع وتنتج حضارات سامقة، أما يهود فقد انغلقوا على ذواتهم خشية على هويتهم من الضياع وخوفا من الغزو الثقافى، فعاشوا أساطير لم تغن عنهم شيئا. ولم يملكوا إزاء قوة الأقوياء سوى استمطار اللعنات السماوية على بابل وآشور وإقامة الصلوات، تلك اللعنات والصلوات التى لم تغير شيئا من معادلة قوة القوى وضعف الضعيف، ولم يعد بإمكان رب اليهود أن يفعل شيئا لشعبه لأنه أمسى ضغيفا ضعف شعبه، ومن هنا تحول الدعاء غير المستجاب إلى فعل مؤجل سيحدث بالتأكيد، فالرب لن يتخلى عن شعبه الذى فضله على العالمين، وتحول الدعاء إلى نبوءات ستحدث فى مستقبل الأيام حيث سيرث أحفاد البابليين ذنوب الآباء والأسلاف حسب القاعدة التوراتية.

وبين تلك النبوءات نبوءة ترد فى الأصحاح السابع والأربعين من سفر إشيعا، حيث يقول إشعيا لبابل سيدة الممالك آنذاك: «انزلى واجلسى على التراب أيتها العذراء أبنة بابل، اجلس على الأرض بلا كراسى يا أبنة الكلدانيين، لأنك لاتعودين تدعين ناعمة ومترفة.. تنكشف عورتك وترى معاريك.. اجلسى صامتة وادخلى فى الظلام ياابنة الكلدانيين، لأنك لاتعودين تدعين سيدة المماليك».

كانت بابل توصف بأنها «سيدة الممالك»، لأنها تملك أسباب القوة والتحضر والاقتدار، بينما كانت إسرائيل ويهوذا دولا ضعيفة لاتملك سوى دعاء رب السماء، فانتهى الأمر بها إلى الشتات والضياع من جغرافية المنطقة وتاريخها، لأنهم كانوا لايطلبون معرفة شىء خارج مقدسهم، فألقتهم حركة الدنيا خارج التاريخ.

وفى الشتات وبعد قرون وتغير أحوال الدنيا، أصبحوا يعيشون فى دول ذات حضارات، فوعوا الدرس، واستخدموا جميع الأدوات الممكنة ليعودوا ويقيموا دولة حديثة مدنية، على غرار أنظمة الدول المتقدمة التى عاشوا فيها، وأخذوا بكل أسباب التقدم والتحضر والعلم والديمقراطية حتى أصبح الدخل القومى «لدويلة إسرائيل كما نحب أن نصفها» يعادل دخل الدول العربية المحيطة بحدودها مجتمعة.

ولهذه القصة التاريخية مقارنة واجبة بقصة تاريخية آخرى ذات شجون، فعندما قامت الإمبراطورية العربية، انفتحت على علوم الدنيا، فعندما قامت الإمبراطورية العربية، انفتحت على علوم الدنيا، وسمحت بالتعددية الفكرية، ولم تضع كل أمورها فى دائرة المقدس وحده فأخذت علوم اليونان والمصريين والعراقيين والفرس والهند والصين ولم تر ذلك غزوا ثقافيا، ولم تر فى علوم غير المسلمين كفرا وباطلا، ولم تصنف العلوم إلى طب إسلامى وطب بوذى، وعرفت أن العلم ليس له وطن وليس له دين، ولم تصف عالما يهوديا بأنه يضع علما يهوديا كافرا كما نصف بعض علماء الدنيا اليوم، ولا آخر بأنه يضع علما بوذيا وثنيا، فأصبحت الامبراطورية الإسلامية سيدة الممالك، ومن هنا تمكنت من القبض على معادلة القوة، وأمسى بإمكان خليفتها أن يهاجم عمورية بالدمار والنار لأن امرأة صرخت «وامعتصماه».

وسواء كانت قصة «وامعتصماه» صادقة أو كاذبة فإنها كانت ذلك السبب المخترع أو الحقيقى لكنه الهين، أو تلك الذريعة المفتعلة وراء فلسفة القوة، لقد أراد الخليفة أن يأخذ عمورية وهو يملك أسباب تحقيق الإرادة فأخذها، أخذها لأن أوروبا فى ذلك الوقت كانت غارقة فى أساطيرها وتحيل كل أمر لرجال الدين ليفتوا فى كل شأن، ويبيعوا صكوك الغفران،

وأخذها لأننا كنا نجلس فى حلقات النقاش بين آراء مختلفة فى مناخ مفتوح متعدد وثرى، لايعرف تكفير الفكر أو الرأى أو العلم، ويزن أموره بين الصواب والخطأ وحسب مصالح البلاد والعباد، وليس فقط ودائما بين الحرام والحلال الدينى، وعندما انتكس مناخ الحريات فى بلادنا تخلت الأمة عن أسباب نهضتها وقوتها، وغرقت فى أساطيرها تنتظر يوم ينادى الحجر على المؤمن أن وراءه يهوديا ليأتى فيقتله، وتبادلنا المواقع مع دول أوروبا ومع يهود، وأصبح شأننا مع دول العالم المتقدم ذات الشأن يهود «أيام زمان» مع نبوخذ نصر وبابل سيدة المماليك، لهذا لم يعد يملك الترابى فى السودان سوى دعوة شعبه للقنوت للدعاء أسبوعا على الأمريكان، ولم يعد بإمكان ديكتاتور العراق سوى القول: إن الأمريكان يعتمدون فى ضرب العراق على ذراع تكنولوجية طويلة ولايواجهون بشجاعة الرجال، لقد وصل الأمر بنا إلى أننا نريد إعادة الزمن إلى الوراء، نطلب من الأمريكان أن يحاربوا رجلا لرجل بالسيف والخيل والقوس والنشاب لأننا لانملك مقومات القوة والتقدم.

لم نعد نملك سوى الأسف والأسى والشجب ومظاهرات شعبية صادقة المشاعر، إزاء عدوان غاشم مفترى، مظاهرات تنادى: الموت لأمريكا.

لكن من سيميت أمريكا؟

وماذا يفيد طرد السفراء؟ وماذا لو تجمعنا جميعا، واشترينا كل ألوان العتاد «لو سمحوا بذلك»؟ ألم نخسره فى خمس ساعات فى ١٩٦٧، وألم يخسر العراق ترسانة عسكرية قلما توفرت لنا من قبل؟ إنه خطأ المنهج ياسادة وليس مسألة عتاد.

مرة أخرى إنها فلسفة القوة والضعف، كلينتون، نبوخذ نصر، المعتصم، وجميع الأسماء المنتصرة وراءها منهج فلسفة القوة، يقول كتابنا ويتفننون فى إدانة أمريكا وإفترائها وخروجها على الشرعية الدولية وتقرير بتلر «رئيس لجان التفتيش» المزورة كذريعة لضرب العراق، وأن الضرب جاء كورقة يريد أن يكسب بها كلينتون محاكمته فى قضية مونيكا لوينسكى، ولو قتل الأبرياء ودمر البلاد.

نعم ربما كل هذا صحيح وربما لا، ويالوعة الكبد على مايحدث فى العراق، لكن لمن تكتبون ياسادة؟ ولماذا تكتبون المعلوم لكل الدنيا؟ ناهيك عن الفريق الذى يستطيب لطم الخدود وشق الجيوب، فهل هذا ستموت أمريكا؟.

أيها السادة الدروس القاسية تنهال على رؤسنا ولم نتساءل من يحقق الأساطير؟.

إن من يحقق الأساطير ليس أصحابها الذين اخترعوها وألفوها لكن من يؤمنون بالأساطير.

دروس

مابين نصر بدر الكبرى ونصر العاشر من رمضان(*)

(*) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٤/ ١/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٨٢/ شهر رمضان.

في العاشر من رمضان/ السادس من أكتوبر ١٩٧٣ تمكنت القوات المصرية من تحطيم أكبر خط دفاعى فى تاريخ الحروب، وعبرت بارليف إلى سيناء لترفع العلم المصرى فوق الأرض المحررة، بعد سنوات من إعادة بناء القوات المسلحة والتدريب والتخطيط، بذل فيها الجندى المصرى عمره وعرقه ودمه حبا وكرامة، وأتيحت له الفرصة لأول مرة منذ ١٩٤٨ ليحارب معركة حقيقية يثبت فيها جدارته بشهرته أنه خير أجناد الأرض.

ووسط هذا الزخم الرائع والفخر العظيم بأبناء الأمة ورجالها خرج علينا الشيخ عبدالحليم محمود شيخ الأزهر أوانها «رحمه الله» ليعلن أنه قد رأى الملائكة بيض الوجوه يتقدمون جنودنا ويدمرون لهم سلفا تحصينات العدو، وأنهم كالعادة المأثورة كانوا يلبسون أبيض فى أبيض «!؟».

والمعلوم أن مثل هذا المأثور من بقايا الفكر العنصرى القديم الذى يميز الأبيض الذى يرمز للنهار والخير والنصر، بعكس الأسود الذى يرمز إلى الليل والخوف والشر، وهو ذات المأثور الذى ميز الأبرار عن الآثمين الأشرار بالقلب الأبيض والوجه الأبيض، وميز أيام الخير للصائمين بالسبعة البيض أو الستة أو الخمسة البيض.. الخ.

والمرحوم الشيخ عبدالحليم محمود لم يجد أى بأس وأى حرج فى أن يطفىء فرحتنا برجالنا، وثمرة جهودنا بعد عرق السنين ومشقة التدريبات وقسوتها، مابين هزيمة ١٩٦٧ وانتصار ١٩٧٣، لم يجد أى بأس فى أن يسلب الجندى المصرى وهو فى الغالب إما أسمر أو أسود حقه فى الفخر بثمار عرقه ودماء شهدائه وانتصاره المجيد، لينسبه إلى الجنود البيض لابسى الأبيض فى أبيض، ساحقا الفرحة بالآتين من المجهول، مهدرا كل دماء الجنود المصريين المسلمين وبخاصة المسيحيين على تراب الوطن بلاثمن، بعد تأكيده ووراءه جوقة العمائم أن النصر لم يتحقق إلا بصيحة الله أكبر التى زلزلت العدو وهزمته، رغم أن ديكتاتور العراق قد دون على

علم بلاده ذات الشعار منذ أم المعارك الكارثة، ولم يزل من يومها يقف تحت تلك الراية ترفرف فوق بلاده ومعها الإذلال والحصار والقصف، دون حضور واضح للجنود البيض بثيابهم البيض.

ومع الله أكبر والجنود البيض فى ٧٣ لا عزاء لشهداء مصر من الأقباط، عندما لم تميز مدافع العدو وطائراته أتباع راية الله أكبر وأصدقاء الجنود البيض عن أتباع الإنجيل، كما لم تراع قنابل العدو فروق النسبة العددية بين المسلمين والمسيحيين التى يتنادى بها مفكرو التيار الإسلامى كلما تأزمت مسألة الأقباط، ووضع الرجل الإسفين بين أبناء الأمة فى لحظة تاريخية عظيمة من تاريخهم ورحل إلى عالم الخلد، رحمه الله وتجاوز عن سيئاته، لكن المصيبة أن «المطيباتية» من جوقة الكورال المتأسلم تردد علينا كل عام ذات المفاهيم فى أجهزة الإعلام؛ لتؤكد لإخواننا فى الوطن أن دماء أبنائهم قد ذهبت هدرا ودون ثمن حتى لو كان الثمن فقط الفخر بهم والفرحة بصورهم المحلاة بالسواد.

وهذا يعود لأن هذا الفريق من العمائم عافاه الله لايرى الواقع الموضوعى ولا الوطن ولايفهم معنى المواطنة، وكل شىء لديه يجب أن يأتى من فراغ ، وكى يكون مبهرا لابد أن يكون معجزا ملغزا قادما من العالم اللامرئى، منقطع الصلة بالواقع الأرضى وبالإنسان وقدرات فعله البشرى، يجب ألا يكون واقعيا ويستحسن ألا يكون مفهوما حتى يكتسى ثوب الرهبة القدسية، لقد انتكس هؤلاء إلى مرحلة ماقبل الأديان، إلى المرحلة السحرية، أيام كانت التمتمات غير المفهومة والحركات التى لاتحمل معنى تؤدى فعلا مطلوبا فى الواقع ومثله هتاف «**الله أكبر**» الذى هزم إسرائيل وبالطبع فإن هذا المنهج يخدم وجودهم السيادى على قمة الهرم الاجتماعى ويكرسه، حتى يكونوا هم المرجع فى كل أمر ولهم الفتوى فى كل شأن، ومن هنا أحالوا نصر العاشر من رمضان، إلى عالم يوهمون الناس أنهم وحدهم العارفون بأبوابه ومفاتيحه والحارسون عليه والفاهمون لطلاسمه دون الناس جميعا، هذا رغم أن المقارنة الدائمة التى يسوقونها بين نصر أكتوبر توقيته فى العاشر من رمضان بنصر بدر الكبرى زمن الدعوة الإسلامية، يلقى بالظلال على منهجهم ويكذب أطروحاتهم، ويشير إلى أنهم ينتقون بالهوى مايتناسب مع بقائهم فى مواضعهم فى السلم الاجتماعى. لأن قراءة واضحة لأحداث بدر الكبرى فى الزمن المحمدى لاتقف أبدا إلى جانب مايطرحون، ولاتلتقى أبداً مع رؤية المرحوم، ولا مع جوقة الكورال التى لاتزال تردد ترانيم الببغاوات، حيث الحقائق تفصح عن نفسها وتقول لنا قولا آخر، إن النصر البدرى

زمن الدعوة لم يتم فقط بصيحة الله أكبر أو بمساندة الملائكة، بل كان بالفعل البشرى والتخطيط المحكم الذى لم يترك شيئا للصدفة.

فى بدر الكبرى جاء الوعد للنبى عليه الصلاة والسلام بالمدد السماوى بملائكته محاربين إلى جوار الصفوة الأولى للمسلمين، فى أول وقعة كبرى بينهم وبين مشركى مكة، وانتهت الموقعة بانتصار المسلمين، لكن ليعمل ابن الراوندى عقله فيما حدث بعد أربعة قرون ليتساءل متهكما: «من هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه؟ إنهم كانوا مغلولى الشوكة قليلى البطش، فإنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين معهم لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلا!! وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبى بين القتلة ولم ينصره أحد؟/ انظر د. ابراهيم البيومى، فى الفلسفة الإسلامية، ص ٨٣».

هكذا أثار حديث الملائكة والمعجزات منذ القرن الرابع الهجرى تساؤلات واستهجان رجل مثل ابن الراوندى، لأنه أبدا لم يدرك الحكمة والدرس الذى قدمته غزوة بدر، ولم يقرأ دقائق الموقف والغرض من الأحداث. لذلك كان هناك حديث آخر يعقب مثل حديث أبى الحسن السبكى وهو يقول: «سئلت عن الحكمة فى قتال الملائكة مع النبى ببدر مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجبت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبى وأصحابه.. وكان يكفى ملك واحد فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة. البيهقى: دلائل النبوة، ج٣، ص٥٨»، وهكذا أدرك السبكى الحكمة **وعلم أن الفعل كان للنبى وأصحابه**، للبشر وقدراتهم، لقد كان حامل الوحى جبريل صاعدا هابطا طوال الوقت ومع ذلك كان الدرس هو الاعتماد على معطيات الواقع والتعامل معه بالفعل البشرى، فكان النبى يرسل الجواسيس يستطلع أحوال العدو، ولم يسأل جبريل إنما أرسل أكثر جواسيسه خبرة: بسبس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزغباء يأتون له بأخبار العدو.

خطط المسلمون لبدر فأحسنوا التخطيط فانتصروا، أمرهم النبى أن يسيروا نحو بدر صامتين متخفين، يجتازون طرقا غير مطروقة وأمرهم أن يقطعوا الأجراس من أعناق الأبل حتى لاتحدث أصواتا، وأجرى حساباته بحيث يصل قبل أعدائه لمكان المعركة بيوم كامل، وهناك قسم رجاله إلى ألوية لكل لواء رايته المميزة، وجعل لهم شعارات شفرية يتنادون بها أثناء المعركة ليعرفوا بعضهم ويميزوا أنفسهم عن العدو حيث كان الجميع يلبس الخوذ الحديدية والدروع.

وهناك اختار النبى أحسن المواقع وأمنعها قبل وصول عدوه، وأرسل قواته الخاصة تستبق وصول العدو، ليخطفوا له من خطوطهم الخلفية رجلين ثم استجوابهما عن أحوال العدو وعدته وعدده وسلاحه «انظر ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٩٩، ٣٠٠».

أبدا لم يركن المسلمون إلى الملائكة رغم الوعد السابق بمجيئ المحاربين البيض، بل عملوا على حماية قائدهم بأنفسهم، فبنوا للنبى عريشا بعيدا عن المعركة فوق تل يشرف على موقع المعركة، وهو ماجاء فى اقتراح سعد بن معاذ: «يانبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عنك ركائبك حتى نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ماأحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا.. فأثنى عليه رسول الله خيرا، ودعا له بخير، ثم بنى للرسول عريشا كان فيه/ انظر ابن كثير: ج٣، ص٢٦٦».

ومع كل هذا التخطيط البشرى وتوقع كل الممكنات من أحداث، نجد العمل العسكرى، المتقن، فقاموا يعملون بإمرة المحارب اليثربى الخبير الحباب بن المنذر، فردموا الآبار بعد أن ملأوا لأنفسهم حوضا كبيرا على التلال، حتى يأتى أهل مكة مجهدين عطاش فلا يشربون، بينما يجد المسلمون زادهم من الماء، وقد بين القرآن الكريم موقع الفريقين عند المعركة، فقريش جاءت عطشى مجهدة بعد رحلة طويلة لتخوض معركتها فى بطن الوادى، بينما المسلمون يهبطون عليها من الأعالى ويرشقونها بحرابهم وسهامهم من مواقعهم الحصينة فوق التلال وخلف الصخور، فتقول الآيات الكريمة: «إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى **والركب أسفل منكم** ولو تواعدتهم لاختلفتم فى الميعاد/ ٤٢/ الأنفال».

أما الواقدى فيذكر خبرا آخر يؤكد مدى أخذ المسلمين كل صغيرة وكبيرة فى الاعتبار قبل بدء المعركة، وذلك فى اختيارهم لوجهة القتال فيقول: «وقف رسول الله ينظر إلى الصفوف فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس، فنزل الرسول بالعدوة الشامية، ونزلوا بالعدوة اليمانية/ الواقدى: المغازى، ج١، ص٥٦»، أى اختار المسلمون حتى موقعهم بالنسبة للشمس، فحاربوا القرشيين والشمس فى عيونهم تعميهم عن المسلمين.

هكذا وعد الله المسلمين بملائكة بالألوف، على رأسها ملك له ستمائة جناح رفع بجناح واحد منها ـ حسبما تروى مأثوراتنا ـ بلاد لوط بعمارها وناسها إلى السماء وقلبها فدمرها، ومع ذلك اعتمد المسلمون الأوائل على أنفسهم فى كل خطوة، فانتصروا فى بدر الكبرى نصرا غير وجه التاريخ

وخط سيره، لكن عندما ركنوا فى غزوة أحد إلى هذا المدد الملائكى، كان الدرس القاسى وكانت الهزيمة النكراء، ليقارن أهل العقول ويعوا الدرس، وأن الفعل للإنسان كما قال أبو الحسن السبكى، ولو كان الفعل للملائكة لما قتل فى المعركة البدرية من المشركين سبعون فقط، حتى وقف ابن الراوندى يسخر ويتهكم، وهو المعنى الذى جاء بين روايات المسلمين البدريين هادئا يقول: «لولا أن الله حال بيننا وبين الملائكة التى نزلت يوم بدر لماتِ أهل الأرض/ الحلبى، مج٢، ص ٤٠٧»، لمات أهل الأرض وليس فقط مجرد سبعين قتيلا من المشركين، ومع ذلك لم تزل جوقة السحرة يتمتمون ويبسملون ويحوقلون بملائكة نزلت بعد ألف وأربعمائة سنة من بدر الكبرى، ليسلبونا حقنا فى النصر وفرحنا به، وكى ينفث الكهنة فى العقد بين عنصرى الأمة فى أشرف أعيادها وأمجادها.

معني المواطنة(•)

(•) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٨/ ١/ ١٩٩٨ العدد ٣٦٨٤.

التهنئة واجبة لكل مصرى بأعياد أربعة تزاحمت بالفرح على أفق فواتح عام جديد خلال شهر واحد، ربما كانت فألا طيبا وبشرى بأيام أفضل آتية، عيد العبادة والصوم الرمضانى، وعيد النصر على الأعادى الذى يتوافق بالتاريخ العربى مع العاشر من رمضان، وعيد الميلاد المجيد يوم هبط الحب من المجد فى الأعالى على الناس فى الأرض بالمسرة، وعيد الفرح بيوم الفطر المبارك.

نعم بعضها أعياد مسيحية وبعضها أعياد إسلامية، لكن المتحفلين فى الحالين مصريون، ليس أحدهم طليانى والآخر صينى، مصريون يرتبطون بالأرض وتاريخهم المشترك فيها ومستقبلها الذى هو مستقبلهم جميعا، بغض النظر عن عقائدهم، لكن العيد الذى اجتمع حوله المسلم المصرى والمسيحى المصرى فى كرنفال واحد شارك فيه الجميع من بين الأعياد الأربعة هو يوم النصر والعبور، سواء كان الاحتفاء به حسب التقويم الميلادى أو حسب التقويم العربى.

إلا أن هذا العيد الوحيد المشترك شابت النفوس فيه الشوائب، وهو ماسبق وأشرنا إلى أسبابه، فى إلباس النصر الوطنى الجامع لأبناء الأمة لباسا طائفيا إسلاميا بصيحة الله أكبر التى زلزلت الأعادى وخلعت قلوبهم، وبحديث الملائكة البيض بثيابهم البيض، وهو مايعنى استبعاد مصريين آخرين قاتلوا واستشهدوا من أتباع الإنجيل، بعد أن اختلطت دماؤهم بدماء أشقائهم المسلمين على تراب سيناء الغالية، وهو المنهج الذى يعنى تمزيق الاجماع الوحيد والنادر للاحتفالية الباقية بين الأعياد الأربعة.

أعلن أن بداية الموضوع بهذا الشكل تزعج البعض منا، لكل من قال إن هؤلاء المنزعجين يشغلون أحدا، فما علينا من المنزعجين، ولينزعج من أراد فقد آن أو أن كل إزعاج ممكن لهؤلاء، لأن الوطن والاجماع الوطنى المصرى

أعز وأغلى من فئة المنزعجين التى سنثبت بعد قليل أنها لاتفكر بطريقة مصرية، ولاتنتمى لهذا الوطن، وبالتالى فهى ليست مصرية بحال، ومصر اليوم بحاجة لكل مخلص ليخوض فى أوعر المناطق حتى لو كانت شديدة الخطورة، فلم يعد هناك وقت أمامنا لنلحق بالأمم المتقدمة، دولة قوية مدنية متحضرة، وهى لن تكون قوية إلا بتجانسها أولا وقبل أى أمر آخر، وإدراك أبنائها لمعنى المواطنة الصادق وفرزه عن معنى الطائفة، ومثل هذا التجانس المطلوب لن يحدث بمجرد إنكار أن هناك طائفية يسببها منهج سائد تتبناه أجهزة الإعلام والتثقيف الرسمية، ولا بالتغطية عليها برماد هش يحول الجمر الثاوى تحته إلى متفجرات، لن تنفجر إلا فى وجوهنا وفى كبد هذا الوطن الأعز.

ومصر ليست بلدا اعتياديا، بل هى فاتحة بوابة التاريخ الإنسانى على الكوكب الأرضى، وبصماتها على عتبات الحضارة الأولى بلا منازع ينازعها، ومقومات شخصيتها ومفاتيح ثراء هذه الشخصية تكمن فى امتصاصها لكل وافد وتمصيره بقدرة فذة، لاحظها ودونها كل من قام بدراسة تاريخ هذا البلد دراسة منصفة أمينة، ورغم كل مادخل على العنصر المصرى من تهجين الغزاة والفاتحين، فقد كانت الجينات المصرية - بلغة علم الأحياء - هى السائدة وغيرها هو المتنحى، لذلك ظلت فتوح مصر هى ذلك العابر الطارىء دوما، حتى الفتح العربى الإسلامى نفسه، ورغم النزوح العظيم لقبائل الجزيرة العربية للاستيطان فى مصر هربا من شظف عيشها إلى فيىء مصر وخيرها مع الغزو الإسلامية، ومع تحول كثير من المصريين إلى العقيدة الجديدة الوافدة، فقد تمكنت عبقرية مصر التاريخية من إجراء معادلاتها الدقيقة ليس فقط لتمصير العنصر العربى الغازى، بل وتمصير العقيدة الوافدة، فصاغت إسلاما مصريا شعبيا من لون خاص، ضفرته مع حاصل مزيجها الفكرى والعقدى والتاريخى منذ استقر المصرى الأول فى هذا الوادى.

نعم قد يكمن هذا الناتج العبقرى مؤقتا وينزوى إزاء موجات المد الطائفى الطارئة، لكنه عند حاجة الوطن يفصح عن نفسه جهيرا فى بناء متكامل كما حدث إبان الاحتلال الإنجليزى، لمصر وثورة ١٩١٩ وتكامل أبناء الوطن فى لحمة واحدة أبهرت الدنيا آنذاك بما قدمته من مفاهيم متقدمة لمعنى الوطن والمواطنة والحريات، وأنجزت قبلها وبعدها صيغة نهضوية رائعة فى بدايات ليبرالية، حتى توقف زخمها مع حركة ضباط الجيش فى يوليو ١٩٥٢.

لقد كان للتجربة اليولياوية أهدافها المفتوحة على المحيط العربى، من

أجل تشكيل جبهة عربية قادرة على مواجهة العالم الاستعمارى، وكان طموحها الأكبر هو تكامل هذا المحيط فى وحدة عربية تشكل امبراطورية تستعيد أمجاد امبراطورية العرب الغابرة، ورغم نبالة كل المقاصد، فإن تلك التوجهات انطلقت من مفاهيم خاطئة غير مدروسة بعناية، واستخدمت ممارسات قهرية كانت سببا فى نكسات متتالية.

كانت الفكرة الأساس هى التوحد المطلق والصهر الكامل لكل أبناء الأمة العربية، حتى يصبح كل شىء شكل واحد ووجه واحد وفكر واحد ومنهج واحد، ومن ثم لم تر تلك المفاهيم التعددية والتمايز فى إطار التوحد المطلوب، بينما كانت العناصر المعلنة فى شعارات الخطاب الوحدوى كأساس للتوحيد المرتقب هى: وحدة التاريخ ووحدة اللغة ووحدة الدين ووحدة المصير المشترك، وهنا كمنت كثير من المغالطات الكبرى التى انتهت إلى سقوط الخطاب الوحدوى، الذى أسفر عن نفسه فى تفجر وانشطار أول وحدة اندماجية بين مصر وسوريا حينذاك، بل وإلى بدء ظهور التفتت الجانبى داخل الأقطار نفسها، لتفصح الجماعات غير المندرجة فى شعارات الوحدة عن نفسها وعن وجودها حتى لاتذوب وتتلاشى، بعد أن تم إهمالها كما لو كانت غير موجودة فى الخطاب الوحدوى المعلن حينذاك.

وأبرز تلك الشعارات الوحدوية هى وحدة التاريخ بين أقطار العرب، وهذا تزييف كامل للحقيقة، لأن لكل قطر عربى تاريخه الخاص القديم الممتد قبل الفتح العربى الإسلامى، فللعراق تاريخه الأكادى والكلدانى والآشورى والبابلى، وللشام تاريخه الفينيقى والكنعانى والأرامى، ولمصر تاريخها الفرعونى والقبطى.. الخ، وهذا التاريخ ظل ممتدا أو مستبطنا داخل ضمير شعوب الأقطار المفتوحة، فى ظل امبراطورية إسلامية أقامت مجدها وفتوحها بالجيوش والإستيلاء على المواطن المحيطة بجزيرة العرب، بالاحتلال القسرى، وعليه تكون وحدة التاريخ المقصودة هى التراث الإسلامى الذى أصبح جامعا لكثير من شعوب الأقطار المفتوحة، وشتان مابين التاريخ والتراث.

فالتراث الإسلامى هو فعلا تاريخ العرب الفاتحين لأنهم كانوا جماعات متشظية من قبائل بلا تاريخ، فجاز لهم ابتداء التاريخ مع ابتداء تكون دولتهم الأولى فى عاصمتها يثرب، مع تكون أول تراث جامع لهم هو الإسلام بكل تفاصيله. لكن هذا التراث بالنسبة لشعوب البلاد المفتوحة شكل عقيدة وتراثا وليس تاريخا بحال، لأن تاريخها يمتد أبعد من ذلك ويضرب بجذوره فى ماض بعيد، ومن ثم فالتراث الإسلامى قد أضحى

جزءا من تراث البلاد المفتوحة، وليس هو كل تراثها، أما تاريخها فأمر مختلف، وعليه فإن حركة التوحد المعاصر التى أقامت اللغة العربية والإسلام أسس توحد، قطعت الشعوب عن ماضيها القديم وتاريخها الأعرق، وأحلت محله تاريخ أحداث الدعوة الإسلامية ودولتها، بينما أحداث الدعوة الإسلامية ووقائعها من بدر إلى أحد إلى خيبر إلى فتح مكة إلى خالد بن الوليد إلى عقبة بن نافع هى تاريخ العرب وقبائل جزيرة العرب، وأصبحت تراثا إسلاميا للمسلمين فى الأقطار المفتوحة من بعد، لكن بدر أو أحد ليست تاريخا مصريا ولا رافديا ولاشاميا. وهناك كان الخلط الأول للمفاهيم وبداية سقوط المشروع الوحدوى، بعد تحول التراث إلى تاريخ، وأصبحت بداية التاريخ مع العرب الغازين، مع بطولات ابن نافع واختفاء بطولات الفاتح الأعظم تحتمس الثالث، ومع بطولات بن الوليد وتراجع تاريخ آشور بانيبال ونبوخذ نصر، بل أصبح الدرس الذى تكرره كتب التاريخ الإسلامى هو كفر هؤلاء الأقدمين ووجوب التنصل منهم كعار يجب نسيانه.

أما وحدة اللغة العربية فهى حقيقة لاريب فيها بعد التعريب الرسمى القسرى للدواوين فى الحقبة الأموية، وتحول شعوب الأقطار المفتوحة إلى اللسان العربى، الذى أنشأ تفاهما عظيما بين تلك الشعوب وقارب بينها وأذاب كثيرا من العوائق والموانع بين تواصلها، لكن مع ذلك ظلت هناك كثير من الطوائف العريقة فى البلاد المفتوحة تحافظ على دياناتها القديمة ولغتها القديمة، وهنا كانت الفجوة بين فكرة التوحد المطلق المصمت، وذوبان الكل فى واحد، وبين واقع لايمكن إنكاره أو إبادة أصحابه أو أسلمتهم قهرا، بعد أن حافظ هؤلاء على لغتهم إلى جوار العربية، وعلى ديانتهم فى ظل الدولة الإسلامية كما فى طوائف شمالى العراق وسوريا ولبنان ومصر والمغرب العربى، من أكراد إلى كلدانيين إلى أقباط إلى أمازيغ.. ألخ. لذلك أهمل خطاب الوحدة تلك التمايزات بل غطى عليها وتغافل عنها وتعامل مع هذه الفئات الكبيرة الكثيرة العريقة فى أقطارها بحسبانها غير موجودة أصلا، بسبب قرار التوحد الكامل المصمت وليس التوحد للمتعدد والمتمايز والحفاظ على حقوق الجميع فى مواطنة متساوية.

وهنا المنطقة الوعرة والخطرة التى لامناص من مراجعتها إن أردنا تجاوز أخطاء الماضى والبناء على أسس سليمة، بعد أن ورث المواطن المصرى عن الحقبة اليولياوية كثيرا من المفاهيم التى أفرزت تباعدا عن مفهوم المواطنة وغموض الهوية، وهو ماتفاقم بعد أن تناولت الراية

الوحدوية تيارات الإسلام السياسى مع توسيع مساحة التوحد المطلوب إلى بلاد البلغار والأفغان، بتوحد كل المسلمين من باب توسيع جبهة المواجهة مع الغرب المستكبر، وزيادة وإمعانا فى إنكار التعدد والتمايز، بل والاستبعاد المعلن لكل غير المسلمين فى الأقطار العربية.

ومع عملية السباق الذى مارسته أجهزة ومؤسسات الدولة المصرية مع التيارات الإسلامية، لإثبات أنها أكثر إسلاما وتدينا، تم صبغ كل شىء بالمأثور الإسلامى وحده، مما كرس الواحدية المطلقة وأدى للمزيد من التباعد عن مفهوم المواطنة، حتى بات التوحد الإسلامى المطلوب يعنى تفجير الوطن من الداخل إلى طوائف متناحرة.

وسارع فى انتشار هذا الخطاب انتشارا هائلا فى زمن قياسى، آلة الإعلام الحديثة الجهنمية مع المسلسلات التليفزيونية الرمضانية، عن الموحدين الإسرائيليين الأوائل زمن الفراعنة الملاعين «كررتها فى رمضان هذا العامة القناة الرابعة ونقصد مسلسلات أمينة الصاوى رحمها الله وتجاوز عن سيئاتها»، وما أظهرته تلك المسلسلات أو تعمدته لتكريم البدو الإسرائيليين الوافدين، وإبراز الفراعنة فى صورة مزرية كوميدية، فهم طغاة جشعون نهمون، وبنو اسرائيل كرام ميامين، لقد كان هذا التوجه الإعلامى داعما بقوة لكل أطروحات الإسلام السياسى حول التاريخ المصرى والهوية المصرية، بحسبان هذا التاريخ كان تاريخا لمجموعة من الكفرة عبدة الأصنام يجب أن نتبرأ منهم ونلقى بأعظم أمجادنا فى مقالب النفايات.

ومع السباق المحموم لإثبات التحاء مؤسسات الدولة وتدينها، استمر إهمال حقبة مصرية تاريخية مجيدة امتدت ست قرون من النضال ضد الاحتلال الرومانى، كأنها كانت لقوم من المريخ وليست جزءا من تاريخ مصر، وهو ما حدث فى نظامنا التعليمى إلى جوار الإعلامى، اللذين ساهما فى تزييف الهوية الوطنية وقطع الذاكرة المصرية بل وتدمير مفهوم المواطنة، عندما عاملا التاريخ المصرى بعقلية غير مصرية. وأصبح تاريخ مصر الذى يشرف به الكوكب الأرضى على كل مداراته مجرد «خمسة سياحة»، أما الحقبة القبطية فلا يعرف أحد عنها شيئا، بل تم إهمال الأقباط بمأثورهم العريق فى هذه الأجهزة تماما «ويبدو أن تلفازنا المبروك وهو يخصص الحلقات الطوال لسيرة المرحوم الشيخ الشعراوى وحياته، لايعلم أن هناك قديسين مسيحيين مصريين لايقلون شأنا وجلالا قدموا أنفسهم ليس من أجل طائفتهم ودينهم فقط، بل من أجل مصر بمسلميها ومسيحييها، وكانوا يستحقون لفتة مخلصة ببرامج أو دراما

تضعهم فى مكانهم اللائق بتاريخ الوطن وقلوب أبناء الوطن لتجعل الفخر مشتركا بين أبناء الوطن».

وكان طبيعيا أن يتسم الشارع المصرى باللامبالاة وبالانفلات بعد أن فقد المواطن معنى المواطنة والحس الوطنى، بعد أن اقتصرت المناهج السائدة على بداية التاريخ المصرى مع عمرو بن العاص، رغم أنها كيان عظيم يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ، ومن لايعترف بذلك ولا يضع ذلك فى خططه الدائمة لايفكر كمصرى، بل يفكر بعقلية العربى الغازى المستوطن، وما أبعد ذلك عن فكرة المواطنة الصادقة، والمنطق الوطنى السليم، لايرى حسنى مبارك جالسا الآن فى مقام عمرو بن العاص بقدر ماهو امتداد لتحتمس الثالث ولزينة ملوك العالم رمسيس الثانى، وهو ماوعته أدبيات الزمن الناصرى «فى بداية حقبتها فقط» فتفننت بأن عبدالناصر كان أول حاكم مصرى يحكم مصر منذ أكثر من ألفى عام.

إن الخطوة الأولى لإصلاح الخلل الحادث فى الهوية هى الاعتراف بالتعدد والثراء والتمايز فى تاريخنا، وبحق التمايز داخل وحدة الوطن، وأن العرب الفاتحين قد تمصروا وأصبحوا مصريين عنصرا ووطنا، وأن تاريخا لايقتصر على التراث العربى الإسلامى لأن معنى ذلك هو التفكير بعقلية الغازى الذى يفرض ثقافته على البلد المفتوح، وأن نسعى لإزالة كل ما من شأنه أن يقيم حواجز بين أبناء الوطن، وبهذا وحده يمكن أن يحلم بأعياد يحتفى فيها كل المصريين معا، فى كرنفالات حب تجمعهم معا دون شعور بانفصال طائفى، لأن التاريخ الواحد والهوية الواحدة والمواطنة الواحدة تجمعهم معا، ليختفى الارهاب نهائيا من ساحتها والتسيب من شارعها واللامبالاة من قاموس مواطنيها، لتحل محله مصرية يمكن أن تجمع المصريين كما كانوا يجتمعون فى الأزمان السوالف حول أعياد مختلفة لعقائد مختلفة شتى، وليتوحدوا إزاء الطوارىء يدا واحدة، كما اجتمعوا قديما وروضوا نيلهم الجبار فى رضاه وغضبه، ولإنجاز معارف وعلوم وحريات ماكان يمكن أن يفرزها تاريخ كالذى يقدمه تلفازنا عن الأسلاف، بل أفرزته لاشك مواطنة حقة وصادقة وعبقرية لاتحتاج لإيقاظها سوى لمنهج يخلص أولا للوطن، ثم اتركوا البقية لشعبها وهو كفيل بإيقاظ كل جميل وعظيم فى جيناته الوراثية الباقية، منذ كانت مصر درة الكوكب الأرضى وجوهرة مجموعتنا الكوكبية.

مفهوم الوطن والمواطن
في فلسفة القوميين والمتأسلمين (•)

(•) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١/ ٢/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٨٦.

هل ثمة تناقضات رئيسية واضحة بين دعاة القومية العربية وبين دعاة الإسلام السياسى؟ وأين يقع الوطن ومفهوم المواطنة بين كلا الدعوتين؟.

إن الباحث المدقق سيجد اتفاقا أوليا ورئيسيا بين كلا الدعوتين، فكل منهما يتجه فى النهاية نحو غاية رفيعة ومبدأ عظيم، فالإسلام السياسى يدعو إلى توحد كل المسلمين فى كل العالم فى اتحاد طائفى عماده الرئيسى وعقدته الجامعة هو العقيدة الإسلامية، وهو نفس مايدعو إليه دعاة القومية العربية لكن مع قصر هذا الاتحاد على العنصر أو الجنس العربى وحده دون بقية المسلمين، نظرا لأن معظم المسلمين يسكنون العالم العربى، وأن بقيتهم يتشرذمون فى بلاد شتى يشكلون فى بعضها أقليات غير فاعلة، أما الغرض النهائى لدى كلتا الدعوتين فهو الاستقواء بالتوحد على أعداء يقبعون خارج الطائفة وخارج العنصر، ليس لهم من شاغل بالنهار أو بالليل سوى حبك المؤامرات للعرب والمسلمين.

هناك من يؤكد على وجود التناقضات التأسيسية مرتكزا على الصدامات الدموية التى حدثت بين الفريقين منذ سنوات الاستقلال وقبلها وحتى اليوم، أما أوضح علامات التناقض فهو مايقدمه تيار الإسلام السياسى ضد دعاة القومية العربية، إذ يؤكد أنه يدعو بدعوة الإسلام وهى دعوة شمولية «لايقول إنها طائفية؟!»، بينما القومية عنصرية عرقية، وإنها مفهوم مستورد من تاريخ أوروبا لاعلاقة له بتاريخنا ومفاهيمنا، وأن الدعوة القومية تمكنت من حيازة فرصة تطبيق مبادئها فى الواقع عندما تمكن القوميون بسلسلة انقلابات من الاستيلاء على السلطة فى أكثر من بلد عربى، ولم تحقق سوى الفشل الذريع، بل إن الظروف التى أوصلتهم إلى الحكم تشوبها الشوائب حيث كانوا مدعومين من الغرب الصليبى الكافر الذى استخدم الدعوة للقومية العربية لتفتيت الأمة الإسلامية إلى عرب وغير عرب، وأن جامعة الدول العربية نفسها ليست سوى ابتكار بريطانى تم تحت اشراف وتخطيط

ودعم انجليزى كامل، وعند التطبيق لم يجن القوميون وهم فى السلطة سوى الخراب والهزائم لديار المسلمين، وهو مايعنى أنهم قد اخذوا فرصتهم واستنفذوها وعليهم أن يتركوا مواقعهم للتجربة الإسلامية التى أثبتت نجاحها فى الدولة الإسلامية الأولى.

الملحوظة البارزة هنا أن المتأسلمين وهو يبرزون التناقض مع التيار القومى، قد ضفروه مع اتهامات بالخيانة والعمالة، وهو نفس السلاح الذى لجأت إليه الأنظمة نفس التوجهات القومية إبان صراعها مع حركات الإسلام السياسى وتمردها المسلح، عندما تم تسخير الأجهزة الإعلامية لإثبات خيانة الحركات الإسلامية للوطن وعمالتها.

وهكذا تسفر قراءة هذا الصراع أو التناقض الظاهرى عن اتفاق منهجى عميق ورئيسى، وهو أن كلا من التيارين قام بنفى التيار المتصارع معه على السلطة من ساحة المواطنة، وألبس نفسه الشرعية الوطنية واتهم الآخر بالخيانة، ومن ثم أصبح هذا الاتفاق المنهجى هو المتكرر الثابت عند أى مخالفه، فإن أنت خالفت المتأسلمين أصبحت كافرا دينيا متآمرا مع المستشرقين الصليبيين الصهاينة.. آلخ، وإن أنت قدمت ولو نقدا لما آل إليه الحال بمناهج القوميين انتهيت كافرا وطنيا متآمرا تطبيعيا.. آلخ، وأنت عند كليهما صاحب فكر منحرف مستورد، وعليه فالمبدأ الأول والاتفاق الواضح فوق التناقضات الظاهرية بين كلا الطرفين هو إيمان كل منهما أنه وحده الصح المطلق والوطنية الخالصة، ولا مكان لمعترض أو ناقد أو مخالف لأنه خائن وعميل وكافر.

ولأن تاريخ العرب فى جزيرتهم كان هو اللاتاريخ، قبائل متناثرة لاتقبل التوحد، لأن التوحد كان يعنى أن يسود فرد من قبيلة على بقية القبائل، وأن تسود عشيرة على بقية العشائر، فلم يتوحد العرب إلا بقوة أعلى من قوة القبائل والعشائر، بإرادة الهية فرضت تلك الوحدة باصطفاء فرد وقبيلة، بنبى موحد، وبعدها ظلت أدبيات الإسلام السياسى حتى اليوم تتحدث عن دولة تقاس على ذلك النموذج الأول، عن ديكتاتور عادل مختار قرشى فى دولة خلافة آتية يحكم بالشورى مدى حياته.

ولأن الدول العربية المعاصرة ظلت إما فى مراحل البداوة أو الزراعة ولم تبلغ عصر الصناعة الذى يفرز طبقة برجوازية ذات مصلحة فى التوحد، لم يجد دعاة القومية سوى نفس أفكار التأسلم السياسى، فكرة البطل المنقذ الملهم العادل الحاكم مدى الحياة الذى جاء على موعده مع القدر من سجف الغيب، بطل يوحد الأقطار فوقيا، يملك ترسانة عسكرية تمكنه من إقامة ذلك التوحيد المرتقب، ملهم من السماء ورمز للأمة، كذلك

توسموا فى سيد قطب ومن قبله حسن البنا ومن بعده جمال عبدالناصر ثم صدام حسين، أما الشعب فهو طوال الوقت غير موجود غائب سلبى ينتظر معجزة مجىء الخليفة أو ميلاد القائد الضرورة، أو كما تنبأ به الفيلسوف القومى ميشيل عفلق: إنه يظهر فى لحظة عسيرة باصطفاء قدرى كالاصطفاء الإلهى للأنبياء ليقود شعبه نحو الانتصارات الكبرى.

وبهذا النموذج انسحبت الطهارة الدينية من مساحة تيار الإسلام السياسى إلى التيار القومى، وزعم كلاهما لنفسه الطهارة المطلقة والمعرفة التامة، بتوافق فوق كل التناقضات، لذلك كان منهج كلا التيارين هو الوصاية على الناس الذى انتهى إلى ديكتاتورية كاملة، ويتضح هذا المنهج الأرغامى وتلك الوصاية على الناس عند البنا هو يقول: إن من واجبنا كإخوان مسلمين العمل على إصلاح القلوب والعقول وإعادتها إلى طريق الله.

ذات الفكر وذات المنهج أكده عفلق وهو يبرر قسوة البعث العراقى لأن تلك القسوة ليست ضد الناس بل معهم، أنهم يجهلون هويتهم الكامنة فيهم، لذلك أصبح هدف السلطة القومية هو تغيير الشعب ليكتشف ويعى دوره التاريخى.

كلاهما فوق الناس، مختار، موجه، صاحب واجب مقدس، اعتقادى، رسولى، مبعوث عناية قدرية، أما الشعب، الناس، فهم يجعلون دورهم المرسوم فى البروتوكولات الإسلامية والقومية، وهم فى عفويتهم وطبيعتهم الاعتيادية واعتراضهم أحيانا، بحاجة للإصلاح بالوصاية والهيمنة الفوقية، وللإنجاز فلابد من المعتقل والتصفية الجسدية فهى ضريبة وضرورة إنجاز المشروع الأعظم من الأفراد ورغباتهم وحقوقهم الإنسانية الطبيعية، وكان طبيعيا أن تنفى هذه الوصاية أى شكل للتمايز أو التعدد داخل المجتمعات لأن المطلوب صهر الجميع فيى وحدة واحدة كتلية، مصمتة، بينما جرى تعظيم الجماهير كمجموع معنوى فيما تم سحق المواطن الفرد.

إن المنظرين القوميين من فلاسفة أمثال عفلق والبيطار والأرسوزى، وجدوا أمامهم نموذجين يمكن دمجهما معا من أجل الوصول إلى الهدف القومى الوحدوى: النموذج الإسلامى الأول، ثم النموذج الألمانى المبهر حينذاك عندما تحالف العسكر مع الإقطاع ووحدوا الإمارات الألمانية، ومن هنا وعند التطبيق قام التحالف فى بلادنا بين العسكر والإسلاميين، حتى يجد القوميون أسسا نظرية لدعوتهم مستمدة من الخطاب الدينى، ولضمان ولاء الشارع للشعارات الوحدوية المعلنة التى هى نفس شعارات الإسلام السياسى، فنحن أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، تقوم على

أسس توحيدية واضحة أهمها وحدة الدين ووحدة اللغة ووحدة التاريخ، فهل ثمة اختلاف واضح بين دعوة الإسلام السياسى وبين الولاءات القومية التى رفعتها الأنظمة السياسية القومية التى حكمت بعد الاستقلال؟.

وحتى لايبدو القوميون تابعين تماما لرؤية الإسلام السياسى لجأ بعضهم إلى شطب الدين من تلك التأسيسات الوحدوية، وبهدف الالتقاء مع النشأة الأولى للخطاب القومى العربى فى بر الشام، وهو الخطاب الذى كان يهدف إلى الخلاص من ربقة الاستبداد العثمانى مع الحفاظ على حقوق الطوائف غير المسلمة وكان أبرز دعاته من مسيحيى الشام، لكن مع ذلك تظل بقية الشعارات الوحدوية المعلنة كاملة التطابق بل وكاملة التبعية للخطاب الإسلامى السياسى.

خذ مثلا وحدة اللغة، والمقصود اللغة العربية، واللغة العربية لم تكن لغة البلاد الشامية أو الشمال أفريقية قبل الفتح الإسلامى، إنما كانت بالتحديد لغة جزيرة العرب وبشكل أدق لغة قريش، وهى أيضا لغة القرآن، وجاءت إلى الشعوب المفتوحة مقرونة ولصيقة بالإسلام وأهله القادمين من جزيرة العرب، فهى عنصر إسلامى أساسى وفد مع الإسلام الفاتح ولم يكن أصيلا فى البلاد المفتوحة، وعليه فالمقصود هنا بوحدة اللغة هى تلك الوحدة التى بدأ تكونها فى الطور الأموى بالفرض القسرى للغة العربية كلغة جامعة لشعوب الأمبراطورية، ومعنى ذلك أن يبدأ تاريخ الأمة جميعه من تلك اللحظة، أو مع الفتح الإسلامى، بمعنى أوضح، وهو مايعنى إلقاء كل تاريخ البلاد المفتوحة، وهو ماتنطق به كتب التاريخ والأخبار والسير الإسلامية، التى لاتكاد تجد فيها ذكرا للشعوب المفتوحة أو ماتعلق بها من أحداث بقدر ماهو سرد لسير الولاة والسادة العرب القادمين من جزيرة العرب، ومن ثم لايخرج المنهج القومى فى ولاءاته الوحدوية عن الأصول المعتمدة لدى تيار الإسلام السياسى ورؤيته لتاريخ المنطقة جميعه كتاريخ طائفى بالكامل.

وهنا يطرح السؤال نفسه: أين الوطن ومفهوم المواطنة فى كلا الخطابين؟ بل وربما أين المواطن؟.

نحن نعلم بالطبع التقسيم التقليدى للدنيا حسب الرؤية الإسلامية التقليدية، فهناك حزب الله وحزب الشيطان، هذا تقسيم تصنيفى للبشر، فأين الأوطان؟ هم يقسمون الأوطان بدورها قسمين لاثالث لهما أو دارين: دار الحرب ودار الإسلام.

وهذا يعنى أنه ليس هناك شعب واحد متجانس فى وطن بعينه، فحزب

الله أفـراد بعضـهم داخل الـوطن وبعضـهم خـارجـه فى السعـودية وبلاد الأفغـان وفى البوسنة وفى نيجيريا وبلاد تركب الأفيال، كذلك شأن حزب الشيطان فهو أيضا أفراد بعضهم داخل الوطن وبعضهم خارجه لأنه حزب غير المسلمين بالإطلاق.

وهنا لايوجـد وطن بالمعنى الدقيق للكلمـة لأن الحدود بين دار الحـرب ودار السـلام مـتـحـركـة قابلة للتـمـدد أو الانكماش فى الاتجاهين وحسب الظروف، كما لاتوجـد شعـوب إنما توجد أمة، كلمة معنوية، مجرد عبارة فـوق كل الأفـراد، وأهم من كل الأفـراد، والبـديل المسـتـخـدم عـادة لدى القوميين بديلا عن الشعب عبـارة الجمـاهيـر، وهى بدورها معنى مطلق هيولى، لايصح تحديده، لأن التحديد سيبرز التنوع والتمايز بين من يدين بالإسـلام ومن لايدين بالإسـلام، بينما من لايدين بالإسـلام تحديدا أصيل فى مواطنته أكثر من الوافدين الفاتحين، ويمتد تاريخهم فى مواطنهم قبل ظهور هؤلاء الوافدين بأزمان طويلة، لذلك يصبح الوطن هو وطنى حبيبى الوطن الأكبر الذى يمكن أن يمتدد فيضم فجأة الصومال وإريتريا وجزر القمر، تعيش فيه جماهير عربية، هم حزب معنوى فى وطن معنوى.

ومثل تلك الرؤية للوطن ومعنى المواطنة تعود إلى جذور قديمة جاءت مع الوفود العربية من جزيرة العرب، فالقبيلة فى جزيرتها كانت لاتعرف معنى المواطنة ولا معنى الوطن، فهى دوما وأبدا متحركة وراء الكلأ والعشب، ليس لها وطن بعينه، لذلك اخترعت شيئا معنويا ينتقل معها أينمـا ارتحلت أطلقت عليـه «الحـمى»، لاهو أرض ولاهو تاريخ ولاهو مواطنة، فقط هو معنى، ومن ثم انتقلت نفس المفاهيم للطروحات القومية والمتأسلمة ليصبح الوطن معنى وتصبح الجماهير معنى يجمعهما معا معنى ثالث هو الأمة التى مصلحتها فوق كل الأفراد مهما كانت التضحيات بحقوق الفرد وكرامته.

بهذا المنطق كان طبيعيا أن يقبل الوطن احتلالا إخشيديا أو عثمانيا أو فاطميا أو أمويا لافرق فهم سادة عرب أو مسلمون وكفى بذلك سبيلا، كذلك كان طبيعيا أن يحتل صدام حسين الكويت ويجد من يصفق له من القوميين ومن يدعمه شرعيا من الإسلاميين، وكان طبيعيا أن تضيع هوية الوطن بعد الإلقاء بتاريخه بين النفايات لأنه لاعربى ولاإسلامى، وأن تظهر الطائفية والانقسامات داخل الوطن الواحد.

يبقى أن نعى أن التوحد لايأتى من فوق بل من تحت وأن الكرامة لاتبنى بالمعتقلات والترسانات العسكرية التى نخسرها دوما فى ساعات، إنما تأتى من كـرامـة المواطن، وأن كـرامـة مـواطن واحـد تعـدل كـرامـة كل

الحكومات وأن أول مايعطى معنى الأمة وجودها المادى على الأرض هو المواطن الحر الواعى، وأن البداية تكون بالوطن ثم بالمحيط، وأن بين الوطن والمواطن علاقة قانونية دستورية واضحة أو ماتؤسسه هو حريات المواطن الفرد بكل حقوق المواطنة أيا كان دينه أو لونه أو جنسه، وأن الوطن لايكون وطنا بدون تاريخه الذى صنعه شعبه، ومن هنا نبدأ.

الذئب(*)

(*) تم نشره فى مجلة روز اليوسف بتاريخ ١/ ٣/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٩٠.

في توصيفه لحالة العقل العربي اليوم، يقول الدكتور سعد الدين إبراهيم إن هذا العقل يركن إلى «الإدعاء بوجود مؤامرة كبرى تهدد النفس الوطنية والنفس القومية، تمهيدا لإشاعة الخوف ثم الرعب ثم الذعر، من خطر خارجي ماحق يبغى تدمير الأمة.. ثم إلى جمود أو شلل حركى لايبقى معه من قوة تعبيرية إلا الندب واللطم على الخدود والبكائيات أو أحيانا البحث عن كبش فداء مقدور عليه وتكفيره أو تخوينه، وأحيانا أخرى الاكتفاء بالمقاطعة والشجب والرجم، وفى حالة العجز القصوى يقيم الصلوات لكى ينزل بأصحاب المؤامرة مصيبة تعصف بهم.. وحتى حينما كان يتم عرض المعلومات والحقائق فلم يكن يلتفت إليها، فالمعلومات تعرقل التدفق السهل من الهواجس للمخاوف وللذعر وللرعب للندب للطم لتفريغ شحنات الخوف والغضب والإحباط فى كبش فداء.. والمعلومات تعيق هذا التسلسل الذى أصبح إدمانا لدى المثقفين المصريين، فهو مثل كل إدمان، يعطى إحساسا زائفا بالمتعة وإبراء الذمة وإراحة الضمير، فما داموا قد كشفوا المخطط وأمسكوا بالخائن أو العميل، فلاشىء يهم.. وتظل مشكلاتنا الحقيقية تتفاقم حين تتحول إلى أزمات ثم نكبات».

والمعلوم أن فكرة المؤامرة لايتبناها إلا المهزوم وغير القادر على تجاوز هزائمه المتتالية، دون أن ينظر فى داخله ليرى الأسباب الداخلية لهزائمه، وأحيانا ـ كما فى حالتنا ـ نصر على عدم وجود أى أسباب داخلية تستدعى النظر، إذن لابد أن الأسباب تكمن خارجنا، إنها المؤامرة الصليبية الاستشراقية الصهيونية.. وهلم جرا.

نحن نحيل المؤامرة للمختلف عنا، سواء كان هذا الإختلاف فى العنصر أو فى الدين أو فى الرأى أو فى الدرجة، من ليس منا فهو علينا، و«منا» هنا تعنى الذوبان الكامل والتبعية التامة والطاعة المطلقة لثوابتنا التاريخية التى تراكمت على كواهلنا يوما وراء يوم حتى صارت جبالا رواسيا راسخات.

إن الاختلاف يعنى أن تكون نقيضا للهوية، بل وضدها، بل متآمرا عليها، وهذا بوضوح هو عين الفاشية وصلبها وجوهرها التليد، فى بلاد لاتعترف بحق الاختلاف، لأنه يتهددها، ويتهدد قوامها الأيديولوجى الأحادى الصارم، كما يعنى أنها تعانى من خطأ مايستحق المخالفة والاعتراض، وهى لاتقبل إلا الكمال، وترى أنها المالك الدائم لكل الحقائق الكاملة الثابتة. المخالفة تعنى آن فيها نقصا وهى لاتقبل النقص، لذلك لاشك أن المخالف هو الناقص، هو المتآمر، لأنه يتهددها، ومن ثم يجب الضغط عليها لاستتباعه أو تسخيره، أو إن كان بالإمكان تصفيته، ومن ثم فإن الآخر المختلف لايكون له حقوق المواطن، بل وربما لايكون له حقوق الإنسان كإنسان.

ولأن هذا المنهج هو الكمال كله، فلاشك أنه متصل بالمطلق التمامى، لذلك تكون الأيديولوجية الفاشية أيديولوجية تمامية بدورها، لديها كل الإجابات وكل الحلول لكل سؤال ولكل شأن.

والكمال المطلق فى النهاية ومن البداية فكرة دينية، لذلك ترتبط الفاشية وتفرش ألويتها دوما على أرضية دينية تكتسب منها القداسة، لتمنحها للعنصر القومى الذى تنتمى إليه، وهكذا كانت عبر التاريخ من هتلر إلى موسولينى إلى صدام حسين.

ومع القداسة التى تميز العنصر والقوم يتم نفى الآخر المختلف حتى لو لم يعلن مخالفته، لأن وجوده نفسه يعنى المخالفة والنقيض، فكيف تكون مواطنا فى ألمانيا الهتلرية دون أن تكون نازيا؟ وكيف تكون فى عراق صدام حسين وتعلن أنك من عرق كردى، أو من مذهب شيعى، ثم كيف تكون فى مصر العروبة وتقول إنك قبطى؟ إن هذا يعنى نقصا فى السيادة التمامية للذاكرة التاريخية، كما فى حالة الزمن القبطى فى التاريخ المصرى، وإما ينبغى إزالتك من الوجود كما حدث فى عراق صدام، رافع لواء الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة، والأمة الواحدة تعنى على الأقل وحدة تمامية بين عناصرها فى القطر الواحد، ومن ثم عقب صدام على إبادته للأكراد فى حديثه للباحثة الأمريكية هيلمس بكل ثقة بالقول: «يستطيع القائد أن يصوغ شعبه كيفما أراد، وكى يفعل ذلك لابد أن تكون الجماهير موحدة أولا»، وهو يعنى بلاتأويل «موحدة فيه» فى نفس القدسية، أليس هو حامل لواء الرسالة الخالدة للأمة العربية الواحدة؟.

ومن هنا يستمد قداسته، وتصبح له الأسماء التسع والتسعون الحسنى، فالزعيم فى النظام الفاشى يصبح بديلا للنبى، كما كان خليفته طوال تاريخنا العبقرى من أموى إلى عباسى إلى عثمانلى.. وظهوره يأتى وقت

الأزمات لينقذ البلاد والعباد، ويعيد زمن الفتوحات، انظر معى الكاتب القومى اليسارى العروبى الناصرى، «معا؟!» أمير اسكندر يشبه مولد صدام بظهور نجم فوق بلاد العرب، والجماهير مسلوبة تنتظر فقط مولد الزعيم المنقذ البطل الملهم المخلص المعجزة، وهنا تأتى سمة أخرى واضحة فى المنهج الفاشى هى الايمان بالمعجزة، أليست الرسالة الخالدة نفسها معجزة، وحامل لوائها معجزة، والمقدسات عموما تمتلى بالمعجزات، كما أنها اصطفائية، تصطفى العرق، وتصطفى الطائفة، تصطفى الحزب، تصطفى الزعيم، تصطفى خير الأمم، وعلى البقية الذوبان فى الأوحد أو التلاشى، أو يكونوا خونة وذيولا للمؤامرة الدولية الكبرى.

وعندما لايتطابق الواقع مع المشروع العرقى الطائفى الفاشى، فهذا لايعنى خطأ فى مشروع خير الأمم، إنما الخطأ فى الواقع، فالأمة والقائد مبرآن من الخطأ بحتمية الاصطفاء القدسى، فالأمة هى الكمال بشهادة المقدس، والقائد يستمد كماله منها ثم يمنحها ديمومة الاستمرار القدسى بقيادته، وهذا يعنى أن الواقع هو الخطأ، وبما أن واقعنا فى الداخل يجب أن يكون كاملا بدوره فلاشك أنها المؤامرة القادمة من المتآمر الخارجى الدولى الصليبى الصهيونى الاستشراقى.

ألم تنتظر قيادتنا السياسية والعسكرية قدوم طائرات العدو فى ١٩٦٧ من الشرق، فجاءتنا من الغرب «؟!» كذبة لعذر أقبح من ذنب، وعلى نفس القياس اكتشف نظام صدام أن مطالب الشيعة الحقوقية فى كامل المواطنة وانتفاضتهم مجرد مؤامرة إيرانية دبرها الشاه والخمينى «؟!»، أما الحركة الكردية فهى نزعة عمالة متأصلة فى عائلة برزانى خلفا عن سلف، فالشيعة ليسوا طائفية دينية مخالفة، وإلا كيف وحد القائد الوطن بمشيئته؟ والأكراد ليسوا عرقا يرفع نفس المطاليب، فهذا بدوره ينتقص من كمال المنظومة وقائدها، فليس هناك فى الحقيقة سوى شعب واحد وعرق واحد ودين واحد ومذهب واحد، ليس هناك أى تعددية وإلا تعددت الآلهة، وبسبيل ذلك كان لابد أن تتسم الفاشية الفردانية بالقمع الدموى وإهدار كل الحريات، من أجل وحدة الأمة.

والمعلومات والحقائق التى لايردون أبدا عليها، تفصح عن كابوس مرعب رهيب، حيث تمت التضحية بنصف مليون كردى من ١٩٧٠ حتى ١٩٩٧. وكانت إبادة الأكراد تتم على قدم وساق طوال عقدين من ١٩٧٠ وحتى ١٩٩٠ دون أن يحرك العرب ساكنا أو حتى يعلنوا استنكارهم، بل كنا لانسمع بتلك الأخبار إلا من الإذاعات الأجنبية، حرصنا على تماسك الأمة، ثم أن الأكراد ليسوا من العنصر العربى، كما أنهم يعلنون كرديتهم ويعتزون بها وتلك ثالثة الأثافى.

هذا غير مليون عراقى وإيرانى تمت إبادتهم فى حرب الخليج الأولى، ومن ٦٨ حتى ١٩٩٨ كان صدام قد اغتال ربع مليون عراقى من أجل الوحدة الوطنية التى هى الصخرة التى ستقام عليها الوحدة العربية، تلك الوحدة التى بدأها باحتلال دولة الكويت التى انتهت بكارثة كاملة المواصفات، ناهيك عن خسائر الأموال التى زادت عن ألف مليار دولار تم إهدارها من رصيد العرب فى حربى الخليج الأولى والثانية فقط لعنترية الفاشية العربية التى لم تزل تجد من يؤيدها دون أى شعور بالإثم أو الخجل، فلماذا الخجل والأمة فوق الأفراد والزعيم فوق الأمة، والكل فى واحد؟.

ولعلنا لم نزل نذكر ذلك الإيمان الأسطورى بالمعجزة عند القائد الملهم، فعبدالناصر أكد وهو يغلق مضائق ثيران فى ١٩٦٧ للعالم أجمع أنه لن يتراجع عن قرار الحرب، ولو جاءت أمريكا فسيجعلها تشرب من البحر الأبيض، أو من البحر الأحمر إذا لم يعجبها طعم الأبيض، أما صدام فأعلن فى حديثه لمحطة C.N.N الأمريكية قبل الهجوم على بلاده بأيام أنه لايشك فى انتصاره على جيوس الثلاثين دولة التى أحاطت ببلاده ولا واحد فى المليون، وكانت النتائج معلومة فى الحالتين، ولم نزل نتجرع آثارها المرة كل يوم.

والمعجزة كامنة فى العقلية البدوية الرعوية العربية، والبدوى كان يؤمن إيمانا لايهتز بالمعجزة، لأن بيئته طبعته بطابعها، فهو غير فاعل فى أرض مجدبة لاتقبل زرعا ولاحصدا، غير منتج، يستند إلى ظل سدره فى قيلولة متراخية دوما حتى تفاجئه الخراف بالمواليد بعد التلاقح، أو بالمطر بعد قحط، أو بالقحط حتى الهلاك جوعا، فالحياة يمكن أن تنهى فجأة، أو تترعرع فجأة، بصدف إعجازية خارج إرادته وفعله وماعليه سوى الانتظار، والفاشية العربية لم تقم بتفعيل تراث تلك المواطن جميعا فى ضفيرة واحدة منتجة، بل ألقت كل ماقبل العروبة فى المهملات، من تاريخ آشور بانى بعل وحدائق بابل المعلقة، إلى تاريخ بناة الأهرام والكرنك ومهندسى الرى العبقرى مصر القديمة، إلى معجزة الفينيقيين البحرية والأبجدية، كل هذا يفرق ولايجمع، إنه شعوبى ملعون، وأبقت فقط على الوافد الموحد المعجزة، مع نفى كل مخالف.

والقوميون والمتأسلمون يرون وفق تلك الفلسفة أنه من غير الجائز بل ومن الخيانة القومية أن نتحدث عن مأساة شعب العراق تحت فاشية صدام وبعثه، لأن الواجب القومى والدينى يحتم على الجميع الوقوف صفا واحدا مع صدام بحجة الوقوف مع شعب العراق المحاصر، وحين يرفع

الحصار يكون لكل مقام مقال، فنتحدث عن تلك الأمور الجانبية التافهة كالديموقراطية وحقوق الإنسان وما إليها، فما دامت هناك معركة وعدو لاهو عربى ولاهو مسلم فلامجال للحديث عن ديمقراطية ودكتاتورية، لامجال للحديث عن الداخل الرهيب، ذات القصة القديمة: الذئب على الحدود دوما، إذ لاصوت يعلو فوق صوت المعركة.

والمصيبة أن الذئاب كثيرة وستظل دوما موجودة، وسيظل الوطن دوما فى طوارىء، سيوجد ذئب دائما على الحدود، وهذا يعنى أن علينا أن نقف مع ذئبنا، ضد الذئب الغريب، حتى يأكلنا هذا أو ذاك.

عقلية المؤامرة وتبرير الهزائم (*)

(*) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٩٢.

إن قدر أى مفكر وطنى مخلص اليوم هو أن يحمل صليبه على كتفه ويسير وسط جحور الأفاعى وحقول الألغام، وبين أكاذيب وأباطيل تحولت عبر التاريخ إلى حقائق ورايات وضعت داخل مناطق حدودية فكرية حرام، وتحولت إلى تابوهات أصبح من غير المسموح الاقتراب منها أو مناقشته، لأنها أصبحت المشجب التاريخى العظيم الذى نعلق عليه أخطائنا ونبرر به هزائمنا.. ومن يحاول النظر خلف تلك الحجب المحرمة تناله لعنة التحريم، وهتك ستر المصطلحات التى أصبحت شبه مقدسة بعد أن اكتسبت بالتكرار والتقادم مصداقية زائفة، وتتمثل تلك المناطق المحرمة فى القول بمؤامرة عالمية يقودها الشيطان وحزبه ضد العرب والمسلمين، فقط كراهية فيهم وحقدا عليهم لما حققوه من إنجازات وتفوق «تاريخى بدوره»، وأن تلك المؤامرة هى التى تقف دوما وراء هزائمنا ونكساتنا ونكباتنا، وتتلخص اليوم فى عبارة واحدة متكررة هى «المؤامرة الصليبية الاستشراقية العلمانية الصهيونية» «؟».

توقف المنطق، وتعطل العقل، وأصبحت الألفاظ بديلا مناسبا تعويضيا، تحمل تاريخا عاطفيا لاعقلانيا، وعند المحاولة للنبش وراء الأسباب الحقيقية لانهيار الأمة الكارثى، تخرج الأصوات التى تعفنت لكثرة ركودها بين موتى التاريخ باتهامات التكفير الوطنى والدينى، مع نغمات التحريض، تحريض الحكومة، وتحريض الفاشية الدينية، وبعضها يقوم بذلك لشعوره أن المراجعة وإعادة قراءة الذات ونقد التاريخ والمنهج، يزلزل مصالح يجنونها على حساب الوطن ومستقبل أبنائه، وبعضها يقوم بذلك عن إيمان حقيقى وصادق بالمؤامرة، إيمان وصل به إلى حد العمى عن الرؤية، فيضرب الوطن فى مقتل، من حيث هو يريد رفعته وقوته، أو من حيث هو يتوهم ذلك.

وفى زمن محاولة النهضة وبداية إلقاء الضوء على خطأ الداخل،

ومنهج التكفير الذى أودى بنا إلى هذا الحال، تعرض أصحاب فكر النهضة والأنوار لنفس مايتعرض له اليوم من يحاولون تجاوز الهزيمة نحو غد أفضل، وفى هذا المقام نجد عبارات كاشفة للحال الذى يصل إليه المفكر الوطنى نتيجة التهجم والافتراء من عقول بيوت العنكبوت، فيقول عميد الأدب العربى طه حسين: «ولست أتمدح بأنى أحب التعرض للأذى، وربما كان من الحب أن أحب الحياة الهادئة المطمئنة، وأريد أن أتذوق لذات العيش فى دعة ورضا، ولكنى مع ذلك أحب أن أفكر وأحب أن أبحث، وأحب أن أعلن على الناس ماانتهى إليه البحث والتفكير، ولا أكره أن آخذ نصيبى من رضا الناس عنى، أو سخطهم على حين أعلن إليهم مايحبون ومايكرهون/ الأدب الجاهلى/ ط١١، ص ١٦٥».

ولكن رائد الأنوار لم يعش حتى زماننا ليرى الهوة بيننا وبين الآخر تتسع اتساعا هائلا، والفجوة الحضارية تصل فى تجاوزها إلى حد الاستحالة فيما يرى الدكتور مراد وهبة، وأصبح الفارق يتسع يوميا كالمتتالية العددية، نسجل كل يوم تراجعات نحو مزيد من الفكر الطائفى الفاشى العنصرى، ويسجل الآخرون كل يوم مزيدا من المكاسب لرصيد الحريات، نغوص كل يوم أكثر فى متاهات الفكر الأسطورى الاتكالى المغلق على نفسه وينذر بخروجنا من ساحة التاريخ، أو أنه بالأحرى قد أخرجنا بالفعل من التاريخ فيما يرى الدكتور فوزى منصور، بينما الآخر يتعمق إيمانه بالمنهج العلمى فى التفكير، فينجز ويكتشف ويخترع وينفتح على كل علوم الدنيا، حتى أن أساطير أصبحت «خيالا علميا»، خيالا مقننا مدروسا يقف على أرض العلمية، أصبح الخيال بدوره خاضعا لشرط المنهج العلمى.

لم يعش العميد حتى يرى إسرائيل بنت الخمسين عاما تمارس جبروتها «بعلمها وانفتاحها» على كل العرب بل وربما كل المسلمين «من وجهة نظر المسلمين»، بينما ينتظر العرب النتائج التى سيحسمها لهم الاسرائيليون فى الانتخابات «!؟».

إن الفارق الهائل حسم الموقف مع المفكر الوطنى، فلم تعد المسألة فقط أن «أحب أن أفكر وأحب أن أبحث»، بل أصبحت قضية نضالية فى المقام الأول، من أجل وقف الهبوط إلى مزيد من التردى، إن الأمر قد أصبح مصير أمة، ويستحق شرف النضال الفكرى لتجاوز كل الشعارات المعلنة بل وتجاوز كل شروط المنهج السائد فى التفكير، وهو مايعنى مخالفة السائد والسير عكس التيار، وهنا تكون الضريبة التى يدفعها المفكر بحجم مايحمل من هم، وبقدر مايمعن فى المخالفة.

منذ الفتنة الكبرى فى التاريخ العربى ولما يمض على رحيل الرسول المؤسس لدولة العرب ماينوف على عقد من الزمان، لم يجد العربى تفسيرا لما حدث سوى المؤامرة الشيطانية التى تمثلت حينذاك فى الشخصية الأسطورية المزعومة «عبدالله بن سبأ»، وهى الفكرة التى لو أخذنا بها دون النظر للأسباب الحقيقية داخل دولة المسلمين أنفسهم لنال ذلك من الجميع، من الصحابة، ومن دولة المسلمين.

وساعتها لم يسألوا أنفسهم وهو يبررون الفتنة بمؤامرة ابن سبأ اليهودى: كيف تمكن شخص منفرد من فعل كل ماحل بدولة الإسلام وهى فى أوج قوتها؟ وهى تلزم جميع الفروض والسنن مما يعنى أنها كانت تحت رعاية الله مباشرة وحمايته «؟!»، إن فكرة المؤامرة حينذاك تصور الأمة هزيلة ضعيفة مترنحة يستمع كبارها للوشايات، كلهم آذان، يسارعون إلى الفتنة مع أول همسة، بينما ابن سبأ يستمر فى المؤامرة وينشر كل مايخالف الإسلام حتى بات مشهور الكفر، ومع ذلك يستجيب له صحابة رسول الله من فورهم، فينقسمون شيعا ويقتلون بعضهم بعضا، هو المنهج العربى التليد الذى يأنف من الأعتراف بالخطأ فتتراكم أخطاؤه وتتكاثر كبواته، منهج يأبى أن يبحث عن أسباب المصائب فى الداخل لأنها الأمة المختارة وخير الأمم، فهى مبرأة عن الخطأ والنقص، وليست النكبات لأسباب تكمن فينا إنما هى خارجنا، وعلينا دوما أن نبحث عن/تلك الأسباب فى المؤامرة الخارجية، الصليبية الاستشراقية الصهيونية العلمانية (؟!!).

هل بالإمكان إذن مناقشة تلك المؤامرة المشهورة؟ مناقشة الفكرة نفسها، على محك الفكر المجرد من المصلحة والعاطفة؟ إن هذه المناقشة هى بمثابة السير فى وادى الأفاعى، الذى يحميه حراس المصطلحات المقدسة، لكن إذا لم يكن هناك مفر من إعادة مناقشة كل مفردات منهجنا، فلابد من القول والمناقشة، بغض النظر عن الحرس الدينى والحرس الثورى والحرس القومى، لاعتقادنا بانتهاء صلاحية هؤلاء جميعا، ولابأس من بعض «حلاوة الروح» المسموح بتجلياتها فى ضربات عشوائية تضر بأصحابها وبمناهجهم وتكشفهم أمام الناس، أكثر مما تضر بالمحاولات المخلصة للخلاص والتجاوز.

بفكر المؤامرة نستدعى من التاريخ زمن الغزو الأوروبى المعروف بالصليبى، ونسقط سياق التاريخ جميعه وظروفه، ونتحدث عن مؤامرة صليبية نقصد بها مؤامرة الغرب الأوروبى الأمريكى، ولم نتساءل: هل حقا تحتاج أمريكا لمؤامرة لتحقيق مصالحها فى بلادنا؟ والعجيب أننا نقول فى

الوقت نفسه أن هذا الغرب علمانى كافر يريد نشر الفكر العلمانى فى بلادنا للقضاء على الإسلام بمؤامرة الغرب الأوروبى الأمريكى، ولم نتساءل: هل حقا تحتاج أمريكا لمؤامرة لتحقيق مصالحها فى بلادنا؟ والعجيب أننا نقول فى الوقت نفسه أن هذا الغرب علمانى كافر يريد نشر الفكر العلمانى فى بلادنا للقضاء على الإسلام بمؤامرة خبيثة، وهنا تقف محاولا الفهم فلاتجد إجابة: هل الغرب مسيحى مؤمن صليبى، أم علمانى بكل مايصفون به العلمانية من كفر وتحلل وانهيار قيمى... الخ؟ أم أن عقلية المؤامرة قد أصابتها الشيزوفرينيا؟.

المصيبة أن تسمع تلك النغمة عن المؤامرة الصليبية فى إعلامنا ومقررات مدارسنا، وهى النغمة التى تقصد بوضوح مؤامرة مسيحية ضد الأسلام والمسلمين، لأن المسيحيين هم أتباع الصليب، ويتم الحديث هكذا فى الهواء الطلق بلا أى حسابات تراعى ماذا يفعل نشر فكرة المؤامرة الصليبية، فى صلب الوحدة الوطنية، وكيف ينظر البسطاء والصغار إلى إخوانهم فى الوطن، أو حتى كبار: ألم يدع السيد مشهور زعيم عصابة الإخوان المحظورة «محظورة كدة وكدة؟!» إلى تسريح المسيحيين من الجيش تحسبا لخيانتهم للوطن؟.

على المستوى التاريخى نعلم أن العرب خرجوا من جزيرتهم يحملون دينا جديدا هو الإسلام، احتلوا تحت رايته وباسمه بلدان حوض المتوسط الشرقى، وضمنه بيت المقدس، فى زمن كانت فيه الأمبراطورية الرومانية، قد انقسمت إلى شرقية بيزنطية وغربية حافظت على اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة.

وهؤلاء وأولئك كانوا مسيحيين، ويرون أن من حق المسيحيين أن تبقى مقدساتهم مثل كنيسة المهد وكنيسة القيامة تحت حكمهم، ومن هنا شنت دول بقايا الامبراطورية الرومانية المقدسة حروبها لاسترجاع المقدسات المسيحية للحكم المسيحى.

ونحن نعلم أن الجوهر والقلب من الديانة المسيحية هو المحبة، لكن مع التعصب الدينى انقلبت المحبة حينذاك مدفوعة بأطماع الملوك والأمراء إلى فعل عدوانى جوهره الكراهية، ولم تتولد الكراهية إلا عن كراهية مماثلة على الطرف الآخر، فلم تقم تلك الحروب إلا بعد احتلال السلاجقة لبييت المقدس وانتزاعه من الفاطميين، واتباع السلاجقة سياسة خرقاء وعنيفة فى وجه الحجاج المسيحيين سواء المواطنين أو الآتين من أوروبا، وهنا جاء مسيحيو أوروبا ليخلصوا وطن المسيح من الحكم الإسلامى، وبالطبع ما إن تدور آلة الكراهية العنصرية والطائفية

حتى تطحن الأبرياء بتعصب أعمى، وتم قتل مسلمين أبرياء بأعداد هائلة إبان ذلك الغزو، ولم ينج اليهود بدورهم، بل تم اختصاصهم دون المسلمين بالإلقاء فى اللهيب الذى أوقدوه فى المذبح اليهودى نفسه لهذا الغرض «انظر محمد على كرد: الإسلام والحضارة العربية ج٢، ص٢٩٦».

إن مشروعية تحرير الأرض بالحديد والنار مبدأ عالمى يؤمن به العرب بدورهم، وهذا بالتالى من وجهة نظر مجردة يتمثل فى إعلان الصليبيين عن مشروعية هدفهم كحركة تحرير لأرض مقدسة من احتلال مخالف فى الديانة، وأنها مجرد استعادة للأرض التى سبق واستولى عليها العرب الفاتحون، بل واستوطنوها، بل وعربوها، بل وأسلموها، هذه حجتهم فماذا لو تصورنا أن ماحدث كان العكس؟ ماذا لو تصورنا أن الكعبة هى التى تم احتلالها من قبل عنصر غير عربى وغير مسلم الديانة؟ وما الذى كان سيفعله المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها؟ ولماذا نتصور؟ فقط، نستمع إلى المعلن الآن عن الدعوة إلى تحرير القدس من الاحتلال الإسرائيلى أولى القبلتين وثانى الحرمين وموطن المعراج وقبة الصخرة، بتجييش الجيوش وتوحيد العرب، أليس ذلك مشروعا؟ فلماذا نلبس الصليبية القديمة لبوسا شيطانيا مستمرا إلى الآن نستدعى فيه فقط الكراهية للمسيحيين المواطنين، لأنه بالفعل ليس هناك الآن أية صليبية بمعناها الحرفى القديم؟ هل يمكن لهذه الفكرة التآمرية أن تصد عدوانا أو تقيم وطنا قويا؟ أم أنها تؤدى إلى العكس تماما؟ وهل كانت الحملة الصليبية نفسها مؤامرة؟ إن المؤامرة تحاك فى الخفاء والسر وتفاجئ العدو بحيث تشل قدرته على المواجهة، فهل كانت الحملات الصليبية كذلك حقا؟ ثم هل يمكن أن نسمى دعوات التبشير حملات صليبية جديدة كما يصفها البعض؟ ألا نسعى نحن بدورنا للدعوة والتبشير بالإسلام؟ أم أنه حق مشروع لنا فقط؟ ثم ألا نحلم بعودة عصر الفتوحات واحتلال بلاد العالمين؟ وهل من الصدق مع النفس اتهام الآخرين بالكيل بمكيالين إضافة إلى التآمر وهذا منهجنا واضح معلن؟!، وماذا عن المؤامرة الاستشراقية؟.

ستجد كتابا كبارا لايخرجون على نفس المنهج، بل هم من أسسوه إزاء الاستشراق، منهم مثلا محب الدين الخطيب فى كتابه: الغارة على العالم الإسلامى، وفروخ والخالدى فى كتاب التبشير والاستعمار، تم فيهما قرن الاستشراق بالتبشير بالاستعمار، وأن المستشرق لايمكن أن يكون مفكرا مستقلا ومشغولا بالعلم، بل هو لابد تابع لجهات رسمية معادية، وهو رأس الحربة فى منظمات سرية متآمرة على دين الإسلام، وهو خلاصة ماتنتهى إليه من قراءة محمد الغزالى وأنور الجندى لأنهما يريان الصراع بين

الثقافة الشرقية الإسلامية والثقافة الغربية المسيحية صراع وجود مصيرى، الاستشراق باختصار هو الوجه الأكاديمى الذى يلبس لبوس العلم للسياسة الاستعمارية الغربية المسيحية العلمانية «؟!». ويشرح ذلك الكاتب الإسلامى «رضوان السيد» بالقول: إن النظرة العربية الإسلامية ترى فى الاستشراق «فصلا من مؤامرة كبرى على الإسلام والمسلمين أسسها الغرب أيا كانت هويته، فهو عندما كان مسيحيا أراد ضرب الإسلام لنشر المسيحية بالقوة والتبشير، وهو عندما صار علمانيا أراد تخريب عقائد المسلمين لإضعاف مقاوماتهم وحتى يسهل إستغلالهم».

إننا حتى لو سلمنا بوجهة النظر تلك جدلا، فإن الاستشراق بهذا المعنى سيكون اسلوبا غربيا لفهم الشرق والسيطرة عليه، هو دراسة للشرق وأديانه وعاداته ونظمه دراسة علمية من أجل التحكم فيه بشكل علمى سليم، لأن منهجه العلمى غير مناهجنا التليدة، فمنهجه يقوم على معرفة الطرف الآخر من خلال الدراسة العلمية وليس من المقدمات المقدسة وشبه المقدسة، بينما نحن ننطلق من كراهية الغرب بالتمايز والانغلاق عنه، والتهرب من معرفته رفضا نفسيا فقط للاعتراف به، من إنتاج معرفة مشوهة عنه نحاربه بها فتصيبنا والهزائم والنكبات.

لقد حقق المستشرقون وترجموا ونشروا أكثر النصوص الإسلامية والعربية التى هى عمد الإسلام الفكرية، إضافة لدراسة الشرق جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا سلطويا، ماذا أراد ج، فنكل من ترجمة كتاب الجاحظ «الرد على النصارى» ونشره فى بلاد النصارى؟ وماذا كان غرض هـ. س. نيبرج من نشر كتاب «الأنتصار والرد على ابن الروندى الملحد وماقصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم»؟ ولماذا نشر الأب ريتشار يوسف اليسوعى كتاب الأشعرى «كتاب اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع»؟! أو لماذا نشر صور نسن كتاب الإيجى «المواقف فى علم التوحيد»؟ ولماذا نشر هو نفسه كتب مثل كتاب الباقلانى «التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة»؟ ولماذا نشر ج. د. لوسيانى كتاب الجوينى «الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد»؟ ولماذا نشر هنرى لاووست كتاب الكعبرى «الشرح والإبانة عن أصول السنة والديانة»؟ ولماذا نشر مرجليوث كتاب ابن الجوزى «تلبيس إبليس»؟.

وغير ذلك كثير لو أردنا سرده لاحتجنا مجلدات فهل كانوا ينشرون دعوة الإسلام فى بلادهم؟ نعم كان هناك المستشرق السياسى الذى يخدم غرضا سياسيا بحتا، لكنا بمنهجنا نخلط الحابل بالنابل، وفق الرؤية العنصرية، ولانعى أن مواجهة الآخر هى بمعرفته جيدا، لكن هذه المعرفة

تواجه فى بلادنا بتهمتين كبيرتين: مساعدة الغزو الثقافى الذى يتهدد الهوية، والتطبيع مع العدو، تذكرت وأنا أكتب هذه الفقرات كيف احتار بعض المسئولين فى بلادنا لوهلة إبان استقبال أول وفد رسمى اسرائيلى بعد كامب ديفيد، وكانت حيرتهم حول ماهو شكل العلم الإسرائيلى ولونه ليرفع مع الزيارة والمباحثات؟ أليس ذلك بكاف لتفسير الهزيمة؟ إننا أبدا لم نحاول أو نعرف عدونا قط، وفقط بدافع الكراهية النفسية التى ترفض الاعتراف بوجوده، أليست تلك بعقلية طفولية غاية فى البدائية والسذاجة؟.

وإذا كانت سياسة الدولة قد اتجهت نحو التصالح والسلام من أجل تنمية الداخل، ولو مؤقتا، فلماذا نسمح لإسرائيل بإنشاء مركز أكاديمى فى بلادنا يدرسنا عن قرب وتماس، ولا ننشىء مركزا أكاديميا مصريا هناك؟ هل هو خوف التطبيع؟ الدولة لا تخشى التطبيع، والحجة المعلنة أن المركز الإسرائيلى ليس أكثر من وكر للتجسس، والرد البسيط هنا: إذن لماذا لا ننشىء بدورنا وكرا مصريا للتجسس هناك؟ إنها ببساطة نفس العقلية ونفس المنهج الذى يكتفى بنفسه وبمعرفته الكاملة المقدسة وشبه المقدسة وكفى بذلك سبيلا، لكن إلى مزيد من التراجع والنكوص والهزائم.

والآن ماذا عن المؤامرة الصهيونية؟ وهل كانت مؤامرة حقا؟ لقد كانت حركة معلنة من البداية ومع أول اجتماع للنخبة اليهودية لتأسيس وطن قومى لليهود، ومع أول اجتماع للنخبة اليهودية لتأسيس وطن قومى لليهود، لكنا نحن من كان «ولم يزل» يعيش فى زمن المعجزات، الزمن السحرى، وأن كل مايحدث لايشغلنا، لأننا بفضل الله نحن الأقوى، وكل قوى السماء والأرض معنا، فليأتوا، وليستوطنوا، ولم يتم اتخاذ أى خطوة تفيد بعلمنا بما يحدث إلا بعد البداية الرسمية بأكثر من عشر سنوات، وعند قيام دولة اسرائيل لم تتم المعالجة بمنهج علمى واضح، لكن أيضا بمنهج العنتريات الطائفى، فلاشك أننا نحن الغالبون لأننا جند الله، لكن ماحدث كان انتصارا ساحقا على كل المستويات لتلك الأشتات وتلك الدولة الناشئة، ولاتزال تحقق كل يوم وجودها بين دول العالم.

... ...

فإذا كانت هناك مؤامرة فى كل هذا، فمن هو المتآمر فعلا وحقا وصدقا؟

جذور الوعى الطائفى (•)

(•) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٢٠/ ٣/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٩٣.

تثبت حقائق التاريخ أن الغازى المستوطن تقوم فلسفته الدعائية لتسويغ احتلال الأرض واستيطانها، على الإنكار التام لوجود شعوب أصلية هى صاحبة الوطن المحتل عبر تاريخه، والإصرار على هذا التبرير وترديده بشكل دائم، حتى يختفى المواطن الأصلى وراء اكتساب الكذبة مصداقية الترديد المستمر، وهو ماأدته بجودة وكفاءة مؤسسة الدعاية الصهوينية ونجحت فيه لفترة قصيرة، لتثبيت دعائم الدولة الناشئة تحت شعار «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض». وإبانها تم تغييب الفلسطينيين تماما خلال تلك الحملة الدعائية العالمية الواسعة، لترويض الضمير الإنسانى على ابتلاع الكذبة التاريخية الشريرة وقبول الوضع الجديد.

وهى نفس الفلسفة التى وقفت وراء اختفاء الشعب المصرى من كتب التاريخ الإسلامى، حتى بدت مصر فيها موطنا للقبائل العربية المهاجرة فقط، وكما لو كانت إبان فتحها فراغا بلقعا، بل إنك تجد روايات إخبارية عجيبة الشأن، تزعم أن سكان مصر الذى اصطلحت تلك الكتب تسميتهم بالأقباط من اللاتينية Egypt، قد غرقوا جميعا مع الفرعون المتأله فى لجج البحر المفلوق بعصا موسى الثعبانية، ولم يبق بها سوى شراذم معدود حتى جاء الروم واستوطنوها ثم جاء العرب وطردوا منها الروم واستوطنوها بدلا عنهم.

أما من قال بوجود شعب مصرى أصيل فى تلك الأرض، فقد قالها فى عجالة سرد أحداث الفتح، وبحيث لايعود القارئ يتذكرها بعد ذلك فى خضم السرد الطويل والمتأنى لتاريخ القبائل العربية فى مصر أفرادا وشيوخا ومساكنا، والحكاء التفصيلى لحكام مصر وسادتها وولاتها وأشرافها وقضاتها العرب حتى لاتكاد وسط هذا الزخم العرب تجد ذكرا لمصرى مواطن بين الأبواب الطوال، إلا عند الإشارة إلى أحداث طارئة تتعلق بجمع الجزية، أو عند التلميح إلى أحد كتاب القصر العربى الحاكم

من القبط، أو إلى أحد المترجمين، وماكان يتم ذلك إلا عند الحديث عن مصر كمصدر للتمويل والتموين والخراج الذى كان يتم نزحه آنذاك إلى عاصمة الخلافة.

وهى أيضا نفس الفلسفة التى استمرت باستمرار نفس المنهج ونفس العقلية ولم تزل فاعلة حتى اليوم، فهى التى دعت الحكم السودانى لنفى أقلياته العرقية والطائفية من حسابات دولته الإسلامية المزعومة، حتى مزقت الحرب الأهلية البلاد والعباد، وهى نفس الفلسفة التى دعت النظام العراقى إلى نفى عراقيين غير عرب كالأكراد ومواطنين من غير المذهب الحاكم كالشيعة، من معادلاته السياسية، فحدث ماحدث ومايزال يحدث فى العراق العريق، وهى نفس العقلية التى دفعت النظام الجزائرى للرد على انتفاضة الأمازيغ احتجاجا على فرض اللغة العربية عليهم رسميا ودون استثناء فحولت الانتفاضة إلى ثورة أحدثت شرخا إضافيا لمجموعة الشروخ القاتلة التى يعانى منها المجتمع الجزائرى، وأيضا هى نفس الفلسفة التى جعلت من المرأة العربية مجرد أقلية مضطهدة فى المجتمع أو ربما مجرد كائن.

والإحصاءات المعلنة تشير إلى النتائج التى حصدناها نتيجة سيادة الرؤية الطائفية على مناهجنا، بعد أن أدت إلى صدامات وصراعات انجلت فى السودان ولبنان والعراق ومواطن أخرى عن مصرع مالايقل عن مليونى مواطن، وضعف هذا العدد من الجرحى، وضعف هذا العدد من الشردين والنازحين واللاجئين، بينما لم يفقد كل العرب فى حروبهم مع إسرائيل أكثر من مائتى ألف مواطن، أى بنسبة عشرة بالمائة إلى صراعاتنا الداخلية، بدفع من وعى طائفى عنصرى غير وطنى ولا إنسانى.

هذا رغم أن مواجهة الآخر المتفوق تبدأ أولا بمواجهة أسباب الضعف والتخلف فى الداخل، من أجل تماسك وطنى قومى متين يمكنه النهوض بعبء هذه المواجهة، وهى المواجهة الحضارية فى المقام الأول، والتى بدأت تنذر باختفاء شعوب من مسرح التاريخ لأنها لم تتدارك أخطاءها، ولم تتعلم لغة العصر ومعادلاته، فخسرت معركة الحضارة وأدت بنا إلى مجموعة هزائم وتراجعات جعلتنا نقبل بالأدنى قياسا على مطالبنا العنترية الكبرى.

ولا أظن عاقلا يختلف على أن أول أسباب التماسك الداخلى القوى والمتين يبدأ بترسيخ قيم المواطنة والانتماء للأرض وتاريخها، والاعتزاز بكل مواطن فيها بغض النظر عن لونه أو جنسه أو دينه، بإرساء دعائم

ليبرالية واضحة تضمن مناخا كاملا للحريات، التى هى منبع الفرز الإبداعى اللازم للنهضة والخروج من مفترق طرق الأزمة، ومن ثم امتلاك الإدارة الوطنية.

لكنا فى مصرنا العزيزة لم نزل نعامل تاريخها العريق العظيم بعقلية سياحية، لابترسيخ مفاهيم الأصالة وعشق هذا التاريخ واحترامه والاعتزاز به، لإعطاء المواطن الثقة بالنفس المصرية الدافعة للقدرة على المواجهة والتحدى الحضارى الذى سنخوضه شئنا لم أبينا، فعلى مستوى الإعلام نجد قناة النيل الدولية كريمة فيما يتعلق بآثار مصر القديمة، لأنها فقط موجهة للسياح، لغير المصريين. أما بقية القنوات التى تخاطب المواطن فتكاد تخلو إلا من البرنامج الترفيهى اللطيف المعروف بخمسة سياحة، ومع ذلك لاتجد مواطنا واحدا لا يقبل عليه برغبة ملحة فى التعرف على مجد بلاده، ورغم أنه يتعامل مع تاريخ مصر بمنطق السياحة وحده، فلاحديث ولو أسبوعى ولاندوة للمناقشة، ولاعرضا علميا، ولاحتى فيلما صنعه غيرنا، إلا بالصدفة التى تريد ملء فراغ مساحة التسلية الفيلمية، بينما لاتجد فى بلد مثل فرنسا طالبا بالمرحلة الثانوية، لايعرف تفاصيل التفاصيل ودقائق الدقائق عن هذا التاريخ، فهل ثمة نكبة مبكية تشبه تلك؟.

أما الحقبة القبطية التى تصل إلى مايقرب الألف عام، فهى ذلك التاريخ الساقط من التاريخ، هى تلك المنطقة الحرام، رغم ثرائها بالأحداث وبالثورات الجسام ضد الاحتلال الرومانى وحتى ثورة البشموريين إبان حكم المعتصم العباسى، وغناها بالفنون الرفيعة والتحولات الاجتماعية الكبرى، أما علم التاريخ نفسه كعلم، سواء كان تاريخ مصر أم غيرها من عرب أو عجم، فقد أصبح لمزيد من النكاية مادة اختيارية فى مدارسنا «؟!» بينما المطلب الثقافى العام فى أى دار علم يعنى خريجا على علم بتاريخ العالم، وإلا فقد ركنا عظيما من أركان المعرفة، أما **المطلب الثقافى والوطنى الخاص فهو التدريس الإجبارى للتاريخ المصرى عبر مراحله الثلاث: المصرية القديمة والقبطية والعربية فى كل فروع وألوان ومراحل التعليم**، بل إنى لاأبالغ فأدعو لمشروع طموح لتكوين كوادر تربوية تقوم على مناهج لتدريس اللغات المصرية القديمة فى مدارسنا، ليس بغرض إحيائها كلغة محادثة يومية، إنما بغرض حضور التاريخ فينا، وهو الأمر الذى لايمكن احتسابه ترفا علميا بقدر ماهو حث ودفع للعقل المصرى والروح المصرية للتفكير بعقلية مصرية وبحب مصرى، وحتى يمكن إعادة استزراع الانتماء الوطنى أولا، الانتماء له كقيمة عظمى تأتى بعدها

أى قيمة أخرى، وحتى يشعر المواطن بالاستقلال وعزة وكرامة خصوصيته الوطنية والتاريخية والثقافية،ولايظل مجرد تابع يساق فى منظومة سائدة هى فقط جزء من تاريخه الثقافى وليست هى كل ثقافته، وحتى يكون المصرى دليلا حيا على استمرار حضارة مصر وعدم انقطاعها ناهيك عن الزعم السائد بموتها، ليس فقط أمام السائحين، بل أمام نفسه وأمام مسئوليته فى الصراع الحضارى الذى تفرضه متغيرات العالم اليوم، وأمام دولة كإسرائيل استقبلت شظايا بشر من مختلف ثقافات العالم، وعلمتهم الاعتزاز والقبول باللغة العبرية الحفرية، حتى أصبحت مصدر فخر وعزة لبينها، هذه هى الخطوة الأولى الضرورية إذن: ألا تغيب مصر الوطن والتاريخ والثقافات الثلاث عن أى خطة إعلامية أو تعليمية، وحتى يمكنا أن نحلم بوطن قوى قادر متماسك يدخل القرن الحادى والعشرين بمفاهيم وأدوات الصراع الحضارى، ولابد أن تقترن تلك الخطوة بخطوة أكثر منها ضرورة، لأنها المدخل الطبيعى للتخطيط الوطنى السليم، وهى الاعتراف الأولى بأننا حتى الآن نفكر بعقلية طائفية عنصرية وليس بعقلية وطنية، خضوعا لأوامر وتحريمات ثقافة تم تسييدها لا تقبل مناقشة، وتضع منهجا واحديا يرفض مناقشة مشاكل الوطن بصراحة، وتضع منهجا واحديا يرفض مناقشة مشاكل الوطن بصراحة، وأخص تلك المشاكل بالبحث مشكلة شركائنا فى الوطن، بل أدى هذا المنهج إلى رفض مجرد الإقرار بوجود مشاكل أصلا، وهو الموقف الذى يتهم أصحابه ويطعن فى صدق وطنيتهم وولائهم لمصر، وفى مدى إخلاصهم لدستورها، الذى نص على احترام حقوق المواطنة للجميع دون فرق بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة، ويشير إلى أن أصحابه يفكرون بعقلية غير مصرية، بعقلية الغازى الفاتح المستوطن الذى يريد أن يلغى من تاريخ مصر كل ما هو مصرى لصالح الثقافة السائدة.

وإن إنكار وجود مشاكل يعانى منها أشقاؤنا فى الوطن لن يساعد إلا على مايزيد من التفاقم والتراجع عن الدور الحضارى المأمول لمصر، ولعل أبرز هذه المشاكل هو الموقف الرسمى الذى تبنى مايعرف بالخط الهمايونى الصادر فى عاصمة السلطنة العثمانية بتاريخ ١٨/ ٢/ ١٨٥٦، بعد أن أضاف إليه العزبى باشا وكيل وزارة الداخلية قراره فى فبراير ١٩٣٤ على هيئة شروط عشرة تقيد حرية بناء الكنائس، فى الوقت الذى يتم فيه استغلال الحرية المطلقة لبناء المساجد من أجل منافع شخصية انتهازية دنيوية بحتة، يتم عبرها كسر كل القوانين، بإنشاء العمارات السكنية العشوائية فى مناطق يمنع فيها البناء بحكم القانون، بل

والاستمتاع بجميع الخدمات والمرافق، مضافا إليها منحه الإعفاءات الضريبية على العقار، لمجرد أن صاحبه كان فهلويا يتاجر بالدين لحسابه الشخصى، وقام بترك مساحة تحت عمارته تخصص كمسجد، ليضيف لأوكار الإرهاب وكرا جديدا، يثقل كاهل الأمن بأكثر مما ينوء به أصلا.

والمعلوم أن هذا الأمر قد أدى إلى وضع ترميم وإنشاء الكنائس بيد رئيس الجمهورية وحده، واستمر قائما دون تعديل، ودون وضع قوانين تضع الأصول المرعية لتفعيل مواد الدستور فى حقوق مواطنة متساوية، حتى صدر القرار الجمهورى رقم ٢٣ يناير ١٩٩٨ بتفويض المحافظين كل فى نطاق محافظته لمباشرة اختصاصات رئيس الجمهورية بهذا الشأن.

وهو الأمر الذى يدفع دفعا إلى التساؤل عن السبب وراء هذا التقييد فى جانب، مع الحرية المطلقة على الجانب الآخر؟ والإجابة البسيطة تكمن فى سيادة منهج التفكير الطائفى وليس الوطنى على مستوى الشارع، بل وعلى كل المستويات، مما أدى إلى اعتبارات تراعى رأيا عاما غير رشيد على حساب مستقبل الوطن، وهو الرأى الذى تمثله الفتوى العلنية المنشورة فى مجلة الدعوة لسان حال جماعة الإخوان فى حكم بناء الكنائس، وذلك فى ديسمبر ١٩٨٠، وتقول نصا: «إن حكم بناء الكنائس فى ديار الإسلام على ثلاثة أقسام: الأول بلاد أحدثها المسلمون وأقاموها كالمعادى والعاشر من رمضان وحلوان، وهذا البلاد وأمثالها لايجوز فيها أحداث كنيسة ولابيعة، والثانى مافتحه المسلمون من البلاد بالقوة كالإسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا.. فهذه أيضا لا يجوز بناء هذه الأشياء فيها وبعض العلماء قال بوجوب الهدم لأنها بلاد مملوكة للمسلمين... والقسم الثالث مافتح صلحا بين المسلمين وبين سكانها، والمختار هو إبقاء ماوجد بها من كنائس وبيع على ماهى عليه فى وقت الفتح، ومنع بناءا وإعادة ماهدم منها».

فهل تجاوزت فتوى الإخوان الأصول؟ وهل أحدثت فى الإسلام جديدا قياسا على مانسمع من تسامح جميل زمن الفتح؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فمن أين استمدت الفتوى مشروعيتها وإلى أى أصول استندت؟.

الواضح من البداية أن الفتوى فتوى طائفية تماما، تعامل الوطن بعقلية غير مصرية على الإطلاق وتشهد على نفسها بذلك، فهى تتحدث عن بلاد موطوءة بالفتح، وعن ملكية آلت لأصحابها بالغزو، بالأرض ومن عليها من بشر، لها سادة وفيها أتباع آلوا إلى التبعية بالهزيمة وعليهم الخضوع لشروط السيد المنتصر.

لكن لو ناقشنا الأمر على هذا المستوى، فلن نجد فى القرآن أى تفاصيل بهذا الصدد، كما لانجده أيضا فى السنة النبوية، فكل مافعله

النبى فى حياته، ويتعلق بأصحاب العقيدة المسيحية، فى غزواته على بلادهم على تخوم بلاد الشام مع جزيرة العرب، هو أنه أقر أصحاب تلك البلاد على أرضهم وعلى دينهم لأنهم الأعلم بشئون رعايتها وفلاحتها والأقدر على زرعها ومنافعها، فقد أصبح عليهم بعد هزيمتهم فى الغزوة دفع جعول لخزانة الدولة الإسلامية الطالعة، وهو ماحدث فى غزوة تبوك وأيلة، حيث صالحه يوحنا بن رؤبة على دفع الجزية، كذلك أهل جرباء وأذرح، كذلك صالح أكيدر الكندى حاكم دومة خالد بن الوليد زمن الدعوة على الجزية، ولم توضع أى بنود تشير إلى التدخل فى حرية العبادة ولابناء دور العبادة من عدمه.

والمعلوم أنه لم يبدأ النظر فى أمر دور العبادة لغير المسلمين إلا مع الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام والعراق ومصر، بعد أن جدت أمور جديدة لم تكن موجودة زمن الدعوة، حيث أصبحت تلك البلاد تحت السيادة المباشرة للعرب، إضافة إلى وفود القبائل العربية من جزيرتهم القاحلة لاستيطان بلاد الخصب المفتوحة.

وكان بالإمكان وفق أصول زمن الدعوة أن تعيش تلك البلاد حريتها الدينية الكاملة، حيث يختلف أمرها تماما عن أمر جزيرة العرب التى أوصى النبى بألا يجتمع بها دينان، ولم ترد دون ذلك أية إشارة واضحة حول أصحاب ديانات البلاد الموطوءة بالغزو.

لكن مع ذلك الجديد الذى تمثل فى النزوح الكبير لعرب الجزيرة إلى تلك البلاد ومجاورة أصحابها بدينهم الجديد، أمسى الشأن مختلفا ويحاجة إلى تأسيس قواعد جديدة، وكان طبيعيا أن تراعى هذه القواعد سيادة المنتصر، حيث لم يعد الأمر كما كان زمن النبوة مجرد غزوات على بلاد تدين بغير الإسلام لايستتبعها احتلال واستيطان أو إقامة والعربى فيها، كان الأمر فقط مجرد عهود مكتوبة تنص على دفع مقدار سنوى من المال يدرأ عن أصحابه تجريد غزوات جديدة عليهم «انظر فى ذلك ابن هشام والسهيلى فى الروض الأنف ج٢ ص١٧٨، وابن سيد الناس فى عيون الأثر، ج٢، ص١٧٧».

المهم أن الهجرة العربية احتاجت إعادة تنظيم للعلاقة بين مجتمع الفاتحين الوافد ومجتمع البلاد الموطوءة بالفتح، حيث احتاج الفاتحون المستوطنون الجدد إلى إقامة معابدهم بدورهم مع طرائقهم ونظمهم وطقوسهم، وهو ماكان سينشىء صراعا حتميا بين عقيدة تدعو لأسلمة العالمين، وبين عقائد قديمة ثابتة فى بلادها، تستند إلى عهود إسلامية تضمن حرية العبادة.

هكذا ظهر التناقض الأعظم الذى كان لابد أن ينتهى إلى استبعاد أحد طرفى المعادلة، وكان طبيعيا أن يكون المستبعد هو المهزوم، ومن ثم تراجع مبدأ حرية الاعتقاد لصالح الظرف الجديد، وهو ماتوضحه شروط عقد الذمة التى كتبها المسيحيون فى بلاد فلسطين على أنفسهم للخليفة عمر بن الخطاب، وسنرى الآن أنها كانت الأساس الواضح والمطابق بكامل مواصفاته للقسم الثالث من فتوى الإخوان التى تقول: «مافتح صلحا بين المسلمين وسكانها، إبقاء ماوجد بها من كنائس وبيع على ماهى عليه وقت الفتح، ومنع بناء وإعادة ماهدم منها»، فيورد «الأبشيهى» فى فى مستطرفة «ص ١٢٢» بنود ذلك العهد، أو التعهد بالأحرى، فى نصوص يقول فيها مسيحيو بلاد الشام:

«إننا لن نحدث فى مدائننا ولافيما حولها كنيسة ولاديرا ولاقلية ولاصومعة راهب، ولانجدد ماخرب منها، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث أيام، ولانظهر شرعنا ولاندعو إليه أحدا، ولانمنع أحدا من ذوى قرابتنا من دخول الإسلام إن أراده، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، وألا نتشبه بالمسلمين فى شىء من ملابس أو قلنسوة أو عمامة أو نعلين، ولانركب السروج ولا نتقلد السيوف، وأن تكون علامة لنا جز مقادمنا وشد زنار على أوساطنا، وألا نظهر صلباننا ولانضرب بالنواقيس إلا خفيفا، ولانرفع أصواتنا على موتانا، ولانجاور بموانتا موتى المسلمين، فإن خالفنا فى شىء من ذلك فلا ذمة لنا».

هنا ينسرب السؤال المدهش: هل كان يمكن كتابة عقد الذمة هذا اختياريا؟ ومعه ينسرب الخيال يحاول تصور شكل الأحداث الى حدثت أثناء الفتح المتسامح ودفعت أصحاب البلاد إلى كتابة عهد كهذا «؟!!».

إذن لم تخرج فتوى الإخوان عن عهد الذمة هذا كما هو واضح فى قسمها الثالث، فماذا عن القسمين الأول والثانى منها؟.

يقول القسم الثانى من الفتوى: «مافتحه المسلمون من البلاد بالقوة كالإسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا، فهذه لايجوز بناء هذه الأشياء فيها»، سنجد مرة أخرى أن هذا البند لايعود إلى قرآن ولا إلى سنة، إنما يستند بدوره إلى الزمن العمرى، فنقرأ فى نفس المصدر ص(١٢٣):

«وكان عمر بن الخطاب قد أمر بهدم أى كنيسة تبنى بعد الفتح مع عدم تجديد أى كنيسة بعده، وإذا ظهر صليب كسر على رأس صاحبه، وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين، وشدد فى ذلك عمر بن عبدالعزيز وأمر ألا يترك فى دار الإسلام بيعة أو كنيسة قديمة أو حديثة، والله أعلم بالثواب، وإليه المرجع والمآب».

وقد أورد ابن عبدالحكم فى كتابه فتوح مصر كتاب الخليفة عمر يحمل هذه الأوامر إلى الأمصار، انظره ص١٥١.

ويبقى القسم الأول من الفتوى الطائفية المرعية، الذى يحتسب المدن التى أنشأها العرب فى البلاد المفتوحة خالصة لهم كالفسطاط والقطائع، لايجاورهم فيها ذمى بحكم عقد الذمة المذكور، وقياسا على الفسطاط والقطائع نقيس وضع المعادى والعاشر من رمضان وحلوان من مدن حديثة، يجب أن تخلوا من الكنائس، ولانعلم إن كان يستحسن إخلاؤها من المسيحيين من عدمه، هذا رغم أن المعادى بناها الإنجليز إبان الاحتلال، والعاشر من رمضان وحلوان وأكتوبر وغيرها بناها المصريون مسلمون ومسيحيون يدا بيد وكتفا بكتف.

بهذه العقلية يتم التعامل مع الأشقاء فى الوطن، ومع الوطن، ومع دستور الوطن، فى فواتح القرن الحادى والعشرين، والأمر معقود إما بعزة الوطن ومستقبله على صفحة زمن تجاوز تلك العنصريات بأزمان، وإما بالعودة إلى استنبات جذور الوعى الطائفى لينشر فى البلاد الزمن الردىء الذى كتبت فى ظله عهود الذمة، وإلى مناهج أودت بنا إى تمزيق البلاد والعباد وانهزام الإرادة وانتشار لغة الطائفية والإرهاب الفكرى والدموى، والبقاء فى ذيل الأمم إن كان ثمة بقاء، بعد أن كانت مصر درة بلاد العالمين قاطبة.

فهل من لغة جديدة؟ وطنية، مصرية، مخلصة، تجسد وعيا وطنيا لاطائفيا من أجل تجاوز المحنة نحو وطن عزيز يعيش فيه مواطن كريم؟

أيها السادة: هل من مدكر؟.

جنود الله
والإفراط في التقديس (*)

(*) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٣/ ٤/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٩٥.

لم تزل دولتنا الرشيدة تضع الأزهر فى مقام أعلى هيئة رقابية، ليس فقط على الرأى أو الفن أو الفكرة، لكن أيضا على العقيدة باعتباره حارسا لها، والعقيدة محلها القلب والضمير، لذلك أصبح من مهام رجال الأزهر التفتيش على مكنون الضمائر، ومع الضعف والرخاوة فى الأداء المدنى لمؤسسات الدولة، أمكن للأزهر أن يصبح سلطة، احتل بموجبها رجال الأزهر موقع الصدارة والوجاهة الاجتماعية، حتى قاموا يملون على الدولة ودستورها شروطهم الأيدولوجية ويصادرون الكتب والفنون والعلوم حسب تفسيرهم الخاص لنصوص الدين، حتى غطى المقدس جميع التفاصيل الدقيقة لحياتنا. وهكذا لم تعد الأصولية اصطلاحا قاصرا على أصحاب منهج الإرهاب المسلح، كما هو شائع، لأن أصحاب شئون التقديس الرسمى حليف السلطة، يكشفون كل يوم عن أصولية أشد تمسكا بحرفية النص، بل والسعى إلى تطبيقها على الواقع بشمولية جامدة لاتراعى المستجدات ومتغيرات الزمن، وبغرض إخضاع حاضرنا لمرجعية نصية إطلاقية حرفية واستخدمها كمعيار للسلوك وللتشريع وللحكم، مع رفض كل مايخالف تلك الرؤية، لتحويل مؤسسة الدين إلى جهاز سلطة سياسى، يحمل أهل التقديس فوق رقاب العباد، ليصبحوا هم ومصالحهم فى صيانة من عليين، والإيعاز المستمر بأنهم تحت سلطان الله مباشرة فهم الوكلاء عنه والقائمون على حراسة دينه وتنفيذ شريعته، ومن ثم تصبح قراراتهم مبنية على أسس مقدسة، تصاغ فى أقوال مقدسة، وتصدر عن شخوص مقدسة.

هكذا تم فى بلادنا منح رجال التقديس وحدهم دون بقية الأمة حق الكلام فى العقيدة وباسمها، كما لو كان بقية الناس فى هذا الوطن معتوهين ومعوقين بالكامل، بل وأصبح هؤلاء الأزاهرة - دون مبرر واضح - هم ضمير الأمة، وإبان إحكام تلك الحلقة السيادية المقدسة تم مزج مفهوم

الدين بمفهوم الوطن، بحيث أصبح الحديث بما يخالف قواعدهم خروجا على الأمة وخيانة للوطن، بل ومع مرور بعض الوقت غاب الوطن وأصبح الدين هو الوطن، حتى رفع المواطنون السلاح فى وجه وطنهم بإسم الدين.

ومع الوهم، وإشاعة الوهم، بامتلاك هؤلاء للحقيقة الكاملة المطلقة المقدسة، وأن مادونهم ودونها باطل كامل مطلق، ومع السيادة التى حققتها لهم تراجعات الموقف الرسمى للدولة وضعفه، أصبحوا أسماء لوامع، وهو الوضع الذى جعلهم يشعرون بشعور أصحاب المناصب السيادية، وبالاستعلاء على الناس، لأن الناس أقل منهم درجة فى الإيمان، فأين الناس من حراس الشريعة الكبار؟ ومن هنا صاغ لهم تصور أنفسهم وصاة على العباد، وأن عليهم واجب رد الناس للمنهج القويم الذى هو منهجهم وحدهم.

ومن جانبها قدمت لهم الدولة كل المساحات الممكنة، وتخلت عن دورها التثقيفى المدنى فى إعلامها وتعليمها، وقررت أن تقوم بدور المهرج على مسرح تسلية المواطنين، وتركت العقل الجمعى فراغا بلقعا من أى فكر أو ثقافة أو علم أو حتى انتماء وطنى، وتركت مهمة التثقيف كاملة لأهل التقديس بعد أن حولتهم إلى أعلام مشاهير وباتت البرامج الدينية تبث تحت عنوان وضمن جداول البرامج الثقافية، وتحولت أفلام الغرب العلمية المصنوعة أصلا لتكوين عقل علمى لصالح الغيب، وبعدها أصبحت أى معرفة ممكنة فى بلادنا لاتخرج عن المقدس الذى لم يفرط فى شيء.

لكن أهل التقديس أفادونا علما نافعا فى واحدة من مشاهير أقوالهم، وهى أن السحر غالبا ماينقلب على الساحر، بعد أن نبتت لهم أنياب صاحبتها شهوة الدم فقاموا بعد تكفير المفكرين والمبدعين بتكفير بعضهم بعضا، من تكفير الشيخ يوسف البدرى للشيخ عبدالصبور شاهين، إلى تكفير شيخ مشايخ الطرق التكفيرية وزعيم الجبهة المنحلة الشيخ إسماعيل حبلوش، لزميلته الأزهرية الدكتورة آمنة نصير عميدة كلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر، بمصاحبة عزف تكفيرى مساند من الدكتور عبدالعظيم المطعنى.

وقد شبت هذه الهجمة التكفيرية الجديدة لأن الدكتورة آمنة طعنت فى صدق حديث البخارى «المرأة ناقصة عقل ودين» لتعارضه برأيها مع القرآن الكريم، ولأنه لايتفق عقلا مع زمن أصبحت فيه المرأة وزيرة ورئيسة وزراء وأستاذة فى الجامعة.

وكعادتها الدؤوب، أفردت صحيفة الشعب المتأسلمة صفحاتها للعازفين فوق حرائق الوطن، حيث نعى حبلوش على زميلته العميدة عدم علميتها بل وزعم الكشف عن ضميرها وطويته ضد الإسلام وذلك فى قوله بتاريخ

٢٣/ ٣/ ٩٩ بالصحيفة المذكورة: «من المسلمات الفقهية التى قام علينا البنيان الأزهرى **العلمى** واستقامت عليه سيرته **المباركة** أنه ماعلى الأرض كتاب بعد كتاب الله تعالى أصح من صحيح البخارى، وقد اقتضت الأمانة على جميع مستوياتها ممن ولى ويلى فى الأزهر الشريف منصبا، أن يرعى حق هذه القاعدة التى تمثل ركنا من أركانه، أو يريح المنصب من آفات نفسه ولسانه، ولهذا كان من أوائل مايلقن أبناء الأزهر من المعارف، قول زهير بن أبى سلمى:

ومهما يكن عند أمرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم».

هكذا قام الشيخ حبلوش بالكشف عن خليقة الدكتورة آمنة ليعلنها على الناس ليعلموها، والتى خالتها تخفى عليهم..... فأى عبقرية وأى كراهية يحملها هذا الرجل لمن يخالفه الرأى؟ وأى علمية يزعمها وهو يتحدث عن البنيان الأزهرى العلمى المبروك معا (!؟) إن قوله يكشف عن فهم هؤلاء السادة «العلماء» لمعنى العلمية؟ خاصة وأن العلم يصر على قواعد لايتنازل عنها للوصول إلى نتائج صحيحة، فحسب الدقة العلمية المشروطة فى المنهج العلمى، لن تتمكن من قياس حجم هذه البركة، ومدى زيادتها أو نقصها ومادخلها من تغيرات نتيجة مرور أكثر من ألف سنة على إنشاء الأزهر، وكمية هذه البركة وهل توزن بالكليو جرام مثلا أم يجب أن تقاس بالكيلو متر.

إن البركة أمر والعلم شأن آخر، فتلك لغة لايعرفها العلم، لكن حبلوش الذى جمع نواصى العلم يلقى كلامه إلقاء من منطق الشعور الوهمى بالإحاطة الكاملة بالعلم وقواعده، فقط للاشىء، إلا أنه العارف بالمقدس «!!؟»، بل ويصاحب هذا الشعور بالعلم الكامل التعالى على علوم البشر الدنيا، ومن ثم الإحساس بالتفوق والاستعلاء، حتى لو ازداد العلم بركة باجتهاداته، أو لو ازداد أصحاب البركة علما بفعل البركة، وليس بفعل المتابعة والمعرفة، فالعلم عندهم علم مبروك يخرج من لدنهم فقط، ودون ذلك ليس علما لأنه البشرى الأدنى.

وهكذا رأى الدكتور حبلوش أن حديث العميدة «يفيض عدوانا على المسلمات الأزهرية، من حديث، وفقه، بل واعتداء على أئمته وعلمائه، فقد سولت لها نفسها أن ترى حديثا من أحاديث الرسول «ﷺ» الصحيحة، بل ومن أعلى درجات الصحة، بأنه موضوع».

لنقف مع هذا الكلام الكبير نحاول أن نفهم، الرجل يرى أن الطعن فى صحة حديث «المرأة ناقصة عقل ودين» اعتداء على المسلمات الأزهرية،

لكنه لم يشرح مدى قدسية هذه المسلمات الأزهرية؟ وهل تم الوصول إلى وضع هذه المسلمات بمنطق البركة، ولأن رجال الأزهر أجال مبروكون؟ أم أنها وضعت بوحى إلهى يستوجب القدسية وعدم المناقشة؟ ولماذا هى مسلمات أصلاً؟ هل لأنها أزهرية «؟!!»، ثم ماهى بالضبط حدود عصمة أهل شئون التقديس الأزاهرة؟ وماهو مصدر قدسيتهم لتكون مسلماتهم معصومة؟.

الرجل لم يسأل نفسه هذه الأسئلة قط، وإلا ماقال ماقال، فقد بات موقنا من قدسية مايقول، مع آخرين رأوا أنفسهم أعلى شأنا أو توهموا أنهم قد أصبحوا أوصياء على أرواح الآخرين وعقولهم، وأن لهم وحدهم كل مفاتيح العلم وخزائنه، إن مجرد رفع السيدة الدكتورة لصوتها الحرام بالتشكيك فى حديث ذكره البخارى، يكون قد نال أئمة الأزهر وعلمائه، إنطلاقا من اعتقادهم أنهم حراس الدين. أو كما لو كانوا هم أصحاب الحديث وقائليه، إنها سمة الفاشيست على أنواعهم، التوحيد والمزج بين المقدس وأصحابه، ولازلت أذكر لقاء لى على شبكة تلفزيون «أوربت» بينى وبين الشيخ يوسف البدرى، سألته عن دوافعه الشديدة وراء تكفير المفكرين والفنانين وهوايته فى رفع قضايا الحسبة، كان رده: «أنا جندى من جنود الله»، هكذا أصبحوا يتصورون أنفسهم، رغم أن الشيخ يوسف لم يقدم أية أدلة على تعيين الله له بهذه الوظيفة، فلا توكيل لديه ولاتوظيف بأية أوراق رسمية ثبوتية واضحة، ولأن الشيخ حبلوش جندى من جنود الله بدوره فقد طلب محاكمة عاجلة للدكتورة آمنة لقولها: «هل يعقل أن يقال مثل هذا الكلام فى وقت أصبحت فيه المرأة رئيسة للوزراء ووزيرة وأستاذة جامعة»، وجاء طلبه هذا فى قوله: «إن هذا المعيار منها يستوجب من القائمين على الأزهر المسائلة العاجلة، إذ جعلت **المرأة** من الزمان وما يجرى به مقياسا للقبول والرد للأدلة الشرعية.. ومقتضى هذا الاختيار **أن على الشرع أن يتغير إذا تغير الزمان**».

وهكذا رأى السيد الدكتور أن الشرع لايتغير بتغير الزمان ومن قال بوجوب تغيره بتغير الزمان يستحق التكفير والمحاكمة العاجلة خاصة وأن هذا الزمن الذى نعيشه لا يصلح معيارا «!!» لماذا «؟؟»، لأنه كما يقول: «زمان كلينتون ومونيكا، وديانا ودودى أيضا».

أبدا لم ينتبه الرجل إلى أن متغيرات الواقع «زمن» الدعوة وحده، وهو لايزيد عن ٢٣ عاما فقط، قد أدت إلى تغير واضح فى التشريعات والتوجهات والأوامر والنواهى، فأحكام الميراث تغيرت ثلاث مرات، وأحكام حد الزنى تبدلت بدورها ثلاث مرات، وتغيرت وجهة القبلة من بيت

المقدس إلى الكعبة المكية، وألغى صيام وفرض صيام.. وازدحم تاريخ الدعوة بمتغيرات سريعة فى الواقع واكبها نسخ وتبديل ورفع وإنساء فى أبواب طوال من أبواب النسخ فى علوم القرآن.

أبدأ لم يرى الرجل فقيها كالشافعى ينتقل فقط عبر المكان وليس الزمان، من العراق إلى مصر، فيرى مجتمعا مباينا، والمصالح فيه تختلف عن المصالح فى العراق، فيغير فى فهمه وفى فتاواه، وإذا كان الشيخ حبلوش وحده على صواب، فهل يجب وفق هذا المنطق محاكمة الخليفة عمر لإيقافه تطبيق حد السرقة لتغير أحوال الزمن فى عام الرمادة، ولإلغائه فريضة فرضها الله فى قرآن يتلى وجعلها حقا على المسلمين هى فريضة المؤلفة قلوبهم، بعد تغير أحوال الواقع بتغير الزمان، حيث لم تعد هناك حاجة لشراء إيمان الجاحدين بالإسلام.

أبدا لم ير الشيخ الدكتور سوى الثبات المطلق حتى لو تغير الزمان بالكلية عبر أكثر من أربعة عشر قرنا، كلا، ولايبدو أن هذا العالم الأزهرى يعترف بالقاعدة الفقهية التى تقول إن العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما، وهو الوجود والعدم الذى تفرضه متغيرات الزمان والمكان، فقط كل حجة الرجل لإسقاط معيار الزمان والتغير، إن زمننا معيار ردىء غير صالح للقياس، لأنه زمن كلينتون ومونيكا، وهنا الجريمة، فهل يصح قياس حديث نبوى من الزمن الجليل بزمننا الردىء؟ إن زماننا هذا نفسه بكامله بنظمه بحضاراته مرفوض، منكور بكل إنجازاته العظيمة وكشوفه واختراعاته الكبرى من أجل كرامة الإنسان، فقط لأنه فيه رجل أقام علاقة غير شرعية بامرأة، ولعلنا لم نزل نذكر تكفير الإرهابى شكرى مصطفى والمدارس الدموية التى تبعته للمجتمع كله وللزمان، ووصفه بزمن الجاهلية، تأسيسا على المعايير الأخلاقية وحدها.

ترى هل يدرك الشيخ أن القيم الأخلاقية قيم معيارية، أى متغيرة، تتغير بتغير المجتمعات، بتغير المكان، بتغير الزمان، وحسب الظروف البيئية والأوضاع الاقتصادية والأشكال السياسية، وأن قياس إنجازات زمن على زمن آخر لا تكون على مستوى القيم الأخلاقية، إنما بقدر ماحقق من تحضر وقوة وعدالة وحريات وعلوم وكشوف وتقدم للبشرية. ولاشك أن الإنسان قد حقق فى زماننا قفزة نوعية كبرى فى مجال الترقى والتسامى، وهو بكل المقاييس المعيار الأمثل لأى قياس، ولايعيبه ولايدنسه ولاتبخسه العلاقة الشخصية الحرة فى بلاد الغرب، لقد كان أخلاقيات الكرم أن يذبح البدوى فرسه العزيز لضيف أعز، وكانت بولونزيا أشد مبالغة، فكان المضيف يقدم لضيفه أجمل زوجاته وأقربهن إلى نفسه، ويعتبر من رضاها

عن قـدرة الضـيف على العشق، دليـلا على تقـدير الضـيف للكرم ولذوق مضيفه، وعندما دخلت المسيحية تلك الجزر وانتشرت فيها قضت على هذه الضيافة المتطرفة والجانحة نحو المبالغة الأخلاقية فى الكرم، هكذا القيم، معيارية، تختلف بمختلف المجتمعات والأزمنة، ولاعلاقة لها بتقدم أو تأخر فالقيم محايدة فى الغالب، بل هى ذلك المحايد غير الفاعل غير الإيجابى، بل والسلبى الذى يتأثر دوما بكل المتغيرات حوله، لذلك تتغير بسرعة فى بلاد الغرب وتثبت فى بلادنا، لأننا لانخترع لانبدع لانكتشف، ثابتين فى مواقعنا وعلى مبادئنا، لذلك تظل المعايير الأخلاقية فى بلادنا ثابتة غير قابلة للتغير، أما فى بلادهم فالمتغير قد أصبح هو المعتاد، نظرا للتسارع الهائل فى الكشوف والإبداعات والذى يتراكم يوميا، وكان لابد أن يؤثر فى بنية المجتمع وفى قيمه لضمان حريات فردانية كاملة، وفق القانون الليبرالى الاقتصادى «دعه يعمل، دعه يمر».

وهكذا أيضا لاتنتقل القيم الأخلاقية على نطاق واسع من مجتمع آخر إلا إذا كان المجتمع الآخر مهيأ لقبول تلك القيم فى بنيته التحتية، ونحن - والحمد لله - مبرأون من هذا النقص، ولانخشى قبول مجتمعنا لأخلاق الغرب، لأننا لم نقبل بعد البنية التحتية التى أفرزت تلك الأخلاق.

ثم هل يدرك جنود الله هؤلاء أن المنهج الذى يعتمده الغرب فى التفكير هو سر تفوق هذا الغرب، وأن العمد الأساس لهذا المنهج هو مبادىء الحريات المدنية، وأنه لولا تلك المبادىء لما عرف أحد عن كلينتون شيئا، ولاكنا عرفنا نحن فى شرقنا الذى يعيش كل التشوهات النفسية والأنانية وكل اللاأخلاقيات المستورة وراء الأبواب المغلقة والشعارات الزائفة، لولا مبادئهم تلك ماعرفنا شيئا عن الحياة الخاصة لرئيس أكبر دولة فى العالم، إنها الليبرالية ياشيخ حبلوش بإيجابياتها وسلبياتها، إنها المبادىء التى جعلت الشيخ حبلوش يدرى ويعلم بما يحدث عندهم وهو ليس منهم، وليس مشاركا لهم فى صنع مجتمعهم وليبراليتهم، ويقوم بإصدار الإدانات ضدهم وضد الزمن، إن شعب أمريكا قد حاسب رئيسه للكذب عليه، أما الشيخ حبلوش فلايرى فى الموضوع كله سوى الفعل الجنسى، لذلك يتطوع بإدانته وإدانة الزمن. كله رغم أنه لايملك حق تلك الإدانة، فأصحاب الحق هم الأمريكيون وحدهم الذى بيدهم يصنعون مصيرهم، ونحن نعيش هنا فى غابات النفاق وأحراش الزيف والكذب على الناس وعلى النفس، نعيش زمنا تجاوزته الدنيا باختراعاتها، بينما اخترعنا نحن لأنفسنا قرونا وسطى جديدة غادرتها الدنيا إلى دنيا آخرى، دنيا الشفافية والوضح والمحاسبة وسيادة القانون.

ومن الواجب هنا أن نساءل: هل تكفير الشيخ حبلوش للدكتورة آمنة ووصفه لها بـ **المرأة العميدة**، وأن كلامها لايصلح لغير المطابخ لأنها مغرمة بـ **السيستم الغربى** أى بمناهج الغرب، هل يتسم هذا التكفير وتلك اللغة بوضوح ذلك السيستم الغربى الذى أنب السيدة الدكتورة عليه أشد التأنيب؟ وهل يتسم بتلك الشفافية؟ الواضح لدينا أنه فقط قد هاجمها من منطق المصالح الذكورية وحدها، والحرص على الجمود، التحذير والإنذار بعدم الاقتراب من مناطقهم السيادية، فلاصواب إلا صوابهم فى مناطق حدودها لأنفسهم حراما على غيرهم، واتخاذ الدين مجرد تكئة باحتسابه المرجعية الواضحة لكفرانها، رغم أن الدين كما سنرى الآن وفى الحلقة القادمة، لايدعمه فى موقفه هذا بالمرة، ثم وأيهما يضرب القيم فى مقتل: ذلك الذى جعل الحريات نبراسا، أم هذا الذى يستثمر الذين لضرب كل الحريات، مع تزييف مراد الدين نفسه للوصول إلى هدفه التكفيرى؟ حتى يكون له وفريقه وحدهم السلطان على عقول الناس وأرواحهم!!

هنا نستأنس برأى الدكتور عبدالعظيم المطعنى فى الشعب «٢٦/ ٣/ ٩٩» الذى عز عليه أن يترك مسرح التكفير لحبلوش يعزف عليه منفردا، فقام يعيد تقريبا توزيع نفس المعزوفة قائلا: «إن جوابها اشتمل على أمرين: الطعن فى الحديث الصحيح بأنه موضوع، والثانى الاستشهاد على وضع الحديث نفسه بأحوال النساء فى هذا العصر.. والحديث الصحيح الذى حكمت عليه بالوضع لم يخالف القرآن قط، فقد وصف القرآن النساء بوصفين فى سورة الزخرف ففى الآية ١٨ من السورة المشار إليها جاء قوله تعالى: أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين.. أى يتربى فى الزينة والنعمة.. ليس عنده بيان ولايأتى ببرهان وذلك لضعف عقولهن عن فطرة الرجال.. إن المراد ياسيادة العميد من الحديث هروب عقول النساء لحظات الإنفعال الحاد وحلول مشاعرهن الرقيقة الناعمة محل عقولهن».

لكن العبارة الأخير للدكتورة المطعنى تبرز خلافا واضحا بينه وبين الدكتور حبلوش، والخلاف ليس حول تكفير العميدة من عدمه فهنا اتفاق أيديولوجى بالضرورة، لكن الاختلاف جاء حول المعيار المقدس للتكفير والذى يعتمده كلاهما: فتفسير الحديث بالمشاعر الأنثوية المؤدية لذهاب العقل عند النساء لايجد صدى عند الدكتور حبلوش، لذلك أورد الحديث الذى أخرجه الشيخان مالك والترمذى والذى يؤكد أن المرأة ناقصة عقل ودين، بقرار دينى يجعل شهادتها نصف شهادة الرجل ولأسباب

فسيولوجية كالحيض، وهو ماجاء عن أبى سعيد الخدرى عن الرسول «ﷺ» يقول: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قلن ومانقصان ديننا وعقلنا يارسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: فذلك من تقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها».

هنا يوضح الدكتور المطعنى أدلته ضد السيدة العميدة بقوله: «إن الحديث الذى اجترأت العميدة الفاضلة على الحكم عليه بالوضع، ليس من أحاديث الآحاد التى عرض لها العلماء من أمثال الدارقطنى والدمشقى والغسانى، **وأين نحن من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين لم يجُد الزمان بمثلهم فى الموهبة والإخلاص وسعة العلم؟**».

وهكذا تمت إضافة شخوص مقدسة جديدة إلى ساحة المقدس، فمع مشايخ الأزهر وأئمته المقدسين، أصبح لدينا الدارقطنى مقدسا، والدمشقى مقدسا، والغسانى مقدسا، وقد تربعوا على كرسى القداسة فقط لأن الزمن لم يجد ولن يجود بمثلهم أبدا «!!؟».

لقد دعمت السيدة رأيها فى وضع الحديث من الوضاعين، بتذكيرنا بمدى حجية السنة القولية/ الحديث، بأن الإمام البخارى كان يحفظ ٦٠٠,٠٠٠ حديث لم يصح عنده منها إلا ٤٠٠٠، مما يشكك فى مدى قدسية الحديث كله كمرجعية إسلامية، ومن هنا عقب الدكتور المطعنى بقوله: «يريدون بهذا أن يقولوا إن السنة جمعت جمعا **عشوائيا**، وقد جهلوا جميعا أن قلة ماأثبته الإمام البخارى فى صحيحه بالنسبة لما كان حفظه ليس معناه عدم صحة ماكان يحفظه، بل هو يرجع إلى منهج الإمام البخارى، فقد كان يدون كل يوم حديثين فقط، ولايدونهما إلا بعد أن يصلى ركعتين ثم **يستخير الله فى تدوينهما** فإن شرح الله صدره دونهما وإلا فلا.. وكيف ساغ لعميدة الدراسات الإسلامية أن يرد فى وهمها أن الصحاح والمجامع والمسانيد من كتب السنة تحتوى على باطل مكذوب عن رسول الله، وهى نبراس حياة الأمة مع القرآن طوال ١٤ قرنا، **أكانت الأمة حقا ضالة هذا الضلال المبين إلى هذه الساعة؟**».

لقد وضع الدكتور المطعنى السؤال وأجاب عليه إجابة مبينة توضح لنا كيف يفكر أهل شئون التقديس فى بلادنا، فهو يدعى أن كل الأحاديث التى دونها البخارى **والتى لم يدونها صحيحه جميعا**، وذلك لتكريس قدسية السنة القولية جميعا، ومن ثم قدسية قائلها وكل ماقال أو فعل، قدسية تربط البشرى فيه بالإلهى، بحيث كان النبى وفق هذا الفهم مجرد أداة سلبية ساكنة تماما بيد الله، وكل ماصدر عنه إن هو إلا وحى يوحى.

فإذا كان ذلك مبدأ فكيف جاز للمطعنى وحبلوش التساهل مع الإمام البخارى وهو يلقى بـ ٥٩٦٠٠٠ حديث فى المجهول، بينما يكفرون السيدة العميدة إزاء انكارها لحديث واحد فقط لاغير؟!.

مناط احتجاج المطعنى أن من يتشككون نتيجة فارق النسبة الهائل بين المدون والمجموع من أحاديث، هو أنهم يريدون القول إن السنة قد جمعت جمعا عشوائيا، بينما هى لاتحوى باطلا ولاكذبا لأنها كانت نبراس حياة الأمة طوال ١٤ قرنا. فالدكتور يرفض أى مراجعة خوف اكتشاف خطأ الأمة طوال تلك القرون، وليس بمراجعة الأخطاء أينما وجدت حتى يمكن تجاوز الخطأ إلى الصواب. ويجعل إجماع الأمة طوال تلك القرون دلالة صدق مطلق، لذلك لايمكن أن يكون جمع الحديث قد تم عشوائيا، لماذا؟ لأننا من جهلنا «؟!!» لم نكن نعلم أن البخارى كان يصلى ركعتين أولا لله، ثم يستخير الله، وحسب ظروفه النفسية والمزاجية «إن شرح الله صدره» يقوم بتدوين ماانشرح له ويستبعد الباقى، فهل يمكن أن يشرح لنا الدكتور المطعنى معنى العشوائية لديه؟ إنها عقلية البركة والتقديس المفرط مرة أخرى، فالبخارى كان رجلا مبروكا يمكنه أن ينوب عن الأمة جميعا، وببعض الطقوس المباركة يستبعد أحاديث ويبقى أخرى، وذلك بالاستخارة «؟!!» وهنا نكرر سؤال المطعنى: «**أكانت الأمة حقا ضالة هذا الضلال المبين إلى هذه الساعة؟**».

ولو كان ماقال النبى أو صدر عنه من أفعال وحيا من السماء فماذا عن حادثة تأبير النخل ونهى النبى عن التأبير مما أدى إلى فساد المحصول، وتعقيبه بالقول: «أنتم أدرى بشئون دنياكم»، وكيف تصرف النبى مع الأعمى الذى جاءه لعله يزكى أو يذكر، فنهه الله ووجه له اللوم على تصرفه. فهل كان النبى هنا يتصرف من نفسه كإنسان أم بوحى من الله؟ وإذا كان بوحى من الله، فهل كان الله يناقض نفسه فى الموقفين؟ لقد كان قول النبى: «أنتم أعلم بشئون دنياكم» اعتذارا مهذبا بأدب نبوى عن خطأ بشرى ارتكبه، بنهيه عن تأبير النخل وفساد المحصول على أصحابه، بكلام بشرى لاعصمة فيه عن الخطأ والسهو النسيان، لأن محمدا كان إنسانا لا إلها.

والمعلوم أن علم الحديث نفسه «بما فيه من الجرح والتعديل» قد تأسس حول اختلاف علماء الإسلام وتنازعهم حول مدى صحة الحديث، والمعلوم أن علماء الحديث هم من أعطوا مقام النبوة درجة الشفاعة، وإمعانا وإفراطا فى تقديس النبى بتقديس كل ماصدر عنه، ليمكنهم إلباس الحديث قدسية صاحبه والعكس صحيح، أى تقديس النبى بتقديس كل

ماصدر عنه، ليمكنهم إلباس الحديث قدسية صاحبه والعكس صحيح، أى تقديس النبى بتقديس الحديث القادم وحيا من السماء، حسب مناهجنا فى توحيد الأشخاص بالمبادىء، رغم تعارض حديث البخارى حول شفاعة النبى مع عدد غفيير من آيات قرآنية صريحة واضحة تنفى تلك الشفاعة وهذه القدسية، وتثبت بشرية النبى وإنسانيته.

مساحة القدسية في السنة القولية(•)

(•) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١٠/ ٤/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٩٦.

إن قدر الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوى الإمام الأكبر للأزهر أن يحمل على كتفيه بعض أعباء هذا الوطن، والناس فى هذا الوطن، من خلال إصراره على مصلحة الدين، وإبراز الوجه المضىء والسمح للإسلام، إزاء دعاة التشدد والتفكير وأصحاب المصالح والجهات التى تعادى الزمن والمجتمع والوطن، وإذا كان صاحب المقام الشريف يتعرض نتيجة موقفه التنويرى التاريخى للحملات الضارية، فهى الضريبة التى دفعها عبر التاريخ كل عظماء الفكر والروح، وهو الشرف العظيم الذى سبقه إليه رفاعة رافع الطهطاوى، والشيخ الجليل الإمام محمد عبده، الذى لخص رحلة كفاحه الطويلة ضد التعصب والجمود والتقليد والإفراط فى التقديس والتشدد فى بيت شعرى شديد الدلالة، يقول:

لكنه دين أردت إصلاحه
أحاذر أن تقضى عليه العمائم

ورغم رداءة الحملة الظلامية، فلها فوائد ونفع عظيم، لأنها تكشف كل يوم للناس عن وجوه الفاشية الكامنة وراء أقنعة التدين، وأن الأمر فى النهاية ليس دينا ولايبغى وجه الله، بل دنيا ومصالح يتكالبون عليها، وهو ماسنحاول إثباته هنا، من خلال الحملة الأخيرة ضد عميدة كلية الدراسات الإسلامية بالأزهر، لطعنها فى صحة حديث «المرأة ناقصة عقل ودين»، وهى الحملة التى تذكرنا بحملة سابقة أشد وطأة وأكثر ظلما وعدوانا، تعرض خلالها الدكتور أحمد صبحى منصور لأشد أنواع الاضطهاد والتنكيل، لإنكاره حديث شفاعة النبى، وقدسية النبى، حتى اضطروه اضطرارا دفعا للامتهان اليومى الدائب إلى الاستقالة، ولم يكتفوا بذلك لأن الرجل أصر على رأيه، ولم يخضع للتهديد والترهيب

إيمانا بسلامة موقفه، فشكلوا لوبى ضاغط فى المؤتمر الإسلامى بإسلام أباد حتى استصدروا قرارا بردة الرجل عن الإسلام، لكنه لم يتراجع عن أفكاره كما هو المطلب المعلن من قبلهم للصفح عنه، فحرضوا عليه الأمن الذى قبض عليه بتهمة لم ترد لا فى قانون دينى ولاحتى مدنى، تهمة «إنكار السنة»، وبالطبع انتهت القضية إلى لاشىء، ومازالوا يحاربون الرجل فى رزق عياله حتى اليوم بمنعه من الالتحاق بأى دار علم أخرى، ومطاردته أينما ذهب بأوراقه ودرجاته العلمية.

فهل ثمة تسمية أخرى تليق بهم سوى أنهم فاشيست؟ والمسألة التى تحتاج إلى بحث وفهم هى إصرارهم على تكفير أى محاولة للبحث فى السنة القولية لتحديد مدى حجيتها على المسلمين، وهو الأمر الذى يدعوا إلى إعادة ترتيب الأوراق بمنهج يحترم الأصول العلمية والعقلية والشرعية، للكشف عن سر التقديس المفرط للسنة القولية، وهل يتفق هذا التقديس مع مصالح البلاد والعباد، التى حيثما وجدت فثم وجه الله؟ أو هل يتفق مع منهج الإسلام ومبادئه؟.

سيجد القارئ للهجمة ضد السيدة العميدة اتفاقا بين المهاجمين على تحويل المختلفات إلى أصول وثوابت أهمها:

❖ إن الأحاديث النبوية تكتسب قدسية لدنية، لأنها كانت وحيا إلهيا كالقرآن تماما، وأى مساس بها يدخل فى إطار الحرمة بل والكفران.

❖ أن الأحاديث كى تكتسب هذه القدسية الكاملة فلابد أن يكون النبى محمد معصوما عن كل مايشوب البشرية من نقائص، لذلك فهو حسب هذا المنهج أقرب إلى الإلهى منه إلى الإنسانى.

❖ تقديس الزمن النبوى لوجود النبى فيه، بما فى ذلك تقديس صحابة النبى وإنزالهم منازل فوق بشرية، لأنهم عايشوا الزمن الذهبى المقدس دون بقية الأزمنة السابقة واللاحقة، التى هى جاهلية وانحطاط أخلاقى كامل.

❖ إعمالا للسنة القولية يتم تحديد الموقف من المرأة ناقصة العقل والدين، التى لاتصلح لغير المطبخ كما قال الدكتور حبلوش لزميلته **المرأة العميدة**، وهو نفسه ماقال من قبل إن الإسلام كرم المرأة دون كل الأديان والمناهج حتى اليوم «!؟».

❖أن قدسية الإسلام تنتقل بالضرورة إلى العاملين بشئون التقديس الأزاهرة كمفرزة للعاملين بشئون التقديس الأزاهرة، مفرخة مقدسة يعمل فيها بشر مقدسون، ورغم أنه من إنشاء الاستعمار الفاطمى لمصر لمساندة السلطة الشيعية آنذاك، ورغم أنه ليس فى القرآن ولا فى الحديث كله شىء أسمه الأزهر أو رجال الأزهر.

وقد جمعت هذه المفاهيم فى حديث الدكتورين حبلوش والمطعنى، وتابع الدكتور المطعنى هجومه مرة أخرى فى صحيفة الشعب المتأسلمة بتاريخ ٢/ ٤/ ٩٩ ليقول: «فمطلب الدكتور بمثابة فقه جديد وتفسير جديد أو شرح الأحاديث من جديد، ياسبحان الله، أليست الخطة التى تتبناها عميدة الدراسات الإسلامية بالأزهر هى غربلة صحيح البخارى ومسلم، بل **محو كامل لمعالم الإسلام؟**» قال هذا الدكتور حبلوش معقبا محذرا منذرا: «إن من غربل الناس نخلوه.. أليس معنى هذا أننا نعيش فى ضلال مركب منذ قرون، وما الذى تركته سيادة العميدة لخصوم الإسلام فى الداخل والخارج ولم تقله؟.. إن هذه التصريحات انطوت على إساءات بالغة للأزهر وللإسلام، وتركت علامات استفهام ضخمة خلاصتها: ماالذى يراد بأزهر الإسلام وبإسلام الأزهر، والجواب متروك لمن يستطيع الإجابة عنه».

إن كلام السيد الدكتور المطعنى هنا يحمل دلالات عدة تشير إلى موقفه وموقف رديفه وفريقه، فهو أولا يرى أن المطالبة بفقه جديد وتفسير جديد للأحاديث هى دعوة يدعو بها خصوم الإسلام. «ومع ذلك يقولون بكل تبجح إن باب الاجتهاد لم يغلق!؟ وفى الوقت نفسه يعترضون على أى فهم جديد».

أليست تلك بثنائية نقائض تشير إلى انتهازية مركبة، وكيل بأكثر من مكيال حسبما يتطلب الظرف من مواقف؟ بل إن التجديد عنده لايعنى أن متغير الزمن يحتاج إلى متغير فى الفهم والتفسير، بل إن هذا التجديد دعوة من خصوم الإسلام فى الداخل والخارج.

خصوم الإسلام فى الخارج هم ذلك المشجب الدائم لخيباتنا وتخلفنا وهو أمر معلن دوما من قبلهم يمكن أن تفهمه، لكن من هم خصوم الإسلام فى الداخل؟ الرجل لم يفصح لكن سهامه الموجهة تشير إلى مايريد، فهذا الداخل يتمثل فى العميدة الأزهرية كنموذج، وفيمن وراءها داخل الأزهر أيضا بدليل قوله: ما الذى يراد بأزهر الإسلام وبإسلام الأزهر؟ إنه يلمح إلى جهات تريد شرا بالأزهر وبالإسلام سلطت عليه من داخله، وبما أن الأزهر مؤسسة تتبع الدولة، وبما أن العمادة ومشيخة إمامته مناصب تتم بالتعين، فلاشك أن الدولة هى من يقف وراء مايحدث فى تلميح إلى معركة مشايخ التطرف مع إمامهم الأكبر، وأن الإسلام كله فى كفة مشايخ التطرف وحدهم.

هذا مايريد الشيخ المطعنى إلقاءه، فى ذهن قارئه بدهاء يحسد عليه، مع التأكيد على أنه لاتجديد فكل جديد كارثة، محدثة، بدعة، ضلالة، والمقدس

فقط هو القديم، لأن حق التفكير عندهم غير جائز للأحياء، حق التفكير فقط لموتى التاريخ، وهم ورثتهم القادرون وحدهم على فهم لغة الموتى.

ولايغيب على لبيب مزج السيد الدكتور بين الأزهر وبين الإسلام مما يؤكد سمة الفاشية المعلومة التى توحد النص بحماته ورعاته، بالدمج بين المقدس وذوات الأزاهرة ليكونوا ناطقين باسم الله، وباطشين باسم الله، وجبارين باسم الله، وأوصياء على عقول الناس وأرواحهم باسم الله، لهم الأمر ولهم التفسير ولهم الفهم ولهم الحكم، وهم مؤسسة التنفيذ عبر اتباعها المنتشرين بالسلاح فى البلاد.

ولنبدأ بالأصل الأول المتفق بينهم وهو «**أن الأحاديث النبوية تكتسب قدسية لدنية لأنها كانت وحيا إلهيا كالقرآن، وأى مساس بها يدخل فى إطار الحرمة بل والكفران**»، لنحاول التأكد من صدق هذه المقدمة التى نعتها الدكتور حبلوش والمطعنى بالمسلمات.

إن الجميع يتفقون على أن كتب الإسناد قد اعتمدت على الثقة ببشر مثلنا، هم رجال الإسناد والرواة الذين انتقلت إليهم الرواية عبر بشر آخرين، فى سلسلة العنعنات عبر الزمن لعشرات السنين التى انقضت بين زمن الرواية وزمن تدوينها، فهل تصح الثقة المطلقة ببشر غير معصومين، لإقامة تشريعات مقدسة ودستور لأمة؟ بنوازع البشر، وأهواء البشر، وأطماع البشر، وبموقعهم فى سلم التراتب الاجتماعى، وبقناعاتهم المرتبطة بالضرورة ببشريتهم، بكل ما للإنسان وماعليه.

إن هذا السبب الواضح كان وراء عدم تدوين البخارى سوى ٤٠٠٠ حديث من بين ٦٠٠,٠٠٠ حديث جمعها، وهى السبب الذى كان وراء موقف أبى حنيفة الذى لم يصح عنده سوى سبعة عشر حديثا فقط بين مئات الألوف. لكن علماء الحديث وبخاصة الأزاهرة المحدثون يقولون بصحة الحديث جميعه المدون منه وغير المدون، ويبسطون عليه جميعه رداء القدسية، بل وجعلوا السنة تنسخ القرآن «هكذا؟».

والمعلوم لأى مبتدىء أن أحاديث المعاملات جميعها أحاديث آحاد، وتعنى أن قائلها صحابى مفرد سمعها وحده من النبى، ومن النادر أن تجد بينها أكثر من قائل سمعها، والمعلوم أيضا أن أحاديث الآحاد أدنى درجة من حيث الصحة عن الحديث المتواتر، والحديث المتواتر هو الصحيح صحة كاملة مطلقة، لكن المشكلة أن علماء الحديث قد اختلفوا حول هذا المتواتر بدوره والمكثرون منهم قالوا إن بحديث واحد متواتر هو «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»، وهذا يعنى أن ماعداه من مئات ألوف الأحاديث هى أحاديث آحاد.

وهنا يطح السؤال نفسه: هل من العدل أو من الدين أو من الحكمة أو من أصول فقه القانون، أن تشكل حوارات جانبية وأحاديث انفرادية قواعد للتشريع العام المجتمع؟ «هذا بالطبع إذا سلمنا بالطهرانية والصدق المطلق للرواة ورجال الإسناد»، أليس الأصل الأول فى التشريع هو إشهاره ليصبح معلنا واضحا بين الناس ليقبلوا العمل بأحكامه؟ أم أن شريعتنا ذات نشأة سرية وعلينا لها الطاعة الجماعية بالفرض القسرى؟.

وقد نبه الدكتور أحمد صبحى منصور فى إشارة لها مغزاها الساخر إلى أن مفهوم الإسناد نفسه يشير إلى بناء آيل للسقوط يحتاج إلى الإسناد، ولأن هناك باطلا وكذبا، فقد تم تصنيف أحاديث الآحاد إلى حسن وضعيف وغريب، فهذا حقق نسبة نجاح ٧٠٪، وذلك ٥٠٪، وآخر لم يحصل سوى على تقدير ضعيف، ويبقى التساؤل الذى يكشف التواطؤ والهدف: كيف يمكن مراعاة هذه النسب المختلفة عند التطبيق؟.

هنا لن نجد داخل القنديل سوى عفريت واحد هو رجال الحديث الأزاهرة الذين ألبسوا أنفسهم القداسة، وهنا الأمر الوحيد الذى يسمح لهم دون الناس بفهم هذا التصنيف النسبى، وعلينا أن نسلم لهم لتطبيق تلك النسب فى حياتنا، لتحكيم تشريعات السنة لأنهم الأدرى بها والأقدر على فرزها: وهى ميزة لايستطيع أحد إدعاءها لكنهم يدعونها، فعندما تستشهد بحديث لايلتقى مع هوى مصالحهم ورؤاهم، يقولون لك هذا حديث ضعيف أو هذا من الإسرائيليات، لكن ليس عندهم أى مانع فى مناسبات أخرى أن يستشهدوا بنفس الحديث عندما يكون فى خدمة الهوى: إنهم يفعلون ذلك بإدعاء الدارية التخصصية لديهم وجهل الآخرين بها، يفعلونه دون أن يطرف لهم رمش، مع إصرارهم على ترديد وتأكيد وترسيخ صحة الحديث المطلقة، مع الإصرار على إعماله فى التشريع، وهنا سيكون لهم بدورهم وحدهم حق التطبيق كما لهم حق الفهم والفرز النسبى، إذن المسألة أبدا ليست مسألة علم ودين وآخره، لأنه باطل يراد به باطل، فهم مخادعون لأنهم يعلمون علم اليقين أن هذا التدوين الذى يعتمدون عليه قد أسقط أهم الأحاديث، أسقط مايزيد عن خمسمائة خطبة للنبى فى المسلمين. بل ويعلمون يقينا أن ذلك لم يكن إهمالا غير مقصود أو ضياعا بالصدفة، أو استبعاد بالاستخارة كما فعل البخارى، بل كان لأغراض سياسية بحتة، حيث كانت هذه الخطب النبوية المشرفة تتناقض وتتعارض بالكلية مع أنظمة الحكم فى الدولة الإسلامية زمن التدوين، والدنيا مصالح ومناصب يستحسن الحرص عليها بعدم إغضاب ولاة الأمر منا، كما أن الله قال: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولى الأمر

منكم»، وحجتهم فى صحة الحديث تتأسس على هذه الآية الآمرة بطاعة الرسول وهو مايعنى أنه كان لاينطق عن الهوى بل كان وحيا يوحى، لكنهم فى الوقت نفسه، وبانتهازية فاضحة فضلوا طاعة أولى الأمر منهم، فأسقطوا أهم مأثور بين كل مادون من أحاديث، خطب النبى فى المسلمين.

وهم أيضا يعلمون علم اليقين أن راوى معظم الأحاديث «أبو هريرة» كان أميا لايقرأ ولايكتب «؟!» ويعلمون أيضا علم اليقين أن أجلة الصحابة قد اتهموه بالكذب على النبى بوضوح، بل إن الخليفة عمر بن الخطاب هدد أبا هريرة وأنذره بالكف عن التحدث بأحاديث النبى، ولما مات عمر عاد أبو هريرة إلى سيرته الأولى يحدث وينسب للنبى، لكن هذه المرة من داخل قصر معاوية بالشام حيث كان يعبس أمام صيوانى الثيرد والمضيرة فماذا كان يمكن أن يقول فى حضرة معاوية ومن قصر السلطان؟؟ وقد اعترف نفسه صراحة قائلا: «إنى أحدثكم بأحاديث لو حدثتكم بها زمن عمر بن الخطاب لضربنى بالدرة/ انظر الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٧».

أما الرواى الثانى والأهم والملقب بحبر الأمة عبدالله بن عباس، والذى روى ١٦٦٠ حديثا معظمها آحاد، فلا شك أن السادة الأفاضل يعلمون تمام العلم، أن النبى قد مات وعبدالله بن عباس لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره.

وهم يعلمون علم اليقين أن رواة الحديث أنفسهم قد أجمعوا على أن النبى قد نهى عن تدوين أحاديثه، ولم يصرح بتدون غير القرآن، وجاء هذا النهى فى أكثر من حديث لأبى هريرة وعبدالله بن عمر وزيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى وعبدالله بن مسعود وغيرهم.

انظر معى مدى الوضوح والقطعية التى لاتقبل لبسا فى حديث أبى هريرة: «خرج علينا الرسول ونحن نكتب أحاديثه فقال: ما الذى تكتبون؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك يارسول الله، قال: **أكتاب غير كتاب الله؟**... يقول أبو هريرة: فجمعنا ماكتبناه **وأحرقناه بالنار**».

واستمع معى إلى أبى هريرة مرة آخرى يقول: «بلغ رسول الله أن أناسا قد كتبوا أحاديثه فصعب المنبر وقال: ما هذه الكتب التى بالغنى أنكم قد كتبتم، إنما أنا بشر، فمن كان عنده شىء منها فليأت بها، يقول أبو هريرة، فجمعنا ماكتبناه وأحرقناه بالنار/ انظر الخطيب البغدادى: تقييد العلم، ص٣٢، ٣٣».

واقرأ له فى صحيح مسلم الحديث المتفق على تواتره وصحته الكاملة

«لاتكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه../ ج١٨، ص٢٢٩».

وفى رواية لأبى سعيد الخدرى قال: «استأذنت رسول الله أن أكتب حديثه فأبى أن يأذن لى»، كذلك روى زيد بن ثابت «**إن النبى نهانا أن نكتب حديثه**/ انظر البغدادى: تقييد العلم»، أما عبدالله بن عمر فقال: «خرج علينا رسول الله يوما كالمودع وقال: إذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه» **ولم يذكر السنة** «انظر مسند ابن حنبل».

فإذا كان هؤلاء السادة يعلمون ذلك بالضرورة، فهل يخدعون أمة المسلمين عن قصد مبيت؟ فى اعتقادى أن الاجابة بنعم لسببين: الأول تغاضيهم الكامل عن الشهادات القرآنية التى تنفى حجية الحديث النبوى وعصمته المقدسة، ومن الأمثلة على ذلك ضربا للمثل وليس حصرا: فبأى حديث بعده يؤمنون/ الأعراف ١٨٥.

اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء/ الأعراف ٢:٢.

أما السبب الثانى والجوهرى، فهو أنه لايمكن لأحد أن يدعى تمثيل القرآن الكريم وفهمه فهما واحدا مطلقا للمقصد الإلهى من الآيات، ومن ثم لايمكن اكتساب قدسية القرآن بزعم فهمه فهما شاملا مانعا، أما الحديث فهو مساحة مناسبة للقرصنة والكذب على النبى، وهو أيضا مساحة من الدرجات والأنواع يمكن فيها لهم أن يصولوا ويجولوا ليكتسبوا به وحدهم قدرة الفرز بين نسب الصحة فيه، ومن ثم تكون لهم السيادة المقدسة بحيث لايتخلفون درجة عن النبى، فكما كان النبى مفسرا للوحى، فهم بدورهم من يفسر الحديث، لذلك يصرون على أن الحديث جميعه كان وحيا.

وهم بسبيل ذلك لايعدمون الحجة، فالتاريخ فيه شبيه لهم أسس للأنتهازية النفعية، حيث زعم نفعيو القصور الأموية والعباسية **أن النبى بعد أن نهى عن تدوين السنة عاد فصرح بها**، وذلك فى أحاديث جاءت متأخرة، فقد روى راجح بن خديج: «قلت: يارسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: اكتبوا ولاحرج/ انظر السيوطى: التدريب»، كذلك روى أبو هريرة أن رجلا كان يجلس إلى رسول الله فيسمع منه الحديث فيعجبه ولايقدر على حفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله فقال له: «استعن على حفظك بيمينك»/ انظر الترمذى، وانظر أيضا البخارى الذى **وصفه بأنه من منكر الحديث!!** ولانعرف هنا لماذا دون البخارى بخاريه إذن.

وهكذا رجع صاحب الكمالات فى كلامه، وقرر الله اتخاذ قرار ناقض لقراره السابق فى شأن مصيرى يمس أعمق وأخطر شئون أمته المؤمنة

ومعاشها وشريعتها، فبحسبان الحديث جميعه وحيا إلهيا، يكون الله قد قرر بالأمس قرارا رجع عنه غدا، فهل كان ذو الجلال يتلاعب بأمته التى أخلصت له الدين، أم كان مترددا فى مثل هذا الأمر الخطير؟ وهل يليق ذلك بجلال ذى الجلال؟.

إن مثل هذه التساؤلات العقلانية لاتشغلهم، كما لايشغلهم إن يسلبوا النبى عقله وإرادته، وتحويله إلى مجرد شىء كالمذياع، لأنهم يريدون الحديث مقدسا لتكون لهم مساحة السيادة فى رحابه، إذن لنبتعد عن العقل والمعقول والحجة المنطقية فهى ليست ضمن الأدوات المعترف بها لديهم للفصل فى النزاعات، ولنعتمد الوثائق، ونعود إلى زمن الخلفاء الراشدين نستطلعهم الخبر، هل عملوا بنهى النبى عن التدوين، أم بتصريحه بالتدوين؟.

أبو بكر أول الراشدين، روت عنه ابنته عائشة: «جمع أبى الحديث عن رسول الله وكان خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيرا فلما أصبح قال: أى بنية، هلمى الأحاديث التى عندك، فجئته بها فدعا بنار **وأحرقتها**/ انظر الذهبى: تذكره الحفاظ، ج١، ص٥».

فماذا عن ثانى الراشدين؟

لقد صعد عمر بن الخطاب المنبر وقال: «أيها الناس بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب، فأحبها إلى أحسنها وأقومها، فلايبقن أحد عنده كتبه إلا أتانى به فأرى رأى فيه، فظن الناس الذين كتبوا عن رسول الله أنه يريد أن ينظر بها، فأتوه بكتبهم فجمعها **وأحرقها** وقال: أمينة عندى كأمينة أهل الكتاب، ثم كتب إلى الأمصار: من كان عنده من السنة شىء **فليتلفه**/ انظر ابن حزم/ الإحكام، ج٢، ص١٣٩».

وهذا الموقف العمرى يكشف عن موقف أزاهرة اليوم المتشنجين من ذوى المصالح، فأمنية أهل الكتاب أنهم دونوا كلام أنبيائهم فتحول بمرور الوقت مقدسا، ومن ثم تقدس الأنبياء أنفسهم بقدسية مقالاتهم، وأصبح لهم نصيب من قدسية الله بحسبان كلامهم المرسل فى المناسبات وحيا لدنيا.

ومن هنا نشأت وظيفة الكاهن الذى أصبحت مهمته تفسير ذلك الكلام وتطبيقه تشريعا، ومن ثم يريد السادة الأفاضل اليوم اكتساب تلك الكهانة، إن لم يكونوا قد اكتسبوها بالفعل، رغم أن الإسلام لايعرف الكهنة ولا الكهانة، ويرفض بصراحة اختلاط اللاهوت بالناسوت «كما فى الديانة المسيحية التى تؤكد على لاهوت المسيح وناسوته» وذلك لتكريس القدسية لبارئ السماء وحده، لكن مشايخنا ينعون على المسيحية ربطها للإنسانى

بالإلهى فى المسيح ويفعلون نفس الفعل مع نبى الإسلام بزعم اتصال إلهى بالإنسان فيه، لينالوا بدورهم حظا من هذا الامتداد بوصفهم العلماء القادرين على فرز الحديث وتطبيقه تشريعا.

ولم يقتصر الأمر فى عدم تدوين السنة على الراشدين، بل كان أجله الصحابة يعملون بالأمر يصدعون به مما يشير إلى الكذب والتدليس فى الزعم بتراجع النبى أو الله والتصريح بالتدوين فقد روى أبو نضرة قال: «قلت لأبى سعيد الخدرى: إنك تحدثنا عن رسول الله بأحاديث حسنة، فلو كتبناها، قال: **لن أكتبكموها ولن أجعلها قرآنا**/ انظر جامع البيان».

وروى عن حبيب رسول الله، ومن أوصى النبى بحبه عبدالله بن مسعود: «جاء علقمة بكتاب فيه أحاديث عن رسول الله فدخلنا على عبدالله بن مسعود ودفعنا إليه الصحيفة.. فأمر بها **فأحرقت** ثم قال: أذكر الله رجلا يعلمها عن أحد إلا أعلمنى بها، بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهرهم/ انظر سنن الدارمى، ج١، ص١٢٤».

ولا يغيب عن فطن أن الحديث لم يدون إلا من بعد الراشدين، تحت رعاية سلاطين القصور، وبالطبع مصالحهم، وتبقى محاولة فهم: إذا كان النهى عن التدوين هو الصحيح فلماذا أصر أصحاب المسانيد والصحاح على جمع الحديث وتدوينه؟.

ذلك موضوع آخر، يحتاج إلى حديث آخر، فللحديث بقية.

عقوبة الرجم ومعيارية القيم(•)

(•) تم نشره في مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ١/ ٥/ ١٩٩٩ العدد ٣٦٩٩.

كان مفترضا أن نناقش اليوم إجابة سؤال طرحناه العدد الماضى، ألا وهو إذا: كان النبى قد نهى عن تدوين السنة القولية، فلماذا أصر أصحاب المسانيد والصحاح على جميع الحديث وتدوينه؟.. لكن جد فى الأمور جديد، فقد أرسلت الدكتورة آمنة نصير برد إلى صحيفة الشعب المتأسلمة فى ٦/ ٤/ ٩٩ تؤكد أن عبثا قد حدث بإجابتها فى الحوار الصحفى الذى أجرى معها، لكنها لم تتطرق إلى تراجعها عن التشكيك فى حديث «المرأة ناقصة عقل ودين» من عدمه، ولاموقفها من رفض عقوبة رجم الزانى المحصن/ المتزوج لعدم وجود آيات فى القرآن الكريم تحمل هذا الحكم القاسى، ولأن مسألة الحديث والسنة هى مناط نقاشنا، فإن ردها هذا يجعل المناقشة مفتوحة، لمناقشة «حد الرجم»، خاصة بعد دخول طرف جديد فى النقاش هو الدكتور جابر قميحه، وغنى عن البيان هنا أن مانكتبه ليس دفاعا عن شخص العميدة الأزهرية فهى فى النهاية زميلة لمهاجميها، وعميدة بين الأزاهرة، وهى قادرة على الدفاع عن نفسها بطريقتها، فهى على المستوى الشخصى أعلم بمواطن النفع والمصالح والمضرة، لكن القضية لم تعد تتعلق بشخصها بعد أن انفتحت على المستوى العام، فى أمور تمس معاش الناس وشرائعهم، ومانزعم الدفاع عنه هو حق الناس فى القول وفى إبداء الرأى المختلف أيا كان، والدفاع عن مبادىء حريات وحقوق الإنسان الفرد، ورفض الوصاية على عقول الناس وأرواحهم، بتفنيد أسس المنهج الفاشى فى التفكير، للكشف عن سمات تفكير التكفير، هذا بالطبع مع أهمية القضايا التى طرحها هذا الاصطراع بين الأزاهرة، وحساسيتها الشديدة فى المناخ العام السائد الآن المتصف بالإفراط فى التقديس.

ومن هنا ألحت قضية «حد الرجم» لتدفع إلى مناقشتها وتأجيل موضوع تدوين السنة القولية إلى عدد قادم، لمناقشة هذا المستجد لاتصاله الوثيق بالمناهج الفاشية فى التفكير.

ولهذا الغرض نعود إلى الدكتور المطعنى نقرأ له فى الشعب المتأسلمة بتاريخ ٢/ ٤/ ٩٩ عبارة تصلح مدخلا لحديث اليوم، شخص فيها رأيه فى حديث زميلته الأزهرية بقوله: «إن الشأن فى كل من يدلى بتصريحات عشوائية غير مدروسة، لابد أن يقع فى الاضطراب والتناقض»، وهو مايعنى أن الدكتور المطعنى وفريقه لم يدلوا بكلام عشوائى، بل كتبوا ودونوا ولم ينشروا إلا بعد دراسة وتفكير وتدبر لا يسمح بتضارب ماكتبوا واضطرابه، وبما أن سيادته قد وضع هذه القاعدة فلا أظنه هو وفريقه سيعارضون فى تطبيقها على ماكتبوا من كلام غير مضطرب ولا عشوائى.

ونعود إلى تصريح العميد الأزهرية فى إجابتها عن سؤال حول أحاديث رجم الزانى المحصن، قالت العميدة حسبما تم نشره: «أما بالنسبة لرجم الزانى فإنى أى هذه العقوبة تخالف النص القرآنى الذى لم يتحدث عن رجم الزانى».

وقد رد عليها الدكتور المطعنى قائلا: «كيف فهمت الدكتورة أن رجم الزناة المحصنين يخالف القرآن؟ هذا وهم كبير يقع فيه كثير من دعاة تحجيم السنة الذين ملأوا السهل والوعر.. إن المخالفة ياسيدتى هنا معدومة، لأن القرآن لم يقل لاترجموا الزناة المحصنين» «!؟»، فهل حقا أن هؤلاء وأسلافهم من أهل شئون التقديس قد تمكنوا من تسليط حد الرجم على رؤوس العباد طوال هذه العقود، فقط لأن القرآن لم يقل: لاترجموا الزناة، فقرروا هم تقرير الرجم حدا؟.

إن هذا التبرير فيما يبدو لم يقنع الدكتور قميحة، فقام يدعم زميله المطعنى ببيان أكثر إقناعا يبرر الإصرار على حد الرجم مع عدم وجوده بالقرآن الكريم، وقد استند فى بيانه إلى أحداث زمن الدعوة، حيث تم رجم «ماعز» و«الغامدية» زمن النبى، كما تم رجم «سراحة» فى خلافة على بن أبى طالب، ولشرح الأمر قام يقول: «إن عدم إشارة القرآن إلى عقوبة الرجم لايعنى أنها لم تفرض، وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كانت هناك اية نصها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فأرجموهما البتة، نكالا من الله والله عزيز حكيم، ثم نسخ رسمها وبقى حكمها».

فهل حقا كان ثمة آية قرآنية كتلك المستخرجة من كتب التاريخ الإسلامى وكتب السنة؟ إن السؤال الذى سيسأله أى مسلم عاقل يرفض الوصاية عليه: فلماذا إذن هى غير موجودة بين أيدينا فى القرآن الكريم الذى تعهد الله بحفظه؟ وهل يكفى قولهم بذلك ليصبح مرجحا عن كفة القرآن المدون؟ ثم لاشك أن التساؤلات ستستمر فيما هو أبعد وأجدى: لماذا اذن الإصرار على حد الرجم مع عدم وجود نصه فى كتاب الله المتلو

بين المسلمين الذى لايدخله باطل؟ وماالذى دعى أسلاف العاملين بشئون التقديس لفتح أبواب فى علم الفقه أو على الأصح اختراعها اختراعا، وإحداثها فى شئون دين يؤكدون أنه ضد المحدثات، بوضع باب ضمن أبواب النسخ فى علوم القرآن، أطلقوا عليه: باب ما نسخت تلاوته «رسمه، كتابته، تدوينه» وبقى حكمه، لإبقاء حكم شديد القسوة على العباد، دون النص القرآنى الواضح بشأنه، فهل تم إرسال القول بوجود آية قرآنية غير مدونة، فقط بغرض الإصرار على هذا الحد الرهيب، وتغطيته بالقداسة بالقول بوجود آية اختفت من التدوين؟.

وحتى نستطلع تفاصيل حل هذا اللغز نبحث وراء الدكتور قيمحة بين كتب الأصول، فنستمع إلى رواية يحيى بن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قد خطب من على منبر الرسول إبان خلافته فقال: «أما بعد أيها الناس، فإنى قائل مقالة لعلها بين يدى أجلى فمن وعاها وعقلها فليحدث بها حيث انتهت راحلته، ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب على الله عز وجل، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها وعقلناها، ورجم رسول الله ورجمنا من بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: لانجد أية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، وإذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف، انظر فتح البارى ١١/ ١٩١، ١٩٢ أخرجه الصحيحان مسلم ١٥/ ٨٥ وأحمد ١٦/ ٨١/ ٨٢.

«وعن يحى بن المسيب قال: قال عمر بن الخطاب: وآية الرجم لاتضلوا عنها.. وأنها نزلت قرأناها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فأرجموها البتة ولولا أن يقال زاد عمر فى كتاب الله لكتبتها بيدى».

وفى رواية «زر» أن الآية كانت «إذا زنى الشيخ والشيخة فأرجموها البتة البتة، نكالا من الله، والله عزيز حكيم/ انظر ابن الجوزى: نواسخ القرآن، ص١٣/ ١٤»، وفى رواية إمامة ابن سهل أن خالته قالت له: «لقد أقرأنا رسول الله آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فأرجموهما البتة بما قضيا من اللذة/ انظر السيوطى: الإتقان فى علوم القرآن، ج٢، ص٢٥».

فما مدى السلامة فى هذه الروايات عن الآية المختفية التى تحمل أشد الحدود وأخطرها طرا، خاصة وأنها جاءت فى أحاديث تناقلها بشر عن بشر غير معصومين وكان يمكن ألا تدون إطلاقا، لاهى، ولا السنة القولية جميعا، لولا قرار الخلفية عمر بن عبدالعزيز بجمع السنة وتدوينها، ناهيك عن تعلقها بأمر يمس صميم القرآن الكريم وجوهر قدسيته.

وهنا ملاحظات واجبة: أولا، الاهتمام الكبير والاحتفاء الواضح بخطب كخطب عمر بن الخطاب، وعدم الاحتفاء إطلاقا بتسجيل مايزيد على خمسمائة خطبة للنبى فى المسلمين، ألا يشير ذلك إلى العمد والقصد فى الانتقاء والاستبعاد والاستبقاء و«الغربلة» التى يرفضونها اليوم؟ وأى ظروف كانت تقف وراء غربلة أدت إلى اختفاء خطب النبى وظهور خطب عمر بن الخطاب؟

والملحوظة الثانية: إشارة الخليفة عمر إلى صحابة لا يعرفون بأمر مقالته حول حد الرجم فى قوله: «ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب على الله عز وجل»، وهو مايعنى أن الحد المذكور لم يكن مشهرا معروفا بين جميع المسلمين، ونحن نعلم أن حجية التشريع تكون بإعلانه على الناس جميعا.

أما الثالثة: فهى تضارب نص الآية المختفية بين الروايات فقد جاءت على تنويعات، فهى فى خطبة عمر: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» وهى فى رواية زر «إذا زنى الشيخ والشيخة فأرجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم»، وهى فى رواية خالة إمامة ابن سهل «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة»، فهل يمكن هنا الاستناد إلى ذلك، والإعتراف بآية تضاربت فيها الأقوال لفظا ومعنى، فقط عدا «الشيخ والشيخة، والرجم» المتفق عليها؟ وهنا قد يخطر على بال مؤمن بسيط السؤال: فما هى إذن حجتنا على أهل الكتاب واتهماتهم بتخريف مقدساتهم؟ ثم ماذا تتعنى الآية بالشيخ والشيخ؟ نحن نعلم جميعا أن أهل الشرع ورعاة المقدس قد انتهوا بشأن جريمة الزنا إلى قاعدة رجم الزناة المحصنين وجلد الزناة غير المحصنين/ غير المتزوجين، ولفظ الشيخ والشيخة سيتضارب مع تلك القاعدة، فمعنى الآية رجم الشيخ الزانى حتى لو لم يحصن، وجلد الشاب حتى لو أحصن، وهو ماعبرت عنه رواية يقول فيها عمر بن الخطاب: «لما نزلت آية الرجم أتيت بالنبى فقلت أكتبها؟ فكأنه كره ذلك «!؟» فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن يلجد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم؟/ انظر الإتقان ج٢/ ص٢٦ للسيوطى»، وهى ذات الحجة المعترضة عقلا وشرعا التى ساقها زيد بن ثابت الذى قام على تدوين المصحف المجموع بأمر الخليفة عثمان بن عفان، عندما سأله مروان بن الحكم: «ألا تكتبها فى المصحف؟ قال: ألا ترى أن الشابين الثيبين (أى المحصنين) لايرجمان» انظر نفس الصفحة بالأسيوطى.

يبدو أن مثل هذا هو ماستند إليه الدكتور قميحة فى الإصرار على حد الرجم رغم عدم وجوده فى القرآن، لكن للعقل شروط لايتنازل عنها

للقبول والرفض مع الاحترام الكامل لنصوص الدين، بل إن هذا الاحترام نفسه هو ما يقف وراء هذه المناقشة كلها، وهو مايدفع إلى مزيد من التساؤل: كيف حدث الأمر؟ أى كيف تم نسخ هذه الآية رسما كا يقال ولماذا بقى حكمها؟ والأمر الأهم: هل جاء بالقرآن الكريم أى إشارة إلى آيات تم نسخها مع وجوب بقاء حكمها حتى يكون لادعائهم السمع والطاعة؟ أم أن ذلك من تصنيفات فقهاء تقديس السنة وهم بشر مثلنا لاعصمة لهم ولاقداسة؟.

بشأن النسخ أحاط الله عباده علما فى كتابه العزيز بقاعدة الهية لايصح لبشر تجاوزها إلى مقام النبوة، والقاعدة يوجهها الله للناس متحدثا بلسان نفسه قائلا: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها؟/ انظر السيوطى فى الإتقان ج٢ ص٢٦».

لكنك للوهلة الأولى تجد بكتاب الله بدل البديل الواحد اثنين: الأول قول الآيات الكريمة: «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكونهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما/ ١٥ ـ ١٦/ النساء»، وهو مايعنى الحكم بحبس الزانية المحصنة فى بيتها، وإيذاء الزانى المحصن، وقد تم الاتفاق على أن يكون هذا الإيذاء بالسب والتعيير، أما البديل الثانى فهو ماجاء فى قوله تعالى: «الزانى والزانية فأجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة/ ٢/ النور».

لكن الفقهاء يقولون لنا إن الآية الثانية قد نسخت الأولى، لكن لأن الآية الثانية تحكم بالجلد دون تمييز بين المحصن والأعزب، فقد قاموا يؤكدون أن نسخا ثانية قد حدث بآية الرجم المختفية، نسخ فيه حكم الجلد عن الزناة المحصنين بحد الرجم، لكن دون بديل لهذا الحكم المنسوخ فى القرآن المدون.

وهكذا يقول زجال شئون التقديس أن حكم السنة ينسخ حكم القرآن «؟!».

نحن نستخدم هنا تعبير «الآية المختفية» لأننا لانملك اجترائهم على كتاب الله وقرارات الله، ولانسلم بوصفهم لها بأنها قد نسخت لأن النسخ مرتبط بالضرورة بالبديل حسب القرار الإلهى بالقرآن الكريم، لذلك من المفيد هنا أن نستأنس ببقية الروايات المتعلقة بآية الرجم المختفية للتيقن من مدى صحة القول بنسخها، والنسخ فى الوحى كما نعلم، هو أمر غير جائز لبشر، إنما هو أمر إلهى لامكان فيه لبشر، وبين تلك الروايات نجد عمر بن الخطاب الذى يصر الرواة أنه صاحب التشديد على العمل بحد

الرجم يقول: «لما نزلت آية الرجم أتيت النبى «ﷺ» فقلت أأكتبها؟ فكأنه كره ذلك» «!؟» وعمر بن الخطاب نفسه هو من وقف له أبى بن كعب يذكره بما حدث زمن النبى بشأن آية الرجم يقول له: «أليس أتيتنى وأنا أستقرئها رسول الله «ﷺ» فدفعت فى صدرى وقلت: **تستقرئه آية ا لرجم وهم يتسافدون تسافد الحمر**/ انظر السيوطى فى الإتقان ج٢ ص٢٦ - ٢٧»: إذن فالروايات تقول بآية نزلت تحمل حد الرجم، لكن هذه الآية لم تدون فى القرآن الكريم ليس بأمر إلهى، إنما بعمد مقصود، بكراهة النبى «ﷺ» تدوينها، وللحجة العقلية الشرعية التى قدمها عمر وزيد بن ثابت حول عدم اتساق رجم الشيخ محصنا أو غير محصن، وجلد الشاب محصنا أو غير محصن، وثالثا لأن الناس كانوا يتسافدون «يتناكحون» تسافد الحمر «الحمير»، وهو مايعنى فى حال تدوين الآية وتطبيق الحد، وقوع الرجم على أعداد غفيرة من المسلمين زمن الدعوة، ثم رابعا اختلاف نص الآية المختفية بين الرواة، ثم الاختلاف بينها وبين عقوبتين وردتا بآيتين مدونتين بالقرآن، ثم تضارب نصها مع قواعد عقوبة زنى الأعزب والمحصن المقررة، وهو مالاحظه «ابن حجر» وهو يقول إن «السبب فى رفع تلاوتها هو **الاختلاف**/ المصدر نفسه ج٢ ص٢٧»، هذا ناهيك عن غلظ الحد وقسوته، تلك القسوة التى لم تجد صدى فى نفس الدكتور قميحه وروحه فكتب يسخر من العميدة الأزهرية لاستشباعها تلك العقوبة: «يفهم القارئ من كلام العميدة بصورة ضمنية استشباعها واستفظاعها لعقوبة الرجم.. فالرجم بالحجارة حتى الموت قسوة لاتتفق مع الإنسانية أو مع السيستم الحضارى القائم حاليا.. بل هناك من دعا إلى إنكار الجلد لأنه إنكار لأدمية الإنسان»، هذا بينما قدم الإمام جلال الدين السيوطى تفسيره لما حدث مع آية الرجم فى قوله: «إن سبب التخفيف على الأمة بعدم اشتهار تلاوتها وكتابتها فى المصحف، وإن كان حكمها باقيا، لأنه أثقل الأحكام وأشدها وأغلظ الحدود/ المصدر السابق ج٢، ص٢٦».

أليس من حق مؤمن يريد الاطمئنان لطوية فؤاده مع كل هذه المعوقات أمام القبول العقلى والشرعى والنفسى لأية الرجم المختفية من عدمه أن يتساءل: إذا كانن النبى والصحابة قد كرهوا تدوينها، وإذا كانت تتضارب مع تقعيدهم جلد غير المحصن ورجم المحصن شابا أو شيخا، وإذا كانت العبرة فى ذلك الاختلاف كما قال الإمام السيوطى لغلظ الحد وقسوته للتخفيف عن الأمة، أفلا يكون نسخ الحكم مع الآية لفظا ودينى هو الأكثر منطقية وانضباطا؟ ناهيك عن كون ذلك يبعدنا عن شبهة الافتئات على الله والتزيد على كتابه الذى كان وراء عدم تدوين عمر لها بيده فيما تقول الرواية.

أيها السادة من أهل شئون التقديس: هنا سؤال منطقى من حق الناس لايجب أ يستفز أحدا: هل حقا تملكون يقينا كاملا بتلك الروايات حول الآية المختفية؟ وإذا كان ذلك حقا فلماذا لاتدونونها بكتاب الله؟ وإذا كان المانع من التدوين عدم اليقين، فلماذا الإصرار العظيم على عقوبة الرجم؟

ليس ثمة تفسير آخر سوى تلك السمة الواضحة التى تطبع العقول الفاشية منذ فجر زمانهم الأول، والتى تميل نحو التشدد والغلو والتطرف نحو القسوة والغلظة مع عباد الله، رغم سماحة الإسلام العظيم الذى كان دوما مع التخفيف عن العباد، إنها لازمة فاشية متواترة تبحث دوما عن الدلالات المتشددة وتنقب عنها أو تخترعها اختراعا إذا لزم الأمر.

وهو أمر واضح فى كثير من المواقف، كالموقف من نصح الآيات باجتناب الخمر الذى تحول إلى ابتعاد كامل بالكلية، وكالموقف من قطع يد السارق الذى يجب أن يتم فعلا، رغم أنه بالإمكان تأويل القطع بحبس هذه اليد مع صاحبها بعيدا عن المجتمع إبعادا لشرها بدلا عن قطع يحوله إلى عالة، غير قادر على الكسب، ثم الإصرار على الرجم رغم وجود بدائل فى كتاب الله أكثر رفقا بعباد الله، وذلك استنادا للتقديس الكامل للسنة التى رأينا نموذجها المتخبط والمتضارب الكامل فى الروايات.. والنماذج كثيرة وغفيرة.

هذا مع ملاحظة تأسيسية، هى إنطواء هذا الإصرار على عقوبة الرجم على إساءة بالغة للإسلام ومقدسه القرآنى الجليل، فالقول بكراهة النبى تدوين الآية إنما يعنى أن النبى قد أهمل عامدا تبليغ كامل رسالته المكلف بتبليغها للناس، وهى نفس الإساءة الكامنة فى الإصرار على تقديس السنة بحسبانها وحيا مقدسا إلهيا بالكامل، فإذا كان النبى قد هى عن تدوين السنة فهو مايعنى - حسب منطقهم - تفريطه فى تبليغ كامل رسالته، وهو مايعنى أيضا أن الصحابة قد تدخلوا فى التدوين واستبعدوا مالم يرق لظروفهم حين كان الناس يتسافدون تسافد الحمر، وهى كلها مما لايطمئن إليه قلب المؤمن، وهى المعانى التى لابد تعيدنا بالضرورة إلى موقف الدكتور يحيى إسماعيل حبلوش الرافض لتغير الأحكام بتغير الأزمان تأسيسا على القيم الأخلاقية، حيث زماننا من وجهة نظره لايصح مقياسا سليما لأنه «زمان كلينتون ومونيكا، وديانا ودودى أيضا»، لنسأله بكل براءة: فماذا عن تسافد الناس تسافد الحمر زمن الدعوة «مثلا»؟.

لقد سبق وأشرنا إلى أن القيم معيارية تتغير بتغير الظروف والأحوال، باختلاف الأماكن وبتغير الأزمان، وهو أمر من بسائط علم الاجتماع البشرى، لايصح معه القول بإطلاقية سلوك قيمى بعينه لفرضه على كل

البشر فى كل مكان وزمان، لارتباط القيم بظروفها التى أفرزتها ارتباطا وثيقا، فعلاقة كلينتون بمونيكا حسب منظومة القيم الجديدة فى الغرب المتقدم هى فعل حرتم باختيار واع من قبل الطرفين دون إكراه أو إرغام، ونحن نعلم أن النكاح فى الإسلام يقوم على الاختيار الحر للطرفين ناهيك عن زواج المتعة الذى كان معمولا به زمن الدعوة ولم يزل معمولا به عند الشيعة الإثنى عشرية فى دولة إيران الإسلامية، هى عند الغرب فعل حر والمحاسبة عليه ليست حقا للقانون الأمريكى ولا للشعب الأمريكى، فقط ربما هى حق الزوج والزوجة، حق المتضرر، والسيدة هيلارى زوجة كلينتون كما نعلم لم تضج ولم تشكو.

وكما يعلم الجميع فإن إجراءات محاسبة الرئيس الأمريكى كانت بسبب كذبه على شعبه وهنا كبرى الكبائر عند هؤلاء الأباعد، ثم بسبب محاولته التأثير بمنصبه على شهادة الشهود، وهذا مساس بقدس أقداسهم الوثنى: القانون «؟!».

وماذا لو رد علينا أصحاب تلك القيم الحرة يتساءلون عن القيم لدينا، وعن القيمة الأخلاقية فى شراء أمرأة حرة أوقعها سوء حظها فى يد النخاسين من تجار الرقيق أو فى الأسر، وتشريع مواقعة هذه المرأة وهى لاتملك اختيار بالقبول أو بالرفض، بتصريح شرعى بوطء ملك اليمين.

المسألة ليست إذن زمنا ذهبيا لاتسامه بقيم رفيعة ولازمنا دنسا لاتسامه بقيم دنيا، فالقيم ليست وصما ولاقدحا ولا مدحا للزمن بل، هى فرز ظروفه وطرائق الناس حسب أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لذلك تتغير دوما، ومن هنا يصبح الحكم القيمى بالضرورة مبنيا على ماتعارف عليه الناس فى زمنه.

لذلك أمر الإسلام بالمعروف والنهى عن المنكر، ولاأحد يمكنه الاختلاف على **أن المعروف هو ماتعارف عليه الناس، وأن المنكر هو ماستنكره الناس، فى مجتمعهم وزمانهم**، لذلك تعارفت معظم دول العالم المتقدم فى زماننا على تجريم العقوبات البدنية كالجلد والقطع والرجم، وأيضا تجريم استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وتجريم والسبى والعبودية والاغتصاب، واعتباره الزنى الحقيقى لأنه لايقوم على الأختيار الحر، ومن الطبيعى أن يردوا علينا أن وطء الجوارى هو الاغتصاب العلنى، وأنه قيمة قد تجاوزتها الإنسانية مع تحولات الزمن ومتغيراته إلى غير رجعة.

فقهاء السلطان والتشريعات السلطانية (•)

(•) تم نشره فى مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٨/ ٥/ ١٩٩٩ العدد ٣٧٠٠.

قبل قيام الدولة الإسلامية لم يكن للعرب فى جزيرتهم معرفة بأساليب الإدارة الحكومية، ولا دواوينها المعقدة، ولا مجالسها التشريعية، ولانظام الأمن والشرطة المتطور، وكان اعتماد الفرد فى أمنة وسلامة ماله وروحه على نسبه القبلى وحمايته العشائرية، ومن كان يتم خلعه من قبيلته، يصبح نهبا مباحا مهدور الدم، ومن هنا نشأ نظام الإجارة لدى قبائل بدو الجزيرة، حيث كان بإمكان المخلوع أن يلجأ إلى الاستجارة بقبيلة آخرى يعيش فى ذمتها آمنا فى جوارها وحماها.

ومع قيام حكومة لأول دولة عربية فى يثرب، أمكن لقبائل العرب المتشرذمة فى جزيرتها أن تتوحد فى دولة مركزية واحدة، ومع تهاوى إمبراطوريتى الفرس والروم بعد حربهما السبعينية، خرج العرب من جزيرتهم يملأون الفراغ الناشىء فى المنطقة، ليقيموا إمبراطورية شاسعة، بدأها الأمويون الذين نقلوا عاصمة الدولة من مدينة الرسول المنورة إلى دمشق الشام، لكن ليجدوا أنفسهم فى ظرف جديد أكثر تعقيدا مما ألفوه فى بدواتهم البسيطة الأولى، بين شعوب عريقة بحضارتها ولغاتها وأنظمتها الإدراية والاجتماعية، لها تاريخها الممتد فى دول مركزية منذ فجر التاريخ، وهنا واجه الأمويون أول المشاكل الكبرى، فهم لايحملون معهم من فيافى جزيرتهم من ثقافة سوى القرآن الكريم وبعض الأشعار وعلوم الأنساب وماقبيلها، وهو زاد كان غير كاف إزاء متغيرات شتى تختلف عن بيئة البداوة فى بلاد المفتوحة بكل جديدها المتعدد، خاصة أن القرآن الكريم كان يحمل مجموعة تنظيمات وأحكام عامة دون تفاصيل.

وهكذا لم يجد الفاتحون من حل سريع سوى الإبقاء على نظم الإدارة الرومانية فى شئون الإدارة والدواوين والحكم، مما أدى إلى ظهور مشكلة أخرى تتعلق بمدى شرعية الحكم الأموى، الذى ادعى أنه امتداد لدولة يثرب النبوية، بينما كان الواضح أمام الصحابة والتابعين والأتقياء، أن تلك

الأساليب الرومانية فى إدارة شئون البلاد تخالف القرآن الكريم مخالفات جمة وصريحة.

والمعلوم أن الأمويين قد حولوا دولة الخلافة إلى ملك وراثى عضود، لكن حتى يمكنهم الزعم بامتداد دولتهم لدولة الخلافة، تحايلوا بالمراسم الصورية والطقوس الشكلية، فكانوا يأخذون البيعة للملك الجديد ولو بالقوة وإسالة الدماء، كما حدث فى أخذ معاوية البيعة لأبنه الفاسق يزيد، وذبح حفدة الرسل بلا خشية ولاورع، وهو الأمر الذى لم يسلم من معارضة الصحابة والتابعين والأتقياء، وهى المعارضة التى قوبلت بعنف معلوم فى التاريخ العربى، هذا بالطبع مع مابات ظاهرا للجميع من اختلافات تأسيسى بين نظام ملكى قائم على قوة الحراب والسيوف يملك الأرض ومن عليها، وبين موقف القرآن الكريم من النظام الملكى، ومن الملوك الذى إذا دخلوا قرية أفسدوها.

وبين تراكم التناقضات بين النظام الجديد المعقد وبين العموميات المقدسة، أصبح الأمويون بحاجة لإلباس نظامهم لبوسا مقدسا، فقاموا يشترون الذمم ومن يمكنهم اختراع الأحاديث المنسوبة للنبى، تلك الأحاديث التى كانت تتضارب مع صريح الأيات وتخالف القرآن الكريم وروحه مخالفة بينة. ولم يتم ذلك إلا بعد أن دربوا الأجيال الجديدة التى لم تحضر الزمن النبوى، ومسلمى البلاد المفتوحة على قبول مبدأ قدسية السنة القولية، وهنا لمعت أسماء وظهرت فى أفق التاريخ الإسلامى مع رواية السنة القولية، ليس لها من مآثر كمآثر الصحابة الأوائل الذين كانوا وقوة الدعوة ونجاحها، وكل مأثرتهم أنهم كانوا رواة لأحاديث يقف وراءها كثير من الأغراض وبخاصة الأغراض السياسية، وتم إكساب السنة القولية قدسية الوحى حتى لاتقبل اعتراضا بحكم قدسيتها، ولم يعدم المعارضون الوسيلة فلجأوا لنفس الأسلوب كما فعل الشيعة مثلا، فقاموا يخترعون الأحاديث النقيضة ويوثقونها بالإسناد وبالتواتر، معارضة لما كان يفعله فقهاء السلطان والتشريعات السلطانية وهنا كانت بداية تقديس أمر لم يكن مقدسا.. السنة القولية...!!.

وواجهت الإدارة الإسلامية مشكلة أخرى، وجدت حلها عن طريق السنة القولية، فهى عندما نقلت نظم الإدارة الرومانية، رفضت أى مشاركة فى الحكم برفض مجلس السوناتو، وأصبحت دولة ثيوقراطية لاتملك هيئة تشريعية تسن القوانين، ومن هنا تم توزيع مسئولية التشريع والاجراءات الجزائية بين طرفين: الحكام الذين اخترع لهم رعاة شئون التقديس سلطة «التعزير» لإصدار الأحكام فيما لم يأت به نص قدسى واضح، ورجال

الحديث والفقه الذين قاموا على تفصيل التشريعات العامة بالسنة القولية، وتضافرت فوق رؤوس العباد ثلاث سلطات: سلطة النص، سلطة الحاكم، سلطة رعاة التقديس/ رجال الدين، لكن سلطة رجل الدين حينذاك كانت تبنى ويعترف بها على صحابيته أو تابعيته أو علمه وتقواه، ثم أضيف لها مدى تمطط ذمة بعض هؤلاء وفق مطالب السلطة السياسية، ومع الزمن أضيف إليها مع إنشاء الأزهر اليونيفورم المشيخى وشهادة التخرج الأزهرية، التى ظنوا بها أنهم ورثة السابقين لامتلاك السلطان على رقاب العباد حتى اليوم، وهو مايمثله قول الدكتور عبالعظيم المطعنى فى صحيفة عقيدتى بتاريخ ٢٠/ ٤/ ٩٩ وهو يفسر قوله تعالى: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» بقوله «إن المقصود بأولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم هم: **الحكام أو الأمراء ثم العلماء، يطيعون الحكام فى سياسة الدنيا ويطيعون العلماء فى شئون الدين**».

لكن على الجانب الآخر، وإبان محاولات توفيق الشرع مع الواقع الجديد المتغير بالفتوحات، كان هناك المخلصون من أبناء الأمة، العقلانيون، الذين لم يبتغوا عرض الدنيا ولا تاجروا بالدين، فقالوا رأيهم دون أن يخترعوا حديثا أو يكذبوا على رسول الله، قالوا رأيهم كرأى بشرى قابل للمناقشة والصواب والخطأ ولم ينسبوه للقرآن ولم يلبسوا أنفسهم عصمة ولاقداسة ولاطلبوا لأنفسهم الطاعة، فاحترموا الدين واحترموا أنفسهم واحترموا مصالح الناس ولم يتاجروا بفقههم لصالح السلطان، لكن تاريخنا كدأبه يعلن أن من اخترع ولفق ونسب للنبى هو الفريق الذى فاز بذهب المعز وجلس عن يمين السلطان، وأن من أخلص الغرض لله وللناس تم تبديعه وتكفيره لأنه لم يستمد سلطانه من الكذب على النبى وربه، وهو الفريق الذى اختفى من ساحة تاريخنا، ولم يبق فى ساحة هذا التاريخ سوى فقهاء السلطان الذين يطلبون الطاعة لأنفسهم مرافقة لطاعة الحكام والأمراء لأنهم أولى الأمر منا «؟!».

هذا ماكان عن الأسباب الموضوعية لظهور رواية السنة القولية وإلباسها القدسية فى واقع التاريخ العربى، أما تدوينها فله أسباب أخرى يتفق حولها الجميع، وهى تكاثر الكذب على النبى حتى تضاربت الأحاديث المروية عنه باختلاف الأغراض ومصالح السلاطين وسادة الفرق، حتى أن بعضهتناقض مع كتاب الله العزيز، ومع التكاثر الهائل فى الروايات المكذوبة، لجأ الخليفة التقى عمر بن عبدالعزيز إلى إصدار أوامره بجمع السنة وتدوينها، ومنع الرواية عن النبى بعد هذا التدوين، لوضع حد لهذا التراكم المتضارب المكذوب، لكن هذا التدوين لم يسلم من معارضة الأتقياء

الذين كانوا يعملون بأمر النبى عدم تدوين سنته حتى لاتتحول إلى مقدس بجوار المقدس القرآنى، وحتى قال الزهرى بلسان فصيح: «كنا نكره كتابه السنة حتى **أكرهنا** عليها هؤلاء الأمراء».

ولانتقول هنا جديدا، بل المعلوم لكل مهتم بالتاريخ الإسلامى وتراث الإسلام، عندما نؤكد أن تكاثر الحديث المكذوب قد جاء أولا، نتيجة اتساع رقعة الدولة بالفتوحات، ودخول شعوب مغايرة بنظمها وثقافتها تحت ربقة الحكم العربى، مما احتاج إلى تفاصيل أوسع من العموميات القرآنية، ومن ثم كان اللجوء إلى اختراع الأحاديث التى تتناسب والمطلوب للأوضاع الجديدة، هذا بالطبع مع أسباب تأسيسية معلومة، تتمثل فى انقسام المسلمين حول نظام الحكم/ الخلافة، الذى لم يأت به نص، فكان أن اخترع كل مذهب وكل فرقة أحاديث لبست القدسية لتأييد توجهاتها، وهو الواضح الجلى بين السنة والشيعة، والواضح أيضا أن تلك الاختراعات المكذوبة لم تكن تقصد وجه الله بقدر ماكانت لأغراض ومصالح دنيوية بحتة، وساعد على ترسيخ قدسية الحديث بمكذوباته أن القضاة فى ظل عدم وجود هيئة تشريع تمثل الأمة، وفئاتها ومصالحها، قاموا يستقون أحكامهم من اجتهاد أئمة المذاهب كل حسب المذهب الذى يشايعه، ومن الأحاديث المعتمدة لدى هذا المذهب، وبمرور الوقت تحولت تلك الأحاديث واجتهادات الأئمة الظرفية فى أزمانهم، إلى شريعة مقدسة رغم اختلاف شواهدها وأحكامها بين الفرق والمذاهب.

ووجه المشكلة هنا أن الحديث قد أصبح مصدرا من مصادر التشريع بجوار النص الأصلى «القرآن» إضافة إلى الإجماع والقياس، بل تم إلباس المصادر الأربعة قدسية القرار الإلهى رغم أنها جميعا إنسانية بشرية تتفق ومعارف الزمن الذى انتهى إليها وأقرها، فالقرآن الكريم رغم أنه النص الصحيح الثابت الأول، فإن من يفهمه بشر ومن يطبقه بشر، ومن الطبيعى أن يختلف البشر فى فهمه وتطبيقاته، فهو كما قال الإمام على لاينطق بلسان لكن ينطق به الرجال، كما أن فيه اجتهادا بشريا مسموحا به يتمثل فى اجتهادات الخليفة ابن الخطاب بشأن المتعة وسهم المؤلفة قلوبهم، وحد السرقة عام الرمادة.. الخ، والحديث قد علمنا بشأنه ماقد علمنا فهو لم يدون إلا فى القرن الثانى الهجرى، وتعرضت نصوصه للتحريف والتزوير ومعظمه أحاديث آحاد لاتصلح للتشريع الجماعى، وقامت فيه البشرية بدور واضح لايجادل فيه إلا صاحب مصالح مكابر، أما الإجماع فمختلف بشأنه هل هو إجماع الصحابة أم الفقهاء أم الأمة؟ وهو فى النهاية وعلى أى وضع، إجماع بشر غير معصومين غير مقدسين لايأتيهم وحى من

السماء، أما القياس فمستعار من الفيلسوف اليونانى أرسطو طاليس وله قواعد عقلية مقبولة فى بعض الأمور وغير مقبولة فى أمور أخرى تجاوزها الزمن بتجاوز القياس إلى الاستقراء التجريبى، وبمبادئ وقوانين هذا القياس نفسه المعتمد لدى العاملين بشئون التقديس، لايصح إسباغ القدسية على السنة القولية جميعا، فمن أهم أشكال القياس قاعدة تقول إنه إذا كذب الجزء كذب الكل، وإذا كذب البعض يصبح الحكم على الكل مجهولا، أى أنه إذا كذب حديث واحد فإن الشك وعدم اليقينية ينسحب بالضرورة على البقية، ولايمكن إصدار حكم إطلاقى بالصدق على كله أو بعضه. وهنا يطرح السؤال نفسه: إذا كانت مصادر الشريعة فى نهاية الأمر إنسانية فى مجملها، فلماذا تثبيتها بإلباسها ثوب القداسة؟ وإذا كان الإنسان ابن زمنه، وأن تقعيدات تلك الشرائع قد وضعت فى زمن يناسبها فما هى الحكمة فى تثبيتها بزعم قدسيتها وشموليتها لكل زمان ومكان دون مراعاة للمتغيرات؟.

وأضرب مثلا واحدا لنماذج ذلك الثبات المدهش، ففى قوانين الأحوال الشخصية لم يزل الطلاق عند السنة يقع لفظا حتى اليوم، فتحول اللفظ إلى كلام سحرى يتحول بمجرد نطقه إلى فعل مدمر يشتت أسرة ويهيل بنيانها هباء، وهو ماكان يقع لفظا فى الزمن القديم إلا لانتشار الأمية المعممة وعدم وجود العقود الضرورية فى دواوين وأرشيف يحفظها ويتابع نتيجتها ويعاقب على انتهاك بنودها، واليوم انتهى ذلك الوضع الجهول بواقع جديد، وزمن مخالف، ومع ذلك تصر تلك القوانين حتى اليوم على وقوع الطلاق لفظا فى فعل سحرى فتنتكس إلى مرحلة ماقبل الأديان، عندما كانت الألفاظ تحمل فى داخلها قدرات سحرية فاعلة.

هذا ناهيك عن كون أى قانون أو تشريع لاقيمة له فى نفسه بعيدا عن مصالح الناس، وتلك المصالح تتغير بتغير الظروف عبر المكان وبتغير الزمان، وقد وعى المذهب المالكى هذا الأمر مبكرا فقال إنه بالإمكان التخلى عن قاعدة تشريعية إذا تغيرت الظروف وتطلب مصالح الناس حكما مغايرا.

وهنا يلح موقف مشايخ الرقابة والتكفير والسلطان الكهنوتى الذين قاموا بهجمتهم العنترية على زميلتهم الأزهرية لطعنها فى صدق حديث المرأة ناقصة عقل ودين، ومثله حديث لايفلح قوم ولو أمرهم امرأة، وهو الحديث المعتمد فى الموقف المعلن ضد تعيين المرأة فى مناصب الولاية والقيادة والرئاسة، كمنصب القضاء مثلا، والإصرار على أن تغير الزمن لايعطى المرأة حق الولاية، هذا رغم علمهم أن حديث لايفلح قوم ولو

أمرهم امرأة قد رواه البخارى وقال إن الصحابى أبا بكرة قد تذكره عقب هزيمة فريق السيدة عائشة فى موقعة الجمل، وأن النبى كان قد سبق وقاله عندما آل عرش فارس إلى امرأة زمن الدعوة، وفى هذه الحالة أيضا نجد السادة العاملين بشئون التقديس يميلون كل الميل نحو التشدد والتعصب والوقوف صفا واحدا وراء حديث أبى بكرة هذا، رغم أن السيدة عائشة أم المؤمنين قد أخذت الولاية فعلا، وليس قولا ولا رواية قد تصدق أو تكذب، وقادت بنفسها الجيوش والمعارك وتحدثت للرجال فى شئون العلاقات الجنسية، فبأيهما نقتدى: بالحميراء وعنها يمكن أن نأخذ نصف ديننا كما نصح رسول الله؟ أم بأبى بكرة وموقفه السياسى المعلن بعد انكسار جيش السيدة عائشة؟ وهو الأمر الذى يستدعى التساؤل: هل يقف هذا التعصب الذكورى وراء موقف الدكتور إسماعيل حبلوش من زميلته العميدة وقوله إنها «المرأة العميدة التى لا يصلح حديثها إلا للمطابخ؟» والإصرار على نقص المرأة عقلا ودينا، ذلك النقص الذى أرجعه الدكتور عبدالعظيم المطعنى إلى مشاعر المرأة الرقيقة التى قد تجعلها تخطىء فى الحكم إذا تولت رياسة أو قضاء، بينما أرجعه الدكتور حبلوش لحيضها الذى يمنعها من أداء الفروض الدينية، فهل إذا بلغت المرأة يأسها وانقطع حيضها بلغت مبلغ الرجال وانتفى عنها نقص العقل والدين؟.

إذن المشكلة التى لم يرها كلا الأستاذين عفا الله عنهما أن الإقرار بنقض المرأة عن الرجل يترتب عليه الانتقاص من حقوقها، وهذا هو لب القصيد وجوهره.

ولاشك أن عدم رؤية هؤلاء الأزاهرة اللوامع لمكمن المشكلة الحقيقة، والإصرار على أحاديث مشكوك بأمرها من باب الإصرار على هذا الانتقاص الحقوقى، يؤدى إلى حزن عميق، على مناهج الرجال اللوامع، ويزداد هذا الحزن عندما تراهم يعلنون أنفسهم رعاة للمقدس وحماة له وولاة للأمر منا فى شئون العقيدة، وفى الوقت نفسه تجدهم فى غاية الضعف ومنتهى العى مع تهافت شديد فى المنطق، عند أول مناقشة عقلية لما تصوروه ثوابت أو زعموه كذلك، فقد أعلن هؤلاء السادة أن ماكتبناه حول معركتهم مع زميلتهم الأزهرية تهجم على مسلمات الأزهر ورجاله، وأننا ـ لا سمح الله ـ أعداء للإسلام كما صنفنا الدكتور محمد المسير، أو أننا من رواد مدرسة المشاغبين فكريا الجديدة كما وصفنا الدكتور عبدالعظيم المطعنى، لذلك وجب أن يشترك معنا قارئنا وينظر كيف تعامل السادة الأزاهرة مع ماطرحناه من نقاش حول مااختلفوا فيه مع زميلتهم العميدة، لإنكارها بعض الحديث وافتراض أنها من الموضوعات الغير

صادقة، لنعرف كيف يفكر رعاة التقديس فى بلادنا وإلى أين يمكن أن يصلو بالبلاد والعباد.

لقد سبق وطرحنا ماهجس به الخاطر فى شكل تساؤلات عن اعتقاد يقينى أن السؤال غير محرم فكان رد الدكتور حبلوش مخيبا لآمالنا فيه، فقد أشاح تماما عن كل التساؤلات المشروعة وأدلة مشروعيتها التى جئنا بها من صدور أمهات الكتب الإسلامية، وعن المنطق العقلى الذى طرحناه ليذهب إلى منطقة أخرى بعيدة يصرح فيها مولولا : «ماصلة هذا الرجل بالأزهر الشريف كى يتطاول على الأزهر بهذا الشكل، وعلى السنة النبوية الشريفة، لذلك اخترت له الطريق اللائق به: **المحكمة؟**».. هكذا لم يلتفت الرجل إلى المنهج والأدلة القواطع ووقف يحتج على تساؤلنا عن مدى عصمة الأزاهرة، وهل مايقولون وحى سماوى لايصح الاعتراض عليه أم قول بشرى تصح مناقشته وقبوله؟، أو ورفضه؟، إنهم لايقبلون المناقشة ولاالاختلاف، فقط يأمرون وعلينا الطاع كالخشب المسندة. ونعم قلنا إنه ليس فى القرآن ولا فى الحديث أزهر ولا رجال أزهر، فلماذا الإنزعاج من سيادته؟ وهل لديه مايرد به من آيات أو أحاديث ولو مخترعة؟ أم أنها عروش قد اهتزت لأنه قد آن لها أن تهتز؟.

لقد كنا نظن الحبلوش هزبراً برصيده من تكفير المفكرين وتدعير الفنانات والفنانين وبريادته للجبهة المنحلة، وتصورناه سيأتى بما لم يأت به الأوائل، وطمعنا فى قول يلجئنا لمزيد من الجهد والبحث والمثابرة بين كتب الأصول للبحث عن قول فصل، فإذا به يحرمنا متعة البحث بوفاضة الخالى، وإذا بسيادته مجرد ظاهرة صوتية إن جازت لتخويف العوام فهى لاتجوز معنا، وكشف الرجل نفسه فإن أنت أتيته بالسؤال بهت، وإن واجهته بالحق التجم، ولم يبق بيده سوى سلاح الإرهاب لإسكاتنا مستنفرا مئات ألوف الأزاهرة بندائه الملتاع: «وأطلب من الأزهر تحديد موقفه من هذا الرجل»!! متصورا أنه مع رعيله قادرين على إسكات أحد أو إخافة أحد، هكذا لم يرد الرجل على حجة ولابيان، وقال مايخلو من أى برهان سوى العصبية والتراجع والاعتصام بالمحاكم وبسلطان الأزاهرة الذى ليس بسلطان، ولم يبق إلا أن نقوله له قوله الشافعى: «آن للشافعى أن يمد رجليه».

هذا ماكان من رد الحبلوش الذى يملا الدنيا صراخا وضجيجا مملا، لكن هناك موقفا أكثر رصانة واحتراما قدمه الأستاذ جمال البنا إزاء ماقلنا «والمناسبة فإن السيد جمال البنا يتعرض لحملة مشابهة من العاملين بشئون التقديس بسبب بعض اجتهاداته»، فوافقنا الرجل فى كثير

مما قلنا ولم يلجأ للتهويش والترغيب والترهيب، وخالفنا فى بعض آخر وفى ذلك لامثلبة، لكن المثلبة تكون عندما يحرف الكلام عن مواضعه وهو يعلم، فقد احتج سيادته على قولنا إنه لم يصح عند أبى حنفية سوى سبعة عشر حديثا، ليستبدل الكلام ويقول: «فهل يعقل أن إماما من أئمة الفقه أو الإمام الأول فى الفقه لايعرف إلا ١٧ حديث»، رغم علم الأستاذ البنا الفارق العظيم بين «لم يصح عنده» وبين «لايعرف»، وبالمرة رأى الأستاذ البنا أن يفضح مستورنا وأن ماقلنا مجرد سرقة لأفكار من قبلنا بقوله: «وهذه الاتهامات التى أوردها القمنى فى حق أبى هريرة هى نفسها التى قالها منذ عشرين أبو رية»، لكن غريب أمر رعاة التقديس هو عدم اتفاقهم على أدلة الإتهام، لأن الدكتور المسير يرى أننا قد أخذنا ما قلنا عن الأستاذ أحمد أمين رحمة الله عليه فى كتابه «فجر الإسلام» وكان بدوره مثلنا لايريد بالإسلام خيرا!! أما الدكتور عبدالعظيم المطعنى المتفرد دوما بأقواله الباهرات، فلم يناقش شيئا مما طرحنا، وذهب يبحث عن مصادر سرقتنا للأفكار لإصابتنا فى مقتل، عندما أكد عثوره على مصدر تلك الأفكار، حيث وجدها فى «كتاب فى الحديث لرجل شيعى متطرف يدعى عبدالحسين» «!؟».. هكذا «!؟».. الرجل لم يملك ردا موضوعيا فلجأ للتشويه بالتهويش، واتهمنا دون دليل واضح ، فما اسم هذا الكتاب على وجه التدقيق؟ ومن هو هذا العبدالحسين وأين المقارنات النصية الثبوتية بين ماقلنا وبين ماقال ذلك البطل المجهول المتطرف؟ أبدا لم يشغل المطعنى نفسه بذلك، لقد ضرب ضربته العشوائية متصورا أنه قد أنهى الأمر بالقاضية، ثم استكمل أقواله لافض فوه شارحا: «ثم أضاف إليها القمنى بعض الاجتهادات الخاطئة التى تؤكد أنه لم يؤهل نفسه علميا للسباحة فى هذا المجال، فهو لايملك الأدوات التى تجعل بحثه مقبولا، وبما أنه **أحد رواد مدرسة المشاغبين فكريا**، التى تشكك فى الحديث النبوى، جعلته يتصدى الأدلة بلا دراسة ولاضابط، ورواد هذه المدرسة يجمعون على التشكيك فى السنة النبوية ويهونون من شأنها فيقولون إن عمر بن الخطاب كان يشعل الحرائق فى كتب الأحاديث، وأنها جمعت جمعا عشوائيا».

لابأس علينا إن وضعنا الدكتور المطعنى فى محل التلاميذ المشاغبين أمام أساتذة مؤهلين مثله، لأننا لانطمع فى أستذة ولا ولاية لأمر الناس، بقدر مايشغلنا هذا الوطن والعباد فى هذا الوطن، وإنى أقر له باستعدادى الدائم للتعلم ومراجعة أخطائى أينما وجدت والاعتراف بها، فلست ممن يزعمون لأنفسهم سلطانا على العباد، ولا أتباهى بقدسية أزهرية مزعومة،

ولاأتصورنى مالكا للحقيقة المطلقة لأن هذا هو الضلال المركب والجهل المبين، أنا فقط ياسيدى أطرح التساؤلات وأستفسر طلبا للإجابات وليس للتعالى وإطلاق الصفات المبتذلة والسخائم، راجيا العلم من رجال مثل الدكتور المطعنى المؤهل، لكنا للأسف لم نجد ردا، ولا تكذيبا واضحا بالبينات، ولا إدعاء بافترائنا أو كذبنا فيما أوردنا من أمهات المصادر الإسلامية، وكل ماسمعنا من سيادته وهو المعلم المؤهل، تشكيك غير حميد بكتاب مجهول لشخص مجهول، من باب التهويش الهش واللجاجة التى لا تليق بالأساتذة المؤهلين، وذلك كما فى قوله إننا قد قلنا إن السنة قد جمعت جمعا عشوائيا «؟!» المصيبة أن هذا السيد يعلم يقينا أننا لم نقل ذلك، بل هو من قال ذلك عندما قال إن البخارى لم يكن عشوائيا إنما كان يدون كل يوم حديثين، ولايدونها إلا بعد أن يستخير الله ويصلى ركعتين ولا يسجل إلا ماتطمئن إليه نفسه، فهلا يستطع الأستاذ المؤهل الاستنتاج من مقدمات حديثة؟ أم أن للعشوائية معنى خاصا لدى سيادته؟

ثم يتساءل الدكتور المؤهل الحجة قائلا: «إن الروايات التى قيلت عن أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يحرق كتب الحديث، إن صحت هذه الروايات فالذين قاموا براويتها هم الذين قاموا برواية الحديث، فلماذا تصدقونهم فى هذه الأخبار وتكذبونهم فى رواية الحديث».

هل أراد الدكتور بهذا الكلام إفحام أحد؟ ربما!! لكن ألم يلحظ سيادته أن الذين أخذوا بأحاديث النبى ويأمره بعدم تدوين السنة، وصدعوا بها وأطاعوها هم الخلفاء الراشدون وليس نحن، وأن من حرق الحديث هو أبو بكر وعمر وليس نحن، وأننا فقط ذكرنا الأحداث التى تخفونها عن الناس كى لاتنقص من سلطان ولايتكم عليهم، ولم نحدد موقفنا بالاتفاق معها أو الوقوف ضدها، إنما طرحنا الاستنتاج العقلى والشرعى المقبول من وجهة نظرنا، إننا لم نفعل سوى تسجيل وإعلان ماتخفونها عن جماهير المؤمنين يا ولاة الأمر منا، وأن ماذكرناه يشكك فى الأهداف التى كانت تقف وراء جميع الحديث وتدوينه رغم نهى النبى عن ذلك؟ وإبراز منطقية أن المكذوب فى الحديث يؤدى للشك فى بقيته، والشك ياسيدى من الإيمان، إيمان المؤمن الكيس الفطن، وإن صدقنا أحاديث النهى عن التدوين فقط صدقنا أحاديث نبوية صدقها أجلة الصحابة والتابعين، ولم نعادى الذين صدقوا أحاديث السماح بالتدوين ولا كفرناهم ولابدعناهم كما تفعلون مع الذين صدقوا أحاديث النهى عن التدوين، وهم لايصدقوها إلا لورودها بالصحاح والمسانيد ولم يخترعوها وينسبونها للنبى كذبا كما يفعل البعض ، لذلك فموقفهم أكثر احتراما للدين ولمصالح الناس لأنه

لايبغى مصلحة ولا سيادة ولا ولاية أمر على العباد ولاتحالفنا مع السلطان، بينما موقفكم ياسيدى تفوح منه روائح كثيرة تصرون فيها على إعمال أحاديث السماح بالتدوين، وتبديع من يصدق أحاديث النهى عن التدوين ومهاجمته وتسفيهه، أنتم أيها السادة لازلتم مع معاوية ويزيد ضد الراشدين، مع السلاطين ضد مصالح الجماهير، مع الأحاديث بمكذوبها ضد القرآن الكريم، والمشكلة ياسيدى المؤهل ليست فى الأخذ بأى من المبدأين: التصريح بالتدوين أو النهى عنه، المشكلة فى تكفيركم الأختيار والأخذ بأحاديث النهى عن التدوين وهى أحاديث وليست آيات شيطانية، لأنكم تريدون السنة القولية سيفا مسلطا فوق رؤوس العباد لتكونوا أنتم سدنته وأنتم الجلادون بواسطته، وأنتم الحكم والقاضى والمشرع والمنفذ، وهو الموقف الذى أبدعتم فيه وأظهر تموه واضحا، فى هجمتكم على زميلتكم الأزهرية التى رفضت حديث المرأة ناقصة عقل ودين، وعقوبة رجم الزانى المحصن لعدم وجودها بالقرآن المدون.

المسألة ياسيدى الدكتور المتعالى بعلمه على التلاميذ الضعاف من أمثالنا، فى التناقض الذى لابد أن يفضى منطقيا إلى إنزال السنة من على مقعد التشريع السلطوى إلى مقعد المناقشة والتفنيد، بما تقتضيه مصالح البلاد والعباد، مع المتغيرات التى فرضها الزمن بعد مضى مئات العقود، لأنها لو كانت جميعا وحيا إلهيا فإنها تعنى تناقض الكامل مع نفسه وتضارب قراراته، كما تعنى أن أحد القرارين صائب وأن الآخر باطل، لكننا بالطبع سنميل كل الميل مع ماأخذ به الراشدون والصحابة والأتقياء حتى لو انتقض ذلك من سلطانكم، وهو الموقف العقلانى المجرد عن المصلحة والهوى ودون المشاغبة مقصودة، بل هى قلوب مؤمنة تريد الإطمئنان لطوية ذلك الإيمان، ويشغلها مصير الوطن إزاء تحجر المفاهيم مع أحاديث تمنع المرأة «كمثال» من الولاية استنادا لقدسية السنة القولية.

ثم يتابع الأستاذ المؤهل فيقول: «نعود لجزء من مقال القمنى الذى يدل على أنه ليس أهلا للتحدث عن نقد الحديث، حيث أنه استشهد بآية قرآنية يدعى أنها تدعوا إلى عدم الأخذ بحجية الحديث، منا: فبأى حديث بعده يؤمنون/ الأعراف/ ١٨٥، وقوله تعالى: اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء، فهو أوهم القراء بأن القرآن الكريم ينكر الإيمان بحديث رسول الله مع أن الآيات تنهى عن إتباع غير شريعة الله وماأنزل على رسوله، فالخطاب فى الآيات إلى الذين تركوا عبادة الله وعبدوا الأوثان».

والأن نحاول أن نفهم: عندما سبق واعترضنا على القاعدة الفقهية

لقائلة إن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب، قام الأزاهرة ولم يقعدوا حتى حاكمونا بمحاكم الدولة ضمن طلبهم محاكمتى عن كتابى «رب الزمان»، لكن انظر معى تلون الشيخ حسب الظروف وهو يعود فيلجأ إلى خصوص السبب ولا عموم اللفظ، أليس ذلك بتلون غير حميد ولون من التحايل لرد فهمنا المعمم للفظ الأيات؟ حيرتمونا يا أزاهرة: هل أنتم مع العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب، أم مع العبرة بخصوص السبب وليس بعموم اللفظ.

وحتى نغلق ملف هذه المناقشة تبقى ملاحظات تحتاج إلى إيضاح، أساء فهمها السادة الأزاهرة، الذى شمروا عن سواعدهم ليضربونا ضربة رجل واحد، فنحن أبدا لسنا من منكرى السنة، فمناقشة ماحدث والمسكوت عنه والمخفى عمدا لوضع الأمور فى صحيح نصابها، حتى لاتكون لبعض الأحاديث سلطة تعوق المجتمع، ليس إنكاراً للسنة، بل فهما لها فهما واضحا يرفع كثير من الإلتباسات التى تسمح لمفسرى الحديث من الكهان بأن يكونوا أولى الأمر منا ضد مصالح الوطن.

وأيضا نحن لسنا مع غربلة الحديث التى تدعو إليها الدكتورة آمنة نصير والأستاذ البنا، فكفانا غربلة، فقد غربلنا ثقافتنا القديمة وألقينا بتاريخنا الحضارى العظيم ولغاتنا الشرقية القديمة فى البحر، ولم نبق سوى الثقافة العربية الإسلامية وحدها، ثم غربلنا ثقافتنا الإسلامية ولم نبق منها سوى ثقافة المذهب المنتصر حليف السلطان، واستبعدنا ما عداها وكفرناه وبدعناه، وغربلنا ثقافة مذهبنا واستبعدنا الاتجاهات العقلانية «كالمعتزلة مثلا» وبدعناها وكفرناها، وأبقينا الحفريات المحنطة وحدها طاعة لأولى الأمر منا. كفانا غربلة أيها السادة فبقاء الحديث على ماهو عليه مساحة عظيمة للدرس العلمى وقراءة للواقع زمن التدوين وفرز للتيارات السياسية، وكيف كان الناس يفكرون وكيف كانت تدار شئون السياسة والاقتصاد والمجتمع، إنه نافذة مهمة على الماضى لفهمه وفيه للباحث زاد ومادة بحثية غنية وثرية. أما تسليطه تشريعا فوق رؤوس العباد فهو الأمر الجدير بإعادة النظر، ويحق الكلام فيه لكل من يمتلك قدرة الرؤية، لمناقشة مساحة النفع والضرر وحاجة الوطن اليوم، خاصة إذا رام ذلك من لايبتغى سلطانا ولانفعا ولامصلحة سوى مصالح الناس والوطن التى حيثما تكون فثم وجه الله.

أما المناقشة السريعة التى سقناها لأقوال الأزاهرة اللوامع الذين يزعمون رعاية المقدس وحمايته، بحسبانهم المقصودين بطاعة أولى الأمر منا، فقد كشفت مدى تهافت أقوالهم ولجاجتها وعدم مصداقيتها، مع

إصرارهم على مواقفهم الثابتة حتى لو ظهر خطؤها، وإن هذا التهافت ليدفع للتساؤل: ماذا لو تعرض الإسلام حقا لهجمات فكرية تريد به شرا، وليس مجرد مناقشة من مسلم مثلهم، ماذا هم فاعلون؟.

إذا كانت هذه كل ممكناتكم أيها السادة فقد أحزنتمونا كثيرا، وتركتم كل شيء عاريا من كل حماية، لذلك لم يبق ما نقول مع أسمائكم اللوامع وهديركم الزاعم رعاية المقدس وحمايته سوى:

استقيلوا يرحمكم الله.. ويرحمنا.

ومن الجهل ماقتل « !؟ ».. (*)

(*) تم إرساله إلي مجلة روز اليوسف ولم ينشر.

تعقيب

قام الدكتور مصطفى محمود بتبنى أفكار مجموعة الموضوعات السوالف بدءاً من موضوع «جنود الله والإفراط فى التقديس» بل ونقل منها بالنص، وذلك فى عدد ١٢ يونيو ١٩٩٩ من الأهرام القاهرية، وأثار زوبعة كبرى لم تزل قائمة حتى طباعة هذا الكتاب، وعندما استنسخ سيادته ماكتبنا لم يراجعه فى مصادره، حتى أن ماوقع أثناء نشر هذا الموضوع بروز اليوسف من أخطاء طباعية قام سيادته بنقله حرفيا بنفس الأخطاء، ونموذجا لذلك ماجا فى حديث أبى هريرة «فى تقييد العلم ص٣٢»: «فجمعنا ماكتبناه وأتلفناه أو قال فأحرقناه» وقد سقط منه «وأتلفناه، أو قال»، فنقلها الدكتور مصطفى كما أخطأنا فى نشرها.

وللقارئ هنا أن يراجع الموضوعات، وأن يقرأ معنا قسما ممانشره السيد الدكتور فى العدد المشار إليه بالأهرام، نعيد نشره للمقارنة، داعين الله للسيد الدكتور بالسلامة فى معركة لانعلم مدى ذخيرته العلمية فيها.

وهذا ماقاله د. مصطفى محمود:

ليس إنكارا للسنة

القرآن هو خزينة العلم الإلهى القديم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه وهو العمدة فى كل حقائق الدين والمرجع الوحيد فى أمور الغيب والحساب والقيامة والآخر.. أنزله الله الذى ليس كمثله شىء فكان على مثاله كتابا ليس كمثله كتاب.. لا يرتفع إلى ذروة مصداقيته كتاب ولايبلغ مدى حجيته مقال فهو منفرد فى صدقه وإحاطته وإعجازه.

أما السنة القولية التى جمعها رواة الأحاديث عن الرسول الكريم فقد جمعها ودونها بشر مثلنا غير معصومين نقلوها عن بشر آخرين غير معصومين فى سلسلة من العنعنات عبر عشرات السنين «لم تدون الأحاديث إلا من بعد زمن الخلفاء الراشدين على أيام سلاطين القصور».

وقد أجمع رواة الأحاديث على أن النبى عليه الصلاة والسلام قد نهى عن تدوين الأحاديث وجاء هذا النهى فى أكثر من حديث لأبى هريرة وعبدالله بن مسعود وغيرهم.. وفى كلمات أبى هريرة.. يقول فى قطعية لاتقبل اللبس.. خرج علينا الرسول ونحن نكتب أحاديثه فقال ماهذا الذى تكتبون.. قلنا أحاديث.. قلنا أحاديث نسمعها منك يارسول الله.. قال.. أكتاب غير كتاب الله.. يقول أبو هريرة فجمعنا ماكتبناه وأحرقناه بالنار.

وأبو هريرة نفسه هو الذى قال فى حديث آخر «بلغ رسول الله أن أناسا قد كتبوا أحاديثه فصعد المنبر وقال.. ما هذه الكتب الذى بلغنى أنكم قد كتبتم، إنما أنا بشر فمن كان عنده شىء منها فليأت بها.. يقول أبى هريرة.. فجمعنا ماكتبناه وأحرقناه بالنار».

وهو نفسه صاحب الحديث المتفق على تواتره «لاتكتبوا عن غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه»، وفى رواية لأبى سعيد الخدرى قال.. استأذنت رسول الله «ﷺ» أن أكتب فأبى أن يأذن لى..

أما عبدالله بن عمر فقال.. خرج عليا رسول الله «ﷺ» يوما كالمودع وقال.. إذا ذهب بى فعليكم بعدى بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه «انظر مسند ابن حنبل».

وأبو بكر أول الراشدين روت عنه ابنته عائشة «جمع أبى الحديث عن رسول الله وكان خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيرا فلما أصبح قال، أى بنية هلمى بالأحاديث التى عندك فجئته فدعا بنار وأحرقها «انظر الذهبى تذكرة الحفاظ ج١ ص٥».

أما ثانى الراشدين عمر بن الخطاب.. فقد صعب المنبر وقال.. «أيها النناس بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب فأحبها إلى أحسنها وأقومها فلايبقى أحد عنده كتاب إلا أتانى به فأرى رأى فيه «ظن الناس الذى كتبوا عن رسول الله «ﷺ» أنه يريد أن ينظر فيها فأتوه بكتبهم فجمعها وأحرقها.. وقال.. «أهى أمنية كأمنية أهل الكتاب».. ثم كتب الأمصار «من كان عنده من السنة شىء فليتلفه»، «انظر بن حزم. الأحكام ج٢ ص١٣٩».

وكان خوف عمر أن يحدث ماحدث لأهل الكتاب من تأليه الأنبياء وتقديس كلامهم فيتحول مع الوقت إلى وحى له شأن الوحى الإلهى وكهنوت كما حدث فى الأديان الأخرى.. ثم كان الخوف الأكبر من الأحاديث الموضوعة والمدسوسة والاسرائيليات.. وليس أدل على هذا الخوف من أن البخارى لم يدون من ربعمائة ألف حديث جمعها إلا أربعة آلاف حديث فقط وهو نفس الخوف الذى كان فى قلب أبى حنيفة الذى لم يصح عنده سوى سبعة عشر حديثا من مئات الألوف.

وإذا كان هذا الشك والخوف عند الأكابر.. فمن الطبيعى أن يكون عندنا أضعاف هذا الخوف وألا نقبل من الأحاديث ماناقض القرآن الكريم ليس إنكارا للسنة ولكن غيرة على السنة وخوفا عليها من الوضاعين والمتقولين الذين قولوا الرسول «ﷺ» مالم يقل.. إنما نحرص على تنقية السنة من كل دخيل عليها.

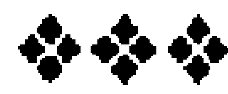
وفى سورة الأعراف الآية ١٨٥ يقول رب العزة والجلال عن قرآنه «فبأى حديث بعده يؤمنون».

وحرص النبى «ﷺ» على إحراق كل ما كان يكتب من أحاديثه باعتراف أبى هريرة نفسه واعتراف الأكابر من رواة الأحاديث، ومافعل أبو بكر وعمر بإحراق ماوصل إلى أيديهما من أحاديث الرسول هو أكبر دليل على استنكار النبى وخشيته وخوفه من أن تتحول هذه الكتابات إلى متاهة من التقولات والاختلافات ومانكتبه الآن هو السنة بعينها وليس إنكار السنة.. إنما نخاف ماكان يخافه رسول الله ونخشى ماكان يخشاه.

وفى سورة الأعراف أيضا الآيات ٢، ٣

«ابتعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون».

«انتهى الاقتباس من الدكتور مصطفى محمود»



أما الدكتور عبدالعظيم المطعنى فقد رأى فى هذا التطابق بين ماقلنا وبين ما قال الدكتور مصطفى محمود مؤامرة من جانبنا نستغل فيها الدكتور مصطفى ونوعز له بها خفية، وهو ماجاء فى صحيفة منكورة تدعى الحقيقة بتاريخ السبت ٣/ ٧/ ٩٩ صفحة ٩ تحت عنوان: «الإسلام هو القرآن والسنة وإنكار أيهما كفر..!!»، وهذا بعض ماقاله الدكتور المطعنى النابه فى حق زميله على نفس الأرض والملعب، انظره يقول بعبقرية يحسد عليها: «لقد علمت أن الدكتور مصطفى محمود يتردد عليه منكرو السنة ويزودونه بهذه الخرافات التى لايدرى عنها الدكتور شيئا، بدليل أن يصدر رأيا فى مسألة ثم ينفيه فى الأسبوع الذى يليه، بعد أن يعود إليه لأن منكرى السنة يذهبون إليه ويمدونه بالشبهات الباطلة فيقولها بحسن نية، كما قال فى المقال الأخير أن السنة كتبت فى قصور الأمراء وهذا ماردده صبحى منصور ود. سيد القمنى، واعتمده الدكتور، **فهؤلاء زناديق** يجب ألا يسمع لهم الدكتور لأنهم يستغلون مصداقيته وثقله سلاحا لضرب السنة وتشكيكا فى المصدر الثانى من مصادر التشريع فى الإسلام، وهذه الفئة الضالة تستغل الدكتور الذى يفعل ذلك بحسن نية،

لذا فنرجوا لنا وله الهداية، وأن يبحث فى أى قضيـة يريد إثارتها مع المتخصصين ويتعملق فيها قبل أن يخرج بها إلى الناس».

فهل رأيتم مثل هذا اللبيب لبيبا؟!.

إبان الفترة الإنتقالية من اقتصاد ملكية الدولة لوسائل الإنتاج إلى اقتصاد السوق، وحاجة البلاد إلى هدنة سلامية تسمح بإعادة بناء بنيتها التحتية المنهارة بالكامل، فى فترة ضعف وهشاشة بعد حروب مدمرة استنفذت كل ممكناتها، ظهرت الفتنة المسلحة المتشحة برداء الإسلام تزيد الأمر سوءا وتنشر الإرهاب الدموى فى البلاد، وتضرب مقومات الاقتصاد فى مقتل وتسقط هيبة الدولة أمام مواطنيها وأمام العالم، وتشكك رؤوس الأموال العالمية فى إمكانية الاستثمار فى بلد غير مستقر أمنيا..

وهى الفترة التى عاشها جيل السبعينات ليرى وطنه يتغير فجأة وبالكلية، حتى علم البلاد ورمزها تغير، ونشيدها الوطنى تغير، واقتصادها انقلب من ملكية الدولة إلى ملكية الأفراد، وتفككت تحالفات دولية وإقليمية، وتحول أعداء إلى أصدقاء، ومع كل هذه التحولات كان هناك أمر عجيب مستمر، فبعض رجال العهد الماضى حماة الاشتراكية المزعومة الثوريين يصبحون من أهم رجال العهد الجديد، هم هم بذواتهم، لكن بعد أن غيروا جلودهم، ورجال الإعلام بذواتهم يتكسبون من المرحلتين بنفس الشخوص مع استبدال الأقنعة واختلاف الخطاب، وقاموا يعلنون لشباب السبعينات أن كل مابثه الإعلام السابق فى عقولهم وأرواحهم كان هو الخطأ بعينه، وأن الجديد فقط هو الصح التمامى، ومن ثم كان على هذا الجيل أن ينقلب على نفسه، أو أن ينفصم، أو أن يكفر بكل شىء، لأنهم لم يحظوا أبدا بتفسير واضح مقنع لم يحدث، فدولتنا بين بلاد العالم هى التى لاتصارح شعبها أبدا بالحقائق، وهى الوحيدة التى لم تفتح حتى الآن ملفات الماضى لتدارس أخطائه أو على الأقل لتبرير تحولات الحاضر، وكانت النتيجة مروعة، فقد اتجه بعض هذا الجيل نحو الثابت الذى لايتغير الذى هو خير وأبقى، شرع الله الذى شرع الجهاد فريضة، وكانن من ماكان من إرهاب دموى مدمر.

وهكذا وبدلا من أن تصارح الدولة شعبها بما حدث وبمبررات مايحدث فى الدنيا من تحولات، وأن تعترف بمشاكلها بصراحة وتطلب من شعبها أن يشاركها هذه المشاكل وحلها عن قناعة وإيمان، ظلت الدولة تعزف أناشيدها الوطنية، وتمجد العهدين النقيضين، وتمارس القرارات الفوقية وهى فى أدنى مستويات الضعف والهوان، رغم أن المصارحة والمكاشفة كان يمكن أن تضع كل أبناء هذا الوطن فى مصهر واحد، وهو طبع مصرى

معلوم عبر التاريخ، لكننا لانقرأ التاريخ، وكان بالإمكان أن يكون البناء الجديد هو المشروع القومى البديل الذى تلتف حوله الجماهير.

ومع سياسة التوارى والتغطية والإخفاء أدرك العاملون بشئون التقديس مع رجال الدين المحترفين، دون حاجة لذكاء كثير، مدى ضعف موقف الحكومة واحتياجها للتبريرات الشرعية الأحاديث الغيبية وصرف الناس إلى النعم الأخروية، أدركوا مدى حاجة الحكومة إلى تغطية مناسبة إبان التحولات بدلا من المصارحة الشعبية والاعتماد على الجماهير، بل وتم طمس وعى تلك الجماهير وتغييبه وصرفه نحو العلم والإيمان الذى لاهو علم ولا هو إيمان، وإغراقه فى الشعوذات وعالم الجن والعفارين والصحوة الإسلامية، بدلا من إعلاء هذا الوعى بالمصارحة وطلب الجماهير للمشاركة لإنجاز التحول بأقل قدر ممكن من الكبوات.

ودرس التاريخ يحدثنا بطوال فصوله عن فحولة أهل التقديس قدرتهم على الوصال مع أهل الحكم والسلطان عبر تاريخنا التليد، وفى مقابل تأييد العمائم للدولة فى مرحلتها الانتقالية وصراعها مع الإرهاب المسلح، قام أهل التقديس يقتنصون كل المساحات الممكنة فى فرصة قد لايجود بها الزمان مرة آخرى، حتى اجترأوا على ماكان غير ممكنا، فنزلوا ساحة السياسة بعقلية القرون الوسطى، ودون زاد علمى أو حضارى ولا أى ذخيرة معرفية تناسب العصر أو حتى تتعرف على منجزاته. واستولوا على أوسع المساحات فى الإعلام والتعليم فأظلموها وأغلقوا كل نوافذ الحريات، بل وجسوا نبض الدولة فوجدوه ضعيفا فاستمرأوا تشريع ماهو ضد القرارات والمصالح الكبرى، لإثبات وجودهم كسلطة سياسية موازية وإثبات إمكانات استقلالية قرارهم كى يكونوا هم المرجعية وليسوا مجرد المبررين التابعين، وبهذا الصدد يكفى أن نتذكر فتاوى المرحوم جاد الحق شيخ الأزهر بشأن البنوك وختان الإناث وتحديد النسل.. إلخ.. ثم نتذكر كيف امتد الوصل والوصال الخفى إلى الأيدى القذرة الملوثة بالدماء الزكية، عندما أفتت جبهة علماء الأزهر بكفران فرج فودة، وتم التنفيذ الفورى باغتيال الرجل بهذه الفتوى، وهى الفتوى التى دعمها المرحوم محمد غزالى بطلب من المحكمة بناء على طلب الدفاع «!؟» وسفهوا سياسة وزير التعليم ووزير الثقافة، وصادروا والكتب عيانا بيانا، ودعروا الفن وصادروه، وكفروا نصف الأمة من المسيحيين فى كتب بالمئات ملأت أرصفة الشوارع، فى حملة قادها المرحوم الشعراوى فى تليفزيون الدولة يكفر فيها المسيحيين المصريين تحت سمع الدولة وبصرها دون أن يجرؤ أحد فى الدولة كلها على أن يقول له: إستح مما تصنع ياامولانا.

وكعادة الدولة فى عدم المصارحة لسؤ ظنها بشعبها، استمر الكذب، وأصبح الأرهابيون مجرد قلة منحرفة ابتعدت عن صحيح الدين، وأن سبب الإرهاب ليس من سياسات الداخل لكنه دسيسة أجنبية ومؤامرة دولية، وكان أبرز مثل للمأساة أو إن شئت «الملهاة السوداء» موقف الإعلام إثر مجزرة الأقصر الرهيبة، فبدلا من أن يقدم للمواطنين صورة واضحة تشرح حجم الكارثة وأثرها الاقتصادى على كل بيت فى مصر، ومدى المصيبة التى لحقت بالبلاد، ليهب الناس فى وجه الإرهاب دفاعا عن أرزاقهم، قام إعلامنا يعلن يوميا ويردد بغباء ببغائى منطقع النظير عن كون الحادث بلا تأثير يذكر، ويحدثنا عن حجم الوفود السياحية القادمة أفواجا من بلاد الفرنجة متطوعين لأجل عيون مصر، بدليل أن الفنادق «كومبيلت»، وكل شىء تمام، بعد أن جعلت مجزرة الأقصر عامنا عاما للوفود، باحتشاد السائحين بمطارات العالم يتلهفون زيارتنا ليقدموا أنفسهم ذبائح لأجل عيوننا، وفى الوقت نفسه، وعلى الخط الموازى، بدأت دعوة المصريين بأجور منخفضة لملء الأماكن الشاغرة بالفنادق التى ينعق على خرابها البوم، فهل ثمة سياسة فى الدنيا كتلك؟ فى دولة تعيش مرحلة انتقالية مأزومة!!.

ولأسباب لازال بعضها خفيا، وصار بعضها معلوما، انحسرت مؤقتا موجة الإرهاب الدموى، لكن مع إصرار الدولة على منهجها، ولأن رجال الدين المحترفين ذوى عيون ثواقب، فقد وجدوا الفرصة سانحة للأستيلاء على بقية المساحة الشاغرة التى غادرها الإرهاب. أما الدولة التى كان يجب أن تستشعر قوتها وتبدأ فى تحكيم القانون فى البلاد، وضبط الشارع المنفلت وضرب الفساد المستشرى، وتغيير سياستها التعليمية، والإعلامية، بما يتفق وسياسات اقتصاديات السوق والمبادىء الديموقراطية، ظلت الدولة على حالها، واستمر إرهاب آخر يعلن العصيان على توجهات الدولة عبر صحف تملكها الدولة وتديرها الدولة، ويكفى أن نلقى نظرة على بعض أعداد صحيفة عقيدتى، أو صحيفة اللواء الإسلامى، التى يصدرها الحزب الوطنى الحاكم، أو حتى ماتسمى بالصحف القومية مثل الأهرام وكبار كتابها وكيف يفكرون مثل الأستاذ فهمى هويدى أطال الله فى عمره ومد فى أجله.

ولعل الأسباب الواضحة لهذا الذى يحدث فى الإعلام والتعليم أنه ترك مساحة الإعلام والتعليم خلال الحقبة الأنتقالية كاملة للفكر المتطرف حتى تربع فيها وأفرخ وتوالد، وأثناء ذلك تمت برمجة عقول الناس على أحادية الفكر والرأى، بواسطة مثقفى الدولة «إن إجاز تسميتهم مثقفين».

الذى لايجيدون سوى فن التملق والارتزاق، ولايملكون من زاد المعرفة شيئا ولو يسيرا، لكنهم يجيدون حقا وصدقا كل فنون الفاشية الملازمة للجهالة والفكر المتخلف والإرهاب الفكرى بكل فنونه، حتى أمسينا بحاجة ماسة وفورية إلى إعادة تغيير شامل، وليس فقط للوجوه والشخوص، إنما إصبحت الحاجة ماسة إلى وضع برامج جديدة متكاملة، ومصر غنية بأبنائها ولم تزل ولادة دوما.

وعند محاولة إصلاح الخلل لم يتم ذلك بشكل علمى مدروس، ونموذجا لذلك ماحدث إزاء صدام جبهة علماء الأزهر التى تضم كبار الفاشيين، وزعيمهم الشيخ حبلوش المكفراتى، مع الإمام الأكبر للأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى، فتلك الجماعة لها ملف عظيم من المخالفات الكفيلة بحلها بشكل قانونى، لخروجها عن القواعد المنظمة والمسوغة لوجودها كجمعية، ومع ذلك لم يهتم أحد ببذل هذا الجهد البسيط لإدانتها وحلها بشكل قانونى، إنما تم إستصدار قرار سيادى بحلها من محافظ القاهرة.

(الباقى بالكتاب ص٢٩٢ بدءا من الفقرة الثانية»

ثم يستكمل المطعنى ليضرب تحت الحزام غامزا من خلل وفساد بقوله: إن هذا القضاء «يعيد التوازن إلى الحياة ويقضى على كل فساد إذا رفع إليه الأمر».

وهو مايعنى أن من اتخذوا قرار الحل فيهم خلل وفساد محرضا الجبهة مناديا: «وعلى جبهة علماء الأزهر.. أن تزيل العقبات من طريقها.. وألا تخشى بعد ذلك فى الحق لومه لائم، وعليها أن تواجه تلك الحملات العلمانية الضارية».

هذا ما كان من فرحة المطعنى أسعده الله وجعل أيامه كلها مرحا، لكن لتنظر معى كيف يفكر زعيم الجبهة الشيخ حبلوش، وكيف يعبر بفكره عن منهج تلك الجبهة فى مثال يخصنا عقب به علينا قائلا: «إنى أرى فى المسارعة إلى منازلة المبطلين ترويعا لهم وتشريدا لمن خلفهم.. وينبغى أن يشعر هؤلاء الآثمون فى منازلتنا لهم بحقارتهم وهوانهم على الأمة، ويجب أن يفزعوا بحرارة إيمان المؤمنين وإتقاد يقين المؤمنين... فسلاح القذف ولغة الدمغ هى الأسلحة الثقيلة التى لايصلح غيرها لمنازلة المجرمين الجاحدين».

هكذا يرى الحبلوش نفسه وفريقه هم المؤمنين متقدى الإيمان وهو زعيم هذا الأتون الملتهب، ومن خالفهم من الآثمين، وأن على الحبلوش وجماعته المتقدة واجبا جهاديا مقدسا لأنهم مبعوثى العناية الإلهية بموجب توكيل إلهى للتفتيش فى ضمائر الناس ومحاكمتهم سبهم علنا

وإصدار الأحكام عليهم وتنفيذ هذه الأحكام، فهل ثمة فاشية أروع من فاشية الحبلوش؟.

وبطيب أصله ومنبته يقول لى حسبما أدبه أهله، وما أطيب ريح فمه إذا يقول: «وهو الملعون بلعنة الله... والملعون مطرود من ساحة الرحمة، فينبغى أن يعامل معاملة الأجرب الحقير، فكيف بهذا الملعون إذا جمع إلى حقارته ووضاعته التجروء على الله علانية والهزء بدينه صراحة.. إنه فى الحقيقة أمره جماع الأخلاق السافلة والطباع اللئيمة الذى يجعل صاحبه قرينا لأخس الحيوانات قيمة وقدرا فى هذا الوجود»/ انظر كتاب الآيات البينات لما فى أساطير القمنى من الضلال والخرافات.

ولو تساءلنا كيف تجرأ شخصى المتواضع على الله ودينه فإننا نجده يجيب فى صحيفة حزبية لاتستحق ذكر اسمها هنا فى تصريح صحفى نشر بتاريخ ٨/ ٥/ ٩٩ تعقيبا على ماكتبنا بروز اليوسف حول حد الرجم، يقول الصحفى «إن جاز تسميته صحفيا»: «وكعادته فى الغيرة على الإسلام ومعتقداته يشن الدكتور يحيى إسماعيل حبلوش هجوما شديدا على القمنى بقوله: سيد القمنى يفترى على الإسلام والأديان السماوية بدوافع خبيثة، وأنا راض بحكم العامة والخاصة فى كلام القمنى لنعرف مدى تطاوله على المعتقدات. ففى كتابه قصة الخلق ص٧ يقول: عندما كان المجتمع فى الابتداء مشاعا كانت أرباب السماء فى متعة الشيوع تمرح.. أيصلح هذا الكلام أن يصدر من رجل ينتسب إلى أى دين فضلا عن أن يكون منسوبا إلى الإسلام؟ وفى نفس الصفحة يقول: عندما تم تقسيم العمل على الأرض تحول مجتمع السماء إلى آلهة شغيلة، فهل هذا يليق بمسلم يعد نفسه من المفكرين؟ فالقمنى صاحب باع طويل فى أزدراء الله تعالى والسخرية من الأنبياء والتهوين من الفاحشة، لذلك لانستغرب تطاوله وإنكاره لحد الرجم».

وهكذا اختلف الرجل معنا بشأن ماقلنا بروز اليوسف عن حد الرجم وهكذا جاءت لغته، لكنه أبدا لم يناقش شيئا مما قلنا، فالرجل بضاعته من المعرفة قليلة، وزاده من الأدب الرفيع واضح، لذلك ترك الموضوع كله واهتم بتكفيرنا بأى أسلوب. فذهب لكتابى «قصة الخلق/ منابع سفر التكوين» يأخذ منه أدلة التطاول على الله «!!؟» الرجل لم يرد على ماقدمنا من مصادر من أمهات الكتب الإسلامية فى موضوع الرجم، أو هو لم يجد مايرد به، ولم يجد لدينا كذبا أو إفتراء، فذهب لكتاب قديم من كتبى حول أساطير الرافدين القديم ليصور للناس أننى أتحدث عن رب الإسلام..

هكذا يختلفون، ومن خالفهم ولم يستطيعوا معه حجة كفروه ولو بالتزوير والتدليس، ليس لأن الناس كذلك، ولكن لعجز الحبلوش وفريقه عن الفهم وأصول الخلاف المحترم.

ثم يقول الحبلوش: «ثم يصف إبراهيم بكل خسة وولديه إسماعيل وإسحاق بأنهم من البطاركة الأوائل وذلك فى كتابه رب الزمان. ص٣».

الحبلوش تصور كلمة بطاركة أنها سب وشتيمة فسبنى سامحه الله ووصفنى بما ينضح من إنائه، غير عالم أن «بطاركة» تعنى «آباء» من اللاتينية Pater، والكتاب المذكور كنت أبحث فيه فى التوراة، وأصحاب التوراة لايعرفون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف كرسل أنبياء، لأن أول نبى لديهم هو النبى موسى، وأما هؤلاء فهم آباء للشعب العبرى، ويطلق على زمانهم الزمن البطريكى أى زمن الآباء الأوائل للشعب العبرى، والبحث كان فى التوراة العبرية وعقائدها وليس فى الإسلام ولا فى القرآن، ولاعلاقة له بالإسلام من قريب أو بعيد.

بهذا العلم الغزير والأدب الرفيع يتزعم الحبلوش جبهة من أمثاله، وبهذا يكفرون الناس ويهدرون دمائهم ويصدقهم العوام وينفذ الحكم نجار مسلح أو سباك، هذه أمامكم لغة حوارهم، وهذا قدر علمهم، وبهذا الزاد يريدون الوصاية على البلاد والعباد.

والجهل - كما تعلمون - أنواع: منه الجهل البسيط، ومنه الجهل المركب، ومنه ماقتل.

المحتويات

قضاء يسحق العدالة		
نظام قضائي ضد الإصلاح السياسي في السعودية	تأبط خيرا	٢٠٠٦
الوجه الآخر للخلافة الإسلامية	سليمان فياض	٢٠٠٦
كتاب النميمة	سليمان فياض	٢٠٠٦
حكايات المجاورين	سليمان فياض	٢٠٠٦
أهل الدين والديمقراطية	د. سيد القمني	٢٠٠٦
الإخوان المسلمين في الميزان	محمد حسن أحمد	٢٠٠٦
الشيعة والسنة بين التاريخ والسياسة	د. محمد عبدالعظيم	٢٠٠٦
تحولات الحركة الإسلامية والاستراتيجية الأمريكية	د. كمال حبيب	٢٠٠٦
موقف القرآن من خصومه	د. عمر عبدالرحمن	٢٠٠٦
النوبة «اللامعقول في بلاد الإتر والفول»	حجاج أدول	٢٠٠٦
ماذا تريد أمريكا للشرق الأوسط	شهدي عطية الشافعي	٢٠٠٦
إخلعوا الأقنعة	لنين الرملي	٢٠٠٦
في بيتنا شبح	لنين الرملي	٢٠٠٦
حلاق الشرق	ترجمها عن اليابانية: د. وليد فاروق	٢٠٠٦
كافافي.. الشاعر والمدينة	وسام الدويك	٢٠٠٦
السنة النبوية حقيقة قرآنية	محمد السعيد مشتهرى	٢٠٠٦
أهل الدين ... و الديمقراطية	د. سيد القمنى	٢٠٠٥
سوسيولوجيا الفكر الإسلامى		
طور الانهيار (٤) الفكر التاريخى	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
المجلد العاشر محاولة تنظير	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
الخطاب الدينى المعاصر بين التقليد والتجديد	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
مقاربات نقدية فى الفكر والأدب	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
اخوان الصفا بين الفكر والسياسة	أحمد صبرى السيد	٢٠٠٥
الشعائر بين الدين والسياسة فى الإسلام والمسيحية	روبير بندكتى	٢٠٠٥
لاهوت التحرير رؤية عربية إسلامية مسيحية	الأب وليم سيدهم اليسوعى	٢٠٠٥
المصريون والتشيع الممنوع	د. أحمد راسم النفيس	٢٠٠٥
قضية الأجيال تحدى الشباب المصرى عبر قرنين	د. أحمد عبد الله رزة	٢٠٠٥
الديمقراطية المقيدة إنتخابات الرئاسة الأمريكية	د. منار الشوربجى	٢٠٠٥
سلام النساء - ليزيستراتى	لينين الرملى - أريسطوفانيس	٢٠٠٥
الفراشة التى خلفت وعدها	أطفال - مترجم عن اليونانية	٢٠٠٥
رواية ترميم قضية أحمس	مجيد طوبيا	٢٠٠٥
نور الدين بومبه	ترجمة: ينى ميلاخرينودى	٢٠٠٥
الجماعات الاسلامية (رؤية من الداخل)	منتصر الزيات	٢٠٠٥
شكراً ... بن لادن !!	د.سيد القمنى	٢٠٠٤
الإسلام والعلمنه	د.عاطف أحمد	٢٠٠٤
هيكل بين الجريده والكتاب	د.وحيد عبد المجيد	٢٠٠٤
شيوخ بلا خناجر	د.عبدالعاطى محمد	٢٠٠٤
الأمركه والأسلمه	رضا هلال	٢٠٠٤
فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
الإسلام بين الدوله الدينيه والدوله المدنيه	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
نحو فكر إسلامى جديد	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤

جرائم الصفوه فى مصر	د.حنان سالم	٢٠٠٤
إبن البلد	ترجمة: د. نعيم عطية	٢٠٠٤
تجار القطن	ترجمة: د. عبدالمحسن الخشاب	٢٠٠٤
هوچوكى (يوميات راهب يابانى)	ترجمة: د. عادل أمين	٢٠٠٤
زنوبة اللهلوبة	توفيق خليل	٢٠٠٤
مناهضو العولمه	خالد الفيشاوى	٢٠٠٤
صعلوك يربح المليون	لينين الرملى	٢٠٠٤
أهدافنا الوطنيه	شهدى عطيه. عبد المعبود الجبيلى	٢٠٠٤
حروب أمريكا بين بن لادن وصدام حسين	د/ وحيد عبدالمجيد	٢٠٠٣
حكام العالم الجدد	ترجمه/إسماعيل داود	٢٠٠٣
تفكيك أمريكا	رضا هلال	٢٠٠٣
العداله البيئيه فى مصر	د/ عاطف كشك	٢٠٠٣
كلام فى الدين والسياسة	الاب/ وليم سيدهم	٢٠٠٣
ثقافه الفساد فى مصر	د/ حنان سالم	٢٠٠٣
الصحافه المصريه وقضايا الفساد	د/ حنان سالم	٢٠٠٣
إسرائيل والعلاقات مع العالم الإسلامى	د/ جهاد عوده	٢٠٠٣
العرب و ١١ سبتمبر	د/ عبد المنعم سعيد	٢٠٠٣
حوارات وتأملات سياسية	د/ عبد المنعم سعيد	٢٠٠٣
حواديت حصاوى	لينين الرملى	٢٠٠٣
كنيسه مهد المقاومه	عبد القادر يس	٢٠٠٣
رام الله التى عشتها حصاراً	خالد داود	٢٠٠٣
فلاحون و مؤسسات.	د/ عاطف كشك	٢٠٠٣
الوظيفه الاجتماعيه للماء فى الادب المصرى	مصطفى بيومى	٢٠٠٣
محطات	حسن فؤاد	٢٠٠٣
ضحايا الحداثه. أمريكا و العرب بعد ١١سبتمبر	د/ مأمون فندى	٢٠٠٣
الأغانى وحكاياتها	كريم العراقى	٢٠٠٣
كثر الحديث ديوان شعر	كريم العراقى	٢٠٠٣
صورة الإسرائيلى فى مصر	د/ عبدالباسط عبدالمعطى	٢٠٠٣
حكايات بغداديه مجموعه قصصيه	كريم العراقى	٢٠٠٣
ونسه مع الأدب النوبى المرأة والجنس	حجاج حسن أدول	٢٠٠٣
قلوب حائرة.	أشرف غريب	٢٠٠٣
الاعياد و الرموز مفاتيح لقراءة الكتاب المقدس	الأب/ كميل سمعان	٢٠٠٣
الصحافه الجامعيه	د/ غازى زين عوض الله	٢٠٠٣
هرش مخ	لينين الرملى	٢٠٠٢
تحب تشوف مأساه بالطبع لا	لينين الرملى	٢٠٠٢

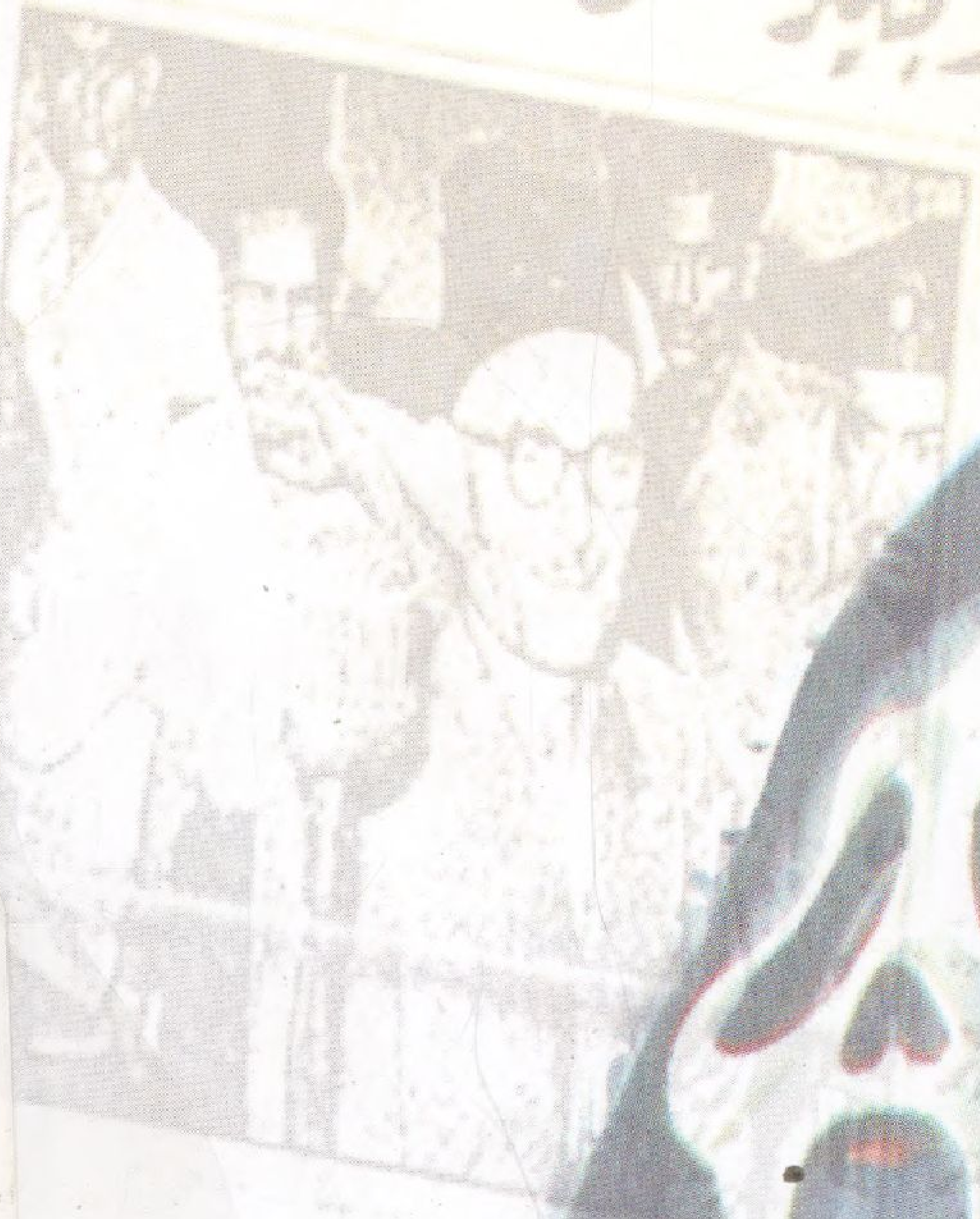
اعترافات خميس وكيل الاخوان

الهضيبي اختفى إلى أن يقع حادث الاغتيال





الاخوان اتفقوا مع الانجليز على احتلال القطر المصري كله



الشيخ فرغلي يقول لمحكمة الشعب

